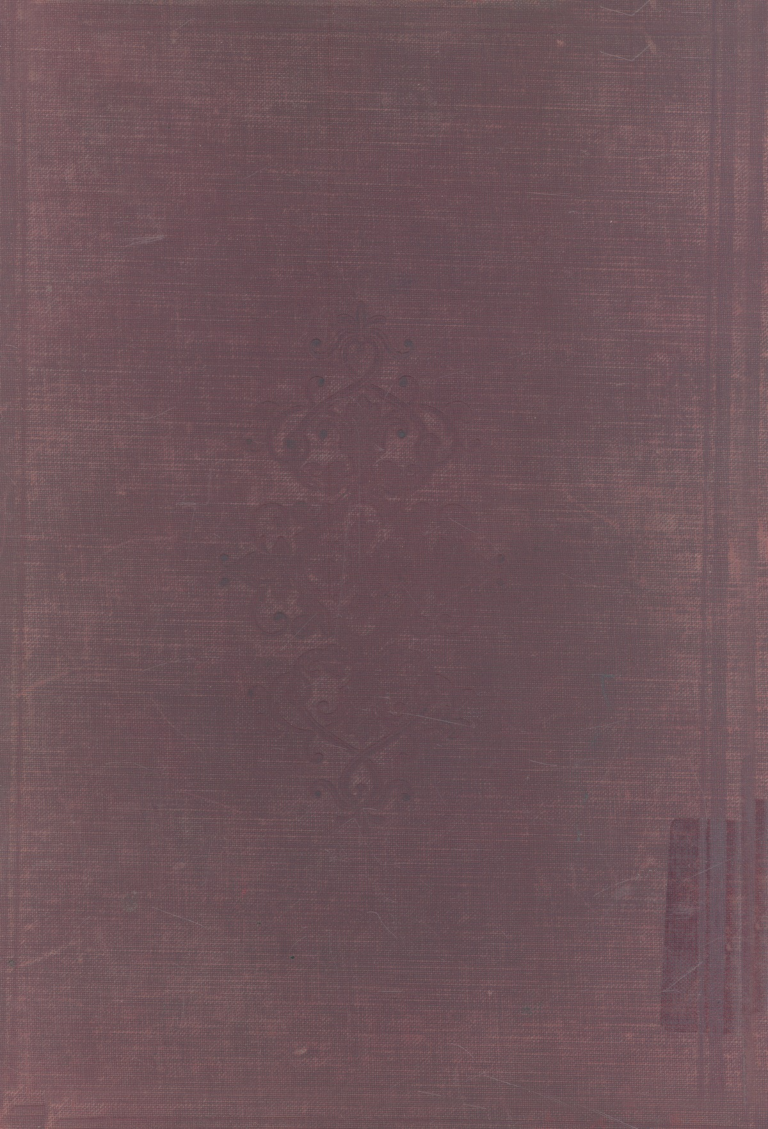
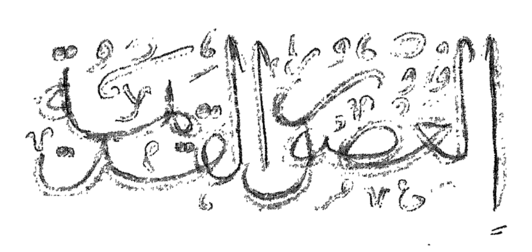



الفصول المهمة



وهو تمهيد لدرس التاريخ القديم واعمال الانسان الاول



تأليف

الدكتور جامس هنري برستد

استاذ تاريخ الشرق ورئيس دائرة اللغات والعلوم الشرقية في جامعة شيكاغو
وعضو اكاديمية العلوم في برلين

نقله الى العربية



احد اساتذة جامعة بيروت الاميركية

طُبع ثانيةً في المطبعة الاميركانية سنة ١٩٣٠

مقدمة المحرر والناشر

ان هذا الكتاب الذي نزفهُ الآن الى ابناء الشرق الادنى بحلّة عربية هو بلاء مراء افضل كتاب مدرسي في تاريخ العالم القديم باللغة الانكليزية ٠ ومؤلفهُ الاستاذ براستد اعظم مؤرّخ اميركاني كتب في تاريخ الشرق ٠ وهو من نخبة الكتّاب المجيدين في اللغة الانكليزية ٠ لهُ في الكتابة اسلوب انيق رشيق يخلب الالباب بجلاء معانيهِ ومتانة مبانيهِ

ولم يجدُ محرّر هذا الكتاب وناشرهُ على السعي في ترجمتهِ الى اللسان العربي مجرَّد الرغبة في ان يتحف طلبة العلم في الشرق بما طالما شعر انهم في حاجة اليهِ — بتاريخ عصري يشتمل على نبإ نشوء العمران في بلدان البحر المتوسط وتاريخهِ القديم — بل ان يعرّفهم ايضاً بمؤلفهُ الاستاذ براستد الذي لم يدّخر وُسعاً في جعل بلاد الشرق الادنى معروفة ومشهورة لدى الغرب ٠ فاذا كان هذا الكتاب يساعد على ايقاظ روح الحمية العربية في صدور ابناء الشرق الادنى ويحدوهم على الاهتمام بتاريخ بلادهم في العصور الاولى وبما حَبَت بهِ «المدنية الغربية» من الهبات الجسام ، فلا يكون ما بُذل في سبيل اعداده من الجهد والفكر قد ذهب سُدًى. واذا كان مع ذلك ينبّه مطالعيهِ الى قيمة الميراث الثمين الذي خلّفهُ اسلافهم للعلم والحضارة — ذلك الميراث الذي قاوى صروف الدهر ونكبات الحرب وعوامل الدثور وبقي الى ايامنا مخبوءا في اطلال وانقاض المدنيات السالفة التي تحدق بنا — كان في ذلك

خير جزاء للمحرّر والمترجم لانهما يشعران اذ ذاك بانهما قد ادّيا الى الناطقين بالضاد خدمة حقيقية

يميل المتطرّفون من اخواننا في الديار الاسلامية الى حسبان كل ما سبق مجيء النبي محمد كأنهُ مختصٌّ بعالم آخر غير عالمنا الحاضر فلا يستحق ان يؤبه لهُ كثيرًا . ولا يخفى ان ذلك قاتل لفهم تاريخ الشعوب الاسلامية فهماً صحيحاً . لان العمران والحضارة لم يبتدئا من عصر النبي . ومهما كانت التغيرات التي طرأت على احوال الشرق بعد ظهور النبي فان اسس الهيئة الاجتماعية ، وفكرة الحكومة الاساسية واصول الشريعة — جميع هذه وكثير غيرها من مظاهر الحضارة الشرقية قد دخلت التمدن الاسلامي متحدرة من ازمان قديمة سبقت ظهور الاسلام بعد تعديل طفيف طرأ عليها . فالحضارة ليست خَلقاً جديدًا وُجد بوجود الديانة الجديدة . وبالاختصار انهُ لا يمكن فهم تاريخ الشرق الادنى منذ ظهور الاسلام فهماً حقيقياً ما لم يرتكز ذلك على فهم تاريخ البلدان التي نشأت قبل زمان النبي فهماً جيداً لان تاريخ كل شعب من شعوب الارض هو وَحدة او حَلقة من سلسلة تاريخ السلالة البشرية

ولا تزال دماء الذين دانوا لسلطان الفراعنة ، وملوك بابل ، وامبراطرة اشور وبلاد الحثيين ، وامراء الحكومات المدينية في فلسطين وسورية ، تجري في عروق الشعوب الذين يقيمون في تلك البلدان التي كانت فيها كانات اولئك الاقيال العظام شرائع تجب الطاعة لها . والاخلاق والعادات الراسخة فيهم والظاهرة في حياتهم وافكارهم تمتدّ اصولها الى ازمان متراخية في القِدم وقد عجزت العوادي الدينية والسياسية عن ان تجتثَّ تلك الاصول . ونقول ولا نخشى الخطأ انهُ لو اقام سكان بلاد الشرق الادنى الآن في مدن اشور او فينيقية او مصر التي قد مرَّ على كيانها اربعة آلاف سنة لشعروا بانها وطنهم اكثر مما يشعر الجرماني او الفرنساوي او الانكليزي بان المدينة التي يقيم فيها ولم يمرَّ على وجودها اكثر من الف سنة ، هي وطنهُ . ولنا في هذه الحقيقة الناصعة اقوى حجة على طلبة العلم الشرقيين لوجوب مسارعتهم الى البحث والتنقيب عن تاريخ وطنهم الشرق القديم . وللمحرر امل كبير بان هذا الكتاب سيكون ذريعة فعّالة لاقناع مطالعيه ابناء الشرق الادنى بهذه الحقيقة الوضّاءة

ولما كان المؤَلف قد توخى في الطبعة الانكليزية لهذا الكتاب فائدة الطلبة الاميركان بنوع خاص اضطرَّ المحرّر الى تنقيح الاصل الانكليزي بالزيادة والحذف متوخياً في ذلك فائدة الطلبة من ابناء اللغة العربية . واذا كان قد وقع في اثناء ذلك شيء من الخطإِ في النسخة المنقحة فالمؤَلف براء منهُ وتقع تبعتهُ على الذين اصدروا الطبعة العربية

ويثني المحرّر ثناء طيباً على كل من ساعد في ابراز هذا المشروع الى حيّز الوجود ويخص بالثناء رصيفهُ الاستاذ داود قربان احد اساتذة العربي بالجامعة الذي قام بعبء الترجمة مواصلًا العمل بلا ملل الى النهاية، ورصيفهُ الآخر الاستاذ اسد رستم الذي بذل بسخاء كثيراً من وقتهِ في قراءة المسودات واعداد الخرائط فضلًا عن الملاحظات التي ابداها للمحرّر اثناء تنقيح الاصل الانكليزي . ولولا مساعدة هذين الرصيفين لما خطر على بال المحرّر ان يُقدم على عمل شاق كهذا

ويشكر المحرّر ايضاً للخواجات تجن وشركائهم اصحاب الطبعة الانكليزية تكرمهم بتقديم الرسوم التي زُيّنت بها الطبعة العربية . واذا كان بعضها غير جلي فليس الحق على الذين تكرموا بها . واخيراً يقدم المحرّر شكرهُ لصديقهِ واستاذه مؤلف هذا الكتاب لانهُ اذن بترجمتهِ ونشره . والمأمول ان روح المؤلف الطيّبة الغيورة تسري بواسطتهِ الى ابناء الشرق كما سرت منهُ الى تلاميذه من ابناء الغرب

هَرُلد نلسن

استاذ التاريخ سابقاً في جامعة بيروت الاميركية



كلمة للمترجم

لما رأى الدكتور نلسن ، استاذ التاريخ في جامعة بيروت الاميركية، ان مدارس الشرق الادنى في حاجة ماسّة الى كتاب مدرسي في تاريخ العالم القـديم مبني على اساس علمي متين عمد الى سدّ هذه الحاجة فاختار لذلك افضل كتاب في اللغـة الانكليزية وشرع في تنقيحهِ وتحريره حاذفاً منهُ ما لا حاجة لابن الشرق اليهِ ومضيفاً اليهِ ما حسب ان لا غنى لهُ عنهُ . ولم يكن ما حذفهُ وما اضافهُ بالشيء اليسير . فجـاء الكتاب طبق المرام . وبعد ان انجز عملهُ رغب اليَّ في ترجمتهِ الى العربيَّة فاحجمت اولاً عن ذلك لعلمي بصعوبة الترجمـة ولكن لشدَّة الحاحهِ والحاف نفر من اصدقائي عـليَّ استعنت الله وشرعت في الترجمـة . ولم اكد انجز ربعها حتى شرع المحرّر في الطبع . ولما نفد مـا كنت قد ترجمتهُ اصبحت كمن « يعيش من يده لفمهِ » فكنت كلما تهيأ لديَّ بضع صفحات بعثت بها الى المطبعة وشرعت في ترجمة غيرها حتى انتهيت من الترجمة وانتهت المطبعة من الطبع في وقت واحد تقريباً . على ان هذه المسابقة المطبعية لم تترك لي متسعاً من الوقت لتنقيح المسودات وتبييضها كما ينبغي

وتسهيلًا للدرس والمراجعة قسم المؤلف كتابهُ الى اقسام وفصول ونُبَذ وفقر . امـا الاقسام والفصول فلقلّة عددها كتبنا اسماءها بالالفاظ واما النبذ والفِقر فلكثرتها كتبناهـا بالارقام ورمزنا الى النبذ عند الاستشهاد بها في المـتن بالحرف « ن » بين هلالين مع ذكر عددها والى الفِقر بالحرف « ف » مع عددها بين هلالين ايضاً . ورمزنا الى الاشكال بالحرف « ش » بين هلالين

وفي الختام اشكر لصديقي ورصيفي الاستاذ اسد رستم مساعدتهُ لي في مقابلة الترجمة بالاصل الانكليزي وللشيخ نسيب مكارم الخطّاط الشهير اعتناءهُ بكتابة الاسماء على الخرائط بخطهِ العربي الجميل وكل ما كتب في الكتاب بالثلث فهو بخطهِ

وكان الانتهاء من الترجمة في ضهور الشوير في الخامس عشر من شهر آب سنة ١٩٢٦

مقدمة الطبعة الثانية

ما كادت تصدر الطبعة الاولى من هذا الكتاب وتقرّظها الجرائد والمجلات العربية وتهدى بعض نسخها الى المقامات العالية ووزارات المعارف في الحكومات العربية وبعض اقطاب العلم والفضل من ابناء اللغة العربية حتى جاءتنا رسائل التقريظ والثناء تترى محبِّذة عملنا فقبلنا الثناء الجميل بالشكر . وقررت وزارات المعارف في العراق وفلسطين وشرق الاردن الاعتماد عليهِ في تدريس التاريخ القديم فنفدت طبعتهُ الاولى في نحو ثلاث سنوات وهي امد قصير بالنظر الى قلة رواج الكتب العلمية في بلادنا . فتحققت بذلك الآمال التي منينا النفس بها يوم اقدمنا على نقل هذا الكتاب الى لغتنا العربية ونشطنا الى اصدار الطبعة الثانية بعد اعادة النظر على الترجمة والتنقيح اللازم واضافة بضعة رسوم جديدة الى الرسوم القديمة وتذييل بعض الفقر بما قضت الضرورة باضافتهِ اليها لزيادة الايضاح . ولكن لم يكن التنقيح الطفيف والتذييل المختصر لينقص شيئاً من قيمة الطبعة الاولى . فالكتاب باقٍ على تنسيقهِ القديم تماماً الاَّ ان عدد الصفحات في الطبعة الثانية قد اربى على عددها في الطبعة الاولى بسبب تغيير الحرف واضافة فهرس خاص للمواضيع

وقد سهوت في مقدمة الطبعة الاولى ان اخصَّ بثنائي وشكري صديقي الدكتور فيليب حتي استاذ اللغات الساميَّة بجامعة برنستن الشهيرة من اجل مساعدتهِ لي في مقابلة الفصول الاول من الترجمة بالاصل الانكليزي وملاحظاتهِ الثمينة

واشكر ايضاً لرصيفي الاستاذ الدكتور رستم مساعدتهِ هذه المرَّة ايضاً في مراجعة كثير من الملازم المطبوعة ولصديقي الاستاذ لبيب جريديني ناظر مطبوعات المطبعة الاميركانية مساعدتهُ في مراجعة الملازم في اثناء الطبع ولنسيبي جورج افندي اشقر الذي وضع الفهرس الخاص لهذه الطبعة التي نرجو ان تلاقي من الارتياح اليها والاقبال عليها ما لاقتهُ الطبعة الاولى

وقد اهملنا وضع جدول بالاغلاط المطبعية اعتمادًا على ذكاء المطالع

(داود قربان)

فهرس المواضيع العام

القسم الاول – الاوربيون الاقدمون

الفصل الاول – طلائع الجنس البشري

القسم الثاني – بلاد الشرق

الفصل الثاني – تاريخ مصر

سكان النيل الاقدمون وعصر الاهرام

الفصل الثالث تاريخ مصر عصر الاقطاع والامبراطورية

الفصل الرابع آسيا الغربية بلاد بابل

الفصل الخامس الاشوريون والكلدانيون

الفصل السادس مادي وفارس

الفصل السابع العبرانيون وتاخر الشرق

القسم الثالث ـ اليونان

الفصل الثامن فجر المدنية الاوربية وقيام البلدان التي على الساحل

الفصل التاسع فتح اليونان للعالم الايجي

الفصل الخامس عشر   اثينا في عصر بريكليس

الفصل السادس عشر

النزاع بين اثينا وسبارطة وسقوط الامبراطورية الاثينية

الفصل السابع عشر

المنازعات الاخيرة فيما بين حكومات اليونان وحياتهم العليا بعد موت بريكليس

الفصل الثامن عشر   الاسكندر الكبير

القسم الرابع

بلدان البحر المتوسط في العصر الهليني

الاسكندر وجمهورية رومية

الفصل التاسع عشر خلفاء الاسكندر

الفصل العشرون مدنية العصر الهليني

الفصل الحادي والعشرون

عالم البحر المتوسط الغربي وفتح الرومان لايطاليا

الفصل الثاني والعشرون

سيادة الجمهورية الرومانية في ايطاليا والمنافسة بينها وبين قرطاجنة

الفصل الثالث والعشرون

سيطرة رومية على العالم وما صحبها من الانحطاط

الفصل الرابع والعشرون قرن الثورات ونهاية الجمهورية

القسم الخامس

الامبراطورية الرومانية

الفصل الخامس والعشرون

اوّل قرني السلم · عصر اوغسطس وخلفائه

الفصل السادس والعشرون

قرن السلم الثاني ومدنية الامبراطورية الرومانية القديمة

الفصل السابع والعشرون قرن الثورة وقسمة الامبراطورية

الفصل الثامن والعشرون

انتصار البرابرة ونهاية العالم القديم

فهرس الخرائط

اصلاح خطإ

انما نترك للقــاري اللبيب اصلاح ما ورد في هذه الطبعة من الاغلاط لانهــا لست من الاهمية بشيء ولـكننا نوجه انظاره الى اصلاح ما يأتي

(١) صفحة ١٢ في الحاشية

يجب ان يـكون ما ورد في هذه النقرة هـكذا

(١) يقسم العصر الحجري الى ثلاثة اقسام

العصر الحجري القديم .... الخ
〃 〃 المتوسط .... الخ
〃 〃 المتاخر .... الخ

(٢) في صفحة ٢٧٥ عدد الفصل ٤٧ صوابهُ ٥٠
〃 〃 ٢٨١ 〃 〃 ٥٠ 〃 ٥١
〃 〃 ٢٨٢ 〃 〃 ٥١ 〃 ٥٢
〃 〃 ٢٨٤ 〃 〃 ٥٢ 〃 ٥٣
〃 〃 ٢٨٩ 〃 〃 ٥٣ 〃 ٥٤

العصور القديمة

القسم الاول

الاوربيون الاقدمون [1]

الفصل الاول

طلائع الجنس البشري في اوربا

١

جاهلية الاقدمين وتدرُّجهم في الحضارة

(١) تدرج الانسان في الاختراع والاقتناء

كلُّنا يعلم أنَّ آباءَنا وامهاتنا لم يروا في صِغرهم طيارة. والقليل منهم رأى سيارة . وقضى جدودنا معظم حياتهم بلا تلغراف ولا آلة خياطــة . ومات آباؤهم ولم يروا سكة حديد . فكانت اسفارهم اما سعياً على الاقدام او ركوباً على متون الخيل . فما توصل اليهِ الانسان من الاختراعات جاء تباعاً السابق منهُ يمهد السبيل للّاحق. وعلى هذه السُّنَّة تمشَّت الاختراعات حتى يومنا هذا

(٢) التاريخ القديم حكاية ما تم على يد الانسان من المآتي وما عقب ذلك من المنافسات الشعبية

اذا عدنا القهقرى في تاريخ البشر وصلنا الى زمان لم يستطع فيــهِ الانسان ان يصنع مركبة بسيطة لانهُ لم يقم قبلهُ من اخترع دولاباً ولا من راض فرساً بريًّا . واذا توغلنا اكثر

---

(١) آثرنا في تتبعنا خطوات الانسان في سبيل الترقي ان نبتدئ بسكان اوربا الاولين ليس لان اوربا هي اقدم مهد الجنس البشري بل لان معرفتنا باقدم الشعوب الاوربية تفوق معرفتنا باقدم شعوب القارات الاخرى ولان ما يصدق على شعوب اوربا الاولين يصدق معظمهُ على سائر الشعوب الاخرى في بقية البلدان

قليلًا في القِدم انتهينا الى عصر لم يكن فيهِ لدى الانسان سفن يقطع بها البحار تاجرًا او سائحًا ، ولا ادوات معدنية لان المعادن كانت لا تزال مجهولة · فلم يستطع انسان ذلك الزمان البعيد ان يقطِع الحجارة ويشيد المباني الجميلة الفخمة ولا ان يكتب لان صناعة الكتابة كانت لا تزال في عالم الخفاء . فعاش الانسان الاوَّل بلا كتب ولا مدارس ولا علوم ولا جوامع ولا كنائس ولا مستشفيات ولا شرائع ولا حكومة . فغرض هذا الكتاب ان يروي لمطالعيهِ باسلوب سهلٍ لذيذ كيف توصل الانسان الى معرفة هذه الاشياء وكيف تألف الخلق أُممًا وشعوبًا تنازعت الزعامة زمانًا حتى عراها الضعف بعد القوة والهوان بعد العزَّة فتقوَّضت اركانها وانهار بنيانها . فالقصة التي يرويها هذا الكتاب هي ما اصطلح الناس ان يسمُّوهُ بالتاريخ القديم

(٣) ابدأ الانسان بلا شيء ولا مذرب يرشدهُ

اذا تقهقرنا في تاريخ البشر مدَّة كافية بلغنا زمنًا في حياة الانسان لم يكن لهُ فيهِ ما يدافع بهِ عن نفسهِ ويقضي بهِ حاجاتهِ سوى يديهِ . والفينا انهُ اعجم طِمطِم لا يفهم ولا يُفهم . حتى النار لم يكن يعرف كيف يوقدها . ولا كان لديهِ من يعلِّمهُ شيئًا ، فاضطُرَّ ان يعتمد على ذاتهِ ويتعلم كل شيءٍ على هِينتهِ بالتجربة والاجتهاد والمزاولة ويستنبط كل ما كان محتاجًا اليهِ من الآلات مهما كان بسيطًا

(٤) في حياة متوحشي زماننا . صورة حياة اقدم البشر . التسمانيون وما عجزوا عن بلوغهِ

وربما يتوهم البعض ان ليس في هذا الزمان شعب من شعوب الارض بالغ درجة التوحش التي كان عليها اسلافنا الاولون . الا ان روَّاد الآفاق يقولون انهُ لا يزال موجودًا في بعض جهات المعمورة قبائل تشبهُ في خشونة حياتها وطرق معيشتها الهمجية اولئك الاسلاف الاقدمين . ومن تلك القبائل اهل تسمانيا منذ نحو مئة سنة حين وجدهم اولاً جماعة من سيَّاح الانكليز عراة وبلا مأوى لانهم لم يعرفوا كيف يبتنون لانفسهم مآوي لا من الحجر ولا من الشجر . حتى السمك لم يعرفوا كيف يصيدونهُ . ولم يكن عندهم معزٌ ولا ضان ولا بقر ولا خيل ولا كلاب ولا معرفة بالزراعة ولا الانتاج . ولم يكن عندهم اوانٍ خزفية لا جرار ولا اباريق ولا صحاف ولا صحون لانهم لم يكونوا يعرفون ان النار تطبخ الطين وتقسّيهِ

(٥) ما تعلمهُ التسمانيون

لم يعلم التسمانيون العراة الذين لا مأوى لهم الاَّ سدَّ القليل من حاجاتهم . الا ان ما تعلَّموه ولو كان طفيفًا دفعهم الى الامام ورفعهم درجات فوق اسلافهم الاقدمين . فانهم تعلَّموا كيف يوقدون النار لكي يطبخوا عليها طعامهم ويدفئوا اجسادهم في ابان البرد وكيف يصنعون حرابًا خشبية حادَّة ولو كانت بلا اسنَّة لعدم سمعهم بالمعادن . الاَّ انهم كانوا يركبون مكان الاسنة حجارة حادة . وبما انهم كانوا يحسنون الرماية بها استطاعوا

ان يقنصوا الوحوش والطيور طعاماً لهم ويُقصوا عنهم اعداءَهم من الناس . ولما اضطرتهم الحاجة الى سلخ ما يقنصون من الحيوان فتقت لهم الحيلة اختراع السكين فصنعوها من حجر الصوان لانهم لم يروا بين المواد المعروفة عندهم اصلح منهُ لهذه الغاية فكانوا يأخذون قطعة منهُ او شحفة ويرققون حدها بطرقها بحجر من المادة نفسها على الجانب المراد ترقيقهُ فيتقلّع منها شظايا رقيقة . وكانوا يثابرون على هذا العمل الى ان يتكوَّن من الشحفة سكين تُسلخ بها الحيوانات وتُقطَّع لحومها . وكانت لهم مهارة في حوك الفناجين والآنية والسلال من الياف لحاء (قشر) الشجر . وكانت لغتهم بسيطة الاَّ انها كافية للتعبير عن اغراضهم التي لم تكن كثيرة



الشكل ١ صورة جماعة من هنود اميركا يصنعون اسلحة من حجر الصوان

ترى الاخير من هؤلاء الرجال الثلاثة في الصورة يقتلع حجرًا كبيرًا من الصوان ليكون له المادة الاولى في صنع الحربة فيتناوله رفيقه الذي في الوسط ويضرب بواحد الصخور فيكسر قطعاً فيأخذ ثالث هؤلاء الرجال تلك القطع بيساره ويشرع بطرقها بحجر في يمينه فتتقلع منها شحف صغيرة ويظل يعالجها على هذا النمط حتى يرق حدُّها فتخرج من يده فأساً قاطعة . فهذه اقدم وابسط الآلات التي صنعها الانسان . وبعد مرور آلاف السنين حسَّن الانسان عملهُ من وجهين الاوَّل انهُ صار يعتمد في تقليع الشحف الصغيرة من حافات الحجارة التي يصنع منها الالات الحادة على الضغط بدل الطرق (شكل ٢) والثاني انهُ صار يرهف الحد بالشحذ اي بالسن (شكل ١٠ رقم ٥)

(٦) اوربا قبل التاريخ . هواؤُها وحيواناتها

ان سكان اوربا الاقدمين الذين عاشوا قبل زمن التاريخ لم يخرجوا من طور التوحش ويبلغوا ما بلغهُ التسمانيون من التقدم والرقي الا بعد ان هاموا في قفار الهمجية مئات الالوف من السنين . واوربا التي كانت وطناً لهم هي غير اوربا اليوم . فان غاباتها في ذلك الزمان البعيد كانت وارفة الظلال حافلة باسراب الظباء وقطعان المواشي وعصابات الطير التي تشاهد انسالها اليوم في الاصقاع الحارَّة من قارَّة افريقيا والهند تجوب ارجاءها انتجاعاً للقوت . وكان فرس الماء يتمرَّغ على ضفاف الانهار والكركدّن الشرس يخترق النباتات الاثيثة النابتة عليها . وكانت الافيال الكثَّة الشعور الطويلة (شكل ٧ رقم ٧) تجول في الادغال وقطعان الجواميس الكبيرة والخيول البرية تسرح في النجود الخصيبة والغزلان تمرح بين الغابات الغناء والطيور تغرّد على الافنان الاَّ ان الهواء كان حارًّا مشبعاً بالرطوبة يضعف الاعصاب ويوهن القوى

(٧) معيشة الاوربي الاوّل . الاماكن التي كان يرتادها . الاسلحة الخشبية وادواته

كان الاوربي المتوحش العريان يطوف بـين الغابات الحـارَّة متاصصاً يفتش عن قوتهِ اليومي . ولم يـكن قرتهُ سوى جذور النباتات البرية وثمارها وبزورها . وكان يسترق السمع لعلهُ يعثر على احد صغار الحيوان فيميتهُ بضربة من هراوتهِ . ولكنهُ بلا ريب كان يطلق ساقيهِ للريح مرتاعاً اذا سمع وقع ارجل احد الحيوانات الجبارة او عاين فيلًا كبيرًا يتغلغل في معابر الادغال

وكان ينام حيث يقتاده المصيد بعد ان يـكون مزّق لحمهُ والتهمهُ نيئاً الارض وطاؤهُ واديم السماء غطاؤهُ يرتجف خوفاً كلما سمع زئير النمر السيفيّ الناب لانهُ لم يكن لديه مـا يدافع بهِ عن نفسهِ ولم يـكن قد توصل الى معرفة اضرام النار ترويعاً للوحوش واقصاءها عنهُ

(٨) الانسان يتعلم اضرام النار واستعمال الحجار

وبعد زمان تعلم الانسان كيف يضرم النار التي ربما كان قد رآهـا اوّل مرّة مضطرمة بفعل كهربائية الصواعق في احدى الغابات التي كان يختلف اليها او كان قـد رأى لهبها من بعيد منبعثاً من فوّهة احد البراكين المجاورة لبحر الروم فخاف منها . ولما تمكن من اضرام النار بادارة عصاهُ بسرعة بعد تركيز طرفها الواحد في ثقب شجرة يابسة ،حسب انـهُ خطا خطوة مهمة في سبيل الترقي والتقدم مع انهُ ليس في المسألة سرٌّ عجيب لان الحرارة المتولدة بالاحتكاك كافية لاشعال الحطب الجاف . ولما بلغ الانسان هذه الدرجة من المعرفة صار يعالج طعامهُ بالطبخ ويدفئ جسده من الزمهرير ويقسّي رؤوس حرابهِ الخشبية بالنار . ولما لم يستطع تقسية حـدّ سكاكينهِ الخشبية الكالّة بالنار عمـد الى صنعها من الحجارة القاسية بترقيق حافاتها حتى توافق غرضهُ (شكل ١) . ثم اخذ يصنع ادوات اخرى واسلحة بسيطة من هذه المادة نفسها . وذلك قبل خمسين الف سنة او تزيد

(٩) تتبع سير الانسان القديم من الآثار الحجرية الباقية وادوات اخرى من صنع يديه

من الآن فصاعدًا نستطيع ان نرى بعيوننا ونلمس بايدينا نفس الالات والادوات الحجرية التي كان يستعملها الانسان القديم — امدًا طويلًا — في غضون جهـاده العنيف لحفظ كيانهِ . وبما ان تلك الآثار الباقيـة كثيرة ومصنوعة في ازمان مختلفـة نستطيع ان نتتبع الخطة التي سار عليها صُعُدًا في الاطوار المختلفة التي تعاقبت على وجودهِ ،ونشاهـد علائم التقدم والترقي بادية للعيان سواء في صنع الادوات او في الصناعات الاخرى التي استتب لهُ معرفتها تدريجاً على توالي السنين . وقد قسم علماء العاديات العصر الحجري الى ثلاثـة ازمان متتالية . قديم ومتوسط ومتأخر . وذلك بالنسبة الى ما بلغهُ الانسان في كل منها من الترقي في سلّم المعرفة .

٣

العصر الحجري القديم

(١٠) جهل المتأخرين قبل الخمسين سنة الاخيرة طول المدة المديدة لوجود الانسان على الارض

ظلَّ الناس حتى الخمسين السنة الاخيرة يحسبون تاريخ الانسان بالنسبة الى سواهُ قصير الامد . وشاع بينهم الاعتقاد انهُ لم تبقَ آثار تــدلُّ على قِدم وجوده . وبقي هذا الاعتقاد شائعاً حتى وجدوا رقيماً قديم العهد كُتب في لندن منذ مئتي سنة جاء فيــهِ ان بائع ادوية وجد في جبّ في طبقة حصوية بجــوار لندن عظام فيل ووجد على مقربة منها رأس حربة صوَّانية . ومع ان هــذا الرقيم طُبع في الحال مرسومةً فيهِ صورة رأس الحربة ، لم يبال بهِ احد وعما قليل تُنُوسي امرهُ بالكلية . وهكذا كان نصيب الاكتشافات التي من هــذا النوع مدة قرن كامل سواءٌ في انكلترا او في بلدان اوربا الاخرى ولم يتنبَّه اهل العلم الى الحِقبــة الطويلة منذ وُجد الانسان على الارض الاَّ قبل خمسين سنة بعد ان رأوا كثــيرًا من البينات في غضون مدة لا تقل عن مئة وخمسين سنة

الشكل ٣ صورة فأس يدوية من الصوان من بقايا العصر الحجري القديم . وهي شظايا من الصوان في حالتها الخشنة ترينا اجتهاد الانسان القديم في تسوية وهندمة الحجارة . كانت الفأس اليدوية اقــدم الآلات التي احكم صنعها الانسان القديم . وكان طول اول فأس ٢٢ سنتيمترًا ولكنها في الصورة تظهر بثلث حجمها الاصلي . وهي قاطعة من طرفيها . كانوا يمسكونها من طرفها الاضيق بلا مقبض ولذلك دعوها بالفأس اليدوية . ولم يكن الانسان يعرف شيئًا عن المقابض الخشبية والعظمية الاَّ بعد ذلك بمدات طويلة (انظر شكل ١٠ رقم ٤ و٥) ويشاهد على هذه الفؤوس آثار الانبراء لكثرة الاستعمال

(١١) صياد والعصر الحجري القديم

ان اعمال الحفــر والتنقيب عن الآثار ولا سيما في فرنسا قد كشفت الغطاء عن الوف من الآلات الحجرية التي تدل دلالة واضحة على تقدم الانسان الصيَّاد في هذا العصر الذي توصل فيــهِ الى معرفــة تكسير الحجارة شِحَفاً صغيرة . واذا دققنا في درس الآلات الحجرية المحفوظــة في متاحف اوربا رأينا كيف كان الانسان القديم كلما توصّل الى صنع آلةٍ اكثر اتقاناً مما سبقها من الآلات يهمل القديم البسيط ويتمسَّك بالجديــد حتى توصل اخيرًا الى صنع آلة متقنة جــدًا بالنسبة الى ما سبقها من الآلات وصالحة للاستعمال في شؤون كثيرة

طولها من ٢٠–٢٥ سنتيمترًا (شكل ٢) وهي تستدقُّ من اعلاهـا وتعرُض تدريجًا حتى اسفلها . وقد كانت ماضية فتمكن بها من قطع هراوته من الغابة واقتلاع الجذور وبتر الغصون التي كان يقتات بها ومن صُنع القدة الخشبية التي كان يخرج بها النار من مكامنها . وقد وُجدت هذه الفؤوس في اماكن كثيرة في اوربا وسائر بلدان الدنيا . وهي اول اختراع لاسلافنا الاقدمين بقيت آثارهُ الى ايامنا

(١٢) الصعوبات التي قامت هذا في وجه انسان العصر الحجري القديم

وظلَّ الاوربي المتوحش قبل عصر التاريخ الوفًا من السنين في جهادٍ عنيف ضد الاخطار المحدقة بهِ والموت الذي كان يجرفهُ جرفًا حتى كاد ييأس من الحيـاة . وبالتدريج اتقن في غضون تلك السنين صنع الفؤوس اليدوية من الحجر . ويرجح انهُ زاد عليها ادوات أُخرى من الخشب لعبت بها ايدي الفناء فلا نعلم من امرها شيئًا . ولم يكن لذلك السلف العريق في القدم شيء من الممتلكات التي تمتَّع بها اعقابهُ المتأخرون . فحقول الحنطـة الفسيحة في اوربا الحديثة والمدن الزاهرة الحافلة بالسكان كانت لا تزال وراء حجب المستقبل البعيد . وكان يستحيل عليهِ ان يخترق ببصره تلك الحجب ويرى مـا وراءها مما خبأه المستقبل كما يستحيل ذلك علينا الآن . ورأى نفسهُ وحيـدًا طريدًا مضطرًّا ان يشـير حربًا عوانًا على العجماوات التي كانت معادية لهُ . فلم يكن لديه كلب ولا خروف ولا طائر اليف ليمد اليهِ يد الحنان . وقضت عليهِ حالهُ بان يكون دائم الحذر من عدوّ مفاجيء سواءٌ كان من بني جنسهِ او من الوحوش الضارية . وكان سلف الكلب الذي هو الآن رفيـق الانسان حيث وُجد لا يزال ذئبًا . كان ابن آوى يغدر بالانسان كلما سنحت لـهُ الفرصة وكان الفرس لا يزال سائمًا في البراري والقفار لا يألف احدًا (شكل ٨)

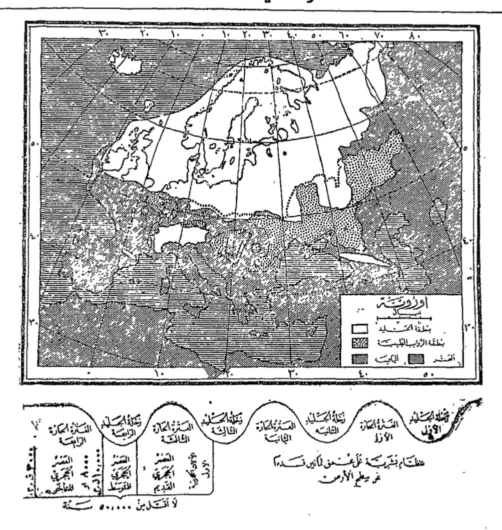
(١٣) زحف الجليد

وبعد زمان اخـذ انسان العصر الحجري القديم يلاحظ ان درجة حرارة الاقليم الذي كان يعيش فيهِ آخذة في الهبوط وان الجليد الذي كان يحيط باقطار القطب الشمالي ويكلل رؤوس جبال الالب بادىءٌ بالانحدار رويدًا رويدًا . وبعد مدة غطَّى الجليد انكلترا حتى ضفاف نهر التيمس ، وانساقت قطَعهُ الهائلة المنقدَّة من جبـال الالب في وادي الرون حتى بلغت موقع مدينة ليون الحالي (انظر الخريطة الاولى) ويُعرف الحدّ الجنوبي الذي انتهى اليهِ الجليد في قارَّة اميركا الشمالية ، من صفوف الحجارة الهائلة التي جرَّها في اثناء زحفهِ على البلاد حتى لُنغ ايلاند (Long Island) جنوبـاً ووادي اوهايو ومسوري غربًا . اما سبب زحف هذا الجليد فلم يستطع علماء الجيولوجية التعليل عنهُ حتى الآن . ولدينا بينات جلية على تعاقب ادوار جليدية في قارَّة اسيا كالمذكورة آنفًا امتدَّ الجليد في خلالهـا من رؤوس

جبال ارمينيا وبلاد العجم وپامــير وهندكوش في اسيا الوسطى حتى البطاح التي كان يقيم فيها الانسان . فانقرضت الاحياء الى حين في جميع الاماكن التي بلغها الجليد . اما الكوَر المحيطة بالجليد فتحولت الى قفر يباب استولى عليهِ زمهرير القُطب

(١٤) انتهاء العصر الحجري القديم

شاهــد الانسان القنّاص بعينهِ قطع الجليــد الهائلة ترحف نحو الغابات تقصِّف اغصانها وتكسِّر أشجارها وتحرمهُ المعيشة في اماكن ألفها وطاب لهُ سكناها والقنص فيها ورأى بعينيهِ كثيرًا من الحيوانات التي كان ألف مرآها تفرُّ هاربة نحو الجنوب ترتاد اماكن دفيئة . اما هو فلبث في مكانهِ مؤثرًا البقاء واعتياد البرد القارس على الفرار . وكان هذا الانقلاب الذي طرأ حــدًّا لنهاية العصر الحجري القديم وبــداءة العصر المتوسط . وبقيت الفؤوس اليــدوية التي استعملها صيادو العصر الحجري القديم وعظــام الحيوانات الهائلة التي كانوا يذبحونها ، مبعثرة بين الرمل والحصى على جوانب الاودية التي كانت تجري فيها انهار فرنسا فيما مرَّ من الازمان قبل عهد التاريخ وقبل ان شقَّت مجاريها الحالية العميقة بفعل المياه . وكلما كشف لنا الزمان شيئاً من هذه الآثار التي ظلَّت ادهارًا مخبوءة في طبقات الارض اطَّلعنا على فصول جديدة مدهشة من تاريخ الانسان العجيب وما بلغهُ من الارتقاء والسؤدد في ادواره الاولى حتى سلمتهُ الطبيعة قيادها وملَّكتهُ زمامها . وقد صَحِب زحف الجليد على مساكن الانسان ، تقدم وارتقاء لم يكونا في الحسبان فكان زحفهُ نعمة بصورة نقمة



رسم خريطة اوربا في العصر الجليدي وشكل هندسي تظهر فيه
زحلات الجليد الاربع

في غضون العصر الجليدي تقدم الجليد وتقهقر اربع مرات اي انه وُجد اربع مدات ساد فيها الزمهرير وكان يعقب كلاً منها فترة طويلة تسود فيها الحرارة . ويدل على مدات الزمهرير والحرارة بنزول وطلوع الخط المتماوج في الشكل الهندسي . ونحن الآن عائشون في الفترة الرابعة الحارّة والامر واضح ان البشر شرعوا يصنعون فؤوساً يدوية في احدى الفترات الحارّة . وقد استصعب علماء الجيولوجية والآثار القديمة ان يعينوا في اية فترة من هذه الفترات كان ذلك . وذهب بعضهم الى انها الثانية . فاذا صح ذلك يكون البشر قد ابتدأوا بصنع الآلات الحجرية قبل الآن بمئتي الف سنة الاّ ان معظم اهل البحث يعتقدون ان صنع الآلات الحجرية ابتدأ في اول الفترة الحارّة الثالثة اي في الفترة السابقة للتقدم الجليدي الاخير . وبحسب هذا الزعم يظن ان صنع الآلات الحجرية ابتدأ قبل خمسين الف سنة . ولكنّ الاستاذ هنري ازبورن يزعم في مؤلّفه النفيس الموسوم باهل العصر الحجري القديم بان اقدم الآلات الحجرية صنع قبل مئة وخمسة وعشرين الف سنة او تزيد . ويجعل ذلك في الفترة الحارّة الثالثة

٣

العصر الحجري المتوسط

(١٥) صناعات انسان العصر الحجري المتوسط . ترقيق حد الآلات بالضغط واستنباط آلات من عاج وعظم

لما لم يكن الصيَّاد قادرًا ان يبتني لنفسهِ مأوى يقيهِ قَرس البرد لجأ الى المغاور والكهوف التي كانت الطبيعة قد اعدَّتها لهُ في سالف الدهور ، في قلب الصخور الكلسية ، فاتخذها مساكن لهُ ولاعقابهِ من بعدهِ الوفاً من السنين . ولنتصوره الآن واقفاً امام باب كهفهِ يهندم آلاتهِ ويرقق حدودها وقد اهمل الفأس اليدوية لانهُ صنع احسن منها وتوصل الى اصطناع آلاتٍ متنوعة من الصوان بالضغط بقطعة عاج على حجر الصوان فكان لهُ الازاميل والمطارق والمثاقب والمصاقل والمكاشط (شكل ٣) وتمكن بالآلات الجديدة الحادَّة من تقطيع العاج والعظام والقرون ولا سيما قرن الرنَّة . اما العاج فكان يُمدُّهُ بهِ الماموث (شكل ٧ رقم ٧) وهو ضرب من الافيال البائدة . واما القرون فن

يشاهد من اليمين الى اليسار صوَر سكاكين ورؤوس سهام ومكاشط ومثاقب وآلات أُخرى حادة وفي جميعها تظهر حذاقة صانعيها الذين تمكنوا من ارهاف حدودها بعد تكسير الشظايا من جوانبها حتى ترق بقدر ما يريدون . وكان يتمُّ التكسير بمجرد الضغط لا بالطرق كما كانوا يفعلون قبلاً لان الصوان تَصمٌ فاذا ضغطت قطعة منهُ بقطعة عظام تطايرت منها شُحيفات صغيرة تختلف حجمًا بحسب القوة الضاغطة . (شكل ١ و ٢)

الشكل ٣ آلات واسلحة صوانية صنعت في العصر الحجري المتوسط

(١) كثر وجود الرنة في هذا العصر حتى دعاهُ علماء العاديات الفرنساويون "بعصر الرنة"

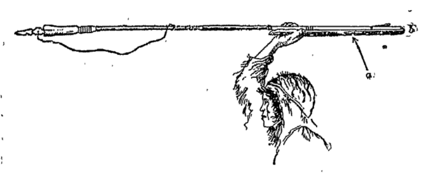
الحيوان المعروف بالرنّة [1] الذي ساقهُ الجليد جنوباً قطعاناً كبيرة وكان على جانب من الالفة للانسان حتى كان يدنو من غاره ويرعى في جوارهِ غير هيّاب (شكل ٧ رقم ٣—٥)

(١٦) اسلحة صياد العصر الحجري المتوسط الجديدة وكسوتهُ من الجلود

ولما استتب لصياد هذا العصر الذي نحن بصدده آلات جديدة امضى من التي كانت قبلًا في حيازتهِ عمد الى صنع نصال عقفاء من العاج ركّبها في عيدان من خشب كعيدان الرماح استواء . ثم قادهُ الفكر الى استنباط القوس والنشاب وآلة بديعة لتقويم أوَد سهامهِ وعيدان حرابهِ . واخترع عصاً من العاج مكّنتهُ من رشق حربتهِ الى مسافة ابعد من المعتاد وبقوَّة اعظم (شكل ٤) . وكان حيثما توجه يحمل في منطقتهِ خنجراً من الصوان يدافع بهِ عن نفسهِ . ومن هذا العصر اخذ الانسان يخيط الجلود ويكتسي بها اتقاء البرد والنباتات الشائكة بدليل وجود الابر العاجية (شكل ٥) بين الآثار التي ابقت عليها الايام

(١٧) معيشة صياد العصر الحجري المتوسط

وبعد ان تسلّح صياد العصر الحجري المتوسط باسلحتهِ الجديدة صار عدوًّا مخيفاً للوحوش يُرهَب جانبهُ اكثر مما كان يُرهَب جانب اسلافهِ . وقد وجد الباحثون عن الآثار في كهف واحد في جزيرة صِقلّية عظام الفي فرس ماء مما قنصهُ صيادُو العصر الحجري المتوسط . وعثروا في فرنسا على طبقة من الارض وجدوا فيها عظام كثير من الخيل البرية (شكل ٧ رقم ٦) التي ذبحها واكلها طائفة من ابناء العصر المذكور وطرحوا عظامها حول نيران محلّتهم ركاماً عظيماً . وبلغت مساحة الطبقة التي وُجدت فيها هذه العظام ٣٦٠٠ متر مربع وسُمكها مترين . ووجد الباحثون بين تلك البقايا صفّارة العظم التي كان يعلن بها الصياد عودتهُ الى عائلتهِ التي كانت تنتظره متضوّرة جوعاً . وكان عند وصولهِ يلج باب كوخهِ زحفاً على بطنهِ بين كوَم القمامة وفضلات اللحوم النتنة المنبعثة منها روائح تقزّ منها النفس ويعافها الشمّ .



الشكل ٤ احد اسكيمو العصر يقذف رمحهُ بواسطة عصا الرماية

يوضع الرمح في تجويف العصا (a) التي يقبض عليها الصياد عند احد طرفيها . وعند الطرف الآخر (b) كلّاب يتصل بزج الرمح . فحين يهوي الصياد يده الى الامام ينطلق الرمح ويظل هو قابضاً على العصا الجوفاء . وفائدة هذه العصا هي انها تطيل الساعد . واطالة الساعد تزيد القوة دفعاً والمدى بعداً حين انطلاق الرمح . ولا يجد تلاميذ المدارس صعوبة في صنع مثل هذه العصا واستعمالها (انظر فقرة ١٦)

كان يجلس في كهفهِ مع اسرتهِ غير عالم بما كان تحت ارض الكهف وعلى عمق بضعة امتار، من آثار السلف المتراكمة منذ الوف السنين (شكل ٦)

(١٨) اكتشاف فن النقش والرسم والتلوين في العصر الحجري المتوسط

ومن الغريب ان صيادي العصر الحجري المتوسط مهروا جدًّا في فنون النقش والرسم والتلوين • رُوي ان احد اشراف اسبانيا دخل كهفاً في عقار لهُ في شمال البلاد واخذ ينقّب فيهِ فعثر على ادوات من الصوَّان والعظام • وكانت ابنتهُ معهُ تلعب في احدى زوايا الكهف المظلمة • فحانت منها التفاتة الى السقف وللحال صرخت بملء صوتها ثيران ثيران! ثيران! ثيران! مشيرة باصبعها الى السقف • فاجفل الوالد ايما اجفال والتفت الى حيث اشارت فراعهُ ما رأى وتوقف عن التنقيب • رأى صورة صِوار من الجواميس البرية مرسومة على الصخر بالوان ثابتة لم تقوَ على ازالتها الايام ولا السنون التي لا تقل عن عشرة آلاف سنة مرَّت على رسمها على سقف الكهف دون ان تراها عين بشرية حتى قُيِّض لابنة صغيرة ان تراها وتدل اباها عليها

(١٩) الديانة والحياة

ولدينا غير ما ذكرنا قليل من البينات على وجود حياة عليا بين ابناء العصر الحجري المتوسط • منها الاعتقاد بوجود كائنات الهية والايمانُ الساذج بحياة النفس بعد انفصالها عن الجسد • فكانوا اذا مات احدهم يدفنونهُ تحت الموقد حيث كان يجتمع مع عائلتهِ كلما عاد مرةً من القنص ليشاركوهُ في ما يكون قد جاءهم بهِ من الصيد، ويدفنون معهُ ادوات زينتهِ وآلات صيده • وقد وجد الباحثون عن الآثار كثيرًا من رُفات الاسلاف الاولين مطمورًا في طبقات الكهوف مُنضَّدًا بعضهُ فوق بعض بحسب مرور الزمان عليهِ (الشكل ٦)

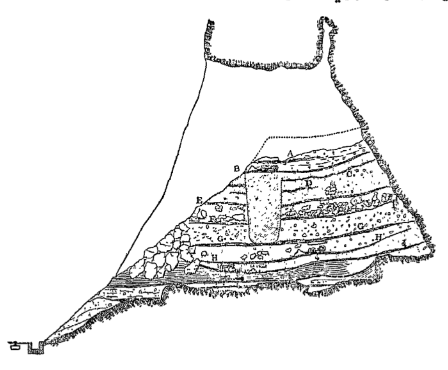
الشكل ٥ ابرة عاج من بقايا العصر الحجري المتوسط

ابر كهذه كثيرة الوجود بين القامات في كهوف فرنسا حيث فقدها نساء الصيادين ولم يجدنها بعد فقدها ووجودها بهذه الكثرة دليل على ان النساء كنَّ في هذ العصراي قبل عشرين الف سنة يخطنَ جلود الحيوانات البرية اكسية لعيالهنَّ

(٢٠) تقهقر الجليد في العصر الحجري المتأخر

وقبل عشرة آلاف سنة اخذ الجليد بالتقهقر تدريجيًا صوب الشمال وظلَّ يتقهقر حتى بلغ دائرة العرض التي هي حدُّهُ الحالي • يستنتج ذلك من العلامات التي غادرها ولا تزال تُشاهد في اوربا حتى اليوم • اما سبب هذا التقهقر فيُعزى الى ارتفاع درجة الحرارة الى ما هي عليهِ الآن • وبعد هذا التقهقر والارتفاع دخل انسان العصر الحجري المتوسط الاوربي طورًا جديدًا من حياتهِ وصارت احوالهُ طبيعية • فساعدهُ ذلك على الاستمرار في خطة الابتكار

والاصطناع والجهاد اعتصارًا للرزق من قلب الجماد حولهُ واتباعاً لسنَّة تنازع البقاء . وبذلك انتقل الى ما يسمونهُ بالعصر الحجري المتأخر [(١)]



الشكل ٦ صورة قطاع كهف من العصر الحجري المتوسط ترى فيهِ طبقات الانقاض وما تضمنتهُ من آثار الانسان

موقع هذا الكهف في جريمالدي بايطاليا على ساحل البحر المتوسط قرب تخوم فرنسا ومدخلهُ الى جهة اليسار وجداره الخلفي الى جهة اليمين . ترى ارض الكهف الاصلية في القعر وفوقها طبقات القمامة المتراكمة على مرّ السنين التي تبلغ سماكتها تسعة امتار (فقرة ١٧) من الخط الاسود A الى الخط I طبقات من الرماد الخ . بقايا نيران تسع مواقد متعاقبة ظلت كل واحدة منها مستعرة سنين كثيرة . والطبقات التي تُرى انها اثخن وهي الفاتحة اللون متكونة من عظـام حيوانات وقمامة وحجارة سقطت من سقف الكهف على مرور الزمان . وسفلى الطبقات تحت I تشتمل على كثير من عظام الكركدنّ (مما يدل على ان الاقليم حارّ) وعلياها تتضمن عظام الرنة (مما يدل على ان الاقليم بارد) فاسفل الصورة يمثل لنا العصر الظراني القديم واعلاها العصر المتوسط منهُ (او عصر الرنة) (ف ١٥) وقد وجد المنقبون في الطبقات المذكورة اربعة مدافن B وC وH وI ووجدوا في الطبقة C رمتي ولدين واسفل هذه القبور وجد على عمق سبعة امتار من سطح طبقات الكهف . والجماجم المختلفة قبل عصر التاريخ ترينا ان اجناساً عديدة من الناس وشعوباً مختلفة تعاقبت في هذا العصر الحجري وقد اغفلنا ذكرها في هذا الكتاب لضيق المقام وفرارًا من صعوبة البحث في اصلها وفصلها . واقتصرنا على ذكر تقدمها وترقيها في الآداب والمعرفة ذكرًا اجماليًا

---

(١) يقسم العصر الحجري الى ثلاثة اقسام

العصر الحجري القديم (رُقق فيهِ حدُّ الآلات بالطرق } سماهما علماء العاديات بالعصر الظرّاني القديم
العصر الحجري المتأخر (" " " بالضغط }

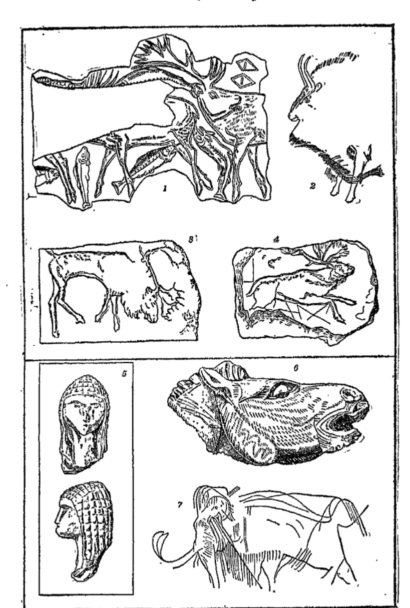
العصر الحجري المتوسط (رُقق فيه حدّ الآلات بالشحذ) سماهُ علماء العاديات بالعصر الظرّاني الجديد

٤

العصر الحجري المتاخر

(٣١) توزع ما بقي من آثار انسان العصر الحجري المتاخر في اوربا

ان آثار انسان العصر الحجري المتأخر متوزعة في جزء كبير من اوربا . فحين نروم درس تلك الآثار الباقية يجب ان نوجه النظر الى اوربا جمعاء ولا نحصر دائرة البحث في فرنسا وما جاورها كما فعلنا حتى الآن . كانت القبائل القديمة تؤثر الاقامة على ضفاف الانهار والبحيرات والبواغيز التي تُعدّ مداخل البلدان ويستحيل تعيين اجناس القبائل التي عاشت في بلدان اوربا المختلفة مدة العصر الحجري المتأخر



الشكل ٧ نقوش في العاج (١ و٣ــ٧) والصخر على جدران الغار (٢) نقشها صيادو العصر الحجري المتوسط

ان اقدم اعمال الصناعة التي قام بها الانسان صنع قبل عشرة آلاف او خمسة عشر الف سنة (١) الرنة وضرب من السمك المسمى حوت سليمان ــ عودة القناص والصياد (٢) ذكر جاموس محصور ويتهيأ للهجوم (٣) الرنــة يرعى (٤) الرنــة يركض (٥) راس امرأة وجاهاً وعن جانب (٦) راس حيوان بري يجمحم (٧) صورة الماموث وهو من الحيوانات المنقرضة تظهر فيها ناباه الهائلتان وشعره الطويل

(٣٢) منازل اهل العصر الحجري المتأخر الاولى في الدنمارك

ان اقدم منازل اهل العصر الحجري المتأخر وجدت على سواحل الدنمارك . هناك وجدت اكواخ السكان المعروفين بالشماليين القدماء محبوكة من غصون الشجر ومبثوثة صفوفاً على طول الساحل . اننا لا نعلم من اي جنس كان هولاء الشماليون الاولون لكننا نعلم يقيناً انهم كانوا من اهل القنص وصيد السمك . وكان لديهم قوارب ضخمة يمسكون بواسطتها كثيراً من الحيوانات الصدفية كالحلزون وغيره . وكانوا في البر يقنصون الخنازير والثيران البرية من الغابات المجاورة وطيور الماء من الاراضي الغمقة . وكان الاقليم في ذلك الزمان بارداً ربما ابرد مما هو الآن . وكان هولاء متى أووا عند الشفق الى اكواخهم يجلسون حول نيرانهم المشبوبة يلتهمون لحوم ما قنصوهُ وصادوهُ ويطرحون الاصداف وعظام الغزلان والخنازير جانباً فيتألف منها على كرور الزمان كوم ينبعث عنها اخبث الروائح واتنها . وعلى مرور الايام تراكمت تلالاً على موازاة الشاطىء مسافة مئات الاميال تشير الى خط النيران التي كانت تضرم قبل زمن التاريخ

(٣٣) تلال الصدف وما تعلمنا

ان كلًّا من هذه التلال هو اليوم عبارة عن مستودع لآثار الشماليين الاقدمين . والعظام والاصداف المدفونة في باطنها تدلّ على شدة فتكهم بالحيوانات البرية . وآثار اسنان الوحوش التي تشاهد على كثيرٍ من العظام دليل على ان الوحش المعروف بابن آوى كان يخرج من مخبإه في الغابة المجاورة ليتعرَّق العظام البارزة من جوانب التل . وكانت ألفتهُ للانسان تزداد على تمادي الايام حتى انهُ هجر اخيراً البرية واقام معهُ رفيقاً اميناً . وهو ما نسميهِ اليوم بالكلب

(٣٤) تلال الصدف تكشف الستار عن بعض الصنائع . اقدم الفخار في اوربا . بعض الآلات الحجرية المرهفة على المسن او حجر الشحذ

ان وجود قطع الاجر والصلصال المطبوخ بالنار بينة ناصعة على ان سكان شمال اوربا الاولين كانوا قد عرفوا — ربما من اهل الجنوب — ان النار تقسي الصلصال اذا عرّض لها فاصطنعوا آنية مختلفة وطبخوها فكان لهم منها الفخار. فاقدم انواعهِ إذن من صنع اوربا[١]. وهو من اهم ما ابتدع في العصر الحجري المتأخر . ومن اهم الاكتشافات في صدر هذا العصر إرهاف الآلات الفولاذية القاطعة بسنها على حجر الشحذ (المسن) . ونجد في هذه التلال اقدم الفؤوس الضخمة المرهفة الحدود (الشكل ١٠ رقم ٥) التي مكنت انسان العصر الحجري المتأخر من القبض على اعنة السيادة في البيئة التي عاش فيها . ففاق من سبقهُ من السلف تقدماً ونجاحاً

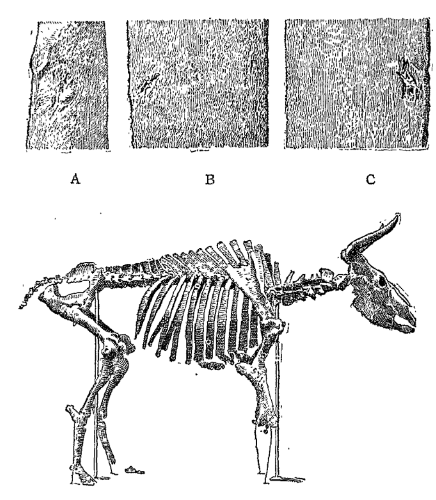
(١) يرجح ان صناعة الفخار اخترعت في اماكن متعددة من الارض على وجه الاستقلال وان المخترع حاول ان يصنع انية تضبط الماء ولا تحترق بالنار فطلى سلة بطين وصب فيها ماء ووضعها فوق النار فادته هذه الفكرة الى استنباط صناعة الفخار

(٣٥) ادوات انسان العصر الحجري المتأخر

وصار انسان العصر الحجري المتأخر كامل العدة كنجّار هذه الايام فكان لديهِ القدوم والازاميل والسكاكين والمثاقب والمناشير والمسانّ . معظمها مصنوع من الصوّان وبعضها من الحجر الاصم . وصار الانسان يستعمل مقابض للآلات التي لديه اما بربط المقبض بالآلة وشدّهما معاً او بثقب الآلة وادخال المقبض فيها . (الشكل ٥ و١٠) . ولما اكتشفت هذه الآلات في عصرنا هذا شوهدت كأنها مصقولة صقلاً ما يدل على استعمالها زمناً مديداً بايدي الصنّاع

(٣٦) فاعلية الآلات الحجرية

ومن الخطإ حسبان هذه الآلات عديمة المنفعة والفاعلية . فان احد الصناع في الدنمارك امتحن حديثاً



الشكل ٨ عظام ثور بري تشاهد فيهِ آثار سهام قناص العصر الحجري المتأخر التي قُتل الثور بها في غابات الدنمارك قبل عشرة آلاف سنة

رمى هذا الثور احد قناصي العصر الحجري المتأخر (ف ٢٢) بسهم فاصابهُ في ظهره بقرب الحبل الشوكي (انظر الحلقة العليا البيضاء على الهيكل العظمي) ثم التأم الجرح لكنهُ ترك ندبة على الضلع A في اعلى الشكل . وبعد زمان بعيد رماه قناص آخر فاصابهُ بسهام عديدة اخترقت الاعضاء الرئيسية واصاب احد السهام ضلعاً فانكسرت (انظر الحلقة السفلى البيضاء على الهيكل العظمي) وهذه المرَّة لم يلتئم الجرح كما في المرَّة الاولى لان راس السهم الصواني بقي مالئاً لهُ كما يشاهد في اعلى الشكل B و C وفيما كان الثور الجريح يحاول ان يقطع احدى البحيرات سباحة ادركهُ الاجل فمات وغاص الى القعر . ولما وصل القناص الى البحيرة لم يقف لهُ على اثر . وبعد ان كرّت الوف السنين رُدمت البحيرة . وفي سنة ١٩٠٥ وُجد هيكل عظامهِ تحت ثلاثة امتار من الماء في طبقة من الفحم الحجري سمكها ثلاثة امتار . ووُجد ايضاً رؤوس السهام الصوانية التي قتل بها لا تزال آثارها (A و B و C) بادية على الهيكل العظمي الذي لا يزال محفوظاً في متحف كوبنهاغن

فهل احدى الفؤوس الحجرية المكتشفة فتمكَّن بها — مع انهُ غير معتاد استعمالها — من قطع ست وعشرين صنوبرة قطر كل منها ثمانية قراريط، وتفصيلها قطعاً بعدة عشر ساعات فقط . وتمكن صانع آخر من ان يقطع بآلات حجرية، الخشب اللازم لبناء بيت كامل . واتمَّ البناء بواحد وثمانين يوماً . فنرى ان اهل العصر الحجري المتأخر استطاعوا ان يبنوا لانفسهم بيوتاً رَحْبة مريحة ويبلغوا من المدنية درجة لم يحلم بها اسلافهم المتوحشون

(٣٧) قرى سويسرية

اننا نجد في سويسرة معظم الآثار الباقية من اقدم البيوت الخشبية التي لا مثيل لها في الدنمارك . ولذلك تقضي علينا الحال بمغادرة الدنمارك والانتقال الى سويسرة لدرس هذه الآثار . اراد بناة البيوت من ابناء العصر الحجري المتأخر ان يكونوا في مأمن من الانسان والحيوان فبنوا قراهم فوق البحيرات على دكَّات قائمة على دعائم مركوزة في القعر . فتكوّن فوق مياه البحيرات مجاميع قرى خشبية ازدانت بها سواحلها (الشكل ٩) وكانت مساحة بعض تلك القرى عظيمة جدًّا . ففي ونغان (Wangen) وحدها وُجد نحو خمسين الف دِعامة مركوزة في قعر البحيرة لدعم بيوتها (١)

(٣٨) عيشة سكان البحيرات

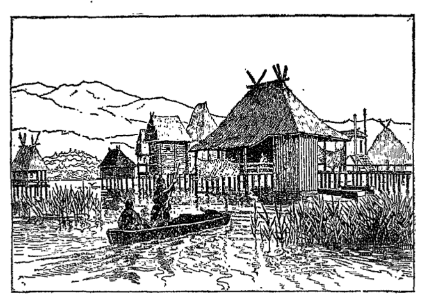
اذا صح ان يُبنى على قرائن الاحوال حكم حكمنا بان سكان البحيرات عاشوا عيشة رغد وسلام يحسدون عليها . كانت منازلهم مريحة حسنة البناء والاثاث اذ كان لدى اصحابها اباريق وملاعق من خشب فضلًا عن آنية أُخرى من فخّار كالكؤوس والصحاف والجرار (الشكل ١٠ رقم ١ و٢ و٣) مما زاد في راحتهم ورفاهية عيشهم . الا ان تلك الآنية لم تكن جميلة الصنعة لانها لم تُصنع على دولاب الخزَّاف ولا طبخت في الاتون المخصوص بها (شكل ٣٢) لكي يتقسّى كل اناء على نسبة واحدة في جميع اجزائهِ وكانت المياه المبنية فوقها تلك المنازل مكتظَّة بالاسماك التي كان السكان يصطادون منها ما شاؤوا بصنانير يدلُّونها من نوافذ في ارض منازلهم . وكان للنوافذ ابواب قلّابة يفتحونها ويغلقونها متى ارادوا الا انهم كانوا احياناً يستعملون بدل الصنانير شباكاً محبوكة من خيوط نبات الكتان

(١) انهُ بعد حدوث قحط شديد نادر المثال هبط مستوى الماء في البحيرات هبوطاً عظيماً في السنة ١٨٥٤ حتى ظهر قعر البحيرة المبنية فوقها هذه البلدة . فبانت بقايا الدعائم التي كانوا يدعمون بها بيوت القرية على طول الساحل. ووجدوا بين الدعائم كثيرًا من الادوات والآلات والمواعين كالتي تشاهد في (الشكل ١٠) ومن جملة ما وجدوه القارب والشباك التي ترى في الشكل (٩). ووجدوا ايضاً حنطة وشعيرًا وعظام حيوانات داجنة ونسيجاً من الكتان الخ (ف ٣٩) . وبقيت هذه البقايا مخبوءة تحت المياه خمسة آلاف سنة . وكانوا احيانًا يجدونها في طبقتين تمتاز احداها عن الاخرى . السفلى منها تتضمن آلات من الحجارة ، والعليا (وهي احدث عهدًا) آلات من البرنز استعملها سكان قرى البحيرات بعد ذلك الزمان وسقطت في الماء وغاصت الى القعر حيث كانت الآلات الحجرية قد غاصت قبلها

(٢٩) تحويل الحبوب من برية الى بستانية . بداءة عهد الزراعة . الكتان والنسج

ومع استمرارهم على الصيد والقنص اكتشفوا موارد اخرى للارتزاق . فبعد ان بقيت نساؤهم الوفاً من السنين تجمع البزور والحبوب من النباتات البرية وتجرشها بين حجرين وتصنع من الجريش خبزاً ملّة خطر لهم انهم قادرون على ان يساعدوا الطبيعة على انماء النباتات البرية سواء كانت مما ينبت على حواشي الغابات او في الحقول المجاورة لسواحل البحيرات

(٣٠) زراعة الدُّخن والحنطة والشعير مدة العصر الحجري المتاخر



الشكل ٩ ترميم منزل من منازل سكان البحيرات في سويسرة

كان سكان البحيرات يقطعون الاشجار بفؤوسهم الحجرية (الشكل ١٠ رقم د) ويصنعونها روافد طول الواحدة ٣٠ قدماً تبرى الرافدة من احد طرفيها وتغرز في قعر البحيرة في ماء يغمر منها مترين او ثلاثة . ويقام على هذه الروافد دكات تبنى عليها المنازل التي كانت تتصل بالبر بجسر كالذي يشاهد الى يمين الصورة . وزيادة في التحفظ والوقاية كانوا يرفعون قسماً منه مدة الليل بحيث ينقطع الاتصال بينهم وبين البر . وقد وجدوا حديثاً في قعر احدى البحيرات شبا كما ترى في الصورة منشورة على حظار المنزل (درابزين) وزورقاً كان يستعملهُ قناصو الوعل وغيره من الحيوانات لنقل ما يقنصون

فلم يكن بين عملهم هذا والزراعة الحقيقية سوى خطوة قصيرة . فما لبثوا ان صاروا يأتون بالبزور والحبوب ويزرعونها في الفصل المعين للزراعة ويتعهدونها بعنايتهم حتى تدرك فيحصدوها ويجمعوا غلّتها . وقد كان هذا العمل في الغالب منوطاً بالنساء . فاصبحت نساء قرى البحيرات فلّاحات وزرّاعات . وكانت الحبوب التي كنَّ يزرعنها قليلة تنحصر في الدُّخن والحنطة والشعير[١] . ويظهر من الآثار ان هذا المورد الجديد كان غزيراً جداً . فان المنقبين عن آثار وَنغان المذكورة آنفاً وجدوا ما يُربي على مئة كيل من الحبوب مدفونة تحت

(١) ان المرطان (oats) والجودار (rye) لم يكونا معروفين بعد ولم يعرفا الا بعد ذلك بزمان طويل

الانقاض . وكانوا يزرعون الكتان ايضاً ويستخرجون من نباته خيوطاً (الشكل ١٠ رقم ٦) كانت تصنع منها النساء نسيجاً يخطن منهُ ملابس بدلاً من الجلود التي كان يلبسها السلف (الشكل ٥)

(٣١) تأثير الزراعة في حياة الانسان الاجتماعية

وكانت الحقول باعثاً جديداً على دوام حضارة سكان البحيرات فانها اضطرتهم الى الاقامة في جوار مزارعهم الصغيرة التي عزقتها ايادي نسائهم لكي يعتنوا بالحبوب المزروعة ويحصدوها حين ادراكها . وكل أسرة زرعت حقلاً سنين متتالية كانت تدّعيهِ بحق وضع اليد . فتولد من ذلك حق التملُّك الذي صار فيما بعد مصدر نزاع وخصام في حياة البشر ولا سيما بين الاغنياء من جهة والفقراء من جهة أخرى — نزاع لم يكن معروفاً ايام كانت الاراضي مشاعاً للجميع

(٣٢) ادجان الضأن والمعزى والبقر

على هضاب القرى البحرية في سويسرة وعلى تلالها الخضراء كانت انسال الحيوانات البرية (الشكل ٨) التي كان يطاردها قنّاصو العصر الحجري المتوسط في الغابات والجبال تسوم الآن بملء حريتها لانها دجنت وألِفت الانسان كما الفهُ الكلب من قبل (ف ٢٣) واقامت معهُ رهن امرهِ واشارتهِ [١] ولقد مضى على انسان العصر الحجري المتأخر امدٌ طويل دون ان يكون لديهِ حيوان يحمّل عليهِ اشياءَهُ . طارد اسلافهُ ابناء العصر الحجري المتوسط الحصان البرّي آلافاً من السنين لكي يصطادوهُ ويأكلوه (ف ١٧) . ولم يُدر في خلدهم ان يربوه ويروضوه ليصير داجناً صالحاً للخدمة [٢]

(٣٣) حيوانات الجر الاولى . الحراثة بالسكة

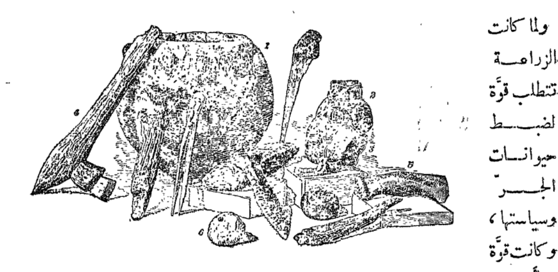
ان قوائم الثور البري القوية (الشكل ٨) مكّنتهُ بعد ان دجن من ان يجرّ معزقة انسان العصر الحجري المتأخر حين كان يُشدُّ اليها بعد ان صار لها مقبضان (الشكل ٣١) فكانت المعزقة اوّل سكة فلاحة استعملها الانسان وكان الثور اوّل حيوانات الجرّ في اوربا . وبذلك تبدلت حالة الزراعة ودخلت في طور جديد . فبدلاً من عزق الارض بايدي النساء صاروا يفلحونها بالسكة على البقر ولما بلغ الاوربيون الاقدمون هذه الدرجة من التقدم قيل انهم فاقوا سائر الشعوب الاولين كهنود اميركا الشمالية الذين ظلوا الى ما بعد اكتشاف القارة

(١) ان ادجان الانسان لهذه الحيوانات لاقدم كثيراً في الشرق مما هو في العصر الحجري المتأخر . وكذلك زراعة الحبوب والكتان . اما كيف اخذ الاوربيون الاقدمون ذلك عن الشرق (ف ٤٩) فالجواب عنهُ ليس بين

(٢) ان حصان جرّ الاثقال الذي كان لهُ تأثير كبير في تاريخ العمران البشري قد أُتي بهِ من الشرق بعد ذلك بزمان طويل كما سنرى (انظر فقرة ٣٥٥)

يعزقون الارض بالايدي اذ لم يكن عندهم حيوانات للجرّ

(٣٤) تأثير الفلاحة بالسكة على حياة الانسان الاجتماعية . الحياة الزراعية الحضرية



الشكل ١٠ جزء من امتعة بيوت سكان البحيرات في العصر الحجري المتأخر

ترى في هذه المجموعة بينة على ثلاثة اختراعات مهمة اخترعها انسان العصر الحجري المتأخر او اخذها عن غيره . الاول جرار فخار عليها نقوش ساذجة وهي اقدم صلصال شوي في اوربا (١) صورة قدر كان يطبخ فيها سكان البحيرات طعامهم . الثاني آلات قاطعة ومرهفة بالسن (٤) صورة ازميل من حجر مرهف الحدّ بالسن (فقرة ٢٤) ومركب في مقبض من قرن الوعل كفأس (٥) فأس حجر رقق حدّها بالشحذ وفيها ثقب لادخال المقبض فيه (ان المنازل التي في صورة ٩ بنيت بآلات كهذه) الثالث النسج كما ترى في (٦) مغزل من الخزف وهو اقدم مغزل . ولا يزال في البلاد الشرقية حتى اليوم مغازل مثله لغزل القطن والصوف وقد وُجد في بحيرات سويسرة اقدم دولاب غزل ووجد معهُ بكرة ملفوف عليها خيوط كتان

ولما كانت الزراعة تتطلب قوّة لضبط حيوانات الجرّ وسياستها، وكانت قوّة المرأة غير كافية لذلك، اقتضت الحال ان يترك الرجل الفطري شيئاً فشيئاً اعمال القنص والصيد ويتفرغ للشؤون الزراعية . فصار فلاحاً بعد ان كان الوفاً من السنين صيادًا . فانتقل بذلك اوربيّو العصر الحجري المتأخر من البداوة الى الحضارة وصاروا يقيمون في القرى والمدن التي اختطّوها بجوار مزارعهم (ف ٣٨)

(٣٥) قطعان ومواش . حياة الراعي

لم توجد تربية السائمة صناعةً جديدة فقط بل اوجدت صنفاً جديدًا من الخَلق وهم الرعاة الذين يتنقلون بمواشيهم وقطعانهم انتجاعاً للمراعي في الارض التي لا تصلح للزراعة . ولذلك دُعوا بالاقوام الظُّعَّن او الرُّحل. ولا نزال نشاهد امثالهم في بلادنا حتى يومنا هذا يتنقلون من مكان الى مكان ارتياداً للمراعي تصحبهم نساؤهم واولادهم ومواشيهم . وقد تملّك هؤلاء الرعاة الرُّحل المراعي الممتدّة من ضفاف الدانيوب الى شمال البحر الاسود ومن ثمّ الى اسيا . وظلّوا اخشن عيشاً واقل تمدناً من الفلاحين واهل الحضر (ف ١٤٢)

وهكذا تكوّن صنفان من البشر بدوٌ وحضر . رعاة يتنقلون بمواشيهم من بقعة الى

(٣٦) النزاع الدائم بين البدو الرحل والحضر

بقعة يرتادون الماء والكلأ أنى وُجدا وفلاحون يقيمون في مزارعهم وقراهم يعملون في الارض ويستثمرونها . ولما زاد عدد القوم الرحل زيادة فاحشة حتى غصّت بهم مراعي البرية على رحبها صار من دأبهم ان ينهالوا من البراري على القرى والمزارع انهيال السيول يغزون وينهبون ثم يعودون بالاسلاب والغنائم آمنين كأنهم لم يرتكبوا جرماً. وسنرى ما كان لجيوش هولاء الغزاة من التأثير في تاريخ البشر (ف ٣٧٦–٣٧٩)

(٣٧) فن البناء ومباني اوربا في العصر الحجري المتأخر

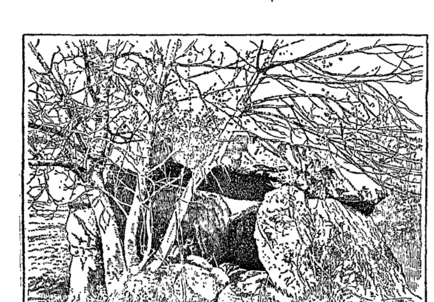
شرع اهل الحضر من ابناء العصر الحجري المتأخر مذ الآن يخلّفون آثاراً افخم وابقى من آنية الفخّار والادوات الحجرية . فلم يكن في اوربا قبلًا الا مساكن حقيرة سريعة العطب ولكن لما دنت شمس العصر الحجري المتأخر من الافول شرع الزعماء وارباب السلطة والنفوذ في المدن والقرى يشيدون الاضرحة الفخمة من حجارة كبيرة جدًّا لا تزال بقية منها تشاهد على الساحل الغربي من قارّة اوربا — من اسبانيا الى الساحل الجنوبي من البلاد المعروفة باسكندناوية . وقد وجدوا مؤخرًا في جزيرة سيلاند ببلاد الدنمارك ثلاثة آلاف واربع مئة من هذه الاضرحة وكلها مبني بالحجر . وبعضها فخم جدًّا . وقد وجدوا في فرنسا (شكل ١١) وانكلترا عددًا كبيرًا من هذه القبور الفخمة . ومعظم الحجارة الكبيرة فيها (شكل ١٣) بقي على خشونته الطبيعية فلم تعمل فيه يد الانسان لنحته او صقله الا ما فعلتهُ الازاميل الحجرية وهو شيء لا يذكر . فلم يكن في بناء هذه القبور شيء من الأبهة والجلال الذي يُشاهد في ابنية هذا الزمان لان حجارتها كانت ساذجة بلا نحت . ولم يستعمل في بنائها الطين الابيض لان فنّ البناء الحديث كان لا يزال مجهولاً ولم يُعرف في اوربا الا بعد ذلك بزمان طويل بعد ان كان قد عُرف اولاً في الشرق حيث تشاهد آثارهُ (ف ٩٧)

(٣٨) اقدم المدن في اوربا وقيام الحكومة

اننا حين نسرّح الطرف في ما بقي الى ايامنا هذه من آثار مباني العصر الحجري المتأخر تتجلّى امامنا حقيقة وجود اقدم المدن في اوربا . فكل مقبرة هي بيّنة على وجود مدينة او قرية قام اهلها بتشييد ما فيها من الاضرحة . وقد كشف لنا الزمان على يد الاثريين بقايا بعض تلك المدن والقرى التي كادت تمحوها الايام عيناً واثرًا . وقد استنتج اهل العلم مما شاهدوهُ من هذه البقايا ان تلك المدن كانت محاطة باسوار من اجرّ مركوز في اعلاها — على الارجح — عوارض من خشب عُدَّت جزءًا من الاسوار . وكان وراء الاسوار خنادق . فوجود المدن في هذا العصر الحجري دليل على كثرة السكان وميلهم الى الاجتماع والتعاون على الاعمال ولا سيما الكبيرة منها التي تقتضي التعاون . ومما لا مرية فيه ان بناء هذه الاسوار العظيمة ، ونقلَ الحجارة الهائلة لبناء ضريح زعيم القبيلة ، اقتضيا زعامة وحسن ادارة كما اقتضى غرز خمسين الف دعامة في قعر البحيرة التي بنيت فوقها مستعمرة ونغان تعاوناً وحسن

تدبير . وفي اعمال كهذه نرى بدء الحكومة التي اخذت تتنظم اولاً تحت ادارة زعيم قدير . وقد نشأ في العصر الحجري المتأخر بعض حكومات صغيرة مستقلٌ بعضها عن بعض . وكلٌ منها مؤلف من مدينة محصنة وارباضها يتولَّى حكمها ويدير شؤونها زعيم او رئيس ومن هذه الحكومات الصغيرة نشأت حكومات امم الارض العظيمة

(٣٩) اعياد ومباراة في الالعاب الرياضية كما يعلم من ابنية اوربا . العصر الحجري المتأخر



الشكل ١١ ضريح من عهد العصر الحجري المتأخر في فرنسا

في قبور كهذه كان يدفن الرعماء (في العصر الحجري المتأخر) كانت الحجارة التي تبنى منها ضرائحهم ضخمة جدًّا يبلغ وزن بعضها بضعة قناطير . وكانت المسافة بين الضريح والمقلع الذي قطعت منهُ الحجارة بعيدة جدًّا وكانت تبنى بشكلها الطبيعي كما قلعت من سفح الجبل

وترينا الابنية الحجرية في العصر الحجري المتأخر — ولو لمحاً — شيئاً من عيشة القوم في ذلك الزمان البعيد . في بعضها نشاهد صور جماعات من الخلق خارجين من المدن ايام الاعياد زَرافات ووُحداناً قاصدين الى ما كانوا يسمُّونهُ بالدوائر الحجرية . وهي اماكن معدَّة لاجتماع جمّ غفير في ستونهنج (الشكل ١٣) حيث كانت تجري المباريات التذكارية وسباق المركبات والالعاب الرياضية المتنوعة اكراماً لذكرى الرئيس المرموس ضمن تلك الدوائر . فيظهر ان الفرس الاهلي كان قد وصل في هذا الوقت الى اوربا الغربية . يعرف ذلك من ازدحام الخلق لمشاهدة سباق المركبات [1] في ميدان ستونهنج الذي يبلغ طولهُ نحو ميلين . وكان هتاف المتفرجين وهم يشاهدون المركبات المتبارية تجري في ذلك المضمار الكبير تباعاً دراكاً يمزق الفضاء . ويشاهد في الشمال الغربي من بلاد فرنسا حجارة هائلة تدل على مواقع الشوارع الطويلة التي كانت تسير عليها مواكب الافراح في

(١) تجد مثالاً لهذه المركبات مما استعمل في زمن متأخر في شكل ١٠١

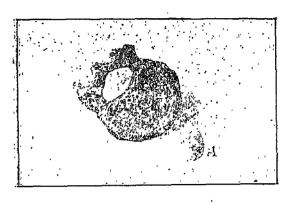
المواسم والاعياد قروناً كثيرة . فتلك الحجارة الصامتة المبثوثة في حقول فرنسا اميالاً تنطق بغير لسان مُرددة صدى هتاف وافراح ابنــاء ذلك الزمان البعيد . وتمثل لعقولنا عادات ومعتقدات كانت تقدمها تلك الاقوام البائدة التي عاشت قبل زمن التاريخ

(٤٠) ابتداء الحرف في اواخر العصر الحجري المتأخر التعدين كحرفة

قد ارتنا الآثار التي تقــدم ذكرها جماعــاتٍ من ابناء العصر الحجري المتأخر يلعبون ويمرحون . ولكن هناك آثارًا أُخرى تُرينا اياهم مكبّين على العمل . فكل مدينة من مدنهم كانت معامل بيتيَّة يُصنع فيها ما تحتاج اليه تلك المدينة فقط . وكان لكل منهم حرفــة يعمل فيها فكان هذا نجارًا وذاك خزَّافاً وذاك معدِناً . وكان العمَلة في المعادن يتعمقون في الحفر حتى يبلغوا انقى طبقة من الصوان فيقطعوا منها قدر الحاجة لصنع آلاتهم الحادَّة . وقد وجد الباحثون منذ عهد قريب في الانفاق المحفورة قديماً في برندون بانكلترا ثمانين مِعْولاً مصنوعة من قرن الوعل كاد يبريها كثرة الاستعمال وطول الزمــان . ووجد المتأخرون من علماء العاديات ، في ممرٍّ بمنجم قديم انهار سقفهُ فسدَّ الممرَّ ، معولين من قرن الوعل عليهما غشاء رقيق من مسحوق الطباشير لا تزال آثار اصابع صاحبيهما بادية عليهِ منذ سدَّت عليهما منافذ النجاة . ووجدوا في بلجيكا هيكل عظام انسان كان يشتغل في معدن فسقط عليهِ بعض الصخور فاماتهُ وبقي معولهُ الذي كان يشتغل بهِ بين يديهِ (شكل ١٤)

(٤١) التجارة وتبادل المعاملات في العصر الحجري المتأخر

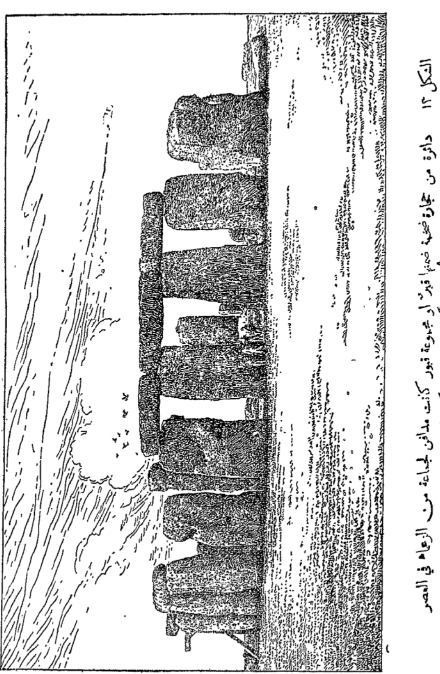
كانت المتاجرة بطريقة تبادل السلع امرًا شائعاً بين الشعوب القديمة . وكان في عــداد السلع التي كانت تنتقــل الى جميع الجهات المعروفة ضربٌ من الصوان الفرنساوي الممتــاز يُعرف اليــوم باونهِ الخاص . وكان من مواد تجــارة هــذا العصر الحجري الكهرباء (الكوربا) التي كانوا يجمعونها من جهــات سواحل البلطيك فتتناقلهــا الايادي حتى تبلــغ اقصى الاصقاع الجنوبية من القارة . ووُجد في الجزر الواقعة حول قــارة اوربا كثير من الادوات الحجرية مما يــدل على ان الانسان عاش في تلك الجزر في هذا العصر الحجري . ولا بدَّ انهُ كان لدى سكانها زوارق متينة لتنقلهم اليها . ووُجــد ايضاً في قعر البحيرات بــين الاعمدة المركوزة بعض زوارق



الشكل ١٣ فقارة انسان من العصر الحجري المتأخر مرتزٌّ فيها راس سهم من الصوان

اصاب راس السهم A الفتيل في تجويف المعدة فارتكز في الفقارة واحدث التهاباً بريتونياً عقبهُ الموت مما يدلّ على ان القوس التي رمي عنها السهم كانت ثقيلة

(شكل ٩) من جذوع الاشجار العظيمة التي كان يُجرَّف الجذع منها فيصير زورقاً بسيطاً .
اما الزوارق الشراعية فلم تكن قد استنبطت بعد في اوربا



الشكل ١٣ دائرة من حجارة ضخمة ضمنها قبر او مجموعة قبور كانت مدافن لجماعة من الزعماء في العصر الحجري المتأخر في ستونهنج بانكلترا

قطر هذه الدائرة ثلاثون متراً يصلها بالمدينة المجاورة لها شارع لا تزال آثارهُ باقية الى الآن . وعلى مقربة من الدائرة ميدان السباق طوله ثلاثة كيلومترات تقريباً ولم يشيد في اوربا الغربية قبل ان جاءها الرومان بناية من الحجر سوى هذه البناية البسيطة

(٤٣) اساليب التجارة الفطرية في العصر الحجري المتأخر

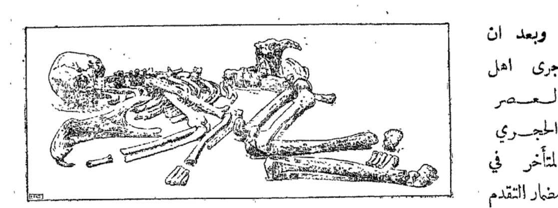
كانت تجارة هذا العصر طبعاً بسيطة لان المعـادن والنقود لم تكن قد عرفت بعد . فكان يتم البيع والشراء بطريق المقايضة سلعة بسلعة . حتى الكتابة كانت لا تزال مجهولة في كل اوربا التي لم تحاول قط ان تبتكر طريقة لها . فكان البائـع اذا ما باع شيئاً نسيئة (ديناً) يرسم خطوطاً على حائط خيمتهِ المصنوعة من اغصان الشجر والمطيَّنة بالتِياع العادي

لتذكّرهُ الخطوط بعدد السمكات او كيلات الحنطة التي يجب ان يطالب بها غريمهُ في المستقبل

(٤٣) حروب العصر الحجري المتأخر

لم يكن السلام بين الجماعات التي عاشت قبل التاريخ مستتبا على الدوام · واسوار الطين والخشب التي كانت تطوّق المدن (ف ٣٨) في هذا العصر الحجري بينة على حدوث وقائع حربية بين زعمائها الذين كانوا لدى مسيس الحاجة يأمرون بنفخ الابواق فيتألّب حول كل زعيم رجال حزبهِ تاركين الولائم والافراح والالعاب والعمل في الحقول والمعادن لينضووا تحت لوائه ذيادًا عن الوطن وصدًّا للاعداء عنهُ. ولنا بيّنات ناصعة على وقوع الحروب الطاحنة بين الزعماء في هذا العصر · منها انهم وجدوا في قبر ببلاد اسوج جمجمة انسان مرتزًّا في وَقب العين منها رأس سهم صوّان لا يزال موجودًا فيهـا حتى الآن· ومنها انهم وجدوا في فرنسا كثيرًا من فقرات ظهر الانسان تخترقهـا رؤوس سهـام من صوان (الشكل ١٢) ووجدوا في اسكتلاندا تابوتًا من حجر تحت رجمة يتضمّن رِمّة انسان هائل التقاطيع تكاد تكون احدى يديهِ مبتورة من الكتف بضربة فأس حجرية · ولا تزال شظيّة من نصل الفأس عالقة بعظم الذراع المجروحة جرحًا بالغًا

(٤٤) اوربا العصر الحجري المتأخر والشرق



الشكل ١٤ هيكل عظام معدّن من اهل العصر الحجري المتأخر

وجد هيكل عظام هذا المعدّن القديم مطروحًا على ارض معدن صوّان في بلجيكا تحت صخور انهارت عليهِ من جوانب المعدن فسحقتهُ. ووجد امامهُ معول براسين مصنوع من قرن الوعل (ف ٤٠) وفيما كان يحاول ان يقلع كتلاً من الصوّان في طبقة طباشيرية هبط عليهِ صخر من سقف المنجم فقتل

وبعد ان جرى اهل العصر الحجري المتأخر في مضمار التقدم اشواطًا بعيدة دامت مدتها خمسين الف سنة وقفوا برّة عن سيرهم الى الامام · وكان ذلك حوالي سنة ٣٠٠٠ ق · م · وظلوا يجهلون الكتابة مع شدّة حاجتهم اليها في المعاملات التجارية وتسجيل محاضر الحكومة وكتابة التقاليد كما كانوا

يجهلون المعادن[١] التي لا غنى عنها في الصناعات الاستخراجية والتحويلية . ولم يكن لديهم سفن شراعية لنقل السلع التجارية . فلا بَدْع اذا وقفوا وهذه الاشياء كلها تعوزهم . ولكن بينما هم في هذا الوقوف بل الجمود جاءهم من ارض مشرق الشمس ما كانوا مفتقرين اليه فمهّد لهم السبيل الى احراز ما احرزوه من العمران الباذخ الموروث . ولفهم ما هو امامنا من تاريخ اوربا يجب ان نلتفت الى الشرق[٢] الذي جاءت منهُ هذه الاشياء التي كانت اوربا في حاجة كلية اليها . ونعني بالشرق هنا البلاد التي حول الطرف الشرقي من البحر المتوسط (خريطة ٣)

(٤٥) تذكرة تاريخية

وفيما نحن نلتفت الآن الى الشرق مصدر هذه الاشياء الآنفة الذكر يجب الاَّ ننسى اننا في الصفحات التي طالعناها من هذا الكتاب قد تتبعنا مسير الانسان السابق لزمن التاريخ ، مدة لا تقلُّ عن خمسين الف سنة اي منذ ابتدأ يصنع ادوات وآلات من الحجارة . اما اهل الشرق فقد شيَّدوا على هينتهم بين سنة ٤٠٠٠ و ٣٠٠٠ ق . م . (شكل ٢٦) عمراناً عالي الشأن يحسب بدءَ عصر التاريخ[٣] . فالعمران اذن وُلد في الشرق . نشأ فيهِ وشب وشاخ . وعمرهُ الآن بين خمسة وستة آلاف سنة . ولقد انجب الشرق امماً عزيزة الجانب أُوتيت الحكمة وفصل الخطاب بينما كانت اوربا العصر الحجري تتعسَّف في مهامهِ الجهل والاميَّة لا تعرف شيئاً عن الكتابة والمعادن . ولكنها منذ احرزت تدريجاً ما كانت في شديد الحاجة اليهِ انتقلت اليها زعامة المدنية في الحرب والسلم . وكما كنا نرقب حتى هذا العصر ، بزوغ المدنية في الشرق وما نتج عنها من معرفة المعادن وتنظيم الحكومة وبناء السفن الكبار وما شاكل ذلك من ثمار العمران ، كذلك يجب ان نتيقَّن ،

---

(١) دخلت المعادن الجنوب الشرقي من اوربا نحو السنة ٣٠٠٠ ق . م وسارت على مهل الى الغرب والشمال عابرة القارَّة . والمرجح انها لم تصل الى بريطانيا حتى السنة ٢٠٠٠ ق . م . ولذلك جعلنا آثار اوربا الغربية الحجرية العظيمة من جملة بقايا اوربا العصر الحجري وان تكن قد شيدت بعد دخول المعادن الى جنوب شرق اوربا . لان استعمالها في غربها لم يكن قد شاع بعد

(٢) حينما نستعمل في هذا الكتاب كلمة "شرق" نعني بها مصر وآسيا الغربية

(٣) المراد بعصر التاريخ هنا هو الزمان الذي ابتدأ فيهِ الانسان يكتب مستعملاً الفاظاً يعبر بها عن افكارهِ وسير اعمالهِ في حياتهِ . فكل ما نعرفهُ عن الانسان في العصر السابق مأخوذ عما خلفهُ من الآثار كالآلات والاسلحة والابنية دون كتابة عليها فمن هذه الاشياء استخلصنا في الفصل الاوَّل من هذا الكتاب ما نعرفهُ عن اوربا قبل عصر التاريخ . اما الانتقال من عصر قبل التاريخ الى عصر التاريخ فكان في جميع الامكنة بطيئاً جداً وقدم في الشرق ما بين سنة ٤٠٠٠ و ٣٠٠٠ ق . م

ان سير المدنيــة استمرَّ بعد ذلك من الشرق الى الغرب · وسنتتبَّعهُ في فصولنا التالية من الشرق الى الغرب

اسئلة

١

اي تقدُّم في الاختراع لاحظتهُ في حياتك ؟

هل استنبط الانسان كل ما لديهِ من الاختراعات على اسلوب واحد ؟

هل جاءَ على الانسان حين من الدهر لم يكن لديه شيء منها ؟

هل كان لهُ معلم ؟ صِف حال التسمانيين في الازمنة الحديثــة ؟ صف اوربا قبل زمن التاريخ ونوع معيشة سكانها الاقدمين ؟ اذكر اسماء الاعصر الثلاثة التي عقبت ذلك ؟

٢

اذكر امثلة تدل على ان الانسان وُجد على الارض منذ حقبة مديدة · صف اول سلاح حجري · في اي زمان تقريباً ابتدأ العصر الحجري القديم (انظر الخريطــة الاولى وطالع الوصف) فاتحة ايّ عصر كان السلاح الحجري ؟ صِف صيــاد العصر الحجري القديم · ايّ تغيير عظيم خُتم بهِ هذا العصر ؟ اوضح ذلك

٣

الى اين كان يأوي قناصو العصر الحجري المتوسط ؟ ايّ تحسين اجــروهُ في آلاتهم الحجرية ؟ (شكل ٣) اية مواد جدَّت ؟ ايّ اختراعات جديــدة ؟ اوضح النتائج · صف صناعة العصر الحجري المتوسط · ارسم قطع كهف مع ما تضمنهُ وصِف (بشكل ٦) · ما هو التغيير العظيم الذي انتهى بهِ العصر الحجري المتوسط ؟ ومتى ؟

٤

في ايّ مكان وجدنا اولى مستعمرات الانسان العصر الحجري الحديث ؟ صِفها وصف آثارها · اية اختراعات جدَّت ؟ اخــبر عن النجــارة بالآلات الحجرية المسنونة · صف القرى البحرية والمعيشة فيها · اذكر كيف تحوَّلت الحبوب البرية الى بستانية · أبن نتائجها الاجتماعية · صف كيف صارت الحيوانات البرية داجنة وأبن نوعي العيشة اللذين نتجا عن ذلك · صف الابنية الحجرية ونوع العيشة التي تتجلى منها · صِف الصنائع والتجارة والحروب

ما هي الاشياء المهمة التي ظل العصر الحجري المتأخر مفتقراً اليهــا ؟ أممكن العمران بدونها ؟ اين عُرفت هذه الاشياء اولاً ؟ هــل تعرف اماكن بالقرب من موطنك عاش فيها أناس من العصر الحجري وهل رايت في زمانك اماكن كهذه ؟ صفها اذا كنت رايتها

القسم الثاني

بلاد الشرق

الفصل الثاني

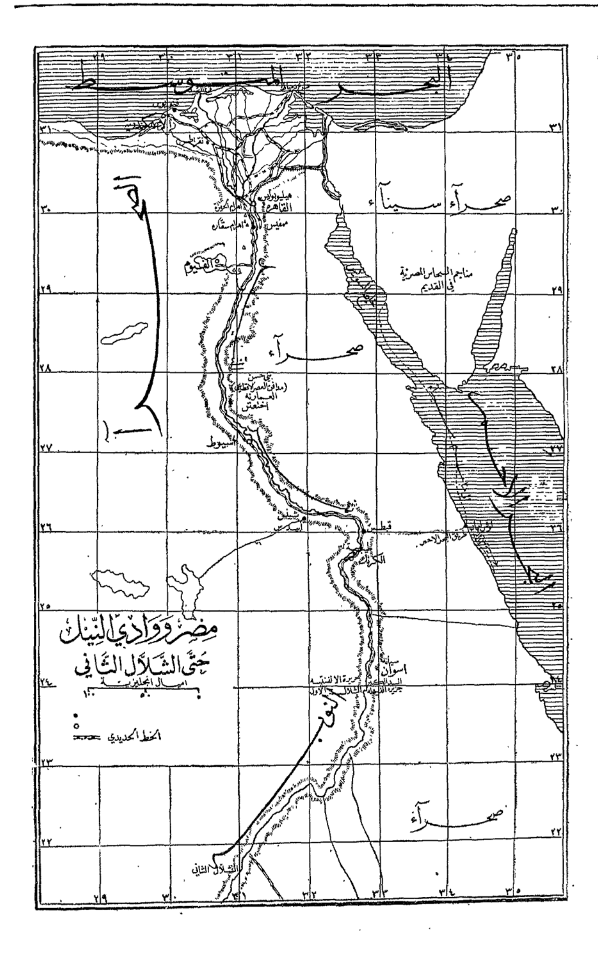
تاريخ مصر . سكان النيل الاقدمون وعصر الاهرام

٥

مصر وسكانها الاولون

نستهلُّ بحثنا عن الشرق القديم بمصر لانها اقدم بلدان الشرق عمراناً واوفرها عاديات وافخمها آثاراً يدلنا على ذلك عدد السياح الذين يؤمّونها كل سنة لمشاهدة تلك الآثار التي لا مثيل لها في العالم اجمع . يأتيها السائح من بلاد الغرب على متن باخرة تشقّ بهِ العباب حتى تصل الى الاسكندرية فتلقي مراسيها في ميناء من اعظم الموانئ اتقاناً . وحين ينزل الى البرّ يمتطي مركبة من مركبات القطار الحديدي حسنة الفرش والرياش فيسير بهِ القطار في تلك السهول الفسيحة ينهب الارض نهباً الى المكان المقصود . واذا سرَّح نظرهُ من نافذة المركبة رأى كثيراً من القرى والمزارع المبنية بالطوب ، وخمائل النخل الباسقة الاشجار ، والبقاع الخضراء ، على مدى النظر تتخللها التُرع طولاً وعرضاً حتى يخيَّل اليهِ انهُ يرى شبكة مكبّرة . ويشاهد كثيراً من الرجال النحيفي البنية السمر الالوان واقفين على ضفاف الترع على مسافات متفاوتة ينشلون المياه بالدلاء لسقاية الارض مستعينين بآلة يسمّونها شادوفاً مؤلفة من خشبة طويلة ترتكز عند منتصفها على قائمتين تتحرَّك بينها تصعّداً وتصوُّباً مربوطاً

(٤٦) مصر المورد


البحر المتوسط
صحراء سيناء
مناجم النحاس المصرية في القديم
صحراء
صحراء
القاهرة
الفيوم
أسيوط
قفط
أسوان
الشلال الأول
الشلال الثاني
النوبة
طريق البحر الأحمر
مصر ووادي النيل حتى الشلال الثاني
أميال انجليزية
الخط الحديدي

بأحد طرفيها دلوٌ وبالطرف الآخر ثقلٌ يوازن الدلو · والسَّقي على هذا النمط بيّنة على ان مصر لا يقع فيها ما يكفيها من المطر

(٤٧) تربتها ومساحتها

تربة البلاد سوداء اللون ولكنها من اخصب التُرَب فلا تفوقها في الخصب تربة اخرى · وخصبها مكسوبٌ من نيلها المبارك فانهُ بفيضانهِ السنوي وطول مكوث مياههِ فوق الارض يرسب ما تحملهُ المياه من التراب الناعم فيتكوَّن من الرسوب قشرة رقيقة تعرف بالطمي وهي علّة الخصب في بلاد النيل · ومن هذا الرسوب السنوي تكوَّنت دلتا النيل الشهيرة · وتشتمل الدلتا والوادي الذي فوقها حتى الشلال الاول على الوف الالوف من الاميال المَرِيعة من الارض الصالحة للزراعة

(٤٨) الوادي الخاص والمضايق

ومتى بلغ القطار حدّ الدلتا الجنوبي تبدو لعين الناظر هضابٌ بارزة من الصحراء (شكل ٤٩) عن جانبي الوادي حيث تنتهي الدلتا · ويجري النيل الذي احتفر مجراهُ العميق الواسع في تلك الصحراء متمعّجاً الى الشمال في وادٍ لا يزيد عرضهُ عن خمسين كيلومترًا · واما شقّتا الارض على جانبي النهر فقلما يزيد عرض الواحدة منها عن ستة عشر كيلومترًا · وما اسرع ما ينتقل المرء عند طرفي هاتين الشقتين من اراضٍ مَريعة ذات خضرة نضيرة الى رمال الصحراء التي تسفيها الرياح الى الوادي · ومن يتسلّق الصخور التي على عُدْوتي الوادي ويقف عليها متأملًا يرَ امامهُ قفرًا شاسعاً تتعاقب فيهِ آكامٌ ورمال يخيَّل للناظر اليها انها تضطرب من شدّة وهيج الشمس



الشكل ١٥ قبر رجل مصري من العصر الحجري المتأخر

حفرة بيضية الشكل عمقها متر او متر ونصف . (قابل الشكل ١٢٦) الرمّة محاطة بقوارير فخّار كانت قديماً مملوءة طعاماً وشراباً . وقد وجدوا حتى في اقدم القبور المصرية بعض الادوات الصغيرة المصنوعة من النحاس مما يدل على انها تختص بآخر العصر الحجري المتأخر

(٤٩) مصريو العصر الحجري المتأخر

لنتيقّن والقطار يطوي بنا وادي النيل ان ذلك الوادي يحدثنا حديثاً متسلسلًا منقطع النظير عن اسلافنا الغابرين وسيرهم في مضمار الحضارة والعمران . فاذا ادرنا الطرف نحو الصحراء رأينا الوفاً من التلال التي تحتها قبور جدود الرجال الذين يشاهَدون منتشرين في حقول الدلتا · واذا نبشنا واحدًا من تلك القبور رأينا فيهِ رُفات فلّاح النيل القديم تحيط بهِ الآنية والآلات الحجرية (شكل ١٥) التي تحدثنا بغير لسان عن اهل الاجيال العديدة الذين عاشوا في ذلك الوادي كما عاش امثالهم في اوربا مدّة العصر الحجري المتأخر ·

عاشوا وماتوا قبل ان يعرفوا كيفية استعمال المعادن. وكثيرًا ما يجد الاثريون في القوارير التي كان القدماء يدفنونها مع الميت شعيرًا وحنطةً (شكل ١٥) لتكون زادًا لهُ على ما كانوا يزعمون · وكانت الحنطة من النوع الذي تنفلق حبوبهُ نصفين[1] وكثيرًا ما كانوا يجدون مع الشعير والحنطة خِرَقاً من الكتان عُلم منها المكان الذي صدر منهُ الكتان اولاً · وكان هولاء الفلاحون الراقدون في رموسهم منذ ستة آلاف سنة يعملون في الارض ويسقونها كما يعمل فيها ويسقيها اليوم ابناؤهم الذين يُشاهَدون من نوافذ القطار

(٥٠) اقدم الحكومات والضرائب

ان قرى الفلاحين ذات البيوت الواطئة السقوف التي يلمحها راكب القطار لمحاً هي صورة طبق الاصل للقرى التي كانت قبل التاريخ واضمحلّت بعد ان دامت احقاباً طوالاً وطناً لسكان ارض النيل الاقدمين الذين تشاهد رموسهم عند حاشية الصحراء · وكان في كل من هذه القرى منذ ستة او سبعة آلاف سنة شيخ او زعيم يسيطر على الترع التي تُروى منها الاراضي في ناحيتهِ · وكان على كل فلّاح ان يؤدي للزعيم حصّة معيَّنة معلومة من غلّة الحنطة والكتان · والاَّ فالزعيم يقطع عنهُ الماء الضروري لارواء ارضهِ ويجبرهُ على تادية المطلوب بلا رحمة ولا امهال · وهذا هو اقدم انواع الضرائب

الشكل ٦ رسالة تصويرية حفرها على الخشب هنود من الاسكا

صورة انسان فارغ اليدين دلالة على القنوط والراحتان متدليتان اشارةً الى الاشكال او الابهام والجهل ، والفراغ الى لفظة لا شيء ومعناها "لا" وصورة آخر يدهُ الواحدة على فمهِ رمزًا الى الاكل او الطعام واليد الاخرى تشير الى الخيمة . والصورة كلها عبارة عن جملة معناها لاطعام في الخيمة (ف ٥١)

(٥١) آثار مكتوبة بطريقة تصويرية

واضطرَّ الفلاح بسبب هذه المعاملة ان يرسم على جدار بيتهِ المطيَّن بالسَّياع صورة ساذجة لمكيال الحنطة وخطوطاً معلومة للدلالة على كمية المكاييل التي كان يؤَديها من سنة الى أُخرى (انظر فقرة ٤٢) فكان استعمال هذا النوع من الكتابة بعلامات تصويرية الدرجة الاولى

---

(١) ان هذه الحنطة التي تنفلق شطرين هي ضربٌ من القمح يختلف عن القمح العادي بانفلاق حبوبهِ. ولا تنفلق هذه الحبوب بمجرَّد دراستها على البيدر بل تبقى ملتحمة ـ ولو دُرست ـ بغشاء يربط فلقاتها بعضها ببعض فاذا زال الغشاء بسببٍ مَّا انفلقت كل حبة نصفين . ولا يزال القوم في بعض انحاء اوربا يزرعون هذا النوع من الحنطة لكي يستخرجوا منهُ النشاء ويعرف عندهم بقمح النشاء · وقد وُجد هذا النوع من القمح في فلسطين طالعًا في الحقول من تلقاء نفسهِ بلا عناية الانسان كبقية النباتات البريّة واهمُّ ما زرعهُ المشارقة القدماء الشعير وهذا الضرب من الحنطة

في سلّم تعلّم الكتابة . ولا يزال الناس في البلدان التي لم تنل قسطاً من المدنية يعوّلون على صور رمزية كهذه بدلاً من الكتابة . فاهل الاسكا يكتبون رسائلهم بصور رمزية على قطع من الخشب (شكل ١٦) . والذين يعمدون الى حلّ هــذه الرموز يتفقون في تأدية معناها ولو لم يتفقوا في اللفظ فالشكل (١٦) ربما فسّرهُ احدهم بقولهِ « لا طعام في الخيمة » وآخر بقولهِ « لا أكل في الصيوان » . فعلامــات تصويرية كهذه هي وسيلةٌ لنقل الافكار بالضبط التام بقطع النظر عن الالفاظ . وهكذا كان الحــال عند هنود اميركا فان ارباب البــطولة والبطش منهم كانوا كلما ارادوا تسجيل آثارهم جعلوهــا بهيئة رموز وصور (شكل١٧) ومما يستحق الملاحظة هنا هو انهُ لا شيء في الصورة يدل على الالفاظ بعينها ولذلك كان التعبير عنها بطرق مختلفة من الوجهة اللفظية . وكان ملوك مصر يسجلون مآثرهم منذ ستة آلاف بطرق تصويرية مدهشــة (شكل ١٨)



الشكل ١٧ تاريخ مصوَّر لانتصار زعيم من داكوتا اسمهُ الرئم الراكض

ان هذا الزعيم كتب سيرة حياتهِ بسلسلة رسوم عدد حلقاتها ١١ منها هذا الشكل (١٧) الذي يبين فيهِ كيف انهُ في يوم واحد قتل خمسة ابطال من اعدائهِ . ويرى هذا البطل المسمى بالرئم الراكض ممتطياً جواداً وعلى ترسهِ صورة صقر هو شعار اسرتهِ . وتحت الجواد صورة غزال راكض يقصد بهِ الدلالة على اسم الزعيم . وترى آثار جوادهِ وهو مارٌ بسرعة حول الشجيرات التي كان مختبئاً فيها الابطال الخمسة الذين قتلهم . وواحد من هولاء الخمسة يرى في الرسم حاملاً بندقية يمثل بقية رفقائهِ . والبندقيات الاربع الاخرى التي ترى في حالة الاطلاق تدل على الاربعة المختبئين بين الشجيرات

(٥٢) الخطوة الاولى التي قادت البشر من الطور التصويري الى الطور الصوتي

ان الآثار الاميركية القديمة المكتوبة لم تتعدَّ الطور التصويري قطّ . فلذلك لم تكن كتابة حقيقية . وكان لا بدّ من ان يتقدمها درجتان قبل ان تصــير كتابة صوتية ففي الدرجة الاولى يكون لكل شيء يراد رسمهُ شكل ثابت لا يتغيَّر يُعرف بهِ حيث يُرى . فالعلامة التي ترسم للدلالة على رغيف مثــلاً يتعود الناس قراءتها بلفظ رغيف لا خــبز والعلامة التي تدل على ورقة تقرأ ورقة لا غير

(٥٣) الدرجة الثانية المؤدية من الطور التصويري الى الطور الصوتي

انهُ لامرٌ طبيعي ان تتلو الدرجة الثانية الدرجــة الاولى . فصارت صورة القفَّــة ـ التي سماها المصري « ن ب » علامة للمقطع الهجائي « نب » حيث وقع . وهكذا يمكن التعبير عن لفظة سيد او رب باستعمال صورة « القفة » لان لفظة رب تشتمل ايضاً على الحرفين الصحيحين « ن » و « ب » اي « نب » . وعلى هــذا النمط صارت صورة

الارنب — واسم الارنب المصري «و م» — علامة للمقطع «و م» في اية كلمة وردت فيها وصارت صورة التموجات الخفيفة الحادثة بفعل النسيم اللطيف على سطح الماء والتي كان المصري يدعوها «ن» علامةً للصوت «ن» . وهكذا توصل المصري الى طريقة لكتابة المقاطع . حتى الحروف ايضاً استطاع في الدرجة التالية ان يركّبها للحصول على كلمات أُخرى . فركّب صورة الارنب وصورة التموجات اللطيفة . وألّف منها الكلمة و «ن» «كُون» التي فقدت معنى العلامات الاصلي التصويري وبقي معناها الصوتي لا غير

(٥٤) فائدة العلامات الصوتية

ولو بقيت الكتابة مجرَّد سلاسل من الصور لما امكن المصري ان يكتب امثال هذه الكلمات: «كون» و «محبة» و «جمال» الخ لانهُ لا يمكن رسم صورة لهذه المعاني ولكن لما صار طائفة كبيرة من هذه الصور علامات صوتية كل منها يدل على مقطع او حرف صار في الامكان كتابة كل كلمة سواء كانت تدلُّ على معنى يمكن تصويره او لا . والذي سهّل للمصري طريقة ايجاد المقاطع او العلامات الهجائية هو عدم اكترائهِ للحركات ، واهتمامهُ بالحروف الصحيحة كما في العربية وهكذا اخذ المصري صورة الرغيف الذي اسمهُ «تا» وباهمالهِ الالف التي هي اقل اهمية من الحرف الذي معها امكنهُ استعمال صورة الرغيف للحرف الصحيح «ت» فقط وعلى هذا النسق بنى مقاطعهُ وحروفهُ الهجائية دون ايماء فعليّ الى اصوات الحركات التي لم يكن يكتبها ولكنهُ عند القراءة يستعملها . فكانت تقرأُ ولا تكتب مثل الحركات في الكتابة البسيطة غير المشكّلة في العربية . فالحصول على علامات صوتية كان العامل الاكبر في ايجاد كتابة حقيقية لاوّل مرّة في تاريخ الانسان . وقد سبق المصريون الى استنباط الكتابة اهل العالم قاطبةً



الشكل (١٨) مثال الكتابة المصرية في الطور التصويري

تفسير . ترى في الاعلى صورة صقر رمز الملك (قابل الصقر على ترس الرئيم الراكض في الشكل ١٧) يجرّ رأس انسان بحبل ووراء الراس ست ورقات من النبات المعروف بعرائس النيل (كل ورقة ترمز الى العدد ١٠٠٠) نابتة من الارض المتصل بها الراس . وفي الاسفل ترى صورة راس حربة عقفاء وشكل هندسي مستطيل (رمز البحيرة) . ومغزى الحكاية المصورة هو ان الملك المرموز اليه بالصقر أسر ستة آلاف رجل من البحيرة المعروفة ببحيرة الحربة (ف ٥١)

(٥٥) علامات المقاطع ومجموعات علامات

كانت علامات الكتابة المصرية ست مئة علامة كثير منها كان يمثل مقاطع كاملة مثل «نب» وقد

تعلّم الكاتب المصري تدريجاً الكثير من مجموعات هذه العلامات الهجائية التي كل مجموعة منها كانت تدل على كلمة • فصارت الكتابة عندهُ عبارة عن عدد كبير من مجموعات العلامات التي تتألف منها الجُمل

= ا راجع الشرح بشان استعماله حرف علة	= خ
= ى استعمل حرف علة على عهد اليونان	= خ
= ع	= س
= و راجع الشرح بشان استعماله حرف علة	= س كان التلفظ به يختلف اولاً بعض الاختلاف عن الحرف السابق
= ب	= ش
= پ	= ق كذلك ك على عهد اليونان
= ف	= ك
= م كذلك العلامة بعدئذٍ	= ج كما يلفظه المصريون في القاهرة
= ن	= ت
= ر	= ث
= ل في الازمنة المتاخرة ولكنها استعملت قبلاً للدلالة على ر	= د
= لا	= ج كما يلفظه العامة في شمالي سورية
= ح	

الشكل ١٩ حروف الهجاء المصرية

كل واحد من هذه الحروف كان يدلُّ على حرف صحيح . ولا مراء في ان المصريين كانوا يلفظون كلماتهم محركة لكنهم — كما في العربي غير المشكل — لم يكتبوا الحركات. وفي الاعصر اليونانية استعمل ثلاثة من الحروف الصحيحة كحركات ، الاوّل والثاني والرابع على القائمة.

(٥٦) علامات الهجاء

وتخطَّى المصري الحدّ الذي وصل اليهِ في الكتابة اذ صار لديهِ مجموعات من العلامات التي كلٌّ منها يدل على حرف فقط . اي انها كانت حروفاً حقيقية . وكان عدد الحروف الهجائية عند المصريين اربعة وعشرين حرفاً (شكل ١٩) كانت معروفة في مصر قبل سنة ٣٠٠٠ ق .م . بزمان طويل . وهي اقدم حروف هجاء عرفها البشر . وكان في امكان المصري ان يكتب لغتهُ باستعمال اربعة وعشرين حرفاً (الشكل ١٩) لو لم تكن عادة استعمال مجموعات الحروف ثقيلة على الكاتب في ذلك الزمان كما هي ثقيلة اليوم في اللغة الانكليزية مثلاً بحيث يتعذر ادخال النظام الصوتي في تهجئتها مهما بولغ في بسطهِ

(٥٧) نسبة اللغة المصرية الى ما يجاورها من اللغات

وكان لهذه اللغة المكتوبة على هذا النمط علاقة بلغات البلاد المجاورة كلغات غرب اسية كما كان لها علاقة بلغات شمال شرق افريقية كبلاد البربر والصومال الخ . فكانت مزيجاً ليس فقط في مجموع مفرداتها بل في بناء تلك المفردات ايضاً . وتتضح هذه الخاصية من الزيادات الملحقة بالضمائر كما ترى في (الشكل ١٩)

مفرد	متكلم — ي	جمع	— ن
	مخاطب مذكر — ك		— ثن
	" مؤنث — ت		
	غائب مذكر — ف		— سن
	" مؤنث — س		

فنرى هنا اصولاً سامية واضحة مختلطة بأُخرى غير سامية . ويتضح التركيب السامي اولاً من ان الاسماء المؤنثة تنتهي بالحرف« ت» . ثانياً من كون اكثر الافعال ثلاثية صحيحة ثالثاً من اسلوب تصريف الافعال ومن اشياء أُخرى كثيرة . واما نسبتها الى اللغات الاخرى فتظهر في مواد كثيرة من مجموع مفرداتها وفي الصيغ التي يزاد في اولها الحرف س . وبالاجمال ان خصوصيات عمومية كهذه مما ينتظر وقوعهُ في لغة شعب عاش في بيئة تلاقت فيها عدَّة لغات في الزمن الذي سبق ظهور الاسلام الذي جاء بلغة عمومية من اسية الى شمال افريقية . وكانت هذه اللغات مزيجاً من عناصر لغات مختلفة لان الشعب الذي تكلم بها كان ايضاً مزيجاً من شعوب مختلفة اسيوية وافريقية

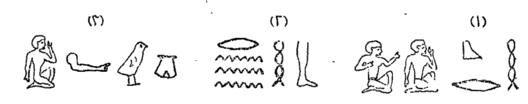
(٥٨) اختراع مواد الكتابة الحبر والقلم

ولم يلبث المصريُّ ان اخترع من لوازم الكتابة الحبر والقلم . توصل الى صنع الحبر بمزجهِ الماء بشيء من الصمغ والسّناج الذي يتكوَّن على اسفل القِدر اذا وضعت فوق نار

الحطب • وبغمسهِ قصبة مبرية في المزيج استطاع ان يجيد الخط • والقلم الذي اخترعهُ استعملهُ اهل الشرق في الماضي وسيظلون يستعملونهُ في الكتابة العربية الى ما شاء الله

(٥٩) اختراع مواد الكتابة الورق.

ثم اكتشف المصري ايضاً انـهُ يستطيع ان يقطع ورق النبات قطعاً رقيقـة مستطيلة ويكتب عليها احسن جـداً مما يكتب على الخزف او العظم او الخشب • ولمـا اراد ان يكون لديه منها قطعٌ اكبر فتقت لهُ الحيلة ان يلصق حاشية القطعة الواحدة بحاشية الاخرى فكان لهُ ما اراد • ولكنهُ وجد ان الورق رقيق جداً • فقـادهُ العقل الى ان يضع طلحية فوق اخرى ويلصقها معاً بحيث تتقاطع اوردتها على زوايا قائمة فكان لـهُ من ذلك ضربٌ من الورق سميك ومتين الاَّ انهُ اصفر اللون (الشكل ٤١)



الشكل ٣٠ (١) كلمة مصرية (٢) و (٣) كلمتان عربيتان مكتوبتان بالخط المصري القديم

فالعلامات الثلاث الأُوَل في الكلمة الاولى (١) هي ج وق و ر (انظر الشكل ١٩) اما الحركات فلا نعرفها ومعنى هذه اللفظة متسوّل (حرفيًا جائع) وبما انها تدل على شخص اضاف المصريون اليها انسانًا جاثيًا عند الطرف وامامهُ رجل آخر يدهُ على فمهِ رمزًا الى الجوع او العطش او الكلام. وهذان بقية من العلامات التصويرية القديمة. وعلامات كهذه ليس لها اهمية في اللفظ والدلك دُعيت دلائل والثانية (٢) لفظة عربية هجيت في اللغة المصرية القديمة لمجرَّد الايضاح والعلامات الثلاث الاولى تدل على الاحرف ب . ح . ر. (انظر الشكل ١٩) والثلاثة الخطوط الموجَّة تشير الى لفظة "ماء" ومعنى كل ذلك بحر. والثالثة (٣) كلمة عربية أُخرى مكتوبة بالخط المصري القديم فالعلامات الثلاث الاولى تدلّ على الاحرف ج . و . ع (انظر الشكل ١٩) والعلامة الاخيرة هي الدليل على "الجوع" (انظر شكل ٣٠ (١)) ومجموعها يعني جوع . فبمساعدة حروف الهجاء (ش١٩) والدلائل المذكورة يستطيع الطالب ان يكتب جملة من الالفاظ العربية بالخط الهيروغليفي مثلاً رَجل والدليل الرجل الجاثي ويدهُ على فمهِ ، وضحك ، والدليل هو نفسهُ ، ونهر والدليل الماء المتموّج (ش ٣٠ (٢))

وهكذا اكتشف المصري ان الغشاء النباتي هو احسن مادَّة يكتب عليها • ولم يستطع العلم حتى الآن ان يكتشف مادَّة احسن منها • وهكذا تم اختراع القلم والحبر والورق كما ذكرنا آنفاً (انظر الشكل ٢٨) وهذه الاختراعات الثلاثة وصلت الينا من المصريين • ولا يزال اسم الورق في الانكليزية يدل على الاصل الذي أُخذ منهُ (Papyrus) مع اختلاف طفيف في اللفظ

(٦٠) خطورة استنباط الكتابة

وكان لاستنباط الكتابة وابتكار اسلوب موافق لتدوين الحوادث على الورق تأثـير

كبير في حال العمران اهم جدًّا من جميع الاعمال العقلية التي ولدهـا عقل الانسان والانظمة التي سنّها والحروب التي اثارها

(٦١) بداية تنظيم التقويم او الروزنامة

شعر المصريون منذ القديم بضرورة قياس الوقت . وقد كانوا قبلاً يعوّلون في ذلك على القمر فيحسبون الشهر من هلال الى هلال شأن الشعوب القديمة واليهود والمسلمين حتى الآن لمآرب دينية . فكان احدهم اذا اقترض مقدارًا من الحنطة على ان يردهُ بعد تسعة اشهر ومضى من الاجل ثمانية اهلّة يعلم انهُ باقٍ هلال واحد . ولكن الشهر القمري تارة يكون تسعة وعشرين يوماً وطورًا ثلاثين . فهو غير موافق لقسمة السنة اقساماً متساوية . فتدارك المصريون هذا الامر قبل سواهم من الامم المجاورة وقرَّ رأيهم على ان لا يعتمدوا في تقسيم السنة على القمر

الشكل ٢١ مثال الخط المصري القديم المعروف بالهيروغليفي (السطر الاعلى) ويقابلهُ بالخط العادي السريع (السطر الاسفل) مكتوبَين على ورق البردي بالحبر والقلم . ويعرف النوع الثاني "بالهيراتيك" وبهِ كانت تتم جميع الكتابات العادية

ان الاعمال التجارية اليومية عند المصريين كانت تقتضي كثيرًا من المكاتبات والوفًا من "القيود" التجارية . وبعد ان غدت الكتابة بالقلم والحبر على ورق البردي صار الكتبة يسرعون جدًّا فيها (الشكل ٢٨) ومع كرور الايام شاع ضربٌ من الكتابة السريعة اختصرت بها علامات الخط الهيروغليفي اختصارًا يذكر . وسميت هذه الكتابة السريعة "بالهيراتيك" ويلاحظ جليًا في المثال المذكور آنفًا ان العلامات الحاصلة في السطر الاسفل انما هي نتيجة محاولة الكاتب ان يسرع في كتابة العلامات التي في السطر الاعلى (قابل علامة بعلامة) ويجب ان نلاحظ ان المصريين يكتب من اليمين الى اليسار كما يكتب في العربي . وكانت الكتابة احيانًا من الاعلى الى الاسفل اي عمودية . وكان معروفًا عند المصريين في القرن الثامن ق.م نوع ثالث من الخط السريع يشبه من بعض الاوجه الخط المختزل الحديث ويعرف بالدارج (ذيموتيك) واحدى ترجمات حجر رشيد (شكل ١٦٣) مكتوبة بهذا النوع من الخط

(٦٢) اختراع المصريين التقويم سنة ٤٢٤١ ق.م اقدم تاريخ دوّن في التاريخ

قرر المصريون ان تكون سنتهم اثني عشر شهرًا كل منها ثلاثون يومـاً وجعلوا الايام الخمسة الباقية اعيادًا تُختَم بها السنة . فكانت سنتهم بموجب هـذا التقسيم الجديد ٣٦٥ يوماً ولكنهم لم يكونوا قد برعوا بعد في علم الفلك حتى يجعلوا كل سنة رابعة كبيسة اي ٣٦٦ يوماً . الا انهم ادركوا هذا الخلل فيما بعد (ف ٦٨٧) . وكان استنباط هذا التقويم المفيد سنة ٤٢٤١ ق . م . واستعمالهُ اوّل حادثة أُرّخت في كُتب التاريخ . وقد وصل الينا

هذا التقويم غبَّ استنباطهِ بستة آلاف سنة مشوّهاً لما طرأ عليهِ من التغيير في طول الشهور • الاّ ان المصريين برآء من هذا التشويه الطارئ (ف ٨٧٣)

(٦٣) عدم وجود واسطة لتعيين سنين قد مضت . ابتكار طريقة لتسمية السنين

ولما كثر على مرّ السنين عدد الصكوك المؤرخة بموجب هذا التقويم وُجد انهُ اذا كان الصك سندًا للامر او وثيقة ايجار فلا فائدة للتاريخ اذا كانت السنة غير معلومة• ولم يكن الاصطلاح على بدء التاريخ من حادثة شهيرة كميلاد المسيح او الهجرة النبوية معروفاً بعد• فلكي يتمكن من تعيين سنة مـا غب مرور زمان طويل عليها اصطلحوا على ان يسمُّوا تلك السنة باسم حادثة شهيرة وقعت فيها • ولا يزال الناس يجرون على هـذه الطريقة حتى الآن سواء كانوا من الطبقة المتهذبـة او من الأُميين• فيقولون مثلًا وُلد فلان بعد الحرب الكبرى بكذا سنة او سنين • وسيبقى اهل اليابان يؤرخون من حدوث الزلزال في بلادهم سنة ١٩٢٣ الى ما شاء الله • ونجـد اقدم الآثار المكتوبة مؤرخة على هـذا الاسلوب اي بسنين مسمّاة (شكل ٢٢)

(٦٤) بيان واسماء السنين . اقدم الانباء التاريخية جداول ملوك مع ذكر سنيهم

وعُني المصريون بحفظ جداول السنين والحوادث المهمة (شكل ٢٢) التي وقعت فيها• فتكوّن من هذه الجداول مجموعة حوادث تاريخية ذات خطورة اقدم ما بقي منها الى ايامنا هو الجدول المعروف بحجر بالرمو المحفوظ في دار التحف في صِقلّية• يبتدىء من السنة ٣٤٠٠ وينتهي بالسنة ٢٧٠٠ ق • م • ثم بدا للمصريين بعد ذلك رايٌ اسدُّ وهو ان يحصوا السنين التي ملك فيها كلٌّ من ملوكهم ويؤرخوا الحوادث منها • فيقولون مثلًا في السنة الاولى او العاشرة من ملك فلان حدث كذا وكذا فاجتمع لديهم جداول الملوك السالفين التي تشتمل على تواريخ قرون عديدة

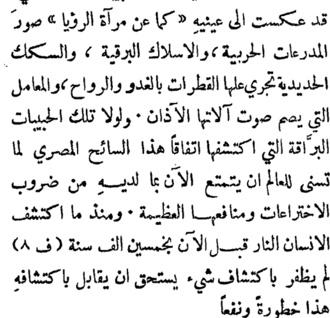
(٦٥) اكتشاف المعادن قبل المسيح باربعة آلاف سنة على الاقل

وكان المصريون يتقدمون في اشياء أُخرى كثيرة منها اكتشاف المعدن • ولا يعلم تماماً كيف استتبَّ لهم ذلك الاّ ان بعض المؤرخين تكهّن وقال انهُ بينما كان احد الرجال سائحًا في شبه جزيرة سيناء اضرم نارًا امام خيمتهِ واحاطها بحجارة كانت مبعثرة حولها • ولما جَنَّ الليل نام وحين افاق في الصباح التالي عمد الى النار التي كانت قد خمدت وحرّك رمادها قليلًا فرأى امامهُ حُبَيبات من معدنٍ تتألق بنور الشمس فالتقطها واخذ يتأملها مدهوشاً لانهُ لم يعلم المصدر الذي جاءت منهُ • ولما كرّر التجربة تبيَّن ان مصدرها الحجارة التي صفها حول النار• فجمع كمية منها استعملت اولاً حُليا للنساء ثم خطر لهُ ان يصنع من ذوب هذا المعدن شفرة تقوم مقام الخنجر الحجري الذي كان يحملهُ في منطقتهِ

(٦٦) فجر العصر المعدني

ان هذا السائح وقف عند فجر عصر جديد هو فجر العصر المعدني دون ان يعلم بذلك •

ولو كان قد ادرك حقيقة تلك الحبيبات اللامعة التي اخرجها بيده من الرماد فلربما كانت قد عكست الى عينيه «كما عن مرآة الرؤيا» صورَ المدرعات الحربية، والاسلاك البرقية، والسكك الحديدية تجري عليها القطرات بالغدو والرواح، والمعامل التي يصم صوت آلاتها الآذان • ولولا تلك الحبيبات البرّاقة التي اكتشفها اتفاقاً هذا السائح المصري لما تسنى للعالم ان يتمتع الآن بما لديه من ضروب الاختراعات ومنافعها العظيمة • ومنذ ما اكتشف الانسان النار قبل الآن بخمسين الف سنة (ف ٨) لم يظفر باكتشاف شيء يستحق ان يقابل باكتشافه هذا خطورةً ونفعاً



الشكل ٢٢ تاريخ مصري قديم جاء فيه اسم السنة

ان جرّة المرمر الكبيرة هذه الموجودة بدار التحف في مدينة فيلادلفيا باميركا اهداها ملك من ملوك مصر الاولين الى احد هياكل الشمس وعليها تاريخ الاهداء معبراً عنه بهذه الكلمات "سنة محاربة وضرب اهل الشمال" وهو اسم السنة التي عقد لهم فيها الفوز على اهل الشمال (الدلتا) ومن اسماء سنين كثيرة مثل هذه يستخلص تاريخ نفيس لحوادث عظيمة دعيت بها تلك السنين (ف ٦٤)

(٦٧) النيل سجل تاريخي كبير

قد اقتفينا اثر الانسان الاول من العصر الحجري القديم الى ان ولج في بلاد مصر باب عمران جديد عرف اصحابه المعدن والكتابة وتنظيم الحكومة • بلاد تهيأت فيها الشرائط اللازمة لحفظ آثار الانسان القديم الجمّة وذلك لجفاف هوائها وندور وقوع المطر فيها • فهي صالحة لان تكون المستودع العظيم لحفظ الآثار الثمينة والاخبار القديمة التي هي حلقة الاتصال الوحيدة بين الانسان قبل عصر التاريخ وصِنوه في عصر التاريخ الذي توافرت فيه الانباء • والآثار التي سنشاهدها ونحن صاعدون في النيل ونطالعها كما نطالع سفراً جليلاً ستروي لنا باسلوب رشيق قصة الانسان القديم وما انجزهُ من الاعمال على توالي الاجيال بعد اكتشافه المعدن واستنباطه الكتابة

(٦٨) اول لمحة من الاهرام

هذه هي الخواطر التي تتردَّد في عقل السائح العالم والقطار يطوي به المسافات نحو الجنوب قاطعاً الدلتا • ينظر بعين الفكر الى المصريين يطرحون ازاميلهم الحجرية ويعتاضون عنها ازاميل النحاس ويتأمل في ما ربما يتوصلون اليه من النتائج الممكنة • وفيما القطار يدور به في منعطفٍ في الطريق، يفاجىء مقلتيه من خلال اشجار النخل نورٌ باهرٌ آتٍ من جهة

الصحراء في الناحية الغربية فيرى بهِ مجموعة الاهرام القائمة فوق الرمال المتوهجة والمعروفة باهرام الجيزة · فيستفيد منها عما تمكن بناؤو مصر القدماء من عملهِ بازاميلهم النحاسية ما لا يستطيع ان يستفيدهُ من الكتب والاسفار · وبعد دقائق قليلة يرى نفسهُ بين ابنية القاهرة الحديثة · وفي اليوم التالي ينهض صباحاً ووجهتهُ الاهرام التي لا تبعد عن المدينة اكثر من سبعة اميال

٦

عصر الاهرام نحو ٣٠٠٠ الى ٢٥٠٠ ق · م

(٦٩) الاهرام مدافن الملوك

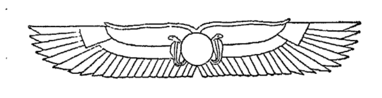
لا يستطيع السائح ان ينسى زيارتهُ الاولى الاهرام لشدَّة تأثره من مرآها المهيب وعلوها الباذخ فوق رمال الصحراء ولا يقع بصره عليها الأ ويخطر في بالهِ الف مسئلة ومسئلة ولا سيما اذا كان قد علم انهذه المباني الفخمة الدانية منهُ كانت مدافن لملوك مصر الاقدمين · واذا استنطقها افادتهُ اشياء جمة عمَّن بنوها · منها ان قدماء المصريين آمنوا بحياة أُخرى بعد مماتهم ولذلك ابتكروا طريقةً يحفظون بها الجسد من عوامل البلى فشيدوا هذه المباني الفخمة وجعلوها قبورًا تحفظ فيها الاجساد بعد انفصالها عن الارواح · ومن هذا المعتقد نشأت بينهم عادة تحنيط جثث موتاهم التي كانوا بعد تحنيطها يرمسونها في قبر ضمن حجرة صغيرة عميقة تحت بناية الهرم · وتدعى الجثة المحنَّطة مومياء · ويُشاهد حول الاهرام الكبيرة وعلى مقربة منها اهرام أُخرى اصغر منها كانت مدافن لاقرباء الملك واعوانهِ

(٧٠) آلهة مصر راع واوسيريس

كان للمصريين القدماء آلهة كثيرة اعظمها اثنان احدهما الشمس التي يتألق سناها في سماء مصر الصافية الاديم · وكانت اعظم الآلهة عندهم · وقد شادوا لعبادة هذا الاله هياكل جميلة وجعلوا الهرم الكبير رمزًا مقدساً لهُ · ولهُ رمزٌ آخر في (الشكل ٢٣) ومن اسمائهِ رَاع · وكانت هيليوبوليس المركز الرئيسي لعبادتهِ · وكان لهُ هياكل أُخرى في جهات مختلفة من البلاد · والاله الثاني النيل الذي كانوا ينظرون اليهِ والى الارض التي ينعشها والحياة النباتية التي يبعثها فيها كشيء واحد الَّهوه ودعوهُ أوسيريس — حياة الارض التي لا

تفنى بل تذوي ثم تتجدَّد كل سنة بحسب تعاقب الفصول عليها (شكل ٢٤) . وكان من بواعث السرور عند كل مصري اعتقادهُ ان هذا الاله المانح الحياة وكل ما يحتاج اليهِ الانسان في هذا العالم هو الذي يعتني بهِ في العالم الثاني بعد ان يوارى جثمانهُ في مدافن الجيزة (١)

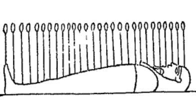
(٧١) تقدم المصريين قبل استعمالهم الحجارة في البناء



الشكل ٢٣ قرص شمس مجنح رمز الاله الشمس

هذه الصورة تدلّ على ان المصريين كانوا يعتقدون ان الاله الشمس هو بازي طائر في عُرْض السماء . وسنرى فيما بعد كيف اخذت عنهم امم الشرق هذا الرمز (شكل ٧٢).

وتنبئنا مدافن الجيزة الفخمة بامور أُخرى كثيرة عن المصريين علاوة على ما حدثتنا بهِ عن ديانتهم . اننا حين ننظر الى الاهرام العظيمة يتعذَّر علينا ان ندرك الشوط البعيد الذي قطعهُ المصريون في مضمار التقدم والارتقاء منذ كانوا يدفنون موتاهم في حُفر كانوا ينقرونها لهم عند طرف الصحراء ويضعون معهم النصال الصوانية (شكل ١٥) . ولم يبلغهم الى هذه الدرجة في سلم الترقي سوى اكتشافهم المعدن في سيناء (ف ٦٥) قبل ان بُنيت الاهرام بالف سنة . ولما مات السائح مكتشف المعدن دُفن مثلما كان يُدفن غيرهُ من فلاحي مصر الاقدمين في حفرة حقيرة (شكل ١٥) فيتضح من ذلك انهُ قد مرَّ على المصريين زمن طويل قبل ان صنعوا من النحاس آلاتٍ تصلح لتشييد المباني العظيمة بالحجارة . وقد كانوا قبل بناء الهرم الكبير بمئة وخمسين سنةً لا يزالون يبنون قبور ملوكهم بالطوب المجفف بالشمس . ولم يكن القبر الملكي في اول امرهِ سوى غرفةٍ صغيرة مسقوفة بالخشب ومتربة بالرمل والحصى (الشكل ٢٦، ٢)



الشكل ٢٤ اوسيريس الميت محنطاً

ترى في هذه الصورة سوق الحنطة طالعة من جثة الاله رمزاً الى ان حياة الاله لا تنتهي لانهُ يغلب الموت ويظلّ حيًّا

ثم نبغ احد مهرة الصناع ووجد انهُ يستطيع بالادوات النحاسية التي لديه ان يقطع

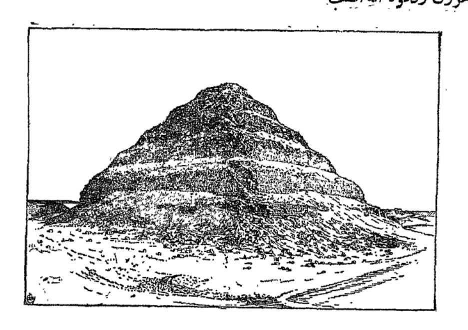
---

(١) كان للمصريين آلهة أُخرى يرمز اليها بصور حيوانات الاَّ ان عبادة الحيوانات التي كثيراً ما تعزى الى المصريين لم تكن سوى نتيجة انحطاط طرأ على ديانتهم في عصر متأخر . فلم تكن الحيوانات في ذلك الزمن القديم آلهة عندهم بل رموزاً الى اشخاص مؤلهين كما كان قرص الشمس رمزاً الى الاله الشمس (شكل ٢٣)

(٧٢) اقدم الابنية الحجرية . امحوتب اول مهندس معماري

حجارة كبيرة من الصخر الكلسي ويستعملها لتبطين غُرف الاضرحة بدلاً من الطوب فبنى ضريحاً (شكل ٢٦ ٣) لا يستحق ان يسمّى بناء لانـهُ كان كلهُ تحت الارض وهو — فيما نعلم — اول بناء من حجر شيدهُ الانسان . اما البناء التالي (شكل ٢٦ ٤) فكان فوق الارض ولكنهُ من الطوب ايضاً . وبعد بنائهِ بقليل شُيِّدت بناية من الحجر مدرَّجة ضريحاً للملك . وهي اقدم بناية من الحجر باقية الى الآن وبانيها امحوتب الشهير وهو اوَّل مهندس معماري استعمل الحجارة في البناء . وُلد وترعرع واشتهر امرهُ حوالي سنة ٣٠٠٠ ق . م . ودامت شهرتهُ امداً طويلاً بعد موتهِ . ولا بَدْع فانهُ كان جديراً بالشهرة حريا بالأكرام اكثر من جميع الذين تقدموه من الملوك والفاتحين لما كان عليهِ من الذكاء والحكمة . وقد الّهـهُ المصريون المتأخرون ودعوهُ اله الطب.

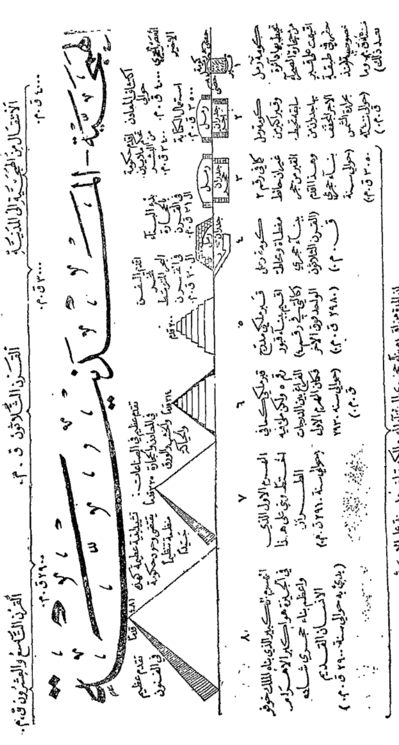
(٧٣) من اقدم بناء من الحجر الى الهرم الكبير ١٥٠ سنة



الشكل ٣٥ اقدم بناية من حجر باقية الى اليوم
(ليس بعد ٣٠٠٠ ق . م . بكثير)

ان هذه البناية وتعرف بالهرم المدرَّج كانت مدفن الملك زوسر (اوائل القرن الثلاثين ق.م) علوهُ ستون متراً وهو مؤلف من عدة بنايات كالتي في الشكل (٣٠) كل واحدة منها مبنية فوق الاخرى. فحصل من بنائها على هذه الصورة بناية عظيمة مخروطية الشكل (شكل ٢٦ ٥) نشأ منها في ختام القرن الثالث عشر ق . م الشكل الهرمي (ف ٧٣)

ولم يكن تشييد امحوتب للبناء المدرَّج المذكور آنفاً الأَّ خطوةً نحو بناء الهرم لاننا نرى انهُ بعد قرن من الزمان شرع مهندسو الملك في بناء هرم الجيزة الكبير (٢٩٠٠ ق . م) فكانت المدة من اقدم بنايات الحجر (شكل ٢٦ ٣) الى بناء الهرم الكبير (شكل ٢٦ ٧) اقل من مئة وخمسين سنة . وقد كان معظم هذا التقدم بين سنة ٣٠٠٠ و ٢٩٠٠ ق . م (شكل ٢٦) ولسنا نجد في عصر من عصور التاريخ البشري نظيراً لهذا التقدم العجيب و إحكام استعمال القوة الميكانيكية حتى نجيء الى القرن التاسع عشر



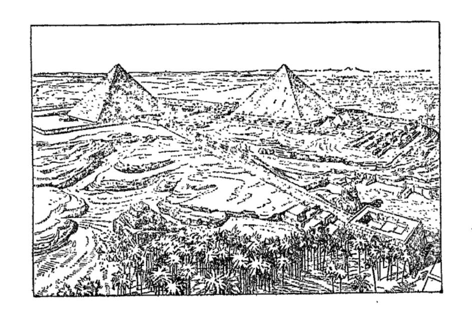
الشكل ٢٦ الارتقاء في غضون الفي سنة من كومة الرمل الى الهرم وتقدم هندسة البناء في مدة مئة وخمسين سنة

في الشكل ١٥ ترى جثة الفلاح المصري موضوعة في قبر تغطيه كومة رمل تحيط بها دائرة من الدبش حفظاً للرمل في مكانه . يظهر عند الرقم (١) رسم القبر مقطوعاً ليظهر داخله وكومة الرمل فوقه . وعند الارقام ٢و٣و٤ ترى القبور التي حفرت فيما بعد مقطوعة ايضاً لاظهار داخلها . ومنها يتبين لنا كيف تغيرت تدريجاً كومة الحجارة المحيطة بالرمل حتى صارت حيطاناً اولاً من الطوب (٢) ثم من حجر (٣) تغلف الضريح برمته مع بقاء الرمل من الداخل . ثم شرعوا يبنون القبور الواحد فوق الآخر كما في رقم (٤) فحصل منها بناية مدرجة استدقت تدريجاً نحو اعلاها ٥ حتى صارت

هرماً رقم (٦). وهكذا كانت كومة الرمل والحجارة المحيطة بها الجرثومة الاصلية التي نشأت منها الاهرام العظيمة في مدة لا تتجاوز خمسة عشر او عشرين قرناً . ثم نلاحظ ايضاً ان هذا التقدم العجيب في فن البناء ابتدأ من كومة رمل في همجية العصر الحجري المتأخر وانتهى بعد الف سنة (٤٠٠٠ الى ٣٠٠٠ ق . م) بالمدنية . وقد كانت صناعة البناء نفسها من جملة علامات الدخول في المدنية . وترقت هندسة البناء من البناء العادي بالحجر الى الهرم الكبير في مدة لا ترقى على مئة وخمسين سنة . ولم يكن التقدم في صناعة البناء العلامة الوحيدة لهذه المدنية الجديدة فان ما ذكرناه آنفاً من الملاحظات عن القبور والاهرام يدل بأجلى بيان على اعمال أخرى مهمة كان لها اليد الطولى في نشوء المدنية وترقيها

(٧٤) حجم الهرم الكبير

ومما يساعدنا على ادراك حقيقة التقدم المذكور المساحة العظيمة التي يشغلها الهرم الكبير البالغ علوّه ٥٠٠ قدم وهو بناء مصمت يشتمل على مليونين وثلاث مئة الف حجر عمل في اعدادها وبنيانها مئة الف عامل مدة عشرين سنة (شكل ٢٧)



الشكل ٢٧ ترميم الاهرام الكبيرة والضرائح الاخرى في مدفن الجيزة القديم بمصر (عن هوأشر)

كانت هذه القبور الملكية (الاهرام) لأهمّ ملوك الاسرة الرابعة التي ملكت في القسم الاوّل من عصر الاهرام (نحو ٣٠٠٠-٢٥٠٠ ق.م) فالهرم الكبير ضريح الملك خوفو ، واقعٌ الى اليمين (انظر ف ٧٤) والذي يتلوهُ حجماً (ضريح الملك خفرع) واقعٌ الى اليسار . وكان امام كل هرم (شكل ٢٨) على الجانب الشرقي هيكل يوضع فيهِ طعام وشراب ولباس لذلك المرموس . وكان كل من هذه الهياكل مبنياً على نشز من الارض كالاهرام . وكانت المدينة الملكية قائمة في الوادي اسفل الاهرام الى اليمين (انظر ف ٧٦) متصلة بالهيكل بواسطة رواق عظيم مسقوف بالحجارة يرى هنا منحدراً في خط مستقيم من هيكل الملك خفرع الى اسفل حيث ينتهي على مقربة من ابي الهول ببناية كبيرة نفيسة مستطيلة الشكل كلها من الحجر الساقي كانت من الجهة الواحدة هيكلاً ومن الجهة الاخرى مدخلاً للرواق الكبير الممتد من المدينة الملكية . وكانت الاهرام محاطة بقبور الملكات واقطاب رجال العصر (انظر الشكل ٣٠). والى اليسار عند اسفل الزاوية هرم غير تام تشاهد فيهِ السطوح المائلة التي كانوا يسحبون عليها الحجارة المائلة. وكانت هذه السطوح مبنية من الطوب المجفف بالشمس وكانوا يهدمونها بعد انجاز البناء

كاكتشاف المعدن مثلاً واستنباط الكتابة وما تبعها من تنظيم اوّل حكومة على شعب كبير وتسيير السفن في البحار والتقدم العظيم في الصنائع والفنون . فنرى ان الاهرام وما سبقها من المباني هي بمثابة أنصاب أُقيمت على الطريق الطويلة التي سار عليها الانسان من البربرية الى المدنية كما تقام الآن الحجارة على جوانب سكك الحديد والمركبات مكتوباً عليها عدد الاميال او الكيلومترات ليعلم منها المسافر المسافات التي قطعها والباقية امامهُ . ونتعلم منها ما هي الاشياء الظاهرة التي تكوّن منها العمران في بدء امرهِ ويجب علينا معرفتها . الاّ ان هنالك اشياء أُخرى مهمة بلغت في الوقت نفسهِ درجة سامية من الترقي ولكنها مما لا يرى . منها الاعتقاد بوجوب العيشة القويمة الصالحة والاشفاق على الفقير وان الحياة البارّة في هذه الحياة هي السبيل المؤدية الى السعادة في الحياة الاخرى

(٧٥) الحكومة في عصر الاهرام

ان ادارة مئة الف عامل واعداد المؤونة الكافية لهم اقتضيا حاكماً حازماً قديراً وعدداً كبيراً من الاعوان والمدبرين . كان الملك قبلاً حاكماً محليا لا غير . ولكن ملكاً يدير عملاً كبيراً كهذا لم تبقَ سلطتهُ محلية (ف ٥٠) كما كانت قبلاً بل عمَّت جميع انحاء البلاد البالغ عدد سكانها بضعة ملايين . وكان الملك محترماً جدًّا من شعبهِ حتى انهم اجلالاً لهُ لم يكونوا يذكرون اسمهُ بل كانوا يذكرون بدل اسمهِ القصر الذي يقيم فيهِ فيقولون «البيت العظيم» ويعنون بهِ الملك «فرعون» كما كان يقول الاتراك «الباب العالي» ويعنون بذلك حكومتهم . وكان لدى الملك اعوان محليّون في كل انحاء البلاد يجبون الخراج (شكل ٢٨) وينظرون في القضايا المرفوعة اليهم ويحكمون فيها بموجب شرائع مكتتبة تأمرهم بان يحكموا بالقسط . ولكن لسوء الحظ فُقدت هذه الشرائع عيناً واثراً . وكان مركز ادارة اعمال الملك في بنايات واطئة من الطوب المجفف بالشمس يقيم فيها عدد كبير من الكتبة الذين يقومون بضبط الحسابات المختلفة وتسجيل المحاضر . وكان لدى كل منهم كمية من اقلام القصب ولفَّات ورق البرديّ للكتابة . ولم يكن الخراج يؤدَّى نقوداً ، لانها لم تكن قد عُرفت بعد ، بل قمحاً وخمراً وعسلاً ومواشي وكتاناً وما شاكل ذلك . وكانوا يخزنون ما يجمعونهُ من الخراج والضرائب ، ما خلا المواشي ، في اهراء ومستودعات كثيرة تتألف من مجموعها خزانة الملك او بيت المال



الشكل ٢٨ موظفو بيت المال يجمعون الخراج في عصر الاهرام

تجد الكتبة والنساخ جالسين صفين عن اليمين متربعين يكتبون وهم قعود والركبة اليمنى مرفوعة الاثنين منهم امام كل منهما مكتبة . يمسكون القلم باليد اليمنى وورق البرديّ باليسرى . ويرى الى يسار الشكل بعض ضباط تأخروا عن تأدية ما عليهم من الخراج فاقتادهم قسراً الى المحاسبة مفوّضون يتأبطون عصياً . اما تفسير الكتابة في اعلى الشكل فكما يأتي : "القبض على حكام المدينة لمحاسبتهم" واسماء هولاء والقيم المطلوب منهم تأديتها مدوّنة امام الكتبة . وحين كانوا يؤدّون المطلوب كانوا يعطون وصلاً بالقيمة كما يفعل مأمورو الحكومة اليوم . اما في اوربا فلم يعمل بهذا النظام الا بعد قيام الامبراطورية الرومانية

(٧٦) المدينة الملكية

وكانت قصور وحدائق اعوان الملك جزءًا كبيراً من المدينة الملكية . (الشكل ٣٥) وكان قصر الملك مع ما يحدق بهِ من الجنات والمتنزهات يَشغَل اهم احياء المدينة . وكانت المدينة الملكية عبارة عن القصر الملكي وما يتبعهُ من الجنائن الرحاب مضافاً اليها منازل وحدائق اعوانهِ من رجال الحكومة . وكانت المدينة ممتدَّة مسافة بعيدة من سفح الاهرام

الى السهول المنخفضة الجميلة التي تشاهد في الجنوب من قمة الاهرام . وبما انها كانت مبنية بالخشب والطوب المجفف بالشمس فقد عفت اثارها ودعيت بعد ذلك ممفيس .

(٧٧) طول عصر الاهرام وتاريخه

واما مدينة الاموات — الاهرام وما حولها من القبور — (شكل ٢٧ و٣٠) فبما انها مبنية بالحجر استطاعت ان تقاوي عوادي الزمان وتبقى حسن الحظ حتى الآن . واذا وقف انسان على قمة الهرم الكبير والقى نظرة نحو الجنوب رأى في الافق البعيد صفا فخماً من الاهرام يربي طوله على ستين ميلاً يثير في النفس الاعجاب ويأخذ بمجامع اللب . وكل هرم منها كان رمساً لاحد الملوك . واقدم الاهرام يمثل لنا العصر الاول الزاهر من العمران المصري القديم بعد ان ضمت البلاد كلها تحت لواء ملك واحد (١) . ويسوغ لنا ان نسمي هذه المدة من سنة ٣٠٠٠ الى ٢٥٠٠ ق . م بعصر الاهرام

(٧٨) التجارة في الشمال

الشكل ٢٩ اقدم صورة لسفينة ماخرة في البحر

هذا المنظر محفور على جدار احد الهياكل (شكل ٣٨) وفيه يرى الناس منحنين اجلالاً للملك الواقف على الشاطيء الى جهة اليسار يحيونه بالكلمات المكتوبة في اعلى الصورة بالخط المصري القديم والتي ترجمتها "الحي الملك سحورع" اله الاحياء "نحن نرى جمالك". ويبن جمهور الرجال الواقفين سبعة رجال ملتحين وهم اسرى فينيقيون أتي بهم من بلادهم في سفينة من سفن الاسطول المصري المؤلف من ثماني قطع . وكانت هذه السفن الثاني قد قطعت البحر حتى جانبه الشرقي وفي رجوعها جاءت بهؤلاء الاسرى . ويرى الصاري المزدوج الكبير مرتكزاً على دعامتين قائمتين بجانب المجاذيف الثلاثة عند المؤخر . ان مثال هذه السفن الاولى والزخارف التي كانت فيها قد احتذته بعدئذ جميع السفن العائمة على المياه من ايطاليا الى الهند

وكان الملوك الفراعنة قد بلغوا في عصر الاهرام درجة عالية من السؤدد والقوة فطمحت انفسهم الى تحصيل

---

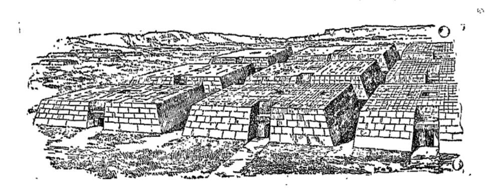
(١) كان في مصر قبل هذا الزمان بوقت طويل ممالك صغيرة متفرقة في طول البلاد وعرضها ولكنها اتحدت اخيراً فتألف منها مملكتان عظيمتان استولت احداها على الدلتا والاخرى على الوادي الواقع الى الجنوب منها . ونشبت بينهما حروب (انظر شكل ٢٢) دامت امداً طويلاً قبل ان اتحدتا وكونتا مملكة واحدة تحت سلطة ملك واحد واول من سعى لهذا التوحيد هو مينيس الملك الاول عليها سنة ٣٤٠٠ ق . م ولكنها لم تبلغ درجة القوة والثروة التي تمكنت عندها من تشييد الاهرام الا بعد مرور اربعة قرون على ملك مينيس . وتدلنا الاهرام بجلاء تام على العصر الاول العظيم من عصور العمران المصري

الثروة من وراء حدود مصر فارسل بعضهم كما يستدل من بعض النقوش الناتئة (شكل ٢٩) سفناً من النيل الى سواحل فينيقية وكان ذلك في منتصف القرن الثامن والعشرين ق · م · وهذه النقوش الناتئة (شكل ٢٩) تمثل صورة اقدم معروفة لسفينة ماخرة في اليم · الا انهُ كان قد مرّ بضعة قرون منذ سيّر الفراعنة سفنهم التجارية على متون البحار · والحقيقة التي لا مراء فيها هي انهُ كان لملك مصر علاقات متينة بآسية · فكان في جبلة (جبيل اليوم) جالية مصرية وهيكل مصري اقام فيهِ المصريون شعائر دينهم · وليس ببعيد انهُ كان لملك مصر شيء من السيطرة الفعلية على المدينة التي كان يأخذ منها كثيراً من الخشب الذي استعملهُ المصريون في تشييد ابنيتهم الجميلة وبناء سفنهم في الحوض الملكي

(٧٩) المتاجرة مع الجنوب اول سفرة في البحر الاحمر

وكان الملك مع مثابرتهِ على استدامة العمل في مناجم النحاس في سيناء يرسل قوافل الحُمُر الى السودان للمتاجرة مع زنوج الجنوب والاتيان بالابنوس والعاج وريش النعام والبخور واللُّبان · وكان اعوان الملك الذين قاموا بتسيير هذه القوافل اقدم رُوَّاد مجاهل افريقية الوسطى · وقد خلَّفوا لنا في قبورهم عند اوَّل جنادل النيل من اخبار رحلاتهم ومغامراتهم بين قبائل الجنوب كلّ ما تلذُّ مطالعتهُ · ومات بعضهم ضحيَّة تلك المغامرات · وكان فرعون يرسل سفنهُ ايضاً الى بلاد بنت الواقعة عند الطرف الجنوبي من البحر الاحمر ليأتوه بالمحاصيل المذكورة آنفاً

(٨٠) كتاب الملك الى هرخوف



الشكل ٣٠ ترميم مجموعة من قبور النبلاء في عصر الاهرام

ان هذه القبور متراصة حول الاهرام الملكية كما يشاهد في (الشكل ٢٧) . وبعضها فخم جداً . والنوافذ التي ترى في اعلاها هي مداخل المدافن المنقورة في الصخر تحت بناية الضريح . والضرائح كلها مبنية بحجارة تحيط من الداخل بكومة رمل وحصى شكل ٢٦، ٤ والمعبد في كل منها يقع في الجانب الشرقي وبابهُ في مقدَّم الضريح . والجدران مزخرفة بالنقوش الناتئة كالتي ترى في الشكل ٤٤

وكانت البلاد الواقعة الى جنوب مصر ذات خطورة في عيون قدماء المصريين · وبقيت على خطورتها هذه، منذ ذلك الحين، لدى جميع الشعوب · قيل ان نبيلاً شيخاً اسمهُ (هرخوف) كان يقيم بجوار الشلال الاوَّل من شلالات

النيل . فخطر لهُ مرَّةً ان يجوب مجاهل افريقية المجاورة للنيل . ولما عاد من تجوابهِ تلك الاصقاع القاصية احضر معهُ قزماً غريب الشكل كانت لهُ قيمة كبيرة لدى اهل البلاط الملكي كما سيأتي : قيل ان النبيل لما دنا من حدود مصر بعث الى الملك برسول ينبئهُ بعودتهِ واحضارهِ قزماً معهُ فاجابهُ الملك برسالة ضافية نقشها هذا النبيل قبل وفاتهِ على جدران قبرهِ لكي تعرف الاجيال الآتية المنزلة السامية التي كانت لهُ عند مليكهِ . وهذه هي صورة الرسالة بحروفها تحت الختم الملكي : السنة الثانية . الشهر الثالث من الفصل الاوَّل . اليوم الخامس عشر . الامر الملكي الى السمير الوحيد (لقب شرف) والكاهن الطقسي المترجم هرخوف . رمقت بنظري كتابك الذي بعثت بهِ الى القصر لتُعلم الملك بانك انحدرت من بلاد يام بسلام (يام بلاد واقعة على النيل الاعلى) انت والجيش الذي معك . وتذكر في كتابك انك احضرت معك هدايا فاخرة حبتك بها الملكة هاثور (الاهة مصرية عظيمة) سيدة يام لتهديها الى (كا) ملك مصر العليا والسفلى « نفر كير » الذي يحيا الى الابد . ومما جاء في كتابك انك احضرت معك الاله قزماً رقاصاً من ارض الارواح (ارض كان يعتقد المصريون انها في الجنوب) اشبه بالقزم الذي احضرهُ خازن الاله بَرِدَدْ من بلاد بُنت في مُلك (الملك) ايسيسي . وانت تقول لجلالتي « لم يُحضر مثلهُ احدٌ من جميع الذين زاروا بلاد يام قبلي » فعسى انك كل سنة تعمل ما تنال بهِ رضى سيدك وثناءه فتمضي الليل والنهار مع القوافل عاملاً بمقتضى رغائب سيدك واوامره فيقلدك قلائد الشرف . وفي ذلك منتهى الفخر لك ولولدك وولد ولدك الى الدهر . ومتى سمع الناس بما احسنت بهِ جلالتي اليك يقولون « هل عُومل احد من قبل بما عُومل به السمير الوحيد هرخوف حين عاد من بلاد يام جزاء سهرهِ وحرصهِ على مرضاة سيدهِ وانجاز اوامرهِ . أقبل سريعاً الى البلاط ومعك القزم الذي اتيت بهِ من ارض الارواح حيا معافى ليرقص امام الاله ويبهج قلب ملك مصر العليا والسفلى « نفر كير » الذي يحيا الى الابد . وحين ينزل معك الى السفينة عيّن لهُ رجالاً يقومون على حراستهِ من جميع جهات السفينة وتحرَّز من ان يقع في البحر . وحين ينام أقم لهُ حرَّاساً امناء يقفون الى جانبهِ في خيمتهِ وتفقَّده عشر مرَّات كل ليلة . لان جلالتي تشتاق ان ترى هذا القزم اكثر من رؤية الهدايا من سيناء وبلاد بنت . فاذا وصلت الى البلاط الملكي ومعك هذا القزم حيا معافى فسأثيبك باكثر مما أُثيب بهِ خازن الاله بَرِدَدْ في ملك ايسيسي وعلى نسبة رغبة جلالتي في رؤية هذا القزم . وقد بعثت باوامري الى حاكم المدن الجديدة قائلاً « قدّم للسمير والنبي العظيم ما يلزم من الزاد بلا تحديد ولا تعيين في كل مدينة وكل هيكل » اه

(٨١) معابد القبور في عصر الاهرام وما تعلمنا لنا

ان الجولان بين هذه القبور المتراصّة حول الاهرام (شكل ٣٠) هو بمثابة الجولان بين الجماعات التي عاشت ودأبت وافلحت في وادي النيل ايام بناء الاهرام. نجد ابواب القبور مفتوحة وليس ما يمنع الدخول. فاذا دخلنا احدها وجدنا انفسنا في غرفة مستطيلة الشكل هي حجرة المعبد التي كان المصريون يعتقدون ان موتاهم يختلفون اليها كل يوم ليتناولوا ما يكون قد اتى لهم بهِ الاهل والاقرباء من فاخر الطعام ولذيذ الشراب. ووجدنا جدران الغرفة المبنية بالحجر مزخرفة بالنقوش الناتئة من الارض الى السقف تتمثل لنا بها الحياة اليومية في احدى «العِزَب» الكبرى (الشكل ٢٨ و ٣١ و ٣٢ و ٣٤) والمكان مهجور الآن لا تسمع فيهِ نأمة انسان ولكن يُرى فيهِ مشاهد انيقة ملوَّنة تمثّل لعين الناظر اليها عيشة القوم اليومية في حالتي العمل والبطالة منذ نحو خمسة آلاف سنة

(٨٢) الفلاحة وتربية المواشي وحيوانات الحمل

وكان يشارف الاعمال التي تمثلها لعيوننا هذه المشاهد الانيقة رجلٌ من النبلاء هو صاحب «العزبة» المشار اليها آنفًا الدفين

الشكل ٣١ الفلاحة والزراعة في عصر الاهرام

يُرى هنا فلاحان احدهما يسوق الثورين والآخر قابضًا على عود السكة التي خلفت المعزقة الخشبية كالتي ترى امام الثورين. الَّا انهم طوّلوا مقبضها لكي يقرن اليها الثوران. فصار بعد ذلك مقبضُ المعزقة عودَ الفلاحة واضافوا اليهِ مقبضين بهما يدير الفلاح السكة. وامامهُ الزارع ينثر البذار من كيس غريب الشكل امامهُ. وعن اليسار كاتب العِزْبة وكتابته بالخط المصري القديم توضح حقيقة حال وما جرى هنا من الاعمال مشهد من قبر النبيل (شكل ٣٠)

في هذا الضريح. نراهُ في الرسم واقفًا يسرّح نظره في حقولهِ الشاسعة ويتعهد الاعمال الجارية فيها. وهنا تُرى اقدم مشاهد الزراعة المعروفة عندنا (شكل ٣١) تُرى المواشي قطعانًا سائمة في المراعي النضرة صقيلة الجلود لفرط سِمَنها. والبقر الحلوبة تُقاد وتُربط للحلب وتشاهد ايضًا حيوانات الحمل. اما الخيل فلا نرى لها اثرًا في القبور التي بُنِيَتْ في عصر الاهرام لانها لم تكن قد عُرفت بعد عند المصريين. واما الحمير فكانت كثيرة لشدَّة حاجتهم اليها إبَّان الحصاد

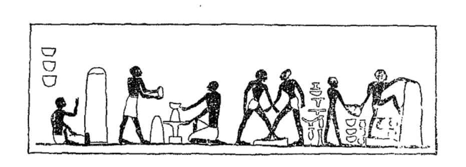
(٨٣) النحاس

ويرى الناظر على الجدار الثاني الحضرة النبيلة تشارف الساحات والمضارب المنصوبة

فيها حيث كان ارباب الصناعات يعملون في صناعاتهم المختلفة . فهنا يُرَى نحَّاس لم يسمع شيئاً قطْ عن التائح الذي التقط اوَّل حبَّة من النحاس منذ امدٍ يربي على الف سنة تقدَّم المصريون في اثنائها تقدماً يذكر بحيث صار النحاس يصنع من النحاس الآلات المتنوعة بحسبما كانت تقتضيهِ الحال . وفي عداد الالات التي اقتضى صنعها حذقاً ومهارةً المنشار الذي كانوا يصنعونهُ بتطريق قطعة نحاس طولها من خمس الى ست اقدام حتى تصير طبق المطلوب . وتشاهد صورة هذا المنشار في حال الاستعمال في (الشكل ٣٤) . وعلاوة على ذلك استطاع النحاس في ذلك الزمان ان يقوم بتوصيات مهمَّة . قيل ان احد النحاسين قدَّم مرَّة لاحد الاهرام من انابيب النحاس ما بلغ طولهُ ربع ميل (الشكل ٣٨) وقد كشفت اعمال التنقيب الحديثة انابيب نحاسية هي اقدم ما عُرف من نوعها

(٨٤) نحات الحجارة الكريمة والصائغ والجوهري

يُرى على الجدار رسم احد نحاتي الحجارة الكريمة ممسكاً بيدهِ – ادهاشاً للنبيل – كؤُوساً انيقة جدًّا منحوتةً من حجر الديُورَيْت (Diorite) الذي امكن الصناع ان يبالغوا في نحتهِ وترقيقهِ حتى كاد يشفُّ عما تحتهُ مع انهُ في صلابة الفولاذ . وكان آخرون من الصناع يقطعون حجر الفيروز قطعاً صغيرة ثم يرصّعون بها الآنية الذهبية النفيسة التي يكون قد صاغها الصاغة . وكان عملهم هذا في النحت والترصيع غاية في الدقة والاتقان . وكان المحل المخصص بالصياغة يغصّ بالمعلمين وتلاميذهم الذين كانوا يطرّقون ويسكبون ويلحمون ويركّبون الحجارة الكريمة بطرق تدل على مهارة لا يكاد يفوقهم فيها صاغة هذه الايام

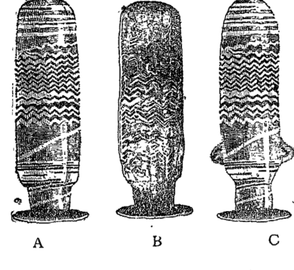


الشكل ٣٢ دولاب الخزّاف والاتون

الخزّاف جالس كما ترى في الرسم امام دولابهِ الافقي الوضع وعلى اعلى الدولاب صفيحة مستديرة يركز عليها كتلة الطين التي يصنع منها الاواني الخزفية . باليد الواحدة يدير الدولاب وبالاخرى يحوّل كتلة الطين الى الشكل المراد والدولاب مسرع في دورانهِ . وهذا الدولاب هو اصل الخرطة في ايامنا . ويرى الى يمين الصورة رجلان يملآن الاتون صحافاً وجراراً . والاتون الذي الى اليسار حامٍ جدًّا لان الرجل الذي امامهُ يُرى وهو يحرّك النار ساترًا وجههُ بيدهِ اتقاء حرارتها

(٨٥) دولاب الخزّاف والاتون (الكوشة) . اقدم الزجاج

وعلى الفسحة التالية من هذا الجدار لا ترى الخزّاف يصنع جراره وكؤوسه بيديه واصابعه كما كان يفعل قبلاً في العصر الحجري بل هو يجلس الآن وامامه دولاب موضوع وضعاً افقياً يديره (شكل ٣٢) ويصنع عليه الآنية الخزفية • ومتى تمّ صُنعها على الدولاب تُشوى في أتون خصوصي شيا متساوياً في جميع اجزائها خلافاً لما كانت عليه يوم كانت تُشوى بنار مكشوفة مدّة العصر الحجري في القرى البحرية السويسرية (شكل ١٠) وكان في دار الخزّاف المصري صفوف من الاتاتين المحكمة السدّ المصنوعة من الطين علو الواحد منها بقدر قامة الانسان • فاذا نضِدت الآنية الخزفية فيها شُويت على التساوي بلا تفاوت في درجة الشيّ لان النار في الاتون لا تعبث بها الريح (شكل ٣٢) • ويُرى على جدار القبر صانع زجاج • وكان المصريون قد اكتشفوا صناعة الزجاج قبل الآن بقرون عديدة • كانوا يبسطون ذَوْب الزجاج على الاجر فيكسبهُ طُلاء باهياً فيزخرفون بهِ جدران المنازل والقصور وتفنّنوا بعد ذلك في صنعهِ فكان لهم منهُ قناني وكؤوس جميلة متعددة الالوان كانوا يصدّرون منها كثيراً الى الخارج (شكل ٣٣) فهذه صناعة أخرى اشتهر بها الشرق منذ القديم ولكنها فيهِ الآن في عداد الصنائع المائتة



الشكل ٣٣ قنانيّ زجاج مصرية وتوزيعها من بابل الى ايطاليا القديمة

A كما وجدت في مصر القديمة. B كما وجدت في بابل القديمة C كما وجدت في ايطاليا القديمة . وهذا الشكل تقليد قوارير الطيب المصرية المصنوعة من المرمر • وصار هذا الشكل في الازمنة المتأخرة الهيئة الشائعة لآنية الطيب وقنانيّ المغسلة بين سكان سواحل بحر الروم

(٨٦) النساج وعملة السجاد

وهنالك النساء النسّاجات ينزعنَ عن النول نسيجاً رفيعاً من الكتان لا نقدر ان ندرك درجة رفاعتهِ من مجرَّد النظر الى الشكل ولكن لحسن الحظ قد ابقت لنا الايام نماذج منهُ رفيعة النسج ملفوفة بها مومياء احد ملوك ذلك العصر ولرفاعتها المتناهية يصعب تمييزها بالعين المجردة عن الحرير • وارفع ما تخرجهُ الانوال الحديثة من المنسوجات العصرية يُعدّ غليظاً بالنسبة الى ما كانت تنسجهُ الانوال اليدوية التي كانت في حيازة المصريين القدماء •

وكان نسّاجو مصر القدماء يجيدون عمل السجاد الذي كانت تزدان بهِ قصور الفراعنة وتظلل

به حدائق مساكن الاشراف . واقدم نماذج السجاد كان من صنع هولاء النسّاج المصريين (شكل ٣٥)

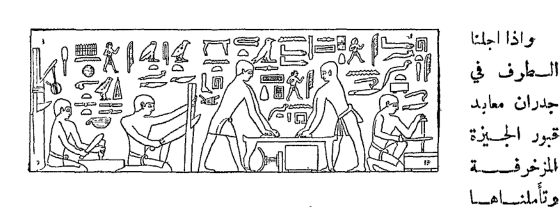
(٨٧) صناع الورق

ونجد في الفسحة التاليــة على الجدار حزماً كبيرة جــدًّا من قصب البرديّ الذي كان يجمعهُ من الارض الغَمِقة التي على ضفاف النيل رجال حاسرون عن سوقهم .ومن ورق البردي هذا كانوا يصنعون اكــداساً من الورق الاصفر بشكل طلاحيّ طويلة ضيقة . (ف ٥٨) وكانت السفن الماخرة في البحر المتوسط تشحن الى اوربا بالاتٍ كثيرة من هذا الورق

(٨٨) نجارون يبنون سفناً ويصنعون خزائن

وفيما نحن ندنو من القسم التالي من الجدار يخيَّل لنا حينما يقع نظــرنا على بنائي السفن وصانعي الخزائن اننا نسمع صوت مدقاتهم ومطارقهم . ونرى صفًّا طويلًا من هياكل السفن والعَمَلة حولها كالنمل عددًا يشتغلون في بناء اقدم السفن البحرية (شكل ٢٩) ونشاهد الى جانبهم نجارين (شكل ٣٤) يُعِدُّون اثاثاً فاخرًا لمنزل النبيل المشيَّد ضمن حديقتــهِ خارج المدينة ويموّهون الكراسيّ والمقاعد التي يصنعونها للملك ولارباب الــثروة ، بالذهب والفضة ويرصعونها بالعاج والابنوس ويتجدونها احسن تنجيد جاعلين مساندهــا الوثيرة من الجلد (ش ٥٢)

(٨٩) تقدم مصر الصناعي كما يظهر من معابد القبور



شكل ٣٤ نجارون في عصر الاهرام

يُرى على اليسار رجلٌ يحفر في الخشب بازميل يدقهُ بطرقة ويتلوهُ آخر يشقّ لوحاً بمنشار نحاس ويتلوهذا رجلان يصقلان سريرًا والذي الى اليمين يثقب ثقباً بالآلة المخصوصة. مشهد من معبد قبر النبيل (شكل ٣٠) كرسي متقن الصنعة لاحد نبلاء المملكة وُضع معهُ في قبرهِ وحفظ من البلى

واذا اجلنا الــطرف في جدران معابد قبور الجــيزة المزخرفــــة وتأملنــاهــا جيــدًا وجدنا انها تقصّ علينا نبأً جليا من انبــاء قدماء المصريين مآلهُ انهم قد تعلّموا ان يصنعوا كل ما كانوا في حاجة اليهِ . بل صنعوا اشياء اخرى كثيرة لم يستطع ابناء العصر الحجري المار ذكرهم ان يأتوا بشيء يضاهيها مع انهم كانوا معاصرين لهم وأقاموا

في قرى بنوها فوق البحيرات وفي مدن اوربية أُخرى ازمان كان المصريون يشيدون هذه المعابد والقبور الفخمة

٩٠) التجارة النهرية . السوق . تنوع المعادن الثمينة

من الهنات الهيّنات ان ننظر بعين الخيال الى نهر النيل في ذلك الزمان البعيد ونشاهد فيه السفن والزوارق تذهب فيه وتجيء تِباعاً دِراكاً حاملة نتاج الصنائع الى خزانة الملك او الى السوق لابدال سواها من السلع بها ٠ وليس تصوُّر ذلك بالامر الصعب لاننا كثيرًا ما نرى مشهدًا كهذا مرسوماً على الجدران . فهنا نرى على الجدار رسم السوق بعينها ٠ نرى الاسكاف يقدّم للخباز حذاء بـدل رغيف ابتاعهُ منهُ وامرأة التجار تعطي بائع السمك صندوقاً من الخشب بدل سمكة . وامرأة الخزَّاف تعطي الصيدلي كأسين بـدل قارورة طيب . فيبين لنا من ذلك كله انهُ لم يكن الناس في ذلك الزمـان يتداولون النقود المسكوكة بـل كانت المتاجرة بينهم تتمّ بمبادلة السلع ٠ على هـذه الوتيرة كانت تجري المعاملات التجارية بين السُّوقة واما في القصر الملكي فكانت على غير ذلك . لانهم كانوا يستعملون بدل النقود حلقات ذهب ذات وزن معلوم . وكانوا يستعملون ايضاً للغاية نفسها حلقات نحاسية . وكانت تلك الحلقات رائد النقود الحقيقة

(٩١) الهيئة الاجتماعية في عصر الاهرام . ثلاثة اصناف من الناس

ان الذين تُشاهد رسومهم في صورة السوق الزاهية على جدار المعبد هم من عامَّة الشعب المصري في عصر الاهرام . وكان بعض هولاء احرارًا يتعاطون صناعاتهم المتنوعة وتجارتهم كما يشاؤُون وبعضهم ارقاء يعملون في اراضي الاغنياء اذ لم يكن لاحد من طبقات الشعب الدنيئة عقارات خاصة بل كانت الاراضي كلها في حيازة الملك والنبلاء وموظفي الحكومة . وكثيرون من هولاء معروفون باسمائهم . فـلو جلنا مرَّة واحدة بين رموسهم لاستطعنا ان نكتب قائمة باسماء اغنيائهم الذين كانوا يقيمون في المدينـة الملكية تحت حكم الملوك الذين دُفنوا في اهرام الجيزة وقائمة أُخرى باسماء رؤساء الوزارات وحَفَظة بيت المال وكبار القضاة والمهندسين ورؤساء الحجَّاب والمقدَّمين وسواهم . ويرى هنـا ايضاً ضريح المهندس المعماري الذي بنى الهرم الكبير

٩٢) النبيل في قصره في عصر الاهرام

ونستطيع ان نتصوَّر الملذَّات والمسرَّات التي كان يتمتع بهـا النبلاء وموظفو المملكة وهم يديرون شؤُون الحياة الاجتماعية والصناعية بوادي النيل في عصر الاهرام . ونرى هنـا على جدار المعبد صاحب المعبد جالساً في محفَّته محمولاً على مناكب عبيده وهو عائد من تعهد املاكهِ الشاسعة . وما كانت محفتهُ الا مركبة فاخرة لا عَجل لها فتحمل على المناكب . وكان العبيد متى وصلوا الى فِناء قصر سيدهم (شكل ٣٥) يضعون المحفة عن مناكبهم في ظلال

اشجار حديقة القصر ويكفُّون عن الغناء [1] فتدنو منهُ زوجتهُ الوحيدة وتحييهِ وتجلس الى جانبهِ . وكانت الزوجة محترمة مكرَّمة تتمتع بجميع ما لزوجها من الحقوق · وكانت هذه الحديقة متنزَّه النبيل الذي كان يختلف اليهِ بين وقت وآخر ترويحاً للنفس من العناء مصحوباً ببعض افراد أُسرتهِ واخدانهِ يلعب واياهم بالداما ويُصغي طرباً الى ايقاع الالحان على القانون والعود والمزمار مرتاحاً الى رؤية زوجتهِ ونساء بلاطهِ يرقصنَ رقص ذلك الزمان وعيناه ترعيان اولاده وهم يمرحون بين الاشجار عابثين بالماء يطاردون الاسماك في البرك ويلعبون بالدُّمى والطابة ويقفزون او يداعبون القرود الداجنة التي كانت تهرب منهم وتحتمي تحت كرسيّ العاج الذي كان والدهم جالساً عليهِ

٧

الفنون وهندسة البناء في عصر الاهرام

(٩٣) منزل النبيل

هنا يُرى النبيل يُربّت رأس كلبهِ باليد الواحدة ويشير بالاخرى الى الوكيل على بساتينهِ مقدماً لهُ التعليمات اللازمة في ما يختصّ بالرُّمّان الذي كان مزمعاً ان يتناولهُ وقت الغداء · اما البيت (شكل ٣٥) الذي كانوا يُعدُّون لهُ فيهِ غداءهُ فرحبٌ فخمٌ الا انهُ مبني بالطوب والخشب . ويُدخل اليهِ النور والهواء بقدر الحاجة من شبابيك من جهاتهِ الاربع مشبكة بشعريات . وكان معلقاً على جدران غرف السكن سجوف زاهية الالوان (ف ٨٦) تُسدَل عند الاضطرار اتقاء الرياح والرمال التي كانت تسفيها الرياح بين حين وآخر . وكانت تلك السجوف تكسب الغرف جمالاً تقرُّ بهِ العيون · وبما ان هذا المنزل ثمرة من ثمار الفنّ فهو يرينا كيف كان قدماء المصريين يميلون الى جعل ما حولهم جميلاً · ولم يكسبهم هذا الميل الى الجمال الاَّ توخيهم ان يصنعوا الاشياء المفيدة كلها جميلةً

(٩٤) الفن في صنع الاثاث وزخارفه

وفيما نحن نتتبع خطواتهِ في ذهابهِ الى قاعة الطعام نرى الجمال يحفُّ بنا من كل جانب . فنشاهد ازهار النبات المعروف بعرائس النيل منقوشةً على مقبض ملعقتهِ والخمر تترقرق في كاس زرقاء مصوغة على مثال الزهر المذكور وقوائم الكرسي الذي يجلس عليهِ والمقعد الذي

---

(1) ترى الاغنية التي كانوا يتغنون بها مدوَّنة مع اغاني أُخرى على جدران معبد القبر

يستند اليهِ مخروطة على مثال قوائم الاسد او الثور القوي العضل • ونرى السقف المزوَّق فوق رأسهِ يمثّل لاعيننا السماء الزرقاء ترصّعها النجوم. يرتكز على اعمدة من جذوع النخل (شكل ٣٨) تيجانها طاقات اوراقها المسترسلة محفورة في خشب مدهون باللون الاخضر لكي يشبه لون الشجر الطبيعي او على اعمدة بشكل نبات عرائس النيل ترتكز على ارض كأنها تحمل السقف الازرق على ازهارها المتمايلة • ويشاهد الحمام وانواع الفراش المختلفة كأنها تطير تحت سماء ضمن ابواب المنزل• ونرى تحت اقدامنا في قاعة الطعام صورًا ملوّنة تغشّي ارض تلك القاعة وتمثّل لاعين الناظر انّى التفت لون الاعشاب النابتة في الاراضي الغمِقة اي اللون الاخضر الداكن والماء يبصّ من خلالها والسمك يمور بين القصب المتمايل • وعلى الدائر يُرى الثور البري مارحاً بين الحَلفاء رافعاً راسهُ نحو العصافير التي كانت ترقرق وهي جاثمة على نبات الحلفاء الذي كان يتمايل تحتها

الشكل ٣٥ منزل وحديقة نبيل مصري

الحديقة مسوَّرة بجدار عالٍ . والداخل اليها يرى برك ماء على الجانبين وعريشة تمتد الى منتصف الحديقة والمنزل يقع وراءها مظللاً بالاشجار الغضة وعلى سطحهِ جنينة تظللها الطنافس الفاخرة ف ٨٦

ولو لم يكن بين المصريين الاقدمين عدد عظيم من ارباب الفنون ما استطاعوا ان

(٩٥) الصور والحفر النافر في القبور والهياكل

يتركوا لنا ما تركوهُ من الرسوم المجسَّمة في معابد رموسهم التي زرناها . نجد في احدى الزوايا صورة الرسَّام الذي زوَّق جدران المعبد . وهي تمثلهُ لنا جالساً مع جماعة من اخوانهِ يتنعم باطايب الاطعمة في مأدبة حافلة أعدَّت في دَسْكرتهِ . ومع اعجابنا بهذه الصوَر نرى ان المصورين لم يقدروا في ذلك الزمان البعيد ان يتغلبوا على جميع الصعوبات التي كانت تحول دون تصويرهم الاشياء التي يرسمونها مجسمة . كانوا يرسمون الحيوانات بتمام التدقيق بحيث تكون المشابهة بين الصورة وما أُخذت عنهُ تامَّة (شكل ٣١) ولكنهم لم يستطيعوا ان يظهروا في تصويرهم النسبة التي بين الاجسام المختلفة فكانت الاجسام عندهم بحجم واحد تقريباً سواء كانت في مقدم الصورة او في مؤخرها القريبة والبعيدة سواء



الشكل ٣٦ صورة الملك خفرع باني الهرم الثاني من اهرام الجيزة

وجدت هذه الصورة في هيكلهِ بالوادي (الشكل ٣٧) محفورة في حجر الديوريت القاسي . والبازي المبسوط الجناحين الواقيين هو رمز الاله العظيم هوروس (القرن التاسع والعشرون ق . م)

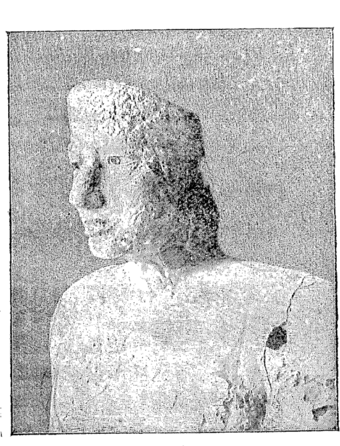
(٩٦) نحت التماثيل

وكان اعظم رجال الفن في هذا العصر نحَّات التماثيل . كانت التماثيل تُنحت من الحجر او الخشب وتُلوَّن بلون الاحياء . وكان صانعوها يتزلون في عيونها بلّورات حجر فتظهر بها كأنها تتألَّق بنور الحياة (شكل ٣٧) . ولم يستطع احد من الناس في جميع العصور ان يأتي باحسن من هذه التماثيل من وجهة مشابهتها للاحياء مع انها تعدُّ اقدم التماثيل المنحوتة . وكانت تماثيل الملوك الانيقة (شكل ٣٦) تُنصب في هيكل هرم فرعون (شكل ٣٨) . واعظم تماثيل عصر الاهرام حجماً تمثال ابي الهول القائم بمقبرة الجيزة . رأسهُ يمثل لنا راس الملك خفرع باني ثاني اهرام الجيزة . وقد نُحت من راس صخر مُشرف على المدينة الملكية

وهو اكبر تمثال نُحت في الدنيا باسرها قديماً وحديثاً .

(٩٧) فن البناء نارة المياكل

ان الركائز والجدران الهائلة المبنية من حجر الغرانيت في هيكل خفرع الذي في الوادي (شكل ٢٧) بجانب ابي الهول تُظهر لنا عظمة الابنية الحجرية التي هندسها الاقدمون في الشطر الاوّل من العصر الهرمي . كان النور يدخل هذا البناء الفخم من سلسلة كوًى صغيرة مائلة قليلاً وقريبة من السقف تشغل الفسحة الواقعة بين سقف صحن البناء وسقفي الجناحين على الجانبين اللذين كانا اوطأ من سقف الصحن وهذا الترتيب او النظام هو ما يسمى في اصطلاح بنائي اليوم « منوَّرا » (شكل ٢٢٣) واقتبس اليونان والرومان فيما بعد هذا النوع من الهندسة من قدماء المصريين . وقد تنبَّه لهذا الضرب من البناء المسيحيون فبنوا كنائسهم الكبرى طبقًا لهندسته . فالبناء الذي شيدهُ فرعون خفرع هو اذن اصل الابنية المسيحية المسماة بالكاتدرائيات . فعنهُ اخذ المسيحيون هندسة كنائسهم بعد مرور ثلاثة آلاف وخمس مئة سنة فاقاموا في كل كنيسة صفين من الاعمدة صفا الى اليمين وصفا الى اليسار



الشكل ٢٧ س تمثال ملكي من البرونز في عصر الاهرام

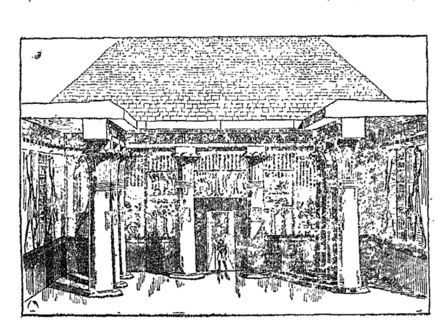
تمثال الملك ببي الاوّل (٢٦٠٠ ق . م تقريبًا) . الراس من البرنز طرّق اصلاً على قالب خشب. وعلى البرنز قشرة من الزنجار . ويُرى ان العينين مرصعتان بقطعتين من حجر متبلور ، تظهران كأنهما حيتان

(٩٨) اقدم الاروقة ذات الاعمدة

لكنَّ المصريين نظرًا لما أُوتوهُ من حسن الذوق وحب الجمال لم يثابروا امدًا طويلاً على هذه الخطة من تشييد الابنية الضخمة بل عدلوا عنها في اقل من قرن من الزمان معما هي عليه من الفخامة والجلال كما يشاهد في بناية خفرع . فبدلاً من الركائز والاعمدة الضخمة

صاروا ينحتون الاعمدة الخفيفة وينصبونها مكان الاعمدة القديمة واضعين على راس كل عمود تاجاً جميلًا · وكانوا ينصبونها صفوفاً طويلة· واقدم هذه الاعمدة يمتدّ تاريخهُ الى القرن الثامن والعشرين ق·م· وكانت من مميزات مصر دون سواها· لاننا حين نبلغ في درسنا الى اسية القديمة نجد ان سكانها كانوا يجهلونها (ف ٢٠١)

(٩٩) تأخر العصر المصري



الشكل ٢٨ صفوف من الاعمدة في دار هيكل الهرم منذ القرن الثامن والعشرين ق·م

لاحظ الهرم مرتفعاً وراء الهيكل (كما في شكل ٢٧ ايضاً) الباب الذي في الوسط يؤدي الى المكان المقدس المبني الى جانب الهرم حيث وجد شبه باب منقور في الصخر كانوا يعتقدون ان الملك حين يأتي من عالم الاموات ليدخل منهُ يتنعم باطيب الاطعمة المعدة له في آنية نفيسة ويشترك في المآدب الفاخرة التي تقام له . ومنتصف الدار مكشوف بحيث يرى الجلد.وسدة الباب قائمة على عمد مستديرة من اقدم ما عرف من نوعها في تاريخ البناء . قابل بين هذه وبين الركائز المربعة بلا تيجان التي كان يستعملها بناؤو الملك خفرع في بناء هيكلهِ قبل هذا الزمان بقرن . وكل عمود يمثل نخلة تاجها الاوراق التي في راسها . وكان المكان برمتهِ ملوّناً بالوان زاهية طبيعية .وهكذا كانت الجدران التي وراء الاعمدة وكان بين الصور المركب الذي في الشكل ٢٩ . وكان في البناية أنابيب نحاس ممدودة الى جهات مختلفة فيها · وهذا اقدم ما علم عن مدّ الانابيب (ف ٨٣)

ان المقابر الهرمية ارتنا عظمة العمران الذي بلغهُ المصريون في عصر الاهرام ولو سمح لنا الوقت لكنا ربما نجد آثاراً أخرى هنا ترينا كيف ان نبلاء ذلك العصر (وهم كالنبيل الذي زرناهُ على جناح التصوُّر في قصره بملكه) ازدادوا قوةً حتى لم يقدر الفراعنة ان يكبحوا جماحهم · فقامت بينهم المشاحنات واشتدّ نزاعهم وكانت العاقبة سيئة جداً على مملكة الفراعنة فتقوّضت دعائمها وانهار بنيانها · وسقط آخر ملوكها عند نهاية سنة ٢٥٠٠ ق·م· فكانت مدة هذه المملكة نحواً من خمسمئة سنة · وبسقوطها انتهى اوّل عصر

متمدن من تاريخ البشرية ، العصر الذي نقل الناس للمرّة الاولى من الهمجية الى المدنيـة (انظر شكل ٢٦) الاّ ان عصر الاهرام لم يكن نهاية العمران او المدنية في وادي النيل بل ثلثةُ عصور أُخرى حفظت لنا آثارها مصر العليا • فيجب ان نصعد في النيل لكي نشاهدها ونستخلص منها القصة المدهشة التي ترويها لنا وهي صامتة

اسئلة

٥

اخبرنا شيئاً عن حياة اقدم سكان النيل وكيف نعرف ما نعرفـهُ عنهم • تتبَّع نشوء الكتابة بالالفاظ الصوتية • اين اخترعت حروف الهجاء الاولى ؟ اكتب ثلاث كلمات بالخط المصري القديم (شكل ٢٠) أين اهميـة اختراع الكتابة • اذكر الطرق القديمـة لقياس الوقت • اذكر الطريقة الراجحة لاكتشاف المعدن • وايّ معدن كان ؟

٦

ماذا تخبرنا قبور مصر عن الدين ؟ أين تأثير استعمال المعدن في البناء • اخبر ما تعرفـهُ عن اوَّل بانٍ بالحجارة • صِف حكومة عصر الاهرام • ادرس (شكل ٢٦) واخبر كيف تظهر القبور المصرية الانتقال من الهمجية الى المدينة • صف اقدم المراكب البحرية الماخرة في البحار • اكتب قائمة بالصنائع التي تكشفها لنا صور معبد القبر • قل ما تعرفهُ عن الصناعة والتجارة

٧

صف بيت وحديقة احد النبلاء في عصر الاهرام • قل ما تعرفـهُ عن التصوير ونحت التماثيل • ارسم صورة للاعمدة والركائز او الدعائم القديمة • هـل كانت جميلة ؟ ارسم ركيزة مثل التي استعملوها بعد الهرم الكبير بمئة سنة (شكل ٣٨) هـل كانت جميلة ؟ صف النوافذ الضيقة التي كانوا يفتحونها قرب السقف • الى ماذا تحوَّلت بعد ذلك ؟ ما هو تاريخ عصر الاهرام ؟ لماذا كان مهما ؟

الفصل الثالث

تاريخ مصر . عصر الاقطاع والامبراطورية

٨

الرحلة النيلية وعصر الاقطاع

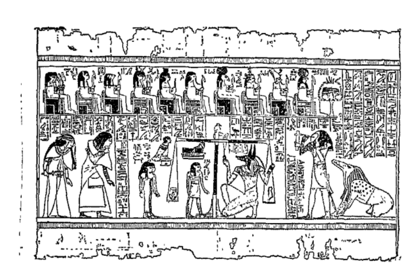
(١٠٠) بدء رحلة النيل

حينما تقلع بنا الباخرة من مرفإ القاهرة وتبتدئ سفرتنا الى اعالي النيل نرى صفا عظيماً من الاهرام يمتد نحو الافق الغربي الى امد بعيد يُعيد الينا ذكرى ازدهار عصر الاهرام الذي بلغنا الآن الى نهايته . ثم تتوارى عن ابصارنا الاهرام ووراء اشجار النخل الباسقة ويبدو امامنا مشهد من الآثار الفخمة يأخذ بمجامع اللب . وفيما السفينة تمخر بنا نحو الجنوب بمرأى من اشجار النخيل التي تزدان بها الضفاف عن الجانبين نشاهد مباني ومدافن وآثاراً تحدثنا بغير لسان بانباء عصرين آخرين عظيمين بوادي النيل — عصر الإقطاع وعصر الامبراطورية. وكلما اوغلت بنا السفينة نحو الجنوب وجدنا النهر آخذاً بالتمعج من جانب الى جانب في ذلك الوادي العميق دافعاً السفينة احياناً الى اماكن تحت صخور فلّلتها وبرتها عوامل الطبيعة (ش ٤٩) واذا انعمنا النظر رأينا كثيراً من ابواب المدافن والمعابد المؤدية اليها منقورة في تلك الصخور

(١٠١) مدافن عصر الاقطاع

وهذه القبور المنقورة في الصخور الشاهقة المشرفة على النهر هي قبور الذين عاشوا في عصر الاقطاع من تاريخ مصر . وكان الدفناء فيها ينظرون الى اسلافهم في عصر الاهرام من وراء خمسة قرون من الزمان كما ننظر نحن الى اسلافنا قبل تأسيس المملكة العثمانية . وقد والى الزمان اولئك النبلاء الراقدين في هذه القبور اكثر مما والى اسلافهم فكانوا

اعظم منهم قوَّة واشد بأساً . وقد اقطعهم الملك اراضي فسيحة تحت شروط معينة اتفقوا معهُ عليها كان عليهم بموجبها ان يؤدوا لمليكهم خدماً معلومة بدل استغلالها . وفيما سوى ذلك كانوا احرارًا مستقلين بل كانوا ملوكاً صغارًا على اقطاعاتهم ، الشاسعة الاطراف والخصبة التربة ، التي تشرف عليها ابواب القبور . ودام النظام الاقطاعي هذا بضعة قرون . وبلغ معظم رفعته سنة ٢٠٠٠ ق.م. وقد وُجد في مدافن نبلاء عصر الاقطاع بقايا مكاتبهم وهي اقدم مكاتب العالم . والكتب التي وُجدت فيها — وهي اقدم الكتب الباقية الى ايامنا — على شكل دروج من ورق البردي كانوا يحفظونها في اصونة مخصوصة معنونة باتقان ومصفوفة على رفوف في المكتبة . وكان في هذه المكاتب اقدم كتب الروايات عن الاسفار والمغامرات في اسية وعن تكسُّر السفن في الاقيانوس المجهول وراء البحر الاحمر ، « اوَّل سندباد بحري » (ش ٤١) وكثير من قصص المجوس والسحرة ومعجزاتهم



الشكل ٣٩ نرى الى اليسار الميت المسمى آني عليه ثياب بيض وامرأته معهُ . وامامهُ موازين الدينونة التي يُوزَن بها القلب البشري ليعرَف أصالح هو ام شرّير . والذي يضبط الميزان الهٌ له راس ابن آوى . ووراءهُ إلهٌ آخر له راس طائر . ويسمى ايبيس . قلمهُ في يدهِ . مستعدٌ ان يسجل الحكم الذي يصدر من الميزان . وخلفهُ وحشٌ هائل مستعدٌ ان يبتلع النفس الاثيمة . وحين يوزَن القلب المرموز اليهِ بقارورة صغيرة في الكفَّة اليسرى من الميزان يضعون مقابلهُ في الكفَّة اليمنى عيار الحق المرموز اليهِ بريشة . وهذا المشهد مصوَّر على ورق البردي . ويبلغ احيانًا طول اللفَّة المصوَّر عليها ٩٠ قدماً . وهي مملوءة من اولها الى آخرها تعاويذ سحرية لمنفعة الميت في العالم الآتي . ويسمون اللفة كلها "كتاب الاموات"

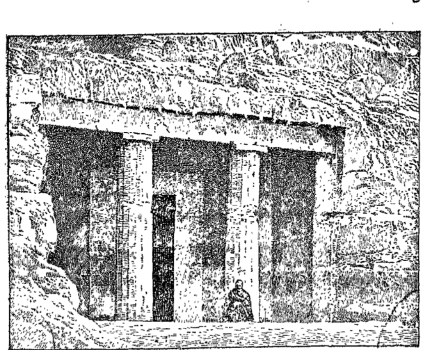
(١٠٣) كتب في الحض على الشفقة والعدالة

ويظهر من خلال سطور هذه القصص ما كان يعانيهِ الفقراء من ضروب الشقاء ومضض التعذيب . وقد حاول الذين صاغوا ما فيها من درر القول ان يستنهضوا همم الحكام الى وجوب مراعاة العدل بل الرحمة في معاملاتهم للطبقات الضعيفة من الناس . وقد اسهب الكتبة ، في بعض تلك القصص في بيان شرّ الانسان وقطع الامل من صلاح المستقبل . وفي البعض الآخر انبأوا بمجيء حاكم عادل في المستقبل يدعى « الراعي الصالح » اي الملك

العادل الذي يشمل بعدلهِ الجميع ويعمم السعادة بينهم · ونرى هنا فرقاً بيّناً بين هذا العصر وعصر الاهرام · ففي استهلال عصر الاهرام رأينا تقدماً عظيماً في السلطة وهندسة البناء والفنّ · وفي عصر الاقطاع نرى تقدماً من جهة أُخرى — نرى تقدماً في الاخلاق والسلوك (طالع شرح شكل ٤٠)

(١٠٣) الروايات الشعرية التمثيلية والقرابين

ومن تلك الروايات الشعرية رواية اوسيريس الانيقة التي مُثِّلت فيها حياتهُ كما مُثِّل موتهُ ودفنهُ وقيامتهُ (ف ٧٠) في مأدبة حافلة كانت تقام كل سنة يشترك فيها خلق كثير · والرواية مكتوبة على عدد كبير من الدروج · وهي اقدم الروايات المعروفة من نوعها · تثير العواطف وتهيج الحاسات الاَّ ان عوامل الفناء قد سطت على دروجها فلاشتها · وهنالك دروج أُخرى حوت قصائد واغانيَّ كالتي كان يتغنَّى بها نبلاء بلاط فرعون كل صباح محيين مليكهم · وكانوا يترنمون بمديحهِ باغنية أُخرى يرتلها جوقان



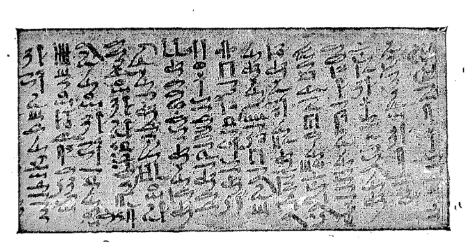
الشكل ٤٠ قبر امير مصري من عهد الاقطاع منقور في صخر شاهق

هذا القبر غير مبني بالحجر كقبور عصر الاهرام (شكل ٣٠) بل هو منقور في وجه الصخر والمعبد الذي يدخل اليهِ من الباب يحتوي صوراً نافرة ملونة كالتي كانت شائعة في عصر الاهرام وآثاراً مكتوبة · وهناك ما جاء في تلك الكتابة عن الملك الذي عدَّد حسنات نفسهِ ولطف معاملتهِ لشعبهِ قال: لم اعتدِ على شرف بنت من بنات شعبي ولم اظلم ارملة ولم اغتصب مال احد الفلاحين ولم اطرد راعياً من خدمتهِ · ولم يكن احد بين جماعتي تعساً ولا جائعاً وانا في الحياة ولما اتت سنو الجوع فلحت وزرعت كل اراضيَّ احتفاظاً بحياة المقيمين فيها · فلم يكن بينهم جائع وقد ساويت في عطائي بين الارملة وذات البعل · وفي كل ما وهبت لم اوثر العظيم على الوضيع (ف ١٠٢) كل هذا مكتوب ضمن هذا القبر

على التعاقب في حفلات البلاط . وكانت تشبه في اسلوب نظمها مزامير العبرانيين . وهي اقدم مثال لهذا النوع من النظم باقٍ الى الآن

(١٠٤) كتب العلم

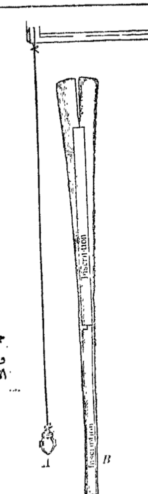
كانت كتب العلم في هذا العصر قليلة . اكبرها واعظمها قيمة كتاب يتضمن ما كان معروفاً عن الطب واعضاء الجسد . ويُعدُّ اقدم كتاب طبي . اذا نشر على طوله بلغ طولهُ ستاً وستين قدماً وبانت فيهِ وصفات طبيَّة لجميع انواع العلل المعروفة لا يزال بعضها — كزيت الخروع مثلاً — مستعملاً في العلاج حتى الآن . وفي بعض تلك الكتب ما يشتمُّ منهُ ان اولئك الاسلاف الاقدمين كانوا يعزون قسماً من الامراض الى فعل الشياطين كما يفعل بعضهم في بعض جهات بلادنا حتى الآن . ويوجد درجٌ آخر يبحث في الطب بطريقة عامية افضل من الطرق التي تقدَّمتها . وفيهِ مجموعة حوادث امراض مبحوثة بطريقة نظامية . تبتدئُ الواحدة منها بذكر اسم المرض ثم يتلو ذلك تعليمات لارشاد الطبيب في الفحص والتشخيص والانذار . فاذا حكم بان المرض يذعن للعلاج اعطيت التعليمات اللازمة بهذا الصدد . وعند نهاية كل حادثة بحثٌ في معاني الاصطلاحات الطبية



الشكل ٤١ صفحة من حكاية البحري الذي انكسرت سفينتهُ وهو اقدم سندباد

هذه الحكاية هي التي كان يتلوها الصبيان والبنات في مصر قبل اربعة آلاف سنة (قياسها هذا ثلث قياسها الاصلي) وهذا نصّ ما جاء فيها . مات الذين كانوا في المركب جميعهم ولم ينجُ منهم احد . اما انا فالقتني موجة من امواج البحر العظيم على جزيرة فلبثت فيها ثلاثة ايام وحدي لا رفيق يسليني سوى قلبي . وكنت انا مختبئاً بين الاشجار الى ان يغمرني نور النهار فانهض متسللاً لعلي امسك شيئاً املأ بهِ فمي فكنت اجد تيناً وعنباً وكثيراً من انواع الخضرة الخ ثم تقول الحكاية ان حية ذات لحية طويلة امسكتهُ . ووجد أن تلك الحية هي ملك الجزيرة البعيدة الواقعة في البحر الاحمر عند مدخل الاوقيانوس الهندي . واحتفظ الملك بهذا البحري ثلاثة اشهر احسن في اثنائها معاملتهُ ثم ارجعهُ الى مصر بعد ان حباهُ بكثير من النضار . اما شكل الكتاب الذي أُخذت منهُ هذه الحكاية فهو قدَّة واحدة من ورق البردي طويلة وعريضة . وكانت تبقى ملفوفة ما داموا في غنى عن استعمالها . وهكذا كان اقدم الكتب لفَّات فاذا كانت صغيرة باتت كأنها شهادة مدرسية واذا كانت كبيرة بانت كانها رزمة ملفوفة

المستعملة في الفحص عن الحادثة المرضيَّة . وهذا اقدم بحث في الجراحة باقٍ الى ايامنا . وهو يفوق من الوجهة العلمية كل بحث من نوعه صدر من الشرق القديم . وبعض تلك الكتب يبحث في الحساب ويتضمَّن قواعدهُ البسيطة المبنية على النظام العشري المستعمل في ايامنا هذه والبعض الآخر يتضمَّن مباحث في مبادىء الهندسة والجبر وارصاداً فلكية بآلات بسيطة (شكل ٤٢) ولكن هذه الآثار قد عفت عيناً واثراً كما عفت الآثار الجغرافية ايضاً



الشكل ٤٢
آلة فلكية مصرية قديمة
اقدم استنباط فلكي باقٍ الى ايامنا موجود الآن في متحف برلين جزؤه A عبارة عن شاقول ذي مقبض يتصل من الاعلى بالقدة المرسومة عن يمينه وقد رسم هنا منفصلاً عنها . وهو يمكن الراصد من توجيه الجزء الآخر من الآلة B الى نقطة مفروضة على الارض وهو يرصد من ثقب في اعلى القدة احد النجوم كنجم القطب مثلاً ويمالة القدَّة التي بينه وبين نجم القطب حتى تنطبق على النجم يقدر الفلكيان بعين ما اجزائه ويرصد كل نجم يقطعها وبنفس الوقت ويستخلص مقدمات فلكية قيّمة .

(١٠٥) خطط جديدة في الادارة والري في عصر الاقطاع

وللتلاؤم مع الشأو الذي بلغهُ الفراعنة في مضمار التقدم شرعوا في تحسين شؤون الادارة في الحكومة التي كانوا قابضين على زمامها . فكانوا كلما مرَّ بضع سنين يأمرون باحصاء النفوس ضبطاً لجباية الإتاوات والضرائب الاَّ انهُ لم يبقَ من قوائم الاحصاء الاَّ الطفيف . وقد اقاموا في وجه المياه سدوداً من التراب وانشأوا خزَّانات عظيمة لحفظ مياه الفضيان واستعمالها في الريّ حين الحاجة . وبذلك زادوا محاصيل الاقطاعات وسائر العقارات الاخرى وكانوا من سنة الى سنة يقيسون ارتفاع مياه النهر ويسجلون ذلك على الصخور كما يشاهد ذلك عند الشلال الثاني فقد كان المصريون منذ اربعة آلاف سنة يقومون باعمال خطيرة في سبيل الريّ لم تشرع فيها بعض الحكومات الحديثة الاَّ منذ عهدٍ قريب

(١٠٦) تجارة الفراعنة بحراً . ترعة قبل ترعة السويس باربعة آلاف سنة

وطمح امراء الاقطاع الى غنى البلدان الاجنبية فسيَّروا سفنهم الى جزر بحر ايجه . وربما كانوا قد بسطوا في هذا الوقت نفوذهم على جزيرة كريت العظيمة (ف٣٤٣-٣٥٣) وجدَّدوا مع فينيقية علاقاتهم القديمة التي ابتدأت في عصر الاهرام فاهدوا الى امراء جبلة هدايا ثمينة وقبلوا منهم مثلها فيما يرجح . وبعد ممات اولئك الامراء دُفنت معهم الهدايا في قبورهم على الشاطىء الفينيقي مع تُحف أُخرى جيءَ بها من بحر ايجه والعراق وهي الآن اثمن النفائس

في معرض الآثار في بيروت • وحفر الفراعنة ترعةً من الطرف الشمالي للبحر الاحمر الى الجهة الغربية حتى ادنى فروع النيل في شرق الدلتـا حيث ينقسم النيـل الى مصابٍّ عديـدة (انظر الخريطة ٢) فكانت سفن الملك في بحر الروم تقاسـع حتى تبلغ ابعد مصب للنيل شرقاً فتدخل الترعة وتمخر فيها شرقـاً حتى تصل الى البحر الاحمر • فترى ان البحرين ، بحر الروم والبحر الاحمر كانا مقترنين قبـل اقترانهما الحديث باربعـة آلاف سنة • وكان في استطاعة سفن النيـل ان تقلع من جانب الدلتا الشرقي توًّا الى بـلاد پنت (ف ٧٩) والى البواغيز المؤدية الى الاوقيانوس الهنـدي وكان بحّارة عصر الاقطـاع يحسبون هذه المياه آخر الدنيا • وكانت قصص سفراتهم العجيبة بهجة القرويين الساكنين في املاك امراء الاقطاع (ش٤١) • وكان فرعون قـد نظّم في هذا العصر جيشاً عامـلاً وصار قادراً ان يجعل الناس في الشمال والجنوب يشعرون بعزّته وسلطانه

(٧٠٤) البسط الحربي في الشمال

وكانت آنئذٍ سورية وفلسطين — كما كانتا دائماً حين لم تكونا خاضعتين لنير اجنبي — متقسّمتين الى دُوَيلات كل واحدة منها عبارة عن مدينة وضواحيها • وكان على كل دُوَيلة امير متسلّط عليها كما رأينا في الكلام عن جبيل • وكانت مدن سوريـة اعظم من مدن فلسطين واعزّ منها جانباً ليس لان مواردها الطبيعية اعظم من موارد فلسطين فقط بل لان موقعهـا في الشمال ربطها باهل الشمال والشرق الذين كانوا اغنى وارقى من الشعوب الاخرى فكانت كركميش (جرابلس الحديثة) وتونيب (لا يُعلم موقعها تماماً) وحلب وحماث (حماه) وقادش (قدّس في جوار حمص) وارواد والشام وجبلة (جبيل) وصيـدا وصور زاهرةً بالتجارة حتى بالصناعة الى درجة محدودة • وكان سكان هذه المدن وسطاء التجارة في هذا العصر • فكانوا يأتون بالمعادن وبمصنوعـات اسيّة الصغرى والعراق الى السواحل البحرية ومن ثمّ كانوا يشحنونها الى مصر اما برًّا مع القوافـل او بحرًا في السفن ويجلبون بدلاً منها سلعاً مصرية كانوا يشحنونها الى الداخلية وكان بعض هذه المـدن يؤّلف اتحاداً لمقاومة عدوّ مهاجم وصدّه• ولكن هذا الاتحاد كان دائماً قصير الامد يزول بزوال الخطر المداهم لِما كان ينشأ من التحاسد ويتولّد من الضغائن والاحقاد بين المدن المتحدة • وكان المانع الاكبر لمدن سوريا من الاتحاد وتأليف مملكة يُرهَب جانبها ويُحسب حسابهـا تقسّم اراضيها اقساماً متعددة نظرًا لمـا يحول بينها من الجبال • فكانت البلاد من هذه الوجهة كبلاد اليونان • ولذلك لما اقدم فرعون ملك مصر على مهاجمة فلسطين لبسط نفوذه في ارجائها بقوّة السلاح ، ضاقت باهلها الحيلة عن صدّه لان قوّاتهم كانت اضعف من قوات جيرانهم في سورية وفينيقية

(١٠٨) التوسع الحربي في الجنوب

وفتح فرعون في الجنوب بلاد النوبة حتى حدود الشلال الثـاني (انظر الخريطة ٢) فاضاف الى مملكته ما يبلغ طولهُ مئتي ميل من الارض عن جانبي النهر ٠ وشيَّد على الحدود قلاعاً منيعة صدًّا للقبائل النوبية ٠ ولا تزال هذه القلاع ماثلة الى الآن ٠ ونقش على احد الصخور التي هناك كتابة مآلها انهُ لا يجوز لاحد من العبيد ان يجتاز الى الشمال منهـا بلا رخصة خصوصية وزاد عليها هذه الكلمات «انا الملك وما اقولهُ افعله ٠ وخايفتي الذي يُهمل الحدّ الذي وضعتهُ ليس بولدي ٠ وقد نصبت تمثالي هذا على تخمي الذي عينتهُ ليس لرغبتي في ان تعبدوهُ بل لكي تحاربوا من اجله» ٠ وكانت بلاد النوبة قد اخذت تتمصَّر وتولّي ادارة احكامها رجال من مصر ٠ وقد وُجد في كرمي قبرُ احدهم واسمهُ همزيفي امير سيوط (اسيوط الحديثة) وكان قد دُفن تحت رابية هناك على الطريقة النوبيَّة ٠ فكـان يحيط برمَّته رمم رهط من العبيد النوبيين الذين قُتلوا يوم وفاته لكي يرافقوهُ الى العالم الآتي ٠ والظاهر ان الحكام المصريين عاملوا النوبيين كأرقاء واستبدُّوا بالاحكام ٠ وقـد اخذ النوبيُّون عن المصريين شيئاً من افكارهم ولكن بصورة مشوَّهة ٠ وكان هـذا بدء شيوع الفنون المصرية في بلاد النوبة المستعمرة ٠ وقـد دام العمراني المصري في النوبة بصورة منحطَّة حتى بعد سقوط الامبراطورية (١٣٠) ونشوء عمران آخر يختلف عنهُ نوعاً

(١٠٩) نهاية عصر الاقطاع. الهكسوس (الرعاة)

وكان لحكم الفراعنة الراقي في عصر الاقطاع اليد الطولى في تمهيـد السبيل للسيادة المصرية في العالم القديم ٠ وقد دُعي ثلاثة من هولاء الفراعنة باسم «سيوسسْتريس» الذي صار من اعظم واشهر الاسماء في تاريخ مصر ٠ ولكن بعد سنة ١٨٠٠ ق٠م انحطَّت بغتةً قوَّة الفراعنة في العصر الاقطاعي وانقرضت سلالتهم بسبب زحف قبائل رحل آسيوية على مصر أُطلق عليها اسم الهكسُوس ٠ وربما كان الاسرائيليون الذين يُظنُّ انهم دخلوا مصر في هذا الزمان فروعاً منهم هبطت وادي النيل فوجدت لمواشيها مراعي خصيبة

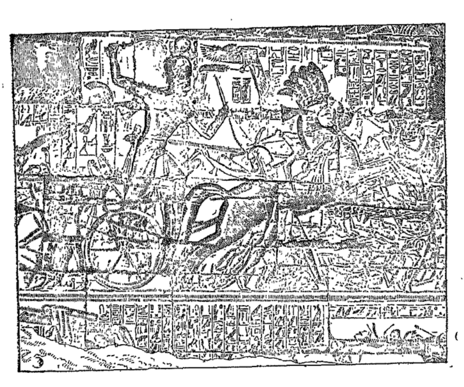
اننا لا نعلم شيئاً محققاً عن هولاء الهكسوس لكننا نقول من باب الترجيح ان زحفهم الى مصر كان فاتحة لحركة عظيمة قام بها بعض الشعوب الاسيوية ٠ وهي الحركة التي ساقت الكاشيين الى بابل (ف ٢٠٣) والميتانيين الى العراق (ف ٢٠٨) وجماعة من الجنس الاوربي الهندي (ف ٢٨١) الى آسية الغربية ٠ فنرى من هنا ان العـالم القديم الذي عرفهُ مصريو المملكة القديمـة وعصر الاقطاع ، آخذٌ بالتلاشي والاضمحلال وان عالماً جديداً وممالك جديدة قد اخذت تحل محلَّهُ ٠ وسنحصر بحثنا ، في ما يلي ، في هذا العـالم الجديد وما لهُ من العلاقات الدولية البعيدة المدى

٦

تأسيس الامبراطورية

(١١٠) رحلة النيل، الوصول الى طيبة

ان الآثار الماثلة على ضفتي النهر قد مثّلت امامنا حتى الآن فصلين من رواية شعب النيل التي تقع في ثلاثة فصول[١] وسيمثل امام عيوننا الفصل الثالث منها · فاننا بعد مغادرتنا قبور عصر الاقطاع ومواصلتنا السير الى الجنوب من القاهرة مسافة اربعمئة ميل او اكثر نرى لمحاً ، بين حين وآخر ، من خلال شجر النخيل الباسق عن جانبي النهر ، كثيراً من المباني الحجرية الفخمة وصفوفاً من العُمُد قائمة بين الاشجار ·



الشكل ٤٢ احد فراعنة الامبراطورية يحارب في مركبتو

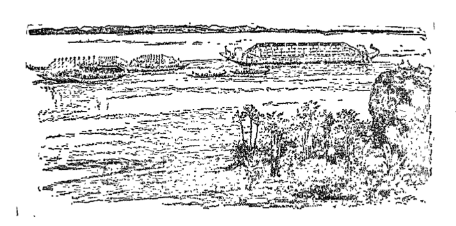
صور العدو الصغيرة مبعثرة تحت سنابك خيل فرعون· وهذه صورة من مجموعة صور كبيرة جداً لهذه المشاهد وهي نافرة الحفر خارج هو الكرنك الكبير (ش ٤٧) وكانوا في هذا العصر يلونون الصور تلويناً زاهياً لكي تزيد في رونق البناء وتصوّر للناس بطولة فرعون · اما الآن فالالوان قد زالت بالمرّة والنقوش قد تشوّهت وكادت تمحوها عوامل الطبيعة حتى صار الرسم المصوّر اعلاهُ غير جلي كما يجب

(١) تشتمل رواية وادي النيل على ثلاثة اعصر: عصر الاهرام من ٣٠٠٠–٢٥٠٠ ق·م (ن ٦–٧) (٢) عصر الاقطاع وزمن ازدهاره ٢٠٠٠ ق·م (ن ٨) (١) عصر الامبراطورية نحو ١٥٨٠ الى ١١٥٠ ق·م

فهذه خرائب مدينة طيبة العظيمة المبنية على انقاضهـا مدينة الاقصر الحديثة . وهي تمثل لنا الفصل الثالث من رواية وادي النيل وهو عصر الامبراطورية

(١١١) الكرنك . وصول الخيل الى مصر

لا نجد هنا مقبرة شاسعة الاطراف فقط بل هياكل عظيمة ايضاً . واذا درنا حول هيكل الكرنك في طيبة حصلنا على فوائد جمّة تساعدنا على درس تاريخ الامبراطورية كما ساعدتنا مدافن الجيزة على درس عصر الاهرام . نرى هنا جدران الهيكـل مغطّاة بالنقوش النافرة الهائلة التي تمثل للعين حروب المصريين في اسية وصورة فرعون الجبار واقفاً في مركبته الحربية يمـزق شمل الاعداء امام خيوله المغيرة (ش ٤٣) . اما فراعنة عصر الاهرام فلم يروا فرساً في زمـانهم (ش ٨٣) . وهذه هي المرّة الاولى التي تُشاهـد فيهـا صورة فرس عـلى الآثار القديمة . فيظهـر ان المصريـين شرعوا بعـد عصر الاقطاع



الشكل ٤٤ نقل مسلتي الملكة حتشبسوت اللتين تزن الواحدة منهما ٣٥٠ طناً من مقلعها على متن النيل (في القرن الخامس عشر ق·م)

ان المسلتين موضوعتان جنباً لجنب قاعدة الواحدة منهما لزق قاعدة الاخرى وقد نُقلتا على سفينة من سفن النيل طولها ٣٠٠ قدم وطول كل من المسلتين ٩٧ قدماً ونصف ووزنها ٣٥٠ طناً . فيكون مجموع ثقلها على السفينة ٧٠٠ طن . وكان يقطر السفينة التي تقلها ثلاثون زورقاً في ثلاثة صفوف في كل صف عشرة زوارق وفي كل زورق اثنان وثلاثون مجذفاً . فيكون مجموع المجذفين تسع مئة وستين . وبارشاد المجدسين الذين كانوا راكبين زوارق صغيرة تمكن المجذفون من قطر السفينة الواسقة المسلتين من مقلعها قرب الشلال الاوّل الى طيبة مسافة نحو ١٥٠ ميلاً . وتُرى تحت كل مسلة الزلاجة التي سحبتها من الشاطئ الى المكان الذي نصبت فيه في هيكل الكرنك (ش ٤٦) . أُخذ هذا المشهد عن نقوش نافرة على جدار هيكل الملكة في طيبة

يستوردون الخيل من اسية . ومع الخيـل جاءتهم المركبات (ش ١٠١) فصارت مصر ، بعد اتقانها فن الحرب على نمط جديد ، دولةً حربية

(١١٢) مصر دولة حربية

وصار الفراعنة قوّادًا كبارًا لديهم جيوش منظّمة عاملة يتألف معظمها من رُماة النبال ومركبات تفوق الاحصاء . وقد استهلوا هـذا العصر — عصر اعمالهم الحربية — بطرد

الهكسوس من بلادهم مصر وابعادهم عنها الى سورية التي اتوا منها . وبهذه الجيوش التي تدربت في حرب الهكسوس على القتال وشنّ الغارات افتتح ملك مصر امبراطورية شاسعة الاطراف امتدت من الفرات في اسية الى شلّال النيل الرابع بافريقية (انظر خريطة ٦) ويُعنى بالامبراطورية هنا مجموع امم أُخضعت بالقوّة القاهرة وتسلّطت عليها قوة عظيمة . نشأت الحكومة اولاً من مبدإٍ صغير . فكانت اولاً كل مدينة تؤلّف حكومة بنفسها (ف ٥٨) وعلى كرور السنين ارتبطت المدن معاً فحصل من ارتباطها امم (ف ٧٥) . ولكنّ البشر الآن كانوا قد توصلوا في تنظيم شؤونهم الى حدٍ تمكنوا عنده من ضم امم عديدة معاً الى مملكة واحدة عظيمة تشمل جزءًا كبيرًا من عالم الشرق القديم . ودامت قوّة الفراعنة هذه من فجر القرن السادس عشر الى الثاني عشر ق·م اي نحوًا من اربع مئة سنة

(١١٣) ملك الملكة حتشبسوت اول امرأة عظيمة في التاريخ

ان هيكل الكرنك الماثل حتى الآن في مدينة طيبة العظيمة هو كتاب تاريخي ضخم يتضمن كثيرًا من حوادث الامبراطورية المصرية . نرى وراء البهو العظيم (ش ٤٧) احدى المسلّات الشهيرة سامقةً الى العلاء يبلغ ارتفاعها نحوًا من ثلاث مئة قدم وهي قطعة واحدة من حجر الغرانيت نصبتها في مكانها في بدء عهد الامبراطورية اوّل امرأة عظيمة في التاريخ ، الملكة حَتْشَبْسُوت ، وكان منصوبًا في هيكل الكرنك مسلتان هائلتان من النوع المذكور آنفاً . ولم يكن قطع الحجرين اللذين نُحتتا منهما امرًا سهلًا . ولا كان نقلها من مقطعها عند الشلّال الاوّل على سفينة كبيرة في النهر (ش ٤٤) ونصبها في الهيكل شيئاً هيّناً . ولم تقف هذه الملكة عند هذا العمل الكبير فاننا نراها تسيّر خمساً من السفن في البحر الاحمر الى بلاد بُنت لتأتيها بالنفائس من افريقية الى هيكل آخر كانت قد شرعت في بنائه مقابل الصخور الشاهقة الغربية في طيبة . فاعمال كهذه بيّنة ناصعة على ما كانت عليه هذه الملكة من العظمة والاقتدار . وهي اوّل امرأة عظيمة حفظ لنا التاريخ اسمها

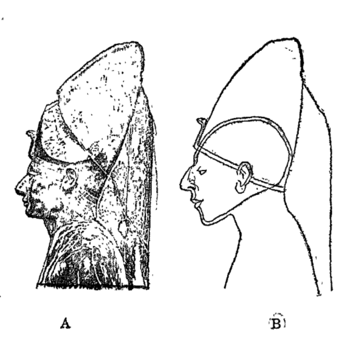
(١١٤) نهاية امر حتشبسوت وانتصار تحتمس الثالث

واذا تفحصنا عن مسلة حتشبسوت وجدنا حول قاعدتها بقايا بناء حجري كان يغطيها من اسفلها الى اعلاها . وقد شاد هذا البناء تحتمس الثالث قرين الملكة واخوها لابيها او لامها اخفاءً للكتابة التي تعلن للبشر . على مدى الاجيال ، ملك المرأة الممقوت . وهكذا تسنّى لهذا الملك ان يطمس اسم الملكة واسماء الذين عاونوها في ادارة شؤون المملكة . ولم ينج من ذلك اسم المهندس الذي نصب هذه المسلّة واخواتها . ولكنّ البناء الذي كان يحجب المسلّة عن الانظار قد تهدّم وعادت المسلّة تحدث بشهرة حَتْشَبْسُوت (ش ٤٥)

(١١٥) حروب تحتمس الثالث ١٥٠١ الى ١٤٤٧ ق·م

وكان تحتمس اوّل قائد عظيم ورد ذكرهُ في التاريخ . فهو نابوليون مصر واعظم الفاتحين المصريين . وقد اربى ملكهُ الذي ابتدأ سنة ١٥٠٠ على الخمسين سنة . وتواريخ حروبه

وغاراتهِ مدة عشرين سنة مسجّلة على جدران هيكل الكرنك • وقد قهر في غضون تلك السنين مدائن وممالك اسية الغربية وجعل من مجموعها مملكة عظيمة ثابتة الاركان • ابتدأت حياتهُ الحربية بفوز عظيم عُقد لهُ في معركة مجدو بجوار حيفا في اثناء محاربتهِ للامراء السوريين الذين تحالفوا عليهِ ثم وسّع نطاق سلطانهِ بعد مواقع متتابعة الى فينيقية التي جعلها قاعدة اعمالهِ الحربية في سلسلة المعارك التي قام بها في اواسط سورية وشمالها• وقطع الفرات الى العراق حيث لقي شعباً انضمّ بعد ذلك بقليل الى مملكة الحثيين العظيمة • وكان لهُ في عيون قومهِ احترام شديد حتى قدّسوا اسمهُ بدليل نقشهِ على الجُعلان الباقية في مصر وفلسطين الى الان • وقد امتدّ سلطانهُ بواسطة سفنه الحربية الى بحر ايجه وصار احد قوّادهِ حاكم جزائر البحر المذكور • (انظر ش ١١٢ وخريطة ٦)



الشكل ٤٥ تمثال تحتمس نبوليون مصر القديمة A بالمقابلة مع مومياتهِ B

تقابل الصورة A المحفورة في الغرانيت بوجه الملك الحقيقي في المومياء وتشاهد هذه المقابلة في B حيث يوضع رسم المنظر الجانبي للوجه في صورة الغرانيت (الخطوط الخارجية) فوق رسم المنظر الجانبي في المومياء (الخطوط الداخلية) : والمطابقة بينهما شديدة مما يدل على مهارة مصوري هذا العصر

(١١٦) تنظيم مملكة مصر الاسيوية

وكانت المملكة التي قامت بالحروب المتواترة مدة عشرين سنة بمزيد الافتقار الى تنظيم حكومتها لكي ترتبط اجزاؤُها كلها بعضها ببعض • الاّ ان الفراعنة لم يسبق لهم ان خبروا تنظيم الممالك لان هذه كانت اوّل مملكة عندهم من هذا النوع ولعدم الخبرة الكافية في تولّي الاحكام عجزوا عن ضبط الحكم في سورية فكان حكمهم فيها مختلًّا معتلًّا • وكانت مصر مُقام حاكم البلدان الشمالية . فكان على عمّال مصر فيها ان يرسلوا اليهِ تقاريرهم كلٌّ عن القسم الذي يتولى ادارتهُ من البلاد المقهورة . وكان تحت إمرة كل من اولئك العمال قوّة عسكرية — في الغالب سودانية — لحفظ النظام واستتباب الامن والراحة في البلاد

وجباية الجزية من الامراء الوطنيين الذين اقرَّهم المصريون يوم فتحوا بلادهم في مراكزهم ولم يطلبوا منهم سوى الاعتراف بالسيادة العليا لمصر وتأدية الجزية المضروبة عليهم . وجاء المصريون بابناء هولاء الامراء ليكونوا رهائن عندهم على ولاء والديهم وليربوهم كمصريين . وكان فرعون عند وفاة امير منهم يأمر بارسال ابنهِ الذي يكون قد تخلّق باخلاق المصريين ليحكم مكان ابيهِ . وها كم ما كتبهُ احد اولئك الامراء السوريين قال : لما كنت صغيرًا احضرني مندوب مصر السامي الى مصر حيث قمت على خدمة مولاي الملك بأن كنت حاجباً لدى بابه . وكتب «عبد خيبة» امير اورشليم «لا ابي ولا أمي بل يد الملك القوية اجلستني في بيت آبائي» ولم يكن كل اهتمام مصر بسورية منصرفاً الى تأييد السلام وحفظ النظام في بلاد اختلَّ امنها وتشوَّش نظامها بل كان جلّ ما طمح المصريون اليهِ واجمع رأيهم عليهِ هو استنضاب مَعين ثروتها وموارد رزقها اشباعاً لمطامعهم . فكانت مصر ترسل سفنها كل سنة لتحمل اليها مقادير كبيرة من محاصيل البلاد من غنم ومعزى وخشب وحنطة وخمر وزيت واشياء أخرى شتى من السلع النفيسة بعضها من صنع سورية والبعض الآخر من صنع بلدان أخرى اتصل اليها بطريق التبادل التجاري بينها وبين البلدان الواقعة الى الشرق منها . وكان يُرمز الى حكم مصر لسورية وفلسطين بتشييد هياكل في مراكز الحكومة كانوا ينصبون فيها تماثيل آلهة مصر وفراعنتها . على هذا النمط كان حكم مصر لسورية . كان موصوفاً بالرخاوة والفساد واهي الاركان متداعي الجدران ينهار سريعاً اذا لهـا الفراعنة عن الامور الحربية وراء حدود بلادهم

١٠

الفنون والدين

(١١٧) هندسة بناء الهياكل

ان الثروة الطائلة التي غنمها الفراعنة من اسية وبلاد النوبة اكسبتهم قوّة لم يحلم بها العالم من قبل كما هو ظاهر من مبانيهم الفاخرة . فانهُ ابتدأ عندهم طورٌ جديد في تاريخ الفنون وهندسة المباني . في هيكل الكرنك يرى اعظم بهوٍ شادهُ الانسان على مرّ الزمان حافل بافخم العُمُد . فالتي في صحن البهو يبلغ علوّ الواحد منها تسعاً وستين قدماً. وعلى راس كل منها تاج كبير يمكن ان يقف على قمتهِ — في وقت واحدٍ — مئة رجل جنباً لجنب .

والنوافذ التي كانت واطئةً على جوانب العُمُد في عصر الاهرام اصبحت شبابيك عاليةً جميلة احتذى مثالها المسيحيون بعد ذلك في بناء كنائسهم .

(١١٨) ما يطيف بهياكل المملكة في طيبة

وكان الناظر يرى من خلال اشجار النخل الخضراء هياكل جميلةً قائمة في وسطها ومسلّات تناطح السحاب وتماثيل الفراعنة النفيسة الصنعة (ش ٤٩) وكانت كل هذه مزخرفة بالالوان البهية التي كانت تتألّق بالنور فتتكسّر الى الوان ذهبية وفضية تنعكس عن سطح مياه بحيرة الهيكل فترتسم لها صورٌ بهية لم يرَ مثلها العالم قبلًا . وحين يدخل الزائر الى

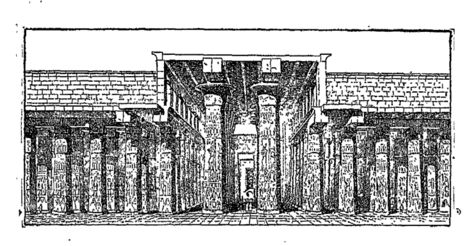


الشكل ٤٦ نحن وراء هيكل الكرنك العظيم . فاذا التفتنا الى الشمال الغربي اخترق النظر الهيكل والنهر الى الصخور الغربية وكان طول الهيكل من الباب الخلفي الى الجدار المقدم العالي الادنى الى النهر ٥/٣ كيلومتر وقد اقتضى بناؤهُ الفي سنة بني اقدم اقسامه ملوك العصر الاقطاعي واحدثها اي الجدار المقدم الملوك اليونانيون (البطالسة ف ٦٦) وترى مسلة الملكة حتشبسوت مائلة في وسط الهيكل . ووراءها بهو الكرنك العظيم ذو الاعمدة (ش ٤٧) الذي يرى على جداره الخارجي صورة الحرب العظيمة محفورة حفرًا نافرًا (ش ٤٣) ؛ اما شارع تماثيل ابي الهول فيواريه عن النظر الجدار المقدم العظيم وترى على اليسار البركة وهي كل ما بقي من البحيرة المقدسة

الهيكل كان يجد نفسهُ في دارٍ فسيحة نيّرة تحيط بها اروقة ذات عُمُد نفيسة جدًّا . ولكنهُ

اذا القى نظرةً على مجموعة العُمُد العظيمة القائمة في البهو وراء الدار (ش٤٧) وجد لغزًا من الالغاز وسرًّا من الاسرار· وكان بين الهياكل شوارع رحيبة يزينها تماثيل ابي الهول المهيبة· وهكذا نشأ في طيبة أُولى المدن الاثرية العظيمة التي شادها الانسان — مدينة هي بنفسها اثرٌ جليل يخلب الابصار وتحار بروعتهِ الافكار

(١١٩) التصوير والنقش في الهياكل



الشكل ٤٧ الهيئة الاصلية للبهو الكبير في هيكل الكرنك
أكبر بنايات مصر في عهد الامبراطورية

وكان للمصوّر والنقّاش اليد الطولى في جعل المباني المصرية جميلة وجليلة· فتيجان الاعمدة التي نحتتها يد النحّات ونقشت عليها الازهار لوّنتها يد المصوّر بالوان طبيعية جعلت الناظر اليها يتوهّم انها حقيقية· ومشاهد المعارك العظيمة المنقوشة على جدران الهيكل (ش٤٣) كانت تلوّن ايضاً بالوان زاهية تزيد في جمال المكان وبهائهِ· وتماثيل الفراعنة المنصوبة امام الهياكل كانت عظيمة جدًّا حتى انها كانت تسمو فوق ابراج مقدم الهيكل مع انها اعلى اقسام البناية، وتُشاهد من مسافات بعيدة من جميع الجهات (ش٤٩و٥٠) وكان كل من تلك التماثيل الهائلة منحوتاً من حجر واحد يبلغ وزنهُ ثقل شحن قطار من قُطُرات اليوم· الاّ ان شحن القطار كان في الغالب من قطع صغيرة يسهل حملها ونقلها وشحنها· ولم يثبّط ثقل الحجارة الهائلة التي كانت تنحت منها التماثيل، عزمَ ناحتيها عن نقلها من مقالعها كما نقلوا من قبل المسلاّت الهائلة· وبمثل هذه المباني الضخمة والنقوش الاثرية ظهر تفوّق المصريين في فنّ البناء

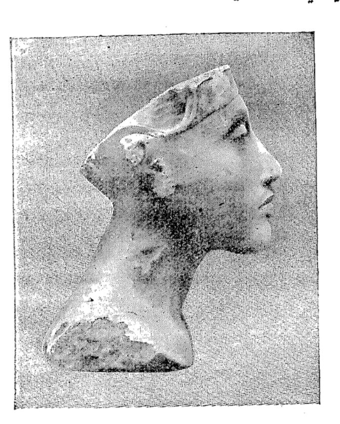
(١٢٠) قبور عظماء المملكة

ان تماثيل امنحوتب الثالث اترف ملوك مصر عيشاً واعرضهم جاهاً لا تزال ماثلةً في السهل الواقع غربيَّ مدينة طيبة (ش٤٩) عبر النهر قُبالة الكرنك وفيما نحن ندنو منها نشاهد وراءها الصخور الغربية المنقود فيها مئات من معابد القبور التي شُيّدت لعظام رجال المملكة والتي فيها دُفن القوّاد الكبار الذين صحبوا الفراعنة الى اسية وبلاد النوبة حيث جرت لهم

وقائع حربية مع اعدائهم فيها · هنا رقد المصوّرون والمهندسون الذين شيّدوا الآثار الخالدة وجعلوا طيبة فخر المدائن الاثرية العظيمة في العالم القديم · هنا في معابد المدافن — غالباً — نقرأ اسماءهم وشيئاً كثيراً من سيَرهم · وهنا حكاية القائد الذي انقذ تحتمس الثالث وهو يصطاد الفيَلة في اسية باندفاعه السريع الى المعترك وبتره خرطوم الفيل الذي كان يطارد الملك وهنا ايضاً رُمس القائد الذي استولى على يافا بحيلة مبتكرة لم يُسبق اليها وهي انهُ اخفى رجالهُ في صناديق حمّلها على العير وادخلها الى المدينة كبضاعة للبيع — مخاطرة عظيمة صارت فيما بعد قسماً من حكاية علي بابا والاربعين ازعر

(١٢١) اثاث وعتاد احد الفراعنة

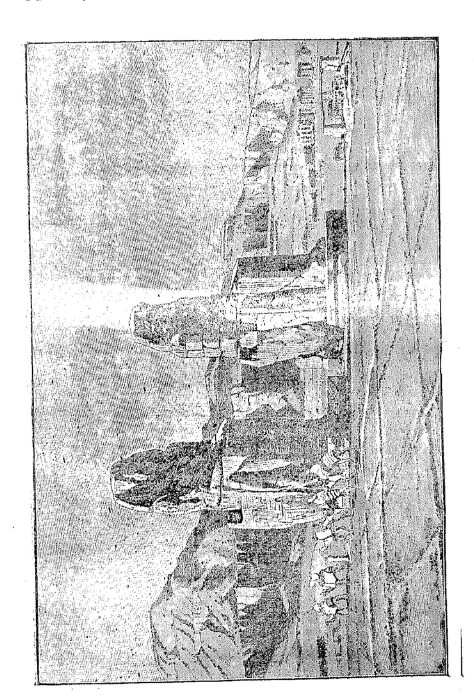
وكانت عادة المصريين عند موت عظمائهم ان يدفنوا معهم ما ملكت ايديهم من اثاث وعتاد · فقد اكتُشف منذ سنين قليلة في احد الاودية المجاورة للكرنك قبر والدَي مَلِكة امنحوتب الثالث · واكتُشف منذ مدّة يسيرة قبر توت عنخ امون الذي طبّق ذكرهُ الآفاق ولا يزال موضوع حديث القوم مع انهُ ليس من كبار الفراعنة الذين تحدثت بذكرهم الركبان · ولا يزال ما دُفن معهُ من الاشياء النفيسة وغيرها باقياً على اصلهِ · ويُعدّ هذا الاكتشاف الاخير اعظم الاكتشافات من نوعهِ حتى الآن · وقد علمنا مما وُجد فيهِ من نفائس الآثار ما كان عليهِ صناع مصر الاقدمون من المهارة في الصنائع والفنون وعرفنا الدرجة التي بلغوها فيها · فالعرش الملكي وما فيهِ من دقة الصنعة الظاهرة في ترصيع الذهب المطرّق من اجمل الآثار التي استرجعها الانسان من يد الازمنة القديمة · ومن



الشكل ٤٨ رسم راس اخناتون المنحوت من الحجر الكلسي وهو اول قائل بالتوحيد

اكتشفهُ حديثاً بوركهاردت في جهات العمارنة . وهو منحوت من الحجر الكلسي . ويمثل لعين الناظر اكمل تمثيل جمال هذا الملك الحدث الفائق الوصف (ف ١٢٢ — ١٢٥)

محتويات ضريح توت غنخ امون الكؤوس النفيسة المنحوتة من حجر المرمر لزرع الازهار، والاسرّة المرتكزة على تماثيل أسود وغيرها من الوحوش، والصناديق المرصّعة المملوءة ثياباً كتانية مطرّزة بالخرز الثمين تطريزاً جميلاً، والخزائن المقدسة ذات الاغطية الذهبية لتماثيل



الشكل ٤٩ تماثيل امنحوتب الثالث في طيبة ١٤٠٠ ق٠م

هي عالية جداً . والصورة التي الى اليمين منقوش عليها اسماء مشاهير الزوار من يونان ورومان . وفي الصخور الشاهقة التي من الوراء مدافن طيبة المتسعة الارجاء (ف ١٢٠ ـ ١٢٢)

الآلهة، والعلب المتضمنة انفس الجواهر وابهاها، والاسلحة والعصي المنقوشة عليها نقوش انيقة، وكؤوس الخزف المصري الجميل. ان جميع هذه الاشياء وغيرها مما وُجد ولم يُذكر هي دلائل الثروة ورخاء العيش والمهارة في الصناعة. وقد كانت كلها رهن اشارة ملك لا يعدّ من

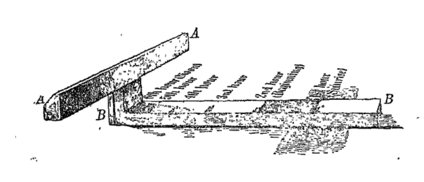
الفراعنة العظام فاذا كان قد دُفن معهُ وهو ليس من عظماء ملوك مصر هذا المقدار من التحف والنفائس، فماذا يكون قد دُفن مع الفراعنة العظام الذين كانت جميع موارد المملكة تحت امرهم ونفوذ سلطانهم مدة ملكهم الطويل وكيف كان اثاث ورياش قصورهم وقبورهم.

فلا بدعَ اذا كانت هذه القبور قد غلت بعد انحطاط المملكة وزوال قوّة ملوكها مطمحاً لانظار اللصوص الذين لم تقدر المملكة في آخر مدتها وزمن استفحال الفساد فيها ان تكبح جماح جشعهم وتصدَّ غاراتهم فقد سطا اولئك اللصوص على قبر توت غنخ امون مرّتين ونهبوا الكثير من

الشكل ٥٠ صورة رعمسيس الثاني في ابي سمبل في بلاد النوبة المصرية

يزين الهيكل اربعة تماثيل عالية من نوع هذه الصورة. وهي والهيكل من الحجر الرملي. وقد حفظت وجوه هذه التماثيل من التشويه اكثر مما حفظ وجه ابي الهول العظيم وتماثيل أمنحوتب الثالث (ش ٤٩). ولهذه الرسوم العظيمة ميزة على سواها لانها تمثل اصحابها بخلاف سواها فوجه رعمسيس الثاني هنا يشبه وجه جثته المحنطة كل الشبه

تحفهِ الثمينة النَّادرة ومع ذلك فقد بقيت منها بقيَّــة تدلُّ على عمرانٍ دُرست معالمهُ وعفا الكثير من آثاره النفيسة. فيبين من ذلك كلِهِ أنَّ جشع الانسان يحدوهُ دائماً على تخريب ما تكون الايدي قد تعبت فيهِ حقباً طوالاً بذلت الامم في اثنائها القوَّة والحذق والمال حتى تمكنت من تشييد ما شيَّدتهُ من المباني الانيقة على هيئتها فهذا الارث العظيم الذي لا يثمَّن بمال لا يزال الكثير منهُ مدفوناً في قلب ارض الشرق يستفزُّ هِمَم ذرِّية اولئك الصنَّاع الاولين وارباب الفن في ايامنا هذه الى ان يبرهنوا لاهل الخافقين انهم جديرون بماضي اسلافهم وان يحافظوا على البقية الباقية من آثار ذلك الزمان الذي بلغ فيهِ الشرق اوج مجده الصناعي وعلَّم الناس كيف يصنعون اشياءهم التي يمتهنونها والتي يستبقونها للزينة والزخرفة



الشكل ٥١ اقدم ساعة في الدنيا
ساعة شمسية مصرية

لا بدع في بلاد مشمسة كمصر اذا جنح الناس الى استعمال الساعة الشمسية. ففي الصباح كانوا يديرون العارضة (AA) نحو الشرق فيقع ظلها على القدة الطويلة (BB) فتدل على الساعة الواحدة وكلما ارتفعت الشمس قصر الظلّ ودلّ موقعهُ من القدة على الساعة التالية وهكذا حتى الظهر اي الساعة السادسة ويشار الى ذلك بالارقام. وعند الظهر كانوا يديرون العارضة (AA) الى جهة الغرب ويقيسون الظل بعد الظهر وهو يستطيل تدريجاً كما قاسوه قبلهُ على القدة الطويلة. وقد تعلم الاوربيون من استعمال المصريين لهذه الساعات وقياسهم الوقت بها ان يجعلوا نهارهم اثني عشرة ساعة ويُشاهد على هذه الساعة اسم تحتمس الثالث. ولذلك يكون عمرها نحو ثلاثة آلاف واربع مئة سنة. وقد استعمل اليونان بعد ذلك بالف سنة امثال هذه الساعة وهي محفوظة الآن في متحف برلين. والقطعة على الراس (AA) مأخوذة عن بوركهارت

١٢٢٣) الدين في الامبراطورية

وترينا هذه القبور ايضاً درجة الارتقاء الديني التي بلغ اليها المصريّ منذ ايام اهرام الجيزة. فكل من دفن في مقبرة طيبة كان يتوقَّع دينونة في العالم الآتي يكون فيها اوسيريس (ف٧٠) الملكَ الجليل والديان العظيم. وكل انسان صالح يحق لهُ ان يقوم من بين الاموات كما قام اوسيريس. ولكن كان لا بدَّ لهُ، في حضرة اوسيريس، ان يرى نفسهُ موضوعة في كفَّة الميزان الذي كان يوضع في كفَّتهِ الاخرى رمز الحق والعدل (ش٣٩). وكان اهل الميت يضعون في تابوتهِ لفَّة من ورق البرديّ تتضمَّن صلوات ورقى سحرية

اعتقدوا انها تنفعهُ في العالم الآتي. ومن جملة ما كانوا يضعون معهُ صورة الدينونة المسماة الآن بكتاب الاموات (ش٣٩)

(١٣٣) الانقلاب الديني الذي قام به امنحوتب الرابع (اخناتون)

وبعد مئتي سنة من تأسيس المملكة جلس امنحوتب الشاب على عرش آبائهِ . وكان يؤمن بالهٍ واحد هو الاله الشمس . وبذلك ادخل فصلاً جديداً مهماً في تاريخ مصر الديني لانهُ حاول ان يتلف آلهة مصر القديمة ويُكره الناس على عبادة الاله الشمس وحده وقد ابتدأت هذه الحركة الدينية في ملك ابيهِ وانتشرت بنوع خصوصي فيما بين اعضاء الاسرة المالكة . ونشر هذا الملك في جميع انحاء مملكتهِ الدانية والقاصية في افريقية واسية انهُ لا يجوز تقديم عبادة ما الاّ للشمس الذي سمّاهُ آتون. ولكي يساعد الأُمة على نسيان الآلهة القديمة اقفل الهياكل وطرد كهنتها وطمس في كل مكان اسماء الآلهة ولا سيما التي على جدران الهياكل . وكان يكرهُ بنوع خصوصي امون او آمن اله المملكة الطيبي العظيم . وبما ان اسمهُ « امنحوتب » الذي معناهُ « آمن يرتاح » يتضمن اسم هذا الاله « آمن » فقد غيَّرهُ الى اخناتون الذي معناهُ « اتون ، الاله الشمس ، يرضى » .

(١٣٤) عاصمة اخناتون الجديدة المسماة الآن العمارنة

واخيراً غادر اخناتون طيبة البهية لاحتوائها على كثير من هياكل الآلهة القديمة وبنى مدينةً جديدة الى الشمال منها بعيدة عنها سماها « أُفق اتون » وتدعى الآن العمارنة (انظر خريطة ٢). وبعد موت اخناتون بسنين قلائل هُجرت هذه المدينة وتهدَّمت مبانيها . وقد وجد المنقبون تحت انقاضها اصول جدران المنازل والقصور التي كانت قبلاً فخرها وبهاءها . وكُشف دكان نحّات وجدوا فيهِ كثيراً من المنحوتات النفيسة التي زادتنا معرفة بمهارة اهل ذلك العصر في صناعة النحت والنقش (ش٧٢) ولا تزال قبور الأتباع الذين هداهم الملك الشاب الى الايمان الجديد موجودة في الصخور القائمة وراء المدينة يشاهد على جدرانها رسومٌ جميلة تمثل لنا عيشة الانسان في تلك المدينة التي امست في خبر كان

(١٣٥) اغاني اخناتون لاتون الاله الوحيد

ولا يزال الناس حتى اليوم يقرأُون على جدران معابد القبور الاغاني التي نظمها اخناتون في مديح الاله الشمس . وهي تظهر لنا بساطة وجمال ايمان الملك الشاب بالاله الوحيد . وقد توصل هذا الملك الى الاعتقاد بأنَّ الهاً واحداً خلق جميع المخلوقات العاقلة وغير العاقلة خلق المصريين والاجانب . وفوق ذلك كلهِ رأى الملك في الههِ اباً مشفقاً يؤيّد جميع مخلوقاتهِ بجوده الذي يعمها كلها . حتى الطيور كانت تشعر بذلك الجود وترفع اجنحتها التي هي بمثابة ايديها كأنها تسبحهُ بها . وقد وردت اشارة الى ذلك في سطر جميل في احدى الاغاني المذكورة . قد تتبعنا تاريخ تقدم البشر مدة الوف من السنين ولم نسمع ان احداً منهم رأى في الله العظيم ابي الكل ما رآهُ هذا الملك الشاب . فاعتقاد كهذا هو التوحيد اي الايمان باله واحد

١١

تأخر الامبراطورية المصرية وسقوطها

(١٢٦) متاعب اخناتون البيتية

لم يستطع عامة الشعب في القرن الرابع عشر ق.م ان يدركوا معنى هذا الايمان الجديد ولذلك امتلأت البلاد من كهنة الآلهة القديمة الذين لم يكونوا راضين عنهُ ومن الجنود الناقمين على الملك لعدم الاهتمام بامرهم فتآمر هولاء مع اولئك وكادوا لهُ المكايد فلقوا آذاناً صاغية ولا سيما من رجال الجندية العاطلين . فبدأت الفوضى والاضطراب في مصر.وتحفز سكان البلاد المقهورة لاذكاء نار الثورة

(١٢٧) متاعب اخناتون الخارجية

وقد عُرف ما كان من نتائج تلك الثورة في اسية من مجموعة رسائل تربي على ثلاث مئة رسالة وُجدت مع بعض السجلات الملكية في احدى دوائر حكومة اخناتون بعد ان ظلّت مخبوءة في جوف الارض اكثر من ثلاثة الاف سنة اذ قُيض لها بعض الحفارين الوطنيين الذين كشفوها.وكلها مكتوبة على آجرّ (ف١٥٣) بالخط البابليّ (ف١٥٤). ومعظمها مرسل من ملوك اسية الغربية الى فرعون.وهي اقدم المراسلات الدولية في العالم (ش١٣٣) ومنها يتبيّن ان الملوك الذين اخضعهم المصريون قبلًا قاموا قومةواحدةليُلقوا عنهم نير فرعون ويشقوا عصا الطاعة لهُ . فكان ذلك باعثاً على تداعي مُلك مصر في اسيّة الاّ ان بعض الامراء اقاموا على ولاء سيدهم المصري وكان معظم الرسائل المشار اليها مرسلًا من لدن «رب عدّي» امير جبيل، المدينة التي كان لها صلة قديمة العهد بمصر . وقد حاول برسائله ان يستنهض همّة فرعون لكبح مطامع الامراء الثائرين عليهِ وصد هجمات الحثيين . ونقرأ في خلال السطور كيف ان اعداءهُ واعداء مصر احدقوا بهِ من كل جانب حتى اضطرّ ان يفرّ الى بيروت طلباً للنجاة. ولا ريب في ان ولاءهُ لمصر آل الى قتلهِ وملك مصر لاهٍ بالانقلاب الديني الذي كانت لهُ اليد الطولى في احداثهِ غير عابىء بمصير مملكتهِ في الخارج الى البوار . ولدينا رسائل أُخرى كهذه في مغزاها من ملوك صيدا وصور وعكا والقدس ومدائن أُخرى وكلها تضرب على وتر واحد مشيرة الى الثورة والزحف من الخارج وما يصحبها من تشويش الحال والخراب الذريع .فاستولى على شمال سورية (خريطة ٦) الحثيون الذين جاءوا من اسية الصغرى وعلى جنوبها العبرانيون وانسباؤهم الاسرائيليون وغيرهم من الشعوب التي

تنثني اليهم قادمين من القفار لمهاجمة فلسطين (ف٣٠١)

(١٢٨) قيام دولة الحثيين

ولم تكن الصعوبات التي لاقاها المصريون في سورية بسبب قيام دولة الحثيين امراً يُستهان به ولا يُعلم بالتحقيق منبت أسلة هؤلاء الحثيين . اما لغتهم فيكاد يكون من المحقق انها من الفرع الهندي الاوربي . واما موطنهم اسية الصغرى فشبه جزيرة واسعة الاطراف يتراوح طولها بين ستمئة وخمسين وسبعمئة ميل وعرضها بين ثلاثمئة واربعمئة ميل. وداخليتها سهل عظيم مرتفع يكاد قلبهُ ان يكون قفراً يابساً . ويحيط بالسهل سلاسل من الجبال تحدق بهِ وتفصلهُ عن البحر . وعلى جانبي هذه الجبال اودية وسهول مُمرعة وافرة المحاصيل . والمنحدرات المناوحة للبحر – ولا سيما البحر الاسود – تكسوها غابات ناضرة. واما سواحل اسية الصغرى الشمالية ، شرقيّ نهر هاليس ففيها جبال تحتوي مقادير عظيمة من الحديد وكان الحثيون الموزّعين الاولين للحديد – بعد ان حلَّ محل البرونز – في البلدان المجاورة لبحر الروم والشرق ايضاً (ف٢٢٦) . ولما وصل تحتمس الثالث الى شمال سورية في اثناء حملاته على اسية لَقِيَ الحثيين . وقد دلتنا الاكتشافات الحديثة على اوائل تاريخهم . فانهم سنة ٣٠٠٠ ق . م كانوا قد استقرّوا في الاناضول الاّ انهم لم يكونوا قد اتحدوا بعد بمملكة واحدة بل كانوا لا يزالون متقسمين حكومات متعددة مع شيء من الاستقلال . وقد نزح فروع من هذه الامة الى شمال سورية والعراق . وفي القرن العشرين ق.م كانوا كما مر معنا قد بلغوا من الحَوْل والطَّول درجة تمكنوا عندها من الاغارة على اراضي الفرات . واستمروا مغيرين حتى بلغوا ارض شنعار حيث كانت لهم اليد الطولى في قلب سرير الأُسرة المالكة في بابل (ف٢٠٣) وكانوا في ملك تحتمس الثالث قابضين على ازمّة السياسة في شمال سورية ولكنهم على ما يظهر لم يتصدّوا لمناوأة المصريين وصدّهم بقوة السلاح. وحوالي ١٤٠٠ ق.م اتحدوا والّفوا مملكة تحت زعامة « شبّيوليثوما » احد حكامهم من الاسرة المالكة في شمال اسية الصغرى . وما كاد يتبوأ السرير حتى نشط الى توسيع نطاق مملكته التي امتدت تدريجاً ، من العاصمة « خطّي » (بجوار بوغازكوي) التي شيَّد فيها هو ومن خلفهُ على العرش قصوراً فخمة واسواراً منيعة ، الى قلب اسية الصغرى . ثم جعل يناوئ المصريين في سورية يدسّ الدسائس عليهم بين امراء البلاد الموالين لهم اولاً ، وشهر الحرب عليهم ثانياً ، فقطع بجنوده الفرات وكان لهُ يدٌ في اسقاط ميتاني (٢٠٨) فكانت العاقبة انهُ استبدل السيادة الحثية بالسيادة المصرية في سورية . وقد وجدوا كثيراً من آثار الحثيين في البلدان التي استولوا عليها حتى حدود حماه جنوباً . ولا بينة لنا على بلوغهم الى الساحل . ولم يكتفِ « شبيوليثوما » بمناوأته لمصر في

شمال سورية بل انضمَّ الى العبرانيين الذين كانوا دائبين في تقويض دعائم ملك المصريين في جنوب سورية وفلسطين ومحو آثارهم

(١٣٩) موت اخناتون واسترجاع مصر بعض سلطتها. آخر دولة عظيمة في عصر البرنز. عصر الحديد

وفي وسط معترك هذه المتاعب في الوطن والخارج قضى الشاب اخناتون كلًّا بلا عَقِب ، وقد كان انبغ رجال الشرق القديم قاطبةً واعظمهم عبقريةً قبل زمن العبرانيين ، فقضى بمماته الايمان بالاله واحد الذي حاول نشرهُ وتعزيزهُ .

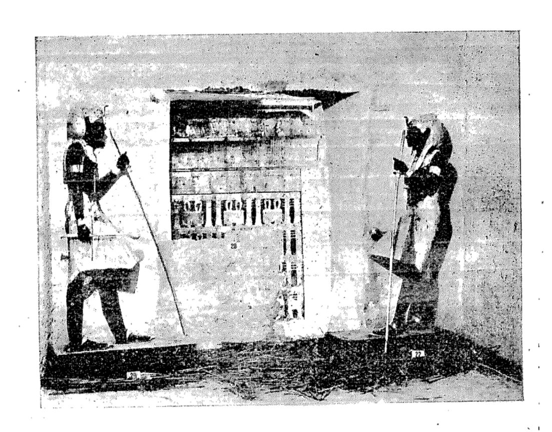
[وخلفهُ توت عنخ امون الشهير الذي كُشِف قبرهُ حديثاً (ف ١٢١) ، ولما تبوأ العرش اعاد عبادة الآلهة القديمة



الشكل ٥٣ توت عنخ امون وملكتهُ في احدى غرف القصر

يشاهد الملك في هذا الرسم جالسًا على كرسي كما شاء غير مبالٍ بشيء. ذراعهُ اليمنى مسندة الى ظهر الكرسي ورجلهُ اليسرى بارزة الى الامام تكاد تزلُّ عن الموطئ المستقرة عليهِ . جلسة كهذه تخالف التقاليد المرعية في الصور الملكية وتدلُّ جليًا على تحرير "آتون" للصنائع والفنون بواسطة الانقلاب الذي تمَّ على يده . وتشاهد الملكة الصبية (كريمة اخناتون الثالثة) منحنية بكل ظرف وكياسة قابضة باحدى يديها على قارورة طيب وبالثانية تهندم طوق زوجها الانيق ـ مشهد شخصي بديع الصنعة يعدُّ في الدّقة والجمال من ابدع ما رسمتهُ ريش اهل الفن في كل زمان ومكان حتى الآن

ويشاهد في اعلى الرسم رمز اله اخناتون ، قرص الشمس ، منبعثة منهُ اشعة تنتهي بايدٍ بشرية . وهذا رمز جديد يفهم منهُ التحرير الذي حصل للديانة بواسطة الانقلاب الذي قام بهِ "آتن". وارض الصورة وظهرها من ذهب مصفح . والثياب من فضة والجسد من زجاج ضارب الى الحمرة . وجميع الزخارف التي ترى في الصورة على اختلاف اشكالها مغشاة اما بالحجارة الملونة الزاهية الثمينة كالعقيق الاحمر المعروف بحجر الدم او بالزجاج البهي . الاَّ ان بهاءهُ قد قلَّ شيئاً لطول العهد عليه وقد كان في الاصل يبهر عيون الناظرين اليهِ (باذن وفضل هورد كارتر)



الشكل ٥٣ احدى زوايا قبر توت عنخ امون المطليّة بالذهب كما تشاهد من غرفة الانتظار التي امام القبر، من الباب الذي كان قبلاً مختوماً . وكلّ ما تبقى من موجودات غرفة الانتظار حين أخذ هذا الرسم، تمثالا هذين الخفيرين . والحجارة التي كانت تسدّ المدخل نزعها المنقبون من مكانها بغية الوصول الى القبر . الاّ انه بقيت منها بقيّة في زاوية المدخل السفلى الى اليسار .

ان الخطة الشائنة التي اختطها توت عنخ امون لنفسه وجرى عليها في حياته ليست ذات اهمية تاريخية بحد ذاتها ولكن اتفق ان وليّ توت عنخ امون الملك حين بلغت اقدم الثورات الفكرية المعروفة لدينا معظم احتدامها فاحدثت انقلاباً عظيماً في الديانة وغيّرت مجرى الفكر البشري. وقلبت الصناعة راساً على عقب . فهذا هو بالحقيقة سبب اهمية قبر هذا الملك . وكان هذا القبر صغيراً نحت على عجل في جدار صخري قائم على عدوة واد قفر الى الجانب الغربي من مجرى النيل قرب طيبة . هنا دُفن جثمان الملك ودفنت معه فيما بعد الملكة زوجته الصبية . ومدير اسطبله العام الذي خلفه على السرير . ووضع في القبر اثاث فاخر والكثير من روائع الصناعة النفيسة . وبعض هذه من بقايا عصر اخناتون الزاهر في العمارنة العاصمة الجديدة . ولما حدث الاضطراب التيامي على اثر دفنه نهب اللصوص قبره ولكنهم أمسكوا في اثناء ذلك واجبروا على التعويض عن بعض ما اتلفوه بايديهم الاثيمة. وبعد ذلك بقرنين من الزمان حين سقوط الامبراطورية المصرية تماماً فيما كان الفعلة ينبشون قبر رعمسيس السادس كانوا يلقون التراب على مدخل قبر توت عنخ امون الذي كان قد نوسي امرهُ حتى انهم بنوا اكواخهم عليه . وبذلك خفي امرهُ عن عيون الرقباء ونجا من التخريب بعد سقوط المملكة . ولكن هوارد كارتر الذي تفضل علينا بهذا الرسم كشفهُ في اواخر خريف سنة ١٩٢٢ . وتبين انهُ هو القبر الملكي الوحيد الذي بقي فعلاً في القطر المصري الى العصر الحاضر سليماً من الاذى

وباشر ترميم الهياكل المهملة. وقامت أُسرة جديـدة وشرعت باسترجاع المملكة المفقودة في اسية . فاستولى سيتي الاول على فلسطين وجنوب سورية وترك آثاراً في بيسان (بيت شان القديمة) وتل قدس (النبي مندوه الآن) بالقرب من حمص . وسعى ابنهُ رعمسيس الثاني ان يطرد الحثيين من سورية فخبط مسعاهُ لانهُ لما لقيَ جيش الاعداء عند قدس وحمي وطيس القتـال دارت الدوائر عليهِ . فاضطرَّ الى الانسحاب بجيشهِ ومغادرة شمال سورية بايدي الحثيين . وكان عند هؤلاء معدن الحديد (ف ٣٦٦) فاستطاعوا ان يصنعوا اسلحتهم منهُ . والحديد كما لا يخفى يفضل البرنز كثيراً في الاعمال الحربية . وقامت دولة اشور الناهضة ، (ف ٢٠٨) التي كانت قد بلغت الفرات واجهزت على متاني(ف ٢٠٨)، تهدد مركز الحثيين في سوريه فهبَّ ملك الحثيين يفاوض رعمسيس الثاني في إبرام صلح بينهما . فآل ذلك الى عقد محالفة دفاعية ضد الاشوريين نقش نصها رعمسيس على جدران هيكل الكرنك العظيم ، واطلع عليـهِ جمهور الباحثين المنقبين . وقد وُجد نصُّ هذه المحالفة في سجلات ملوك الحثيين في اسية الصغرى . وكانت كلتا المملكتين سائرتـين سيراً حثيثاً الى مهـاوي التقهقر والانحطاط . وكان هتوشل آخر عظماء ملوك الحثيين . وبعد وفاتهِ بقليل طما على البـلاد سيلٌ من القبائل الغـازية الرحَّل فلم يبقَ لدولة الحثيين القوية سوى بعض المدن في شمال سورية اهمها كركميش . وانضمَّ من بقي من حثيي اسية الصغرى وسكان جهات بلاد ايجـه الى الغزاة وزحفوا على مصر . فتصدَّى لهم رعمسيس الثالث سنة ١١٩٠ ق.م وصدَّهم الى حين . ولكنهم عادوا فاتحـدوا مع غيرهم من ابناء سواحل بحر الروم وهبطوا مصر مهاجمـين . وكانوا كثيري العدد فكانت العـاقبة على دولة مصر التي كانت قد وهنت قواها . وكان ذلك في منتصف الثاني عشر ق.م

وخلفهُ على السرير صهرهُ الفتى توت غنخ أمون (« صورة حيّة لامون ») الذي كُشف قبرهُ في مصر منذ عهدٍ غير بعيد (ف ١٢١) . وكان اول ما باشرهُ هذا الملك من الاعمال إعادة عبادة الالهة القديمة وترميم الهياكل الخربة . ولم يكن سوى آلة بيد جماعـة كانوا اعظم منهُ حنكةً واختباراً فتآمروا عليهِ ونصبوا لهُ شركاً لم يلبث ان نشب فيهِ وتوارى عن العيان . وربما كانوا قد غدروا بهِ واماتوه قتلاً

وبعد موتهِ قامت ارملتهُ الصبية ، ابنة إخناتون ، وبذلت جهدها في سبيل الاحتفاظ بالملك في أُسرتها النبيلة ، فكتبت الى امبراطور الحثيين وطلبت اليهِ ان يمهّد لها السبيل للاقتران باحد بنيه . وبعملها هـذا تكون قد عرضت تاج الفراعنة على امير حثي الجنس . وقد كشفت اعمال الحفر الحديثة هذا الكتاب المشؤوم منقوشاً على آجرَّة بالخط المسماري القديم

وملتي بين سجلات المملكة الحثية. إلا انَّ أمنيتها هذه لم تتحقق لها . فانقرضت السُّلالة الملكية التي كانت قد طردت الهكسوس (الملوك الرعاة) وشيّدت اركان اوّل امبراطورية عظيمة في الشرق القديم واستاثرت بالسلطة مدة مئتين وثلاثين سنةً وكان انقراضها نحو سنة ١٣٥٠ ق.م

(١٣٠) المرتزقة في الجيش المصري وسقوط الدولة المصرية

وتُشاهد علائم هذا السقوط في طيبة حتى يومنا هذا . فكل من يتعهد صور الحروب المنقوشة على هياكل المدينة يرى في مشاهد المعارك التي حدثت في اواخر ايام الدولة جنودًا كثيرة جدًّا من المرتزقة الذين انخرطوا في سلك الجندية المصرية وبايديهم سيوف ثقيلة من البرنز مما يدل على ان المصريين كانوا قد سئموا الحرب وفقدوا كل ميل اليها. فدعوا الاجانب ليحاربوا عنهم . وكان بين اولئك المرتزقة سكان سواحل البحر المتوسط الشمالية الذين تركناهم في قفار العصر الحجري المتأخر (ف ٤٤)

(١٣١) اجساد الامبراطرة المصريين

ان الفراعنة العظام الذين تبوأوا عرش مصر مدة تربي على اربع مئة سنة دُفنوا في طيبة. ومدافنهم على الجانب الآخر من الصخور الشاهقة، وراء تماثيل امنحوتب الثالث الهائلة، في واد موحش في الصحراء الغربية . هنا في صخور هذا الوادي نُقرت مدافن الفراعنة ممتدَّة في قلب الجبل مئات من الاقدام ورُمست فيها اجسادهم لترتاح الراحة الابدية. ولكن لم يلبث لصوص المقابر بعد سقوط المملكة ان اهانوا كرامة الراقدين في تلك الرموس فسلبوا ونهبوا ولم يُبقوا ولم يذروا . اما خلفاؤهم الملوك الذين كانوا على جانب من الوهن فكانوا يدأبون في اخفاء الجثث الملكية بنقلها من مخبإٍ الى مخبإٍ حتى قرَّ رأيهم اخيرًا على ان يخبأوها في قاعة مخفاة عن الابصار نُقرت في الصخور الغربية حيث بقيت آمنة فيها ثلاثة آلاف سنة تقريباً اي الى السنة ١٨٨١ حين كُشفت ونُقلت الى المتحف الوطني بالقاهرة حيث لا تزال موجودة . وهكذا لا نزال حتى اليوم نرى وجوه اسياد مصر واسية الغربية الذين عاشوا وسادوا قبل ما يربي على ثلاثة آلاف سنة . وبعد سقوط الامبراطورية كانت حال داخلية البلاد تتبدل من الرديء الى الاردإ لان كهنة الاله آمون ارباب القوة والصولة الذين كانوا يجرُّون المغانم العظيمة من الحروب الاجنبية زادوا قوَّةً ومنعةً حتى نازعوا الملك نفسهُ المُلك . واستبدوا بالسلطة زمناً معلوماً ولا سيما في مصر العليا (الصعيد اليوم) وكانت حكومتهم دينية . وكانوا يقرّرون احكام المملكة باحالتها الى تمثال الاله العظيم الذي كان يثبت او يلغي امرًا بانغاض الراس انغاضاً قويا تبعاً للقوَّة التي كانت تحركهُ من داخل بتدبير ميكانيكي قام بهِ الكهنة من الداخل . وعَقَب حكم هولاء الكهنة زمان قبض في غضونهِ على اعنَّة السلطة والحكم جماعة من الغرباء الذين كانوا قبلًا اما قادة مأجورين

اتوا من ليبية او غزاةً فاتحين قدموا من النوبة . لكنهم تمتعوا بما كان يتمتع به الفراعنة الاولون من القاب الشرف وعزّة الملك وأُبّهته . ولكن الدهر لم يدم مواليًا لهم فشبّت الحرب الاهلية وامتلأت البلاد من المطالبين بالعرش فعمّ الاضطراب وسادت الفوضى . وساءت حال البلاد من الوجهة الاقتصادية لفساد النظام في الاحكام الذي نجم عن ضعف الحكومة . وساءت الحالة الصناعية والدينية ايضًا . الاّ ان سكان البلدان التي مثّلت فيها مصر دورًا سياسيا مهما كان لا يزال عالقًا في اذهانهم شيء من التقليد عن عظمة مصر ومجدها الباذخ . فلما قامت دولة اشور العاتية في الشرق استغاث سكان تلك البلدان بمصر مستظهرين بها على الدولة الفاتحة الجديدة فكانوا كمن يتوكأُ على قصبة مرضوضة

(١٣٢) لخوص رحلة النيل

قد انتهت رواية المملكة في طيبة وروت لنا الاهرام والقبور والهياكل المبثوثة على جانبي النيل تاريخ مصر في اوّل عهدها مدة ثلاثة اعصر . فاهرام الجيزة والمقابر التي في جوار ممفيس قصّت علينا تاريخ عصر الاهرام . والقبور المنحوتة في شواهق الصخور التي شاهدناها في رحلتنا النيلية حدثتنا عن تاريخ عصر الاقطاع . والهياكل والقبور المنقورة في صخور طيبة روت لنا تاريخ الامبراطورية . فالنيل اذن مجلد تاريخي ضخم . ثم يجب ان نتذكّر اننا قبل هذه الفصول الثلاثة الكبيرة من رواية مدنية مصر قد وقفنا على رواية اقدم منها — رواية كيفية انتقال الانسان من همجية العصر الحجري الى مدنية عُرف فيها المعدن والكتابة والحكومة (ف ٦٦) . وفيما نحن ننظر الى الامام يجب ان لا ننسى ان هذه الفصول الثلاثة ليست ختام تاريخ مصر لان انظمة مصر وقوانينها ومدنيتها دامت حتى العصر المسيحي وكان لها بعد ذلك تأثيرها المعلوم في تاريخ اوربا

١٣

العالم شمبوليون وحل الرموز الهيروغليفية

(١٣٣) لم يستطع احد في الازمنة الحديثة ان يقرأ الخط المصري القديم قبل ١٨٢٢ م

ونقول اخيرًا ان رحلة النيل قد ارتنا كيف نحصل على انباء السالفين الاولين من المباني والآثار التي خلّفوها كما ارتنا عظم المساعدة التي لنا من الآثار المكتوبة لتأليف اجزاء الرواية فلو كنا رحلنا رحلتنا في النيل قبل الآن بمئة سنة لما وجدنا احدًا يفسر لنا معاني

هذه الآثار المصرية • لان آخر انسان استطاع ان يقرأ الخط الهيروغليفي كان قدمات قبل الف سنة او تزيد • اذن قبل مئة سنة لم يكن احد قادرًا ان يفهم الكتابات العجيبة التي تغشى الآثار المصرية الفخمة في بلاد النيل



الشكل ٥٤ شمبليون والرموز الهيروغليفية

وجد شمبليون مسلة على قاعدتها كتابة يونانية مفادها ان المسلة هي للملك بتولمايوس وملكته كليوباترا . وكان على بدن المسلة كتابة هيروغليفية ظنّ انها لا بد ان تتضمن اسمي بتولمايوس وكليوباترا . وكان بعض العلماء قد ابان ان الاشكال البيضية الكثيرة الوجود على الآثار المصرية تتضمن اسماء ملكية ـ اي انها "خراطيش" من امر بكتابتها . وابان الفحص وجود شكلين بيضيين على بدن المسلة . فاستنتج شمبليون ان الكتابة الهيروغليفية في الشكلين البيضيين تتضمن حروف اسمَي بتولمايوس وكليوباترا وتقدم الى مقابلتها بحروف اسمي بتولمايوس وكليوباترا في اليونانية فقال اذا كانت العلامة الاولى من الاسم كليوباترا حقيقة هي الحرف الأوّل وجب ان يكون ك . والعلامة الثانية اذا كانت حقيقة هي الحرف الثاني من اسم كليوباترا وجب ان يكون الحرف ل . وبما ان الحرف الرابع من اسم بتولمايوس (نمرو ١٤) هو لام ايضاً وجب ان تكون علامته صورة اسد كما في الشكل الأوّل الذي يتضمن اسم كليوباترا. ولزيادة سروره وجد ان العلامة ال ١٤ هي نفس العلامة ال ٢ كما نرى اعلاهُ . وهكذا وجد ان العلامة ال ٥ في الشكل الأوّل هي العلامة ال ١١ في الشكل الثاني فاستنتج وتأكد له انها تشير الى الحرف ب وهلم جرًّا وقد برهن من هذين الاسمين انهُ كان عند المصريين حروف هجاء لا مجرّد علامات او رموز لمقاطع او كلمات كاملة . وتعلم اصوات اثني عشر حرفًا ووضع الاساس لاكمال حل الرموز الهيروغليفية واعلن اكتشافهُ للاكادمية الفرنساوية في باريس . وكان ذلك في السنة ١٨٢٢ مسيحية

(١٣٤١) مساعي شمبوليون الاولى لحل الرموز

لقد حار العلماء زمناً طويلًا في امر حلّ رموز الكتابة المصرية القديمة قبل ان قيّض الله لحلّها الشاب الفرنساوي شمبوليون الذي بعد ان لاقى الصعاب في البحث عنها وكاد اليأس يتطرّق الى قلبهِ لاح لهُ بارقة امل بالنجاح فثابر على العمل وفاز اخيرًا • وذلك انهُ اكتشف اولاً اسمَي بتولمايوس وكليوباترة ، اللذين ملكا على مصر بعد فتح الاسكندر الكبير،

مكتوبَين بالخط المعروف بالهيروغليفي · فمكنهُ هذا الاكتشاف من تحقق اثنتي عشرة علامة من علامات الخط المذكور برهن انها حروف هجائية · فمهَّد ذلك لهُ السبيل الى قراءة عدَّة اسماء أُخرى ملكية · وفي السنة ١٨٢٢ اعلن اكتشافهُ في كتاب مشهور بعث بهِ الى الاكادمية الفرنساوية موضحاً فيهِ الاسلوب الذي تسنَّى لهُ بهِ الفوز بحل رموز الكتابة المصرية القديمة

(١٣٥) نجاح شمبوليون في فك رموز الكتابة المصرية القديمة

وبعد ان توصَّل الى هذه الدرجة من النجاح تصدَّى لقراءة حجر رشيد المشهور · فلم يكن هذا اذن، كما زعم بعضهم ، المفتاح الاوَّل الذي تذرَّع بهِ شمبوليون لقراءة الخط المصري القديم لكنهُ مكَّنهُ من ان يضيف عدداً جديداً من علامات الخط الهيروغليفي الى ما كان قد عرفهُ منها قبلًا وتعلم معاني الالفاظ وتركيب الجُمَل · وقبل ان ادركتهُ الوفاة سنة ١٨٣٢ كان قد ألَّف كُتيباً في صرف ونحو اللغة المصرية القديمة اردفهُ بمعجم صغير لها · نعم انهُ لا تزال اشياء أُخرى جمَّة في اللغة المذكورة يجب ان يدقَّق فيها لتُعرف تمام المعرفة الاَّ ان ما احرزهُ شمبوليون من معرفتها كان بمثابة وضع اساس لعلم جديد يعرف بعلم الآثار المصرية الذي اعاد الى العالم فصلًا من تاريخ البشر كان مفقوداً طولهُ على وجه التقريب ثلاثة آلاف سنة · فكأن آثار النيل استعارت صوتاً ولساناً لتقصّ علينا كيف توصل الانسان الى هذا العمران العالي الشان

(١٣٦) الانتقال الى اسية

وعلى هذا النمط حُلَّت رموز كتابات الآثار التي اكتشفت في البلاد الواقعة على جانبَي دجلة والفرات في اسية وروت لنا حكايتها · وكلها تدل على ان شعوب اسية خرجت من قفار الهمجية واقتبست الصنائع وتعلمت استعمال المعادن واستنبطت اسلوباً للكتابة واخيراً احرزت المقام الاوَّل والزعامة العليا في العالم القديم · فبناء على ذلك قضت الحال بأن نوجه انتباهنا في الفصل التالي الى الشرق القديم في اسية للاطلاع على روايتهِ

مسائل

٨

اَيَّة اعصر تبينها لنا الآثار التي وجدت في وادي النيل ؟ صف حكم امير من امراء عصر الاقطاع · صف مكتبتهُ · من اي وجهة تقدم الناس منذ عصر الاهرام ؟ صف علم ذلك الزمان · ما هي الصلة التجارية التي أُوجدت بين البحرين ؟

٩

صف ما يمكنك ان تراهُ وانت في طيّارة فوق الطرف الشرقي من هيكل الكرنك. ما الفرق بين الفراعنة الذين بنوا الكرنك والذين بنوا الاهرام ؟ من هي اوّل امرأة عظيمة في التاريخ؟ اخبر شيئاً عن ملكها. اخبر عن مُلك اعظم قائد مصري. ما معنى الامبراطورية؟ الى اين وصلت حدود الامبراطورية المصرية؟

١٠

ماذا فعل ملوك مصر بالثروة التي جمعوها من الشعوب التي دانت لهم؟ صف هيكلاً في اعصر الامبراطورية وما يحدق بهِ. صف البهو العظيم في الكرنك وابن التحسين الذي طرأ على كوى سطح الهيكل. قل ما تعرفهُ عن مقبرة طيبة واذكر ما فيها. من حاول ان يُدخل اقدم اعتقاد بالهٍ واحد؟ صف محاولتهُ

١١

ماذا كانت عواقب حركة اخناتون ؟ قل ما تعرفهُ عن رسائل العمارنة. من هم الشماليون الذين استولوا على سورية وماذا كانت اسلحتهم الجديدة؟ ماذا تبين صور الحرب الموجودة في طيبة عن العسكر المصري؟ من هم الاجانب الذين اجتاحوا مصر وكان لهم يد في تقويض دعائم الامبراطورية؟ ماذا حصل لاجساد الاباطرة؟ لخّص الاعصر التي درسناها ونحن صاعدون في النيل من الاهرام الى طيبة

١٢

لماذا لم يستطع اسلافنا حلّ الخط الهيروغليفي؟ مَن قرأهُ ومتى؟ اية علامة مصرية تدل على الحرف الاوّل من اسم بتولمايوس. اية علامة مصرية تدل على العلامة الخامسة من اسم كليوباترا؟ قابل العلامة المصرية الرابعة في اسم بتولمايوس بالعلامة الثانية من اسم كليوباترا. أتحسب هذا اتفاقاً او برهاناً على ان الاسد يرمز الى الحرف ل؟ اي اثر قديم درسهُ شمبوليون بعد ذلك؟ صِفهُ (ش٢٠-١٦)

الفصل الرابع

اسية الغربية • بلاد بابل

١٣

ارض اسية الغربيّة وشعوبها

(١٢٧) حدود اسية الغربية جبال في الشمال وبادية في الجنوب

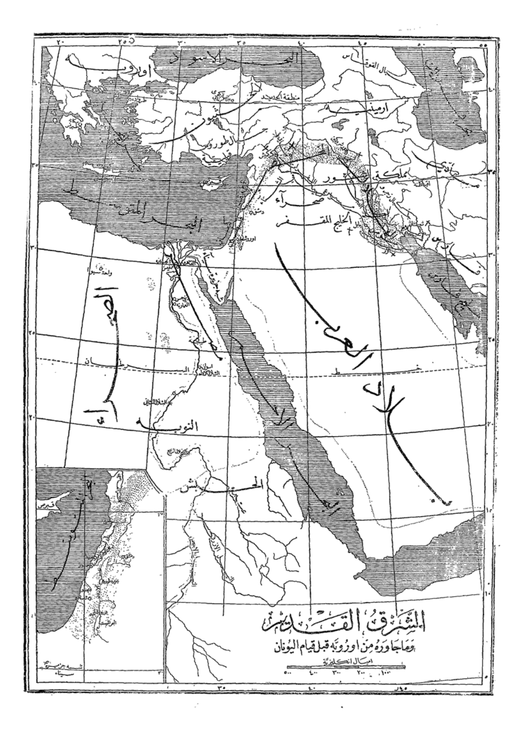
ان اقصى ما تمتدُّ اليهِ اسية غرباً بلادٌ غير منتظمة الشكل تُحدق بها الميـاه تقريباً من جميع جهاتها • فيحدها شمالاً بحر قزبين والبحر الاسود وغرباً البحر المتوسط والبحر الاحمر وجنوباً وشرقاً الاوقيانوس الهندي وخليج العجم • ومعظم هـذه البلاد جبالٌ في الشمال وصحارٍ في الجنوب •ووطن الانسان الاوَّل واقع بين هذه الصحاري وتلك الجبال متاخماً لها• وهو ارض هلالية الشكل صالحة للزراعة ، على جانبها الواحد جبـال وعلى الآخر صحارٍ رملية •وسنشير اليها من الآن فصاعدًا باسم « الهلال المخصب»

(١٢٨) الهلال المخصب

ان مقعَّر هذه الارض الهلالية الشكل متجه نحو الجنوب وقرن الهلال الغربي عريش مصر والقرن الشرقي خليج العجم[١] (خريطة ٣) ومركزهُ الى الشمال من بلاد العرب فكأنهُ جيش مرابط متجه الى الجنوب ميمنتهُ سورية وفلسطين وميسرتهُ خليج العجم وارض بابل وقلبهُ جبال اشور

(١٢٩) الخليج المقفر

وكما آثر بعض المؤَرخين ان يسمي هذه الارض الهلاليـة الشكل « بالهلال المخصب » آثر آخرون ان يسموا الصحراء الرملـية التي تتاخمـهُ داخلةً فيهِ ، « بالخليج المقفر » ، لان شكلها كشكل الخليج والرمل فيها ينوب مناب الماء •وسنشير اليها بهذا الاسم كلما جاء شيء


الشرق القديم
وما جاوره من اوروبه قبل قيام اليونان
اميال انكليزية
البحر الاسود
اوروبا
ارمينيه
مملكة آشور
الخليج المقفر
البحر المتوسط
قبرص
النوبه
الحبش
جبال الطوروس
جبال القوقاس
منطقة الحديد
دمشق
اورشليم
واحة سيوا
خط السرطان
صحراء
فينيقية

عنها • ويبلغ عرض هذه الصحراء خمس مئة ميل وكأنها تتمّة للصحراء العربيـة المتصلة بها وتمتدّ شمالاً الى العريش • وهي نجدٌ كبيرٌ من الطبقة الكلسية بالغ درجة من الارتفـاع لا تتمكّن عندها مياه دجلة والفرات من سقيها • الاّ انهُ بعد امطار الشتاء الضعيفة تشاهد فيهِ اقاليم واسعة تعلوها بعض انواع البقول والاعشاب مبثوثةً في ارجائها • وتاريخ اسية الغربية عبارة عن نزاع دائم بين الجبليين سكان الشمال والقبائل الرحّل سكان الجنوب — نزاع لا يزال ناشباً حتى الان للاستيلاء على الهلال المخصب اي ساحل هذا الخليج القفر الذي سبق الايماء اليهِ

(١٤٠) الصحراء العربية والبدو الساميون

ليس من انهار في بلاد العرب • ولا يقع فيها مطر الاّ بضعة اسابيع في فصـل الشتاء • ولذلك كانت البلاد قفاراً ومعظم سكانها قبائل رُحّلاً • والقليل من اراضيها تُقيم بهِ قبائل متحضِرة • وجميعهـا تنتمي الى الجنس الابيض السامي الذي يشتمل على قبائل كثيرة ما تزال اسماؤها محفوظة لدينا بل ما فتئ بعضها موجوداً ومعروفاً حتى الآن ولا سيما العرب واليهود والسريان ، والنساطرة من الفِرق المسيحية • وعلاوة على معرفة اسماء قبائلهم لا يزال لدينا شيءٌ من لغاتهم ومميّزاتهم الشعبية • وقد كرّت الاجيال والساميّون يظعنون من مكان الى مكان في الاجزاء المأهولة من البلاد ارتياداً للمراعي الخصيبة لمواشيهم وقطعانهم حتى دُعوا بالاقوام الظُعَّن • وقد مرّ عاينـا قبلاً كيف ترقّت معيشتهم وصلحت احوالهم بعـد ادجانهم للضان والمعزى

(١٤١) ظعن هولاء الاقوام الرحل من البادية الى الهلال المخصب

وكان من دأب هولاء الاقوام الظعّن ، منذ عهد بعيد ، حين ينفَد عندهم الكلأُ او تجفُّ البِرك ، ان يغادروا البادية ويظعنوا الى الجهات الشمالية من تخوم الصحراء • فاذا طـاب لهم المقام استبدلوا العيشة الحضرية بعيشة التنقل في البادية وزاولوا الفلاحة والزراعة (ف٣٦) • ويُشاهد هذا الامر جليا في ايامنا هذه على حدود الصحراء حيث تُوجد قرى برمّتها مبنيـة باللبِن على نمط بيوت الفلاحين يغطّي اعلاها نسيج اسود من شعر المعزى كالذي تُصنع منهُ خيام البدو في ايامنا • وكما نقسم اليوم هذه القبائل الى بدو وحضر ، كذلك كان اسلافنا يقسمونها الى مَدرٍ ووَبَرٍ اي بُناة الطين وبُنـاة الشَّعَر • وكثيرٌ من الأُسر العربية المقيمة بقراها في الهلال المخصب — وهي لا تختلف في شيء عمّن يجاورها من سكان المـدن لا في هيئة الوجه ولا في العادات — تنتمي الى جدٍّ بَدْويٍّ كان في ما غبر من الزمان ضارباً خيمتهُ على تخوم الصحراء • فهذه الحركة الدائمة من الصحراء الى ما حولها من الاراضي المَريعة بغية العيشة الحضرية مكّنت الشعوب السامية المقيمـة بالهلال المخصب من المحافظة على سيادتها الجنسية مع انهُ دخل بينها كثير من العناصر التي ليست سامية الاصل • وكان هـذا التنقل

البطيء من الصحراء الى الاراضي الزراعية يزداد احياناً ويتعاظم حتى يصير تياراً جارفاً يحمل القبائل الظُّعَّن من القفر البلقع الى الهلال المخصب فتغشى المدن والقرى كما تغشى المياه الارض. واستمرَّت المهاجرة من البادية الى الهلال المخصب الوفاً من السنين على هذا النمط. ولم تكن مهاجرة الاسرائيليين من البرية الى فلسطين على ما ورد في التوراة وزحف العرب في صدر الاسلام على البلدان الدانية والقاصية حاملين رايات الانتصار، سوى تيَّار من تلك التيارات التي طمت من بلاد العرب. وكانت تلك القبائل بعد حضارتها تسعى لنشر مستعمراتها غرباً في السواحل الشمالية من قارَّة افريقية وجنوب اسبانيا وسواحل الاتلانتيك. الاَّ ان مستعمراتها العظيمة لم تبلغ سواحل الاتلانتيك الاَّ بعد قرون عديدة

(١٤٢) قوة العادة

ليس للفلوات الشاسعة في الصحراء حدود معيَّنة. فالكلأ فيها كالهواء مباح لكل قادم اليها. وليس لاحد حق ان يضع يدهُ على ارض مدَّعياً ملكيَّتها. فلا اغنياء هناك يملكون المساحات العظيمة من الارض ولا فقراء يُحرمون التملك. وليس عند ابناء الصحراء شرائع ولا سُنن يتمشَّون عليها بل الحكم عندهم بموجب العادة ليس الاَّ. فاذا رأى البدويّ قطيعاً من الغنم سائماً في مرعى غير مراعي قبيلتهِ وطمحت نفسهُ الى امتلاكهِ فما عليهِ الاَّ ان يغتال راعيهُ وهو يسقي الغنم عند البئر فيصير القطيع ملكاً لهُ. الاَّ انهُ بفعلتهِ هذه الاثيمة يعرض عائلتهُ للموت وضمان المال المنهوب لا عن يد حكومة بل عن يد عائلة الراعي القتيل أخذاً بالثار. ولعادة الاخذ بالثأر تأثير كبير في ردع الغزاة والقتلة كما للشرائع والقوانين. ولكن في احوال كهذه لا حكومة ولا صناعة ولا كتابة ولا آثار. ويعيش سكان البادية احراراً بلا مسيطر ولا رقيب. ولم تستطع حكومة من جميع الحكومات التي قُيِّض لها ان تقبض على ازمَّة الحكم والسلطة في البلاد المحيطة ببلاد العرب، ان تضبط شؤون عرب البادية الرحَّل كما يجب في مدة اربعة آلاف السنة الماضية

(١٤٣) الحركة التجارية والقوافل

كان العرب في كل عام، حين ينضب ماؤهم في البادية، يتنقَّلون بقطعانهم حتى يصلوا الى تخوم الهلال المخصب وتبدو لهم احدى المدن من بين الحدائق الغلباء فيسارعوا اليها ليبتاعوا منها اسلحةً وثياباً وادوات أُخرى لا غنى لهم عنها. فكان اهل المدينة ينظرون اليهم نظر التعجب والاستغراب لاختلاف زيّهم عن زيّ اهل المدن. وحين كانوا يشترون البضائع كانوا ينقلونها من مكان الى مكان ليس كمكارين لحساب اهل الحضر فقط، بل كتجار ايضاً لحسابهم الخاص كعرب العُجَيل في ايامنا هذه الذين يقطعون بقوافلهم الفيافي ويطوون

البيد طيا بين بابل وسورية وفلسطين غير هيابين ولا وجلين وبذلك صار بعض العرب من كبار تجار العالم القديم وجمعوا الثروات الطائلة التي مكنتهم من تشييد مدن عظيمة في البادية كالبتراء وتدمر

(١٤٤) ديانة البدوي

وطن البدوي البادية . وغير خافٍ ما تولده في النفس فلواتها السحيقة ومفاوزها النائية عن العمران من المهابة والعظمة والتأثير الشديد . فخيّل للبدوي ان تلك الفلوات والمفاوز تسكنها كائنات غير منظورة تقيم بين صخورها وآكامها واشجارها وينابيعها . فاتخذها آلهة واعتقد انهُ يستطيع ان يتملقها ويترضاها بمجرد تفوهه بطلاسم ورُقى ، وهي صلواتهُ الاولى ، فلا تؤذيه بل تحسن اليهِ . ورسخ في عقله هذا الاعتقاد ولا يزال راسخاً فيهِ حتى الآن . فالبدوي يحسب وجود الجنّ حقيقة لا مراء فيها

(١٤٥) اله القبيلة عند البدوي

وخيّل للبدوي ان كلاً من تلك الكائنات غير المنظورة يتسلط على زاوية صغيرة من زوايا هذا العالم الفسيح ليس الاً . بل ربما انحصرت سلطتهُ في بئر ماء وما يجاورها من المراعي فقط . واذا اتفق ان وُجدت بئر أُخرى على مسافة يوم من البئر الاولى افترضوا ان هناك كائناً آخر من تلك الكائنات الروحية يقدّسهُ سكان الارض الواقعة فيها تلك البئر ويحترمهُ الرعاة الذين يَردُون ماءها لسقاية قطعانهم ومواشيهم ، مهما كانت القبيلة التي ينتمون اليها ، طمعاً في نيل رضاهُ . فنشأ من ذلك اعتقاد ان لكل قبيلة في اي جزء كان من البادية حافظاً خصوصيا هو معبودها الذي يرافقها في رحلاتها وتنقلاتها من مرعًى الى مرعى ويشاركها في مآدبها وولائمها ويتقاضاها ابكار مواشيها بدل اعتنائهِ بها وحفظهِ لها

(١٤٦) افكار البدوي من جهة اله قبيلتهِ ورأيهُ في العدالة

وكانت افكار البدوي الضارب في الفلوات من جهة الهِ كهذا فطرية ساذجة جدًّا واحياناً بربرية ولا بَدع في ذلك لانها صورة منعكسة عن حالة المجتمع في البيئة التي كان يعيش فيها . فكان يتصوَّر الهُ كأنهُ شيخ القبيلة المبجّل فيجب عليهِ ان يترضاهُ تسكيناً لثائر غضبهِ اذا غضب . واما افكارهُ من جهة ما هو عدل وحق فكانت ارقى من افكارهِ من جهة الههِ . لانهُ كان يشعر بما يتوجب عليهِ من العطف على بني جنسهِ الذين كان يحسبهم عيال الههِ . ونما فيهِ هذا الشعور البسيط وتقوّى حتى تملّك نفسهُ وعواطفهُ بحيث صار بذلك معلّماً ومرشدًا في الشؤون الدينية للعالم اجمع

(١٤٧) الساميون الغربيون عند الطرف الغربي من الهلال الخصيب

شرع الساميون منذ ٣٠٠٠ ق.م يهجرون البادية تباعاً ويُقيمون في فلسطين عند الطرف الغربي من الهلال المخصب وحوالي ٢٥٠٠ ق.م نجدهم ساكنين مدناً مسوَّرة . فهولاء هم الكنعانيون اسلاف العبرانيين . والى الشمال منهم اقامت قبيلة أُخرى سامية شديدة

الحَوْل تُعرف بالاموريين (ف ١٨١) وكان على سواحل شمال سورية قبيلة أُخرى شغفها حب البحر فنبغ منها الشعب الفينيقي . وحوالي ٢٠٠٠ ق.م كان جميع هولاء الساميين الغربيين المتحضرين قد بلغوا درجة من المدنيـة لا يُستخفُّ بهـا مُعظمها مستمدٌّ من مصر وبابل وبعضها – وهو قليل – مقتبسٌ من بلاد اليونان لان وطنهم ، الذي هو الطرف الشرقي من بحر الروم ، على السكة السلطانية التي بين هذه البلدان فكان لهم اتصال بها غـير منقطع (خريطة ٣) . وسيأتي تاريخ الفينيقيين في ما يلي عند الكلام على تاريخ شرق البحر المتوسط

(١٤٨) الطرف الشرقي من الهلال المخصب . النهران والفصول الثلاثة في روايتها

وفي الوقت نفسهِ نرى تنقُّلات كالتي ذُكرت آنفاً جاريةً بين القبائل الرحَّل عند الطرف الشرقي من الهلال المخصب مقابل الضفاف السفلى لدجلة والفرات اللذين سندعوهما من الآن فصاعداً بالنهرين او الرافدين وينشأُ الرافدان من الجبـال الشمالية يخرجان منها ويدخلان الهلال المخصب ثم يقطعان باوراب وسط الخليج المقفر الى الجنوب الشرقي . وقد نشأ على ضفافها في اسية الغربية اقدم عمران عُرف في اسية . وسنحصر كلامنا في تاريخ ما بين النهرين في ثلاثة فصول كما حصرناهُ في تاريخ وادي النيل في ثلاثةٍ ايضاً

(١٤٩) سهل شنعار وبابل . مشهد اقدم فصل من فصول رواية الرافدين

ان اقدم فصول رواية الرافدين ، وموضوعهُ بابل [1] ، مُثِّل في واديها الاسفل بالقرب من مصبها . وحين يبلغ النهران معظم اقترابهما بعضهما من بعض وذلك على بُعـد مئتين وستين ميلًا من خليج فارس [2] ، يخرجان من البادية ويدخلان سهلًا منخفضاً خصب التربة جدًّا . ولا عجب في خصبهِ لانهُ متكوّن من رسوب الاتربة التي تحملهـا مياه النهرين كل سنة وتلقيها عليهِ . وفي هذا السهل ، عند الطرف الشرقي من الهلال المخصب ، موقع بابل . الاَّ انهُ في مدة الف السنة الاولى من تاريخ هذا السهل لم تكن بابل الحديثة قد قامت بعد او انها كانت قرية لا اهمية لها ولا شأن في تمثيل رواية البلاد التاريخية . وكان السهـل المذكور يُعرف بشنعار . واما الاسم بابل فالاصوب ان لا يطلق عليها الاَّ بعـد سنة ٢٠٠٠ ق . م (انظر ف ١٨٢)

(١٥٠) مساحة سهل شنعار

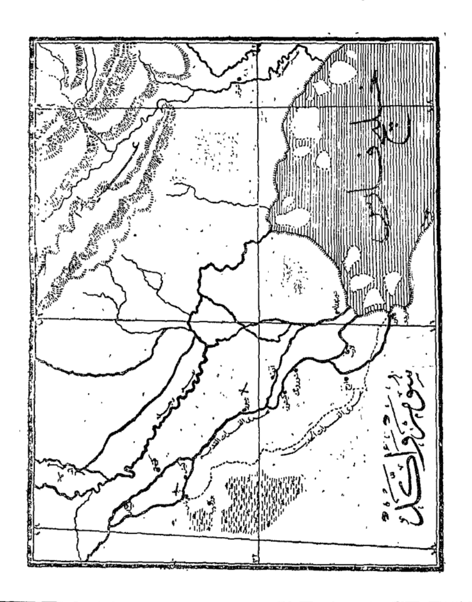
لم يزد عرض سهل شنعار في اي مكان منهُ عن اربعين ميلًا الاَّ نادرًا ولكن مساحة

---

(١) ان الفصلين الآخرين من رواية ما بين النهرين يتعلقان بمملكتي اشور والكلدان

(٢) كانت هذه المسافة مطابقة للواقع في ايام بابل واشور القديمة فقط لكنها غير مطابقة اليوم لان النهرين قد طمرا بطميهما مئتين وستين او ثمانين كيلومترًا من الخليج الفارسي . ولذلك هو الآن اقصر مما كان قبلاً

الاراضي الصالحة للزراعة فيهِ كانت في الراجح اقل من ثمانيـة الاف ميل مربع[1]، وموقعهُ في منطقة البحر المتوسط التي شتاؤُها ماطر وصيفها جافٌّ الاَّ ان المطر الذي يقع شتاء اقل مما يكفي لارواء الارض لانهُ اقل من ثلاثة قراريط · فيضطر الاهلون الى سقي حقولهم حتى يُدرك زرعها · فاذا استتبَّ للحقول الريّ الكافي كان انتاجها مدهشاً · ولذلك كانت الزراعة



(١) الفكر الشائع هو ان المؤرخين عند ذكرهم مساحة ارض بابل الزراعية يتغاضون عن حقيقة مهمة وهي ان سهل بابل كان قديماً اقصر مما هو الآن (١٤٩) ولذلك جاء كلامهم عنها غير منطبق على الواقع · وكذلك هم يتغاضون عن حقيقة أخرى لا تقل عن هذه اهمية · وهي ان في شمال العراق بادية ليست جزءاً من بابل القديمة · فلا يصلح للزراعة اذن الاَّ جزء العراق الشمالي خصوصاً وادي نهر بلخ ونهر خابور الاعليين · والخرائط الجديدة لا تظهر هـذه الحقيقة فان اطلس القرن (Century) يحصر الصحراء في الجانب الايمن من الفرات فلا يدخلها العراق · فالآراء الشائعة المقبولة بشأن الاراضي الزراعية في بابل القديمة مبالغ فيها كثيراً · والمساحة زائدة زيادة فاحشة عن المساحة الحقيقية للارض التي كان يستطاع ارواؤها

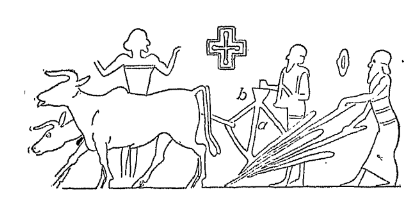
اهمّ موارد ثروة شنعار القديمة ٠ وكان سهل شنعار مشهدًا لحروب عديدة نشبت بين الجبليين واهل البادية وطالت مدتها على ما ألمعنا اليه سابقًا (ف ١٣٩). وسنتتبع الآن اخبار السلسلة الاولى من هذه الحروب التي انتهت في سنة ٢١٠٠ ق٠م بعد ان دامت نحو الف سنة

١٤

بزوغ المدنية السومرية والنزاع الاوّل بين السومريين والساميين

(١٥١) الجبليون الاقدمون المجهولو الاصل

ان الجبليين الذين اقاموا الى الشرق والشمال من وادي الفرات لم يكونوا ساميين ولا علاقة تربطهم بالقبائل الرحّل السامية التي كانت نازلة ببادية العرب[١] ويتعذّر ان نجد لهم اقل صلة بالاجناس الاخرى المهمة التي نعرفها ٠ وجلّ ما لدينا عنهم هو وجداننا صورهم على الآثار القديمة محلوقي الرؤوس ولابسين نُقبًا (تنّورات) من الصوف الخشن ٠ ومنذ عهد عريق في القدم اذ كانوا لا يزالون يستعملون الادوات الحجرية،



الشكل ٥٥ آلة زراعة بابلية قديمة

يجرّ هذه الآلة ثوران سائقها بجانبهما ووراء الآلة رجل يمسك اياها بقبضين وهي ذات راس دقيق جدًّا عند طرفها ٠ ولما الثوران يجرّانها تخط في الارض ثلمًا. وينشأ من جدارها أنبوبة عمودية a تنتهي بقمع b ٠ ويشاهد رجل ثالث يمشي الى جانب الآلة ويضع باليد الواحدة الحبوب في القمع وبالاخرى يمسك شيئًا يرجح انه كيس موضوع فيه الحبّ معلق بكتفه. فالحبّ ينزل في الانبوبة ويقع في الثلم الذي تخدّه الآلة ٠ وهذا المشهد منقوش على حجر خاتم صغير

---

(١) ان هولاء الجبليين كانوا — بلا مراء — من الجنس الابيض ولا يظهر ان لهم اقل قرابة بالجنس الهندي الاوربي الذي كان قد انتشر في البلاد الواقعة الى الشمال والشرق من بحر قزوين منذ زمان قديم جدًّا ٠ واستولوا تدريجًا على القسم الجنوبي من سهل شنعار فدُعيت المنطقة التي استولوا عليها سومر (انظر خريطة ٤) وسيأتي الكلام عن الشعوب الهندية الاوربية تحت نبذة ٢١

عبر بعضهم مضايق الجبال الشرقية وجفّفوا قبل سنة ٣٠٠٠ ق • م الاراضي الغمقة في جوار مصبّي الرافدين وصيّروها صالحة للزراعة

(١٥٢) عمرانهم المادي

وانتشرت دساكرهم الحقيرة المبنية باللبن شمالاً على ضفاف الفرات (انظر خريطة ٤) . اما ضفاف دجلة فكانت اعلى من ان ترويها مياهه • ولكنّ الاهلين كانوا قد تعلّموا كيف يخزنون مياه الفيضان ضمن سدود ويوزّعونها في اقنية لارواء الارض والحصول على غلال وافرة • وكان قد جاءهم من مصر الشعير ونوع الحنطة الذي تنشقّ حبوبهُ فدعوهُ باسمهِ المصري • وكان لديهم كثيرٌ من البقر والضأن والمعزى والحمير • فالبقر لجرّ سكك الفلاحة والحمير لجرّ المركبات والعجلات • وهذه هي



الشكل ٥٦ اجُرّة سومرية قديمة عليها كتابة مسمارية (القرن ٢٨ ق.م)

كتبت هذه الاجرّة حوالي ختام عصر ملوك المدن الاوّل (ف ١٦٨) قبل جلوس سرجون الاوّل على العرش بجيل واحد (ف ١٧٢) وهي تشتمل على حسابات تجارية تُرى فيها الارقام على شكل دوائر . وتشاهد علامات أُخرى محدّبة مكتوبة بطرف القلم الاعلى المستدير . وكانت الكتابة التصويرية قد صارت في هذا الوقت بل قبلهُ بزمان طويل مجموع اسافين كما يشاهد في شكل ٥٨ (بإذن الدكتور هنّي)

المرّة الاولى التي يُرى فيها الدولاب [١] معيناً للانسان على نقل الاثقال واما عند الفُرس فكان لا يزال حتى الآن مجهولاً • وكانوا السوريون يأتون بالنحاس ، الذي يُرجَّح انهُ جاء اولاً

(١) ان المرجح ان هذا الدولاب هو اقدم من الدولاب الذي استعملهُ سكان البحيرات السويسرية بل والدولاب الذي استعمل في سباق المركبات مدة العصر الحجري المتأخر

من مصر ، بطريق الاتجار مع البلدان الواقعة في جهات القسم الاعلى من النهر . وشرعوا يصنعون منهُ آنيتهم مذ حصلوا عليهِ الاَّ انهم كانوا يجهلون طريقة تقسيتهِ بمزجهِ بالقصدير للحصول على البرنز (ف ٣٤٤)

(١٥٣) ظهور الكتابة التصويرية السومرية

ان الحكومة والتجارة علّمتا الناس ان يملوا سجلاّت يحفظون بها « القيود » و« المحاضر » بشكل صوَر بسيطة (قابل ش١٦) تُرسم برأس قصبة مبريَّة على اللِّبن الطري . ثم يجفَّف اللِّبن في الشمس فيصلُب ويُحفَظ ما رُسم عليهِ . واذا طُبخ في اتونهِ المخصوص صار اجرًّا لا تقوى عوامل الطبيعة على اتلافهِ . ولا تزال تُرى على اقدم النماذج الباقية من هذا الاجرّ، الصوَر الاصلية التي كانت تستعمل في الكتابة

(١٥٤) تغيير العلامات السومرية التصويرية الى علامات اسفينية او مسمارية وفقدان الصور الدالة عن هذا التغيير

كان للقصبة التي كانوا يكتبون بها رأس مربع كالّ . وكانوا حين الكتابة يمسكون اللبنة مائلة قليلًا والقلم مستقيماً . واذا القينا نظرة على (ش ٧٢) رأينا رسم كاتب يكتب كما ذكرنا . الاَّ انهُ لم يكن يرسم خطوط الصورة التي يصوّرها رسماً بل كان يطبع على اللبنة الطرية زاوية من زوايا راس القصبة المربع الشكل ثم يرفع القصبة ليطبع خطاً آخر على الاسلوب نفسهِ . وبسبب ميل الاجرّة كان كل خطّ عليها اعرض عند الطرف الواحد مما عند الآخر . فجاء الخط على هيئة مثلثات او اسافين وكانت كل صورة او علامة تتألف من عدد من هذه الخطوط الاسفينية . ولذلك دُعي هذا النوع من الكتابة بالخط الاسفيني لان معنى الكلمة اللاتينية التي سمّي بها اولاً هو إسفين . ولكن صار بعد ذلك تمييز هذه الصوَر المؤلفة من خطوط اسفينية صعباً جدًّا ولا سيما اذا كان الكتّاب قد اسرعوا في الكتابة . واخيراً فُقد وجه الشبه بالمرّة بين الاولى والاخيرة

(١٥٥) ظهور العلامات الاسفينية الصوتية . حروف هجاء

وتمّ الانتقال من الطور التصويري الى الطور الصوتي قبل ان يمرّ على الطور الاوّل زمن طويل . وكان للكتابة السومرية حين بلغت طور نموّها الكامل ثلاث مئة وخمسون علامة كل علامة تدلّ على مقطع[1] او كلمة على مجموع اصوات . فلم يترقّ نظام الكتابة السومرية الى الدرجة التي تصير عندها المقاطع مؤلفة من احرف هجائية . فكان عندهم مقاطع مثل « كار » و « بان » ولكن لم يكن عندهم علامات للاحرف « ك » و « ر » و « ب » و « ن »

(١) وقد شذَّ بعد ذلك عن هذه القاعدة حروف العلة والحركات وبعض علامات تصويرية باقية الى الآن وفائدتها انها استعملت الاشارات المصرية (ش ٣٠) وسيلة للدلالة على شيء خفي

التي تتألف منها هذه المقاطع • ولذلك لا نستطيع ان ندخل هنا حروفاً هجائية كما فعلنا في كلامنا عن تاريخ مصر

(١٥٦) التقويم القمري السومري. اسماء السنين

ان الآثار الكتابية الباقية على الاجرّ تدلنا على ان الكاتب السومري كان في قياسهِ الوقت يبدأُ بشهر جديد كلما هلّ الهلال فكانت سنتهُ مؤلفة من اثني عشر شهرًا قمريًا • ومن المعلوم (ف ٦١) ان السنة القمرية اقصر من السنة الحقيقية• فكان الكاتب — تلافياً لهذا القصر — يدسُّ شهرًا علاوةً كلما وجد انهُ بلغ آخر تقويمهِ قبل الوقت بشهر او اكثر• وقد ورث اليهود والفرس هذا التقويم مع ما هو عليهِ من عدم الدقة والضبط • ولا يزال مستعملًا في الشرق في الشؤُون الدينية خصوصاً • وكما كانت الحال في مصر (ش٢٢) من جهة عدم احصاء السنين كذلك كانت هنا الَّا انهم كانوا يدعون كل سنة باسم حادثة مهمة وقعت فيها

الشكل ٥٨ العلامات البابلية الاولى نُري اصلها التصويري

هذه هي علامات الكلمات الآتية بالحرف المساري مبتدئة من الاعلى: قدم . حمار . عصفور . سمكة . نجم . ثور . شمس . حبة . ان اقدم شكل هو الذي في عمود "١" اما العمود "٣" فيظهر فيهِ العدول عن الصور والاعتماد على العلامات اذ صارت الخطوط كالاسافين . وفي العمود "٣" نرى الاشكال الاخيرة مؤلفة من اسافين لا غير ولا يظهر فيها اقل مشابهة للصور الاصلية . واشكال العلامات الاصلية لم توجد فعلاً ولكنهم افترضوها من الصور الموجودة المشاهدة في عمود "٣"

(١٥٧) الاعداد والاوزان

لم يكن نظام العدّ عند السومريين مبنيا على العشرات بل كانت قاعدة العدّ عندهم ، الوَحدة « ستين »• فكانوا يعبّرون عن عدد كبير بما يساويه من الستّينات : ومن هذه الوَحدة « ستين » ، تولّدت قسمتنا للدائرة ست ستّينات وللساعة ستين دقيقة والدقيقة ستين ثانية • وكان المنا ، الوحدة الرئيسية للاوزان عندهم ، مقسوماً الى ستين شاقلًا • واتصل هذا الوزن الى اوربا بطريق التجارة تحت اسم آخر هو الليبرة

(١٥٨) نيبور مركز الديانة . برج مركزها اصل المآذن وقبب الكنائس

وشُيّد في وسط سهل شنعار (خريطة ٤) برجٌ عظيم مبنيٌّ من الاجرّ المطبوخ بالنار (ش ٧٤) لان لا حجارة للبناء في بلاد بابل • وكان هذا البرج مقدساً لأنليل اله الهواء عند السومريين• ومركزهُ مدينة نيبور القديمة المقدسة والمكرَّمة

عنـد كل معاشر السومريين . وكان التلُّ الذي بُني عليهِ البرج سامقاً الى العلاء مثل الهرَم يُصعَد اليهِ بطريق يُحيط بهِ من الخارج ويرتفع تدريجاً في كل دورة من دوراتهِ حتى يَبلُغ الى القمّة (ش ٨١) . وربمـا كان السومريون قد شيَّدوا هذا البرج الفخم في نيبور ليجعلوا مسكن الههم على قمة جبل كالتي كان يحتلها قبل ان هاجروا من بلادهم الجبلية الاولى الى سهول بابل . (ف ١٥١) وحـذت حذو اهل نيبور مـدن أُخرى . وصار هذا البرج اصل حكاية برج بابل التي يحفظها ويرويها العبرانيون حتى اليوم . وهو الجدُّ الاعلى للمآذن والابراج والقُبب في الجوامع والكنائس (ش ٢٢٤)

(١٥٩) أبنية الهيكل الواطئة بجانب برج الهيكل العالي

والحقيقة ان البرج نفسهُ لم يكن هيكل الاله وان كانوا قد بنوا محراباً على قمتهِ بل كان الهيكل بناية أُخرى واطئة الى جانب البرج . فهذه كانت الهيكل الاصليّ . وقد هدمت عوامل الطبيعة هذا البناء وامثالهُ من المباني المقدسة في بابل . الاّ انهُ بقيت منهُ آثارٌ تظهر لنا البساطة التي كانت تتجلى في بناية الهيكل (ش ١٥٧) . فاذا دنا زائرٌ من تلك الآثار رأى من الخارج جدراناً عارية من كل زخرفة مبنيَّة بالاجر المجفف بالشمس تحيط بدار شيّدت خلفها المقصورة المقدسة . وواضحٌ ان هـذا المسكن السفلي المخصَّص للاله كان بيتاً عاديا كسائر بيوت السكان (ش ٥٩)

(١٦٠) سور الهيكل . الكهنة والمسيطر عليهم

وكان حول الهيكل والتلّ الذي قام عليهِ ، عددٌ من الابنية التي جُعلت أهراء للهيكل ومراكز لادارة اشغالهِ . وكان يحوطها سورٌ عظيمٌ . اما زمام السيطرة عليها فكان بيد جماعة من اغنياء الكهنة الذين كانوا سَدَنة الهيكل يحافظون على املاكهِ ويستثمرونها بمعونة رهط من الكهنة . وكان الملك او حاكم المدينة رئيساً عليهم كما كان كاهناً يقوم بواجبات منصبهِ الديني كغيرهِ من الكهان الاّ ان قيامهُ بهذه الواجبات لم يكن لينقص شيئاً من اهتمامهِ بادارة الاحكام في مملكتهِ

(١٦١) ديانة السومريين وعبادتهم

الى هذا المقدس والى ظلّ التل القائم عليهِ الهيكل كان يأتي الفلاح حاملاً تقدمتهُ التي لم تكن سوى رأس معزى وجرّة ماء فيها بعض سعوف النخل الخضراء ، رمز حياة البلاد النباتية التي كان يحفظها الاله بفيضان النهر السنويّ . وصارت هـذه الجرَّة ، فيما بعد ، مع السعوف التي كانت توضع فيها ، « شجرة الحياة » . وهي رمز كثيرًا ما يُشاهد منقوشاً على الآثار القديمة (ش ٧٣) . فكان العابد يضع تقدماتهِ امام آلهة الارض او الهواء او السماء او البحر متوسلاً اليها ان تهب لهُ ماء غزيرًا وغلالاً وافرة بشرط الاّ يكون الماء طوفاناً مهلكاً يُبيد الزرع والضَّرع كالطوفان الذي غمر مرَّةً الارض بمائهِ فهلك بهِ كل ذي حياة . وظلَّت نازلة الطوفان هذه تُؤثَر جيلاً بعد جيل خلفاً عن سلف حتى اتصل نبأها الى العبرانيين

(١٦٢) عادات السومريين في دفن موتاهم واعتقادهم من جهة الحياة بعد الموت

وكان السومريون يختلفون جداً عن المصريين في قضية واحدة مهمّة وهي طريقة دفن الموتى · فانهم كانوا يدفنون موتاهم في المدينة تحت دور منازلهم او تحت ارض الغرف · وكثيراً ما كانوا يضعون الميت في قبرهِ على التراب مباشرةً بلا تابوت ولا كفن ولا جهاز للآخرة · الاَّ انهم كانوا احياناً يضعون معهُ جرَّتين كبيرتين من فخَّار فم الواحدة منهما يقابل فم الاخرى لتكونا بمثابة تابوت لهُ · وكانوا احياناً يضعون الجثة في قعر رمس مستطيل الشكل قائم الزوايا مبطَّن بالطُّوب شبيهٍ بعقد او قبو بسيط · وكانت معرفتهم عن العالم الآتي ضئيلة مبهمة لا يُعتدُّ بها · فكانوا يحسبون ذلك العالم مكاناً تحت الارض يسود فيهِ الظلام الدامس ويملأهُ الغبار الخانق حتى تعافهُ الانفس وتشمئز منهُ الارواح · ولكن قُضي على الناس طرًّا صالحين وطالحين ان ينحدروا اليهِ · وكان من عادتهم — كما تقدم — ان لا يضعوا مع الميت شيئاً من الجهاز او العتاد · الاَّ انهم كانوا احياناً يضعون في الرمس بضع قوارير من النحاس او الخزف وشيئاً من ادوات الزينة من الفضة او النحاس او الذهب او عرق اللؤلوء · وكانوا في بعض الاحيان يزيدون عليها قطعة سلاح · ولذلك لا نتوقع ان نستفيد من المقابر ودفائن الرموس في بابل ما استفدناهُ من مصر القديمة

(١٦٣) بيوت السومريين وقراهم

وكانت بيوت السومريين مبنية بالطوب المجفف بالشمس على آكام اصطناعية حول سور الهيكل مستطيلة الشكل عارية من كل انواع الزخرفة · (ش ٥٩) وكان لكل بيت دارٌ من الجهة الشمالية ومقصورةٌ كبيرة من الجهة الجنوبية تستطرق الى بقيّة الغرف · وكان طول القُرى — مع انهُ زهيد — يُربي كثيراً على عرضها الذي لم يتجاوز بضع مئين من الاقدام

(١٦٤) تكوُّن التلال التي بنيت عليها المدن القديمة

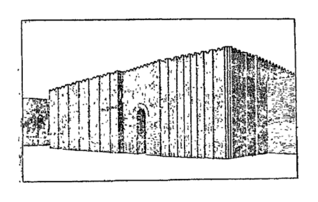
ولم يكن لدى اسلافنا الاولين من موادّ البناء سوى اللبن · ولا يزال البعض في الشرق حتى ايامنا هذه يبنون بيوتهم منهُ · وغير خافٍ ان بيوتاً كهذه تذيب جدرانها الامطار الاعتيادية تدريجاً · فاذا اصابها وَبلٌ انهارت برمّتها ومتى اراد اصحابها ترميمها عمدوا الى تمهيد الانقاض ثم بنوا عليها رأساً دون اساس · وقد جرى الناس على هذا الاسلوب من البناء منذ الوف السنين · وحين ضرب السيد المسيح مثلهُ الوارد في بشارة متى ٧ : ٢٧ عنى مثل هذا البيت · وعلى تمادي الزمان والاستمرار على هذا النسق من البناء قروناً متتابعة تكوَّنت التلال التي قامت عليها المدائن القديمة

(١٦٥) انتشار هذه التلال القديمة

ان كثيراً من مدن الشرق اليوم قائمٌ على تلال قديمة العهد تُشاهد في جميع البلدان القديمة كتلّ طروادة وتل اريحا في فلسطين وتل الاليفانتين في مصر وتلّ النبي مندوه بجوار حمص وتلّ جرابلس على الفرات · وبلاد بابل مملوءة من التلال الكبيرة المهجورة منذ عهد بعيد

(١٦٤) ما تتضمنه هذه التلال القديمة من الآثار

وقد حفظت لنا الايام في قلب هذه التلال آثارًا هي من الاهمية التاريخية بمكان • فان المنقبين عن آثار القدماء عثروا فيها على الكثير من تواريخ الأُسر والرسائل والصكوك والحسابات والمذكرات ، وما الى ذلك من المكتوبات التي كانت محفوظة في البيوت ، فلما تهدَّمت البيوت غطَّتها الانقاض وبقيت ضمنها الى ان أُتيح لها من كشف عنها التراب واخرجها الى النور • وقد وجد الباحثون كثيرًا من الصكوك والآثار المكتوبة مدفونا تحت انقاض الهياكل والمباني العمومية • وكلها تقريباً تختصّ بالحكومة • وكان الحكام يضعون بعض الاحيان انباء ما شيَّدوهُ من المباني وما عُقد لهم فيهِ الفوز من المعارك وما تمَّ على ايديهم من الاعمال العظيمة ، في أُسس الابنية العميقة لكي يجدها من يخلفهم في الحكم • وقد وُجد مع هذه الانباء تقارير الحروب والمعارك والفتوحات مدفونة في انقاض منزل الحاكم او انقاض مكاتبهِ • وفضلًا عن هذه النقوش ، فقد وجد المنقبون كثيرًا من الاثاث والرياش والآنية الجميلة المزخرفة • اما بقايا المباني التي لعبت بها ايدي الفناء فلا تدخل في نطاق حصر ولذلك اذا استنطقناها رأيناها صامتة لا تروي لنا شيئاً عن الماضي كما روت آثار وادي النيل •



الشكل ٥٩ ترميم بيت من بيوت البابليين الأوَّلين (عن كَلديوي)

كانت بيوت البابليين الأوَّلين صغيرة معظمها مبنيّ من اللبن العادي كهذا البيت . والزخرفة البسيطة الوحيدة عندهم كانت الواحًا عمودية توضع على الجدران وكانوا يجعلون للجدار من خارج عند اعلاه حاشية مسننة . وكانوا يعقدون فوق الابواب اقواسًا او قناطر صغيرة بعكس المصريين الذين مع معرفتهم للقناطر كانوا يؤثرون ان تكون عتبة الباب العليا افقية

واما المدن التي كانت مشيدة على التلال فهي عبارة عن مشاهد الحضارة البابلية القديمة التي سنشرع الآن في تتبُّع تاريخها •

لقد اصبحت اعمال الحفر والتنقيب عن الآثار القديمة علماً قائمًا بنفسهِ يقتضي استعدادًا خصوصيا • فعلى الباحث عن الآثار ان يقتني سجلاً يدوّن فيهِ بالضبط والدقّة كل ما يعثر عليهِ من مخبآتها ذاكرًا المكان الذي وُجد فيهِ الاثر ويشير الى علاقتهِ بالاشياء الاخرى التي وُجدت معهُ غير ناسٍ ذكر العمق الذي وجد فيهِ وما شاكل من التفاصيل حتى اذا وقف على تقريرهِ العلماء في البلدان البعيدة يستطيعون ان يتصوَّروا وهم جلوس في مكاتبهم ،

الموقع كما رآهُ المنقّب وقت وجدانهِ الاثر فيهِ • لقد جنت اعمال الحفر في هـذه الايام جنايةً عظيمة على العلم وحمَّلتهُ خسائر جمّة لا تعوّض ، لان معظم القائمين بتلك الاعمـال يرومون المتاجرة بما يجدونهُ من الآثار او تزيين بعض المتاحف بما يعثرون عليهِ في اثناء الحفر من النفائس الثمينة بدل دراهم يُنقّدونها • وقد استفحل امر هولاء الاغرار وتفاقم ضرّهم • فعلى علماء التاريخ المفكرين ، وجميع من تهمُّهم المحافظة على آثار الاسلاف الغابرين ان يتصدَّوا لمقاومة اعمال الحفر المخرّبة التي اتسع نطاقها في الشرق ويبذلوا جهدهم في وضع حدٍّ لها لان المواقع التاريخية القديمة متى شوَّهتها معاول الحفارين لا يمكن ارجاعها الى ما كانت عليهِ قبلاً • ويجب على ابناء الوطن ان يهتمُّوا كلَّ الاهتمام باخراج نفائس الآثار المدفونة في قلب الارض بالطرق الفنّية لتحفظ في المتاحف الوطنية او في غيرها حيث يُعتنى بها وتكون في حرزٍ حريز قبل ان تقع في ايدي الجهلة الذين لا يدركون قيمتها كما وقع امثالها قبلها .

(١٦٧) صناعة السومريين القديمة: الحجار وصنع الختوم والنقش على المعادن

وقد وجدوا في قعر التلال الآنفة الذكر التي يمتدُّ تاريخ تكوُّنها الى ٣٠٠٠ ق • م بقايا من صناعة الحفر السومرية في الحجر • وكانت في ذلك العهـد لا تزال في طور الخشونة • لكن شدَّة طلب الناس للختوم حتى يكون لكل انسان ختم خصوصيٌّ كانت سبباً لتقدم هذه الصناعـة الجميلة ، صناعة حفر الصوَر الصغيرة على الحجار الصمّاء (ش ٧٦) • وشاع استعمال هذه الختوم في جميع اسية الغربية بل في مصر ايضاً • وقد كانت اولاً اسطوانية الشكل • فكان السومري في ذلك العهد البعيـد بدلاً من ان يُمضي الصكَّ الذي كان من الاجرّ ، يدحرج على الاجرَّة الطرية اسطوانةً صغيرة من حجر منقوشاً عليهـا عددٌ من الصوَر الجميلة مع اسم صاحبها • ومن درس هذه الآثار ، استطاع العلماء ان يتتبعوا تقدم وتقهقر الصناعة البابلية مدة الفين وخمس مئة سنة ، من نحو ٣٠٠٠ الى ٥٠٠ ق • م • وعلى مرور الزمان بطلت صناعة الختوم الاسطوانية الشكل وخلفتها اشكال أخرى كانت تترك اثرها على الاجرّ الطري بمجرَّد ضغطها عليهِ لا بدحرجتها من جانب الى جانب • ولا يزال هذا النوع من الختوم شائعاً بيننا لختم الصكوك المهمّة حتى اليوم • وصار حفارو الختوم ، السومريون الاولون ، اشهر الصناع من نوعهم في الشرق • وكان لعملهم تأثير مهمّ في صناعة الزخرفة والنقش في الغرب لا تزال آثارهُ باقية حتى الآن • (ش ٦٠)

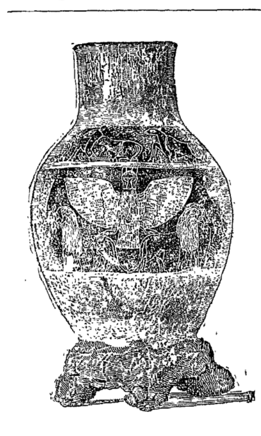
وقد كشفت لنا اعمال الحفر الحديثة في أُور العراق ، قبور بضعة من ملوك تلك المدينة السومريين ، وارتنا شيئاً من ابّهة البلاط الملكي في زمانهم ، والدرجة السامية التي بلغهـا صناعهم في اتقان ما كانوا يصنعونهُ • وتظهر لنا هذه القبور ما كان لاصحابها الملوك الاولين

من المنزلة العاليـة في عيون الرعـايا التي كانوا يحكمونها . اما كيفية بناء هـذه القبور فكان على هذه الصورة : كانوا اولاً يحفرون حفرة عميقة ثم يشيّدون في قعرها غرفـةً من الآجرّ يرمسون فيها جثمان الملك وجثث حرسهِ الخاص . وكشف الاثريون مرةً في احدى الحفر ، خارج الغرفة ، جثث ستين شخصاً ما بين رجال ونساء ضُحّي بهم يوم وفاة الملك لكي يرافقوهُ الى العالم الثاني . هناك في تلك الحفرة العميقـة كانت ملقاةً جثث الحرس الملكي المدجج بالسلاح للدفاع عن مليكهِ . وقد وجد الاثريون ايضاً مركبتين كبيرتـين من الخشب مشدود الى كل منها ثلاثـة ثيران يُشاهد عند رؤوسها سُوَّاسهـا وعن جوانبها ساقتها ، لكي يتسنّى للملك ذرائع النقل في مماتهِ كما في حياتهِ . وكان مطروحـاً هناك ايضاً عدد من جثث حَرَم الملك بحلاهنَّ الكاملة . وعلى مقربة منهنَّ جماعة من الخدم

ووجـد في تلك القبـور اشياء مدهشة مصنوعة من الذهب والفضة والحجارة الكريمة . وفي جميعها من اتقـان الصنعـة وسمو الذوق والمهارة مـا يصح ان يكون بيّنةً على عمران ماديّ باذخ الشان لا يقلّ عن نِدّه عمران وادي النيل معاصرهِ . وقد فتحت حفريات مدينة اور فصلاً جديداً في تاريخ عمران اسيا الغربية لم يخطر على بال احد

وفي هذه الآثار والمكتوبات التي نجدهـا على الآجرّ انباءٌ نقف منها على كيفية معيشة الاقوام الذين كانوا في الزمـان الغابر يملأون

(١٦٨) المعيشة الاجتماعية السومرية الاولى والمملكة . عصور ممالك المدن من نحو ٣٠٥٠ الى ٢٧٥٠ ق . م

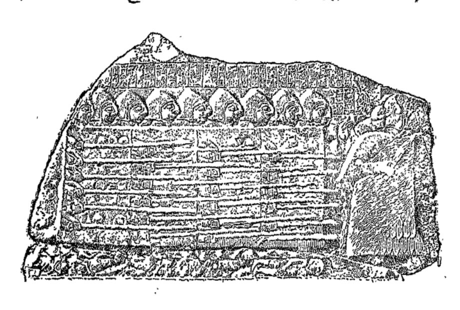


الشكل ٦٠ اناء فضي كان للملك
مدينة سومرية

هذا الاناء المعدود من اجمل الآثار المعدنية الباقية من عهد بابل القديمة، مزين بزنّارين عريضين من النقوش يحيطان بهِ تماماً . وهذه النقوش هي اجمل انموذج باقٍ من آثار فنّ الزخرف السومري . وفي الزنار الاعرض نشاهد نسراً له راس اسد قابضاً بمخاليهِ على ظهري الاسدين اللذين بدورهما يعضّان ثيتلين (والثيتل ضرب من المعزى الجبلية) فهذا الترتيب لصوَر حيوانات في حال تهيجها هو من مبتكرات الفن السومري حوالي سنة ٣٠٠٠ ق . م . فالنسر والاسدان هنا رمز او شعار مملكة لاغاش السومرية التي كانت عبارة عن مدينة وضواحيها . رموز كهذه مؤلّفة من ازواج متقابلة من صوَر الحيوانات اتصلت الى اوربا حيث لا يزال القوم يستعملونها في فن الزخرفة واشعرة (جمع شعار) الملوك والامم . ولا يزال النسر شعار روسيا واستريا وبروسيا وامم اوربية أُخرى . واخيراً بلغ الى العالم الغربي . وما النسر الاميركي الاّ نسر لاغاش منذ خمسة آلاف سنة

شوارع مدن بابل والآن هم رقود تحت انقاضها الصامتة· والظاهر انهُ كان في المدينة جماعة من ارباب الاملاك يستخدمون العبيد في فلاحة وزراعة اراضيهم ويتعاطون في الوقت نفسهِ التجارة مستخدمين لها القوافل في البر والسفن في النهر ذهاباً واياباً • وكان موظفو المملكة ورجال الدّين الذين حُسِبوا اعيان المدينة واكابرها ارفع درجة من سواهم·

ومنهم ومن الملاكين في



الشكل ٦١ ملك سومري يقود كتيبة من جنوده
نحو ٢٩٠٠ ق • م •

هذا الملك الذي تُرى صورتهُ عن يمين الشكل وقد كُسر راسها حتى صارت بلا وجه يسير على راس جيوشهِ وهم يتبعونهُ صفًّا متراصًا . وهذا اقدم مثال لتنظيم العساكر وجمعها معًا بحيث يتكوَّن من مجموعها كتيبة ولا بد ان يكون هذا التنظيم اقتضى تمرينًا طويلاً وجهدًا كافيًا بعد مرور القرون العديدة والناس يتحاربون بلا ترتيب ولا نظام . فالقبائل لم تكن تنظم جيوشًا وفرقًا وقت الحرب بل كانت بلا نظام كل فرد يحارب لذاتهِ كأن لا علاقة لهُ بغيره . فكان السومريون من هذه الجهة يفوقون كثيرًا القبائل الرحّل المقيمة في الهلال المخصب · هذا هو الفصل الاول من تاريخ صناعة الحرب المطوَّل . ففي اسية بُدئ بالتنظيم الحربي في هذا الوقت وقبل ان يُعرَف في مصر . والجيوش السومرية مشرعة رماحها مستعدَّة للهجوم . (فلم تكن تحمل قسيًا) . وكان المحاربون يلبسون دروعًا سابغات تغطي ابدانهم ودَرَقًا (خُوَذ جلد) على رؤوسهم وكانوا يدوسون اشلاء القتلى وهم سائرون (رمزًا الى قهر الاعداء) . وهذا المشهد منقوش في حجر . وهو انموذج النقش السومري البسيط ببابل في عصر الهرم الكبير زمن اتقان نحت الصور وحفرها في مصر (عارض ش ٣٦ بشكل ٣٧)

ارباض المدينة تألفت الوَحدة السياسية او المملكة التي كانت عبارة عن مدينة وما حولها من الضواحي • ومنها تسمّت القرون الثلاثة الاولى بعد نحو ٣٠٥٠ ق·م بعصر ممالك المدن السومرية او الممالك المدينية السومرية (City - Kingdoms)

ولذلك يسوغ لنا ان نسمّي هذا العصر الاوّل بعصر الممالك المدينيّة السومرية الا اننا لا نستطيع ان نعيّن بداءة هذا العصر بالضبط التام لان تأريخ الصكوك

الاولى البابليّة التي لدينا لم يتعين بعد ٠ ومن المحتمل ان تكون بداية تاريخها تمتدّ الى القرن الثاني والثلاثين ق ٠ م ٠ وقد دام عصر هذه الممالك المدينيّة بضعة قرون نهايتها القرن الثامن والعشرون او السابع والعشرون ق ٠ م٠

(١٦٩) ممالك المدن السومرية

وكانت ممالك المدن السومرية شاغلة ارض سومر ٠ولا تزال مدلولاً عليها بصف من التلال المبثوثة قبالة الفرات ٠وكان السكان يُقرّون لحكامهم بالفضل عليهم معا كانوا يبهظون به كواهلهم من الضرائب الثقيلة ٠ وكانوا يثنون عليهم بنوع خاصّ لامرين : الحرب ، وارواء الارض ٠ فان قنوات الريّ والسدود كانت تتطلب عناية دائمة لتبقى صالحة لسقي الارض ٠ ولولا عناية الحكام بها واشرافهم على ترميمها واصلاحها لماتت الزراعة ومات بموتها السكان جوعاً

(١٧٠) الحروب بين ممالك المدن السومرية

وكثيراً ما كان يُرى غير واحد من حكام هذه الممالك الصغيرة زاحفاً الى الحرب امام جنوده المسلحة بالرمح والترس الضخمين بلا قسيّ (ش ٦١). وكان سكان المدن المذكورة اذا طرق مسامعهم ان احدى المدن المجاورة لهم زاحفةٌ عليهم لامتلاك شيء من اراضيهم عَنوةً سارعوا الى الانضواء تحت لواء حاكمهم ليصدوا هجمات الاعداء عنهم ٠ وبما ان حوادث كهذه كانت كثيرة الوقوع كان تاريخ سومر مدة نحو ثلاثة قرون ، من ٣٠٥٠ — ٢٧٥٠ ق ٠ م ٠ تاريخ انقلابات مستمرّة في هذه الممالك الصغيرة وذلك لتواتر الحروب فيها

(١٧١) اقدم الحروب بين السومريين والساميين

وكما كانت ممالك السومريين الصغيرة تثير الحروب احياناً كثيرة بعضها على بعض كذلك كانت تنضوي ، احياناً أُخرى ، تحت لواء واحد لمقاتلة عدوّ خارجي ٠ فان قبائل الساميين الرّحل كانت منذ القديم قد اخذت تحتل البلاد الواقعة الى الشمال من سومر والمعروفة باكّد حيث الرافدان على معظم اقترابهما ٠ وكانت بلاد أكّد واقعة على السكة الكبرى التي تصل النهرين بالجبال الشرقية ٠ وكانت القبيلة السامية ذات الزعامة هناك ، تُدعى بالاكّديين ٠ ولم تكن القبائل الرّحل آنئذٍ على شيء من التدرُّب في الفنون الحربية كما كان السومريون ٠ ولما كان جلُّ اعتمادهم في القتال على مهارتهم في الرماية، كانوا يحاربون اعداءهم عن بُعد ٠ واذا اتفق لهم ان حاربوا عن كَثَب كانوا يتفرقون بعضهم عن بعض لسبب غير خفيّ ٠ ولم تكن صفوفهم بادىء بدء كفيئة الكتائب السومريين المتراصّة ٠ وهكذا كان في سهل شنعار شعبان متعاديان ٠ في الشمال القبائل السامية التي كانت وسطاً بين البداوة والحضارة وفي الجنوب السومريون الذين هم من أصل جبليّ ٠ وكان القتال الطويل الذي نشب بينهم انموذجاً لكثير غيره من ضروب المحاربة التي وقعت بين القبائل الرحل والجبليين في اراضي الهلال المخصب (ف ١٣٩)

١٥

اوّل انتصار للساميين — عصر سرجون

(١٧٢) اوّل انتصار للساميين . سرجون الأكدي وسلالته ٢٧٥٠ الى ٢٥٥٠ ق م

ونحو سنة ٢٧٥٠ في منتصف القرن الثامن والعشرين ق . م . ظهر في اكّد رجلٌ ساميّ الاصل يُدعى سرجون كان مـاهرًا في الفنون الحربية ففاز على السومريين ومزّق شمل رماحتهم وكسر ملوكهم شر كسرة . فاستتبّت لهُ السيادة في جميع سهل شنعار ودانت لهُ المدن السومرية حتى مصبّ الرافدين . وزحف برجاله الأكّديين الرماة المشهورين برشاقة الحركات ، من جبال عيلام الشرقية الى جهة الغرب ، تابعين مجرى الفرات صُعُدًا الى سواحل البحر المتوسط ومنها الى اسية الصغرى . وكانت سفن الفراعنة — كما ذُكر آنفاً — قد احتلّت مرافئ مـدن فينيقية (ش ٢٩) . ولا بد ان تكشف لنا الايام الرسائـل المكتوبة على الاجرّ التي تُبودلت بين رب الفرات ورب النيـل المقيم بالجيزة في مدينة الاهرام البهيّة . وكان سرجون اوّل قائد عظيم في تاريخ الجنس الساميّ واوّل ملك انشأ امّة عظيمة في اسية الغربيـة تمتـدُّ بلادهـا من عيـلام (ش ٦٢) الى البحر المتـوسط ومن ثمّ شمالاً الى امد بعيد على محاذاة الرافدين . وكان لفتوحاته الباهرة تأثير شديد في نفوس سكان مـا بين النهرين لم يمحهُ مرُّ السنين وتراخي الحِقب . وخلفهُ ابناؤهُ واستولوا على ما كان قد فتحهُ من البلدان واضاف اليها احدهم ، المسمى نارام سين ، فتوحات جديدة

(١٧٣) المخالطة الأكديين الساميين المدنية السومرية

واضطرّت فتوحات سرجون قبائلهُ الرّحل ان يغيّروا منهاج معيشتهم القديمة تغييرًا تاماً . فأكرهَ اولئك الرعاة الذين اعتادوا جوب البراري والقفار وشنّ الغارات ان يهجروا عاداتهم القديمة التي منهـا التنقُّل من مكان الى مكان ويقيموا كأهل الحضر في مساكن ثابتة . فغادروا سكنى الخيام وابتنوا لانفسهم ، بدلاً منها ، بيوتاً من اللِّبن العاديّ (ش ٥٩ وف ١٤١) لا يمكنهم ان يقوّضوها كل صباح وينصبوها كل مساء كالخيـام . وكان الأكّديون يجهلون الكتابة والصنائـع (ف ١٤٢) . فتعلّم بعضهم الآن ان يكتب لغتهُ الساميـة بالعلامات المسمارية السومرية . فكانت كتابتهُ بـدء كتابة اللغة السامية . وبمـا ان هولاء الاقوام الرّحل لم يكونوا قـد عانوا ادارة شؤون امّـة حضرية لم يعلموا شيئاً من ادارة الاحكام فالجأتهم الضرورة ان يأخذوا ذلك عن السومريين كما اخذ العرب بعد فتوحاتهم

في القرن السابع للمسيح ، الصنائع عن الامم التي قهروها ، فاخذ الاكّديون الساميون عن السومريين ، تقويم السنين واوزانهم ومقاييسهم ومكاييلهم ونظامهم العددي واساليب معاملاتهم التجارية . وتعلّموا منهم صناعات الحرب فضلًا عن صناعات السلم . تعلّموا كيف يصنعون الخُوَذ من الجلد (الدَّرق) والنحاس وكان وزن الخوذة الواحدة منها نحو نصف رطل . وهذه هي المرّة الاولى التي فيها استُعمل المعدن لدرء الاذى إبّان الحرب . ومن هذا المبدإ البسيط توصّل الناس في ايامنا الى بناء المدرّعات الحربية والابراج المتحرّكة المسلّحة بالمدافع

الشكل ٦٣ ملك اكّد يهاجم حصنًا — اقدم شغل ساميّ خطير في فن النقش (نحو ٢٧٠٠ ق.م)

نارام سين ملك اكّد (ويرجّح انه احد ابناء سرجون الاوّل ف ١٧٣) تعقّب العدوّ الى حصن جبليّ في عيلام ترى صورته سامقة فوق اعدائه الاقزام الذين كانوا شاخصين اليه من قهرهم متوقعين منه الرحمة فالنقاش نظرًا لحسن فراسته قد رسم مشهد هذه المأساة في الوقت الذي فيه خفض الملك سلاحه ، علامة محو العاو لاعدائه وحقنه لدمائهم . انظر تفوّق النقش السامي الاكّدي على فن النقش السومري الذي كان قبل الاكّدي بقرنين من الزمان (ش ٦١)

(١٧٤) الصناعة السامية في عصر سرجون

ومن جملة ما تعلَّمهُ الاكَّديون صناعة النحت التي فاقوا فيها معلِّميهم بعد زمن قليل من تعاملهم اياها • فصورة نارام سِن النافرة (ش ٦٢) تُعدُّ بين ما امتازت بهِ الصناعات في العالم القديم لا سيا وانها اوَّل اعمال الصناعة التي اتقنها ابناء الجنس السامي • وابلــغ الاكَّديون صناعة الختوم السومرية الجميلة درجة تذكر من الاناقة (ش ٦٣ و٧٦ A)

(١٧٥) امتزاج السومريين بالاكَّديين الساميين

لقد امتزجت في سهل بابل ، شنعار القديم ، حياة ساميي البادية بحيــاة الجبليين الذين لم يكونوا من اصل ساميّ • فصار يُشاهد في شوارع مدن الفرات التي لم يكن يشاهد فيهــا قبلًا سوى السومريين الحفــاة المحلوقي الرؤوس واللحى ، جماعاتٌ من الساميين الاكَّديــين السُّمر الالوان ذوي اللِّحى السوداء ، والذوائب المسترسلة على الاكتاف ، والارجل المحذوَّة • وكان السومري الحليق المسلَّح بالرمح والترس يخدم في الجندية جنباً لجنب مع سيده السامي الملتحي المسلَّح بالقوس والنشاب • والظــاهر ان السيد السامي لم يكن في غنىً عن كاتبهِ السومري الحاذق • فاننا نرى على الخاتم الاكَّدي صورة اخي الملك مع جماعــة من حَشَمهِ يتبعهم الكاتب السومري الحليق الراس

١٦

اتحاد السومريين والساميين
ملوك سومر وأكَّد

(١٧٦) ملوك سومر واكد من القرن الخامس والعشرين الى الثالث والعشرين ق٠م

ولما ضعف اخيرًا امر ساميي اكَّد بسبب العيشة المدنية التي آثروهــا على سواها وَهنت قوى جند الملك سرجون • فهبّت مدن الجنوب السومرية واستعادت استقلالها وذلك حوالي ٢٥٠٠ ق٠م٠ وفاز ثلاث منهنَّ بالزعامة الواحدة تلو الاخرى تحت رئاسة مدينة أُور القديمة • الا ان ساميي اكَّد حُسبوا من الآن فصاعدًا من الامة المتحدة التي استولت على سهل شنعار واتخذت لنفسها اسماً وطنيا لاوَّل مرَّة في تاريخهــا • فدُعيت مملكة اكَّــد وسومر وكان ملوكها سومريين واكَّديين • الاَّ انهم لم يخلِّفوا مباني عظيمة ولا آثارًا خالدة مهمَّة • ولكنهم بحسن سياستهم ساعدوا القطرَين المتحدين ، سومر واكَّد ، على بلوغها درجة عالية من التقدم والفلاح وبقيا على هذه الحال زهاء ثلاثة قرون اينعت في غضونهــا المعارف والآداب اوَّل مرَّة في تلك الربوع

واخذ اهل المعرفة في ما بين النهرين يجيبون عن الاسئلة البديهيــة التي قامت في عقول

(١٧٧) افكار الناس واساطيرهم في زمن ملوك سومر واكد . اصل الحياة . حكاية أتانا

الناس الاولين، بحكايات بسيطة منها حكاية المغامرات المدهشة التي اتاها «أتانا» الراعي حين مُنيت قطعانهُ بالعُقم وتوقفت شياههُ عن الولادة . قيل ان «اتانا» امتطى نسرًا (ش ٦٣) حلّق بهِ الى اعالي الجو لكي يفتش عن ضَرب من البقول زعموا ان الحياة كامنة فيه . ولما كاد يبلغ غرضهُ رماهُ النسر الى الارض . وهذه هي اوَّل رواية لنا عن طيران الانسان

(١٧٨) الموت والحياة الابدية . حكاية ادابه

ان سرّ الموت الغامض ادَّى الى حكاية الصياد، أدابة، الذي لما قلبت الالاهة «ريح الجنوب» زورقهُ احتدم غيظًا وكسر جناحها . فدُعي الى امام عرش ملك الجو للمحاكمة . ولما مَثل امامهُ سكّن ثائر غضبهِ فرضي عنهُ وقدَّم خبز الحياة وماءها فأبى ان يقبلها لانهُ اوجس خيفةً في نفسهِ فخسر الحياة الخالدة وخسر الجنس البشري نعمة الخلود التي لا تثمَّن . فلو كان قبل ما عُرض عليهِ لخلَد هو ونجى البشر من الموت

الشكل ٦٣ طيران أتانا الى السماء

يُرى الى اليمين أتانا مُتعمدًا ظهر نسر (ف ١٧٧) ويدهُ تطوّق عنقهُ . فوقهُ القمر وتحتهُ كلبان ينظران الى فوق ناجبين . ويُرى الى اليسار راع يسوق ثلاث عنزات يمشي امامها انسان قدامهُ شيء اشبه بمظلة . والكل، حتى العنزات، ينظرون الى العلاء ذاهلين متفرّجين على طيران أتانا . وفوق الراعي فخاري يصنع جرارًا والى يمين الجرار خبّاز جالس القرفصاء يصنع ارغفة مستديرة . هذا المشهد محفور على خاتم اسطواني (ش ٨٧) والرسم الذي امامنا نُرى الطبع على الطين الطريّ حين يُدحرَج عليهِ الخاتم فهذا نموذج نفيس من اتقان اهل بابل لصناعة حفر الختوم

(١٧٩) الخلود . حكاية جلجميش . قصة الطوفان

وعلى هذا النمط نفسهِ رُوي ان البطل جلجميش، بعد كل المغامرات التي خاض عُبابها، وبعد أن قام بالاعمال العظيمة (ش ٧٦ A) حبطت مساعيهِ لنيل الحياة الخالدة التي لم يُنعَم بها الاَّ على واحد من الابطال وقد رُويت لنا عنهُ حكاية عجيبة تبين كيف نجا وامرأتهُ

منَ الطوفان (ف ١٦١) بفلكٍ عظيم ، وكيف نقلتها الآلهة بعد ذلك الى مغنى الغبطة الذي لم يُتح لملوك سومر واكَّد ولا لشعبيها الدخول اليهِ . وقد اتصل كثير من مثل هذه الحكايات عن الخليقة والطوفان الى العبرانيين

(١٨٠) تقهقر اللغة السومرية وبقاؤُها لغة دينية فقط

وبعد ان مازج الحكايات المذكورة شيءٌ من اعمال حياة السومريين والاكَّديين شاع امرها وذاع باللسانين السومري والاكدي وكان الاول منها اشد احتراماً من سواه في عين الجمهور فحافظوا عليهِ واستعملوهُ في امور الدين كاللاتينية في الكنيسة الرومانية واليونانية في الكنيسة الارثوذكسية . وفي نحو القرن الثالث والعشرين ق . م . اخذت المدن السومرية تنحط سريعاً . ولكن القصص الدينية بقيت تُكتَب باللسان السومري قروناً عديدة بعد ان كان قد عدل اصحابهُ عن استعماله في احاديثهم العاديَّة

١٧

الانتصار الساميّ الثاني . عصر حمورابي وما بعدهُ

(١٨١) عود السيادة السامية . قيام بابل

وفيما كان ملوك سومر واكد يضعف امرهم ويتضاءل نفوذهم كانت قبيلة جديدة من القبائل الساميَّة قد بدأت تهبط اراضي الفرات كما فعل قبلها الاكديُّون تحت قيادة سرجون الملك (ف ١٧٢) وكان هؤلاء القادمون من اموريي سورية ، من الفرع الساميّ الذي كان قد نزل بجوار البحر المتوسط (ف ١٤٧) . وحوالي ٢٢٠٠ ق . م . استولوا على مدينة بابل الصغيرة التي لم تكن في ذلك العهد الاَّ قرية على الفرات لا شأن لها ولا خطَر . وللحال شرع ملوكها الاموريون يشنُّون الغارات على سومر واكد طمعاً بالاستيلاء عليها

(١٨٢) قيام حمورابي وسيادة بابل

وبعد حروب كثيرة طالت مدتها قرناً من الزمان ارتقى الى اريكة الملك حمورابي الملك السادس من الاسرة الامورية في بابل سنة ٢١٠٠ ق . م . فوجد في المدن السومرية التي كان قد تضاءل شأنها في الجنوب قوماً يُعرفون بالعيلاميين كانوا قد دخلوا البلاد قادمين من عيلام في الجبال الشرقية . فحاربوهُ وظلت الحرب بينهم وبينهُ سجالاً مدة ثلاثين سنة انتصر في نهايتها عليهم نصراً مبيناً . فطردهم من البلاد واستولى على المدن السومرية وجعل لاوَّل مرَّة بابل ، قاعدة ملكهِ ، سيدةَ مدائن البلاد . ولم تنل بابل هذه المنزلة السامية من السؤدد والنفوذ ولم تُدعَ البلاد كلها باسمها الا بعد سنة ٢١٠٠ ق . م . وظلَّت من ذلك الوقت فصاعداً مدينة ذات شأن عظيم

١٨٣) موقع بابل. حورابي المدير العظيم

وعاش حورابي بعد انتصاره هذا اثنتي عشرة سنة كانت سني سلام برهن في اثنائها كما برهن في سني الحرب على انهُ – بلا جدال – اقدر ملوك الاسرة التي ينتمي اليها · وكان سرجون اوَّل ملك قدير عظيم قام فيها · كان حورابي ثانياً لهُ عظمةً واقتدارًا · وكان اسلافهُ قبل هذا العهد ببضعة اجيال ، كأسلاف سرجون ، يترحَّلون في البادية متنقلين من مكان الى مكان بلا ترتيب ولا نظام في رحلاتهم · ومن البيِّنات على اصلهِ البدوي حلقهُ الشعر عن شفتهِ العليا · جرياً على عادة قديمة لاهل البادية (ش ٦٧) · وبعد ان استولى على مدن بلاد بابل الحافلة بالسكان جعلها في امدٍ قصير عنوان الترتيب والنظام اللذين لم ترَ لهما مثلًا فيما انقضى من تاريخها · واما المصدران الخصوصيان اللذان نستقي منهما معلوماتنا عن مُلك حورابي ، فهما رسائلهُ الخمس والخمسون والاثر التذكاري الفخم الذي نُقشت عليهِ شرائعهُ · وقد قاومت هذه الآثار الثمينة عوامل الطبيعة والاحداث الجوية اربعة آلاف سنة لكي تعلن لنا اعمال هذا الملك العظيم واخلاقهُ

الشكل ٦٤ رسالة كتبها حورابي ملك بابل (نحو ٢١٠٠ ق · م)

احدى رسائل هذا الملك التي عددها خمس وخمسون رسالة (ف ١٨٤) قاومت عوامل الطبيعة اربعة آلاف سنة . كانوا يكتبون على اللبن وهو طري والكتابة هنا تدل على السرعة التي كان يكتب بها الكاتب والملك يملي عليهِ (ف ١٨٤) وبعد الكتابة كانت تشوى اللبنة بالنار ثم تغلف بغلاف من الطين المطبوخ لكنهُ هنا قد كسر وطرح على الارض (ف ١٨٥) . وفي هذه الرسالة امر لحاكم محلّي ان يسمع استئناف احد المأمورين الذي يعتقد انهُ ظلم بالحكم (ف ١٨٨)

١٨٤) رسائل حورابي. املاؤها. اعدادها

ان رسائل حورابي تتيح لنا لاوَّل مرَّة في التاريخ ان نلقي نظرة على حياة ملك شرقي قدير وهو في مكتبهِ بقصرهِ في بابل وكاتبهُ جالس الى جانبهِ مستعدًّا ان يكتب الرسائل التي كان سيده مزمعاً ان يمليها عليهِ · وهي تتضمن اوامرهُ ونواهيهُ لعمالهِ في المدن السومرية القديمة الخاضعة الآن لهُ · كان الكاتب يكتب بقلم قصب يحفظهُ في محفظة جلد منوطة بمنطقتهِ ، على اجرَّة صغيرة يملأها بالكتابة المسمارية بسرعة (ش ٦٤) وبعد ان ينجز ما أُمِر بكتابتهِ كان يذرُّ على الاجرَّة الطرية قبضة من التُّراب الناعم الناشف لكي لا يلصق غلاف الرسالة بالكتابة التي على وجه الاجرَّة الطرية · ويكتب العنوان على غلاف من

الاجرّ · ثم يرسل كل ذلك الى الفرن (الكوشة) ليشوى

(١٨٥) رسائل حورابي · سير السفن

وكانت الرسائل تأتي الملك من الجهات تترى مكتوبةً ومغلفـة كالتي كان يرسلها هو الى عمّاله · فكان امين سره يكسر غلافها في حضرتهِ ويتلوها على مسمعهِ وبعد ان يسمعها ويعيها كان في الحال يملي عليهِ اجوبتها · كتب اليهِ مرة حاكم لارسا ان السيول طغت واوقفت بطغيانها سير السفن في الفرات لكثرة مـا رسب من الاتربة في مجراهُ ، فكتب اليهِ حالاً امرًا بوجوب كري النهر بلا امهال لكي يعود صالحًا للملاحة

(١٨٦) رسائل حورابي ايضًا · الاعياد والتقويم السنوي

وكان الملك شديد الاهتمام بقطعانهِ الكثيرة كأنَّ مكروب الغريزة البدوية لم يتلاشَ من دم عشيرتهِ · فكان يصدر اوامرهُ الى عمالـهِ في الجهات وموظفي المملكة بأن يحضروا الى بابل احتفاء بجزّ الغنم حاسباً ذلك عيدًا عظيماً · وحدث مرّةً ان الشهر القمري لم يوافق الفصل الشمسي المعيَّن لجزّ الغنم — ومعلوم ان الشهور القمرية دوّارة — فارسل الملك اذاعـة الى جميع عماله يأمرهم بها بأن يسمُّوا الشهر المذكور ايلول الثاني

(١٨٧) رسائل حورابي المتأخرون عن دفع الضرائب

وانذر الملك الحاكم بأنهُ لا يجوز تأخير جمع الضرائب المستحقة الأداء في الشهر التالي بسبب الاصلاح الذي أُدخل على التقويم بزيادة شهر · وذكَّر الجباة المقصرين بوجوب تسديد حساباتهم بلا تأخر · وكان يعاقب بشدَّة كل من يأخذ رشوة مهما كان مركزهُ في مملكتهِ · قيل انهُ مرَّة حمي غضبهُ على ثلاثة من رجال البلاط الملكي فاصدر امرًا بالقبض عليهم وكان وهو يُملي الامر على الكاتب ، مقطِّباً مغتاظاً · وكتب الى حاكم لارسا غير مرَّة مذكرًا اياه بوجوب الاهتمام الكلي في تنفيذ الاوامر الملكية بالسرعة المقتضاة

(١٨٨) رسائل حورابي · العدل والدين

وكم من صاحب دعـوى كان يميّز دعواهُ الى مجلس الملك حـين لم يكن يُنصَف في مجالس القضاة ، وملء صدره الامل بأنهُ يُعامل بالعدل فلم يخب امالهُ (ش ٦٤) · وصدرت اوامر ملكية لرئيس خبازي الهيكل بالذهاب الى أُور لمشارفة وليمـة دينية كان في النية اقامتها فيها فوجد ان استدعاءهُ للقيام بهذه المهمَّة يقع في الوقت الذي تُرى فيه دعوى لهُ في المحكمة · فالتمس من الملك تأجيل رؤية الدعوى · فيظهر من ذلـك ان الملك كان يهتمّ بالولائم الدينية اهتمامهُ بالعدل في القضاء · ويُفهم من كثير من رسائلهِ التي كان يمليها على كتبتهِ انهُ كان يهتمّ باوقاف الهياكل وبإداراتها اهتماماً دائماً

(١٨٩) شرائع حورابي

وكان هذا الملك حازماً نشيطاً نافذالبصيرةفي جميع شؤون مملكتهِ من اقصاها الى اقصاها · فارتأى ان يوحّد الشرائع التي كانت شائعة في زمانهِ معها كان بينها من التناقض ويوفق بين العادات والتقاليد التجارية في مملكتهِ · فجمع لديـهِ كل الشرائـع المكتوبة القديمـة

وما جرى عليهِ اهــل المملكة في عُرفهم التجاري واصطلاحهم الاجتماعي ونسَّقها تنسيقاً جميلاً٠ اصلح الشرائع القديمة بالزيادة عليها او الحذف منها وحيث رأى داعياً الى سنّ شرائع جديدة سنّها ٠ ثم ألّف منها كتاباً ضخماً سُمِّي دستورًا او مجموعة قوانين ٠ ولم تكن هذه الشرائع مكتوبة باللغة السومرية كالشرائع القديمة التي كُتبت قبلهـا بل بلغة الاكّديين والاموريين السامية ٠ ثم امر بحفرها على عمود جميـل من الحجر كان منقوشاً على اعلاهُ مشهدٌ يمثل الملك وهو يتناول الشريعة من الاله الشمس (ش ٦٧) ثم نُصب عمود الدستور الجديد في هيكل الاله العظيم مرودخ في بابل وبقي الى زماننا الحاضر٠ وهو اقدم مجموعة من الشرائع القديمة حفظت الى ايامنا .



الشكل ٦٥ شرائع حورابي اقدم الشرائع الباقية (٢١٠٠ ق ٠ م)

اسطوانة من حجر الديوريت طولها ثماني اقدام تقريباً منقوشة عليها الشرائع في ثلاثة الاف وست مئة سطر ، وعلى راسها صورة مجسّمة للملك حورابي وهو واقف الى اليسار يتناول الشرائع من الاله الشمس الجالس الى اليمين. وشفة حورابي العليا المحلوقة التي تدل على انهُ من رجال بادية سورية (ف ١٨٣) واقعة في الظل فلا يمكن أن تُرى، وألسن اللهيب الصاعدة من منكبي الاله تدلّ على مَن هو ٠ فالصاعدة من منكب الشمال كثيرًا ما يظهرونها في الكتب المدرسية الرائجة انها قطعة من عصا بيد الاله اليسرى ٠ فهذا خطاء. وهذا المشهد من اعمال الفن السامي الذي يؤثر في نفس الرائي تأثيرًا كبيرًا. وقد نقش بعد شكل ٦٤ بست مئة سنة .

(١٩٠) روح شرائع حورابي ٠ منزلة المرأة

ان شرائــع حورابي تحضّ كثيرًا على وجوب اجراء العدالة للارمـلة واليتيم والمسكين الاّ انهـا ابقت على كثير من الافكار والمبادئ القديمة المتعلقة بالعدالة ٠ واشهر تلك المبادىء واظهرهـا هو المبدأ القائل بوجوب مقاصّة المجرم بمثل مـا جنت يداهُ ٠ وهو « مبدأ العـين بالعين والسن بالسنّ » ٠ ولكن كثيرًا ما تكون عاقبة هذا المبدإ الظلم والقسوة ٠ مثلاً لو سقط بيت (ف ١٦٤) وقتل بسقوطهِ ابن صاحبه لوجب ان يُقتل ابن بانيهِ البريء اخذًا بالثار٠ وقد كان للزواج قبل حورابي علاقة مُحكمة بموجب اتفاق شرعي بين الرجل وزوجتهِ ٠ ولكنهُ عدّلهـا ونسّقها وضمها الى شرائعهِ ٠ وكانت منزلة المرأة في

العالم البابلي القديم سامية كما كانت في مصر فكان النساء يتعاطين لحسابهنَّ الخاص الاعمال التجارية وسواها مستقلات تمام الاستقلال ويقمنَ مقام الكتبة الفنيين وكان لا بدَّ لهنَّ من الاستعداد اللازم لذلك في مدرسة كالآتي ذكرها (ش ٦٧)

(١٩١) المسائع في ايام حمورابي

وبعد ان تنظَّمت احوال المملكة البابلية على نحو ما مرَّ آنفاً جرى السكان شوطاً مهماً في مضمار التقدم والنجاح لم يتسنَّ لهم مثالهُ من قبل • وكانت معظم محاصيلهم من الزراعة وخصوصاً الحنطة والتمر • وكان لديهم كثيرٌ من قطعان الغنم والمعزى واصورة البقر فحصلوا منها على منافع جمَّة من صوفها وشعرها وجلودها • وكانت حياكة الصوف والجة جدًّا لشيوع تردِّي الثياب الصوفية في اسية الغربية • وكان قد بطل الآن استعمال النحاس لقيام البرنز مقامهُ (ف ١٥٢) • وفي بعض المكتوبات اشارة الى الحديد ولكنهُ كان لا يزال نادرًا ولم يكن استعمالهُ في الصناعة في حيز الامكان لغلاء ثمنهِ • ولم يشع استعمالهُ في الاعمال العادية الاَّ بعد زمن حمورابي بالف سنة (ف ٣٦٦ و٣٩٦)

(١٩٢) التجارة البابلية في زمن حمورابي

وكان للمملكة في زمن حمورابي جيش منظَّم يقوم بحماية الثغور وتوطيد الامن في البلاد فكان الامن ناشرًا اعلامهُ حتى كانت قوافل الحُمُر تسير على رسلها حاملة سلع التجار الى مختلف المدن والاقوام الذين رغب تجار بابل في الاتجار معهم • وكان هؤلاء كثارًا جدًّا على ضفاف الفرات العليا • ومن تلك المدن مدينة حاران المشتقة الاسم من اللفظة البابلية (Kharanu) التي معناها سفرة • وكانت بالات البضاعة في افنية المنازل رُكاماً مركوماً بعضها فوق بعض وعلى كلٍّ منها ختم صاحبها دلالة على اسمه (ش ٦٥) وحين فتح البالات كانوا يكسرون ختومها ويطرحونها على الارض • ولذلك يشاهد كثير من تلك الختوم بين انقاض المدن البابلية على ما افادنا الاثريون الذين جمعوا ما رأوهُ منها بين الانقاض • وكانت لا تزال اسماء اصحابها ظاهرة على وجهها الواحد واثر الحبل على وجهها الآخر

(١٩٣) شيوع الكتابة المسمارية في اسية الغربية

وكان تجار مدن سورية والبلاد التي وراء مضائق الجبال الشمالية مضطرين ان يقرأوا الختوم التي كانت على البالات والقوائم التي كانت ترسل معها • فنتج عن ذلك ان انتشرت الكتابة المسمارية تدريجاً في اسية الغربية حتى صار التجار السوريون بعد امدٍ يسير يكتبون رسائلهم وقوائمهم التجارية على الآجر كتجار بابل انفسهم (انظر ف ٢٩٩ وش ٩٦) وطارت شهرة حمورابي التجارية في جميع الارجاء الغربية المعروفة في ذلك العهد وخلد ذكره بين يهود سورية وفلسطين حتى بعد مرور الف سنة على وفاته او تزيد

وكان تجار بابل اصحاب حول وطول حتى كان منهم في بعض المجتمعات الحكام

(١٩٤) الهياكل مركز التجارة

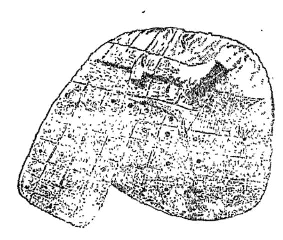
واصحاب الامر والنهي • وكانت الهياكل ذات الاملاك الشاسعة مركز الحياة التجارية • فكانت تعقد للتجار القروض وتتعاطى التجارة وتدير اراضي مترامية الاطراف

(١٩٥) النقود والقروض

ولم تكن النقود المسكوكة قد عُرفت بعد • فكانوا يثمنون الاشياء بقطع من الفضة ذات اوزان معلومة كان تداولها شائعاً بين اهل ذلك الزمان • فكانوا يقولون مثلاً «ثمن هذا الثور كذا اواقٍ من الفضة» الاّ انهم استعملوا الشاقل بدل الاوقية • وكان عقد القروض شائعاً ايضاً فيما بينهم معما كان عليه معدّل الفائدة من الفُحش — عشرين بالمئة على اقل تعديل • وكانت القروض توفى نجوماً او اقساطاً شهرية • اما الذهب فكان قليل الاستعمال لغلاء قيمته بالنسبة الى الفضة : ١٥ : ١

(١٩٦) الديانة البابلية في عصر حمورابي

وكان للمصالح التجارية عند البابليين الشأن الاول والمنزلة الرفيعة حتى في امور دينهم • فقد رأينا قبلاً انهُ كان لسدنة الهياكل مركز مهمّ في الحياة التجارية وقد ألهاهم شغفهم بالتجارة عن واجباتهم نحو المساكين والمستضعفين ونصرتهم حين كان يتصدّى لاذلالهم والاجحاف بحقوقهم اهل النفوذ وارباب الثروة • وكانت غايتهم الاولى والعظمى من الدين جرّ المنافع المادية من الآلهة وجعل انفسهم في حرزٍ حريز من غضبها وسخطها • الاّ ان طقوسهم الدينية تدلّ على انهم كانوا يشعرون بخطاياهم وعدم استحقاقهم لمراحم الآلهة



الشكل ٦٦ صورة كبد نعجة مصنوعة من طين مطبوخ بالنار تحدث عرّافا قديمًا من بابل

يلاحظ ان وجه هذه الصورة معلم بخطوط وثقوب تدل على الاماكن التي يجب على العرّاف ان يفتش فيها عن العلامات السرّية التي تميط له الحجاب عن المستقبل. وهذه العلامات هي نفس العلامات الطبيعية التي تشاهد على كبد اي خروف كان . الاّ ان البابليّ كان يعتقد ان هذه العلامات وضعت على الكبد من الاله الذي قُدّم الخروف ذبيحة له . وهي مكتوبة بالخط المسماري كل علامة في المحل الذي يجب ان تكون فيه ومن مجموعها تتألف خريطة يظهر فيها سطح الكبد وشكلها مع بعض تفاسير. والعرافة مع انها غير معقولة وباطلة كان يصدقها ملايين من البشر في آسية واوربا (ش ١٨٣)

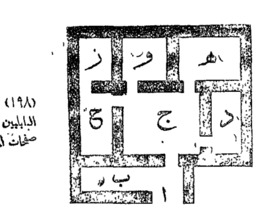
(١٩٧) مرودخ وعشتاروت

كان الشعب لا يزال يقدم عبادتهُ لآلهة السومريين القديمة ولكن تفوّق بابل السياسي مكن اهلها من تبوئة مرودخ الههم السامي المقام الاوّل بين الآلهة وجعل اسمه في الاساطير القديمة (ف ١٧٧ — ١٧٩) مكان اسم انليل اله السومريين القديم صاحب المنزلة الاولى • وبُوّئت عشتاروت الاهة الحب الاسيوية اسمى

منزلة بين الالاهات حتى جُعلت إلاهة بابل العظمى • ثم اجتازت الى سواحل البحر المتوسط وصارت افروديت اليونان

(١٩٨) طرق البابليين لتوضيح صفحات المستقبل

وكان في عِداد المنافع التي انعمت بها الآلهة على بعض الناس في ذلك الزمان البعيد ، المقدرة على الانباء بالمستقبل اي العِرافة • ودُعي الذين مارسوا العِرافة عرّافين • كان مَهرتهم يدَّعون بانهم يفسِّرون العلامات السرية التي على كبد الشاة (ش ٦٦) المعدَّة للمحرقة • وكان الذين يأتون اليهم لكي يستعلموهم اسباب ما دهاهم من الهم ومناهم بالقلق ، يوقنون بانهم قادرون على هتك ستار المستقبل ومعرفة ما خبأتهُ لهم الاقدار • وكان اولئك العرافون يرصدون النجوم الثابتة والسيارة معتقدين انهم بذلك يدركون قضاء الآلهة من جهة المستقبل • والظاهر ان اعمال العِرافة اتصلت الى الغرب بدليل ان قراءة العلامات السرية على كبد الشاة كانت شائعة في رومية (ش ١٨٣) • وتطوَّرت العِرافة تدريجاً مع كرور الايام حتى صارت علماً قائماً بذاته عُرف بعلم التنجيم وهو ابو علم الهيئة الحديث • واقتبس اليونان علم التنجيم ومارسوهُ آماداً طوالاً وبقيت فيهم بقية منهُ حتى زماننا الحاضر



الشكل ٦٧ بناية مدرسة قديمة في بابل منذ عهد حمورابي (نحو ٢١٠٠ ق.م) (عن شيل)

يرى اعلاهُ رسم هندسة المدرسة التي مساحتها ١٦ متراً مربعاً . كان الاولاد يدخلون من الباب (ا) ويمرُّون الى الغرفة (ب) حيث كان يجلس البواب الذي ربما كان يقيّد على اجرة اسماء التلاميذ الذين كانوا يأتون متأخرين عن الوقت . و بعد ذلك كان الاولاد يدخلون الدار (ج) التي لم تكن مسقوفة ويرجح انهم هنا كانوا يفترقون فالكبار منهم ، صبيان وبنات ، كانوا يذهبون الى غرفهم والصغار كانوا يذهبون الى غرف أخرى. وكان في زاوية من زوايا المدرسة ، والارجح في احدى زوايا الدار ، كومة او صندوق من الطين الطري يأخذ منهُ التلاميذ كتلاً مستديرة طريَّة ، كلما ملأوا الواح الطين (ف ٢٠٠) التي بين ايديهم بالعلامات الاسفينية ، وبالطبع ثم يكتبون عليها . ولا تزال جدران هذه البناية ماثلة حتى الآن بعلو نحو مترين

(١٩٩) التهذيب في مدرسة في بابل

ورأى البابليون ان المدارس ضرورية لتربية الشعب واعداد الشبان لتولي امر الكتابة في المحال التجارية الكبرى • وكانت مدارسهم في الغالب ضمن الهياكل او متصلة بها • وقد وجد الاثريون آثار مدرسة في اطلال بابل ، منذ عهد حمورابي (ش ٦٧) ومن تلك الآثار الواح الآجرّ التي كان الطلبة ، من الجنسين ، يكتبون عليها الفروض المدرسية منذ اربعة الاف سنة فقد وجدت مطروحة على ارض المدرسة • ومنها عُلِم كيف كان الولد في ذلك العصر البعيد يعاني المشقَّة في حفظ ثلاث او اربع

مثة علامة رمزية وكتابتها حال كون التلميذ عندنا لا يضطرّ ان يتعلم اكثر من ثمانية وعشرين حرفاً

٣٠٢) التهذيب وتعلم الكتابة

وكان الدفتر الذي يكتب فيهِ التلميذ تارينهُ المدرسية اجرَّة ملساء يستطيع ان يمحو ما يكون قد كتبه عليها بمسح وجهها بمِسحفة او شظيــة من حجر او خشب . وكان قلمهُ قصبة مبرية يرسم بها على الاجرَّة صفوفاً من الاسافين بعضها افقي وبعضها عمودي والبعض الآخر مائل (ف ١٥٤) ولكن كل منها مستقل عن الآخر، لا اتصال بينها . وبعـد ان يحذق التلميذ رسم الاسافين مفردة كان معلمهُ ينقلهُ الى عمل ارقى وهو تركيب الاسافين المفردة معاً بحيث تتألف منها العلامات الرمزية عندهم ومتى مَهر في ذلك يكون قد بلغ نهاية التهذيب وصار قادرًا ان يكتب كلمات كاملة ويؤلف جملًا بسيطة ثم جمــلًا مركبة وينقل اقتباسات من مكتوبات قديمة . وقد وجد الاثريون اجرَّة في انقاض احدى المدارس مكتوباً عليها مثلٌ من امثالهم يبين منهُ ان البابليين كانوا يقدرون الكتابة حق قدرها . اما المثل فهو هذا : « من يتفوَّق في الكتابة على الاجرّ يتألق كالشمس » . ومما لا ريب فيهِ ان كثيرين من شبان بابل دبَّت في صدورهم النخوة وهم ينسخون هذا المثل الذي اثار في نفوسهم الحماسة حتى لم يشعروا بمضض مشقَّة الكتابة

٣٠٣) آثار الصناعة الباقية من عهد حمورابي قليلة نادرة

لم تُبقِ لنا عوامل الطبيعة ولم تذر الاّ القليل من آثار الصناعة التي تدل على رقيّ سكان بابل لان ايدي الدمار والبلى عبثت بها فعفت كل ما شيَّده حمورابي في مدينتــه من المباني السامقة والقصور الشاهقة تخليدًا لذكره على تعاقب العصور وتراخي الحِقب . الاَّ انهُ بقي في طلول المدن الاخرى آثارٌ تدل باجلى بيان على ان اسية الغربية لم تكن تعوّل على الاروقة ذات العُمُد في مبانيها مع انها كانت شائعة الاستعمال في مصر (ش٣٨) اما القناطر في مقدم الابنية فقد احرزت مركزًا خطيــرًا في هندسة البناء ثم شاع استعمالها بعد ذلك في الغرب حتى اتصل الى اوربا (ش ٢٠٢) واما الاستنباط الخصوصي في فن البنـاء الذي يُعزى الى اهل بابل القدماء فهو برج الهيكل الذي سبق الالماع اليهِ (ش ٧٤) . ولم يعثر الاثريون على مثال باقٍ من هياكل بابل لاسباب لا تخفى على القارىء اللبيب [1]

---

(١) ان الصوَر المألوفة المرسومة في كتب التاريخ المتداولة بين ايدينا التي تمثل لنا صوَر الهياكل البابلية كاملة هي من صوَر الخيال ومواليد الحدْس . فان بعثة المانية نقبت عن هياكل بابل الحديثة (بابل مملكة الكلدان) ورمَّمت بالرسم فقط ما وجدتهُ منها بصورتهِ الكاملة

(٣٠٢) النحاتة في زمن حمورابي

والظاهر من قرائن الاحوال ان النـاس في عهد حمورابي لم يمارسوا صناعـة التصوير بالالوان • والصورة التي نُحتت ليظهر فيها حمورابي وهو يتناول الشريعـة من الاله الشمس ، (ش ٦٥) وان كان يتجلّى فيها شيء من الجلال والمهابة ، فقـد سُتر فيها الشكل الانساني بثياب الصوف الثقيلة حتى لم يستطع النحات ان يرسم جمـال الهيئة البشرية (ش ٦٢) • ولم يقدر المصورون ان يميّزوا في تصويرهم بين هيئة شخص وآخر • فكان عندهم جميع الناس سواء • وكانت صناعة الختوم المعدودة افضل صنائع البابليين قد تأخرت تأخرًا بيّنـاً عما كانت عليهِ في عصر سرجون (ش ٧٦ A) • فعصر حمورابي وان كان زمن تقدم ونجاح في التجارة فقد كان عصر تقهقر وانحطاط في الصنائع والفنون

(٣٠٣) ظهور الفرس الداجن لاوّل مرّة في التاريخ (٢١٠٠ ق.م.) سقوط أسرة حمورابي

وربما كان تقهقر الصناعة نبوءة عما كان مزمعاً ان يقع • لان الامـة البابلية التي كان حمورابي قد نظّم شؤُونها وسيّرها في منهاج التقدم والفلاح ، ماتت بموتـه • فان حثيي اسية الصغرى شرعوا بعد ذلك بامدٍ يسير في توسيع نطاق سلطانهم في الجهة الجنوبية فاجتاحوا سهل شنعار واطلقوا ايديهم في بابل نفسها سلباً ونهباً • ليس ذلك فقط بل الجبليون الذين كان حمورابي قد طردهم من المدن السومرية (ف ١٨٢) انقضّوا على سهل بابل كما انقضّ عليهِ السومريون من قبل • وكان هولاء الدخلاء المعتدون من غـير الجنس السامي ولقبوا بالكاشيين • وهم الذين جلبوا معهم الى بابل الفَرَس الذي لم يكن لهُ اسم في اللسان البابلي فدُعي بحيوان الجبال • وهـكذا ظهر الفَرَس لاوّل مرّة بين شعب متمدن منذ اربعة آلاف سنة ومثّل فصلًا مهما على مسرح الحرب والصناعة[1] • وفي اثناء القتال الذي استمرّ امدًا طويلًا بين ابناء البادية وابناء الجبال هلك نسل حمورابي فكان الفوز في العراك لمربي الخيل (في القرن العشرين ق • م •) وكان حـكم هولاء الدخـلاء موصوفاً بالخشونة حتى كاد يـكون بربريًا • وكان فوزهم منتهى الشوط الذي جراهُ البابليون في مضمار المدنية • فان بابل صارت بعد ذلك الى حالٍ من الجمود اشبه بالموت • ولم تبدُ عليها علامة تدل على وجود الحياة حتى جاءها الـكلدان فايقظوها من سُباتها الطويل واعادوها الى الحياة والعمل

(٣٠٤) خلاصة ما تقدم

اذا اعدنا النظر في الفصل الاوّل من رواية العمران فيما بين الرافدين راينا انهُ دام نحو الفي سنة بدايتها قبل سنة ٣٠٠٠ ق • م • بجيل او جيلين • ومؤسسو هذا العمران هم الجبليون

---

(١) ان هؤلاء الجبليين الذين لقبهم البابليون بالكاشيين لم يدجنوا هم انفسهم الفَرَس الذي اتوا بهِ الى بابل اولاً ، بل اخذوهُ بطريق الاتجار ، من الشمال او من اسية الصغرى من قبائل اوربية هندية (ف ٢٥٥) كانت قد ادجنته منذ عهد بعيد . واما سباق المركبات الذي يدل على وجود الفَرَس في اوربا الغربية قبل زمن التاريخ فيرجح انه كان بعد ظهورهِ في اسية بزمن قصير . وقد مرّ معنا ان اوّل ظهور الفرس في مصر كان نحو ١٧٠٠ ق • م (ف ١١٣) وذلك بعد ظهورهِ في بابل باربعمئة سنة

السومريون ، قبل شروعهم في الحرب التي دامت الف سنة مع الساميين . ومعما كان بين الفريقين من التمازج والاتحاد فقد ظفر الساميون مرتين بقيادة اثنين من زعمائهم العظام سرجون (٢٧٥٠ ق·م·) وحمورابي (٢١٠٠ ق·م·) فافل نجم سعد السومريين وصارت لغة بابل سامية . ويُعدُّ ملك حمورابي مع كل ما كانت عليه الصنائع والفنون من الضعف والانحطاط — عصراً بلغت فيه بابل اوج عزّها وقمة مجدها وهو خاتمة الفصل الاوّل العظيم من تاريخ ما بين النهرين· اما الفصل الثاني منهُ فيتعلق بوادي النهر الاعلى كما في تاريخ مصر

اسئلة

١٣

صِف الهلال المخصب · كيف تُجمل تاريخهُ ؟ اشرح علاقتهُ بالبادية · من كان سكان البادية ؟ صف حياتهم . الى اي اراضٍ انتقلوا عند الطرف الغربي للهلال المخصب ؟ وعند الطرف الشرقي ؟ اي نهرين يقطعان النصف الشرقي من الهلال ؟ صف السهل الذي كوَّناهُ

١٤

من هم سكان سهل شنعار الاولون ؟ صف حياتهم · صف مواد الكتابة التي كانت لديهم واسلوب كتابتهم · لخص تمدنهم · صف مبانيهم ومدنهم · ماذا تشبه تلك المدن اليوم ؟ ماذا نجد فيها ؟ هل كان السومريون متحدين امةً واحدةً ؟ اي تقدُّم كانوا قد بلغوهُ في الحرب

١٥

اي الشعوب تغلّب على السومريين ؟ من كان اوّل ملك سامي عظيم ؟ ماذا تعلّم الاكديون من السومريين ؟ ماذا عمل الاكديون في الصناعة والفنون ؟ صف اختلاط الاكديين والسومريين

١٦

اية امة نتجت من اختلاط السومريين والاكديين ؟ كم دامت ؟ صف آداب لغتها • ماذا جرى للغة السومرية ؟

١٧

من كان الاموريون وعلى اية مدينة في السهل استولوا ؟ من كان اعظم ملوكهم ؟ صف ملكهُ مما ورد في رسائلهِ • اذكر ما تمّ على يدهِ من تنقيح وتنظيم شرائع بابل • اشرح التجارة البابلية • ماذا حملت الى الشعوب المقيمة على طول الجهة الغربية من الهلال المخصب ؟ صف العرافة والتعليم والمبادىء كما كانت عند اهل بابل • ماذا حدث وقت موت حورابي ؟ كم كانت مدة الفصل الاوّل للعمران على الرافدين

الفصل الخامس

الاشوريون والكلدانيون

١٨

اشور القديمة ومناظراتها

(٢٠٥) اشور العاصمة الاولى وموقعها

اننا ننتقل بالفصل الثاني من تاريخ ما بين النهرين من بلاد بابل الى الانجاد التي تشرف من الشرق على دجلة ومن الغرب والجنوب على البادية · انجاد خصّتها الطبيعة بمناعة منقطعة النظير ، فلا مثل لها في ارض شنعار · كان اسم هذه البقعة اولاً اشور (خريطة ٣) ثم أطلق الاسم على البلاد بأسرها تسمية للكل باسم البعض المهم

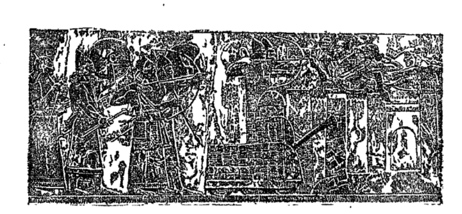
(٢٠٦) هواء وتربة ومحاصيل بلاد اشور

وكانت المنطقة المجاورة لاشور انجادًا اطيب هواء من سهول بابل ذات اودية مَريعة تتمعّج صُعُدًا نحو الجبال الشمالية الشرقية حيث كانت المدن مناظراتها · وكان في حضيض تلك الجبال رُخام وحجارة كلسية وصخور أخرى اقسى منها فالفرق — من هذا القبيل — عظيم بين اشور وبابل التي لم يستطع اهلها ان يشيّدوا مبانيهم الاّ بالطوب المجفّف في الشمس لخلو ارضهم من الحجارة · وكانت الاودية المذكورة آنفاً مزدانة بالمراعي النضرة وحقول الحنطة والشعير التي كانت تتماوج بنسمات الهواء · وكان الناظر الى تلك المراعي يشاهد اصورة البقر وقطعان الغنم والمعزى سائمةً فيها · وكان عند الاشوريين الحيوان الذي صوتهُ انكر الاصوات (الحمار) · كانوا يقتنونهُ لجرّ الاثقال خصوصاً واما الفرس فلم يكن معروفاً عندهم وكذلك لم يكن معروفاً في بابل اصلاً (ف ١٥٢) · وكان لاهل البلاد ولعٌ بالزراعة

فنجحوا فيها نجاحاً باهراً · واما التجارة فقلَّ فيهم من مال اليها · وفي هذا كان معظم التباين ما بين بابل واشور

(٢٠٧) تأسيس اشور (٣٠٠٠ ق·م) تحت تأثير العوامل السومرية

وفي السنة ٣٠٠٠ ق·م· كانت احدى القبائل الرُّحل الساميَّة قد احتلَّت اشور قادمةً من البادية (الخليج المقفر) كما احتل انسباؤهم الاكديون في الوقت نفسه سهل شنعار · وكقوم ساميين كانوا يتكلمون لهجة شبيهة بلهجة سامييِ بابل لا تختلف عنها اكثر مما تختلف اللهجات الالمانية بعضها عن بعض ·



الشكل ٦٨ تُرينا هذه الصورة ملكاً اشورياً يهاجم مدينة محصنة (القرن التاسع ق·م)

كان الاشوريون قبل قيام مملكتهم بقرن من الزمان قد اعدُّوا عدتهم وتأهبوا لتدمير اسوار المدن . فالمدينة التي الى اليمين في الصورة محصّنة باسوار من الطوب المجفف بالشمس كالاسوار التي تُرى في الشكل ٦٩. والرماة الذين كانوا يدافعون عن المدينة من أعلى السور اجتهدوا ان يدفعوا المنجنيق الهائل القائم على ستة دواليب الذي أُتي بهِ لتدمير السور. وقد كان المنجنيق في تلك الايام يقوم مقام الدبابات اليوم فكان على مقدمهِ درعٌ متينة من المعدن وعلى قمتهِ برجٌ ارتفاعهُ بقدر ارتفاع سور المدينة عليه طائفة من مهرة الرُماة الاشوريين يرمون الحامية التي على السور واحداً فواحداً · وكان ضمن المنجنيق جماعة من الرجال يديرون حركة الجسر الذي فيهِ . وكان راس الجسر مصفحاً بالمعدن · ويُرى في الشكل فاتحاً ثغرةً في السور. وكان هنالك ايضاً برجٌ كشّاف ذو قبّة مغشّاة بالمعدن صيانة للضابط الذي يدير حركة الالة ، وكوّى للمراقبة والكشف . وفي مؤخر الصورة يرى ملك اشور يرمي السهام على مدينة الاعداء وبيدهِ قوس متينة من صنع مصر تمكّن الرامي عنها ان يرمي سهامهُ بقوة عظيمة عن بُعد ٣٠٠ الى ٤٥٠ متراً وبذلك يكون بعيداً عن موقف الخطر . فهذا المشهد المحفور على بلاطة رخام هو نموذج للنقوش النائتة الباقية من اقدم العصور الاشورية التي قاومت العوامل الطبيعية (ف ٣١٦) وبقي الى زماننا الحاضر. والغريب ان علوّ صوَر الرجال فيهِ كعلوّ اسوار المدينة فكأنهُ ليس عمل رسام بل عمل اولاد

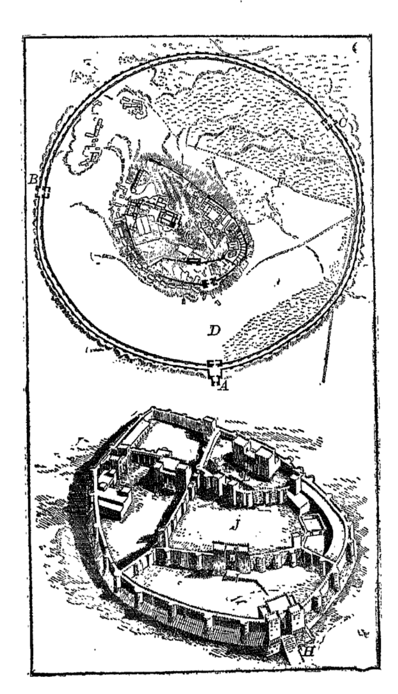
واسّسوا مملكة صغيرة مؤَلفة من مدينة اشور وارباضها على نسق تألُّف المدن السومرية في الجنوب (ف ١٦٨) . ولا ريب انهم كانوا على تمام الاتصال بالمدن السومرية التي اخذوا عنها صناعتي النقش والكتابة (ش ٥٧) والتقويم السنوي (الروزنامة) (ف ١٥٦) ومعظم اسباب الراحة وهناء المعيشة التي توافرت في المدن السومرية · وربما كان بعض السومريين في

عداد من استوطنوا المدينة ايام سكانها الاولين

(٣٠٨) اشور تابعة لبابل والحثيين على التعاقب . تبسط اشور لأول مرة شمالاً وجنوباً

من المعلوم ان الاشوريين اقتبسوا مدنيتهم الاولى من الجنوب الا انها لم تبقَ جنوبية صرفة بل مازجها شيء من مدنيات الشمال والغرب ايضاً · فكان في اسية الصغرى الشعب الحثي المعادي الذي كان يطمح الى التوسع شرقاً نحو الرافدين · وقد تمكن الحثيون غير

كان عرض المدينة نصف ميل يحيط بها سوران مبنيان باللبن على اساس حجر متين (A, B, C) وكان على السور مئة برج لتعزيزه بين الواحد والذي يليه مسافة خمسين قدماً وكانت قلعة ملوك سامال مبنية على رابية في الوسط (G) وبيوت الاهلين تشغل الفسحة التي بين الاسوار والقلعة وقد عفت آثارها لانها كانت مبنية بالطوب اما القلعة فلاتزال جدرانها ماثلة حتى الآن . ويرى ترميمها عند الاحرف H.I.J.K.L . هذه هي القلعة الموسومة بالحرف Y في رسم المدينة اعلاه جدرانها من الطوب واسسها من الصخر متسعة القاعدة · وكانت مدينة سامال الواقعة في الجزء الشمالي من سورية ، في منتصف المسافة بين البحر المتوسط والفرات (خريطة ٢)، تحت تأثير عوامل حثية من اسية الصغرى (ف ٣٦٠) . وعوامل مصرية من وادي النيل . فكانت اروقة القصور حثية الهندسة مصرية الاعمدة K.L (اي ان ترتيب الاعمدة مأخوذ عن هندسة البناء المصري) . وكانت النقوش الحثية الناتئة



الشكل ٦٩ مدينة سامال الارامية

احدى مناظرات اشور في الغرب

(ش ١١٤) زينة تلك الاعمدة · وقد اقتبس الاشوريون جميع روائع فن البناء الغربي (ش ٧٥)

مرَّة من بسط نفوذهم وسلطانهم على اشور ولكنهم كانوا يُرجَعون على اعقابهم بقيام ملوك ذوي بأس وشدَّة كسرجون وحمورابي واضرابها. وكان للساميين مراكز حربية فرعية في الجبال الشمالية. وكانت قاعدة اعمالهم الحربية رارا أيوك التي كانت لها علاقات متينة مع بابل واشور. ومع ان النفوذ السامي في الشمال كان عظيماً قبل قيام الحثيين، فانهُ بعد زحفهم من اسية الصغرى تقلّص ظلهُ. ولم يكن الساميون في وقت من الاوقات ذوي حَول وطَول. ولذلك لم يكن في طوقهم صدّ الحثيين عن زحفهم شرقاً وجنوباً. فاتقدت نار الوغى بينهم وبين اشور من اوَّل الامر واضطرَّ الاشوريون بعد موت سرجون ان يذودوا عن حدود بلادهم خائضين غِمار حرب عَوان دامت الفاً وخمس مئة سنة لصدّ جيرانهم المناوئين لهم في الشمال والجنوب. وبعد التدرُّب في الحروب بمقاتلة الاعداء امدًا طويلًا، صاروا اشداء ذوي بأس. وفي غضون هذا الامد الطويل ادخلوا الى بلادهم القرَس (ف ٢٠٣) واضافوا الى جيشهم المركبات. وبعد ذلك شرع ملوك اشور في التبسُّط والتوسُّع غرباً فصادموا شعباً آخر كانت بينهُ وبين الجنس الهندي الاوربي الشمالي صلة نسب. ودُعيت بلاد هذا الشعب باسم ميتاني. وكان يعبد الآلهة التي عبدها بعد ذلك ابطال الآريين الذين فتحوا الهند. وكانت ميتاني في القرن الخامس عشر والرابع عشر دولة على جانب من القوَّة والسؤدد. فعبرت الفرات واكتسحت اشور وآبت منها بالاسلاب والغنائم. ولكن ضعف شأنها بعد ذلك لتواتر الغارات عليها من جيرانها ولا سيما الحثيون فخسرت ما كان قد تبنَّى لها من القوَّة غب نزالها مع الاشوريين. وكان لهولاء علاقات سياسية مع مصر وبادلوا ملوكها الهدايا. وبما ان المصريين في سورية والاشوريين في ما بين النهرين كانوا يعتدون على حدود البلاد التي يدعيها الحثيون، فكان الفريق الواحد منها طبعاً يتوقع مناصرة الفريق الآخر لهُ الاَّ ان ذلك كان الى حين. فانهُ في سنة ١٣٠٠ ق. م. قطع الاشوريون الفرات وانقضُّوا على الحثيين انقضاض الصواعق واجلوهم عن بلاد النهر العظيم. ولكنَّ الحثيين اتحدوا مع المصريين ليدرأوا عنهم خطر الاشوريين. واخذ الاشوريون في الوقت نفسهِ يزحفون على بابل متَّبعين مجرى دجلة، فاستولوا عليها. وكانت لا تزال حتى هذا العهد تحت سيطرة الكاشيين الشرقيين الذين كانوا لا يزالون في طور البربرية. وهولاء هم الذين كانوا قبلًا قد ادخلوا القرَس الى البلاد

(٣٠٩) مناظرو اشور الغربيون. الفينيقيون والعبرانيون والاراميون

وكانت اشور لا تزال دولة بريَّة كروسيا الحديثة ولا تأمل ان تستولي على اسية الغربية قبل ان تتصل ببحر الروم. وكان بينها وبين البحر مدن شمال سورية المنيعة ككركميش (جرابلس الحديثة) وحلب. وبما انهُ كان بين سكان هاتين المدينتين عدد

كبير من الحثيين ، كان لا بدَّ للاشوريين من الاستيلاء عليها قبل ان يستتب لهم بلوغ الساحل البحري • وكان في اواسط سورية مملكة امورو الموالية للحثيين والفاصلة بينهم وبين المصريين • وقام على سواحل البحر المتوسط خصوم جُدَد تصدَّوا للاشوريين في اثناء زحفهم نحو الغرب • وكان على السواحل ، المدن الفينيقية الزاهرة بتجارتها البحرية (ف ١٤٧) • وما كان سكانها الفينيقيون الاَّ نسل الساميين سكان البادية سابقاً • بنوا مدنهم على الساحل وكانت كل مدينة منها قائمة بذاتها • واوَّل مدينة منها ورد ذكرها في التاريخ هي جبيل (جُبلة قبلاً) • وفي القرن الرابع عشر شرعت صور في وضع اساس سيادتها المستقبلة على فينيقية الاَّ ان هذه السيادة لم ينجم عنها تأسيس مملكة فينيقية لان موقع البلاد بين البحر وجبال لبنان جعلها طويلة ضيقة حتى لم يكن اتحادها السياسي ممكناً • زد على ذلك ان جبال لبنان في ذلك العهد كانت مكسوَّة بالغابات الغضَّة التي كانت مأوى الوحوش ومكامن للصوص • ومواقع المدن الفينيقية على ساحل البحر — ولا سيما صور وارواد اللتان بُنيتا على جزيرتين — جعلتها في موقف حريز يمكّنها من صدّ اية قوَّة هاجمتها كاشور مثلاً التي لم يكن لها اقل سيادة على البحر • ولذلك كانت المدن الفينيقية هذه من اشدّ اعداء ملوك اشور • وفي هذه الاثناء طغت موجة كبيرة من مهاجري البادية الساميين (ف ١٤١) الذين حاولوا سنة ١٤٠٠ ق•م• ان يستولوا على السواحل الغربية اي على فلسطين وسورية كما فعل الاشوريون قبل ذلك باشور • وما كان هولاء القوم الرحَّل الغربيون الاَّ العبرانيين في فلسطين والاراميين الى الشمال منهم • وكثيرًا ما يُسمَّون في الكتابات الاثرية سوريين محتلّين سورية • ولم يلبثوا ان استولوا على الطرف الغربي من الهلال المخصب برمتهِ ففصلوا بذلك بين اشور والبحر • وبعد سنة ١٣٠٠ ق • م • اسَّس الاراميون في الغرب عدَّة ممالك زاهرة بنوا فيها مدناً فاخرة لملوكهم وقصورًا باذخة



الشكل ٧٠ عيار ارامي وُجد في اشور

هذا العيار من البرنز مسبوك بشكل اسد وله مقبض والكتابة التي ترسمه على حافة قاعدتهِ ارامية. وقد وُجد خمس عشرة قطعة من هذه العيارات في مكان واحد مما يدل على انتياب التجار الاراميين لاسواق اشور (ف ٢٠٠)

فرشوها بانفس الاثاث (ش ٧١) ولا بدع في ذلك فانهم كانوا تحت تأثير مدنية الحثيين من الجهة الواحدة ومدنية المصريين من الجهة الاخرى . وكانت دمشق اعز ممالك الاراميين

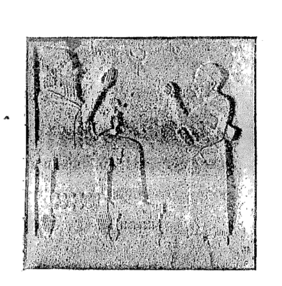
جانباً مع انهُ قام في شمال سورية بعد سقوط دولة الحثيين ممالك أخرى غيرهـا ذات حول وطول كحماه وسواها

(٣١٠) اتساع نطاق تجارة الاراميين

وكان التجار الاراميون على جانب عظيم من النشاط فوسَّعوا نطاق تجارتهم الى ما وراء حدود ممالكهم فبلغت قوافلهم حدود البادية وامتدَّت تجارتهم شمالاً حتى بلغت الى منابع دجلة • وقبضوا على زمام تجارة اسية الصغرى • ويدلنا وجود الاوزان النحاسية في اطلال نينوى (شكل ٧٠) على انهم كانوا يَغْشَون الاسواق الاشورية ايضاً • فكانوا في تلك الازمان المتراخية في القدم كابناء عمهم اليهود في الممالك المتمدنة اليوم، زعماء التجارة وان كانوا لم يتنظموا امةً واحدة

(٣١١) الاراميون التجار ونشرهم رفقة الهجاء الاولى في اسية

وبلغ الاراميون درجة عالية من المدنيَّة فكانوا في سنة ١٠٠٠ ق • م • يستعملون في كتاباتهم الحروف الهجائية التي اخذوها عن الفينيقيين • وهو اقدم اسلوب للكتابة معروف استعملت فيهِ الحروف الهجائيـة وحدها (ش ١٢٣)•واخذوا عن المصريين القلم والحبر اللذين لا يستغنى عنها مطلقـاً في الكتابة بحروف الهجاء (ش ٧١) وكما حملت قوافل البابليين في الازمنة الاولى قِطع الآجرّ المكتوبة بالخط المسماري الى اطراف اسية الغربية كذلك حملت اليها القوافـل الاراميـة قوائم حسابات التجار وسنداتهم المكتوبة بالحروف الهجائية فحلّت الحروف الهجائية الارامية الفينيقية محل العـلامات المسمارية • وانتشرت في جميع انحـاء اسية الغربية ثم جاوزت الفرات الى بلاد فارس واواسط اسية حتى بلغت اخـيراً الى الهند وصارت بعد زمان حروف هجـاء للشعوب الشرقية ايضاً



الشكل ٧١ ملك سامال الارامي وكاتبهُ امامهُ ممسكاً ادوات مصرية للكتابة (القرن الثامن ق م): يرى الملك جالساً الى اليسار على عرش انيق محفور من الابنوس والعاج والذهب ولهُ موطئ للقدمين من صنعة العرش نفسها ويرى كاتبهُ امامهُ حاملاً تحت ابطهِ الايسر شيئاً يشبه كتاباً ولكن الكتب المجلدة لم تكن معروفة بعد • وفي يدهِ اليسرى علبة مصرية للكتابة تحتوي على الحبر والقلم (ش ٧٢) وهذا الضرب من النقش الناتئ الرقيق الذي رسم فيهِ هذا المشهد كلهُ مصري الاصل ومن سامال وامثالها في سورية الى اشور حيث قلدوهُ كثيراً (ش ٧٧)

وحيثما سار التجار الاراميون كانت لغتهم بالطبع تسير معهم • فلم يمرَّ عليها زمن طويل

(٣١٣) اللغة الاشورية واللغة الارامية تمشيان جنباً لجنب في التجارة والحكومة

حتى شاع استعمالها تدريجاً على تخوم البادية . واصبح عدد المتكلمين بها في بلاد اشور نفسها يُربي على المتكلمين بالاشورية . وكلما وصلت الى يد تاجر ارامي اجرَّةٌ مكتوبة بالاشورية كان يتناول قلمهُ ويعلّق عليها بالارامية ما شاء تعليقهُ . وقد وُجد في اطلال المباني الاشورية كثيرٌ من قطع الاجرّ التي علِّقت عليها حواشٍ بالارامية . وبعد مدة من الزمان اجمع الراي العام على ان تدار الاشغال العمومية باللغتين الاشورية والارامية .

الشكل ٧٢ كاتب اشوري وكاتب ارامي يقيدان الاسلاب المنهوبة من مدينة اسيوية أُخذت عنوةً (القرن الثامن ق.م)

نرى هنا النساء المسبيات والاولاد في مركبات تجرّها الثيران ووجهة الجميع اشور، دار عبوديتهم . ونرى راعٍ يسوق القطعان المنهوبة . والى اليسار ضابط اشوري يقرأُ في لوحه ما قيدهُ من الغنائم التي نهبت من المدينة وكاتبان يدوّنان ما يقرأُه . الاوّل منهما (الى الامام) ممسك بيسراه اجرَّة سميكة وقد رفع عنها قلمهُ الذي كان بيمناه ربما يستريح . والآخر باسط على يسراهُ لفة من ورق البردي يكتب عليها بقلم قابض عليه بيمينهِ . وهو ارامي (ف ٣١١) ويكتب باللغة الارامية بقلم وحبر . فنرى هنا طريقتي الكتابة المختلفتين اللتين كانتا مستعملتين في اسية الغربية — الكتابة على الاجرّ التي اخذت تبطل والكتابة على الورق بالحبر والقلم التي اخذت تقوم مقامها

هذا في الشؤون العمومية . واما في الحكومة فاذا كان الكاتب اراميا فبالطبع كان يدوّن المحاضر بقلم الحبر على ملف البَرْدي واذا كان اشوريًّا كان يكتب على الاجرّ بقلم قصب كالّ الرأس (ش ٧٢)

(٣١٤) تغلب اللغة الارامية في الوطن الهلال المخصب

واصبحت اللغة الارامية لغة الهلال المخصب برمتهِ . حتى انها حلّت محل شقيقتها العبرانية الفلسطينية . وهكذا صار هذا اللسان التجاري الارامي بعد ذلك بقرون عديدة اللغة التي

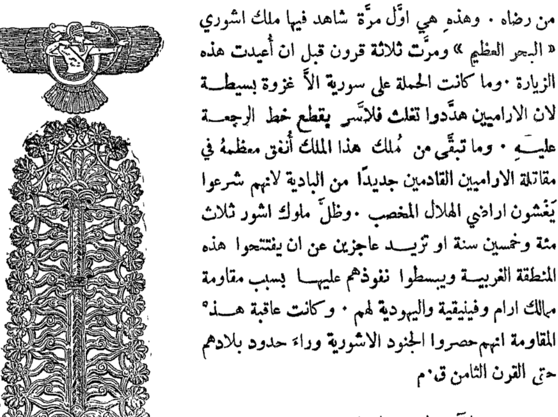
تكلم بها المسيح ومن عاصره من العبرانيين في فلسطين (ش ٩٨) . واخيراً قام في تدمر ببادية الشام دولة تجارية ارامية تحت سلطة زنوبيا لمناوأة الامبراطرة الرومانيين . وخلفت المدنية الارامية آثاراً خالدة في جميع الاماكن الشاسعة التي انتشرت فيها – آثاراً ابقى من التي غادرتها دولة اشور الحربية ذات السؤدد والجبروت كما سنرى فيما بعد . ولكن لسوء الحظ لم تعمل بعد معاول الاثريين في تلال سورية التي كانت المدن الارامية مبنيّة عليها ، الا في تل واحد منها ، ولذلك ليس لدينا الاّ القليل من آثارهم الدالة عليهم

(٢١٤) اشور ومدن فينيقية

حاول الاشوريون ان يوسّعوا نطاق نفوذهم في شمال سورية ولكنهم باؤوا بالخيبة والفشل . وفي منتصف القرن التاسع ق . م . كانوا قد بسطوا رواق سلطتهم على الممالك الارامية لانها ادنى اليهم من سواها . ثم اخذوا في الزحف الى ما وراء الفرات ووجهتهم السواحل . ولما رأت المدن السورية والفينيقية انها مهددة بالفتح عَنوةً اذا هي ابت التسليم وتأدية الجزية ، سلّمت وأدّتها صاغرة دفعاً لهول الفظائع التي تنجم عن الفتح عنوةً . وفي سنة ٨٧٠ ق . م . بلغ اشور ناصر بعل ساحل البحر المتوسط – وهو ثاني ملك اشوريّ رأى البحر – فقدمت لهُ بعض المدن الساحلية هدايا . ونجد لاوّل مرّة في عداد المدن المهدية ، اسماء ثلاث مدن هي محلّات ومَيسة وكايسة التي ستذكر من الآن فصاعداً معاً . وفي الازمنة اليونانية المتأخرة ، اتحدت هذه المدن الثلاث وأُطلق عليها اسم طرابلس . ومعناهُ باليوناني المدينة المثلثة . ولكن لما جاءها بعد ذلك بعشرين سنة ملك اشوري آخر انضوت المدن السورية ومدينة ارواد الفينيقية بعضها الى بعض تحت قيادة حماه الارامية وتصدّت لهُ وقاومتهُ مقاومة عنيفة جدّاً ووقفتهُ عن الزحف الى الامام وبذلك نجت من الوقوع مغنماً بارداً لقوّة اجنبية مدة مئة سنة أُخرى – حتى منتصف القرن الثامن ق . م .

(٢١٥) دمشق الارامية وحلفاؤها الساميون يصدون اشور عن التقدم غرباً

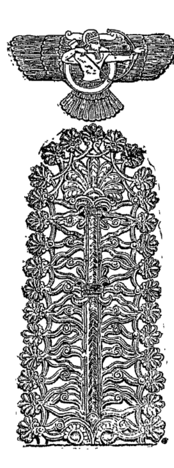
ولما كان ملوك دمشق الاراميون من ذوي الثروات الطائلة المكتسبة بطريق التجارة استطاعوا ان يحافظوا امداً طويلاً على جعل قاعدة ملكهم في امنع درجة من التحصين وان يصدوا الاشوريين عن التقدُّم الى سواحل البحر المتوسط . ومن اجلى البينات على ما كانوا عليهِ من القوّة والسلطان حمايتهم للمملكة اليهودية الصغيرة الضعيفة زمناً طويلاً من هجوم الاشوريين عليها . وحوالي سنة ١١٠٠ ق . م . حاولت مملكة اشور ، في ملك تغلث فلاسّر الاوّل ، ان تبسط سلطتها على شمال سورية فزحفت جنودها غرباً ونظرت البحر المتوسط من ارواد الواقعة على الحدّ الشمالي لفينيقيّة . اما الملك فلم يكتفِ بمجرّد النظر بل ركب زورقاً فينيقيا وجرّب سفر البحر . واهدى اليه ملك مصر تمساحاً تودُّداً اليه وتزلُّفاً



من رضاه . وهذه هي اوّل مرّة شاهد فيها ملك اشوري « البحر العظيم » ومرّت ثلاثة قرون قبل ان أُعيدت هذه الزيارة . وما كانت الحملة على سورية الأ غزوة بسيطة لان الاراميين هدّدوا تغلث فلاسّر بقطع خط الرجعة عليهِ . وما تبقّى من مُلك هذا الملك أُنفق معظمهُ في مقاتلة الاراميين القادمين جديدًا من البادية لانهم شرعوا يَغشون اراضي الهلال المخصب . وظلّ ملوك اشور ثلاث مئة وخمسين سنة او تزيد عاجزين عن ان يفتتحوا هذه المنطقة الغربية ويبسطوا نفوذهم عليها بسبب مقاومة ممالك ارام وفينيقية واليهودية لهم . وكانت عاقبة هذه المقاومة انهم حصروا الجنود الاشورية وراء حدود بلادهم حتى القرن الثامن ق . م

(٣١٦) المدنية الاشورية قبل عهد الفتوحات

ولناقِ الآن نظرة الى الوراء لكي نرى الشوط الذي قطعتهُ البلاد في مضمار الحضارة مدة الفي سنة كانت في غضونها تتمشّى على سنّة النشوء والارتقاء وذلك منذ اخذت الكتابة المسمارية عن السومريين (ف ٢٠٧) وكانت اشور قريبة من البلدان التي الى الشمال والغرب منها قريباً يمكنها ان تتأثر بالعوامل الآتية منها ولا سيما بلاد الحثيين (ف ٣٦٣) الذين أخذت عنهم اشياء كثيرة تتعلق بالدين والصناعة . وكانت كلما اخذت شيئاً عن غيرها مما ترى فيهِ نفعاً للوطن اقبلت عليهِ ووجّهت عنايتها اليهِ فتُحسّن فيهِ وترقيهِ حتى تغادرهُ احسن مما كان حين تسلّمتهُ من الغير . اخذت عن بابل رموزها المسمارية واشاراتها الكتابية . فلم تكتفِ بها بل زادت عليها مئتي علامة جديدة . وكان لصناعات الحثيين المقيمين الى الشمال من سورية تأثير عظيم في عقول الاشوريين ونفوسهم حتى غدا نحّاتوهم ينقشون مآثر ملوكهم الحربية على حجارة الرخام نقشاً انيقاً غير ناتىء (ش ٧٢ و٧٥) وينصبونها صفوفاً مستطيلة امام



الشكل ٧٣ رمز الاله اشور فوق صورة أشورية تمثل شجرة الحياة البابلية القديمة

يرى في اعلى الرسم قرص الشمس المصري المجنح وهو رمز الاله اشور الاله الشمس عند الاشوريين . يرى في الرسم يرمي سهامهُ القاتلة وتحتهُ الرمز الجميل لشجرة الحياة التي نشأت اولاً في بابل (ف ١٦١). اما سَعف النخل الذي كان يأتي بهِ العابد البابلي في جرّة الماء فصار بتفنن المصورين شجرة نخل للزينة تُرى هنا قائمة في الوسط كعمود تاجه اوراقها المنتشرة من القمة ويحيط بالشجرة "كشكش" لهُ طاقات من اوراق النخيل كالتي على راس الشجرة . وبهذا الشكل استعملت هذه الشجرة بعد ذلك عند اليونانيين

قصورهم · اما في بابل فلم تكن النحاتة معروفة كثيراً · وكما تفوّق الاشوريون على البابليين في صناعة النقش كذلك فاقوهم في تشييد المباني العظيمة التي لم يستطع هولاء ان يشيدوا مثلها لخلوّ بلادهم من الحجارة اللازمة للبناء. وكان الاشوريون يبذلون منتهى جهدهم في جعل أُسس مبانيهم راسخة مبنية بالحجارة متحدّين في ذلك السومريين والحثيين واما سائر البناء الذي فوق الاساس فكان من الطوب المجفف في الشمس كما كانت الحال في بابل

(١٧) اشور

ونقل الاشوريون عن البابليين ما كان مستفيضاً بينهم من القصص والحكايات الدينية (ف ١٧٧—١٧٩) · اخذوها عنهم ودرسوها وقدّسوها (ش ٧٣) الأ انهم ظلوا متمسكين شديد التمسك باله القبيلة القديم اشور وهو اسم قبيلتهم ومدينتهم كما لا يخفى · وقالوا انهُ والشمس شيء واحد وكان في زعمهم الهاً شديد البأس يقود ملوكهم في حملاتهم الحربية الظافرة ويرشق اعداءهم يميناً وشمالاً بسهامهِ القاتلة · وكانوا يرمزون اليهِ بقرص الشمس المجنّح · اخذوا ذلك عن حثيي سورية كما اخذهُ هولاء من قبل عن المصريين · وكانت إلاهتهم العظيمة عشتاروت إلاهة الحبّ التي وجدناها في بابل · ولم يكن للدين مفعول او تأثير في حياة العُبّاد وعلة ذلك انهم لم يكونوا يؤمنون بالدينونة ولا بالحياة بعد الممات · وكانوا يدفنون الميت تحت ارض بيتهِ او تحت الدار

(١٨) اكتشاف قبور ملوك اشور

لقد كشفت اعمال الحفر والتنقيب الحديث سلسلة من العقود او الاقباء(ج قبو) المبنية بالاجر تحت ارض القصر الملكي وجد فيها قطع من نواويس لعبت بها ايدي التحطيم فغادرتها مبعثرة هنا وهناك · وكانت هذه اوّل المدافن الملكية التي وجدها الاثريون في بلاد اشور · وكان البارثيون قبل الفي سنة قد مدّوا اليها ايدي النهب والسلب فلم يبقوا شيئاً مما كان فيها ولم يذروا · في هذه الرموس الدارسة التي كادت تعفو آثارها ثوى ملوك اشور العظام بعد ان عاشوا وسادوا وشادوا المباني الفاخرة · وتقدمت اشور في اثناء الالفين من السنين التي مرّت عليها تقدماً محسوساً وتطوّرت تطوراً ادّاها الى انشاء امبراطوريتها الاشورية

١٩

الامبراطورية الاشورية (نحو ٧٥٠—٦١٢ ق · م)

(١٩) توسع اشور غرباً

حوالي منتصف القرن الثامن ق · م استأنفت اشور اتمام خطتها في التوسع غرباً · فاخضعت سورية تدريجاً وضمتها الى ولاياتها · وخضعت لها المدن الفينيقية بلا مقاومة واذنت

الجزية صاغرة عند اول وصول الاشوريين اليها ولم تستطع الثبات امام جيوش اشور القديمة لانها لم تقدر ان تتحد معاً للذود عن حياضهـا وصدّ غارات عدوها المشترك عن بلادها . واتضح لها ان اشور ستكون في المستقبل المملكة القوية . وكمدن تجارية ، لم يكن لها غنى عن الاتجار مع اهل الداخلية اذا رامت نجاحاً لتجارتها . ولذلك نراها قـد مكّنت عرى صداقتها وولائها لها . فاطلقت لها اشور الحرية في التجارة بلا شرط ولا قيد . فكان ذلك خيراً لها من التصدّي لمقاومة نهايتها الخراب حتماً . الآن المدن الفينيقية الرئيسية ما عدا جبيل اتحدت غير مرّة وشقّت عصا الطاعة ناقضة عهد ولائها وثارت على اشور من جرّاء فداحة الضرائب التي ضربتها عليها . ولكن اشور كانت ترسل جيوشها فتقمع الثورات وتخمد نارها عند اوّل وصولها بلا حرب ولا سفك دم فيعود الفينيقيون الى الطاعة والخضوع . ولم تستطع مدينة واحدة من مدنهم ان تنجو من الفتح عنوةً الاّ مدينة صور لانهُ لم يكن للاشوريين قوّة بحرية . ولكنهم تمكّنوا من اخضاعها كسواها من اخواتها بمجرّد مضايقتها من الوجهة الاقتصادية

(٣٣٠) سرجون الثاني — وفي غضون الحملات التي كانت تحملها اشور على البلاد الواقعة الى الغرب منها قام احد كبار قوّادها في اثناء حصار السامرة ، المدينة اليهودية التعسة ، واغتصب الملك (٧٢٢ق.م) منتحلاً اسم سرجون ، اوّل ملك عظيم قام من الجنس السامي في بابل قبل هذا الزمان بالفي سنة (ف ١٧٢) . امّا سرجون الثاني فقد ابلغ اشور ذروةَ المجد والعزّة وبوّأها المقام الاوّل بين الدول الحربية . وكان اعقابهُ اعظم من جلس على عرش اشور[1] . بنى في الجهة الشمالية الشرقيـة من نينوى قصراً ملكيا افخم وابهى من كل قصر شُيّد في اسية وسمّاهُ دار سرجون . كانت مساحة فِنائهِ ضمن السور ميلاً مربعاً تستوعب ثمانين الف نفس . وكانت مساحة القصر نفسهِ خمسة وعشرين فداناً ، لم يكن في بابل حتى في ابّان عظمتها وجبروتها شيءٌ مثـل ذلك (ش ٧٤) فعدّت اشور سيدة اسية الغربية

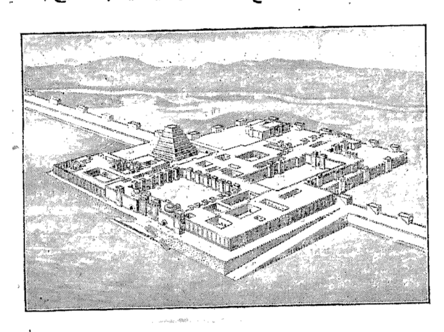
(٣٣١) سنحاريب — واما سنحاريب ففاق اباهُ سرجون الثاني عظمةً وجلالاً . وعدّ من اعظم رجال السياسة في زمانهِ (٧٠٥—٦٨١ ق.م) حُنكةً ودرايةً ليس في بلادهِ فقط بل في سائر بلدان الشرق

---

(١) اعظم ملوك سلالة سرجون الثاني

سرجون الثاني	٧٢٢—٧٠٥ ق.م.
سنحاريب	٧٠٥—٦٨١ "
اسرحدون	٦٨١—٦٦٨ "
اشور بانيبال	٦٦٨—٦٢٦

القديم • وكان مجرّد ذكر اسمهِ كافياً لالقاء الرهبة والمهابة في قلوب النـاس في داني البلاد وقاصيها حتى اسية الصغرى لانهُ غزا طرسوس واكتسح سائر الحصون اليونانية قبل المسيح بـ ٧٠٠ سنة (ف ٤٣٤)



الشكل ٧٤ ترميم القصر وجزء من مدينة سرجون وبرج المقام الملكي لسرجون الثاني (٧٢٢-٧٠٥ ق.م.)

كان قسم من القصر قائماً داخل سور المدينة وقسم خارجهُ على نشز صناعي من اللبن مساحتهُ ٢٥ فداناً وينشأ من داخل السور طرق مائلة وطرق مدرَّجة . فكان الملك بذلك قادراً ان يركب مركبتهُ من شوارع المدينة صاعداً فيها الى ارض القصر وكانت غرف القصر وردهاته الكبيرة تحيط بدوره الكبيرة غير المسقوفة. وكان المدخل الرئيسي (وامامهُ درج يؤدّي نزولاً الى المدينة) مزداناً بالابراج الهائلة والابواب ذات الاقواس (ف ٢٣٩) المبنية بالآجرّ المدهون بالميناء ومزخرفاً بثيران هائلة لها رؤوس بشرية منحوتة من حجر المرمر. وكان برج الهيكل الواقع وراء الدار الكبيرة المقتبس عن بلاد بابل اصل القبب في الكنائس المسيحية (ش ٢٨٠) وكانت شوارع المدينة ومنازلها تملأ الفسحة التي تحت القصر ضمن حدود سور المدينة وكانت تسع نحواً من ثمانين الف انسان

ثم جعل سنحاريب وجهتهُ الجنوب وزحف بجيشهِ الى سواحل البحر المتوسط حتى تخوم مصر • ولكنهُ فقد هنا جانباً كبيراً من جيشهِ لوقوع وباءٍ عليه مصدرهُ مستنقعات الدلتا (ف ٣١٧) فامتنع عن تخطّي التخوم التي بلغ اليها •

ولكنهُ لم يترك ضرباً من التنكيل الاّ انزلهُ ببابل عدوَّتهِ العظيمة • وبلغ منهُ الغيظ والحدَّة مبلغاً عظيماً حتى دكَّ مدينة حمورابي البهية دكّاً واطلق على اطلالها مياه احدى الترع

(٣٢٣) فتح اشور لمصر وهكذا خربت بابل المدينة الجميلة بهاء المدن الكلدانية وفخرها • ولكن بقيت دولة مصر شوكة ناخسة في جنب اشور تناوئها وتحرّض الشعوب الغربية الخاضعة لها على شقّ عصا

الطاعة واضرام نار الثورة كلما فرضت عليهم ضريبة ثقيلة فتصيخ الى تحريضها وتثور عليها طمعاً بالتملص من تأديــة الضرائب • فعزمت اشور على ان تضع حدًّا لتحرّش مصر بها فزحف اليها ابن سنحاريب بجيش عرمرم وبلغ ابواب قلاع الدلتا الشرقية ووقف حيالها نحو سنة ٦٧٤ ق٠م الاَّ ان قوات مصر صدّته عن التقدم اولاً فاعاد الكرَّة عليها ولكنهُ هلك قبل ان يدخلها • ولكن الجنــود الاشورية دخلتها بعد موتهِ فاصبح حفيد سنحاريب سيّداً لمصر السفلى مدّة ما

الشكل ٧٥ جنود اشورية تتعقب الاعداء الفارّين عبر مجرى ماء

موقع مجرى الماء يشغل النصف الايمن من هذا المشهد . ويمكن تبينهُ في هذا الرسم الذي رسمهُ المصوّر الاشوري ، من السمك والامواج المتموجة والقسي والجعب الملأى من السهام تجري عائمة على الماء ومعها جيفتا فرسين احدها على ظهره وقوائمهُ بارزة فوق الماء . وفي منتصف المجرى تشاهد جيفتا رجلين سائرتين مع المجرى لا تزال السهام مغروزة فيهما • ويرى ثلاثة من الاحياء يقفزون عن ضفة المجرى ومطـاردوهم يطعنونهم بالرماح او يرمونهم عن القسي بسهام وكانت الرماحة الاشورية تحمل تروساً عالية ولكن الرماة لم يستطيعوا ذلك لانهم يحتاجون الى كلتا اليدين للرماية • وتُرى اشلاء القتلى مبعثرة على الضفة التي تشغل الجهة اليسرى من الرسم . وفي اعلى الشكل ترى النسور تفقأ عيونهم وفي الوسط ترى اشوريًّا يجزّ راس احدهم وبجانبهِ رجل آخر يدوس عنق احد القتلى برجلهِ وينتزع منهُ سلاحهُ. وترى النباتات بين الاشلاء على طـول المجرى

١٣٣٦ اتساع مملكة اشور

وفي سنة ٧٠٠ ق٠م كانت اشور قــد ضمت الى املاكهــا جميع اراضي الهــلال المخصب فاحاطت بجُون الصحراء (Desert-Bay) من جميع جهاتــهِ • ولم تكتفِ بذلك بل وسعت نطاق سلطانها حتى شمل البلاد الجبلية الشمالية وما وراءها الى مدًى بعيد • وبفتحها لمصر بسطت حمايتها على الجهة

الغربية من وادي النيل الاسفل · ولكن هذه المنطقة من ملكها كانت منفصلة عن جسم الامبراطورية وبعيدة عن العمران فتعذَّر عليها ضبط شؤونها امدًا طويلًا وظلَّت حملات اشور وغزواتها جارية في مجرى الشدَّة والقوَّة حتى صارت اعظم مملكة رآها العالم منذ وُجد· ولم تكن دولة في الارض تجرأ على مناوأتها

(٢٣٤) نينوى عاصمة المملكة

ولم يكتفِ سنحاريب بتشييد الصروح الملكية العظيمة في اشور ودار سرجون بل وجَّه عنايتهُ الى مدينة نينوى شماليَّ اشور فجعلها عاصمة ملكهِ ، وتعاقب ملوك اشور على السرير وشيدوا على ضفاف دجلة القصور الباذخة والابراج الشاهقة (ش ٧٤)· وبلغ امتداد اسوار نينوى مقابل دجلة ميلين ونصف ميل ·وكان سنحاريب وهو جالس في قصرهِ الفخم المزخرف بالنقوش الجميلة يتولى ادارة الاحكام في البلاد التي دانت لسلطانهِ ويجمع منها الاتاوة

(٢٣٥) وسائل المواصلة وتنظيم مملكة اشور

وكان مكتب الملك مركز ادارة المملكة كلها · فعيَّن سعاةً خصوصيين واقام في الاماكن المهمَّة على الطرق السلطانية موظفين يقومون بانفاذ ارادتهِ الملكيَّة ، فغدا بهذا التدبير نقل الرسائل والغلال والسلع المختصَّة بالقصر الملكي امرًا مقرَّر الإجراء· فكان هذا النظام البريدي الذي عُمِل بهِ في الشرق بضعة قرون ، رائد نظام البريد الحالي[1] ·وبهذا الاسلوب كان الامبراطور يتناول الرسائل والتقارير من عمَّالهِ الستين على الولايات والالوية · ومن الملوك من قهرهم وابقاهم في مراكزهم بشرط ان يكونوا خاضعين لهُ مطيعين لاوامرهِ · وقد وجد الاثريون بين الانقاض شيئًا من تلك الرسائل مكتوباً على الاجرّ بعث بهِ سنحاريب وهو وليّ العهد الى والدهِ الملك سرجون · وكان جلُّ عناية الملك منصرفًا الى الاهتمام بالجيش ·لان المملكة لم تكن الاَّ عبارة عن قوَّة حربية وذريعة لحصد الارواح والتبسُّط في الفتح (ش ٧٥) · ولم يعرف الخَلق منذ وُجدوا دولة اشدَّ منها بطشاً ولا اعظم منها هولاً

(٢٣٦) مملكة اشور وعصر الحديد

مما مهَّد السبيل لادخال الحديد الى بلاد أشور ، المعاملات التجارية بين الاشوريين والحثيين الذين كانوا يقيمون الى الغرب من اشور (ف ٣٦٦) ولما استتب للاشوريين الحصول على المقادير اللازمة من الحديد صنعوا منهُ الاسلحة· فكانت جيوشهم اول جيوش تسلحت بادوات مصنوعة من الحديد · وقد وُجد في مخزن السلاح بقصر سرجون مئتا طنّ من الادوات الحديدية

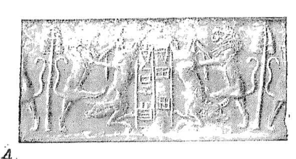
---

(١) لنا ادلة على ان هذا النظام كان معمولاً بهِ في زمن مصر نحو ٢٠٠٠ ق ·م·

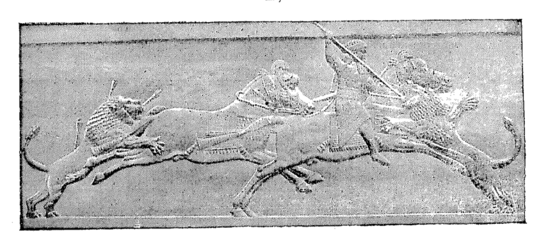
(٣٤٧) الحملة الاشوريين

وكان جيش اشور ينقدم الى الرماة عن القوس والرمَّاحة وحملة التروس (ش٧٧) وكانت فرسان نينوى ومركباتها مما تجف منهُ القلوب وترتعد لهُ الفرائص (ش ٧٦) . والاشوريون هم اوّل من استعمل المنجنيق وادوات الحصار الاخرى في افتتاح المدن (ش ٦٨) . فكانوا





A



B

الشكل ٧٦ حفر البابليين والاشوريين صورًا حيوانية

نرى في الرسم الاعلى (A) صنعة حفار الختوم المدهشة في ايام سرجون (ف ١٧٤) . وعند طرفهِ الايسر جلجميش البطل الملحمي (ف ١٧٩) سلف هرقل يقتل ثورًا يضافرهُ على ذلك البطل انجيدو الذي نصفهُ انسان والنصف الآخر ثور. ووراء ذلك نرى جلجميش وحدهُ يقتل اسدًا . وفي الختم الذي الى اليمين نرى اسدًا على الجانبين الماثلين في ترتيب النقش (ش ٦٠) يقتل ثورًا بريًا . وفي B الذي يمثل صيد الاسد، لنا نموذج من ابدع نماذج الحفر الاشوري النابي في زمن اشور بانيبال (ف ٢٣٠) نرى فيهِ جليًا التأثير الناجم عن حفر الحيوانات على الختوم البابلية القديمة قبل هذا الزمن بالفي سنة

يثغرون بها اسوار الاجرّ او يدكّونها دكًا . ولم تكن المدن المحصنة لتثبت امام الجيوش الاشورية ولديها ما لديها من ادوات التدمير والتخريب

وكانت جيوش اشور أنّى سارت وكيفما توجهت تلقي الخوف والرعب في القلوب نظرًا

(٢٢٨) هول الجيوش الاشورية

الى ما كان عندها من الاسلحة ومعدّات الحصار وما كانت عليهِ من شراسة الاخلاق والميل الى الفتك والتنكيل بالاعداء مما جعل سكان اسية الغربية يذوبون فَرَقاً ويقفون صاغرين امام جحافل نينوى التي كانت تنقضّ على الاعداء انقاض الصواعق وتغادر وراءها، انّى اتجهت قواتها ، اثار الدمار والخراب · فكانت تُعمل السلاح والنار في المدن والقرى التي تتناولها فتغادرها خراباً يباباً يملأ دخانها عَنان السماء · وكان الناظر الى انقاضها المنبعث من خلالها الدخان يرى صفوفاً من الخوازيق مركوزة في الارض يضعون عليها من يتهمونهم بالخيانة من العمال بعد ان يسلخوهم احياء · ويُرى حول الخوازيق كوَم اشلاء القتلى الذين كانوا يُقتلون احتفاء بالنصر الملكي وارهاباً لكل من يزيّن لهُ الغرور ان يثور على الحكومة . وكان سكان الممالك المقهورة يشاهدون من خلال سحب الغبار المنعقد اعمدة فوق السكك ، قطعان الضان والمعزى والخيل والحمير وقُطُر الجمال على طول الطريق حاملةً ذهب ممالكهم المغلوبة وفضّتها يتقدمها الزعماء حاملين على ظهورهم رؤوس الامراء المقتولين معلّقةً باعناقهم ووجهتهم القصر الملكيّ في نينوى . والاشوريون وان شاع عنهم أنهم قساة فليسوا باقسى من سواهم ممّن تقدّمهم او تلاهم من الامم · فلو تصفحنا تواريخ الشعوب المختلفة لوجدناها مخضّبة بالدماء . ورأينا ان القسوة التي وُصف بها الاشوريون لم تبرح الارض كما دلت حوادث هذا الزمان · واجلاء السكان عن الاوطان ، قصد اماتة روح التضامن الوطني بحيث لا يتمكن الناقمون منهم على الفاتحين من الدفاع وحماية الذمار ، لا يزال معمولاً بهِ حتى الآن الى حدٍّ لم يحلم بهِ الاشوريون في زمانهم · والحروب الدينية في اوربا واسية لم تكن تخلو من اعمال وحشية تتبرأُ منها الانسانية والمدنيّة . وكان زمان تلك الحروب عصراً بيعت فيهِ الارواح رخيصةً · فلا نُنحِ باللائمة على الاشوريين لقساوتهم في معاملة مغلوبيهم ناسين او متناسين ان البشر على اختلاف اجناسهم قد اقترفوا اعمالاً منكرة هي في منتهى القساوة والبربرية

(٢٢٩) تمدن المملكة الاشورية، صناعة البناء

ان الاموال التي كان يغنمها الاشوريون من الممالك التي افتتحوها، وان كانت ضرورية للقيام بمصالح الجيش ، كان يفرز جانب منها لمقاصد اسمى من إنفاقها في سبيل الحرب · لقد أُولع الاشوريون بتشييد المباني الفخمة على اختلاف ضروبها · فقد رأينا قبلًا في (ش ٧٤) ان قصورهم بلغت درجة سامية من الفخامة والاناقة مما يدل على ما كان عليهِ اصحابها من العظمة والسؤدد · واخذ الاشوريون عن البابليين فنّ بناء القناطر فصارت من مميزات مبانيهم الفخمة المهمّة في ذلك الزمان كما هي من مميزات مباني الشرق في وقتنا الحاضر · وزادوا على مرور الايام في اتقانها وإحكام بناء الابراج · وكانت القناطر الثلاثية (ثُلاثُ) التي

شيدوها عند مداخل قصورهم بالاجرّ الملوّن المرصّع بالمينا ، الذي احتذاهُ الرومان فيما بعد حينما بنوا اقواس نصرهم (ش ٢٠٢) . وكان على جانبي المداخل تماثيل ثيران هائلة ذات رؤُوس بشرية منحوتة من الرخام الابيض الشفّاف وجدران قامت عليها ابراج سامقة تُشاهد من جميع جهات المدينة الملكية (ش ٧٤)

(٢٣٠) التمدن الاشوري والصناعة

اما دواخل القصر فكان القسم الاسفل من الجدران مزداناً بالنقوش والصوَر الناتئة المنحوتة في الحجر الشفاف الممتدة مئات من الاقدام . (انظر ش ٧٢ و ٧٥ و B ٧٦ و ٧٧) وكلها تدل على ترقّي الصناعة (ش ٦٨) عما كانت عليه قبلاً ، وتمثل لعين الناظر الاعمال العظيمة التي قام بها الملوك

الشكل ٧٧ جنود اشورية في زمن الامبراطورية مأخوذة من الصوَر الناتئة في قصر اشور بانيبال

انهُ ببسالة هولاء الرماة الاشداء صارت اشور سيدة الشرق مدة قرن ونصف قرن (ف ٢٢٧-٢٢٨)

في ساحات الوغى والقنص (ش٧٥ و B ٧٦) الاَّ ان الصور البشرية كانت كلها على نمط واحد تجسَّم فيها الجمود والبرودة وفقدان الشعور · فلا تجد بينها صورة واحدة يظهر فيها اثر للشعور بالسرور او الكمد ولا باللذَّة او الألم · واما صوَر الوحوش البرية فكانت نفيسة لانها كانت تمثل طبائعها كما هي (ش٧٦) · وكان خُلق النمر يجري في عروق الاشوري حتى كيفما أعمل ازميلهُ في حجر برزت امامهُ صورة نمر · وكانت أمارات الالم البادية في صوَر بعض الحيوانات برهاناً على ترقي صناعة النحت التي يعود الفضل في اتقانها الى صوَر الاسود والثيران التي وُجدت محفورة على الختوم البابلية النفيسة ايام سرجون الاوَّل قبل هذا الزمان بالفي سنة . فان النحات الاشوري دقَّق فيها واحتذى مثالها في صنعهِ وتاتيهِ · اما صناعة نحت التماثيل فلم تتجاوز عندهم طور السذاجة والخشونة

(٢٢١) الاشوريون يأخذون عن غيرهم في الفنون والصناعة

وكان لا بدَّ لملوك اشور من الاعتماد على حذق الاجانب في الصناعات والفنون · فاخذوا عن المصريين صناعة تلوين الاجرّ وابلغوها درجة من الاتقان على اسلوب ممتاز خاصّ بهم · وبذلك وضعوا اساس صناعة اشتهرت بها اسية الغربية وبلاد الفرس في خوالي العصور · ولا تزال الالوان المستعملة حتى في الازمنة المتأخرة بينةً ناصعةً على تأثير الاشوريين الخالد · اما نماذج الزخرفة والزينة فقد اخذوها عن المصريين · واثاث البيوت سواءٌ كان من الابنوس او من العاج يدلّ على انهُ من اصل مصريّ وان كانت صنعتهُ ايدي الفينيقيين (ش ٧٨) · وعمل الصناع الفينيقيون في نينوى اطباقاً منقوشة من البرنز (ش ١٢٢) · قال سنحاريب انهُ كان في قصرهِ باب أُخذ رسمهُ عن احد ابواب قصر من قصور الحثيين وكان اسلافهُ قد استصنعوا الحثيين ابواباً



الشكل ٧٨ قطعة عاج من "سفنكس" مصري مجنح وُجد في احد قصور اشور

قِطع كهذه من العاج ، كانوا يستعملونها في ترصيع (تطعيم) الاثاث كما في شكل ٧١ · وهي من صنع ايدي الفينيقيين الذين كانوا مستخدمين لدى ملوك اشور (ف ٢٢١) وكان من عادة الصناع الفينيقيين ان يستعملوا رسوماً ورموزاً مصرية مركّبونها مع رسوم ورموز اشورية · فالحيوان المجنح وُجد اولاً في الصناعة المصرية ثم انصل الى الفينيقيين والحثيين في سورية · ومنها الى اشور حيث تطوّر اخيرًا الى صورة الثور المجنح الماثل الذي يزدان به مقدّم قصر الملك

رأوها في بلادهم الغربية (ش ٦٩) فاذا كان لملوك اشور ميزة على سواهم ، فتلك الميزة هي مقدرتهم على الانتفاع بما عند غيرهم من الموارد ٠ وغرس سنحاريب في الحدائق التي انشأها فوق نينوى وتحتها اشجاراً غريبة ونباتات من اجناس مختلفة اتى بها من انحاء شتى في مملكته الشاسعة ٠ وكان بين تلك النباتات جَنَبات القطن (شجيراتهُ) التي قال سنحاريب انها تحمل صوفاً يجمعونهُ ويمشطونهُ ويصنعون منهُ نسيجاً يصلح لعمل الثياب ٠ واصل شجيرة القطن من بلاد الهند أُتي بها الى العالم القديم وانتشرت زراعتها فيهِ انتشاراً عظيماً حتى صار القطن من اهم مواد التجارة الحديثة

«٢٢٢» شرائع اشور

تفرَّدت الهيئة الاجتماعية الاشورية بميزات خصوصية لم تكن في غيرها من القبائل الساميَّة وان كانت تشارك تلك القبائل في صفاتها العامة ٠ فقد عثر الاثريون على جزء من مجموعة شرائع الاشوريين التي زحزحت الستار قليلاً عن حياتهم العائلية في منتصف الالف الثاني ق٠م والمرجَّح انهم داموا على هذا النمط من العيشة حتى عصر الامبراطورية ٠ وقد امتازت شرائع الاشوريين عن غيرها من الشرائع القديمة بامرين الاوَّل انهُ لم يجيء فيها ان عقاب المجرم يجب ان يكون من نوع الجُرم الذي ارتكبهُ كالعين بالعين مثلاً والسنّ بالسنّ٠ والثاني انهُ لم يكن عندهم تمييز بين الامراء والسُّوقة في عقاب المجرمين منهم ، مما يظهر ان الاشوريين جميعهم كانوا في نظر القانون سواء٠ وكان عقاب من ينتهك الاعراض وحرمة الأسر شديداً وبلا رأفة٠ وعقاب الفاجر كعقاب الفاجرة بلا فرق٠ اما الزواج فكان منوطاً بالعروسين فقط لا دَخل لاحدٍ فيهِ سواهما٠ فكانت الزوجة ملك الزوج فِعْلاً يطلّقها متى شاء ويحرمها جميع ما ملكت يداها حتى الصداق وكانت الشريعة تحتم على نساء الاشراف والكبراء ان يتخمّرنَ ولا يبرزنَ في الاسواق وبين الجماهير سوافر ٠ فهنا نشأت عادة التحجُّب بين النساء وصار لها اهمية عظيمة في بلاد الشرق منذ القديم حتى الآن

«٢٢٣» اثار اشورية تاريخية ومكتبة اشور بنبال

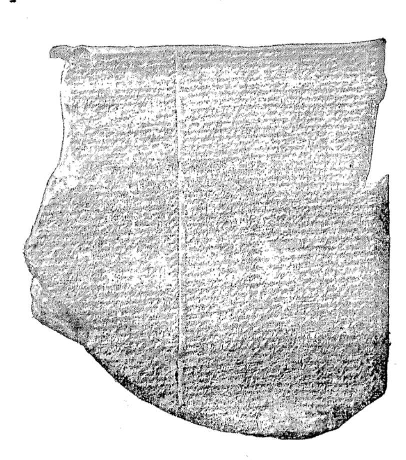
وكان للاشوريين ولع بالامور العالية كالآداب التي ازدهرت بينهم وكان لها شأن خطير في هيئتهم الاجتماعية ٠ ولم يقلّ كلفهم بكتابة تواريخهم — ولا سيما ما تعلق منها بحروب ملوكهم — عن كَلَفهم بالآداب ٠ وقد اتصل الينا كثيرٌ من اخبارهم التاريخية مفصَّلة ومنسَّقة سنة فسنة وخصوصاً ما يتعلق بحروب الملوك وفتوحهم ومبانيهم ٠ الاَّ ان معظم تلك الاخبار — كاكثر الاخبار الرسمية — كان يقصد بهِ نشر دعوة او ترويج مبدإ بحيث يفهم معاصروهم ان لا قوَّة تستطيع انتناوئهم ٠هذا فضلاً عن تخليد اسم عظيم لأعقاب الأسرة المالكة ٠وكان من عادةِ مؤرخي ملوك اشور ان يدوّنوا كل سنة ملخّص حوادث السنين الغابرة، ويسهبوا في تدوين حوادث السنين التي يكتبون فيها تواريخهم ٠وبما ان تلك

الملخّصات كانت تتكرّر كتابتها سنة بعد سنة فقد جنح الكتبة الى الغلوّ في ما كانوا يوردونهُ من الحوادث القديمة. فكانوا يعزون الى ملوكهم الاحياء غزوات حربية كان قد قام بها اسلافهم الاقيال في غابر الازمان . وكان كلما تكرّر نسخ عدد القتلى والاسرى والغنائم مرّة ، يزيد عما كان في المرّة السابقة حتى صار الفرق بين النبإ الاوّل الاصلي والاخير عظيماً جدًّا وبعيدًا عن الحقيقة . وعلى هذا النمط جرى مؤرخو ذلك الزمان والذي قبلهُ وبعدهُ حتى ان المؤرخ الحديث يكاد يضل عن الحقيقة اذا تناول الانباء كما جاءت دون تمحيص او عرض على محكّ النقد لمعرفة صحيحها من فاسدها سواء كانت مما يتعلّق بالشؤون الدينية او الدنيوية . ولم يكن احد يترفّع عن تعلّم صناعة الخط حتى ولو كان من افراد الاسرة المالكة بدليل ان اشور بانيبال حفيد سنحاريب وآخر ملوك الاشوريين كان يباهي بأن اباهُ الملك لم يقتصر في تهذيبهِ على الفراسة واتقان الرماية عن القوس بل علمهُ ايضاً الكتابة على الاجرّ وخرّجهُ في علوم زمانهِ . وقد وجد الاثريون في مكتبة هذا الامبراطور في نينوى اثنين وعشرين الف اجرّة بقيت مطروحة على ارض المكتبة مدة الفين وخمس مئة سنة حتى نُقلت الى المتحف البريطاني حيث لا تزال محفوظة. وهي في مواضيع مختلفة ما بين دينية وعلمية وادبية جُمعت ونُسّقت بامر الامبراطور (ش٧٩) . وهي اوّل مكتبة منظمة وجدت في اسية فيما نعلم . وقد فاق الاشوريون البابليين في مضمار العلوم والآداب فلم يكونوا فقط مجرّد نَقَلة عنهم

(١٣٤) التنظيم الملكي الاداري

وفاق الاشوريون اسلافهم البابليين حتى والمصريين ايضاً في تنظيم البلاد اداريًا . فان المصريين اكتفوا بأن يكون امراء البلاد والمدن التي افتتحوها موالين لهم دون ان يتجاوزوا هذا الحدّ في ادارتهم ، اما الاشوريون فسنّوا الانظمة المتقنة للبلدان التي قهروها . فاذا اتقدت نيران الثورات وتقوّضت دعائم السلم في اية بلاد كانت من مملكتهم المترامية الاطراف ، كانوا بموجب النظام المسنون ، يخلعون الامراء الوطنيين من مناصبهم ويولون حكاماً اشوريين من اهل العاصمة ، بدلاً منهم . وكانوا بين حين وآخر يضيّقون نطاق الولايات مخافة ان يقوى احد الولاة فتزيّن لهُ النفس ، القيام بحركات وطنية عدائية ضد مولاهُ الظالم . وكان من واجبات كل عامل من عمال الملك في مملكتهِ الواسعة ان يبلّغ الحكومة المركزية بوجه السرعة جميع ما يقع من الحوادث ذات الشأن في ولايتهِ. وكان من اهمّ واجباتهِ بعد حفظ النظام ، وضبط الاحكام ، ان يقوم بجباية الضرائب من البلدان التابعة للامبراطورية والاتاوات من ولايتها الاصلية فيحسم من مجموعها النفقات المحلية ويبعث « بالرصيد » — وقد كان فادحاً — للقيام بنفقات الهياكل والجيش . ولم تكن

الشكاوى التي وجّهها الراي العام الى الاشوريين ناجمة عما استباحوهُ لانفسهم من انواع القساوة البربرية والتنكيل بالاعداء إبان فتحهم للبلدان بقدر ما كانت من اجل سوء ادارتهم وتصرفهم في المملكة التي شيدوها . فقد كانت غايتهم الاولى والعظمى من البلدان التي افتتحوها ابتزاز الاموال وجرّ المغانم تعظيماً لشان الملك والآلهة والحكام. وقد فاقوا في هذه سائر الامم . وكانت غايتهم من سن النُظُم والشرائع للبلدان التي قهروها جرّ المغانم لانفسهم . ولم يخطر لهم قطّ ببال ان يسنُّوها لترقية الشؤون الصناعية والتجارية كما تفعل بعض ممالك هذا العصر في البلدان التي تبسط عليها حمايتها او تنتدب لتدريبها على نيل الاستقلال



الشكل ٧٩ شذرة من حكاية بابلية قديمة عن الطوفان مأخوذة من مكتبة اشور بنيبال في نينوى

ان هذه البلاطة الكبيرة هي جزء من كتاب بالخط المسماري الاشوري مؤلف من سلسلة بلاطات مثلها . وتتمشى فيها قصة الطوفان (ف ١٦١) على النسق الآتي : قيل ان البطل أُتنا يِشتِم ، بنى فلكاً عظيماً ونجا من طوفان مهلك باد فيه جميع مواطنيه . وكان على كل كتاب اجرّ ضمة اشور بنيبال الى مكتبته ، علامة الملك ، على نسق ما يفعل اصحاب المكاتب اليوم (ف ٣٢٣) . ومنعاً لاي شخص كان من ان يأخذ الكتاب او يدوّن اسمه عليه كان يكتب على كل كتاب علاوة على العلامة المخصوصة ، هذا الكلام "كل من يأخذ هذه البلاطة او يكتب اسمه عليها بجانب اسمي يحل عليه سخط اشور وبيلت وغضبهما ويقرض اسمه وذريته من البلاد"

٣٢٥) فساد داخلي وتأخر اقتصادي وزراعي

لقد ارتكب ملوك اشور — كما ارتكب غيرهم من الحكام الذين جاءوا بعدهم — خطأً جسيماً في سياستهم ، لان الحروب التي اوقدوا نارها لغاية الفتح ادّت الى ابادة الايدي العاملة الجالبة للثروة سواء كان ذلك في مملكتهم او في الممالك التابعة لهم ومع اهتمامهم بادخال

القطن الى البلاد ، لم يبذلوا شيئاً من الجهد لتعزيز الصناعة والتجارة كالبابليين . فكان سكان البلاد على وجه التعميم اهل زراعة . وحين كانت الامبراطورية لا تزال ضيقة النطاق — بالنسبة الى ما صارت اليه بعد ذلك — كانت الحكومة تكتفي بدعوة الفلاحين الى الخدمة العسكرية مدة يسيرة كل سنة لحماية الثغور . ولكن بعد ان اتسع نطاقها امست الخدمة العسكرية الموقتة غير كافية للقيام بما تقتضيه الحال من الخدمة العسكرية فاضطرت الحكومة الى ان تدعو الفلاحين من مزارعهم وحقولهم الى الانتظام الدائم في سلك الجيش الذي كان يتعاظم شأنهُ مع مرور الايام حتى غدت اشور عبارة عن جيش لا مملكة . ولما كان عدد الفلاحين يتناقص بانخراطهم في سلك الجيش كان الحكام يبتاعون الحقول المهملة ويؤلفون منها مزارع (عُزَب) . ولما رأى الملك سرجون ان الاراضي بائرة والقنوات مهملة عمد الى ارجاع الفلاحين الى حقولهم ومزارعهم . ولكن مملكة كاشور مترامية الاطراف لم يكن ليكفيها جيش واحد للذود عن حياضها

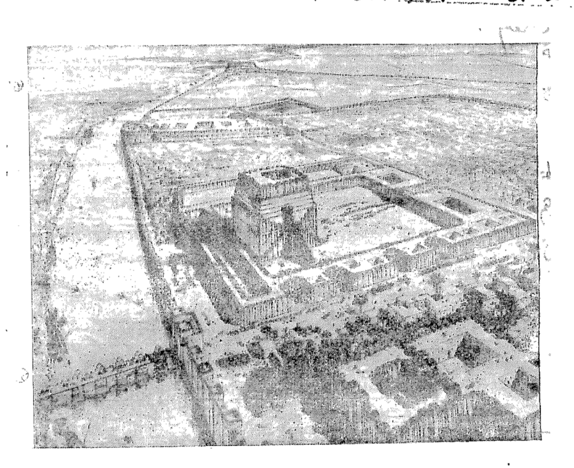
(٢٣٦) جنود اجانب في الجيش . زمام التجارة بيد الارامين

وحين كانت ترد الانباء من انحاء المملكة المختلفة منذرة بالثورات كان الحاكم في نينوى — وهو في المأزق الحرج — يُكرهُ رعايا الممالك التابعة لهُ على التجنُّد في جيشه . وكان العمال على الولايات المختلفة في الوقت نفسه ، ينظّمون جيوشاً من تلك الولايات للدفاع عن اوطانهم الاّ انهم كانوا يرسلونها احياناً لتعزيز جيش المملكة . واعتاد الاشوريون حين كانوا يقهرون جيوش الاعادي ان يضموها الى جيشهم ويولُّوا ضباطها الى رتب عالية في جيش المملكة . فصار الجيش الاشوري خليطاً من جنود الامبراطورية الشاسعة لا جيشاً وطنياً صِرفاً تجيش في صدره المحبة الوطنية . ولما صار الجيش الى هذه الحال الخطرة ، وبارت الحقول ، وكسدت سوق الصناعة ، وغدا زمام التجارة بيد الارامين الذين شاعت لغتهم في مدن المملكة باسرها حتى في قلب العاصمة نينوى ، فقدت البلاد قوّتها المعنوية الداخلية

(٢٣٧) غزوات من الخارج . مجيء الكلدان من الصحراء

وعلاوة على الضعف الداخلي الذي مُنيت به المملكة الاشورية دهمها خطرٌ جديد من الخارج يهدّد كيانها وينذرها بالويل والثبور . فكما جاءها الخطر قديماً من البادية كذلك جاءها هذه المرّة من جانبي الهلال المخصب ، من القبائل الارامية التي اجتاحت اقاليم مختلفة من المملكة حتى اضطرَّ سنحاريب الى مواقعتهم . وقد ادَّعى بانهُ ، في احدى حملاته عليهم ، اخذ من بابل مئتي الف اسير معظمهم من الارامين . وكانت قبيلة اخرى في نفس الوقت ، ترحف زحفاً بطيئاً الى جهة راس خليج فارس ولما وصلت نزلت على سواحله بجوار حضيض الجبال الشرقية . وكان اسم هذه القبيلة « كلدي » وهي المعروفة عندنا بالكلدانيين . وكان هؤلاء من القبائل الساميّة الرحّل الذين ارادوا اعادة تمثيل الرواية التي مثلها قبلهم

الاكديون (١٧٢) والاموريون (ف ١٨١) والاشوريون (ف ٢٠٧) فانتشروا في عرض البلاد وطولها واحتلوا بابل وجعلوها المركز الاول لديهم . ومن هذا الحين هب بنو بلاص ملك الكلدانيين الذي كان من اتباع ملك اشور، وقلب اتبوعه الاعظم، مليك اشور، ظهر المجن وزحف بجنوده الى اشور نفسها......



الهيئة الاصلية لمدينة بابل في ايام نبوخذ نصّر (على ما يظن كولدوي)

البرج الذي يرى في صدر الصورة هو هيكل مر ودخ الفخم الذي تحيط به ابنية أخرى وهيا كل "الحي المقدس" في القسم الجنوبي من المدينة . وحكاية برج بابل التي توارثها اليهود متحدّرة من برج بابل هذا ومن برج آخر قبله كان مبنياً في هذا الموقع عينه . اما الابنية التي ترى في مؤخر الرسم عند اول منعطف في النهر فهي عبارة عن قصر نبوخذنصّر والجنات المعلقة . والى الجانب الشرقي من حيّ الهيكل يمتد الشارع المعروف بشارع الاعياد شمالاً الى ان يتصل بالقصر وبباب هيكل الالاهة عشتاروت على الجانب الشرقي من القصر و يمتد فوق الفرات الجاري غربي المدينة جسرٌ يعدّ اقدم الاعمال الهندسية المعروفة لدينا ويرجع تاريخه الى القرن السادس ق. م . ولا تزال ركائزه الخربة ماثلة في مجرى النهر الجاف الآن . واما الاسوار المنيعة الهائلة التي تحدق بالمدينة فمن اعمال بنوخذنصر وقد قضى الالمان نحواً من عشرين سنة دائبين في الحفر والتنقيب حتى استطاعوا ان يضعوا رسم المدينة بابل بهيئتها الاصلية على ما خُيّل لهم .

(٢٣٨) غزوات من الخارج . شعوب هندية اوربية من الجبال الشمالية

وكانت جيوش جرّارة من الشعوب الهندية الاوربيــــة تزحف من الشمال (ن ٢١) على بلاد اشور تتقدمها قبائل مادية وفارسية (ف ٢٥٩) فكان هذا الزحف مدعاةً لزعزعة مملكة اشور من أُسسها وباعثاً على الخوف والقلق ومجلبة الرعب لسكان اسية الغربية لانهُ كان بين تلك الجيوش الجرّارة عــدد كبير من السكيثيين الذين قدِموا من سهول اوربا الجنوبية، وانتشروا في ارض سورية وما بين النهرين يعيثون فسادًا ويُلقون الرعب في قلوب الناس جيلًا كاملًا كما فعل المغول بعد ذلك بالفي سنة، بقيادة تيمورلنك المعروف . وربما كان عنف هولاء وظلمهم لسكان اسية الغربية ، الباعث الذي حدا بالذين كانوا قبلًا قد سيموا خسفاً وضُربت عليهم الذلة من جانب الاشوريين ، على ان يهبُّوا هبة واحدة لنصرة اشور قبل سقوطها النهائي لاعتقادهم انها هي الحامي الطبيعيُّ لهم من اولئك البرابرة الطغاة ، حتى الملوك الذين كانوا منذ عهد قريب قد قلبوا لاشور ظهر المجنّ وخلعوا عنهم نيرها الثقيل، قاموا الآن وانضموا الى الاشوريين يحاربون معهم الكلدانيين وغزاة الشمال . وكان الاتحاد الاشوري المصري ممَّا اقتضتهُ الحال لان الماديين والكلدانيين كانوا قد حالفوا السكيثيين المكروهين الاَّ ان مساعدة مصر لم تكن لتجدي اشور نفعاً لان سوس الفساد كان قد اخذ ينقر قلبها . وبدت عليها امارات الضعف والانحطاط . وشعرت بأنها عاجزة عن مناوأة الاتحاد المثلَّث الذي بعد ان دمَّر مدينة اشور القديمة شدّ على نينوى نفسها [1] واصلاهـــا بهجماتهِ المتكرّرة نارًا حامية

(٢٣٩) سقوط اشور . تدمير نينوى

من فم النبي العبراني ناحوم(ص٢ : ٨ و ١٣وص ٣كلهُ) نسمع صدى هتاف الامم الذي رددتهُ الارجاء من قزبين الى النيل حين تُسُومع أنَّ بليَّة الشرق قد هبطت من أَوْج العظمة الى حضيض الذل ولا تقوم لها قائمة الى الابد . وحين مرَّ، بعد ذلك بمئتي سنة، اكزنيفون اليوناني بجيشهِ البالغ عشرة آلاف جندي، كانت الامة الاشورية قد امست في خبر كان ومدينتها نينوى ركاماً مركوماً وخراباً يباباً كما هي الآن(ش٢٠٩)وكانت اللغة الاشورية قد زالت وحلَّ محلها اللغة الارامية في جميع جهات اشور الاصلية بل اوشكت ان تصير لغة بابل ايضاً (ف٢٧٣) الاَّ ان بقيَّة القوات الاشورية – بعد تدمير نينوى ونقل مركز المملكة الى حاران فيما بين

---

(١) ان البيان المدرج اعلاهُ عن سقوط نينوى ، يتبعهُ نبأ الاتحاد مع مصر والتاريخ الجديد لسقوط نينوى بايدي اعدائها (سنة ٦١٢ بدل ٦٠٦ ق . م .) ، مبني على نبذة نشرت حديثًا منقولة عن تأريخ بابلي جديد محفوظ في المتحف البريطاني يوضح جليًا الفترة التاريخية بين ٦١٦ و٦٠٩ ق م. التي لم نكن قبلاً نعرف عنها شيئًا . ومتاحف العالم ملعمنة بتواريخ مثل هذه لم تطبع بعد . وكلها مأخوذ من الشرق . وكلما طبع ونشر شيء منها سنة فسنة ، زادت الصورة المعنوية لحياة الانسان القديم جلاء وكمالاً

النهرين – ظلت تواقع الاتحاد السكيثي البابلي والفشل حليفها حتى مُنيت حاران ، بعد بضع سنين ، بما مُني به غيرها من عوامل التدمير والتخريب (٧١٢–٦١٢ ق.م). وبذلك تلاشت آخر قوات الاشوريين

٢٤٠) التقدم الذي حصل بواسطة دولة اشور

سقطت اشور سقوطاً سريعاً هائلاً ولكنها غادرت امم اسية الغربية في حالة تختلف جداً عن الحالة التي وجدها عليها ملوك اشور الأُول لانَّ تلك الامم المختلفة المحيطة بالطرف الشرقي من البحر المتوسط كانت قد أُكرهت ان تعنو لحكم ملك واحد مطلق السلطان على مملكة عظيمة كان قد طرأ على طرق تنظيم ادارتها كثير من التحسين . والحقيقة ان مملكة الفرس قد تأسست على النظام الاشوري (ف ٢٦٨) بعد سقوط نينوى بستين سنة . وكانت دولة اشور ولا سيما في ايام مجدها العسكري اوَّل دولة خطر لها ان تشمل سيطرتها العالم باسره وخطت في هذه السبيل خطوة مهمة . الاَّ ان هذه الامنية لم تتحقَّق لها تماماً لكنها تحقَّقت للرومان في زمن الامبراطورية . ومهما كان عليه الاشوريون من الخشونة والشراسة ، نرى ان المدنية في زمانهم قد ترقت كثيرًا عما كانت عليه قبلاً . فهم بُناة الصروح الجميلة والقصور الفخمة في نينوى وضواحيها ، وهم اوَّل من عزَّز فنَّ البناء في اسية وشيد المباني العظيمة ، وفوق ذلك كلهِ لقد كان في حيازة نينوى اولى المكاتب المعروفة . واخيرًا نقول ان سيادة اشور اوجدت حالة دُولية مكَّنت اليهود من ان يبلغوا اسمى درجات التصور والفهم من جهة الههم اذ كانوا يأثلونهُ باله اشور اله الحرب العظيم

٣٠

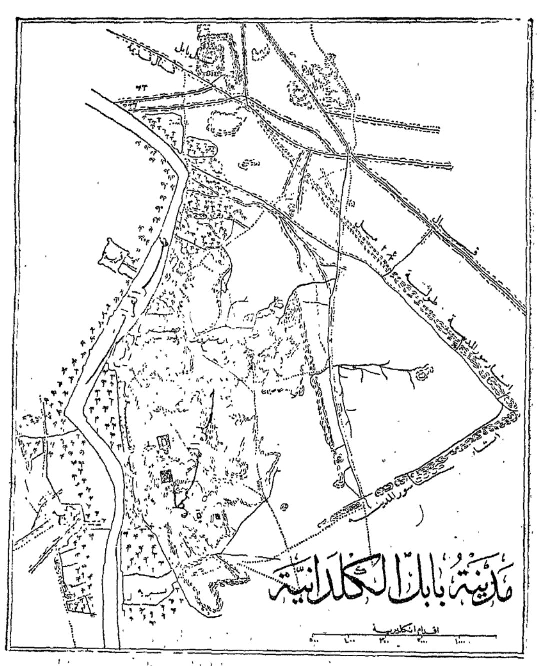
الامبراطورية الكلدانية : الامبراطورية السامية الاخيرة

٢٤١) قيام دولة الكلدان

انشا الكلدانيون اسياد بابل الجدد ، امبراطورية تاريخها – على قِصَرهِ – يَشغل الفصل

(١) ان الفصول الثلاثة الكبيرة التي تبحث عن بلاد ما بين النهرين هي :
(١) مملكة بابل الاولى (القرن الحادي والثلاثون الى الخامس والعشرين ق . م . سرجون الأول نحو ٢٧٥٠ ق . م . وحمورابي نحو ٢١٠٠ ق . م .) (ن ١٤–١٧)
(٢) مملكة اشور (من نحو ٧٥٠–٦١٢ ق . م .) (ن ١٩)
(٣) الامبراطورية الكلدانية (من نحو ٦١٢–٥٣٩ ق . م .) (ن ٣٠) وكانت هذه المدات الثلاث الاَّ قليلاً من الاولى زمن السلطة السامية . ويمكن ان يضاف اليها في المستقبل مدة رابعة كان فيها زمام السلطة والسيادة بيد الساميين وتلك المدة هي زمن انتصار الاسلام في القرن السابع بعد وفاة النبي

الثالث من تاريخ ما بين الرافدين وهم آخر من تسلط من الساميين على بلاد بابل فاعادوا بنيان المدينة بابل التي كان سنحاريب قد دمَّرها وجعلوها عاصمة مملكتهم (ف ٢٢١) ودعوا البلاد كلها باسمهم فصار اسمها كَلْديَّة . وكانت تشتمل على جميع اراضي الهلال المخصب . اما الماديون فظلوا محتفظين بالبلاد الجبلية الواقعة في الشمال



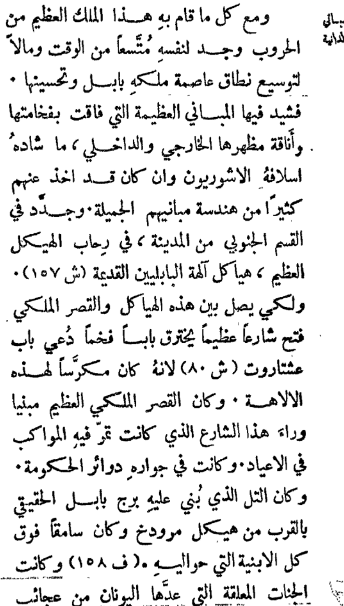
مدينة بابل الكلدانية

(٢٤٢) ملك نبوخذنصر (٦٠٤ الى ٥٦١ ق م)

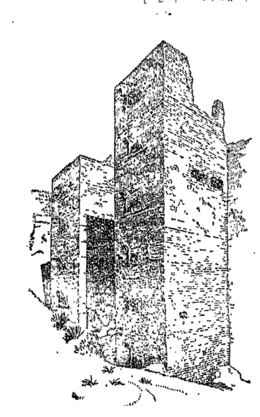
كان نبوخذنصر اعظم ملوك الكلدانيين . ملك في بابل من ٦٠٤—٥٦١ ق.م وكان ملكهُ موصوفاً بمجالي الابهة ومظاهر القوة فحُسب من افراد الرجال في تاريخ الشرق . يويد ذلك ما جاء عنهُ في التوراة . وكانت مصر بين حين وآخر تحرّض سكان البلاد

الغربية على شق عصا الطاعة لهُ واضرام نيران الفتن· فحمي غضب نبوخذنصَّر عليهم وعاقبهم عقاباً شديدًا ولا سيما اليهود سكان مملكة يهوذا الصغيرة الذين اجلى كثيرين منهم الى بابل بعد ان دمَّر عاصمتهم اورشليم تدميرًا (٥٨٦ ق·م)

(٣٤٣) مباني بابل في عهد الكلدانية الجديدة



ومع كل ما قام بهِ هذا الملك العظيم من الحروب وجد لنفسهِ مُتَّسعاً من الوقت ومالاً لتوسيع نطاق عاصمة ملكهِ بابل وتحسينها · فشيد فيها المباني العظيمة التي فاقت بفخامتها وأناقة مظهرها الخارجي والداخلي، ما شادهُ اسلافهُ الاشوريون وان كان قد اخذ عنهم كثيرًا من هندسة مبانيهم الجميلة· وجدَّد في القسم الجنوبي من المدينة، في رِحاب الهيكل العظيم، هياكل آلهة البابليين القديمة (ش ١٥٧)· ولكي يصل بين هذه الهياكل والقصر الملكي فتح شارعاً عظيماً يخترق باباً فخماً دُعي باب عشتاروت (ش ٨٠) لانهُ كان مكرَّساً لهذه الالاهة · وكان القصر الملكي العظيم مبنيا وراء هذا الشارع الذي كانت تمرُّ فيهِ المواكب في الاعياد· وكانت في جوارهِ دوائر الحكومة· وكان التل الذي بُني عليهِ برج بابل الحقيقي بالقرب من هيكل مرودخ وكان سامقاً فوق كل الابنية التي حواليهِ ·(ف ١٥٨) وكانت الجنات المعلقة التي عدَّها اليونان من عجائب الدنيا السبع، تتوِّج القصر الملكي فتزيدهُ جمالاً وبهاء وتطلّ على باب عشتاروت فتكسب الوابهُ رونقاً ورُواء· وكان الملك ينتاب هذه الجنات مصحوباً بسيدات قصرهِ ترويحاً للنفس وتمتيعاً للنظر بما ينكشف لعيونهم من جمال المدينة وارباضها · وهكذا صارت مدينة بابل ذات آثار عظيمة الاعتبار كمدن اشور ومصر (ف ١١٨)

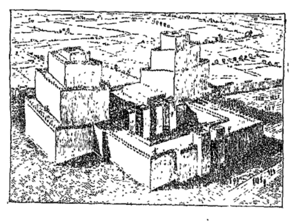


الشكل ٨٠ باب عشتاروت في حيّ القصر من مدينة بابل في زمن الامبراطورية الكلدانية . القرن السادس ق· م .)

هذا الباب الذي نبشهُ الالمان اهمّ بناية لا تزال قائمة في بابل حتى الآن. ليست ترميماً مثل (ش١٥٧) والابراج التي على جانبي الباب مزدانة برسوم الحيوانات على قرميد ملوَّن ملبس بالمينا كالمستعمل في قصور اشور· وقام وراء هذا الباب قصر نبوخذنصر الفاخر متوَّجاً بالجنائن التي انشئت على سطحهِ ودُعيت بالجنائن المعلقة (ف ٣٤٣)

(٣٤٤) اتساع بابل الكلدانية واعمال الحفر الحديثة فيها

هذه هي المرّة الاولى التي رأت فيها بلاد بابل مدينة عظيمة جدًّا في ارضها · فقد وسّع نبوخذ نصر نطاق مدينة بابل وحصنها بالاسوار الضخمة المنيعة تأميناً لها من مهاجمة الاعداء· ومن جملة تلك الاسوار سورٌ عند اعلى المدينة كان يمتد من نهر الى نهر · هذه هي بابل التي بناها بنوخذ نصر· هذه هي المدينة التي بهرت بجمالها وبهائها هيرودوتس حين زارها بعد هذا الوقت باكثر من قرن من الزمان كما يتضح من وصفهِ لها حين كتب عنها · وهذه هي بابل التي اضحت معروفة لدى المسيحيين بأنها مدينة سبي اليهود (ن ٣١) ولكن لم يبقَ لنا الاَّ القليل من بقايا مجدها وعزّها الغابرين اللذين جعلا شهرتها ملء الخافقين · اما اعمال الحفر فيها التي دامت من ١٨٩٩ الى ١٩١٧ فقد كشفت لنا بنساية إثرَ اخرى· وما تلك الابنية الاَّ انقاض مـا ابقتهُ الدهور من مبانيها· وكان في ما كشفتهُ اعمال الحفر، الشارع العظيم الذي كانت تمرُّ فيهِ المواكب إبّان الاعياد ، وباب عشتاروت العظيم (ش ٨٠) وهو البناء الوحيد في جميع بلاد بابل الذي تستحق بقاياهُ الذكر والاعجاب . واما في بقية الاماكن فلا يشاهد الاَّ اجزاء متهدّمة من جدران الاجرّ التي لا تنبئُ عما كان عليهِ السكان من العزّة ورفعة الشأن حين كانوا يملأون شوارع المدينة والمباني العمومية غادين ورائحين



الشكل ٨١

يرينا هذا الرسم هيكلاً اشوريًا في اشور كما رسمهُ الذين نبشوه ووراء دار الهيكل كان قدس الاقداس وعلى كل من جوانبهِ قام برج يُرقى اليهِ بطريق لولبية على النمط البابلي القديم (ف ١٥٨). ومن هذه الابراج تعلم اهل الارض قديمًا بناء الابراج الذي انتهى اخيرًا ببناء قبب للكنائس ومآذن للجوامع التي برج هيكل بابل هو جدها الاعلى (ش ٢٣٤)

(٣٤٥) مدنية بابل الكلدانية

والظاهر ان الكلدان تشرَّبوا روح التمدن من بلاد بابل كما فعل قبلهم الذين اجتاحوا هذا السهل من الساميين الاولين (ف ١٨٣ و ١٨١) . فزهت التجارة وراجت الاعمال وتقدمت الفنون والصنائع وترقَّت الآداب والديانة. تشهد بذلك الاخبار المدونة على الآجرّ بالخط الاسفيني القديم

(٣٤٦) علم الفلك والتنجيم

ولقد نجح الكلدانيون في علم الفلك نجاحاً يذكر وقد كانوا قبلًا مولعين بعلم التنجيم لكشف اسرار الغيب بمراقبة الاجرام السماوية (ف ١٩٨) فثابروا عليهِ وتعمقوا فيـهِ ·

فكانت نتيجة ثبارهم عليهِ انهُ ولَّد لهم علم الفلك٠ فقسموا خط الاستواء الى ٣٦٠ درجة ورتبوا الكواكب مجاميع اثني عشر دعوا كل مجموع منها برجاً وسمَّوها كلها منطقة البروج ٠ وهذه هي اول مرَّة صنعت فيها خريطة للاجرام السماوية

(٢٤٧) اصل اسماء السيارات

وكان الكلدان يحسبون السيارات الخمس المعروفة في ذلك العهد (وهي عطارد والزهرة والمريخ والمشتري وزُحل) قوات ذات سلطة خصوصية على احوال البشر فحسبوها آلهتهم الخمسة ٠ وقد وصلت الينا اسماء تلك الآلهة فاذا هي اسماء السيارات ٠ الاَّ ان الاوربيين غيَّروها الى اسماء رومانية فصارت عشتاروت ، الاهة الحب ، الزُّهرة ٠ وصار مرودخ ، الاله العظيم ، المشتري ٠ وهكذا قل في بقيتها ، وتقدم المنجمون في ارصادهم تقدماً محسوساً وبلغوا في الرصد درجة عظيمة من التدقيق حتى توصلوا الى معرفة الإنباء بالكسوف والخسوف ٠ووصلت ارصادهم هذه الى اليونان ٠فاسسوا عليها علم الفلك الذي ابلغوهُ درجة تذكر من الترقي ٠ ولا تزال بقايا صناعة التنجيم بادية في احاديثنا العادية فاننا لا نزال نذكر في كلامنا طوالع السعد والنحس

(٢٤٨) الميل الشرقي لاحياء الماضي

ويستطيع الناظر الى المباني الجديدة في بابل ان يرى كيف رفع هذا العصر الكلداني بلاد بابل الى مستوًى جديد من التمدن اعلى من المستوى الذي بلغت اليهِ اشور في زمانها٠ ومع ذلك خُيّل للكلدانيين انفسهم انهم ليسوا الاَّ مجدّدين للتمدن البابلي الذي ازدهر في عصر حمورابي٠ فمال كتبتهم الى استعمال نوع من الكتابة قديم العهد جدّاً فاستعملوا في كلامهم اساليب في التعبير اكل الدهر عليها وشرب ٠ وحفر ملوكهم أنفاقاً تحت اساس الهياكل وبحثوا السنين الطوال على امل ان يعثروا على الآثار الكتابية التي كان يتركها الملوك الاقدمون لمن يخلفهم على عروشهم كما يترك الان من يشيدون الابنية المهمة شيئاً من الآثار المكتوبة ، في حجر زاوية البناء (ف ١٦٦)

(٢٤٩) تأخر الشرق

(ان اعتماد هولاء الشرقيين على الماضي ومحافظتهم عليهِ كان علّة تأخرهم ٠)فبعد وفاة نبوخذ نصر (٥٦١ ق٠م) الملك الذي بلغت الحضارة الكلدانية في ايامهِ اوج عظمتها ظهر ان بلاد الشرق قد بلغت منتهى مداها في الحضارة فاستولى عليها الضعف بعد تلك القوَّة والخمول بعد ذلك النشاط العجيب ٠فلم يبقَ في طوقها ان تجري الى الامام في مضمار المدنية كما جرت في مدة ثلاثة اعصر عظيمة في وادي النيل وثلاثة اعصر مثلها على الرافدين فكان ذلك نذيراً بقرب زوال السيادة من الشعوب السامية وانتقالها الى شعوب أُخرى من الجنس المسمى بالهندي الاوربي (ف ٢١) ولما جاء ملء الزمان انتزعت السيادة من ايدي القوم

الرحل سكان البادية وسُلِّمت الى شعب جبليّ شديد قدم من الجبال الشمالية والشرقية. فنترك الآن الشرقيين وشأنهم ونوجه انظارنا الى هذا الشعب الجديد

مسائل

١٨

الى اين يؤدّينا الفصل الثاني من تاريخ الرافدين ؟ صف البلاد التي حول اشور . من اسّس اشور ومتى ؟ من اين اخذ الاشوريون مبادئ تمدنهم ؟ هل كانت اشور معرّضة للتأثيرات من الشمال ؟ ماذا كانت النتيجة ؟ من كان خصوم اشور في الغرب ؟ اخبر ما تعرفهُ عن الاراميين وعما عملوهُ ؟ ما هو الشيء الذي نقلوهُ الى اسية الغربية كلها ؟ ما منع اشور من الوصول الى البحر المتوسط ؟ ماذا كان قد انتج التمدن الاشوري الى هذا الوقت ؟ ماذا كشفت لنا اعمال الحفر الحديثة تحت القصر في اشور ؟

١٩

اية مدينة حالت خصوصاً بين اشور وفتحها الغرب ؟ متى وقعت دمشق بيد اشور ؟ ماذا كانت نتيجة ذلك في الغرب ؟ من هو مؤسس الاسرة الامبراطورية الاشورية ؟ صف مدينتهُ الجديدة . الى اين امتدّت المملكة الاشورية ؟ كيف سارت حكومتها ؟ ماذا تعرف عن الحروب الاشورية وعن صناعة البناء والنحاتة عندهم ؟ هل ذلك كلهُ من اصل اشوري ؟ ماذا تعرف عن ملك سنحاريب سواء كان في الحرب او في تشييد المباني او في اشياء اخرى ذات شأن ؟ ماذا تعرف عن اشور بانيبال ؟ ما هي المخاطر الداخلية والخارجية التي آلت الى سقوط اشور ؟ ايّة شعوب دمرت نينوى ؟ ومتى ؟ ماذا جرى على اخربة المدينة ؟ ايُّ تقدم نجم من حكم مملكة اشور ؟

٣٠

ايَّة مملكة مثَّلت الفصل الثالث من رواية تاريخ بلاد الرافدين ؟ من اسّسها ومتى ؟ من اين اتى شعبها ؟ من كان اعظم ملوك الكلدانيين ؟ ماذا عمل في حربهِ ؟ ايُّ شعب اجلاهُ عن بلادهِ ؟ صف مبانيهُ في بابل . هل كان في بلاد بابل مدن كبيرة قبل عصرهِ ؟ عمَّن اخذ هندسة البناء في اثناء تشييدهِ قصرهُ ؟ ماذا جرى لمبانيهِ ؟ في اي علم تفوَّق الكلدان ؟ اية اسماء فلكية تحدَّرت الينا منهم ؟ هل قدروا ان ينبئوا بالخسوف والكسوف ؟ من اي جنس كان الكلدانيون ؟ اي جنس من الناس خلفهم في الزعامة الشرقية ؟

الفصل السادس

مادي وفارس

٣١

الشعوب الهندية الاوربية وتوزعها [1]

(٣٥٠) المراعي العالمية

رأينا في ما تقدم معنا من الكلام ان بادية العرب او الصحراء العربية كانت مستودعاً كبيراً لشعوب غير متحضرة كانت بلا انقطاع تغادر المراعي على تخوم البادية وتأتي لتقيم في المدن والقرى وتعيش عيشة حضرية (ف ١٤١) وكانت في الشمال مراعٍ تحاكي المراعي التي في الجنوب (ش ٨٣) وتمتد من الدانيوب الاسفل شرقاً على طول الجانب الشمالي من البحر الاسود قاطعة جنوب روسيا الى آسية حتى سواحل بحر قزبين وكانت تلك المراعي في الازمنة القديمة مكتظة بالرعاة الرحّل الذين كانوا بين حين وآخر، يتدفّقون على اوربا واسيا الغربية كسيل العرم كما فعل قبلهم ساميّو الجنوب حين قدموا من البادية الى اراضي الهلال المخصب (ف ١٤١)

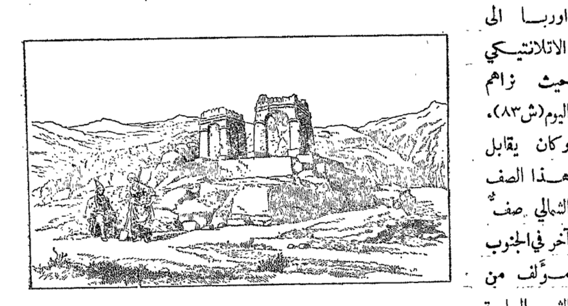
(٣٥١) الشعب الهندي الاوربي والشعب السامي

إن قبائل الشمال الرحّل هي نفس الشعب الهندي الاوربي الابيض، اصل سكان اوربا

---

(١) على الاستاذ قبل ان يسمح لتلاميذه بدرس النبذة الحادية والعشرين مستقلين ان يشرحها لهم بعد تصويرها لهم على اللوح الاسود (ش ٨٣) حتى يستطيعوا ان يرسموها هم بدورهم من الذاكرة حين الطلب. ويجب ان تُعاد هذه العملية مرّة ثانية حين الشروع بدرس الامة اليونانية (ف ٢٧٦) ومرّة ثالثة حين الاخذ بدرس ايطاليا والامة الرومانية

اليوم. شرعت تلك القبائل منذ القديم تهاجر من مراعيها في الشمال الى كل الجهات . وعلى مرور الزمان تألَّف منها صفٌّ من الخلق طويل جدًّا يمتدّ من تخوم الهند في الشرق قاطعاً اوربا الى الاتلانتيكي حيث نراهم اليوم (ش٨٣). وكان يقابل هذا الصف الشمالي صفٌّ آخر في الجنوب مؤلف من الشعوب السامية يمتدُّ من بابل شرقاً مارًّا ببلاد الفينيقيين والعبرانيين غرباً الى قرطاجنّة والمستعمرات الفينيقيّة الاخرى الواقعة الى الجهة الغربية من البحر المتوسط (ف ١٠٣)



الشكل ٨٣

يرينا هذا الشكل مذابح الحرقة القديمة التي لا تزال منها بقية في بلاد فارس وبالقرب منها قبور ملوك الفرس (ش ٨٨) وهي لا تبعد كثيرًا عن بورسبا عاصمة البلاد . ولا ريب في ان هؤلاء الملوك كثيرًا ما سجدوا امام هذه النيران المتقدة على هذه المذابح

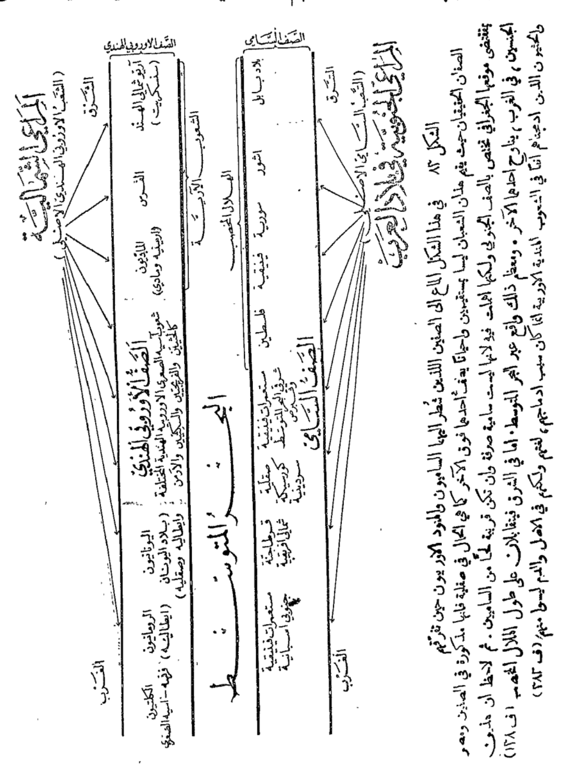
(٣٥٤) النزاع بين الشعبين الهندي الاوربي والسامي

ان معظم التاريخ القديم من الآن فصاعدًا عبارة عن نزاع دائم بين الشعب السامي الجنوبي الذي جاء اولاً من مراعي الجنوب وبين الشعب الهندي الاوربي الشمالي الذي جاء من مراعي الشمال ليتصدَّى للمدنيات التي يمثلها الشعب الجنوبي المشار اليهِ . واذا القينا نظرة عامّة على الشكل ٨٣ وجدنا هذين الشعبين العظيمين متقابلين كجيشين كبيرَين يمتدَّان من اسية الغربية الى جهة الاتلانتيكي غرباً . فالحروب التي نشبت بين رومية وقرطاجنّة كانت بعض الاعمال الحربية التي جرت على ميسرة الجيش السامي . والانتصار الذي احرزهُ الفرس في محاربتهم للكلدان (ن ٢٣٠) كان من نتائج الاعمال الحربية التي جرت في الميمنة السامية

(٣٥٥) انتصار الصف الهندي الاوربي في جهة اوربا

وكانت عاقبة النزاع الطويل بين الشعبين انتصار الشعب الهندي الاوربي انتصارًا تامًا لانهُ فاز في الميمنة والميسرة والقلب وقبض على اعنَّة السيادة التي لا منازع لهُ فيها في جميع المناطق المجاورة للبحر المتوسط . وذلك في عصر اليونان والرومان. وصحب هذا الانتصار

عراك مديد نَشِب بين ابناء الشمال انفسهم طمعاً بحيازة الزعامة والسيادة اللتين انتقلتا من



الشكل ٨٣ في هذا الشكل الماع الى الصفين اللذين شُطر اليهما الساميون والهنود الاوريون حين تفرّقهم
الصفان الحقيقيان حيث يقيم هذان الشعبان ليسا بمستقيمين واحياناً يقف احدهما فوق الآخر كما هي الحال في صقلية فانها مذكورة في الصفين وهو
بمقتضى موقعها الجغرافي تختص بالصف الجنوبي ولكنها اهملت فيه لانها ليست سامية صرفة وان تكن قريبة لحماً من الساميين . ثم لاحظ ان هذين
الجنسين ، في الغرب ، يناوح احدهما الآخر . ومعظم ذلك واقع عبر البحر المتوسط . اما في الشرق فيتقابلان على طول الهلال الخصيب (ف ١٢٨)
والحثيون الذين ادمجناهم آنفاً في الشعوب الهندية الاوربية انما كان سبب ادماجهم ، لغتهم ولكنهم في الاصل والدم ليسوا منهم (ف ٢٨٣)

الطرف الشرقي الى الطرف الغربي — من الفرس الى اليونان ثم الى الرومان الذين بسطوا رُواق سلطتهم على مناطق البحر المتوسط وسائر بلدان المشرق

ولنعد الآن الى الزمان الذي سبق هِجرة الشعب الهندي الاوربي الى وطنهِ الاصلي،

(٣٥٤) اسلاف الشعب الهندي الاوربي ووطنهم الاول

المراعي . لم تستطع الابحاث الحديثة ان تعيّن بوجه القطع التامّ ، البلاد التي اقام فيها اسلاف الشعب الهندي الاوربي ايام كانوا لا يزالون قبائل رحّلًا . الاّ ان لدينا بعض ادلة على ان وطنهم الاوّل كان السهول الفسيحة الارجاء الواقعة الى الشرق والشمال الشرقي من بحر قزبين . وهذا كلهُ من باب الترجيح لا من باب القطع . وحين كانوا لا يزالون شعباً واحداً كانوا يتكلمون بلغة واحدة تفرّع منها جميع اللغات التي تتكلم بها الامم المتمدنة في اوربا الحديثة

(٣٥٥) مدنية اسلاف الشعب الهندي الاوربي

كان اسلاف الشعب الهندي الاوربي قبل زمن تفرُّقهم لا يزالون ضمن نطاق العصر الحجري مع ان النحاس كان قد صار معروفاً . والمرجَّح ان ذلك الزمن لم يكن بعد ٢٥٠٠ ق.م . وقد كانوا وقتئذٍ منقسمين قبائل يتنقلون بقطعانهم ومواشيهم من منتجع الى آخر . وكان لديهم كثير من الحيوانات الاهلية اخصها الخيل التي لم تُعرف بين الامم المتمدنة الشرقية الاّ بعد عصر حمورابي (ف ٢٠٣) . ولم يقتصروا في استعمال الخيل على الركوب فقط بل استخدموها لجرّ العجلات ايضاً . وكان عندهم بقر لحمل النير وجرّ السكّة لان بعض تلك القبائل كان أَلِف عيشة الحضارة وشرع في زراعة الحبوب ولا سيما الشعير . وبما انهم كانوا يجهلون الكتابة ، فلم تكن حكومتهم وانظمتهم مما يعبأُ بهِ او يؤْبهُ لهُ . ولكنهم كانوا في العالم القديم من ذوي المواهب الممتازة والخيال السامي

(٣٥٦) توزع اسلاف الشعب الهندي الاوربي

وحين تفرَّق شمل قبائل هذا الشعب بالترحُّل والتنقُّل تصرَّمت اسباب اتصالهم بعضهم ببعض وصارت كل قبيلة منها تُعرَف بخاصيات تميّزها عن سواها سواء في اللغات او في العادات . وعلى تمادي الزمان تعاظمت الفروق بينهم جدًّا . وكانوا قبلًا اذا تلاقت جماعات منهم في مكانٍ ما يستطيعون ان يتفاهموا ولكن لما وفرت الاختلافات بينهم لم يعد التفاهم في حيز الامكان . واخيرًا نسوا اصلهم وما بينهم من صِلات القربى حتى قُيِّض لهم حديثاً من اماط لهم الحجاب عن تلك الصلات وذلك بمقابلة لغات اوربا الحديثة بعضها ببعض . فاذا بدأنا من انكلترا غرباً واتجهنا شرقاً قاطعين قارَّة اوربا حتى نبلغ الى شمال الهند وجدنا بضع كلمات مشتركة بين لغات الشعوب المختلفة التي نمرُّ بها . فان الكلمات الثلاث اب وام واخ ، في اللغة الانكليزية والالمانية واللاتينية واليونانية والفارسية القديمة ولغات اواسط اسية وشرقي الهند ، متشابهة جدًّا . وكانت القبائل التي ارتحلت من مراعي الشمال في الجناح الغربي قد قطعت ، حوالي ٢٠٠٠ ق.م ، الدانيوب واوغلت في شبه جزيرة البلقان بل كان بعضها قد دخل في هذا الوقت ايطاليا التي كانت تنقَّل فيها من مرعى الى مرعى انتجاعاً

بالكلاء وارتياداً للماء كأهل العصر الحجري الذين مرّ ذكرهم في كلامنا عن اوربا مدة العصر الحجري (ف ٣٥) · فهذه القبائل الغربيــة كانت – بلا مراء – اسلاف اليونان والرومان وسنعود فيا بعد الى ذكرها واقتفاء آثارها في اثناء فتوحاتها في البلاد المجاورة للبحر المتوسط ولكننا قبل ذلك يجب ان نوجه نظرنا الى الجناح الشرقي من صفوف الشعب الهندي الاوربي العظيمة حين زحفها الى الجنوب لمصادمة ميمنة الصفوف السامية

٢٣

الشعوب الآرية والنبي الايراني زورواستر

(٣٥٧) الاريون. زحف الجناح الشرقي من الصفوف الهندية الاوربية

ومما لا ريب فيه الآن بل هو حقيقة مقرَّرة ، ان قبائــل الشرق الاقصى من الصف الهندي الاوربي ، بعد ان غادرت وطنها الاصلي وجَّهت خطاها نحو السهول الفسيحة والرياض الغناء الواقعة شرقي بحر قزبين حيث كانت تقوم على رعاية مواشيها حوالي سنة ٢٠٠٠ ق·م· وفي هذا المكان أُسست امة تعرف بالاريين[١] (ش ٨٣) فاقـاموا بهِ الى حين · وبما انهم كانوا يجهلون الكتابة لم يخلفوا آثاراً كتابية نقف منهـا على طرفٍ من احوالهم ولكنَّ معتقدات انسالهم تدلّ على انهم كانوا يدينون بديانة ذات شأن كبير جمعت قواعد التصرُّف والسلوك في عبارتين هما «افكار صالحة» و«اعمال صالحة» . وكان للنار مكانة عاليــة في ديانتهم وكان لديهم جماعة من الكهان سمَّوهم «موقدي النار»

(٣٥٨) الناطقون بالسنسكريتية من القبائل الهندية الاوربية

ولما تفرَّق الآريون نحو سنة ١٨٠٠ ق·م انشطروا شطرين اشتمل احدهما على القبائل الشرقيــة التي توجهت جنوباً وانتهت رحلتهـا في بلاد الهند . وفي كتبها الدينية المعروفة بالفيدا اشارة الى الوَحدة الآرية والوطن القديم شرقي بحر قزبين

(٣٥٩) الماديون والفرس يتقدمون غرباً نحو الهلال الخصب

والشطر الآخر بقيت قبائلهُ محافظة على الاسم القديم «ايران»[٢] وتقدَّم بعد تركهِ

---

(١) يظهر انهُ لم يكن لاسلاف الشعب الهندي الاوربي اسم عمومي يشمل قبائلهم كلها تحت اسم واحد. وكثيراً ما كانوا يتسمون باسم "آريين" وهذا ليس بصواب لان لفظة "آريين" (المشتق منها ايران وايرانيين) كانت تدل على مجموع قبائل هي جزء من الشعب الاصلي انفصل عن الاصل وتوطن البلاد التي الى الشرق من بحر قزبين قروناً عديدة . فحين نسمع ان لفظة "آريين" استعملت للدلالة على الشعوب الهندية الاوربية ، لنذكر ان هذا الاستعمال – وان كان شائعاً فهو خطاء من وجهة التاريخ . فالآريون هم ذرية شرقية للشعب الهندي الاوربي الاصلي

(٢) اطلقوا اسمهم على النجد الايراني الممتد من جبال زاغرس الى نهر السند شرقاً . وكانت هذه المنطقة معروفة في ايام اليونان والرومان باسم "اريانة" المشتقة (مثل ايران) طبعاً "من آريان" (خريطة ١٩)

وطنهُ الاصلي ، نحو الغرب والجنوب الغربي الى الجبال المتاخمة للهلال المخصب (ف ١٣٩) وهنا التي ناسهُ عصا الترحال ودعوا ايرانيين ، وكانت منهم قبيلتان اشتهرتا بالبأس والشدَّة . وهما الماديون والفرس وقد مرَّ بنا قبلًا ان الماديين زحفوا من الشمال على نينوى جنوباً في إبان عزَّة ملكها

(٢٦٠) مملكة الماديين (الهندية الاوربية) تهدد مملكة اهل الكلدانية (السامية)

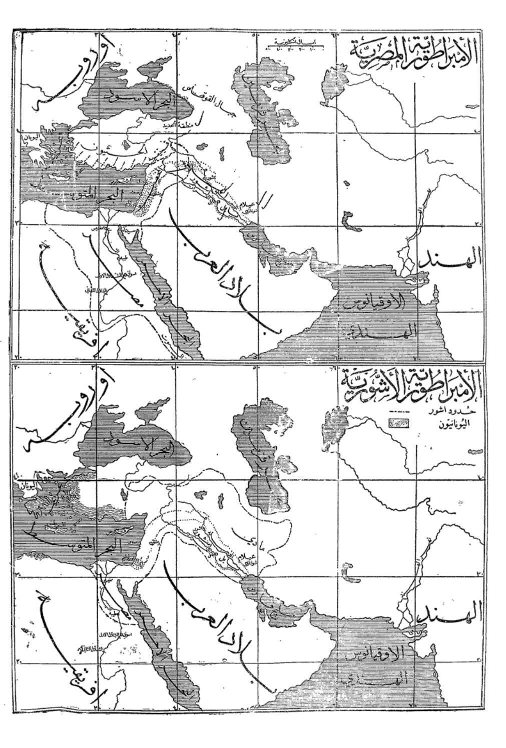
وحوالي سنة ٦٠٠ ق . م — بعد سقوط اشور — (٢٣٩) كان الماديون قد شيدوا في الجبال الواقعة شرقي دجلة مملكة ايرانية متسعة الاطراف شديدة الحول امتدَّت من خليج فارس شمالاً بغرب على موازاة الجبال ، الى حدود البحر الاسود . فكانت بذلك جبهة الجناح الشرقي للصف الهندي الاوربي عند هذه النقطة على موازاة دجلة تقريباً . وكان نبوخذنصَّر واعوانهُ من الكلدانيين ينظرون الى مملكة مادي المخيفة نظر الحذر والوَجل لانهم كانوا لا يزالون قابضين على زمام الزعامة في هذه البقعة من الارض التي جاءوا اليها قبلًا من مراعي الجنوب والدم السامي يجري في عروقهم . والآن جاءهم قوم من مراعي الشمال من الجنس الهندي الاوربي ينازعونهم تلك الزعامة ويحاولون نزعها منهم (ف ٢٥٠) ويجب الاَّ ننسى ونحن نراقب انهزام الكلدانيين امام الماديين ان انقلاب الزعامة وانتقالها من يدٍ الى يدٍ هو انقلاب جنسي عظيم

(٢٦١) ديانة الايرانيين

كان لهولاء الايرانيين ديانة جميلة ورثوها عن اسلافهم الاولين (ف ٢٥٧) الاَّ انهُ ظهر في الجبال الشرقية حوالي سنة ١٠٠٠ ق . م رجلٌ ايراني المَحتِد اسمهُ زوروواستر وشرع منذ ظهورهِ ينظر في حياة الناس عموماً راجياً ان يتوفَّق الى ايجاد ديانة جديدة تناسب البشر على اختلاف بيئاتهم . رأى نزاعاً دائماً بين الخير من جهة والشرّ من الجهة الأخرى فقال بوجود فئة من الكائنات الصالحة تقاومها فئة أُخرى من الكائنات الشرّيرة لتفسد عليها عملها . فحسب الخير شخصاً الهيا وسماهُ مَزْدا او اهرومزدا ومعناهُ «رب الحكمة» وحسبهُ الله . واعتقد أنَّ جوقاً من الاعوان يُطيفون بهِ كملائكة لهُ وكان اعظمهم النور المسمَّى مثراس . اما الفئة الشرّيرة فكانت بحسب اعتقادهِ مؤلفة من ارواح رديئة تحت قيادة روح الشر ، الزعيم الكبير المسمى أهريمان . وهذا هو الذي اخذهُ عنهم فيما بعد اليهود ثم النصارى وسمّوهُ الشيطان

(٢٦٢) الديانة المستقبلة

وهكذا نشأ دين زوروواستر من نفس جهاد الحياة وصار قوَّةً عظيمة فيها وكان من اشرف الاديان التي وُجدت قبلهُ وفي زمانهِ . دعا زوروواستر كل انسان ان يختار احد امرين اما ان يملأ نفسهُ من الصلاح والنور او يقيم في الشرّ والظلام . ومهما كان اختيارهُ يجب ان يتوقع



الأمبراطورية المصرية
أميال انكليزية
أوروبا
البحر الاسود
جبال القوقاس
منطقة الحديد
اليونان
البحر المتوسط
بلاد العرب
مصر
أفريقية
الهند
الاوقيانوس الهندي
الأمبراطورية الأشورية
حدود اشور
اليونانيون
أوروبا
البحر الاسود
اليونان
البحر المتوسط
عيلام
بلاد العرب
أفريقية
الهند
الاوقيانوس الهندي

حساباً عنهُ في المستقبل. فكان هذا اقدم ظهور في اسية للاعتقاد بديئونة اخيرة في المستقبل. وحافظ زورواستر على احترام النار الآرية القديمة كرمز محسوس للصلاح والنور كما حافظ على الكهنة الذين كان عملهم ايقادها (ش ٨٢)

(٢٦٣) زورواستر يبشر بدينه الجديد

وجال زورواستر بين الشعب الايراني يبشر بديانته الجديدة سنين عديدة دون ان يجد من يهتمّ بتبشيره. واذا اطلعنا على مجموعة الاغاني التي هي الاثر الكتابي الوحيد الذي تخلّف عن هذا النبي العظيم، تجسّم لنا فيها ما كان يخالج افكارهُ من عوامل الخوف والامل. وقد روى احد الايرانيين المولعين بالخيل ان زورواستر قبل وفاته تمكن من هداية احد ملوكهم العظام الى سراط دينهِ بمجرّد شفائهِ حصاناً للملك كان مصاباً بمرض في قوائمهِ اقعدهُ عن السير. وقبل ان اغمض الموت عيني زورواستر رأى ديانتهُ راسخة الاركان. ولم تأتِ سنة ٧٠٠ ق.م الاّ وقد صارت الديانة الاولى والعظمى عند جميع الماديين الجبليين في انحاء الهلال المخصب وغدا زورواستر المؤسّس الاوّل العظيم لمعتقد ديني

(٢٦٤) الفيدا، كتاب الفرس المقدس

والمرجح ان زورواستر كان أُمياً لا يقرأ ولا يكتب لان الايرانيين في عصره لم يكونوا قد عرفوا الكتابة بعد (ف ٢٧٤) وفضلاً عن الاغاني المشار اليها آنفاً فقد وصل الينا من تعاليمهِ شذرات مكتوبة عُني بتأليفها وجمعها معاً نفرٌ من اهل القرون الوسطى المسيحية بعد موت صاحبها بالف سنة. فجاءت كتاباً مشهوراً سمّوهُ اڤستا وهو كتاب الفرس المقدس

٢٣

« قيام مملكة الفرس: كورش »

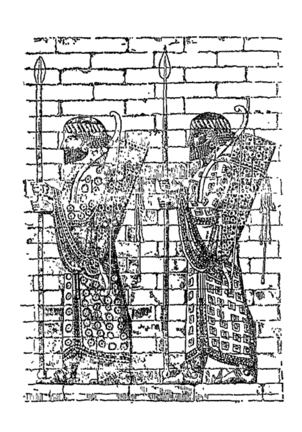
(٢٦٥) ظهور الفرس، بلادهم وتقاليدهم

وكانت القبائل الايرانية المعروفة بالفرس اوفر اتباع زورواستر غيرةً واشدّهم حماسة. وبواسطتهم وصلت معرفتهُ الينا. اما موقع بلادهم فكان عند الطرف الجنوبي الشرقي من جبال زاغروس شماليّ الخليج الفارسي تماماً. احتلوها قبل سقوط نينوى بمدة طويلة. وكانت اوديتها التي تتخلل جبالها الداخلية خصيبة مَريعة. واما الاراضي التي على ساحل الخليج فكادت تكون كالبادية. ولم تزد عن ٤٠٠ ميل طولاً. وكان سكانها من الفلاحين السذّج يعيشون من الفلاحة والزراعة. فلم يكونوا اهل فنون ولا آداب ولم يكن لديهم الاّ بعض المؤسسات البسيطة. وكانوا يجهلون الكتابة. ولكنهم كانوا يطربون لماضيهم ويتّقدون حماسةً عند ذكرهِ. وكانوا في اثناء قيامهم على رعاية مواشيهم وفلاحتهم لحقولهم

يرددون كثيراً من قصص اسلافهم الآريين ومن احاديث نبيهم الذي اعتنقوا ديانتهُ

(٣٦٦) كورش الآنشالي ينظم القبائل الفارسية امة ويقهر الماديين

كان سكان فارس يعترفون بأنهم اتباعٌ لذوي قرباهم الماديين الذين كانوا متسلطين على البلاد الواقعة الى الشمال والشمال الغربي منهم. ولكن قامت احدى قبائلهم المسماة انشان التي كانت محتلَّة جبال عيلام (انظر خريطة ٣) والَّفت مملكة صغيرة تولّى زمام السلطة فيها — بعد سقوط نينوى بخمسين سنة — رجلٌ فارسيٌ اسمهُ كورش والاهُ الحظ فضمّ تحت لوائهِ اشتات القبائل التي كانت تجمعها واياهُ لُحمة النسب وجعل منها امة كباقي الامم. ولما استتبَّ لهُ الملك قلب للماديين ظهر المجنّ وثار عليهم ونظّم جيشاً من الفلاحين حارب تحت لوائهِ ثلاث سنين قهر في ختامها ملك الماديين واستولى على مملكتهِ. وكان النجاح الذي حازهُ في المعترك باهراً جدًّا جذب اليهِ انظار اهل الغرب وملأ قلوبهم من الدَّهش والرعب



الشكل ٨٤ جنود فارسية

هولاء الجنود من الرماة الخصوصيين (ف ٣٦٧) كما يعرف ذلك من حجم جعبهم التي على ظهورهم وان كانوا يُرَوْن في الرسم حاملين رماحاً. ووقت قيامهم بواجب الخفارة كانوا ينيطون القوس بالمنكب الايسر. ويُرى الحرس الملكي حاملين رماحهم يحفّون بملك الفرس وقت معركة اسوس. (ش ١٥٠) لاحظ الحلل الفاخرة التي كان يرتديها حرس القصر. وهذه الصوَر المصنوعة من اجر مرصع بالمينا وملوَّن بالوان زاهية، كانوا يستعملونها لتجميل وزخرفة جدران القصر. ويظهر في الشكل المرمم (ش١٥٦) صف من الرماة وقوفاً على طول جدار دار القصر

(٣٦٧) الجيش الفارسي

وكان كورش ورجال جيشهِ الفلاحون على جانب عظيم من البسالة والبطش حتى قام في عقول العموم ان لا قوَّة تستطيع مناوأتهم. وقد كانوا اشهر اهل زمانهم بالرماية. ولذلك كان معظم الجيش الفارسي من الرماة (ش٨٤) فكانت سهامهم تنهال على الاعداء من مدى بعيد وتفتك بهم الفتك الذريع قبل ان يلتحموا بهم ويقاتلوهم بالايدي عن كثَب حين كان فرسانهم يجولون جولاتهم المشهورة على ميمنة الاعداء وميسرتهم ويُردون البقية الباقية. ويعود الفضل في مهارة الفرس الحربية الى الاشوريين الذين اخذوا فنون الحرب عنهم. وكان الاشوريون

اعظم رجال الحرب الذين وُلدوا تحت سماء الشرق

(٣٦٨) كورش يغلب على الفرس

ولما رأت الممالك العظيمة – بابل ومصر وليدية (في عهد كريسس) حتى سبارطة اليونانية – الخطر الذي يتهددها هبّت الى الاخذ باسباب التعاضد والاتحاد لتدرأهُ عنها . ولكن ما عتم كورش ان هاجم كريسس ملك ليدية الذي كان قِوام هذا التحالف العدائي فانتصر عليهِ انتصارًا باهرًا واستولى سنة ٥٤٦ ق.م على عاصمة ملكهِ ساردس واعتقلهُ اسيرًا ثم وجّه قواتهِ الحربيّة الى السواحل الجنوبية من اسية الصغرى واستولى عليها . فتكون مملكة الفرس الصغيرة قد



الشكل ٨٥ كتابة على اسطوانة من اجرّ فيها نبأ استيلاء كورش على بابل (٥٣٩ ق . م .)

ينبيء هذا الاثر كيف ان مرودخ (اله بابل) سمح لكورش ان يدخل بابل مدينته بلا نزاع . فنجي بابل من الضيق ، وسلم نابوناديوس الملك الكلداني الذي لم يكن يخشاه الى يد كورش . وبما ان نابوناديوس لم يكن محبوبًا من الكهنة ساعدوا على تسليمه

دوّخت في غضون خمس سنين اسية الصغرى حتى البحر المتوسط وقبضت على عِنان السيادة في ممالك الشرق جمعاء

(٣٦٩) غلبة كورش على بلاد بابل

ثم وجه كورش قواتهِ شرقًا ونازل جيش الكلدانيين فقهرهُ وكان قائد هذا الجيش بلشاصّر الشاب الوارد اسمهُ في سفرْ دانيال النبي (ص٥) ومعما كانت عليهِ مدينة بابل من مناعة الاسوار التي اقامها حولها نبوخذنصّر (ف٢٤٤) لم يلاقِ الفرس اقلّ مقاومة حين دخلوها واستولوا عليها (سنة ٥٣٩) ق.م (ش ٨٥)

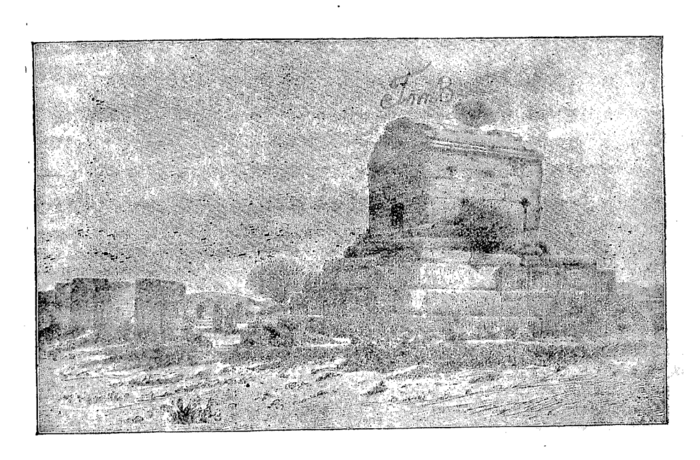
(٣٧٠) سقوط الشرق السامي امام الجنس الهندي الاوربي

وبعد سقوط نينوى بثلاث وسبعين سنة ابتدأ النزاع بين من كانوا قبلًا اهل المراعي الشمالية وبين اهل المراعي الجنوبية فكانت عاقبتهُ انكسار الشرق امام القوّات الهندية الاوربية انكسارًا لم تقم لهُ بعدهُ قائمة . وبعد ذلك بعشر سنين ، قُتل كورش في احدى المعارك (٥٢٨ ق.م) التي نشبت بينهُ وبين بعض القبائل الرُّحل الضاربة في الشمال الشرقي من ايران ودُفن في ضريحٍ فخم أُعدّ لهُ في فسرجادي (ش٨٦) التي جعلها في بادىء الامر عاصمة بلاد فارس له وهكذا قضى الفاتح الاوّل العظيم من الجنس الهندي الاوربي بعد ان

عنت لسلطانهِ كل اسية الغربية

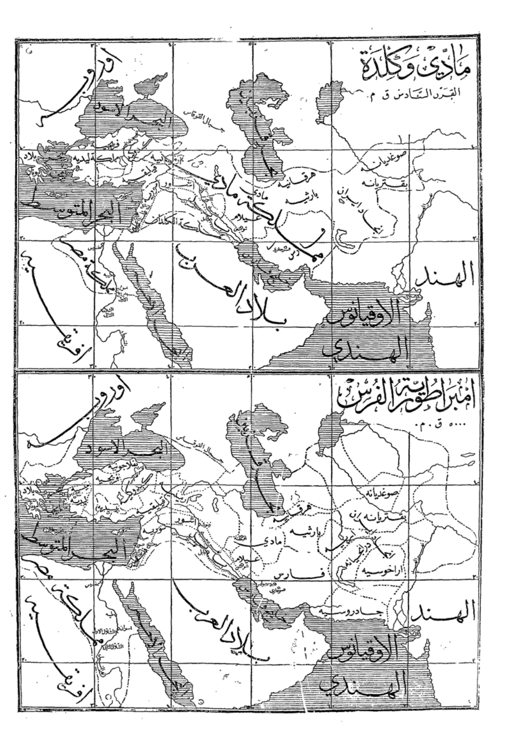
(٢٧١) فتح كمبيز لمصر

وفي سنة ٥٢٥ ق٠م اي بعد موت كورش قام ابنهُ كمبيز وفتح مصر فعمّت سيادة مملكة فارس جميع بلدان الشرق المتمدن من دلتا النيل الى الجانب الشرقي من البحر المتوسط وبحر ايجه ، ومن هذا التخم الغربي الى الهند شرقاً٠ وقد اقتضى القيام بهذا العمل الخطير خمساً وعشرين سنة بداءتها سقوط مادي على يد كورش٠ وكانت لاشور يدٌ في تمهيد السبيل لانجاز هذا العمل الكبير٠ ولا مراء في ان الفرس قد جنوا فوائد جمة من المدنيات التي سبقت مدنيتهم



الشكل ٨٦ قبر كورش قرب بورسبا

اقدم بناية فارسية مهمة . ويرجح ان كورش نفسهُ بناها . كانت محاطة برواق معبد (ذي عُمُد) لا تزال آثاره ظاهرة الى اليسار . وبقي رُفات داريوس هنا مئتي سنة تقريباً حتى وجده الاسكندر الكبير ملقىً على ارض الضريح وقد نهب اللصوص كل النفائس الملوكية التي كانت مدفونة معهُ . فامر بارجاع الرفات الى مكانهِ وبسد القبر . وهو الآن فارغ



مادي وكلدة
القرن السادس ق م
اوروبا
البحر الاسود
جبال القوقاس
مملكة ليديه
البحر المتوسط
مملكة مادي
هرقانيه
بارثيه
مادي
صوغديانه
بقتريانه
بلاد ايران
عيلام
مملكة الكلدان
مملكة مصر
بلاد العرب
الهند
الاوقيانوس الهندي
افريقيه
امبراطورية الفرس
٥٠٠ ق . م .
اوروبا
البحر الاسود
جبال القوقاس
البحر المتوسط
صوغديانه
بقتريانه
هرقانيه
بارثيه
مادي
اشور
عيلام
فارس
اراخوسيه
جادروسيه
مملكة مصر
بلاد العرب
الهند
الاوقيانوس الهندي
افريقيه

٢٤

مدنية مملكة فارس نحو ٥٤٠ – ٣٣٠ ق . م

(٢٧٢) ملوك فارس في بابل يتشرَّبون مدنية الشرق الذي يتسلطون عليه

وجد الفُرس بابل مدينة ذات عظمة ومهابة وحصون منيعة يرتد عنهـا الطرف وهو كليل تمتدُّ من النهر الى النهر . شيَّدها نبوخذنصَّر كما شيَّد غيرها من المباني الباذخة الفخمة التي كانت تُشاهد من مسافات بعيدة (ف ٢٤٣–٢٤٤) وكانت بابل مركزًا مهما لتجارة اسية الغربية واعظم سوق للشرق القديم . واستولى ملوك فارس على مدائن مصر الزاهرة ذات الآثار النفيسة . فكان للمدنية المصرية ومدنية ما بين النهرين تأثير عظيم في الشعب الفارسي

(٢٧٣) صيرورة اللغة الارامية لغة الحكومة الفارسية في الغرب

وصارت اللغة الارامية وهي لغة التجار الذين كانت تغصّ بهم اسواق بابل ، لغة الهلال المخصب قاطبةً . فكانت الصكوك التجارية تكتب بها على ورق البَرْدِيّ بالقلم والحبر بدلاً من كتابتها على الاجرّ بالخط الاسفيني والمسماري الذي كانت شمسهُ آخذة بالافول . واضطرّ موظفو الحكومة الى استعمال الارامية في جميع اعمالهم فكانوا يرسلون بهـا اوامر الحكومة حتى الى مصر واسية الغربية (ش ٩٨)

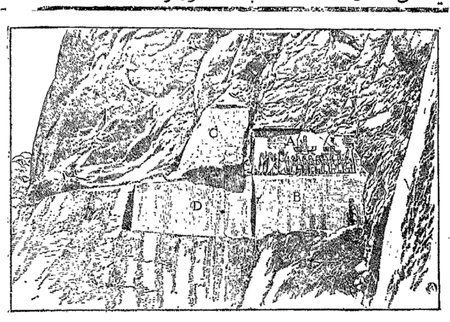
(٢٧٤) الفرس يخترعون حروفاً هجاء مسمارية

وحذت حكومة الفرس حذو مملكة اشور بأن استعملت لغتين ، الارامية والفارسية (ف ٢١٢) حتى في كتابتهم للغتهم الفارسية كانوا يستعملون الحروف الارامية . ولم يكتفوا بالحروف الارامية بل اخـترعوا ٣٩ حرفاً من النوع المسماري كانوا يستعملونها في الكتابة على الاجرّ وعلى الحجارة التي كانوا يصنعون منها بين حين وآخر آثارًا تذكارية خالدة (ش ٨٧) . حذق الفرس الكتابة بعد دخولهم الهلال المخصب وصاروا يكتبون بعد ان كانوا جاهلين الكتابة امدًا طويلاً . وتُعَدُّ الآثار التي خلَّفوها اقدم المكتوبات الفارسية التي وصلت الينا

(٢٧٥) تنظيم داريوس للمملكة

ان تنظيم مملكة مترامية الاطراف تمتدُّ من نهر السند الى بحر ايجـه ومن الاوقيانوس الهندي الى فلوات بحر قزوين لم يكن من الهنَـات الهيّنات بل كان عملاً شاقا يتطلَّب رجلاً عظيماً خبيرًا بالشؤون الادارية وهمّة تنطح بِرَوْقَيها السحاب . ولم يُقدم قبل داريوس ملك من الملوك على القيام بالعمل الشاق الذي بدأهُ هو . ولما عجز عن ابلاغهِ الى الدرجة المرومة من التّمام غادرهُ لداريوس الكبير لكي يُتمّمهُ (٥٢١–٤٧٥ ق . م) . والحق ان التنظيمات التي قام بها هذا الملك العظيم لمن اجلّ الاعمال الخالدة التي حفظ لنا ذكرها تاريخ الشرق القديم بل تاريخ العالم باسرهِ . كان داريوس ملكاً عادلاً سامي المواهب العقلية دقيق الشعور جداً .

ولكنهُ كان مستبدًّا قبض على ازمة الاحكام بيد من حديد ، ولم يدع رعيتهُ تتدخل في شؤون المُلك • وكل ما قضى بهِ صار شريعة يُعمل بموجبها • يؤَكّد لنا ذلك ما جاءَ في الكتابة البهستونية (ش٨٧) وهذا نصُّهُ : « بنعمة اهرومزدا قد خضعَتْ هذه الارض لارادتي السنية وعملت باوامري كما بُلِّغتْها » • ويتضح لنا من هذا الكلام حقيقة جوهرية وهي ان هذه التنظيمات لم يكن القصد منها تأسيس حكومة اعظم وافخم من كل حكومة رآها العالم من قبل فقط بل ان تكون حكومة يديرها رجل مستبد • ولم ينسَ العالم القديم قطُّ مثال مملكة



الشكل ٨٧ اثر تذكاري لانتصار داريوس الكبير.
حجر رشيد الاسيويّ على صخرة بهستون

هذا الاثر الكتابي الجليل هو اقدم سجل تاريخي باقٍ في اسية. وهو مؤلّف من اربعة اقسام مهمة : التصاوير النافعة A وثلاث كتابات (D. C. B.) • B كتابة مهمة في اسطر عمودية علوها اربعة امتار سجل فيها باللغة الفارسية انتصار داريوس على اعدائهِ في الثورات العظيمة التي تلت جلوسهُ على السرير. والحروف المسمارية التسعة والثلاثون التي ابتكرها الفرس (ف ٢٧٤) والكتابتان الآخريان C و D هما ترجمتان للكتابة الفارسية B الأَ ابهما باللغة البابلية وبالخط المسماري البابلي وعلاماتهِ البالغة بضع مئات من الاشكال الاسفينية (ف١٥٥) والكتابة الثالثة هي ايضاً مسمارية بلغة جهات شوشن. ولذلك تدعى بالشوشنية. وهكذا يكون الملك العظيم قد سجل انتصارهُ بثلاث لغات هي اهم اللغات في هذا الصقع الشرقي. ونصب الاثر الذي عليهِ الكتابات المشار اليها في مكان يشرف على الطريق السلطاني في بهستون (خريطة ١٩) حيث يراه رجال القوافل الذين يمرون ذهاباً واياباً بين بابل والهضاب الايرانية مع انهُ يعلو عن الطريق نحو ١٠٠ متر، والوصول اليهِ محفوف بالخطر. وقد خاطر السر هنري رولنصن مخاطرة عظيمة حين نسخ هذه الكتابات المسمارية عن كثب (١٨٣٥ — ١٨٤٧) وباستخدامهِ ما نسخهُ تمكن من حل الخط المسماري البابلي القديم. (ن ٢٩٠ — ٢٩١) وتمكن المؤرخون المحدثون بواسطة هذا الاثر العظيم الذي خلفهُ داريوس الكبير من استعادة اللغة المفقودة وتاريخ بابل واشور. فكان نفعهُ لاسية الغربية كنفع حجر رشيد لمصر

(مأخوذ عن صوَر بعثة المتحف البريطاني)

الفرس المتسعة الاطراف التي كانت تديرها قوّة رجل واحد

(٢٧٦) نظام الولايات الفارسية

لم تكن نفس داريوس طامحة الى التوسّع والفتوح. فانهُ اكتفى بما كانت عليهِ مملكتهُ من ترامي الاطراف والاحتفاظ بحدودها . فتوّج ملكاً على بابل ومصر وقبض على ازمة احكامهما مباشرةً . واما بقية المملكة فقسمها الى عشرين ولايةً جعل على كل منها عاملاً يُدعى مرزُباناً كان يعيّنهُ الملك العظيم . وهو اللقب الذي كان يعرف بهِ ملك الفرس . وكانت هذه التنظيمات – وان وُجد مثلها في ممالك الكلدانيين والاشوريين والمصريين – ارقى من كل ما سبقها من نوعها من كل وجه . فكانت مملكة الفرس اوّل مملكة قسمت البلدان التي كان يخفق فوقها علمها الى ولايات سنّت لها نُظُماً عادلة توافقها وساست الشعوب والامم التي دانت لسلطانها بالحكمة والسّداد. فكانت بذلك خير قدوة للممالك الاخرى. وكان لكل ولاية شيءٌ من الاستقلال في ادارة الشؤُون الداخلية ما دامت تؤدّي الاتاوات في اوقاتها ،وتبعث برجالها للقيام بالخدمة العسكرية في جيش «الملك العظيم» الذي اقام في كل ولاية عيوناً وارصادًا لينبئوهُ بكل حركة يُراد بها العصيان على الملك العظيم ويضربوا على يد كل من تسوّل لهُ نفسهُ القيام بثورة عامة على الحكومة سواءٌ كان من الحكام او من السُّوقة

(٢٧٧) الاراضي والاتاوات والمسكوكات

وقُسِمت الاراضي الزراعية الى قطائع شاسعة تولّى امرها اشراف المملكة وطائفة من المُلّاك . اما صغار الفلاحين الذين كان لهم اراضٍ زراعية فكانوا قليلين لكنهم كانوا يؤَدون الاتاوات كسواهم من سكان المملكة المترامية الاطراف . وكانت الاتاوة في الشرق الادنى تؤدّى من محاصيل الارض (ف ٧٦) واما في الغرب – وخصوصاً في مملكة ليدية وفي المستعمرات اليونانية في غرب اسية الصغرى – (ف ٣٨١) فكانت تؤدّى نقودًا مسكوكة . لان سك النقود كان معروفاً هنالك منذ سنة ٦٠٠ ق.م (ف ٤٥٤) . فنرى ان البلدان الشرقية – مصر وبابل وفارس – لم تسرع في سك النقود تسهيلًا للمعاملات سرعة البلاد الغربية . الاّ ان داريوس عمد الى سك النقود الذهبية واذن لمرازبهِ بسك النقود الفضية . وكانت النسبة بين النقدين نحو ١٣ : ١ اي ان قيمة الذهب كانت تزيد عن قيمة الفضة ثلاثة عشر ضِعفاً . وهكذا ابتدأت النقود المسكوكة – واسطة التعامل التجاري العظيمة التي اصدرتها الدولة – تدخل الشرق في العصر الفارسي

لا شيءَ أدلّ على مقدرة داريوس الكبير السياسية من اجتهادهِ في جعل بلاد فارس دولة بحرية عظيمة لانهُ ليس بالامر السهل على امة برية سكانها رعاة وفلاحون تفصلهم عن البحر

(٢٧٨) داريوس يوجه نظره الى البحر

سواحل رملية ، ان يسيطروا على البحر · فمحاولة داريوس واجتهادهُ في هذهِ السبيل اشبه بمسلك امبراطور المانيا في بنائهِ اسطولاً منيعاً الاّ ان داريوس اضطرّ ان يستخدم لذلك بحّارة اجانب · فلم يكن كالامبراطور وليم من هذا القبيل · وارسل من قبلهِ بحّارًا محنّكاً من بحّارة البحر المتوسط اسمهُ سكيلاكش ليفحص مجرى نهر الهند العظيم · وامره ان يسافر بعد ذلك بحرًا مقابل اسية من مصب نهر الهند غرباً الى برزخ السويس شرقاً فكان سكيلاكش اوّل بحّار غربي ابحر ازاء ساحل اسية الجنوبي الذي لم يكن معروفاً الاّ قليلاً في ذلك الزمان



الشكل ٨٨ قبور ملوك فارس الاولين على بعد بضعة اميال من برسبوليس

وبعد موت كورش وابنهِ كمبيز كان الملوك من داريوس الى الذين خلفوه ينقرون قبورهم في وجه هذه الصخرة التي ترى في هذا الرسم على مسافة نحو ستة اميال من قصورهم في برسبوليس (ش ١٣٣) فهنا قبور داريوس الاول (الكبير) (الثالث من اليسار) وزركسيس (عند الطرف) وداريوس الثاني وارتزرْكسيس الاوّل (الاوّل والثاني من اليسار) . فمن الملوك الستة الاولين لنا قبور خمسة منهم فقط (قبر كورش ٨٦) لان قبر كمبيز فاتح مصر لم يُعرف موضعهُ قط . والقبور الملكية الثلاثة الباقية التي تختص بالملوك الثلاثة الذين هم من اسرة داريوس (ارتزركسيس الثاني والثالث وداريوس الثالث) منقورة في الصخر وراء قصور برسبوليس . والشكل المربع فوق الرواق المعمود (ذي اعمدة) في واجهة كل من القبور يحتوي صورة منحوتة للملك وهو يسجد لاهورامزدا امام مذبح المحرقة . وجميع هذه القبور فُتحت في الازمنة القديمة ونهبت وفي جملتها قبر كورش (ش ٨٦) وفي الداخل توابيت هائلة دفن فيها داريوس وزركسيس وسائر ملوك الفرس وعيالهم وكل تابوت مركز في نقرة مستقلة في الصخر

وامر داريوس بأن تُكرَى ترعة السويس القديمة التي حفرها المصريون الاولون ليصلوا بها النيل بالبحر الاحمر لانّ الرمال كانت قد ردمتها منذ زمن مديد . وقد حفظت لنا

(٢٧٩) داريوس يربط الشرق بالغرب بواسطة ترعة السويس

الايام كثيرًا من بقايا الحجارة التي امر داريوس بأن تنصب على جانبي الطريق القديم الواقع ازاء الترعة. وعلى الحجارة المذكورة بيان يشير الى تجديد الترعة ويتضمَّن نطق داريوس بنصهِ الحرفي : « امرت بحفر هذه الترعة من النهر الجاري في مصر المعروف بالنيل الى البحر الاحمر الذي يتاخم بلاد فارس. فتمَّ العمل بحسبما امرت وجرت فيها السفن من مصر الى بلاد فارس طبقاً لامري ». وكان داريوس يعلل نفسهُ بالآمال يرقبها طامعاً بأن يكون للساحل الجنوبي من بلاد فارس نصيب من الاعمال التجارية التي كانت آخذة في التقدم بين الهند وسواحل البحر الرومي وما جاورها من الاقاليم. الاَّ ان تلك الآمال لم تتحقق لعدم توافر الشروط التي تتطلبها الاعمال التجارية فقد كانت البلاد خِلوًا من التجار ذوي الهمة والاقدام كما كانت خِلوًا من فلاحين يُعنَون بشؤُونها الزراعية

(٢٨٠) بلاد فارس اقدم مملكة بحرية في اسية

وسلك داريوس في معاملة المدن الفينيقية خُطَّة غير خطَّة الاشوريين فعامل سكانها باللين والرفق فمالوا اليهِ ومكَّنوهُ من امتلاك اسطول حربي عظيم جميع سفنهِ فينيقية . ولما خلفهُ ابنهُ احشويروش وجد تحت إمرتهِ مئات من السفن الحربية فاستخدمها في الاعمال الحربية ونقل الجنود من شرق البحر المتوسط. وهكذا استطاع ملوك الفرس الذين كانوا اوفر علماً واشدَّ حُنكةً من ملوك اشور، ان يقوموا باعمال ضاق الاشوريون بها ذرعاً . فكانت بلاد فارس اقدم دولة بحرية عظيمة في قارَّة اسية

(٢٨١) بناء السكك وانشاء المواصلات بين اجزاء المملكة

ولكي يتمكن الفرس من ربط اجزاء مملكتهم البعيدة الاكناف وحفظ الاتصال بين اقسامها انشأُوا السكك المعبَّدة فكانت كسكك الحديد التي يعدُّها سكان البلدان المتمدنة في هذا العصر ، وكان سعاة البريد يقومون بنقل المراسلات على نمط اكثر اتقاناً من النمط الذي استعملهُ الاشوريون في إبَّان ملكهم (ف ٢٢٥). فكانت سرعة اولئك السعاة مدهشة الاَّ ان نقلهم للسلع التجارية من شوشن الى الارخبيل الرومي اقتضى وقتاً طويلًا لا يقل عن الوقت اللازم للطَّواف حول الارض. وكان من جملة منافع هذه السكك ادخال الدجاج الهندي الذي لم يكن معروفاً عند سكان البلاد المجاورة للبحر المتوسط قبل ان اتى بهِ الفرس من بلاد الهند الى جزر الارخبيل الرومي . فالفرس هم الذين اتحفوا اوربا بهذا الطائر الاليف النافع المعروف عندنا

(٢٨٢) العاصمة والقصور الملكية

وكانت شوشن مدينة العيلاميين القديمة القائمة على جبال زاغرس المقام الرئيسي للملك وعاصمة المملكة (ش ١٥٦) الاَّ ان هواء سهول بابل المعتدل كان يستفز الملك في إبان فصل البرد الى مغادرتها والذهاب الى بابل عاصمة مملكة الكلدانيين البائدة للاقامة في قصورها مدة زَمهرير الشتاء . اما ملوك البلاد الاولون فكانوا يؤثرون الاقامة في

بلادهم بين الجبال ولو كانت قاصية عن السهول الدفيئة · فكورش بني قصراً فاخراً في جوار المعترك الذي قهر فيه الماديين في فسرجادي وداريوس شيّد قصراً نفيساً في بورسبا على امد اربعين ميلاً من قصر كورش نحو الجنوب · ولا تزال اضرحة كورش وداريوس واحشويروش وسائر ملوك الفرس قائمة على ارض موطنهم الاصلي على مقربة من انقاض قصورهم (ش ٨٨)

(٣٨٣) فن البناء

ورأى بنّاؤو الفرس ان الحاجة تدعوهم ان يتعلموا اصول فن البناء من الشعوب الشرقية التي دانت لهم · فاخذوا عن البابليين اسلوب بناء السطوح العظيمة التي كانوا يشيدون عليها قصور ملوكهم واخذوا عن الاشوريين وعن الغرب صناعة نحت الثيران المجنّحة · واقتبسوا عن المصريين تشييد الابنية والاروقة ذات الاعمدة الهائلة وكانت هذه الاعمدة اقدم انواعها في اسية مع ان استعمالها كان شائعاً في مصر قبل هذا العهد بالفي سنة (ش ٣٨) · وكذلك صناعة الاجرّ النفيس المرصّع بالمينا (ش ٨٤ و٧٥٦) الذي كانت تزخرف به القصور الجميلة فانها وصلت الى الفرس من مصر بطريق اشور والغرب[1] · وهكذا امتزجت في حياة المملكة الفارسية المدنيات العظيمة المارّ ذكرها

٣٥

الكتابات الفارسية وحلّ الخط الفارسي

(٣٨٤) اهمية المكتوبات الفارسية في حل الخط المسماري

ان تلبّس الفرس بالحضارة الشرقية المختلطة التي وجدوها في ارض الهلال المخصب كان على جانب عظيم من الاهمية العلمية · لانهُ لولا الكتابات التي خطّها الفرس بعد تعلّمهم صناعة الخطّ المسماري لما تمكن العلماء ، في بادىء الامر ، من حلّ رموز الكتابة المسمارية في اسية الغربية (ف ١٦٨) ولما استطاع المتأخرون منهم ان يفسّروا الكتابات التي وجدوها على الوف من قطع الاجرّ التي سبق الالماع اليها في كلامنا عن بابل واشور (ش ٥٧ و ٦٤ و ٧٩ و ٩٤)

(١) مما يستحق الاعتبار هو ان بنائي الفرس لم يأخذوا صناعة بناء القناطر عن اهل بابل . فان كل ابواب قصر داريوس (ش ١٥٦) كانت متوّجة بحجارة تشابه تيجان الابواب المصرية التي أخذت عنها

(٢٨٥) اهمال الخط المسماري ونسيان بابل واشور

وبعد ما حلّت اللغة الارامية محلّ البابلية والاشورية جاء حين من الدهر أُهملت فيه الكتابة المسمارية على الآجر بالمرّة فكانت آخر كتابة من نوعها بتاريخ ٦٨ ق.م، وتُوفّي آخر انسان يُحسن قراءة الخط المسماري منذ نحو الفي سنة. وهكذا دُفن تاريخ بابل واشور تحت انقاض المدن التي شُيّدت قديماً على ضفاف دجلة والفرات

E

F

الشكل ٨٩ الكتابتان الفارسيتان القديمتان اللتان حُلّت رموزها اولاً وقُرئتا

وقبل سنة ١٨٠٠ م كان السياح في بلاد الفرس قد اخذوا معهم حين عودتهم الى اوربا نسخاً كثيرة من الكتابات المسمارية التي وجدوها منقوشة على جدران قصور

(٢٨٦) غروتفند يستعيد اصوات علامات الكتابة الفارسية الاولى

كان كتّاب الفرس يفصلون بين الكلمات بادخال اسفين مائل بين كلمة والتي تليها. وقد زيدت الارقام الافرنجية اعلاه لتمييز الكلمات المختلفة بعضها عن بعض. ويلاحظ ان هذه الارقام كانت دائماً توضع حيث يوجد اسفين للدلالة على بداءة كلمة جديدة (ما عدا الرقم ١) وقد لاحظ غروتفند (ف ٢٨٦) ان الكلمة الواحدة مكرّرة مراراً عديدة في كل من هاتين الكتابتين. قابل في الصورة E الاعداد ٣و٤و٥و٦ فتجد انها كلمة واحدة تقع في F اربع مرات (اعداد ٣و٤و٥و٧) وبما ان هاتين الكتابتين وُجدتا فوق صور ملوك فارسيين ظنّ غروتفند ان هذه الكلمة المكرّرة لا بد وان يكون معناها ملكاً. وفضلاً عن ذلك بما انها تقع في الكتابتين مع العدد ٣ فالكلمة التي تتقدمها (عدد ١) يرجح انها اسم الملك. فترتب الكلمتان على هذا النمط: "داريوس (ال) ملك". ثم وجد غروتفند ان الالفاظ المستعملة كألقاب لملك فارس عُرفت فيما بعد من كتابات فارسية متأخرة. فلما استرشد بالالقاب المعلومة قدر على سبيل الحدس ان ترتيب الكلمات ومعانيها هو كما يأتي:

١	٢	٣	٤
اسم ملك فارسي مجهول	(ال) ملك	(ال) عظيم	ملك
٥	٦	٧	٨
الملوك	الملك	اسم ملك فارسي مجهول	الابن الخ

(٦ و٧ و٨ تعني ابن ملك كذا وكذا) ثم بعد ذلك اجرى امتحانات في الاسماء المعروفة للملوك الفرس وحكم بالنظر الى طولها فوجد على وجه الترجيح ان الاسم عند ١ في الصورة E هو "داريوس". وعند F ١ "احشويروش" وترى النتيجة في ش ٩٠

ملوك الفرس الخربة • وبما ان تلك المكتوبات لم تشتمل الأ على عدد معيَّن من علامات الكتابة فقد كان فهمها هيِّناً • وفي سنة ١٨٠٢ تحقَّق غرتفند اسمَي داريوس واحشويروش وقرأ اسماء وكلمات أُخرى وجدها في الكتابات الفارسية • واستطاع اخيرًا ان يقرأ كتابتين مختصرتين باللغة الفارسية والخط المسماري وجدهما على اثرين آخرين (ش ٨٩) • فكانت هاتان الكتابتان باكورة الكتابات التي قرأها اهل الازمنة المتأخرة • الأ انهما لاختصارهما لم تتضمنا جميع العلامات المسمارية لحروف الهجاء الفارسية • فبقيت الكتابة الفارسية غير محلولة الرموز

(٣٨٧) حل رولنصن للكتابة المسمارية الفارسية القديمة

وبعد زمان معلوم تمكَّن كثيرون من العلماء الاوروبيين من اكتشاف اصوات جميع العلامات الاخرى لحروف الهجاء الفارسية المسمارية • وانفذت انكلترا السر هنري رولنصن احد كبار ضباطها العلماء بمهمَّة الى بلاد فارس فتسنَّى لهُ ان يجمع في اثناء وجوده فيها كثيرًا من المكتوبات الفارسية التي لم يكن لها مثيل في اوربا • من جملتها الكتابات الفارسية البهستونية الشهيرة المنسوبة الى داريوس (ش ٨٧) • وفي ١٨٤٧ نشر رولنصن حروف الهجاء بالخط الفارسي المسماري القديم وعددها ٣٩ علامة صوتية • ونشر معها ترجمة كاملة للقسم الفارسي من الكتابة البهستونية (ش B ٨٧) مما يدل على انهُ كان قد انجز قراءة الخط الفارسي المسماري القديم وهو عمل خطير يشهد لهُ بالتبريز لا سيما وانهُ قد قام بهذا العمل في بلاد الشرق دون ان يكون لهُ اطلاع على شيء مما سبقهُ اليهِ علماء اوربا في هذا الشأن

الشكل ٩٠ اسم أحشويروش في الخط المسماري القديم

هذهِ هي اوَّل كلمة في شكل ٩١ ظنَّ غرتفند انها "احشويروش" وهي اللفظة الفارسية القديمة "خشايارشا" فالعلامات السبع اعلاه يجب ان تقرأ خ شا يا ا رش ا وبهذه الطريقة تعلَّم غرتفند الاصوات التي تقابل هذه العلامات. وبعض هذه العلامات يظهر في اللفظة التي ظنَّ غرتفند انها بالفارسية تعني "ملك". فصار بامكانهِ ان يجرّب هل يقدر ان يتلفظ بالكلمة الفارسية التي معناها "ملك"? والقارئ ايضاً يقدر ان يحذو حذوهُ في ذلك . ليكتب على قطعة قرطاس العلامات الثلاث الاولى من الكلمة المفروض ان معناها "ملك" مثلاً استعمل الكلمة ٢ في شكل ٨٩ ثم خذ هذه العلامات وقابلها بالعلامات التي في "احشويروش" (ش ٩٠) فالتلميذ يجد ان العلامات الثلاث التي كتبها هي نفس العلامات الاولى والثانية والسابعة في الكلمة "احشويروش" (ش ٩٠) فلنكتب في صف واحد اصوات هذه العلامات الثلاث (الاولى والثانية والسابعة) فنجد ان لنا خ شا ا فاللفظة الفارسية القديمة "للملك" لا بدَّ انها كانت تبتدئ بالاصوات خ شا ا وحين نقابل هذه مع لفظة "شاه" لقب امبراطور العجم الحالي نجد ان غرتفند كان على هدى في محاولتهِ حل الخط المسماري الفارسي القديم

(٣٨٨) اهمية الخط الفارسي المساري في قراءة الخط البابلي المساري

لقد تمكن العلماء للمرَّة الاولى من قراءة الخط الفارسي المسماري القديم فاستفادوا منهُ فوائد لا تقدَّر اخصها التمكن من درس الكتابة البهستونية (ش ٨٧)·نعم ان الكتابات الفارسية قليلة الاَّ ان قراءتها من الخطورة بمكان عظيم لانها الذريعة الكبرى لفهم اللغة البابلية القديمة المسمارية

(٣٨٩) اكتشاف ان احدى الكتابات كانت بلغتي بابل واشور وخطيهما

اكتشف العلماء منذ القديم ان الكتابة C على الاثر البهستوني قد كتبت بنفس العلامات المسمارية التي طالما رأوا مثلها على كثير من الاجرّ الذي هو اقدم منها عهدًا (ش ٥٨ و ٦٤) وعلى الآثار الحجرية التي اكتشفت في بابل · هذا فضلًا عما كان يرد على متاحف لندن وباريس من قطع المرمر الكبيرة المنقوشة (ش ٧٢ و ٧٥و٧٦) التي وجدت في قصر الملك سرجون في نينوى (ش ٧٤) وعليها كتابات عديدة جميعها بلغة وخط الكتابة C التي على الحجر البهستوني (ش ٨٧)· وقد تأكَّد للعلماء انهم اذا استطاعوا قراءة الكتابة C على الحجر البهستوني تمكنوا من قراءة سائر الكتابات القديمة من بابلية واشورية. وهذه اقدم كثيرًا من الكتابات الفارسية التي قاوت العوامل الطبيعية دهورًا طوالاً وبقيت حتى ايامنا

(٣٩٠) الاثر البهستوني هو حجر رشيد اسية الغربية

ان جميع الادلَّة قد آلت الى نتيجة واحدة وهي ان الكتابة C البهستونية انما هي ترجمة بابلية للقسم الفارسي الذي كان قد ترجمهُ رولنصن· ولذلك صار الحجر البهستوني لاسية الغربية كحجر رشيد المصري لانهُ مكَّن العلماء من قراءة اللغة البابلية القديمة كما مكنهم حجرُ رشيد من قبل ان يقرأُوا اللغة المصرية القديمة :

حجر رشيد	الاثر البهستوني
عليهِ	عليهِ
(١) كتابة مصرية حلّ رموزها العلماء بمقابلتها	(١) كتابة بابلية مسمارية لكي يحلّ العلماء رموزها بمقابلتها مع
(٢) بالترجمة اليونانية التي كانوا يفهمونها	(٢) الترجمة الفارسية التي صاروا يفهمونها بعد ترجمة رولنصن

(٣٩١) حلّ رولنصن لرموز اللغة البابلية

لقد حاول كثيرون من جهابذة العلماء حلّ رموز الكتابة البابلية ولكنهم اخفقوا سعياً اذ وجدوها اصعب كثيرًا من الترجمة الفارسية لان رموز هذه كانت اربعين ورموز تلك أربت على خمس مئة (ف ٢١٦) لكن قُيّض لرولنصن شرف القيام بهذا العبء الشاق الذي ناء بهِ غيرهُ· ففي سنة ١٨٥٠ نشر نتيجة اعمالهِ وشفعها في السنة التالية بترجمة كاملة للقسم البابلي من الكتابة البهستونية

٢٩٣) علم قراءة اللغة الاشورية

ولما استتبّ للعلماء قراءة ما كُشف من الآثار المكتوبة بالخط المسماري القديم ، شرعوا يستنطقون بقية الدفائن الاثرية في قلب التلال التي قامت عليها في القديم مدن بابل واشور ، فكانت النتيجةُ الفصولَ الثلاثة الكبيرة من تاريخ ما بين النهرين · (ن١٤٠–٢٠) المشتملة على تاريخ الفين وخمس مئة سنة من تاريخ الانسان في اسية الغربية – تاريخ ظلّ العالم باسرهِ جاهلًا لهُ حتى دفع حبّ الاستطلاع نفرًا من جلّة علماء العاديات الاشورية فشمّروا عن ساعد الهمة وشرعوا في تحليل رموز الكتابة المسمارية التي وجدوها على الاجرّ والحجارة التي استخرجوا كثيرًا منها من انقاض مدن بابل واشور القديمة · ويعود الفضل في معرفة هذا العلم الجديد – علم قراءة الرموز المسمارية – الى الآثار التي خلّفها ملوك الفرس · فانها مكّنت العلماء من وجدان تاريخ اسية الغربية بعد ان لبث في ظلمات الخفاء حقبًا طوالاً

٣٦

نتيجة الحكم الفارسي وتأثيره الديني

٢٩٣) تأخر بلاد فارس

كانت مدة الحكم الفارسي نحوًا من مئتي سنة نشر فيها السلم اعلامهُ وضرب الامن قبابهُ وعمّ النجاح بلاد الشرق قاطبة · وكان آخرها سنة ٣٣٣ ق·م · الاّ ان ملوك فارس لم يكونوا كلهم ككورش وداريوس حكمةً وحُنكة فمالوا الى القصوف والبطالة والقوا عبء الاحكام على عواتق العمال والحكام فآل الامر الى فساد الحكومة فضعفها وعجزها عن ضبط الادارة وبالتالي الى وهنها وانحطاطها

(٢٩٤) اخلاق ملوك الفرس وحكمهم

ان الامم التي قامت بعد الفرس تمثل دورها على مرسح هذا الوجود – واخصها اليونان – حسبت ملوك الفرس شرقيين طغاة وبرابرة قساة[1] فهذا الوصف ان صدق عليهم بعضهُ فلا يصدق كلهُ ولا مراء ان فيهِ شيئًا من الغلوّ ، لاننا نعلم ان اولئك الملوك كانوا من اصحاب الشعور الحيّ ، وقد كان من دأبهم العدل في جميع رعاياهم يؤيد لنا ذلك ما جاء عن داريوس في الكتابة البهستونية (ش٨٧)حيث قيل بلسانهِ :«وبناء على ذلك ساعدني اهرومزدا لاني لم اكن شريرًا ولا كذّابًا · ولم اكن ظالمًا لا انا ولا احد من أُسرتي · وقد حكمت بالعدل والحق» · ومما لا مشاحة فيهِ ان مملكة الفرس ، وهي اعظم مملكة في ذلك العهد ، كانت افضل من سائر الممالك التي قامت قبلها في الشرق عدالةً وانسانيةً

ويستدلّ من كلام داريوس عن نفسهِ وما شاكلهُ من الكلام الذي ورد منهُ شيء كثير ،

(٣٩٥) انتشار الديانة الفارسية

على ان ارباب الحل والعقد في البلاد كانوا ميالين كل الميل الى تعاليم زوروواستر التي بذلوا منتهى الهمة في سبيل نشرها في اسية الغربية، ولا سيما في الاناضول حيث ظهر ميثراس الذي كان يمدّه زوروواستر معاوناً لاهورمزدا (ف ٢٦١). ظهر اولاً «بطل النور» ثم «الاله الشمس» الذي كشف بنوره الساطع – اهورمزدا نفسهُ. ومن اسية الصغرى عبر ميثراس الى اوربا. وانتشر الايمان بهذا الاله الفارسي القدير في جميع انحاء المملكة الرومانية وصار خصماً مخيفاً للديانة المسيحية.

(٣٩٦) المزاحمة الشديدة بين اديان الشرق

وهدمت المملكة الفارسية الحواجز الشعبية من دينية وغير دينية ولكن ما عتّم ان حان الزمان الذي اشتدت فيهِ المزاحمة بين اديان الشرق الرئيسية لنيل الزعامة بين امم الارض طرًّا. وأهم الاديان التي نزلت في هذا المعترك طمعاً بالحصول على الزعامة والمكانة الاولى تحت الحكم الفارسي، هي الديانة اليهودية. والآن فيما نحن نغادر الاسرة المالكة الفارسية تتقهقر تدريجاً كسواها من الاسر المالكة التي مثلت ادوارها على مرسح الشرق مدة ملكها الطويل، لنلتفت قليلاً الى المملكة اليهودية التي كانت في جملة البلدان التابعة لمملكة فارس في الغرب والتي قُيّض لها ان تكون ذات تأثير عظيم في تاريخ البشر يفوق تأثير اية مملكة من الممالك العظيمة التي نشأت في الزمان القديم

اسئلة

٣١

اي شعب عظيم استوطن المراعي الشمالية؟ كيف توزّع اخيرًا بالمهاجرة؟ اي شعب معادٍ تصدّى لهُ في الجنوب؟ صف حياة توزُّع الشعب الهندي الاوربي الاصلي. اين نسلهم الآن؟

٣٢

ممّن تسلسل الآريون؟ ماذا حدث لهم حين غادروا موطنهم الاصلي؟ اية قبائل عظيمة آرية جاءت الى ارض الهلال المخصب؟ من كان نبيُّهم العظيم؟ ماذا علّم؟ في اي زمان يرجّح انهُ عاش؟

٣٣

ماذا تعرف عن قيام كورش وفتوحاته ؟ اي شعب اخضع في الهلال المخصب ؟ اي شعب تقررت له السيادة ؟ اي مدى بلغته مملكة الفرس ؟ كم من الزمان اقتضى فتحها ؟

٣٤

هل كان للفرس حضارة كالتي وجدوها في بابل ومصر ؟ صف تنظيم المملكة على زمان داريوس وملكه عليها . اي نظام كان للاراضي ؟ ماذا تعرف عن خطط داريوس التجارية برًّا وبحرًا ؟ اين كانت عاصمة ملكه ؟ كيف نشأ فن البناء الفارسي ؟ قدّم امثلة

٣٥

أتقدر ان تكتب العلامات الثلاث التي ابتدأ بها الفرس القدماء لفظة ملك ؟ اي اثر تذكاري صار لغرب اسية بمقام حجر رشيد ؟ أتقدر ان توضح ذلك ؟ ماذا كانت النتيجة ؟

٣٦

كم كانت مدة مملكة فارس ؟ اذكر تاريخ بدايتها ونهايتها . ماذا تقول في اخلاق ملوك الفرس ؟ ماذا كان جارياً بين اديان الشرق ؟ اية ديانة دخلت في المعترك ؟

الفصل السابع

العبرانيون وتأخُّر الشرق

٣٧

فلسطين وإسلاف العبرانين فيها

(٢٩٧) موقع ومساحة فلسطين وطن العبرانيين

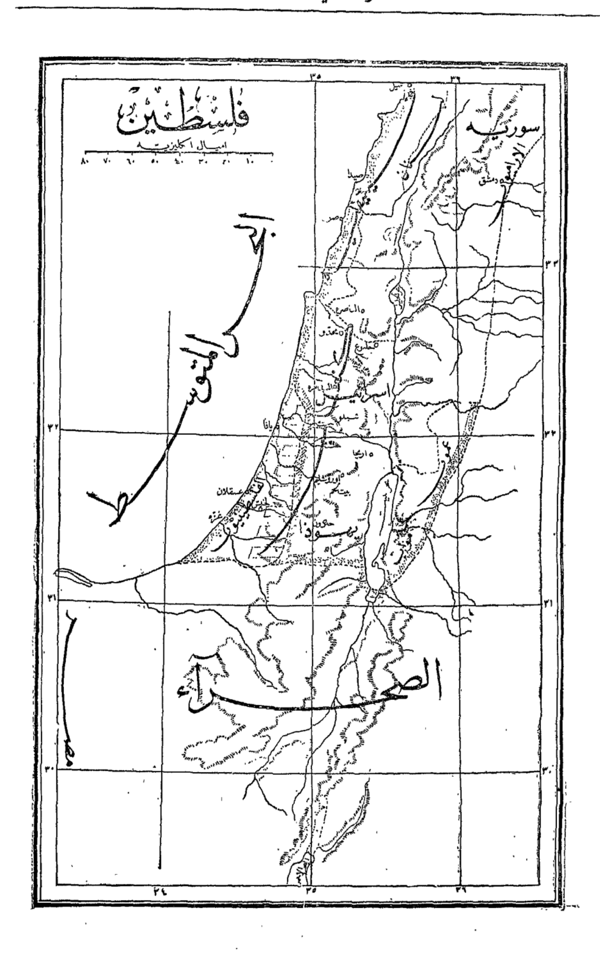
استوطن العبرانيون الطرف الغربي من الهلال المخصب ، (ف ١٣٨) الارض المعروفة الآن بفلسطين[1] في الجهة الجنوبية الشرقيــة من بحر الروم . وهي شقّة من الارض بين البادية شرقاً (ف ١٣٩) والبحر غرباً طولها نحو ١٥٠ ميلاً ومساحتها نحو عشرة آلاف ميل

(٢٩٨) طبيعة البلاد

ان جزءاً كبيراً من ارض فلسطين قاحلٌ لا ينتج شيئاً ، فالقسم الجنوبي منها عبارة عن قطعة من البادية تمتدُّ شمالاً حتى القدس ، آكام جافة جديبة مؤلفة من الحجر الكلسي واما الاودية الواقعة في شمال البلاد فهي ذات خصب وغلال وافرة . والبلاد بجملتها لا يقع فيها المطر صيفاً ولا سقي فيها فكل اعتمادها على امطار الشتاء . ولذلك كانت غلالها دون غلال سواها من البلدان التي ترويها امطار الصيف . ولا موانىء في فلسطين الاّ في الجزء الشمالي منها . وهذه كان قد استولى عليها الفينيقيون منذ عهد بعيد فكانت البلاد منفصلة عن البحر بعيدة عنهُ . ولم تساعدها مواردها الطبيعية على التقدم الماديّ ولا على انشاء قوة

---

(١) للوقوف على اصل الامم (انظر ف ٢٨٥)


فلسطين
اميال انكليزية
١٠ ٢٠ ٣٠ ٤٠ ٥٠ ٦٠ ٧٠ ٨٠
سورية
دمشق
صيدا
صور
الناصرة
مجدو
اسرائيل
شيلو
يافا
اريحا
اورشليم
بيت لحم
عسقلان
غزة
حبرون
يهوذا
البحر المتوسط
الصحراء
مصر
٣٤
٣٥
٣٦
٣٠
٣١
٣٢
٣٣

سياسية كالبلدان المتمدنة المجاورة لها كمصر وما بين النهرين وسورية وفينيقية

(٣٩٩) امتزاج الاجناس والمدنيات في فلسطين قبل تملك اليهود لها ء الكتابات البابلية

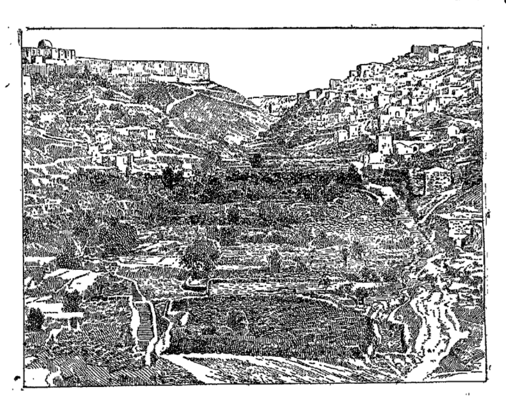
هنا عند الطرف الغربي من ارض الهلال المخصب كما عند طرفهِ الشرقي، امتزجت القبائل الرحل السامية بسكان الجبال الشمالية . يدل على ذلك ، العلامة الفارقة التي غادرها اولئك الجبليون — ولا سيا الحثيون الذين جاءُوا من اسية الصغرى — على وجوه ساميي فلسطين الا وهي الشمم او القنا . فالانف الاقنى الذي يمتاز به الساميون ولا سيا اليهود اليوم هو اصلاً من مميزات الحثيين الذين امتزجوا بسكان فلسطين بالزواج فاورثوهم الشكل الحثي . وقد تسنَّى لفلسطين ان يتألب في اسواقها أُناس من كل بلاد وامَّة ولسان . فكان الواحد يشاهد في تلك الاسواق ما صنعتهُ يد المصري من نفيس الحلى وضروب الآنية النحاسية والمصنوعات العاجية المختلفة وفخَّار جزر بحر ايجه وخزف بلاد الحثيين الاحمر ومنسوجات الصوف البابلية . واما الحمير التي كانت تشاهد هناك وترعج باصواتها المنكرة المرتفعة فوق ضوضاء الاسواق فقد جيء بها من عن ضفاف النيل والفرات حيث كانت سائمة . وكان اصحابها يتعاطون التجارة



الشكل ٩١ كتاب من حاكم القدس المصري به يخبر مولاهُ عن مهاجمة اليهود لفلسطين (القرن الرابع عشر)

كتب هذا الكتاب على اجرَّة بالخط المسماري البابلي بأمر الحاكم المصري المروَّع يلتمس به من فرعون الامداد . وهذا نص الكتاب "ان الخابيرو (العبرانيين) يستولون على مدن الملك . ولم يبقَ لمولاي الملك حكام هنا . كلهم هلكوا". وكان ملك مصر الذي وُجّه اليه هذا الكتاب اخناتون . وكانت الامبراطورية المصرية في اسية حينذاك على وشك ان تتمزَّق كل ممزّق (ف١٢٧) وهذا الكتاب هو واحد من ثلاث مئة رسالة مخطوطة بالحرف المسماري وُجدت في غرفة بقصر اخناتون في تل العمارنة فدُعيت برسائل العمارنة . وهي اقدم مجموعة مفاوضات دولية في العالم ونرى فيها اقدم ذكر للعبرانيين . (انظر ف١٩٣)

بيعاً وشراء تحت ابراج هياكل بابل كما في ظلال مسلات طيبة بمصر. ومما لا بد من ذكره هنا هو ان الاتجار مع بابل علّم الساميين الغربيين الكتابة المسمارية (ف ١٩٣) . وكانت فلسطين مدخل الجسر الواقع بين اسية وافريقية — بلاد امتزجت فيها مدنيات مصر وبابل وفينيقية وبلاد ايجه واسية الصغرى على اسلوب لا مثيل لهُ في الشرق القديم. وكانت السلع التجارية تمثِّل تلك المدنيات



الشكل ٩٢ نظرة الى اسوار اورشليم من الوادي[١] المنخفض تحت القلعة الكنعانية القديمة

[١] البيوت التي الى يمين هذا الوادي هي بيوت قرية سلوام اما عن اليسار فتُرى اسوار اورشليم العالية تحف بالمكان الذي كان قائماً عليهِ الهيكل . وفي اعلى الصورة من جهة اليسار كانت القلعة الكنعانية التي استولى عليها داود وهي تشرف على الوادي الواقع اسفلها على مسافة بضع مئات من الاقدام . وقد تهدّمت منذ زمن طويل وعفت اطلالها. والسور الذي نراهُ هو احدث منها عهداً . وقد كانت المشابهة بين القلعة الكنعانية وبين قلعة ملك سامال جار الملك داود في الشمال ، شديدة جدّاً

(٣٠٠) فلسطين ساحة الحروب العظيمة في الشرق القديم

وكما التقت في اسواق فلسطين تجارات الامم المحيطة بهـا تتبارى في مضمار السلم كذلك تلاقت جيوشها في ساحة الوغى تتقاتل وتتطاحن لان موقعها بين جارتيها القويتين ، مصر وبلاد ما بين النهرين ، جعلها معتركاً حربيا قروناً عديدة (ف ٢٢٠) ولقد مُنيت فلسطين مراراً ، في تلك الحروب ، بما مُنيت بهِ البلجيك في الحرب ما بين المانيا وفرنسا سنة

١٩١٤ . فاستولت عليها مصر مئات من السنين (ف ١١٣) وبعد ذلك بزمان استولت عليها اشور (٢١٩ – ٣٢١) ثم تسلّط عليها الكلدان (ف ٢٤٢) وآخر الكل استحوذ عليها الفرس (ف ٢٧١) ولذلك لما آل امرها الى العبرانيين لم يؤملوا ان يبقوا امدًا طويلاً سالمين من الضغط الاجنبي

٣٨

توطن العبرانيين لفلسطين وملكهم المتحدة

(٣٠١) هجوم العبرانيين على فلسطين نحو ١٤٠٠ الى ١٢٠٠ ق.م

ان اصل الامة العبرانية من بادية العرب . كانت هذه الامة في بدء امرها قبائل رحّل تتنقل بمواشيها على هيئتها من مكان الى مكان ارتيادًا للماء والكلإ حتى قُيض لها الوصول الى فلسطين فجعلتها وطنًا ثابتًا لها (طالع ف ١٣٩ – ١٤٧) . ولم يتمّ انتقال العبرانيين من وطنهم القديم الى وطنهم الثابت الجديد الاّ بعد مرور قرنين من الزمان من ١٤٠٠–١٢٠٠ ق . م . وكان بعض قبائلهم مستعبدًا في مصر يقاسي المشقّة ومرارة العيش (ش ١٢١) تحت حكم طاغية من الفراعنة الى ان تسنى لهُ الخروج من العبودية بقيادة الزعيم الباسل موسى الوطني الكبير الذي لا تُنسى ابد الدهر بطولتهُ ولا الاعمال التي قام بها . وحين دخل العبرانيون فلسطين وجدوا فيها الكنعانيين (ف ١٤٧) يقيمون في مدن زاهرة تطوّقها الاسوار الضخمة فلم يستطيعوا ان يفتتحوا منها الاّ المدن الضعيفة . وحينما ارسل رعاة العبرانيين الخشان رائد الطرف نحو انجاد الشمال رأوا انسباءهم منبثين فوق آكامها القاصية وشاهدوا كثيرًا من الاسوار المحيطة بالحصون الكنعانية قائمة بينهم . وقد هزئت اورشليم القائمة بين جبال اليهودية بحملات العبرانيين عليها بضعة قرون

(٣٠٢) اليهود يقتبسون المدنية الكنعانية ويكتسبون شكل الوحدة الحقيقي

ولا يخفى ان هذه المدن التي عجز مهاجموها عن افتتاحها كانت ذات حضارة قديمة نشأت منذ الف وخمسمئة سنة، ومنازل متقنة حوت كثيرًا من اسباب الراحة والرفاهية، وحكومة، وصناعة، وتجارة، وعلم، ومعرفة بالكتابة، وديانة — حضارة اقتبسها اولئك العبرانيون السذج من مواطنيهم لانهم لم يستطيعوا ان يعيشوا بمعزل عن اهل المدن الكنعانية التي عجزوا عن افتتاحها، لان الصناعة والتجارة كانتا رابطًا قويًا بينهم . وقد احدث هذا الامتزاج تغييرات جوهرية في حياة العبرانيين فغادر بعضهم سكنى الخيام وشرعوا يبتنون بيوتًا كبيوت الكنعانيين وخلعوا عنهم الجلود التي كانوا يلبسونها وهم في البادية ولبسوا

عوضاً عنها الثياب الكنعانية المصنوعة من منسوجات صوفية زاهية . وبعد زمان معين لم يعد التفريق بينهم وبين الكنعانيين الذين ساكنوهم ممكناً لا في المنظر الخارجي ولا في المهنة ولا في اساوب المعيشة لانهم اقتبسوا الحضارة الكنعانية كما يقتبس المهاجرون الى اميركا في هذه الايام عادات الاميركان واخلاقهم وملابسهم وعاداتهم . وبما ان اليهود امتزجوا مع الكنعانيين بالزواج واختلاط الدم بالدم فقد اكتسبوا شكل الوجه الحثي

(٣٠٣) اختلاف اليهود في اسلوب المعيشة والعادات . العداوة بين الشمال والجنوب

الأ انّ هذا الاختلاف لم يجر على وتيرة واحدة في جميع انحاء البلاد . فالعبرانيون الذين اقاموا في الجنوب الماحل من فلسطين حافظوا على اساوب عيشتهم البدوية القديمة فآثروا التنقل بقطعانهم ومواشيهم وسكنى الخيام وحرية البادية على سواها . فكان الواقف على اسوار اورشليم يشاهد حياة البداوة عن كثب اذ يرى الرعاة المتبدّين قائمين على رعاية قطعانهم ومواشيهم . واما الذين اقاموا في الشمال الخصيب فعاشوا عيشة الحضر فابتنوا البيوت واقتنوا الحقول . فكان هذا الاختلاف في اسلوب العيشة باعثاً على النزاع بين اليهود احقاباً متطاولة

(٣٠٤) تأسيس الامة العبرانية . شاول الملك الاول

ولحسن حظ العبرانيين كانت مصر في طور التأخر والانحطاط (١١٠٠ ق . م .) (ف ١٣٠) . واشور لم تكن قد نشطت بعد لاكتساح الغرب (ف ٢١٥) ولكن شعباً جديدًا من شعوب البحر المتوسط يُعرف بالفلسطينيين كان قد هاجر من جزيرة كريت الى الساحل البحري عند الزاوية الجنوبية الغربية من ارض فلسطين وفي سنة ١١٠٠ ق.م. كانوا قد بلغوا درجة سامية من المدنية وتألفوا امة حربية قوية او مجموع ممالك صغيرة كل مملكة منها عبارة عن مدينة واحدة وما يليها من الارباض . اما زعماء العبرانيين او قضاتهم — كما كانوا يُدعَون — فلم يكن تأليف الامة امرًا هيناً عليهم لشدَّة ما كانوا يعانون من مضايقة الفلسطينيين لهم . ولكن قبل حلول سنة ١٠٠٠ ق . م . بجيل واحد نبغ فيهم زعيم كبير اسمهُ شاول عَنَوا لسلطانهِ فملك عليهم وسمّى نفسهُ ملكهم . وكان هذا الملك من اهل الجنوب الذين ظلوا متمسكين بعاداتهم القديمة مؤثرين عيشة البداوة على الحضارة فلذلك لم يكن لهُ مقام ثابت بل سكن في خيام . ولما اشتبك القتال بينهُ وبين الفلسطينيين ودارت الدائرة عليهِ عمد الى الانتحار فوقع على سيفهِ ومات نحو ١٠٠٠ ق.م.

وبعد ذلك ببضع سنين قام من حاشية شاول رجل باسل اسمهُ داود كان شاول قد هدر دمهُ ظلماً وعدواناً فهام على وجههِ في البراري والقفار شريدًا حتى موت عدوه ، فانحاز

(٣٠٥) داود (نحو ١٠٠٠ الى ٩٦٠ ق٠م)

اليه قومهُ في الجنوب وانضوَوا تحت لوائهِ لما رأوا فيهِ من الحزم والاقتدار . وكان الحصول على قلعة حصينة يجعلها قاعدة ملكهِ اوّل ما طمحت نفسهُ اليهِ . فاختار الحصن الذي كان قائمًا على رابية اورشليم وكان لا يزال في حوزة الكنعانيين فانتزعـهُ من ايديهم واستولى عليهِ . وملك على الجنوب بضع سنين اظهر في خلالها حُنكة وبأسًا في الشؤون الحربية اذ عُقد لهُ الفوز في بضع معارك فكان ذلك باعثًا على انحيـاز الشمال الغني اليهِ فدارت الدائرة على الفلسطينيين واتسع نطاق المملكة العبرانية . وكان هو المالك عليهـا سعيدًا . وكانت مدة ملكهِ طويلة بلغت البلاد في اثنائها درجة من العزّة والاقبال كانت تحسد عليها . ولا تزال امتهُ تذكر لهُ اعمالهُ الحربية العظيمة وبلاغتهُ كشاعر ومرنم الى مدى الاجيال

(٣٠٦) سليمان وانقسام مملكته (نحو ٩٣٠ ق٠م ؟)

وصار سليمان بن داود كحمورابي زعيم التجارة في الشرق . زاول الاتجـار بالخيل وانشأ بالاشتراك مع ملك صور الفينيقي اسطولاً بحريًا . وقد مكنهُ غناهُ الطائل من الاقتران بكريـمة ملك مصر . وصبت نفسهُ الى الشرف والابهّة الشرقيـة فنقض الخيمة التي كان اليهود يقيمون فيها شعائر ديانتهم وشيّد لهم في اورشليم هيكلاً فخماً جدًّا مبنيًّا بالحجر الصلد وضافرهُ على بنائهِ صديقهُ الحميم حيرام الملك فامـدّهُ بمهرة الصناع الفينيقيين . وكان حيرام قد باشر زخرفة مدينتهِ صور بتشييد الهياكل فيهـا للآلهة الصورية وبتوسيع نطاق الجزيرة القائمة عليها المدينة . لان المدينة التي على البرّ كانت قد ضاقت بسبب نموّ تجارتها وزيادة عدد سكانها عاماً بعد عام . وكان لدى حيرام عـدد كبير من مهرّة الصناع الذين كان سليمان في حاجة ماسّة اليهم . وربما كان الصناع الذين زخرفوا مدينـة صور ، هم الذين اشتغلوا في زخرفة هيكل يهوه في اورشليم . وبمساعدة حيرام ، حصل سليمان على جوائز (جسور) من خشب الارز والشربين لسقف الهيكل والقصر . ولا مراء في ان صداقـة حيرام لسليمان كانت من دواعي تعزيز سلطة سليمان وعلوّ جاههِ وزيادة ثروتهِ . الاّ ان عزّة الملك وعلوّ الجاه يقتضيان نفقات عظيمة ودخلاً كبيرًا . فاضطرّ سليمان الى ان يثقل كواهل الامـة بالضرائب الفادحـة فناءت بعبئها وسئمت حالتها وتبرمت منها . ولمـا تسنم رحبعام عرش المملكة خلفاً لابيهِ هبَّ اهل الشمال بنفس واحدة وانسلخوا عن جسم الامة واقاموا ملكاً عليهم مستقلين . وهكذا انقسمت الامة العبرانية الى مملكتين قبل ان يمرّ على انشائهـا قرن من الزمان

٣٩

المملكتان العبرانيتان

(٣٠٧) التباين بين المملكتين العبرانيتين

لم يكن سكان هاتين المملكتين على شيء من التصافي والتوادّ بل كثيرًا ما كان ينشأ بينهم من التباغض والتضاغن ما يحدوهم الى الخصام وامتشاق الحسام . كانت مملكة اسرائيل ، في شمال فلسطين ، غنية متقدمة تغصّ اسواقها بسلع الصناعة والتجارة وتتدفق ارضها بالنعم والبركات وكان اهلها على جانب من التمدن يعيشون في سعة ورخاء مما يدل على انهم كانوا من اهل اليسار . واما مملكة يهوذا ، في جنوب البلاد ، فكانت على عكس اختها في الشمال ، فقيرة متأخرة وارضها جديبة . ولم تكن ذات مدن كبيرة لان كثيرين من سكانها كانوا لا يزالون في حال البداوة يتنقلون بمواشيهم من مكان الى مكان ارتيادًا للماء والكلإ .

(٣٠٨) تأثير هذا التباين في دياناتهم

وقد آل هذا التباين بينهم الى النزاع في كثير من الشؤون ولا سيما الدينية منها . فقد كان لكل مدينة من المدن الكنعانية إله محلي يدعونهُ بعلًا . فالعبرانيون الساكنون في مدن كنعانية مالوا طبعًا الى عبادة آلهة مواطنيهم الكنعانيين ولكنهم بهذا خانوا عهد يهوه اله الامة العبرانية وخُيّل الى فئة قليلة من العبرانيين الورعين — ولا سيما الذين هم من الجنوب — ان الهة الكنعانيين هي حامية الاغنياء سكان المدن مهما كانوا عليهِ من الانغماس في الملذات والميل الى الترف والاسراف في ظلم الفقراء ، وان يهوه هو وليّ الرعاة والمساكين العائشين في البادية عيشة البساطة والمهانة

(٣٠٩) ايليا وقوة الاعتقادات القديمة بيهوه

وكان لهذه الاعتقادات سبب قويٌّ . فانهُ بعد انقسام المملكة بأقل من قرن ، قام آخاب احد ملوك الشمال وقتل نابوت احد رعيتهِ لكي يغتصب كرمهُ ويوسع بهِ فِناء قصره . فلما بلغ نبأ هذا الظلم مسمع ايليا الذي كان مقيماً في البرية شرقيّ الاردن ، ثار غضبهُ فقام وجاء الى آخاب بزيّ اهل البادية ووقف امامهُ في الكرم الذي اختلسهُ وعنّفهُ تعنيفاً شديدًا على فِعلتهِ المنكرة وبذلك نادى هذا الرجل الخشن القادم من البادية بحرب عَوان يشب لظاها بين يهوه وظلم اهل المدن . ولم يكتفِ اتباع ايليا بقتل جميع افراد العائلة المالكة في الشمال بل اعملوا سيوفهم في رقاب كهنة البعل

وكان بين العبرانيين رجال رِفق وسلام سئمت نفوسهم عسف سكان المدن فصبت

(٣١٠) اقدم الكتابات التاريخية عند العبرانيين نحو ٨٠٠ ق٠م٠ المؤرخ المجهول

الى عيشة البداوة — الى حياة الهناء والصفاء في اكناف البادية حيث ليس من يشدّ الخناق على المسكين · وفي هذه الفترة، قام منهم رجل من ذوي المواهب السامية وكتب تاريخاً بسيطاً لاسلاف الامة العبرانية وصف فيه حياة البداوة وصفاً انيقاً · ومع ان هذا المؤلف النفيس قد لعبت بهِ ايدي البلى فلا يزال موجوداً منهُ جزءٌ كبير يمثّل لنا سيَر البطاركة العبرانيين، ابرهيم واسحق ويعقوب ويوسف، التي نعدُّها انفس ما وصل الينا من كتابات العصور الغابرة واقدم الكتابات المنشورة التاريخية في العالم قاطبة (تك ٢٤ و٢٧ و٢٨ و٣٧ و٣٩ و٤٧: ١٢)

(٣١١) عاموس وطرق النبي المصلح السلبية

وبعد مرور قرن آخر اي نحو سنة ٧٥٠ ق٠م٠ ظهر في شوارع بيت ايل، حيث قام هيكل فخم لمملكة الشمال، رجل رثّ السربال على ظهره جلد شاة اسمهُ عاموس من رعاة جبال اليهودية كان قد تعلم في عُزلتهِ ان يرى يهوه اكثر من انهُ اله البادية الحربي · رأى ان يهوه هو اله الحنوّ الابوي لا يرضى عن المجازر البشرية ولا يُسرّ بسفك الدماء وقد وبخ عاموس الاغنياء الظالمين من سكان المدن على ظلمهم وطمعهم · ولم يستطع ان يقاوم الدافع الداخلي الذي كان يستفزّهُ الى ان يذهب الى مملكة الشمال وينادي بالويل والثبور على مترفيها ويشهّر تصرفاتهم الشريرة

(٣١٢) عاموس يوبخ سكان المملكة الشمالية بسبب فسادهم

ليس بالامر الصعب علينا ان نتصوَّر العجب الذي خامر مترفي اليهود الشماليين لما رأوا هذا الراعي الخشن اللابس جلد شاة واقفاً في زاوية الشارع يخاطب جمهوراً من اهل الحضارة معنفاً لهم على الثياب الفاخرة التي كانوا يلبسونها والمنازل الحسنة الاثاث والرياش التي كانوا يسكنونها مبالغاً في تقريعهم على تماديهم في الشرور وانغماسهم في المفاسد وقساوتهم على المساكين واغتصاب اراضيهم واستعبادهم لاخوتهم واختلاس ثمرات اتعابهم — اشياء لم يكن لها وجود بينهم وهم في حال البداوة · ولا ريب في ان عاموس بمخاطبتهِ الشعب على هذا النمط قد عرَّض حياتهُ للخطر · ولكنهُ بذلك صار المصلح الاجتماعي الاوَّل في اسية كيف لا وهو النبي الداعي الى العيشة الصالحة المنزَّهة عن محبة الذات، والى الاخوَّة الحقَّة والديانة الفضلى

(٣١٣) العبرانيون يتعلمون الكتابة

وفيما كانت هذه الامور جارية في مجراها، كان العبرانيون دائبين في تعلم الكتابة كما تعلمها قبلهم اسلافهم سكان البادية في الهلال المخصب (ف ١٧٣ و٢٠٧) فاهملوا الكتابة على الواح الاجرّ واخذوا يكتبون على ورق البردي بالقلم والحبر المصريين واقتبسا حروف الهجاء من التجار الفينيقيين والاراميين (ف ٢١١) ولم يستنكف اقدم

مؤرخي العبرانيين من استعمال الكتابة التي هي من مميزات الحضارة مع شدة اعجابه بعيشة البادية حيث الكتابة مجهولة . وكانت الدروج التي تضمنت سير الآباء وتعاليم عاموس اول كتب انتجتها الامة العبرانية . فهي باكورة كتاباتها . وكانت هذه الدروج المصنوعة من ورق البردي مثل التي كانت شائعة في مصر قبل ما يزيد عن الني سنة . وقد اكتشفت في مصر اوراق جماعة من العبرانيين عُرف منها شكل الكتابة العبرانية والارامية . وقد اكتفي اليهود بآداب اللغة ولم يحفلوا بسواها . فلم يكونوا يعرفون التصوير بالالوان ولا نحت التماثيل ولا فنّ البناء فكانوا اذا احتاجوا الى شيء من هذه يأخذونهُ عن جيرانهم في مصر وفينيقية ودمشق واشور

٣٠

القضاء على المملكتين

(٢١٤) تدمير الاشوريين للمملكة الشمالية

وفيما كان العبرانيون في قلق واضطراب من جرى المنازعات الاهلية القائمة بينهم ، رأى عاموس واضرابهُ الخطر المقبل على الامة من الخارج ولا سيما من اشور ، فانذروها بالدمار الذي كان موشكاً ان يحلّ بالبلاد بسبب مفاسد سكانها وشرورهم . وقد تمّ ما انبأوا بهِ . فدوّخت اشور دمشق (ف ٢١٥ و٢١٩) ولم يبقَ في طريقها حاجز يصدُّها عن مملكة اسرائيل . فزحفت عليها واحتلت عاصمتها السامرة عَنوةً سنة ٧٢٢ ق . م . (ف ٢٢٠) وأجلى الاشوريون كثيرين من اهلها الاشقياء عن بلادهم فانقرضت مملكة اسرائيل في الشمال بعد ان تمتعت بعزّة مدة تربي قليلاً على متي سنة

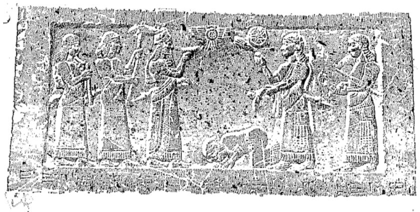
(٢١٥) النزاع بين يهوه اله فلسطين واشور اله الاشوريين

وبعد خراب مملكة الشمال اتجهت آمال الامة العبرانية الى مملكة يهوذا الصغيرة التي ناضلت عن كيانها قرناً وربع قرن من الزمان في معترك حربي عام كان بطلهُ المغوار الهُ اشور . وكان مفكرو العبرانيين حتى الآن يحسبون مُقام الههم فلسطين، وسلطتهُ لا تتجاوز حدودها . ولكنهم اخذوا منذ الآن يشغلون افكارهم في مسائل ذات شأن تتعلق بالههم يهوه، منها : هل تتجاوز يا ترى سلطة يهوه حدود فلسطين وتبلغ ساحات القتال حيث تتطاحن الامم المتحاربة ؟ واذا كان الامر كذلك أفليس اشور اله الاشوريين المنتصر العظيم اشد بأساً من اله العبرانيين ؟ وكثيرون من العبرانيين الذين كادت قلوبهم تذوب

فَرَقاً حين عاينوا جيوش اشور تهاجم آكام فلسطين قالوا في انفسهم ان الـه الاشوريين اقوى من يهوه اله العبرانيين

(٣١٦) اشعياء وحصار سنحاريب لاورشليم

وبينما كانت هذه الشكوك المظلمة تخامر نفوس الامة اليهودية قبل سنة ٧٠٠ ق.م. ظهر اشعياء النبي الملكي وشرع يلقي على الجماهير المحتشدة في شوارع اورشليم الخطبة تلو الخطبة وجيوش سنحاريب على ابواب المدينة والجماهير التي استولى عليها الرعب وران على قلوبها اليأس توجس خيفةً كل لحظة ان تسمع هزيم آلات الحصار الاشورية تدكُّ اسوار المدينة كما دكت من قبل اسوار دمشق والسامرة . وفيما هم على هذه الحالة من القنوط اتتهم كلمات اشعياء النبي المقدام مفعمة حماسة كأنها صوت بوق الانتصار فزحزحت عن قلوبهم ما استحوذ عليها من اليأس واحيت فيهم ميت الرجاء اذ قال لهم بملء فيهِ ما معناه ان يهوه يملك على مملكة اعظم جدًّا من فلسطين وبيده ادارة ساحة الحرب العالميّة العظمى وهو هو الظافر والمنتصر فيها لا أشور . واذا كان الاشوريون قد دوّخوا فلسطين واعملوا فيها ايادي التخريب فذلك لان يهوه استخدمهم للتنكيل بالعبرانيين بسبب اعمالهم الشريرة . وقد اوضح اشعياء كلامهُ بطريق الاستعارة على النسق الشرقي فاستعمل لفظة «عصا» يهوه للتأديب (اش١٠: ٥-١٥)

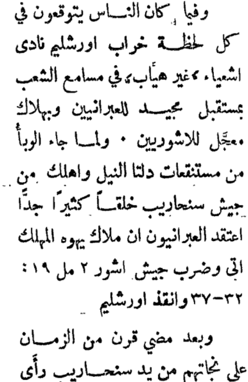


الشكل ٩٣ عبرانيون يؤدون الجزية الى ملك اشور

يُرى هنا شلمناصر الثالث ملك اشور واقفاً الى اليسار يتبعهُ اثنان من حَشَمهِ . و يرفرف امامهُ قرص الشمس المجنّح (ف ٢١٧) . وظهورهُ في منتصف القرن التاسع ق.م محارب دمشق في الغرب (ف ٢١٥) روّع قلوب العبرانيين في المملكة الشمالية حتى ان ملكهم (ياهو) بعث اليهِ بهدايا مع رسول يُرى في الشكل جاثياً عند قدمي ملك اشور. ووراء هذا الرسول العبراني ضابطان اشوريان يتقدمان صفّاً من العبرانيين مؤلفاً من ثلاثة عشر شخصاً (غير ظاهرين في الصورة) حاملين هدايا من ذهب وفضة الخ . ومع انهُ مرَّ قرن من الزمان قبل ان تمكن ملوك اشور من الاستيلاء على دمشق (ف٢١٥ و٢١٩ و٢٢٢) فقد أرّت هذه الحادثة العبرانيين ما هو امامهم . وهذا المشهد منقوش على حجر اسود ، بأمر ملك اشور ، في قصره على ضفة دجلة حيث وجدهُ المنقبون المحدثون وهو الآن في المتحف البريطاني

(٣١٧) هلاك جيش سنحاريب وتأييد اقوال اشعيا

وفيما كان الناس يتوقعون في كل لحظة خراب اورشليم نادى اشعياء، غير هيّاب، في مسامع الشعب بمستقبل مجيد للعبرانيين وبهلاك معجّل للاشوريين . ولما جاء الوبأ من مستنقعات دلتا النيل واهلك من جيش سنحاريب خلقاً كثيراً جداً اعتقد العبرانيون ان ملاك يهوه المهلك اتى وضرب جيش اشور ٢ مل ١٩ : ٣٢-٣٧ وانقذ اورشليم



الشكل ٩٤ سنحاريب ملك اشور يستقبل بعض الاسرى العبرانيين

هنا الرسّام وهو يحاول ان يرسم تلال جنوبي فلسطين، قد جعل وجه الارض يظهر كأنه حراشف سمك . نرى ملك اشور جالساً على عرش وفريقاً من الجنود الاشورية يتقدمهم رئيس النظار صاعدين الى امام الملك ليخبروهُ بمجيء أسرى العبرانيين . ووراء الجنود الى اليسار يُرى ثلاثة من اولئك الاسرى راكعين على ركبهم ورافعين ايديهم يلتمسون الرحمة من الملك . والكتابة التي فوق راس الوزير الماثل امام الملك، تُقرأ هكذا : "سنحاريب ملك العالم، ملك اشور جلس على عرش ومر امامهُ اسرى الجيش". وكانت لخيش قرية حقيرة في فلسطين الجنوبية . وقد استولى سنحاريب على كثير مثلها من قرى العبرانيين واجلى مئتي الف اسير من سكانها او يزيد : ولكنهُ لا يدّعي في الآثار التي تركها انهُ تمكن من الاستيلاء على اورشليم. وهذا المشهد منقوش على بلاطة من الحجر الابيض الشفاف كان يزدان بها وبكثير من نوعها قصر سنحاريب في نينوى

(٣١٨) تدمير الكلدانيين للمملكة الجنوبية ٥٦٦ ق.م

وبعد مضي قرن من الزمان على نجاتهم من يد سنحاريب رأى العبرانيون خراب نينوى (٦١٢ ق.م) فامتلأت قلوبهم بهجةً وأمّلوا ان يكون معنى خراب نينوى خلاصهم من ظلم الاجنبي . الاّ انّ ذلك لم يكن الاّ استبدال سيّد اجنبي بآخر، لان الكلدانيين دخلوا البلاد بعد الاشوريين واستولوا عليها (ف ٢٤١) وبما ان العبرانيين لم يَعنُوا للقوة الفاتحة حلّ عليهم القضاء المبرم الذي حلّ على اخوتهم في مملكة اسرائيل . ففي سنة ٥٨٦ ق.م. جاء نبوخذنصّر ملك الكلدان وخرّب اورشليم واجلى اهلها الى بابل .

فدالت دولة الامة العبرانية في الشمال والجنوب بعد ان خفق لواؤها في ارض فلسطين زُهاء اربعة قرون ونصف قرن بدؤها تمليك شاول

٣١

اليهود في السبي ونجاتهم عن يد الفرس

(٣١٩) ارميا وهيكل اليهود بمصر

هرب بعض مسبيي اليهود الى مصر وكان بين الهاربين النبي البكّاء ارميا ، الذي سبق فرأى خراب اورشليم والهيكل قبل وقوعهِ . وحاول اقناع شعبهِ بوجوب اعتبار قلوبهم هياكل ليهوه تدوم امداً طويلاً بعد ان تكون عوامل الهدم والتدمير قد جعلت هيكل اورشيم رُكاماً مركوماً . الاّ ان اعمال الحفر والتنقيب الحديثة قد كشفت لنا اوراق جالية عبرانية في الايلفانتين بمصر تبيّن منها ان المسبيين من اليهود لم يبلغوا المثال الاعلى ولم يجعلوا قلوبهم هياكل ليهوه لانهم بنوا هيكلاً في مصر ومارسوا فيهِ عبادة الههم

(٣٢٠) شكوك اليهود المسبيين ونبي السبي العظيم المجهول

وكذلك اليهود الذين اجلاهم نبوخذنصّر الى بابل لم يكونوا مقتنعين بصحة التعاليم التي تعلموها من هُداتهم الانبياء العظام ، فاستولت عليهم الكآبة وتملّك الحزن قلوبهم – لما خامرهم من الريب في صحة ما تعلّموهُ بدليل ما جاء في مز ١٣٧ : ١–٤ . « على انهار بابل هناك جلسنا . بكينا ايضاً عند ما تذكرنا صهيون . على الصفصاف في وسطها علقنا اعوادنا لانهُ هناك سألَنا الذين سبَوْنا كلام ترنيمة ومعذّبونا سألونا فرحاً قائلين رنموا لنا من ترنيمات صهيون . كيف نرنم ترنيمة الرب في ارض غريبة » . ألم يكونوا قد تركوا يهوه وراءهم في فلسطين حين ارتفع بينهم صوت مجهول[1] صارخ وسط ازمنة الكرب والضيق بنم اعظم رجالهم الذي ألقى على مسامعهم سلسلة من الخطب سداها القوز ولحمتها الانتصار أبان لهم فيها ان يهوه هو خالق الكائنات والهها الوحيد . وصرّح لسامعيهِ بأجلى بيان ان المصائب والضيقات هي افضل ذريعة لتهذيب الشعب واعدادهِ لخدمة العالم فالرب بجليهِ عليهم الضيقات انما كان يُعدُّهم لخدمة العالم . وانبأهم بأن يهوه سوف يرجعهم من سبيهم ويمكّنهم من القيام بخدم جليلة لجميع الناس . ثم حيّا بفرح قيام كورش الفجائي (ف ٢٦٦) وعلّم قائلاً ان جميع الملوك ليسوا الاّ آلات في يد الرب الذي سيتخذ الفُرس وسيلة لتخريب مملكة الكلدان وارجاع العبرانيين الى بلادهم

(١) ان هذا الصوت المجهول لم يكن الاّ صوت كارز وشاعر عظيم ، احد انبياء السبي الذي فُقد اسمهُ . الاّ ان الخطب التي القاها على مسامع ابناء امتهِ المسبيين لا تزال محفوظة في الاصحاحات الستة عشر من النبوة المنسوبة الى اشعياء في العهد القديم (٤٠ الى آخر ٤٥) ويسوغ لنا ان نسميهُ النبي المجهول

(٢٣١) توصل العبرانيين الى التوحيد

وهكذا ترقّى اعتقاد اليهود بيهوه عما كان ايام بداوتهم ازمان كانوا يرونهُ اله حرب قاسياً مختصًا بهم وحدهم لا يتجاوز سلطانهُ تخوم البادية موطنهم الاوَّل فصاروا يرون فيهِ الاب المحب لجميع الناس والمتسلط العادل على كل الارض. وهذا هو التوحيد بعينهِ (ف ١٢٥) ولم يتوصلوا الى هذا الاعتقاد الاَّ بعد تطوُّر طالت مدتهُ احقاباً طوالاً قاسوا في اثنائها من صنوف الشدَّة والعناء اشكالاً والواناً. وكما يتعلم

الشكل ٩٥ رقيم باللغة الارامية كتبتهُ جماعة عبرانية بمصر الى حاكم فلسطين الفارسي في القرن الخامس ق. م

اكتُشف هذا الرقيم النفيس سنة ١٩٠٧ واكتشف معهُ اوراق أُخرى مثلهُ كانت مطروحة بين انقاض اخربة مدينة الاليفانتين في مصر العليا، حيث كانت تقيم جماعة مؤلفة من ست مئة الى سبع مئة عبراني كان بعضهم على ما يرجح قد هاجر الى مصر قبل ان خرَّب نبوخذنصَّر اورشليم (ف ٢١٨). وكانت هذه الجماعة قد بنت هيكلاً ليهوه على ضفاف النيل. وفي هذا الرقيم كلام صريح أن كهنة المصريين الحسودين ألَّفوا عصابة من الاوباش واحرقوا هيكل العبرانيين بعد ان سلبوا ما كان فيهِ من الآنية الذهبية والفضية. وبناء عليهِ قامت الجماعة العبرانية تنوح على هيكلها وحاولت عبثاً ثلاث سنين متوالية الحصول على رخصة لاعادة بنائهِ فلم تفلح. وفي سنة ٤٠٧ ق.م قام زعماؤها وكتبوا هذا الرقيم الى باغواس الحاكم الفارسي على فلسطين والتمسوا منهُ ان يستعمل نفوذهُ مع حاكم مصر الفارسي ليسمح لهم باعادة بناء هيكلهم الخرب. وقد وردت اشارات في هذا الرقيم الى اشخاص في فلسطين ورد ذكرهم في العهد القديم من الكتاب المقدس. والرقيم مكتوب بالحبر والقلم على ورق البردي باللغة الارامية. (ف ٢١١) التي كانت قد اخذت تحل بسرعة محل العبرانية (ف ٢١٣) واستعملت في هذه الكتابة الحروف الفينيقية التي كانت شائعة منذ امد طويل في جميع اسية الغربية (ف ٢١١) فهذه الورقة المكتوبة كتابة انيقة بالحروف التي كان يستعملها العبرانيون، (ف ٢١٣) —ومقاسها ١٢ قيراطاً في ١٠ تريناً بالتمام كيف كان منظر صفحة من كتابهم القديمة في العهد القديم وقد قرأوا قصص ابرهيم واسحق ويعقوب ويوسف (ف ٢١٣) في صفحات كهذه

الشاب ويستفيد حكمةً وفهماً مما يقع عليهِ من اللوم والتأديب بسبب ما يرتكبهُ من ضروب الخطإ ويسلكهُ من مسالك الضلال، كذلك تعلم اليهود الذين وقعت عليهم الضيقات والشدائد، حكمة فنشأوا عن طوق تصوراتهم القاصرة الناقصة فغادروها وتمسكوا بأرقى منها وبذلك مثَّلوا للعالم كلمات اعظم معلميهم «اولاً نباتاً ثم سنبلاً ثم قمحاً ملآن في السنبل» (مر ٤: ٢٨)٠ وكان العالم باسره مستعدًّا ان يستفيد في المستقبل من اختبار العبرانيين الواسع في الرقي الديني.

(٣٢٢) ارجاع ملوك الفرس المسبيين من العبرانيين الى بلادهم

ولما دخل كورش الظافر بابل (ف ٢٦٩) استقبلهُ العبرانيون بالترحيب كمنقذ لهم وانتقلوا الى تحت حكم متسلط فارسي٠ وقد ابدى ملوك فارس عطفاً عظيماً على العبرانيين فاطلقوا سراحهم وسمحوا لهم بالعودة الى ارض آبائهم فشرع العبرانيون اذ ذاك يغادرون ديار منفاهم تباعاً عائدين الى بلادهم ليجددوا بناء مدينتهم اورشليم على اسلوب بسيط ويرمموا هيكلهم الاَّ ان بعض الذين كانوا قد اصابوا نجاحاً في منفاهم آثروا البقاء فيهِ على الرجوع الى وطنهم الاصلي

(٣٢٣) ناموس اليهود وديانتهم. حكومتهم الدينية الجديدة

وتمكن زعماء اليهود الذين عادوا من السبي، بالسلطة الممنوحة لهم من ملوك الفرس، ان يضعوا مجموعة قوانين دينية اتصل كثير منها اليهم من الازمنة الغابرة٠ وعرفت هذه الديانة التي تنظمت بسعي زعماء اليهود الراجعين بالديانة اليهودية٠ وحين تنظيمهم الديانة هذه المرَّة لم يعيدوا نظام الملك كما كان قبلاً بل جعلوا رئيس الكهنة الذي يقيم باورشليم متسلطاً عليهم بدل الملك فاصبحت بذلك المملكة اليهودية عبارة عن نظام ديني اي جماعة من المؤمنين يرأسهم كاهن

(٣٢٤) نشر الكتب العبرانية. الانبياء والمزامير

وتخصَّص زعماء الديانة منهم بدرس ما كان لا يزال باقياً بين ايديهم من الكتب القديمة المختصَّة بامتهم فان كثيرًا من تلك الكتب كان قد فقد فنسخوا خطب الانبياء واقوالهم وقصص المؤرخ المجهول (ف ٣١٠) وسائر الكتابات العبرانية التي كانت في حوزتهم ونسقوها٠ ومع كرور السنين احتاجت العبادة في الهيكل المرمَّم الى اغاني دينية فضموا ما كان لديهم منها الى كتاب واحد، وهو المعروف عندنا بسفر المزامير، لكي يترنموا بها في الهيكل٠ وكانت كتبهم المختلفة «الناموس» و«الانبياء» و«المزامير»٠ يتداولها الناس امدًا طويلاً بشكل دروج متفرقة، ولم يخطر لاحد منهم ان يجمعها في مجلَّد واحد

(٣٢٥) العهد القديم وميراثنا من الديانة اليهودية

ولم يسعَ اليهود لضم كتابات آبائهم واجدادهم في مجلد واحد الاَّ بعد التاريخ المسيحي فجمعوها اذ ذاك ونشروها باللغة العبرانية التي كتبت بها اولاً وهي التوراة العبرانية المطبوعة

كما هي الآن . وصارت هذه الكتابات العبرانية كتاباً مقدساً لدى جميع الامم المسيحية يعدُّ عندها من انفس ما ورثتهُ عن الشرق القديم قبل التاريخ المسيحي ويتضمن هذا الكتاب تاريخ جماعة من الرعاة البدو الذين جاءوا من بادية العرب ليستوطنوا فلسطين . فاقاموا فيها وصاروا من ذوي الاختبار الواسع الذي اهّلهم لان يكونوا المعلمين الدينيين للعالم المتمدن باسرهِ . ومنهم جاء في ملء الزمان مؤسس الدين المسيحي الذي يعدُّ مجيئهُ واسطة عِقد تاريخهم (ف ١٠٦٧) . فللفرس فضل عظيم على العالم المتمدن لانهم ارجعوا اليهود الى فلسطين وبذلك حفظ هذا التراث الثمين

٣٢

مآثر المدنية الشرقية وتاخر زعامة الشرق القديم

(٢٣٦) تأخر الشرق ونهاية زعامة العالم القديم .(القرن الخامس الى الرابع ق٠م)

كانت دولة الفرس آخر دول الشرق العظيمة . وبما انها ظلّت تتقهقر بعد سنة ٤٠٠ ق٠م فقد آل امرها الى اليونان من الجنس الهندي الاوربي الذين لم ينشأُوا في اسية بل في اوربا التي يجب ان نعود اليها الآن . ولكن قبل ان نفعل ذلك لنلقِ نظرةً عامةً على المدنية الشرقية لنرى ماذا فعلت في مدة تربي على ثلاثة آلاف وخمس مئة سنة ولنذكر ان هذه المدنية مثلت منذ اكتشاف المعدن واختراع الكتابة ، ثلاثة فصول تاريخية عظيمة في بلاد النيل (٣٠٠٠ الى ١١٥٠ ق٠م٠) وثلاثة فصول أُخرى في ما بين النهرين (من القرن الحادي والثلاثين الى ٥٣٩ ق٠م٠) ولما انتهت من تمثيل هذه الفصول الستة العظيمة قدّر للشرق ان يقع تحت سيطرة الجنس الهندي الاوربي بقيادة الفرس

(٢٣٧) مآثر الشرق .الاختراعات وغير ذلك

ماذا فعل الشرق القديم للجنس البشري في هذه الحقبة الطويلة ? لا مراء في انهُ حبا العالم بالصناعات الاولى بالغة درجة عالية من الاتقان كصنع الآلات المعدنية والنسيج والزجاج والورق وغير ذلك من ضروب الصناعات . ولتوزيع ما كانت تنتجهُ هذه الصناعات بطريق التجارة ، قضت الحال ببناء اقدم السفن . وقد سبق الشرق اهل الارض طرًّا في رفع الاثقال والاقدام على تشييد المباني الكبرى . فالشرق القديم قد نفح العالم باختراعات جمة مهمّة لا يفوقها الاَّ اختراعات هذا العصر

اخذ الغرب عن الشرق القديم اشياء كثيرة منها اقدم المباني الحجرية الفنية ، والاروقة

(٣٢٨) مآثر الشرق ايضاً. اقدم المباني. النحت. حروف الهجاء. آداب اللغة. التقويم السنوي. العلم. الحكومة

الاعمدة والابراج اللولبية الشكل واقدم المنحوتات المحكمة الصنعة من الصوَر والتماثيل الهائلة من صُنع مصر ، الى الختوم النفيسة من صُنع بابل القديمة واخذ عنهُ ايضاً الكتابة وحروف الهجاء ، واقدم الروايات المنثورة المعروفة ، والقصائد الشعرية والاسفار التاريخية ، والمباحث الاجتماعية ، حتى الروايات الشعرية التمثيلية ، وتقويم السنين الذي لا يزال الغرب يستعملهُ حتى اليوم ، ومبادئ الحساب ، والفلك ، والطب . وقد نظَّم الشرق اوَّل حكومة كبيرة من امة واحدة عظيمة او من مجموع امم تألفت منها امبراطورية

(٣٢٩) مفاخر الشرق ايضاً . الديانة

واخيرًا نقول انهُ في الشرق نشأ اقدم ايمان باله واحد يشمل بعنايتهِ الابوية جميع الناس • وبذلك وضع اساس حياة العالم الدينية • فللشرق فضل كبير على الغرب لانهُ جاء بهذه الاشياء كلها او معظمها والغرب يتسكع في مهامه الجهل والضلال

(٣٣٠) اعظم تأخر الشرق القديم الحرية السياسية والحكومة الديموقراطية والوطنية الحقة

ولننظر الآن هل قصَّر الشرق عن البلوغ الى اشياء مهمة لهُ • رضي الشرق على الدوام بالحكم الملكي المطلق كأنهُ قضية مسلَّم بها • واعتقد ان الملك يجب ان يكون عادلا رفيقاً بالرعية • ولم يخطر قط ببال احدٍ من سكان الشرق ان الشعب يجب ان يكون لهُ صوت في تنظيم الحكومة وادارتها • ولم يدر في خَلَد احد من بنيهِ معنى الوطني الحرّ الذي يشعر بمحبة وطنهِ شعورًا حقيقيا فيستفزُّهُ الواجب الى الاشتراك في التصويت وادارة الحكومة • فالحرية كما يفهمها العالم المتمدن اليوم ، كانت معدومة في الشرق والديمقراطية لم يحلم بها المشارقة • ولذلك كانت حياة الفرد في الشرق القديم مفتقرة الى الشعور بالمسؤولية والواجب نحو الوطن • وهذا الشعور لا يصدر الاَّ عن التابعية الحرَّة • واي شيء يدفع الفرد الى خدمة وطنهِ مثل الاهتمام بمسائلهِ العامة والاشتراك في التصويت والتجند للذود عنهُ • فهذه الاشياء تنبه الغافلين وتحرّك فيهم سواكن الهمم الى العمل • وقد كانت اعظم الذرائع في تنشئة الرجال العظام بين اليونان والرومان

(٣٣١) فقدان حرية الفكر في الشرق القديم

وكما رضي ابناء الشرق بالحكم الملكي المطلق بلا اعتراض كذلك رضوا ايضاً بحكم الآلهة الذي لم يكن الاَّ تقليداً قبلهُ آباؤُهم من قبلهم . فانحصرت افكارهم ضمن دائرة ضيقة وقصرت عن ادراك حقيقة العالم الذي عاشوا فيهِ فاذا هبَّت الريح زعزعاً نسبوا هبوبها الى احد الآلهة واذا حدث خسوف او كسوف علاوهُ بغضب احد الآلهة او الشيطان . فيستدل من ذلك على ان ابناء الشرق قلما عُنُوا بالبحث عن العلل الطبيعية للاحداث الجوية • وبالاجمال نقول ان ما قاسوهُ من البلايا يُعزى الى فقدانهم الحرية العقلية

وعبوديتهم للتقاليد [1] . وبالطبع في حالٍ كهذه يتعذَّر على العلوم الطبيعية ان ترتقي وتتقدم كثيراً . اما الديانة فكانت تغشاها ظلمات من الخرافات . واما الفنون والآداب فكان يعوزها تلك القوة التي تبعث في النفوس الهمة والاقدام

(٢٢٢) الضعف الحاصل من فقدان الحرية السياسية والعقلية . التحوّل الى اوربا

ولذلك بقيت على البشر اشياء لا تدخل في نطاق حصر يجب ان يقوموا بها سواء كان ذلك مما يتعلق بامور الحكم ، او باعمال الفكر في العالم الطبيعي لادراك ما فيهِ من غرائب وعجائب وجمال ، بالآداب والفنون وشؤون اخرى جمة . وقد قيِّض لاوربا ان تقوم بما قصر عن بلوغ مداهُ الشرق . فلنتحوَّل اذن الى اوربا التي تركناها ، عند ختام الفصل الاوَّل ، في العصر الحجري المتأخر ، ونتتبع مسير العمران الذي ظهر في الشرق وسار منهُ الى اسلافنا الذين اقاموا باوربا القديمة منذ اربعة الى خمسة آلاف سنة

مسائل

٣٧

صف موقع فلسطين واذكر ما تمتاز بهِ . ماذا تقول عن نوع حضارتها ؟ هل كان يرجى ان تكون وطناً هادئاً ؟ لماذا ؟

٣٨

اين كان موطن اليهود الاصلي ؟ اين استُعبد قومٌ منهم ؟ ماذا كانت نتيجة سكناهم بين الكنعانيين ؟ هل تحضَّر جميع اليهود ؟ متى حصلوا على مَلِكهم الاوَّل؟ ومن كان ؟ من كان عدوّهم الرئيسي ؟ صف مُلك داود وسليمان ؟ ماذا حصل للمملكة بعد موت سليمان ؟

(١) كان اخناتون ملك مصر اقدم من جاهر بالتحرّر من التقاليد (ف ١٢٢–١٢٥) وكذلك انبياء اليهود (ف ٢١٣) ويجوز ان يضمّ اليهم زور واستر. واما الحرية الفكرية التامة فكان اليونان اسبق البشر اليها

٢٩

صف علاقات هاتين المملكتين العبرانيتين. عارض الواحدة بالاخرى. اي تأثير على الديانة كان للاختلاف بينهما ؟ ماذا فعل ايليا ؟ هل وُجد من هو اميل منهُ الى السلم ممن يري رأيهُ ؟ ماذا تعرف عن المؤرخ المجهول ؟ إروِ قصة عاموس ؟ ماذا كان عمل النبي ؟ من اين تعلّم اليهود الكتابة وماذا كانت كتبهم الاولى ؟

٣٠

اي خطر تهدّد العبرانيين من خارج ؟ ماذا جرى للمملكة الشمالية هل اعتقد العبرانيون ان يهوه اقوى من الاله اشور ؟ ماذا تقدر ان تقول عن عمل اشعياء ؟ اخبر عن حملة سنحاريب على اورشليم. صف تخريب المملكة الجنوبية

٣١

ماذا جرى لعبرانيي اليهودية ؟ ماذا افتكروا عن يهوه ؟ من علّمهم عنهُ تعليماً احسن وماذا كان ذلك التعليم ؟ أبَلَغ العبرانيون الى اسمى الافكار عن يهوه دفعة واحدة ام كان ذلك تطوُّرًا تدريجيا ؟ ماذا فعل العبرانيون الراجعون من السبي وباية سلطة عملوه ؟

٣٢

ما اهم الاشياء التي نفح بها الشرق البشرية ؟ هل كان للشعب في الشرق صوت في الحكومة ؟ هل كان فيه وطنيون ؟ ماذا كان موقف الشرقيين بازاء الالهة ؟ ماذا كان تأثير ذلك على العلم ؟ في اية بلاد نقتفي الآن تاريخ الانسان القديم ؟

القسم الثالث

اليونان

الفصل الثامن

فجر المدنية الاوربية وقيام البلدان التي على الساحل الشرقي من بحر الروم

٣٣

فجر المدنية في اوربا

(٦٦٦) اوربا العصر الحجري المتأخر ومستقبلها

لقد درسنا حتى الآن حياة اقدم البشر في اوربا وتتبعنا سيرهم خطوة فخطوة زهاء خمسين الف سنة (ن ١–٤) واقتضت الحال ان نغادرهم عند هذا الحد ونتحوّل الى الشرق لنرقب ولادة ونشوء الحضارة فيهِ ازمــان كانت اوربا لا تزال تتسكع في مهامــه همجية العصر الحجري المتأخر الذي كان ناسهُ قد بثوا قراهم ودساكرهم في طول القارّة وعرضها · وكان دخان المنازل يتصاعد من وسط الغابات وينعقد سرادقات فوق بحيرات سويسرة واوديتهــا وتظهر السطوح كأنّها نقط منثورة على صفحات السهول التي تتوارى عند الخلجان ثم تعود فتتبسّط متراصّة على ضفاف مجاري الانهار المتمعّجة حتى تبلغ اواسط اوربا التي كان قــد بزغ في الجنوب الشرقي منها فجر عصر المعدن نحو ثلاثة آلاف سنة ق·م ·[1]

---

(١) ان عصر النحاس او البرنز لم يعقب العصر الحجري دفعة واحدة بل تدريجاً كما سنرى · وقد وصل المعدن الى جنوب شرق اوربا بعد سنة ٣٠٠٠ ق·م بقليل بزمان طويل ولكن في غرب اوربا وشمالها لم يبدأ عصر النحاس الذي تحوّل بعد قليل الى عصر البرنز حتى السنة ٢٠٠٠ ق·م تقريباً

(٣٢٤) ترويج السلع في العصر الحجري المتأخر بواسطة تجار بلدان البحر المتوسط

وكان الاوربيون يرتاحون كثيرًا الى زيارات التجار الذين كانوا يؤمـون بلادهم من الاماكن المجاورة للبحر المتوسط. فكانوا اذا جاءهم احدهم يتهافتون عليه ويأخذون يقلّبون بضاعتهُ ويسومونها ثم يبتاعونها منهُ. فهذا يشتري جرّة فخّار مزخرفة بالنقوش وذاك عِقدًا من الخرز الازرق البرّاق لامرأتـه او ابنتهِ. وكان الخرز اللّامع والاطواق الرزينة الضارب لونهـا الى الحمرة انفس شيء في عيونهم. فاذا اراهم التاجر شيئاً منها سارعوا الى شرائهِ. وكان احبُّ السلع لديهم الخناجر (ش ١٠٠) والفؤوس المصنوعة من مـادّة كانوا لا يزالون يجهلونهـا. كانت هذه الفؤوس ادقّ من الفؤوس الحجرية التي كانوا يستعملونها. ولم تكـن قصمة سريعة الانكسار كالفؤوس الحجرية. وكان في الامكان ارهافها الى درجة يستحيـل ان يبلغها حدُّ الفاس الحجرية مهما بولغ في شحذه

الشكل ٩٩

يُرينا هذا الرسم القسم العلوي من اناء بشكل كأس منحوتة من حجر بيد نحات كريتيّ. اما القسم السفلي فقد فُقد والنقش الذي عليها يمثل لنا موكباً مؤلفاً من فلاحين كريتيين يحملون على مناكبهم مذاري. ومعهم جوق من الاحداث مفتوحي الافواه على ملئها يرتلون بحماسة ترنيمة الحصاد اكرامًا لـلام العظيمـة الارض (ف ٢٦٤) التي لها كل الفضل في خصب التربة. وكان مدير الجوق كاهناً محلوق الراس على الزيّ المصري ممسكاً بيدهِ امام عينيهِ آلة موسيقية جيء بها اصلاً من مصر. وصنعة حفر هذا الرسم على الكاس غاية في الاتقان حتى انه ليخيّل للرائي انه يرى الموكب نفسهُ يسير الى الامام

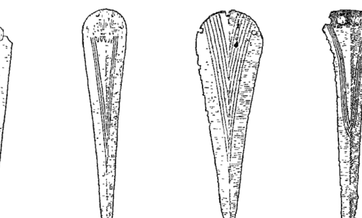
(٣٢٥) المصدر الشرقي لسلع التاجر الاوربي

وكان المتاجر بين سكان داخلية اوربا يأتيهم بحكايات مبهمة عن البـلاد التي جاء بسلعهِ منها وعن الشعوب التي تقطن في البلاد الواقعة وراء بحر الروم. وربمـا كان يخطر على بال بعض القرويين من اهـل العصر الحجري المتـأخر الذين كانوا يسمعون حكاياتهِ، حكايات أخرى كان قد رواها لهم آباؤهم مآلها ان الحنطة والكتان والبقر والغنم جاءتهم اولاً من الشرق الاقصى مهد الغرائب والعجائب

(٣٢٦) سماع اهل اوربا بالقدم المدنية في النيل القاصي

وكانوا يصغون بشغف شديد وعلى وجوههم امارات الخشية، الى سماع حكايات التاجر عن السفن الهائلة (ش ٢٩) التي لو قوبلت بها زوارقهم الاوربية المصنوعـة بتجويف سوق الاشجار الكبيرة لبانت كأنها شظايا خشب صغيرة جـدًا بالنسبة الى تلك. وكان لتلـك السفن مجذفون كثيرون على كل جانب. وكانوا ينصبون في كل منها بضعة من جذوع شجر

الشربين لتقوم مقام الصواري في هذه الايام وينشرون عليها القلوع العظيمةمن نسيج الكتان لامساك الريح الموافقة وتسيير السفن من بلاد الى بلاد . وكان التاجر يقــول لهم ان هذه السفن تخرج من مصاب نهـر مصر العظيم بـل اعظم انهار الدنيـا تقلُّ البضـائـع المختلفة البالغ وزنها قناطير كثيرة وتقطع بهـا البحر المتوسط الى الجـزُر وسواحـل جنوب شرقي اوربا او ما يجاورها من اسيــة . وكانت اوربا الهمجية تنظر بمـلء العجب والدهشة الى مدنيّة مصر العظيمة كما كان ينظر هنود اميركا الى الاوربيين الاولـين الذين نزلوا اوّل مرّة على ساحل اميركا مدهوشين من مرآهم مصغين الى حكاياتهم الغريبــة عن الشعوب الراقية في البلدان القاصية



الشكل ١٠٠ اربعة نصال خناجر من نحاس و برنز تظهر انتقال التأثير المصري الى الدنمرك

المقابض المفقودة كانت من خشب وعظم او عاج ولا تزال نشاهد في النصال الثقوب التي بواسطتها كانت تُثبت في المقابض. فنرى من هذه الخناجر الاربعة كيف ان الشكل المصري قطع من مصر مارًّا باوربا الى البلدان السكندناوية . ولم تكن سيوف اوربا الغربية بعد ذلك سوى خناجر مصريّة مطوّلة

(٣٤٧) تاخر اوربا حتى بعد معرفتها المعدن

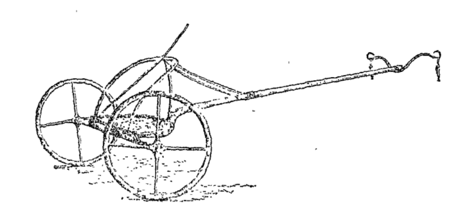
تعلّم اهل اوربا بالتدريج كيفية استعمال المعـدن (ش ١٠٠) الاّ ان علمهم هذا لم يُرقّهم الى درجة سامية من الحضارة معما كانوا عليهِ من الرقيّ الاجمالي. فانهم ظـلوا جاهلين الكتابة والبناء بالحجارة المنحوتة ، ولم يكن لديهم سفن كبيرة لنقل محصولاتهم التجارية[1]

(١) وكان القوم المعروفون بالشماليين في مقدمة سكان القسم الشمالي من اوربا والظاهر انهم حوالي سنة ١٥٠٠ ق.م كانوا قد مهروا في فن سلك البحار

وكانت حجارة مبانيهم بلا «تقصيب» كمباني ستونهنج (ش ١٣) التي مرَّ ذكرها قبلاً ·
فنرى ان اوربا في عصر البرنز لم تستطع ان تنشيء مدنيــة كمدنية الشرق الاَّ ان جزءهـــا
الاقرب الى مصر والواقع في جوار بحر ايجه ، نشأ فيهِ مدنية ترقَّت بسرعة عجيبة

٣٤

بلاد ايجه : الجُزُر



الشكل ١٠١ مركبة من عمل ايدي صناع اوربا في عصر البرنز

تريناهذه المركبة العمل المتقن الذي استطاعهُ صناع عصر البرنز بالآمم البرنزية وذلك بينــة على تقدم التجارة في عصر البرنز. وقد جيء بتلك الآلات من مصر. وضعت في قبر مفوت في الصخر لكي يستعملها الدفين الغني بعد موتهِ وقد حُفظت حتى ايامنا هذه حفظاً تاماً. كانت تصنع من نوعين من الخشب وتربَّط اجزاؤُها المتفرقة بخيوط نوع ثالث منهُ وبما ان الشجر الذي تنتزع منهُ الخيوط للتربيط لا يعيش في جنوب البحر المتوسط يستنتج انها صُنعت في الشمال منهُ (ف ٢٢٧)

(٢٣٨) بحر ايجه والبلاد المنسوبة اليه

ان بحر ايجه يكاد يكون بحيرةً تحدق بها الاراضي من كل جانب فــالى الشمال والغــرب منهُ برُّ اوربا · والى الشرق اسيــة الصغرى والى الجنــوب جـزيرة كريت الفاصلة بينهُ وبين البحر المتوسط · ولا يزيد طول بحر ايجه في اي مكان كان من سواحلهِ عن اربع مئة ميل · واما عرضهُ فيختلف كثيراً باختلاف الاماكن · ويتخلل شطوطهُ كثير من الخلجان والموانىء وترصعهُ مئــات من الجزر حتى انــهُ يمكن السفر من جزيرة الى أُخرى بساعــة او ساعتين · وكيفما توجه المسافر في هذا البحر يرى امامــهُ البرَّ من جهات عديدة في وقت واحد · ولما دخل التمدن هــذه البلاد اتصلت السواحــل بالجزر بالسفن

الشراعية كما اتصلت اجزاء اسية الغربية بالسكك وطرق القوافل . ويتكوّن من هذا البحر والجزُر التي ترصّعهُ والسواحل التي تحدق به منطقة مستقلة بذاتها تعرف بالعالم الايجي

(٣٣٩) هواء بلاد ايجه ومحاصيلها

هواء بلاد ايجه معتدل . شتاؤُها ماطر وصيفها جاف . تصل سهولها الصغيرة واوديتها الجارية فيها انهارها ، الى البحر ويزرَع في السهول الحنطة والشعير والكروم والزيتون . وكان جل اعتماد السكان في التغذية على الخبز والخمر والزيت التي كانت قِوام معيشتهم كما كانت قوام معيشة سائر البلدان المجاورة للبحر المتوسط . يؤَيد ذلك ما ورد في احدى قصائد هوميروس (ف ٤١١–٤١٤) حيث يقول : « الخبز والخمر هما غذاء الجميع حتى الاولاد » . وفي فصل الشتاء ترتدي الارض جلباباً نفيساً من النباتات الزاهية فيسرّح الرعاة قطعانهم فتسوم في سفوح الهضاب والآكام . وقلما يوجد على سطح الارض بلاد اصلح منها للسكن وراحة السكان ورفاهية عيشهم . ولذلك كانت قلوبهم تطفح بالشكر للآلهة من اجل المنن الكثيرة التي حبتهم بها من البرّ والبحر

(٣٤٠) العالم الايجي وقربهُ من الشرق

نظرة الى خريطة البحر المتوسط ترينا ان العالم الايجي هو القطر الذي منهُ تُولج اوربا في البحر شطرها الجنوبي الشرقي الاقصى فيتكون منهُ شبه جزيرة هي بلاد اليونان وما يتبعها من الجزر ولا سيما كريت الممتدّة الى المياه الشرقية التي خاضت عبابها قديماً السفن المصرية ذهاباً واياباً . وترينا هذه الخريطة ايضاً لماذا ظهرت في كريت قبل سواها اقدم المدنيات الراقية التي ازدهرت على الجانب الشمالي من بحر الروم . ومما نلحظهُ بمجرَّد النظر الى الخريطة هو ان اسيَّة تماسُّ العالم الايجي بواسطة شطرها الغربي الاقصى (اسية الصغرى) بحيث تتقابل اسية واوربا وبينهما مياه بحر ايجه . وقد كانت اسية الصغرى بطرقها التجارية حلقة الاتصال بين العالم الايجي والهلال المخصب

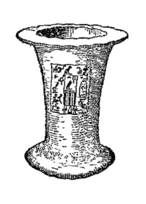
(٣٤١) جزر بحر ايجه مراكز فرعية للشرق . تقدم هذه الجزر وتفوقها البلاد الاصلية

نرى هنا ان بلاد ايجه كانت البؤرة التي التقت فيها المدنيات الشرقية . وذلك بطريقتين اولاهما واقدمها بحرية طالما جرت عليها سفن مصر ذهاباً واياباً من مصر الى بلاد ايجه عبر البحر المتوسط وبالعكس وثانيتهما برية بين عالم الفرات والعالم الايجي قاطعة اسية الصغرى . وامست الجزر الايجية جسرًا يصل الشرق باوربا . وفي العصر الحجري المتأخر صارت جزر بحر ايجه مراكز فرعية لمدنيات الشرق العظيمة التي وجدت قديماً في ارض النيل والفرات . فأوَّل نشوء المدنية الاوربية لم يكن في برّ اليونان بل في جزر ايجه

(٣٤٢) سكان بلاد ايجه

ندعو اقدم سكان بلاد ايجه بالايجيين . وهولاء اوَّل ما ألقت المدنية اشعتها عليهم كانت بلادهم آهلة بالسكان (نحو ٣٠٠٠ ق . م .) وظلوا مقيمين بها بعد ذلك بضع

قرون قبل ان احتلها الشعب المعروف عندنا باليونان. وقد تحدّر الايجيون، اسلاف اليونان في شمال المتوسط، من شعب ابيض عظيم ممتاز بصفاء الذهن والذكاء لا صلة نسب بينهُ وبين اليونان • وقد تبسَّطوا كثيراً في السواحل الشمالية من المتوسط[1] ودعوناهم بشعب البحر المتوسط الا ان اصلهم وعلاقاتهم بالشعوب الاخرى حتى الآن لا تزال مبهمة • وكانوا منذ زمن قديم — اقدم من جميع الآثار المكتوبة — محتلين ليس فقط بلاد اليونان الاصلية وجزر بحر ايجه بل سواحل اسية الصغرى المجاورة ايضاً









مصر كريت

الشكل ١٠٢ آنية حجرية قديمة من جزيرة كريت والاصول المصرية التي أُخذت عنها

ترينا المقابلة ما بين الآنية المصرية القديمة (الى اليسار) والآنية الكريتية (الى اليمين) ان الصناع الكريتيين نقلوا الاشكال المصرية (ف ٣٤٤) في القسم الاخير من عصر الاهرام (نحو ٢٧٠٠–٢٦٠٠ ق•م)

(٣٤٣) كريت

وكانت كريت من اوّل عهدها في الرتبة الاولى حضارةً بين جميع الجزر الايجية • وتمتد هذه الجزيرة امتداداً عظيماً في المتوسط حتى لا يُعلم أهي لاوربا ام لافريقيا وكانت عند اوّل فجر المدنية تُعدّ كأنها جزء من الشرق مثل القسطنطينية اليوم • حتى ان البحارة المصريين قديماً كانوا بعد خروجهم في سفنهم من النيل وإبحارهم شمالاً بغرب اياماً قلائل يرون جبالها • فكانت همزة الوصل بين مصر جنوباً وبحر ايجه شمالاً

(٣٤٤) نشوء التمدن الكريتي تحت عوامل التأثير المصري

راينا قبلًا (ف ٣٣٤) ان القرى المبنية باللَّبن التي تألفت منها المستعمرات الكريتية في العصر الحجري المتأخر، كانت تاخذ النحاس من المراكب المصرية قبل ٣٠٠٠ ق•م • وبعد ذلك بزمان تناول الصناع الكريتيون كميات من النحاس الممزوج بالتنك مستخرجة من مناجم

(١) ارتأى بعضهم ان اصل هذا الشعب من شمال افريقية ثم تفرّق حتى احاط بالبحر المتوسط من جميع جهاته وربما كان المصريون والساميون فرعين منهُ

واقعــة الى الشمال من البحر المتوسط ٠ والمزيج الحاصل من هذين المعدنــين والمسمّى بالبرنز اصلب من النحاس . فيكون عصر البرنز قد ابتدأ في كريت بعــد سنة ٣٠٠٠ ق ٠ م ٠ ولبث الكريتيون بعد ذلك الف سنة كان تقدمهم في اثنائها بطيئــاً ولكنهم ربحوا اشياء أخرى مهمّة جدًّا ٠ ففيما كان المصريون يبنون اهرامهم العظيمة تعلّم الصنــاع الكريتيون منهم كيف يستعملون دولاب الخزّاف والاتون المــدوّر (الكوشة) (ش ٣٢) وتمكنوا من ان يصنعوا جرارًا وكؤوساً ارقّ جدًّا مما صُنع قبــلًا ويطبخوها في الاتون ٠ وبتحديهم للمصريين في نحت الحجارة وتجويفها استطاعوا ان يصنعوا جــرارًا وكؤوساً وآنيــة أُخرى حجرية (ش ١٠٢) ٠ وكان الكريتيون قبلًا يعتمدون في تدوين اخبارهم على الكتابــة التصويرية الساذجة (ش ١٦) الاَّ ان هذه الصوَر تحوَّلت تدريجاً تحت تأثير مصر الى كتابة صوتية حقيقية (ش ١٠٣ و ١٠٥) وهي اقدم كتابة في بلاد ايجه

(٣٤٥) قيام ملوك البحر الكريتيين نحو ٢٠٠٠ ق م

وكان الكريتيون قد بلغوا سنة ٢٠٠٠ ق ٠ م ٠ درجة عالية من التمدن ٠ فكانت عندهم مدن صناعية مزدهرة بمصانعها الخزفيــة والمعدنية مما مكّنهم من الاتجار مع الشعوب الاخرى ٠ وتسهيلًا للمواصلات بالسفن بنوا مدنهم بقرب الساحل ٠ وكان في داخل البلاد كثيرٌ من الاودية المرعة المكتظّة بالقرى العــامرة التي كانت تقوم بحرث الارض وزراعتها ورعاية المــاشية ٠ ونشأت في كنّسُوس قرب منتصف الســاحــل الشــمالي

كريتي مصري كريتي مصري

برج القصر رمز الحياة

مطرقة برنز ابريق المحة

الشكل ١٠٣ الهيروغليفية الكريتية والرموز المصرية التي اخذت عنها

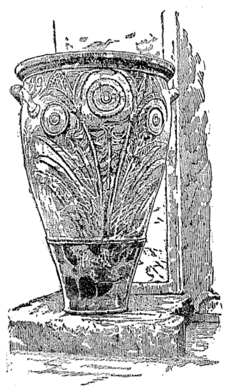
ترينا هذه النماذج في العمود الأول الرموز الهيروغليفية الكريتية وفي العمود الثاني الاصول المصرية التي أخذت عنها

مملكة ربمــا كانت مشتملة في آخر عهدهــا على جزءٍ كبــير من الجــزيرة ٠ وكانت كنسوس في العصر الحجري المتأخر قد عملت فيهــا ايدي الدمار والتخريب حتى امست

في خبر كان . ولكنَّ بعضاً من عظماء ملوك كريت بنوا على انقاضها قصراً فاخراً على النمط المصري يشتمل على غرف عديدة تحيط بدار في منتصف القصر . وكان في الداخلية الى جهة الساحل الجنوبي قصر آخر في فايستوس جعل مباءة للاسرة المالكة نفسها او عاصمة اخرى للملكة

(٣٤٦) قوة ملوك البحر الكريتيين





١ ٢

الشكل ١٠٤ اناءان كريتيان يرى فيهما التقدم في فن الزخرفة والنقش

فالاناء الاول هو انموذج للخزف الاقدم رُسمت على سطحه الاسود صور جميلة بالالوان "الابيض والبرتقالي والقرمزي والاحمر والاصفر" وكان الخزافون الذين صنعوا آنية كهذه ونحاتو الخبوم ، اول من ظهر من ارباب فن الزخرفة والحفر الدقيق في كريت . وكان ذلك في سنة ٢٠٠٠ ق.م وما بعدها في زمن القصر الاول في كنسوس (ف ٣٤٥) ويجب ان نلاحظ ان رسومهم ليس فيها ما يدل على اتقانهم تصوير الاشياء الطبيعية كالازهار والحيوانات بل الصور كلها من مواليد الخيال منقولة عن الفنّ المصري . ولكن الاناء الثاني الذي صُنع بعد الاول بخمسمئة سنة يرينا كيف ان ابناء "العصر الذهبي" كانوا قد تعلموا من الفن المصري ان يأخذوا الصور التي كانت للزينة من العالم الطبيعي . لاننا نرى معظم الرسوم مؤلفاً من ازهار عرائس النيل المصرية

ولم تكن تلك القصور محصّنة ولا مسوّرة وكذلك المدن كانت بلا اسوار . الا ان ملوك كريت لم يكونوا بلا وسائل للدفاع عن انفسهم لان قصورهم كانت مفعمة بضروب الاسلحة النحاسية المخبوءة فيها . فقد وجد الاثريون في اخربة غرف الاسلحة بقصر كنسوس

مئات من رؤوس السهام البرنزية والقداح الملوّحة على النار تقوياً لما فيها من أودٍ . وتعلّم ملوك كريت كيفية استخدام السفن في الحرب فلقبوا بملوك البحر الكريتيين (١)

(٣٤٧) اتساع نطاق التجارة والصناعة في كريت



الشكل ١٠٥ اجرّة عليها كتابة كريتية بالخط المسمى بالسطري

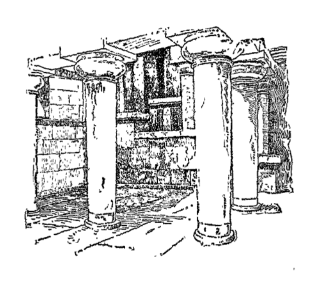
هذه كتابة هيروغليفية من زمن متأخر عن الكتابة في شكل ١٠٣

واخذت الصناعات الكريتية في هذا الزمان تزدهر وتتقدم تقدماً لم يُحلم به من قبل . فشرع الخزّافون في كنسوس يصنعون الفناجين الانيقة الرقيقة كفناجين الخزف الصيني الحديثة ويزخرفون الجرار بالالوان الزاهية والرسوم النفيسة مما جعلها اجمل خزف صنع في الشرق (ش ١٠٤) واتالها رواجاً لدى الاغنياء في اماكن كثيرة — حتى في مصر — اشبه برواج الخزف الصيني الفرنساوي في الوقت الحاضر خارج فرنسا . وكان للآنية الكريتية الجديدة ، ذات الالوان العديدة ، قيمة عظيمة في عيون نبلاء المصريين ، امراء الاقطاع ، حتى انها كانت توضع لهم في رموسهم لكي يستعملوها في العالم الثاني . وقد استخرج المنقبون المحدثون هذه الآنية من القبور لتحدثنا بغير لسان عما كان للصناعة الكريتية من الشهرة البعيدة والرواج العظيم في القرنين التاسع عشر والعشرين ق . م . ولا ريب في ان السفن المصرية التي كانت منذ القرن الثلاثين تمخر في مياه شرق البحر المتوسط صارت الآن تزور بين حين وآخر الموانئ الكريتية . وفي الوقت نفسهِ كانت الريح الشمالية المتغلبة صيفاً تُزجي السفن، التي كان الكريتيون قد تعلموا كيف يبنونها ، الى مصاب النيل . وكان يُعوز الكريتيين اشياء كثيرة . فلذلك كانت التجارة بين النيل وكريت رائجة جدًّا

(١) لقد غالى الكتاب المحدثون في وصف قوة الكريتيين البحرية . وبناء على تقليد حديث سُمّي احد ملوك الجزر الكريتيين مينوس . ونعت التمدن الكريتي القديم بنعت منسوب اليه فقيل انه مينوسيّ . وهو اشهر نعت في ايامنا لهذا التمدن واستعملوا لفظة "ايجي" بدل "ميكاني"

(٣٤٨) تطور الكتابة الكريتية الى شكل ابسط

واقتضت الاعمال التجارية الكريتية ايجاد اسلوب للكتابة يجمع بين السرعة والسهولة الامر الذي لم يكن ممكناً ايام كانت الكتابة بالصوَر او الرموز القديمة . لذلك عمد القوم الى اختصارها وتحويلها الى شكل ابسط مكتفين ببضعة خطوط لكل صورة . وكانوا يستعملون هذه الكتابة الجديدة بسرعة (ش ١٠٥) على الاجرّ . فكان من يزور المَسْلَحة (بيت السلاح) في قصر الملك يشاهد امام كل من الصناديق اجرَّة مكتوباً عليها عنوان يدل على ما في الصندوق . وكان كثيرٌ من الاجرّ مذخورًا في الصناديق يتضمّن سجلات وفواتير وحسابات لم يكن بدٌّ منها لضبط اشغال الاسرة المالكة . وقد وجد كثير منها بين اطلال القصر المتهدّم تحت الردم . ومع كل ما عاناه العلماء من الجهد لحل ما عليها من الرموز وقراءتها ، لم يفوزوا بالمرام . ولا يخفى ان تلك الرموز الكتابية هي ، فيما يُعلم ، اقدم كتابة على تخوم العالم الاوربي . هذا وملوك كريت لم يغادروا آثارًا مبنية فخمة نُقشت عليها اخبارهم وانباء حروبهم وانتصاراتهم والاعمال العظيمة التي أتوها كالآثار التي غادرها ملوك الشرق



الشكل ١٠٦ بهو معمَّد وسلَّم في القصر الكريتي الذي في كنسوس مدة العصر الذهبي

الاعمدة والسقف في هذا البهو رُممت حديثًا . والبهو واقع في القسم السفلي من القصر والسلم الذي يختفي عن النظر الدرابزين الذي وراء البهو، كان يؤدّي الى ارض القصر الرئيسية. درجاته اثنتان وخمسون درجة كبيرة مقسومة خمسة اقسام . ولفهم زخرفة هذا القصر من داخل طالع (ف ٣٤٩) وانظر (ش ١٠٧)

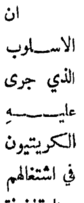
(٣٤٩) العصر الذهبي في كريت وقتئذ ١٦٠٠ الى ١٥٠٠ ق.م

ومرَّ على الكريتيين بضعة قرون ترقت في غضونها احوالهم تدريجيـاً فبلغت مدنيّتهم اسمى درجاتها ودخلوا في عصر جديد اصطلح العلماء ان يدعوهُ بالعصر الذهبي ١٦٠٠—١٥٠٠ ق.م . ومذ قامت البناية الفاخرة الفخمة (ش ١٠٦) مقام القصر القديم في كنسوس اخذ الكريتيون يتقدمون من كل وجه . فالقصر الجديد ، ببهوهِ المُعمَد وسلالمِهِ الجميلة ورَحباتهِ الفسيحة المهيبة هو اوَّل مثال لهندسة البناء الحقيقية في شمال البحر المتوسط . وكانت جدران هذا القصر مزدانة بالتصاوير الجميلة والمشاهد البهية المأخوذة من الحياة اليومية . وبعد ان تعلم الكريتيون من المصريين صناعة الزجاج شرعوا يزخرفون الجدران

بصور مصنوعة من الميناء . وكان الخزّافون في هذا الوقت قد عدلوا عن استعمال الالوان الكثيرة في ما يصنعونهُ من الآنية واجتزأوا عنها بلون واحد غامق على سطح فاتح . وربما جعلوا الرسم ناتئاً . وكانوا يزخرفون الآنية النفيسة (ش ١٠٤) بصوَر ملوَّنة مأخوذة من حياة النبات واحياناً كثيرة من الحياة البحرية التي كان قد أَلِفها الكريتيون اكثر من الاوَّل وكانت الآنية الخزفية الانيقة التي صنعوها تدل جليا على المهارة التي بلغها العالم الشرقي القديم في فنّ الزخرفة والتزويق الذي لم يستطع احد ان يجاريهم فيهِ او يدانيهم

٥٠٢) استقلال المصورين الكريتيين وتقدمهم رغماً عن التأثير المصري

ان الاسلوب الذي جرى عليهِ الكريتيون في اشتغالهم بصناعة زخرفة الخزف والجدران يدل باجلى بيان على ان



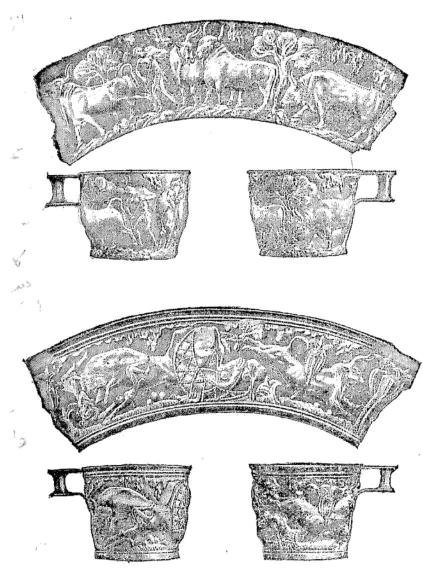
الشكل ١٠٧ سادة وسيدات من طبقة الاشراف الكريتية في العصر الذهبي على مصاطب القصر في كنسوس

رُسم هذا المشهد على جدران القصر وهو جزء من الزخارف الكثيرة المرسومة عليها من الداخل. وقد رمم بعض الترميم كما يشاهد اعلاهُ وهو نموذج نفيس من اعمال المصوّر الكريتي الذي مكنته مهارتهُ في فنهِ من ان يرسم عن بعد صورة جمهور كهذا يجعل الناظر اليها يرى من فيها كأنهم احياء

صناعتهم كانت آخذة في الترقي ولكن كانما كان ذلك بارشاد من مصر . فان المصريين كانوا يُغَشُّون جدران منازلهم بالآجر المزخرف بالمينا قبل الكريتيين بالفي سنة . ولكن المصوّر الكريتي مع احتذائهِ مثال المصوّر المصري لم يقتف خطواتهِ كما يقتفي العبد خطى مولاه ولم يستعمل نفس القالب الذي استعملهُ المصري . فالمصري كان اذا صوَّر نبتةً نامية على جدار ما ظهرت جاسية كأَن لا حياة فيها . اما الكريتي فكان اذا رسم هذه الصور نفسها يتقن رسمها كل الاتقان حتى يخيّل للناظر اليها (ش١٠٤) انهُ يرى الريح تداعب افنانها فيسمع كانما بعينيهِ موسيقى حفيف اوراقها . ولم يكن الكريتي الخفار في العاج او الصائغ او النحّاس اقل مهارةً في عملهِ من المصوّر فان هؤلاء اجادوا في صناعاتهم المختلفة كل الاجادة وصنعوا اشياء نفيسة جدًّا تعدُّ من اعظم اعمال الصناعة في الدنيا (ش ١٠٨ و١٠٩)

(٣٥١) الكريتيون في عصرهم الذهبي . العامة

وكان القصر الملكي يُطلُّ على بلدة منازلها بسيطة مبنيَّة باللبن العادي . ولكنها على بساطتها ، قد عاش فيها تجار وخزَّافون وصاغة ومصوّرون وغيرهم من ارباب الحرف الذين اقام كثيرون منهم بقصر الملك واشتغلوا فيهِ . اما في الارباض او عُدْوات الاودية فاقام الفلاحون لكي يحرثوا الارض . وفي الشكل ٩٩ يرى موكب منهم يسير واعلام السرور تخفق فوقهُ . والارجح ان ذلك كان يوم عيد الحصاد



الشكل ١٠٨ ثيران بريَّة حفرها صائغ كريتيّ على كاسين من ذهب وجدتا في فافيو بجوار سبارطه وهو نفس المكان الذي جلبتا اليهِ من كريت

طرّق الصائغ هذهِ الصور المدهشة اولاً بالمطرقة ثم ركبها على قالب واتمّ تسويتها بآلة الحفر المخصوصة . ويعدُّ عملهُ من اعظم الاعمال الفنيَّة التي قام بها شعب من الشعوب في كل العصور . ولا يزال الصناع الشرقيون في جميع المعامل يعوّلون في تزويقهم للآنية الفضية والنحاسية على هذهِ الطريقة حتى الآن

(٣٥٢) النبلاء حول الملك

وفي مواكب كهذه ، كان يُطلُّ على الجماهير المتألبة من الشُرف رهط من اشراف السادة والسيدات . وكانت تجتمع السيدات على مصاطب القصر بازياء لا تستنكف ان تميس بها غادات باريس او لندن الآن .

ومن على هذه المصاطب ، كنّ يراقبنَ الابطال الملاكين وعلى رؤوسهم خوذ المعدن الثقيلة.
وكان المجلس الملتئم في القصر يهتف للشجعان الذين كانوا يصارعون الثيران كلما رأوهم محمولين على قرونها (ش ١٠٨) وهذه الثيران هي نفس الحيوانات الهائلة التي كان اوربيّو العصر الحجري المتأخر قبل الآن بالف سنة ، يباهون بقنصها وكان لاعضاء هذا المجلس مخادع مخصوصة في القصر يقيمون بها على الرُّحب والسَّعة ولديهم كل اسباب الراحة والرفاهية من حمامات



الشكل ١٠٩ تمثال صغير من عاج لسيدة كريتية من العصر الذهبي
(متحف الفنون الجميلة في بوستن)

تدلُّ وِقفة صاحبة هذا التمثال على الكبرياء والعُجب . فالصدر خارج والظهر داخل . والذراعان ممدودتان على مداها . وفي كل من يديها حية ذهبية تلتفّ على ساعدها حتى المرفق . وعلى رأسها تاجٌ محكم الوضع على شعرها الجعد . وعلى جذعها صُدرةٌ كالمشد تستدقُ تدريجاً حتى تنتهي عند خصرها الاهيف . والثوبُ الذي على بدنها عبارة عن زي عصري مدهش حتى لو برزت فيه لابستهُ في شارع من شوارع المدن الكبرى اليوم ما تصدَّى احدٌ للقيل والقال عليها وعليها . والتمثال مصنوع من العاج والدوائر التي تُرى على التنورة مزركشة بخيوط ذهبية . والمنطقة التي تطوّق خصرها هي من نفس المادَّة . والتمثال يرمز اما الى الالاهة الكريتية الكبرى او الى حاوية من نساء البلاط رشيقة القوام . ومهما كانت هذه السيدة فان صانع تمثالها جعل لها هيئة من انبل الهيئات في زمانهِ واجملها ولم يستطع النحات اليوناني في كل مجدهِ ان يفوق النحات الكريتي في ابداعهِ جسوم التماثيل التي يصنعها حيوية وجمالاً فتاناً تظهر بها كأنها اجسام حيّة .

ومصارف للمياه بحسب الاصول الفنيّة الصحية

(٣٥٣) مركز كريت السياسي والتجاري في العصر الذهبي وبعدهُ

وكان الملك متى شاء يخرج من الباب الشمالي للقصر في كنسُوس ويركب عربة من عرباتهِ ويؤمُّ المرفأ فيصل اليهِ بنصف ساعة . لان المسافة بينهُ وبين القصر لم تزد عن ثلاثة اميال ونصف ميل . ومن المرفإ كان يرسل رائد الطرف الى الشمال فيرى جليًا جزر بحر ايجه حيال الافق الشمالي . ومن هذه الجزر كانت سفن ملوك كريت التجارية، وهي اقدم قوّة بحرية نشأت في الجزء الشمالي من بحر الروم ، تبثُّ الصنائع والفنون الكريتية في ارجائهِ . وما كان اعظم الفرق بين هذه السفن وزوارق العصر الحجري المتأخر (ش ٩) التي كانت عبارة عن جذوع اشجار كبيرة مجوَّفة . وكان ملوك كريت مع كل قوتهم أتباعاً لفرعون ملك مصر . يدلنا على ذلك تسمية احد قوّاد تحتمس الثالث (ف ١١٥) في القرن الخامس عشر « بحاكم الجزائر التي في وسط البحر » هكذا كان المصريون يسمون جزر بحر ايجه (ش ١١١) .

(٣٥٤) كريت وطن المدنية الثالثة العظيمة في العالم القديم

نشأ في جزيرة كريت عالمٌ جديد . وكان الكريتيون على جانب من التهذيب والرقي الادبي لانهم احتكّوا بالمصريين . وكان هؤلاء ارقى ، فتكهربوا منهم وهبوا من سِنة العصر الحجري المتأخر التي اخذت اوربا ، الى يقظة جديدة كلها نشاط ووطنية . وهكذا نشأ في شرق البحر المتوسط مدنية جديدة تعدُّ ثالثة المدنيتين القديمتين ، مدنية مصر ومدنية ما بين النهرين . وكانت هذه المدنية الثالثة الصلة بين المدنية الشرقية ومدنية بلاد اليونان وغرب اوربا فيما بعد

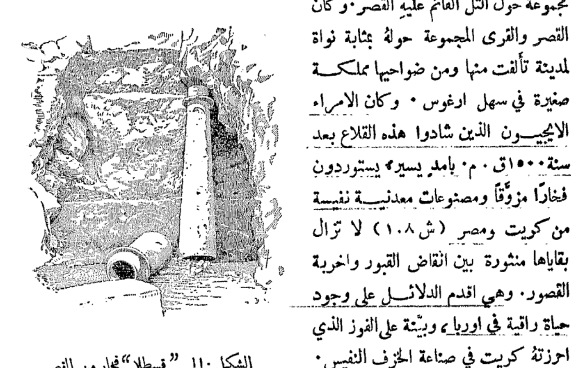
٣٥

العالم الايجي : البرّ الاصليّ

(٣٥٥) بلوغ المدنية الكريتية الى بلاد اليونان الاصلية . العصر الميكاني

وكان البرّ العظيم في اوربا واسيا الصغرى متأخرًا كثيرًا في المدنية عن الجزُر التي كانت قد قطعت شوطاً عظيماً في مضمارها . على ان سفن مصر وكريت كانت مثابرة على حفظ الصلات التجارية مع بلاد اليونان الاصلية وكانت بالطبع تدخلها من الخلجان الجنوبية خصوصاً خليج ارغوس المتجه جنوباً نحو كريت على خط مستقيم (خريطة ١١) وكان في تيرِنس وميكاني الواقعتين في سهل ارغوس وراء الخليج الحصين ، معاقل هائلة مبنية جدرانها واسسها بحجارة ضخمة تدل على مهارة في فنّ الهندسة ومعرفة باساليب الدفاع . وكان

قصر امير تيرنس على ما يعرف اوّل قلعة بُنيت في اوربا . اما ضياع عامة الشعب فكانت مجموعة حول التل القائم عليهِ القصر . وكان القصر والقرى المجموعة حولهُ بمثابة نواة لمدينة تألفت منها ومن ضواحيها مملكة صغيرة في سهل ارغوس . وكان الامراء الايجيون الذين شادوا هذه القلاع بعد سنة ١٥٠٠ ق . م . بامدٍ يسيرٍ يستوردون فخارًا مزوّقًا ومصنوعات معدنية نفيسة من كريت ومصر (ش ١٠٨) لا تزال بقاياها منثورة بين انقاض القبور واخربة القصور . وهي اقدم الدلائل على وجود حياة راقية في اوربا ، وبيّنة على الفوز الذي احرزتهُ كريت في صناعة الخزف النفيس . وبين البقايا المذكورة ، قطعٌ من الزجاج المصري ، وآثار من الزخارف التي ازدانت بها الجدران . ويُعرف هذا العصر (١٥٠٠ — ١٢٠٠ ق . م .) بالعصر الميكاني نسبة الى ميكاني التي اكتشفت فيها اولاً ، مدنية كهذه (ن ٣٦)



الشكل ١١٠ "قسطلا" فخار من القصر الكريتي في كنسوس

كان هذان القسطلان المصنوعان من الفخار بطول قدمين ونصف وقطر اربعة قراريط الى ستة ، جزءًا من قناة طويلة متقنة لجر المياه والسوائل من القصر . وهي اقدم ما يكون من نوعها في العالم الاوربي . واقدم نوع منها معروف هو القناة التي كانت في هيكل الهرم "ابو صير" مصر (ش ٣٨) كانت انابيبها من نحاس . وهي اقدم من التي في كنسوس بالف سنة

(٣٥٦) استعمار اوربا على التقهقر

ولكن برّ اوربا العظيم ظل متخلفاً وراء الجزر لان الكتابة الكريتية — على ما يظهر — لم تسر جنباً لجنب مع التجارة فلم تشع الكتابة في قارة اوربا . وكانت الاقطار التي الى الشمال من بلاد اليونان كثساليا ، غاصة بالقرى والدساكر التي لم تتخطَّ مدنيتها حدود مدنية العصر الحجري المتأخر الاّ قليلاً . فالمعدن مع انهُ كان معروفاً لم يدرج استعمالهُ في ثساليا حتى نحو سنة ١٥٠٠ ق م . فكان تأثير الكريتيين المتمدنين في الشمال طفيفاً

(٣٥٧) السبر الاسيوي . تأسيس طروادة نحو ٢٠٠٠ ق . م

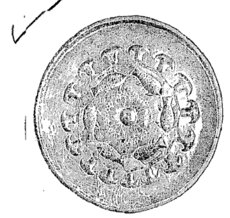
اما الجانب الاسيوي من بحر ايجه فقد سبق الجانب الاوربي في مضمار التقدم زمناً مديدًا ويُعزى معظم هذا السبق الى الاتصال التجاري بكريت — اتصال كان قليل التأثير في سواحل اسية الصغرى . وفي الزمان الذى وصل فيهِ المعدن اوّل مرّة الى كريت (بعد

سنة ٣٠٠٠ ق ٠ م ٠) قامت عند الزاوية الشمالية الغربية من اسية الصغرى قرية حقيرة من قرى العصر الحجري المتأخر تدعى طروادة : ويرجح انهُ قام ببنيانها جماعة من التجار استهوتهم التجارة الرائجة بين اسية واوربا في هذه النقطة (خريطة ١١)

(٣٥٨) المدعو طروادة ٢٥٠٠ — ١٥٠٠ ق م

وفي سنة ٢٥٠٠ ق ٠ م ٠ بعد دخول اوّل المعادن الى طروادة ببضعة قرون ، كان حكامها قد صاروا ملوك التجارة وارباب الثروة ٠ وكانت القلعة التي شيدوها اقدم حصن في العالم الايجي ، لانها بُنيت قبل ان بنيت حصون ميكاني وتيرنس بالف سنة جُدِّد في غضونها بناء طروادة بضع مرات (ش ١١٥) واستمرَّت على سيرها في خطة التقدم والازدهار حتى صارت اخيراً مملكة شاسعة الاطراف في الجزء الشمالي الغربي من اسية الصغرى ٠ ونحو سنة ١٥٠٠ ق ٠ م ٠ اصبحت طروادة الجميلة الراقية حصناً منيعاً وخصماً شديداً قام في الشمال لمزاحمة كنسوس المتنعمة في الجنوب ٠ وكانت احدى هاتين المدينتين تناوح الاخرى على طرفين متقابلين من بحر ايجه ٠ والارجح ان كنسوس كانت ارقى المدينتين عمراناً لانهُ لم يُعلم — حتى الآن — هل كان طرواديو هذا العصر قد حذقوا الكتابة

(٣٥٩) الحثيون حلقة الاتصال بين الهلال المخصب وبلاد ايجه



الشكل ١١١ صحن ذهبي لحاكم جزر بحر ايجه المصري في العصر الذهبي

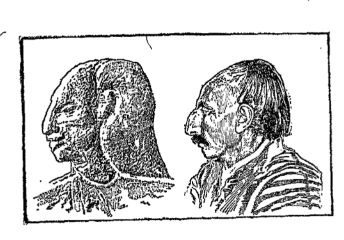
قدَّم هذا الصحن الذهبي تحتمس الثالث لاحد قواده المحبوبين الذي كان قد نصبهُ حاكماً لجزر بحر ايجه . وكان على الصحن كتابة منها عُرف ان هذا القائد لقب بحاكم الجزر التي في وسط البحر . وقد عنى المصريون بذلك ، جزر ايجه مع سواحل اسية الصغرى

هناك في داخلية البلاد ، بمنأى عن طروادة ، وراء آكام وجبال آسية الصغرى البعيدة الاكناف ، قامت منازل قرى ومدن شعب من الجنس الابيض كان نسيباً للايجيين في المدنية لا في الدم يُعرف بالشعب الحثي ٠ وقد رأينا قبلاً ان الحثيين كانوا منهمكين في السياسة والحرب مع جيرانهم في الجنوب (ف ١٢٨) ومع ان معظم بلادهم كان واقعاً وراء حدود العالم الايجي كان يحسب الساحل الشرقي من بحر ايجه طرفاً من اطرافها ٠ ولهذا كان للحثيين نصيب في تاريخ المدنية الايجية ٠ وقد رأينا في اثناء بحثنا عن تأثير العوامل الشرقية في العالم الايجي (ف ٣٤٠) كيف ان اسية الصغرى كانت حلقة الاتصال بينها وبين عالم الفرات والذي جعلها هكذا انما هو الشعب الحثي ٠ فان الحثيين استسهلوا الهبوط من تخم بلادهم الشرقي ، مارِّين باعالي الفرات ، الى اراضي الهلال المخصب حيث امتزجوا بالسكان تمام

الامتزاج . ولم ننسَ بعد كيف زاحموا بابل منذ القديم واستولوا على اشور (ف ٢٠٨) ولا كيف نازعوا المصريين في شمال سورية (ف ١٢٨) . وكان شعار الحثيين نفس شعار بابل القديم اي نسراً لهُ راس اسد او نسرًا براسين . وُجد فيها هذا الشعار منذ القديم واخذه عنها الحثيون . ثم قطع بلاد ايجيه الى اوربا واتخذتهُ النمسا وروسية شعارًا لهما . ثم عبر الاوقيانوس الى الولايات المتحدة حيث تسمَّى بالنسر الاميركاني (ش ٦٠)

٣٦٠) تأثير الحثيين في مجاوريهم شرقاً وغرباً

وترك الحثيون علامتهم الفارقة « الانف الاقنى » على وجوه مجاوريهم في العالم الايجي والهلال المخصب . (ش ١١٢) ووجود هذه العلامة الفارقة في وجوه اليهود دليل على ان الحثيين هاجروا من بلادهم وقطعوا الطرف الغربي من الهلال المخصب فساقتهم الاقدار الى فلسطين (ف ٢٩٩) حيث تركوا هذا الاثر في الوجه اليهودي . وكان للحثيين تأثير عظيم في يونانيي المدن الواقعة على ساحل اسية الصغرى أثرهُ ظاهر في اليونان الذين خلفوهم ولا سيا في الشؤون التجارية المهمة والديانة وفن البناء



الشكل ١١٢ حثيّ عتيق وسليله الارمني الحديث

راس حثي قديم كما وُجد منحوتاً على احد جدران هيكل في طيبة بيد نحات مصري منذ ثلاثة الاف سنة وهو يشبه كل الشبه شكل وجوه الارمن الساكنين حتى الآن بلاد الحثيين كما يرى في الصورة التي الى اليمين . وفي حديثة العهد وقد اكتسب الانف الاقنى (ف ١٥٣) من الحثيين جيرانهم الساميون المقيمون في الجانب الشرقي من البحر المتوسط ومنهم الكنعانيون

٣٦١) ظهور المدنية المخصبة . الكتابة البابلية

وكان من اختلاط الحثيين بسكان الهلال المخصب انَّ الحثيين حصلوا على الذرائع الاولى التي ادَّتهم الى مدنية اعلى « من اهم مظاهرها الكتابة . فان القوافل البابلية كانت منذ ايام حمورابي (ف ١٩٣) او قبلها تؤُمُّ اسية الصغرى مارَّة بالفرات صُعُدًا لمآرب تجارية محضة ومعها صكوك ووثائق تجارية مكتوبة بالخط المسماري على الواح من اجرّ (ش ٥٧) . وبهذه الطريقة تعلَّم الحثيون الكتابة المسمارية كما تعلمتها شعوب اخرى غيرهم في الغرب وكان ذلك سنة ٢٠٠٠ ق . م . او قبلها . وقد كشفت لنا اعمال الحفر والتنقيب في اسية الصغرى قطعاً من الاجر هي بقايا معاجم او قواميس استعملها الحثيون قديماً في تعلمهم التهجئة والكتابة باللغة المسمارية . والمرجح ان الكريتيين اخذوا عن الحثيين استعمال الواح

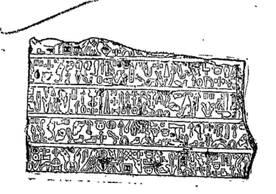
الاجرّ للكتابة

(٢٦٢) الكتابة الهيروغليفية الحثية

ولما اقتبس الحثيون المدنية المصرية من مدن شمال سورية لم يتلكأوا عن الانتفاع بها (ش ٦٩) فانهم بعد ان عرفوا الخط الهيروغليفي ، ابتكروا نظاماً جديداً للكتابة بان عوّلوا على علامات او رموز تصويرية صوتية (ش ١١٣) نقشوا بها على الصخور الكبيرة آثاراً مهمّة كالتي تشاهد في مصر • ولا يزال السياح يشاهدونها على الصخور والجدران الحجرية في جهات كثيرة من اسية الصغرى ، من بلاد ايجه الى الفرات ، فضلاً عن الكتابات الجديدة التي يعثر عليها المنقبون بين حين وآخر • فنرى ان الحثيين قد عوّلوا على نوعين من الكتابة ، المسمارية والهيروغليفية الآ انهُ — لسوء الحظ — لم يستطع العلماء حتى الآن ان يحلوا رموز الآثار الحثية المكتوبة بالهيروغليفية • اما المكتوب منها بالخط المسماري فقد حلَّ رموزهُ العلّامة هروزني التشيكوسلاڤاكي • وحينما يتمكن العلماء من قراءة جميع ما لديهم من الآثار — آثار مصر وبابل وبلاد فارس — تنكشف لنا حقائق خطيرة جمّة من تاريخ العالم القديم

(٢٦٣) فنون الحثيين

وفي الوقت نفسهِ كان الحثيون قد برعوا بفن البناء ، يظهر ذلك من النظر الى قصر ملكهم الذي كان مقدّمهُ مؤلفاً من سُدّة في الوسط ترتكز على عمودين ، وعلى جانبيها برجان مربعان (ش ٦٩) ولذلك دُعيت « بيت البرجين » وهذه السُدَّة اخذها عظماء ملوك اشور عن الحثيين (ف ٢٣١) ووصلت اخيراً الى الفرس • وقد كانوا يزخرفونها بنصب تماثيل اسود هائلة منحوتة من حجارة كبيرة على جانبي مدخلها • وهي فكرة مستمدة اصلاً من (السفنكس) المصري وما لبثت ان اجتازت السدَّة الى بلاد اشور ايضاً • وكان



الشكل ١١٣ كتابة بالخط الهيروغليفي الحثي

ان هذا النموذج من الكتابة يرينا نوع الكتابة الهيروغليفية الذي اخترعهُ الحثيون تقليداً للخط الهيروغليفي المصري (ف ٢٤٣) وقد وُجدت هذه الكتابة في كركميش على الفرات ويُشاهد مثلها تماماً في المشهد الذي في الشكل ١١٤

الحثيون يزينون سُدَّة القصر بنقوش ناتئة (ش ١١٤) ويرجح انهم اقتبسوا ذلك من مصر (ش ٤٣) ثم اجتازت هذه العادة من الحثيين الى بلاد اشور التي كانت قصور الملوك فيها مزدانة بصفوف مستطيلة من الصوَر المنحوتة في الحجر (ش ٧٥ و B ٧٦) • ولم يكن النحاتون الحثيون ماهرين كثيراً في استعمال الازميل الذي فاقهم فيهِ الاشوريون ولكنهم

تحت التأثـير الاشوري تحسنت صناعتهم قليلًا

(٣٦٤) ديانة الحثيين

ونرى في هذه المشاهد ايضاً بيّنات على وجود المؤثرات الدينية المصرية والبابلية كالنسر البابلي المذكور آنفاً وقرص الشمس المصري المجنّح · ومما يجب ان نلاحظهُ ايضاً عبادة الحثيين للارض كإلاهتهم العظمى وكذلك سكان كريت فانهم عبدوا هذه الالاهة كما عبدها من بعدهم اليونان (ف ٤١٨)

(٣٦٥) مملكة الحثيين

الشكل ١١٤ امير حثي يصطاد غزالاً

هوذا الامير واقف في مركبتهِ الجارية يرمي غزالاً بنشاب قوسهِ . والغزال يعدو هارباً منهُ . ويشاهد الى جانب الخيل كلب يركض . وفي أعلى هذا المشهد كتابة باللغة الهيروغليفية الحثية (ف ٣٦٢) وكل ذلك منحوت في الصخر وهو نموذج جميل للكتابة الحثية الفخمة

وفي ايام عظمة مملكة مصر حين كانت كنشُوس لا تزال متنعمة بعصرها الذهبي وطروادة مناظرتها في الشمال تبني المدينة السادسة البهية اي نحو سنة ١٥٠٠ ق · م ، كانت احدى الممالك الحثية الواقعة الى الشرق من نهر هاليس تزداد قوّة ومَنَعةً · وفي هذا العصر قويت شوكة ملوك الحثيين واتسع نطاق مُلكهم من عاصمتهم «خطّي» الى كل جهة · فعنا لسلطانهم سائر الممالك الحثية الاخرى التي لموَّا شعثها وألّفوا منها امبراطورية كبيرة كانت تشتمل على جزء كبير من اسية الصغرى (ف ١٢٨) ودامت دولة هولاء الحثيين نحو قرنين ونصف قرن (من ١٤٥٠–١٢٠٠ ق · م ·) ثم انقرضت · وقد اقتنى الحثيون الفَرَس قبل البابليين (ف ٢٠٣) ولذلك استطاعوا ان يؤلفوا فرقاً كبيرة قوية من راكبي المركبات

(٣٦٦) الحثيون اول من نفع العالم القديم بالحديد

ومن اهم ما يُذكر به الحثيون بالخير ، هو انهم شرعوا يعملون في مناجم الحديد قبالة البحر الاسود (ف ٣٥٩) . وقد وُجدت اجرَّة خُطَّ عليها كتاب من احد ملوكهم جاء فيه

انهُ كان على وشك ان يرسل الى رعمسيس الثـاني، بناء على طلب ورد عليهِ منهُ، سفينة مشحونة حديداً نقياً، وانهُ قد ارسل سيفاً الى ملك مصر (القرن الثالث عشر ق ٠ م ٠) ٠ وسنرى عما قليل ان عصر الحديد ابتدأ في بلاد ايجه (ف ٣٩٦) وان شيوع الحديد لاوَّل مرَّة في الجانب الشرقي من بحر الروم، نجم عن معادن الحديد الحثية ٠ كانت المدنية الحثية دون مدنية مصر وبابل ولكنها مثَّلت في جوار بحر ايجه دوراً مهماً بين المدنيات الشرقية

٣٦



الاكتشافات الحديثة في شمال البحر المتوسط وظهور عالم شرقي فيهِ

(٣٦٧) جهل العالم الحديث لمدنية الايجية

كنا حتى الآن دائبين في تأليف قصة نشوء المدنية في شمال الطرف الشرقي من البحر المتوسط وتعيين زمانها، تلك المدنية التي خفق لواؤها من بلاد ايجه الى بلاد ما بين النهرين، وكانت بلاد الحثيين بين البلادين ٠ وقد كانت هذه القصة لسنين قلائل خلت، مجهولة ٠ فمنذ خمسين سنة لم يكن يخطر على بال احد ان شعباً متمدناً عاش في بلاد ايجه قبل ان دخلها اليونان ٠ بل بالحري لم يقم في ذهن احد انهُ سيعثر المنقبون على الآثار التي صنعتها ايدي (اسلاف اليونانيين في بلاد ايجه) ومكتشف المدنية الايجية التي نحن بصددها هو هنريخ شليمَن

(٣٦٨) صورة شليمن

وشليمن هذا الماني المولد اميركي الموطن ٠ كان قبل مهاجرتهِ الى اميركا يقتحم المخاطر البحرية في سبيل الاتجار فانكسرت السفينة بهِ مرَّة على سواحل هولاندا ٠ ومن ذلك الوقت صار يتعاطى البيع في دكان بدَّال صغير وهو فتى غضُّ الإهاب ٠ وفي اوقات الفراغ بعد ان يكون قد وزَّع السمك المقدَّد والزبدة على العملاء كان يدرس اليونانية ٠ فلما ان قضى منها لُبانتهُ شرع في مطالعة مؤَلفات هوميروس (ف ٤١٣) ففتنهُ ما لقيهُ فيها من المعاني الحسان وسحر البيان فاستعرت في صدرهِ نار الحماسة وخيّل لهُ انهُ يسمع ضوضاء ابطال اليونان في سهل طروادة واختلاط اصواتهم بصلصلة قطع النقود المعدنية وخشخشة الورق الذي كان يلفُّ بهِ السلع التي يبيعها في حانوت الهولاندي الوسخ ٠ ولما اعتزل الاعمال التجارية، بعد ان كان قد جمع من تجارة البترول ثروة طائلة، لم تبرح من ذهنهِ الرؤيا التي رآها وهو يطالع مؤَلفات هوميروس

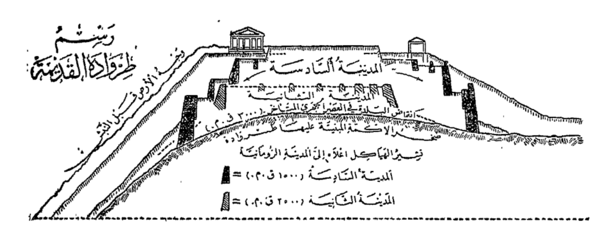
(٣٦٩) حفر شليمن واكتشافهُ طروادة

ولما استأجر جماعة من الترك وباشر الحفر في تل طروادة سنة ١٨٧٠ كان عملهُ هذا تحقيقاً لاحلام شبابهِ ٠ وفي اقل من اربع سنين كشف مراكز تسع مدن عاقبت الواحدة

منها الاخرى وبنيت على اطلالها (ش ١١٥) ووُجد في البرج القائم فوق مدخل المدينة كنز نفيس يحتوي على كثير من المصنوعات الذهبية . فقام في فكر شليمن انهُ اكتشف طروادة ابطال هوميروس اليونانيين (ف ٤١١) الاَّ ان ارباب التحقيق يزعمون ان المدينة الثانية بنيت قبل طروادة هوميروس بالف سنة

(٢٧٠) نبش شليمن لـ يرنس وميكاني

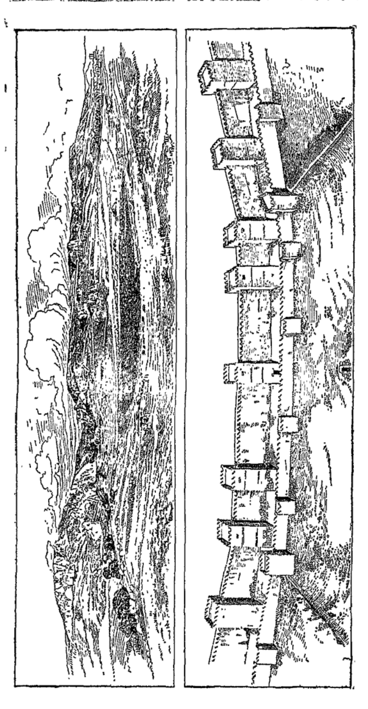
ان الشعور العام الذي اثارتهُ هـذه الاكتشافات بين علماء اوربا واميركا، كان طفيفاً بالنسبة الى ما اثارهُ فيهم ذهاب شليمن الى بلاد اليونان نفسها وشروعهُ في الحفر والتنقيب



الشكل ١١٥

هيئة التلّ الذي قامت عليهِ طروادة القديمة . تظهر فيهِ اسوار المدينة الثانية والسادسة والهيكل الروماني على القمة وقد تقدَّم بيان الطريقة الصناعية التي كان يكبُر بها امثال هذا التلّ . ويظهر في هذا الرسم ان لا نسبة بين العلو والعرض فرسم التلّ عالٍ جدًّا بالنسبة الى عرضهِ . وسبب ذلك على ما يظهر هو انهم ضغطوا جانبي الصورة لكي تسع الفسحة المحدودة ، الرسم كلهُ .وكان علوّ التل حين زارهُ شليمن اوَّل مرَّة سنة ١٨٦٨ نحو ١٢٥ قدماً.وكان الاتراك حينئذ يزرعون قمتهُ حنطة . وفي سنة ١٨٧٠ حفر شليمن منجماً على قمة التل اشبه بفوهة البركان واخترق في غضون اربع سنين اطلال تسع مدن متعاقبة بُني كلٌّ منها على انقاض ما قبلهُ . وفي قعر هذا المنجم . وعلى عمق ٥٠ قدماً وجد شليمن قمة التل الاصلية وكانت أعلى من الارض التي حولها بخمس وسبعين قدماً . وكان اهل العصر الحجري المتأخر (ف٣٥٧) قد بنوا عليها سنة ٣٠٠٠ ق.م. قرية صغيرة باللبن العادي وعلى اطلال هذه القرية الحقيرة قامت اطلال المدن التسع المذكورة طبقة فوق أُخرى وفوقها البنايات الرومانية . فالخمسون قدماً من اعلى التل الى القمة الاصلية تشتمل على تاريخ ٣٥٠٠ سنة من تأسيس المدينة الاولى (العصر الحجري المتأخر) الى تأسيس المدينة التاسعة (رومانية) وقد وُجد في المدينة الثانية (ف ٣٥٨) المدلول على اسوارها المائلة في الشكل باللون الفاتح المخطط ، اقدم انواع النحاس في مجموعة هذه المدن . ووراء هذه وأعلى منها بكثير كانت اسوار المدينة السادسة (سوداء) التي شيدت ايام كانت ميكاني في إبان زهوها تحمي السكان من هجمات اليونان في حرب آلت الى تدميرها سنة ١٢٠٠ ق.م. انتهت الحرب وظلت تروى عنها التقاليد المبهمة واقاصيص البطولة في اشعارها هوميروس الى ما شاء الله (ف٤٠٨) واما بقية المدن الاخرى من التسع ، فأقلُّ خطورة من سواها . ولذلك أُهمل امرها حبًّا للاختصار والجلاء . . ولم يرَ شليمن قط اسوار المدينة السادسة مدينة هوميروس الحقيقية لانهُ فيما كان يحفر في منتصف التل ضمن الاسوار القديمة طمر الاسوار بالتراب المحفور فلم تنكشف لهُ

عن آثار حصن ميكاني او قلعتها السابقة لعهد التاريخ حيث وُجد تحت بلاط السوق مجموعة من قبور حجر محتوية على جملة آنية وحُلى من ذهب بينها تاج ذهبي جميل الصنعة يدل على ان



الشكل ١١٦ عاصمة الحثيين القديمة في اواسط اسية الصغرى

يظهر لنا المشهد اعلاهُ أخربة المدينة المسورة العظيمة التي كانت كرسية قائمة على هضبة تلال . وتسمى موقعها الآن "بوغاز كوي" وهو اسم لقرية حديثة العهد واقعة بقربه . لكن الحثيين دعوا المكان "ختّا" والمشهد السفلي يظهر لنا اسوار المدينة كما كانت قبلاً في القرن الثالث عشر ق ٠ م في عصر الملوك الحثيين

احد المدفونين هناك هو من العائلة المالكة ٠ فتوهم شليمن حين رأى هذه النفائس انها من آثار ابطال حرب طروادة اليونانيين (ف ٤١١) والواقع انها اقدم ٠ ثم اكتشف شليمن في قلعة تيرنس اكتشافات أخرى لا تقل عن هذه نفاسة ٠ فنرى ان شخصاً عديم الاختبار قد كشف عن مدنية جديدة في بلاد الجه كانت محجوبة عن علم النـاس وقد ازدهرت قبل ان برز

اليونان ببضعة قرون ليمثلوا دورهم على المسرح الذي مثَّل عليهِ اسلافهم ادوارهم قبل ان تواروا وراء الستار شأن جميع الاحياء

(٢٧١) اعمال الحفر في كريت

لم يستطع العلماء من مجرَّد الوقوف على ما قام بهِ شليمن من الحفر ان يبتُّوا حكماً مبرماً في تعيين الموقع الذي نشأت فيهِ المدنية الايجية اولاً • ولكن منذ سنة ١٩٠٠ أبانت الحفريات في كريت ان تلك الجزيرة كانت مهد المدنية الايجية والمركز الذي انتشرت منهُ الى الجزُر الاخرى والى تَيْرِنس وميكاني في برّ اليونان (ف ٣٥٥) • ويعود الفضل في هذه الاكتشافات بنوع اخصّ الى تنقيب الاثري الانكليزي، السر ارثر ايفانس، في مدينة كنسوس • فقد كشف هذا الاثري قصور كريت الماخرة (ش ١٠٦) ورفع اطباق الانقاض عن نفائس المصنوعات التي جادت بها عقول وأيدي الصنّاع الكريتيين جيلاً بعد جيل حتى بلغ انقاض قرية من بقايا العصر الحجري المتأخر بني فوقها القصر الاوّل (ف ٣٤٥)

(٢٧٢) الحفر والاكتشافات في اسية الصغرى بلاد الحثيين

وفي الوقت نفسهِ كشفت لنا اعمال الحفر والتنقيب في اسية الصغرى، كثيرًا من آثار الحثيين • واهم الاكتشافات هنا ما قامت بهِ البعثة الالمانية في «خطي» (١١٦) ابتدأت البعثة بعملها في شتاء ١٩٠٦ – ١٩٠٧ فوجد المنقبون، تحت قشرة رقيقة من التراب، الالواح الخزفية التي كانت تملأ الغرف المخصصة بالسجلات في قصر ملوك الحثيين في إبان مجد مملكتهم منذ ثلاثة آلاف سنة. هنا وُجدت رسائل من ملوك مصر وبابل واشور وسائر ملوك بلدان الشرق التي درسنا عنها • ومن جملة تلك الرسائل الكتاب الذي سبق ذكرهُ المتضمن انباء ملك الحثيين عن شحنة الحديد • وعلاوةً على ما قامت بهِ البعثة الالمانية من استرجاع السجلات المفقودة، فقد نقَّبت تدريجاً عن اسوار المدينة القديمة ومبانيها الرئيسية وابانت هندسة البناء فيها بعد ان كانت طامسة (راجع ش ١١٦)

(٢٧٣) اكتشاف جديد للمدنية الاولى حول الطرف الشرقي من البحر المتوسط

اننا – وان كنا حتى الآن عاجزين عن قراءة آثار الحثيين وفي بدء معرفتنا لها – لا ننكر ان الاكتشافات التي حصلت في بلادهم اماطت النقاب عن محيًا اقدم حضارة في الجانب الشمالي من شرق البحر المتوسط • فاذا الّفنا بين هذه الاكتشافات التي حصلت على الجانب الشمالي من البحر المتوسط عند طرفهِ الشرقي وبين تاريخ الاكتشافات التي تمت قبلها في بلدان المشرق الواقعة شرقي البحر المذكور والى جنوبهِ رأينا كيف ان العلماء المنقبين عن الآثار قد حصروا اعمالهم حول الطرف الشرقي من البحر المتوسط، من وادي النيل الاسفل الى البلاد المسماة بالهلال المخصب وبحر ايجه

ترينا هذه الاكتشافات كيف كانت الشعوب المتمدنة حول الطرف الشرقي من البحر

(٣٧٤) قيام عالم شرقي في البحر المتوسط نحو ٣٠٠٠ الى ١٥٠٠ ق٠م

المتوسط تدأب، بصناعتها وتجارتها، في ايجاد عالم متمدن لم يكن بحر ايجه الا خليجاً الى الشمال منهُ ٠ ولا نزال نذكر المرَّة الاولى التي لمحنا فيها هذا العالم الشرقي في البحر المتوسط ونحن صاعدون في النيل اذ رأينا السفن المصرية ماخرة في اليمّ نحو سنة ٣٠٠٠ ق ٠ م ٠ (ش ٢٩) ٠ والآن قد درسنا الشعوب التي كانت الى الشمال والشرق من البحر المتوسط ورأينا كيف كانت المدنية الايجية السامية آخذة بالامتزاج تدريجاً، قروناً متعاقبة، بالمدنيات الشرقية التي هي اقدم منها وخصوصاً مدنية مصر واسية الصغرى الحثية التي بواسطتها امتزجت المدنية الايجية بمدنية الهلال المخصب

(٣٧٥) الدخلاء الشماليون

الى هذه البلاد الراقية بفنونها وصناعاتها وتجارتها الواسعة اخذت بعض الشعوب الهمجية تتسلل من الشمال ومن وراء جبال البلقان والبحر الاسود٠ وما كانت تلك الشعوب الهمجية الا أمة اليونان التي قيّض لها ان تجتاح الجانب الشرقي من البحر المتوسط ٠ فصار من اللازم الآن ان نبدأ بهولاء الدخلاء فصلاً جديداً من تاريخ العالم الشرقي في بحر الروم

مسائل

٣٣

اين كان قد وصل الاوربيون في مضمار التقدم حين غادرناهم في اوربا وتحوَّلنا الى الشرق ؟ اي محصولات وصلت الى اوربا في العصر الحجري المتأخر من شرق البحر المتوسط ؟ كيف بلغت هذه الاشياء الى اوربا ؟ هل ارتقى الاوربيون، بعد حصولهم على المعادن، الى درجة عالية من المدنية ؟

٣٤

هل كان جزء من اوربا اقرب الى الشرق من العالم الايجي ؟ بأي طريقين كان مرتبطاً بالشرق ؟ اية جزيرة من جزر ايجه اقرب من سواها الى مصر ؟ صف بزوغ المدنية هناك ٠ هل لك شيء من البيِّنات على قوَّة التأثير المصري هناك ؟ اين قام

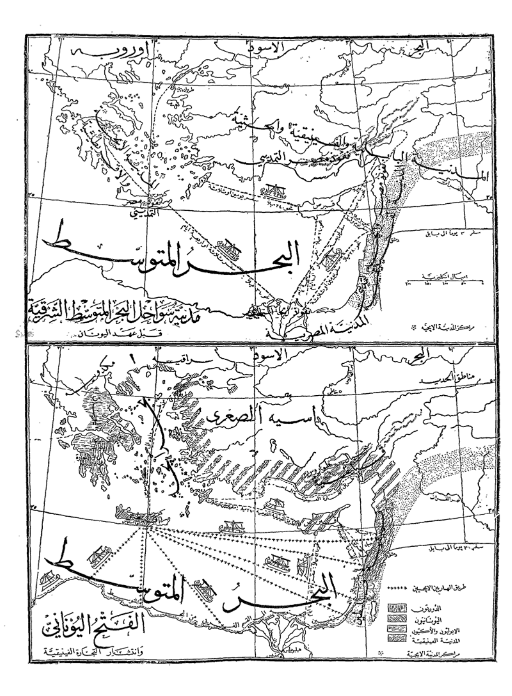
ملوك البحر الكريتيون ؟ ماذا تخلّف عنهم مما ينبئنا عن سلطانهم ؟ اية صناعات ازدهرت ؟ هل عندك بينة على تجارة كريتية ؟ ماذا حصل للكتابة الكريتية ؟ اذكر ما تعرفهُ عن فن النقش والزخرفة في العصر الذهبي وعن اعمال الصائغ والنحات ؟ اذكر ما تعرفهُ عن حياة سكان القصر وحياة الفلاحين ؟ تحت سلطان اية دولة اجنبية كان الكريتيون في هذا الوقت ؟ ما هي المدنيات الثلاث التي وُجدت الآن ؟

٣٥

هل استطاع بر اوربا العظيم ان يجاري كريت في المدنية ؟ اين نجد بينات المدنية الاولى في قارّة اوربا وما هي ؟ اين بزغت انوار المدنية على الجانب الشرقي من بحر ايجه ومتى ؟ ما الذي جذب الناس الى هذه البقعة ؟ ماذا تقدر ان تقول عن تاريخ وعمران طروادة ؟ اي شعب احتل اغلب اسيا الصغرى ؟ اذكر بعض الاشياء التي اوصلوها الى الغرب من الشرق ؟ اذكر بعض البينات عن تأثيرهم في الشرق ؟ ما هي المؤثرات التي بلغت الحثيين من الهلال المخصب ومن مصر ؟ متى قامت الامبراطورية الحثية وماذا تعرف عن نفوذها ؟ ما هو اهم شيء نفح بهِ الحثيون الشعوب الاخرى ؟

٣٦

من هو اوّل من اكتشف آثار الشعب الذي استوطن العالم الايجي قبل اليونان ؟ قل شيئاً عن حياتهِ . ماذا وُجد في طروادة ؟ في بلاد اليونان ؟ ماذا برهنت اعمال الحفر منذ ذلك الحين ؟ ماذا اظهرت الحفريات بآسية الصغرى ؟ الى اي حد بلغت اعمال الحفر في الطرف الشرقي من البحر المتوسط ؟ اي نوع من البلدان اظهرت الاكتشافات في شرق بحر الروم ؟ من هم هولاء الشماليون غير المتمدنين الذين شرعوا يعتدون على البلاد التي الى شرق البحر المتوسط ؟


مدنية سواحل البحر المتوسط الشرقية
قبل عهد اليونان
اوروبه
البحر الاسود
البحر المتوسط
المدنية البابلية والفينيقية والحثية
نفوذ مصر التمدني
المدنية المصرية
قبرص
سفر ٣ يوما الى بابل
اميال انكليزية
مراكز المدنية الايجية
الفتح اليوناني
وانتشار التجارة الفينيقية
البحر الاسود
البحر المتوسط
آسيه الصغرى
مناطق الحديد
سفر ٣٠ يوما الى بابل
طريق الهاربين الايجيين
الدوريون
اليونانيون
الايوليون والآكيون
المدنية الفينيقية
مراكز المدنية الايجية

الفصل التاسع

فتح اليونان للعالم الايجي

٣٧

مجيء اليونان

(٢٧٦) زحف الصف الهندي الاوربي في اوربا الى الجنوب

ان الشعب الذي ندعوهُ باليونان كان في اصلهِ مجموع قبائل من الجنس الهندي الاوربي الذي تتبعنا اسلافهُ الاولين الى وقت مهاجرتهم التي شعّبتهم ونظّمتهم اخيرًا صفًا يمتدّ من الاتلانتيكي الى الهند الشمالية. (ش ٢٥١ وش ٨٣) • وفيما كان انسباؤُهم الشرقيون يظعنون جنوباً على الجانب الشرقي من بحر قزبين كان اليونان الذين على الجانب الغربي من البحر الاسود يرحلون جنوباً من مراعيهم الفسيحة مقابل الدانيوب (انظر خريطة ١٢)

(٢٧٧) دخول اليونان شبه الجزيرة المنسوبة اليهم

وبعد سنة ١٢٠٠ ق • م • بامد غير طويل، فيما كان رجال القبائل اليونانية الهمج يترحّلون بقطعانهم، تصحبهم عيالهم في مركبات خشنة، شاقهم منظر البلاد الجديدة التي دخلوها وراعهم جمال سهول ثساليا وما فيها من المراعي الخصيبة وأُعجبوا بقمّة جبل اولمبوس المكلّلة بالثلوج الناصعة كما دهشوا بمياه بحر ايجه الزرقاء • وتبلغ مساحة شبه الجزيرة التي دخلوها خمسة وعشرين الف ميل مربع [1] تقطّعها الجبال والبواغيز، في جميع جهاتها، سهولاً

(١) صغيرة هذه المساحة حتى ان جبل اولمبوس الواقع على الحد الشمالي لبلاد اليونان، يرى من أكثر الاماكن في البلاد . والواقف على جبال سبارطة يمتد نظرهُ من جزيرة كريت الى الجبال التي الى الشمال من خليج كورنثوس مدى مئتين وخمسين ميلاً

صغيرة واشباه جزائر مفصولة بعضها عن بعض اما بالمياه او بسلاسل الجبال · ولا يقل عدد الجزائر المبثوثة على شواطئها المقطّعة، عن خمس مئة جزيرة · ولمعرفة نوع هوائها واصناف محاصيلها طالع (ف ٣٣٩)

(٣٢٨) برابرة اليونان الرحل والمدنية الايجية المقرّرة

ان الرعاة الرحّل الذين رأيناهم قبلًا مرارًا يهاجمون ارض الهلال المخصب (ف ١٤١ و ١٧٣ و ٣٠٢) طلبًا لمستقرٍ يقيمون به ويعيشون فيه عيشة حضرية يمثلون لنا موقف اليونان وهم يهاجمون المدن الايجية وبعض المستعمرات، كنيزنس وميكاني (ف ٣٥٥) . وما كانت تستقرّ قدمهم في البلاد الجديدة التي احتلّوها حتى رفعوا ابصارهم الى ما وراء مياه البحر فرُفع لهم بصورة ضئيلة منظر الجزائر وما فيها من المدن الزاهرة الحافلة بضروب نتاج الصناعات ولا سيما صناعة الخزف والادوات المعدنية التي كانت تشحنها سفن مصر وبلاد ايجه وتوزعها في الاقطار المعروفة



الشكل ١١٧ يرينا هذا الرسم صفًّا من اسرى ابطال الحرب وايديهم امامهم او فوق رؤوسهم مكبلة بالحديد . وعلى رؤوسهم قلانس مزدانة بالريش دلالة على انهم فلسطينيون (ف ٣٠٤) — قبيلة من رجال الحرب الكريتيين طردهم اليونان من كريت ف ٣٨٥ — وفي اثناء هربهم زيّن الغرور لفريق منهم ان يهاجموا مصر فكانت النتيجة ان اسرهم رعمسيس الثالث آخر امبراطرة مصر بعد سنة ١٢٠٠ ق · م بزمن قصير. ثم امر بوضع هذه الصورة على جدران هيكل طيبة بمصر. وتشاهد لهم صورًا أخرى في الشكل ١١٨ تعرف من لباس الراس

(٣٢٩) برابرة اليونان الرحل على حدود العالم الشرقي العظيم

وكان لا بدَّ من مرور زمن مديد على هولاء الرعاة سكان البر قبل ان يجسروا على اقتحام المياه التي رأوها الآن اوّل مرّة · ولو استطاعت ابصارهم ان تخترق الفضاء الواسع الى ما وراء الجزر لرأوا عددًا كبيرًا من الولايات الشرقية الزاهرة لان اليونان بمجرد وصولهم الى

بلاد ايجه كانوا قد دخلوا حدود العالم الشرقي العظيم · وتحت تأثير عوامل الشرق نهضت بهم همتهم الشماء لانشاء مدنية اسمى من كل المدنيات التي كان قد جاء بها الشرق بل اسمى المدنيات التي جاء بها الانسان القديم في كل زمان ومكان

(٣٨٠) اليونان الدوريون يقتفون اثر اليونان الاخائيين في شبه جزيرة المورة ١٥٠٠ ق · م

وتقدّمت طليعة اليونان الاخائيين جنوباً ودخلت شبه جزيرة المورة · واختلط بعض افرادها بسكان القرى الايجية القائمة تحت اسوار تيرنس وميكني وربما كان بعض قوادها قد استولى على الحصون الايجية كما استولى داود على اورشليم (ف ٣٠٥) الاّ ان معرفتنا بحقيقة الموقف والاحوال في بلاد اليونان ضعيفة جداً لان الشعب الذي هبط البلاد كان يجهل الكتابة فلم يترك آثاراً يستفاد منها شيء · الاّ اننا نعلم حق العلم ان جماعة أُخرى من اليونان الرحّل وصلوا الى المورة نحو سنة ١٥٠٠ ق · م · وتغلبوا على من سبقهم اليها من انسبائهم الاخائيين ومن ساكنهم في المدن من اهل البلاد الاصليين

(٣٨١) استيلاء اليونان على العالم الايجي. الدوريون في كريت وجنوبي بلاد ايجه

ولم يقف اليونان الدوريون عند حد البلاد الجنوبي الذي بلغوهُ بل قطعوا البحر الى كريت حوالي ١٤٠٠ ق · م · اذ كانوا قد اخذوا عن اسلافهم الايجيين شيئاً من علم سلك الابحر · وبما ان مدينة كنسُوس لم تكن محصّنة كانت الغنيمة الاولى للدوريين المهاجمين الذين استولوا على هذه الجزيرة كما استولوا على الجزائر الجنوبية الاخرى في بحر ايجه · وتتضح حقيقة الهجوم اليوناني على اسيا الصغرى بجلاء تام من الصكوك الحثية الجديدة التي تدعى فيها بلاد اليونان باسم « اخيا » · وفي معاهدة بين امبراطور الحثيين واحد ملوك سوريا يذكر الامبراطور الحثي الممالك العظيمة التي كان يحسبها على مستوىً واحد مع مملكته وهي : مصر وبابل واشور واخيا · وفي سنة ١٣٢٥ ق · م · كان احد ملوك اخيا المسمّى ايتوكليس ابن اندريوس الأيولي ، قد استولى على شقّة ضيقة من الساحل الجنوبي لاسيا الصغرى حيث احكم الصلات الودية مع امبراطور الحثيين الذي كان يدعوهُ اخاً لهُ كما كان يدعو ملوك مصر وبابل واشور ايضاً

واذا حولنا وجهة النظر عن هذه الصكوك الحثية واطلعنا على اقدم الاسماء المحفوظة في الاساطير اليونانية ، وجدنا في جملتها اسم ايتوكليس واسم ابيه اندريوس وأن ما جاء في الصكوك الجديدة في الاكتشاف الواحد يكمل ويؤيد ما ورد في المصادر الاخرى

وبعد ذلك بجيلين اي نحو سنة ١٢٥٠ ق · م · انفصمت عرى العلاقات الودية ما بين امبراطور الحثيين وملك اخيا · فقام اتريوس — ملك اخيا لذلك العهد — بعد حرب في غربي اسيا دارت دائرتها عليه ، واعدّ حملة حربية ثانية وقطع بجنوده البحر في مئة سفينة ونزلوا

جميعهم على سواحل « كاريا » وافتتحوها ولكن الحثيين اخرجوهم منها سريعاً
وقد كشف الاثريون في الكتابات الحثية التي تبحث عن تقلب الاحوال واضطرابها باسيا الصغرى الغربية، في هذا الوقت، اسم طروادة في منطقة تدعى «اسوڤا» وربما كانت هذه اللفظة اصل اللفظة « اسيًا » التي شاع استعمالها فيما بعد ·

ومن الاسماء المألوفة لدى من لهم اطلاع على الآداب اليونانيــة اسم اثريوس والد اغاممنون، قائد الحملة اليونانية الخالدة على طروادة· فالامر جلي الان ان الحملة اليونانية على طروادة هي حادثة تاريخية · وبعد حصار طالت مدتهُ استولى اليونان على مدينــة طروادة الزاهرة وجعلوهــا طعمةً للنار · وكان ذلك في القرن الثاني عشر ق · م · وظــلّ اليونان يذكرون بالفخر مدى الدهر هــذه الحادثة الخطيرة التي هاجت قرائــح شعرائهم فنظموا كثيرًا من اغانيهم الحماسية والحربيّة

ومع مرور الزمان فتح اليونان جميع السواحل الايجية في اسيًا الصغرى· فاقام الدوريون في الجنوب والايونيون في الوسط والايوليون في الشمال · وهكذا تغلّب اليونان في غضون الف سنة من ٢٠٠٠–١٠٠٠ ق · م · ليس على شبه جزيرتهم فقط بــل على العالم الايجي باسره

(٣٨٢) مهاجمة الفريجيين والارمن لاسية الصغرى

واصاب اسية الصغرى ما اصاب غيرها من البلاد · فان جماعة أخرى من الجنس الهندي الاوربي بينها وبــين اليونان لحمة نسب، كانت تزحف وراءهم صوب الجنــوب · وآثرت ساقتها ان تقطع الدردنيل وتزحف على اسية الصغرى ثم تستأنف زحفهــا على بلاد اليونان · ويرجّح انهُ في سنة ١٥٠٠ ق·م· كان قد تكاثر بين الحثيين – وهم ليسوا من اصل اوربي – عدد المهاجمين لاسية الصغرى الى درجة اضطرّ عندها الحثيــون ان يتكلموا باللسان الهندي الاوربي وهو لسان الفاتحين الجدد ويهملوا لغتهم الاصلية · فاننا نجــد الواح الاجرّ الحثيّة المكتوبة بالحرف المسماري (ف ٣٦١) تحتوي على كلمات هندية اوربية وتراكيب نحوية تشبه تراكيب اللغة اليونانية كما ظهر من قراءة ما كتب على تلك الالواح من رموز تلك المكتوبات (ف ٣٦٢). وفي سنة ١٢٠٠ ق · م · طغت موجــة ثانية من الشعوب الهندية الاوربية معظمها من الفريجيين والارمن الذين شرعوا يغزون بلاد الحثيين في اسية الصغرى

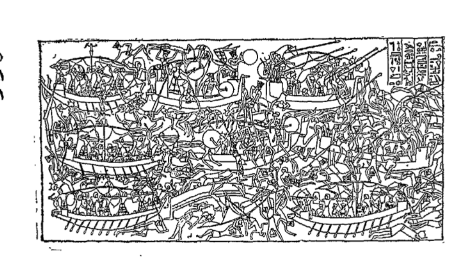
(٣٨٣) هرب الايجيين الموسرين

والتهمت الشعوب الهندية الاوربية الطرف الشرقي من شمال البحر المتوسط فنتج عن ذلك ان طما تيار جيوشها الزاحفــة فأغرق الايجيين وجيرانهم الحثيين في اسية الصغرى ·

وتزعزعت اركان المملكة الحثية وانهار بنيانها ولم تستطع المدنيـة الايجية بما تسنّى لها من وسائل الدفاع ان تصدّ عنها غارات الغزاة او تـذود عن حوضها بسلاحها فلاذ الموسرون منهم والاشراف بالفرار بحرًا. واما العامة فلم تستتبّ لهم اسبابهُ لا برًّا ولا بحرًا اللهمَّ الاَّ نفرًا يسيرًا منهم . وكانوا وهم فارُّون يشاهدون عن بُعد السِنَ النار المندلعة تلتهم مدنهم ومنازلهم وقصر كنسُّوس وما حواهُ من التحف والنفائس والدخان عاقدًا سُرادقات واعمدة في الجوّ

(٢٨٤) صد المصريين للايجيين الفارين

وفي سنة ١٢٠٠ ق·م· الجأ زحف الهنـديين الاوربيين من الشـمال ، الايجيين الى الفرار فقطعوا البحر ونزلوا على الشواطئ الجنـوبيـة الشرقية من البحرالمتوسط ، من دلتا النيل حتى مـوانئ فينيقية . وكان لهولاء الايجيين الفارّين اليـد الطولى في قلب الامبراطورية المصريـة



الشكل ١١٨ معركة بين اسطول الايجيين الفارّين واسطول مصري

هذا المشهد المنقوش على جدران هيكل مصري في طيبة (ف ١٣٠) هو أقدم صورة باقية لمعركة بحرية . نرى فيها شعوب البحر المتوسط منكسرين امـام رعمسيس الثالث آخر ملوك مصر قبالة مكان مجهول من سواحل سورية (ف ٢٨٤) بعد سنة ١٢٠٠ ق·م بأمد يسير. ويُرى في الشكل اعلاهُ تسع سفن اربع منها مصرية موسومة على مقدمها ومؤخرها براس اسد — ثلاث منها الى اليسار وواحدة في الزاوية السفلى الى اليمين . اما الخمس السفن الباقية فايجية موسومة على مقدمها براس اوزه . وواحدة منها في أسفل منتصف الشكل منقلبة. والايجيون هم فلسطينيون وعلى قلانسهم ريش طيور (١١٧) . في هذا المشهد تظهر لاول مرة الكلاليب التي كان المصريون يرمونها من سفنهم على سفن الاعداء لكي يمزقوا بها شرُعها او يكسروا صواريها . ويرينا هذا المشهد كيف قطعوا من كريت الى فلسطين (ف ٢٨٥) وكان سلاح الايجيين الوحيد رماحًا او سيوفًا ذات حدين وتروسًا . اما المصريون فكان معظمهم من النازعين عن القوس الذين كانوا يمطرون اعداءهم وابلاً من سهامهم ثم يطبقون عليهم ويأسرونهم . انظر اسرى الفلسطينيين جالسين في مراكب مصرية موثقين

المتداعية الاركان . وفي الآثار المصرية مشهد من الصور الناتئة يمثل لنا اقدم صورة معروفة لمعركة بحرية (ش ١١٨) نشبت قبالة ساحل سورية وصدّ فيها آخر ملوك مصر اسطولاً ايجيا (ف ١١٠)

(٣٨٥) الفلسطينيون الكريتيون يجدون وطنا في فلسطين الجنوبية

وكانت فلسطين الجنوبية البلد الوحيد الذي كان عدد المهاجرين الايجيين فيه كافياً لاحتلاله وتأليف امة منهم . وهكذا استطاعت قبيلة كريتية عرفت باسم الفلسطينيين ان تحرز لنفسها مقاماً وتبني عدداً من المدن الزاهرة في القرن الثاني عشر . ولم يضرها انكسارها في الحرب البحرية المذكورة آنفاً فاننا لم ننس بعد كيف ان الفلسطينيين كادوا يسحقون الامة اليهودية الفتية التي كانت آنئذٍ آخذة بالظهور (ف ٣٠٤) ومن العجب ان يكون هولاء الايجيون الفارّون هم الذين اعطوا فلسطين اسمها الحالي

(٣٨٦) سقوط المدنية الايجية

ان الهجوم الهندي الاوربي على العالم الايجي مزّق شمل سكانه الذين كانوا قد بلغوا درجة سامية من الرقي والمدنية ولا سيما الكريتيون منهم ولم تأتِ سنة ١٢٠٠ ق . م حتى كانت الهمجية الشمالية التي لم تكن ارقى كثيراً من وحشية العصر الحجري المتأخر في اوربا، قد طمت وكادت تغطي المدنية الايجية . ومن الاشياء المهمة في التمدن الايجي التي اضمحلت بالكلية بعد الهجوم اليوناني، الكتابة الكريتية . وبقي من الثقافة الايجية ما يكفي ان يكون جزءًا من الاساس الذي كان اليونان الهمج مزمعين ان يبنوا عليه اسمى مدنيات العالم القديم وارقاها

(٣٨٧) اختلاط الايجيين واليونان

والايجيون الذين لم يهربوا من اليونان الزاحفين عليهم اختلطوا بالفاتحين كما اختلط الكنعانيون المتمدنون في فلسطين بالرحّل من اليهود (ف ٣٠٢) فنتج عن هذا الاختلاط جنس جديد قام منهُ يونان التاريخ المعروفون لدينا . لا نستطيع ان نعيّن بالتدقيق كم من الدم الايجي يمكن ان يكون قد جرى الى عروقهم ولكنّ عبقرية فلاسفة اليونان يُعزى بعضها الى امتزاج دم الكريتيين الاذكياء بدم اليونان الذين كانت عقولهم مفتوحة للمؤثرات الخارجية لانهُ كان فيهم ميل فطري الى الفنون الجميلة

(٣٨٨) غلبة اللسان اليوناني

لم تكن نتيجة امتزاج الدم الايجي بالدم اليوناني امتزاجاً في اللغة كامتزاج التركية بالعربية والفارسية مثلاً بل ان اللغة اليونانية التي هي لغة الفاتحين صارت بالتدريج لسان العالم الايجي . الاّ انها لم تمحُ من البلاد كل اثر للغة الايجية التي هي اقدم منها . وظلّ اليونان يسمون المدن والانهار والجبال — كجبل برنسّوس مثلاً — باسمائها الايجية القديمة كما

فعل الاوربيون الذين هاجروا الى اميركا فانهم وجدوا اسماء جغرافية، شائعة باللغة الهندية فابقوا عليها . ولا يزال ابناؤهم حتى اليوم يستعملونها كميسيسبي مثلاً (ابو المياه). فاسماء كهذه في بلاد اليونان هي من بقايا اللغة الايجية البائدة [1] وقد بقي من اللغة الايجية اسماء أُخرى قليلة لبعض مواعين يستعملها النـاس في عصر حضارتهم ولا يستعملونها في عصر همجيتهم كالمِغسَل مثلاً في اللغة اليونانية فان اسمهُ مأخوذٌ من اللغة الايجية لانهُ لم يوجد عند اليونان في ايام همجيتهم لكي يكون لهُ اسم في لغتهم لانهُ من الكماليات . على ان ابناء الغرب قد اخـذوا عن الايجيين الراقين المغاسل نفسها كما اخـذ عنهم اليونان اسمها . ولكن اللغة اليونانية تمشَّت على سنَّة الارتقاء حتى صارت اغنى اللغات واقوى وسيلة تمكن بها الانسان ان يعبّر عن افكاره

٣٨

اليونان الرحل ينقلبون الى عيشة الحضارة

(٣٨٩) اقدم مؤسسات اليونان الاجتماعية

وبقي اليونان بعد استيلائهم على العـالم الايجي امدًا طويلًا شعباً همجيا يرعى المواشي ويجهل التجارة البحرية جهلًا تاما . واذا شئنا ان نفهم حالتهم وقت افتتاحهم للعالم الايجي المتمدن فلنتذكر الحالة البدوية التي كان عليها سكان الهلال المخصب في اسية (ف ١٤٢) ايام لم يكن عندهم حكومة منظمة لعدم وجود مسائل عمومية تقتضي وجودها . فهذه هي حالة اليونان الرُّحل حينما ابتدأت حياتهم الحضرية في العالم الايجي . ولما تركوا عيشة التنقل من مرعى الى مرعى وجاءوا الى بلاد جديدة جلبوا معهم عددًا من الأُسر التي كانت صلات القربى في بعضها واهية وألفوا منها قبائل الاَّ انهُ كان ضمن بعضها عـددٌ كبير من الاسر التي كانت رُبُط الالفة بينها متينة فسمّيت (أخوّات) . وكان لدى اليونان وقتئذٍ مجلس مؤلف من شيوخ الامة للنظر في القضايا المتنازع فيها او المسائل المهمّة التي تتعلّق بالقبائل جمعٌ يعقد كل سنة اجتماعاً كبيرًا يحضرهُ كل من استطاع حمل السلاح لتقرير المسائل التي تتعلّق بالشؤون الحربية او المهاجرة . هذا هو جرثومة المؤسسات السياسية الاوربية الحديثة

---

(١) لا نعلم الآن في اي صف من اللغات يجب ان اللسان نضع الايجي القديم البائد . ولكننا نأمل انهُ متى استطاع العلماء ان يحلوا رموز الكتابة الكريتية يتسنى لهم الكشف عن هذا الامر الغامض . وحلُّ رموز اللغة الحثية المسمارية حديثًا (ف ٢٦٣ و٢٨٣) لا بد ان يساعد على حل هذه القضية

٢٩٠) قيام ملوك بين اليونان

والمرجح انهُ لم يدُر في خَلَد اليونان ان يُنصّبوا ملكاً عليهم الاّ بعد ان وجدوا ملوكاً في المدن الايجية كميكاني مثلاً · فحينئذٍ رغبوا كما رغب اليهود (ف ٣٠٤) في ان يكون لهم ملك · فهبّ زعماؤهم القدمـاء الذين كانوا ، وهم في حال همجيتهم ، ينضوون تحت لوائهم ويأتمرون باوامرهم في الشؤون الحربية والدينية وقبضوا على زمام الملك مع انهم لم يكونوا سوى رعاة برابرة

٢٩١) ابتداء اليونان بالزراعة

وشرع اليونان الرعاة في غضون ذلك بحراثة الارض وزراعتها تدريجاً · فكانت الحراثة باعثاً لهم على استبدال الحضارة بالبداوة فابتنوا بيوتاً واقاموا بها كالحضريين الاّ ان ذلك لم يستأصل منهم شأفة الغرائز والعادات البدوية بالمرّة · فبقيت مواشيهم المورد الاهم لثروتهم حتى بعد ان انتقلوا الى طور الحياة الزراعية

٢٩٢) بدء تملك الاراضي ونتائجه في الحكومة والمعيشة الاجتماعية

ولما تحضرت القبائل اليونانية وابتنت كل منها عدداً من القرى اصبح اقتسام الاراضي المحيطة بكل قبيلة ، بين عيالها ، بالقرعة ، ضربة لازبٍ · وقد كانت قبلاً شائعة بين القبائل ولكن تغلّب اخيراً مبدأُ التملّك فامست العقارات موزّعة بين العيال · ولكن قام بين العيال النزاع بسبب الاختلاف في تعيين الحدود وتقسيم المواريث (ف ٤٤٨) ومسائل أُخرى شرعية فقضت ضرورة تقرير امور كهذه بانشاء حكومة · وفي غضون القرون الاربعة من ١٠٠٠ — ٦٠٠ ق · م · كان اليونان يجاهدون الوصول الى معرفة طريقة للتوفيق بين مصالح الجماعات المتحضرة وعلاج حزازات القلوب ليعدل الاغنيـاء والفقراء — الرتبتان اللتان نشأتا بعد تملّك الارض واستتباب الحضارة — عن التباغض والنزاع (راجع ف ٣١)

٢٩٣) عدم وجود الكتابة بين اليونان الاولين

قد رأينا قبلاً ان الساميين الرّحل في الهلال المخصب نشبوا في هذه المشاكل نفسها (ف ١٧٣) الاّ ان موقفهم من وجه واحد كان اسهل · فانهم وجدوا بين اسلافهم الحضريين نظاماً للكتابة اخذوه عنهم بلا تردُّد (ف ١٧٣) واما الكتابة الكريتيـة القديمة (ف ٣٤٨) التي كانت شائعة عند الايجيين اسلاف اليونان فكانت قـد امست في خبر كان · وفي العصر الذي شرع فيهِ اليونان يعملون في الزراعة ويتحضرون لم يكن احد قـد كتب كلمة واحدة باللغة اليونانية · وعدم وجود الكتابة زاد الصعوبات التي كان يلاقيها القائمون بادارة الحكومة وتنسيق اعمالها زيادة مهمة فاوجدت الضرورة بين الجماعات المختلفة فئة من الناس سُمّوا ذَكِّيرين كان من واجباتهم ان يلاحظوا ويتذكروا بالتدقيق شروط الوثائق وكميات القروض وشرائط المعاهدات مع الاقوام المجاورين واشياء اخرى لا تحصى فما يودع بطون الاوراق عند كل امة متمدنة

وعلى كرور السنين اتحدت القرى التي كانت حول كل مدينة واندغمت فيها فتكوّن

(٢٩٤) فيساء الممالك المدنية

من هذا الاندغام بمملكة صغيرة • وهذا اهمُّ ما بلغهُ تطوُّر اليونان السياسي • فكانت كل مدينة منظمة عندهم تؤَّلف مملكة قائمة بذاتها لها شرائعها وجيشها وآلهتها الخاصَّة • وكانت محبة الوطن في الافراد تنحصر في المدن التي يقيمون بهـا لا غير • وكان الملك حاكم المدينة والمحافظ على عبادة الآلهة • كان قصره مبنيًّا على هضبة في وسط المدينـة يُشرف عليها من جميع جهاتها • وكانت المدن مطوّقة باسوار لوقاية سكانها واسواقها ومنازلها من الطوارئ الخارجية • وكان الملك ومستشاروهُ يجلسون في السوق للقضاء وحسم النزاع الناشب بين الرعية ، والتوفيق بين ارباب المصالح • فتولّد من جلساتهم المتوالية دولة وحكومة

(٢٩٥) بزوغ الحضارة اليونانية في عصر الملوك

وكان عند اليونان مئات من هذه الدول الصغيرة كما كان عنـد الايجيين • وفيما كان اليونان عائشين على هذا النمط في مـدائن كل منها مملكة مستقلة بنفسها بـدت تباشير حضارتهم التي اخذت تزيد اشراقاً وبهاء ولا سيما في القرنين الاخيرين ونصف القرن الذي عقبها من (حكم الملوك (١٠٠٠–٧٥٠ ق٠م)

مسائل

٣٧

من اي جنس كان اليونان ؟ هل كانوا في بلادهم من اوّل امرهم ؟ من اين جاءوا ؟ هل كانوا معتادين عيشة الحضارة ؟ في اية بيئات دخلوا الآن بالنظر الى المدنيـة ؟ صف استقرارهم في العالم الايجي وفي اسية الصغرى • ماذا كانت نتيجة ذلـك على اسلاف اليونان في العالم الايجي وفي اسية الصغرى ؟ اذكر بيّنة على فرار الايجيين • من هم الفلسطينيون واين حلوا ؟ ماذا جرى للمدنية الايجية ؟ وفن البناء ؟ والصناعات ؟ والكتابة ؟ ماذا صار بالايجيين الذين تخلّفوا ؟ اذكر نتائج ذلك على اللغة

٣٨

هل شرع اليونان حالاً في الاعمال البحرية ؟ هل تحضّروا حالاً ؟ اي شعوب أُخرى

من الاقوام الرحّل وجدناهم في مثل هذه الحالة نفسها ؟ اية مؤسسات اجتماعية اتى بها اليونان حين اتوا ؟ ماذا تستطيع ان تخبر عن النتائج الاجتماعية التي نجمت عن الزراعة وتملّك الارض ؟ كيف تمشّت حال اليونان بلا كتابة ؟ ماذا جرى للضياع التي حول كل مدينة يونانية ؟ هل اتحدت المدن اليونانية وكوّنت امةً واحدة عظيمة مشتملة على كل اليونان ؟ ماذا كانت كل امة يونانية ؟ في اي شيء انحصرت محبة اليوناني الوطنية ؟ صف مملكة مدينية . هل كانت هذه الممالك كثيرة ؟ هل وجد امة ضمّت جميع العالم الايجي معاً ؟ من كان يرأس كل مملكة مدينية ؟ ماذا كان شكل الحكومة حين بزوغ الحضارة اليونانية ؟ اذكر تاريخ العصر الذي منهُ نستطيع ان نتتبع بزوغ الحضارة اليونانية

الفصل العاشر

الحضارة اليونانية في عصر الملوك

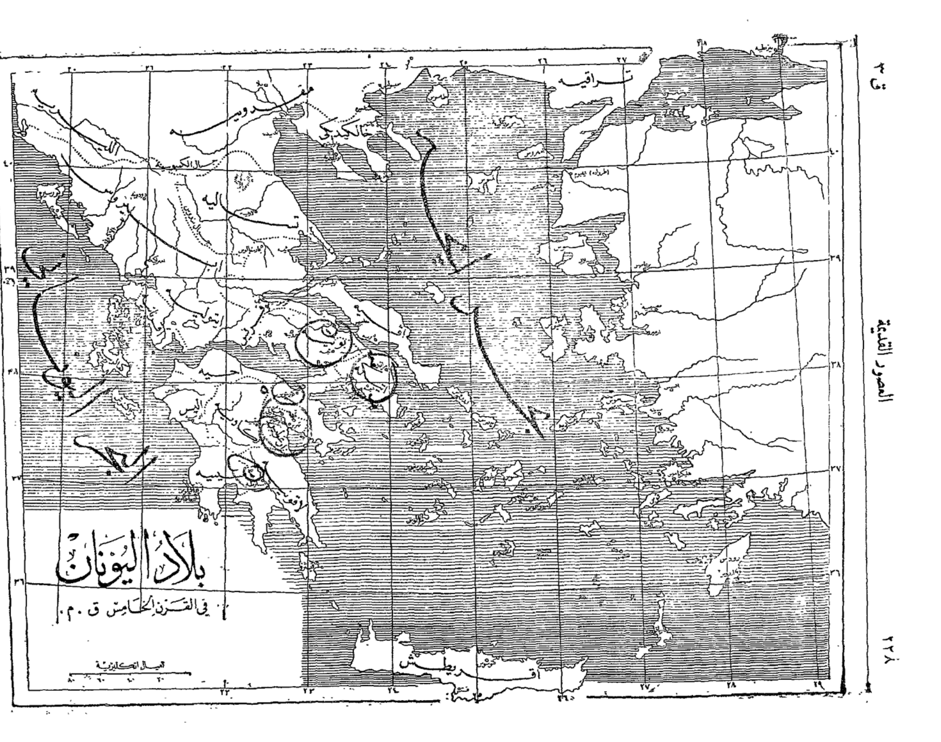
٣٩

(٣٩٦) بدء عصر الحديد نحو ١٠٠٠ ق٠م

كان اليونان الفاتحون اوفر حظاً من اسلافهم الايجيين في شيء واحد مهم ، وهو ان الحديد، الذي كان قد شاع في الشرق مستورَدًا من بلاد الحثيين ، (ف٣٦٦) قد اخذ في هذا الوقت (القرن الثالث عشر ق٠م) يرد على بلاد اليونان ٠ ولكن مرَّت بضعة قرون قبل ان حلّت الاسلحة والآلات المصنوعة منهُ محلّ مثلها من البرنز كما انهُ لا بدّ من مرور زمن طويل قبل ان تلغي السيّارات الخيل من بيننا ٠ ولما جاءت سنة ١٠٠٠ ق٠م كان استعمال الحديد قد عمّ بلاد اليونان ٠ فيكون عصر البرنز قد دام نحوًا من الني سنة اي مدة تساوي عصر الحضارة الايجية ٠ ولذلك يسوغ لنا ان نقول ان عصر المدنية الايجية هو نفس عصر البرنز اي من (٣٠٠٠ — ١٠٠٠ ق٠م) وابتدأت حضارة اليونان ببدء عصر الحديد (نحو ١٠٠٠ ق٠م)

(٣٩٧) تذكارات من الحضارة الايجية وفجر الحضارة اليونانية

وبقي اليونان امدًا طويلًا بعد سنة ١٠٠٠ ق٠م يعيشون عيشة الخشونة والهمجية ٠ وكان لا يزال باقياً في سهل ارغوس اشياء تذكرهم بمجد العصر الايجي كالاسوار الشامخة التي كانت حول القرية اليونانية في موقع ميكاني وكلها من الحجارة الضخمة التي بناها الامراء الايجيون الاولون الذين كانوا قد ماتوا منذ عهد بعيد ٠ وكان اليونان ينظرون الى هذه الاسوار والرهبة ملء قلوبهم وامارتها بادية على وجوههم ٠ وقد عزَوا بناءها الى رَهط



تراقيه
مقدونيه
خالكيديك
اقريطش
بلاد اليونان
في القرن الخامس ق . م .
اميال انكليزية

من الجبابرة البائدين الذين كان للواحد منهم عين واحدة قائمة في أُمّ راسهِ. وعاش بينهم تقليد تناقلهُ السلف عن الخلف ان كريت كانت المهد الاوّل لحضارتهم. ولم يكن لرعاة وفلّاحي اليونان شيءٌ من الحذق في الصناعات او الحرف. فتلكأوا عن الاقدام على البناء والصناعات الاستخراجية والتحويلية لحسابهم الخاصّ. وتلكُّؤهم ظاهر في امر الكتابة التي قصَّروا كثيرًا — كما رأينا — (ف ٣٩٣) في اقتباسها عن اسلافهم الايجيين. وظلت منازلهم حتى قصور ملوكهم دهورًا طوالاً تُبنى باللبن العادي كبيوت الفلاحين في المزارع. وكانت الخنازير تمرَح في جَنباتها وتربض في نور الشمس امام الباب الملكي. واوّل شروعهم في الصناعة كان في عمل الفخّار الذي لم يقدروا ان يتقنوا صنعهُ ولا زخرفتهُ بالدهان (ش ١١٩) ويظهر من اسلوب شغلهم انهم اخذوا الصناعة عن اسلافهم الخزافين الايجيين. ولكنهم لم يتقنوا العمل مثلهم. واسلوبهم فيهِ باقٍ ولكن بصورة منحطة. فالاناقة التي بلغها ايجيو كريت في صنع الخزف قبل عهد اليونان بالف سنة لم يبلغها هولاء (ش ١٠٤)

وحين نتذكر ما مرَّ على الشعوب الايجية من الاختبار والعِبَر نجد ان اليونان كانوا عرضة لنفس المؤَثرات الشرقية التي كان لها فعل كبير في الحضارة الايجية.



الشكل ١١٩ الصناعة اليونانية في اول عهدها كما ترى في هذه الكاس المدهونة الباقية من عصر الملوك

هذا النموذج الجميل البالغ طولهُ ثلاث اقدام ونصف قدم هو من الكؤوس القليلة الباقية من الصناعة اليونانية على شكلها الاصلي. وقد ابتاعها حديثًا متحف نيويورك الكبير. وهي تمثل لنا الصناعة اليونانية في اوّل عهدها في القرن الثامن ق.م. ونرى هنا ان دهاني اليونان الاقدمين اعرضوا عن تصوير الازهار والنباتات البحرية واشياء أُخرى طبيعية مما كان يصوّرهُ الدهانون الايجيون لزخرفة الآنية الخزفية التي كانوا يصنعونها واعتمدوا على الرسوم الهندسية بدلاً منها. فالمشهدان المرسومان صفين على الكاس يمثل اعلاهما مأتمًا ترى فيهِ الجثة على نعش عالٍ وتحتهُ موكب من رجال الحرب حاملين بايديهم تروسًا. وتشاهد اربع مركبات لكل منها اربعة دواليب يجرها ثلاثة افراس. قابل الخيل الجميلة التي صوّرها اليونان بعد هذا الزمان بمئة وخمسين سنة (ش ١٣٦) بالجياد المطهمة التي صوروها بعد ذلك باربع مئة وخمسين سنة (ش ١٥٥). ان المثال الذي احتذاهُ الخزّاف والدهان اليونانيان اوّل عهدهما بالعمل مأخوذ بجملتهِ عن الاسلاف الايجيين

(٣٩٨) مؤثرات شرقية. الابجدية

فقد ترك اليونان في هــذا العهد الجلود الكثّة الشعور التي كانوا يلبسونهــا على ابدانهم ولبسوا بدلاً منها اثواباً من نسيج الصوف · ولما لم يكن لها اسم في لغتهم اخذوهُ اسمها عن التجار الاجانب الذين جاءوهم بها فدعوا الواحد منها « كيتون»

(٣٩٩) سلع التجار الفينيقيين

وكان اليونان كلما ارادوا ان يبتاعوا سلعاً كهذهِ ليست من صنع بلادهم يذهبون الى شاطىء البحر ويتجمّعون رجالاً ونساء حول سفينة قريبة من الشاطىء كان نوتيتها السود اللحي يُغرون اليونان لشراء سلعهم باراءتهم قوارير من زجاج او من حجر ناصع البياض ، مملوءة روائح عطرية من مصر (ش٣٣) وآنيةً من الخزف الصيني الازرق الفاخر · فــاذا كانت النساء يُعرضنَ عن هــذه فانهنَّ لم يستطعنَ الاعراض عن الامشاط العاجية الجميلة المحفور عليها أسود بطريقة « التخريم او التقوير» حتى تظهر الاسود من الجانبــين (١٢١) وكانوا يُجيدون صقلها حتى كانت تتألق كلما اصابها نور الشمس · وكان اغنياء اليونان ينجذبون الى الاثاث المرصّع بالعاج ترصيعاً انيقاً (ش ٧٨) ولا سيما الى الاطباق الكبيرة المستديرة الفاخرة المصنوعة من البرنز او الفضّة والمنقوشة نقشاً نفيساً · وكانت الحُلــل الارجوانية الفــاخرة المنشورة على مؤخر السفينة تكسب الحلى والمجوهرات المعروضة بهاء وجمالاً بما تعكسهُ عليها من تألق الوانها الزاهيــة · وكان من جملة السلع «الكيتون» وهو الاسم الفينيقي للثوب الجديد الذي اخــذهُ اليونان من التجار الفينيقيون ولم يكن لهُ في لغتهم اسم

الشكل ١٣٠ حلة فينيقية اتخذها اليونان لباساً
سمى اليونان هذه الحلة اولاً "كيتون" باسمها الفينيقي ثم حرّفوها فقالوا خيتون (انظر ف ٣٩٨-٣٩٩)

(٤٠٠) اتساع نطاق التجارة الفينيقية

وهكذا انتقلت الى الفينيقيــين السيادة البحرية عــلى الساحل الشرقي من البحر المتوسط · وقد وُجــد رقيم باللغة الحثّية كُتب قبل سنة ١٢٠٠ق·م وجّههُ كاتبهُ الى احد احفاد رعمسيس الثاني وفيهِ هذه العبارة « ان اسطول الحبوب المصري يجب ان يذهب كعادتهِ كلَّ سنة الى الساحــل الجنوبي من اسية الصغرى» ولكن بعد انقضاء جيل واحد لمّا سقطت المملكة المصرية توارى اسطولها من بحر ايجه وما يجاورهُ من المياه · فاغتنم الفينيقيون منذ سنة ١٠٠٠ ق · م هذه الفرصة السانحة للانتفاع بها · كانوا قبلًا ، من سكان البــادية ، كاليهــود في اوّل امرهم ، فلما انتزحوا عنها احتلوا المــدن البحرية على سواحل سورية

(ف ١٤٧) فأصبحوا ملّاحين ماهرين· ولما كان اليونان عاجزين عن مجاراتهم في اصطناع السلع التي كانوا يأتونهم بها لبيعها منهم ، راجت تجارة الفينيقيين الشرقيين في جميع الارجاء التي توجهوا اليها

(٤٠١) الفينيقيون اول روّاد غرب البحر المتوسط

ولم يكتفِ الفينيقيون بالاتجار في بلاد ايجه ، بل طلبوا لسلعهم اسواقاً أُخرى في الغرب وبذلك اكتشفوا الجهة الغربية من البحر المتوسط حيث اسسوا بعد ذلك مستعمرات بلغوا بها الى سواحل الاتلانتيكي بجوار اسبانيا (ش ١٢١)· وصارت مستعمرتهم قرطاجنة اهمّ بلاد تجارية في الجهة الغربية من البحر المتوسط واشدّ خصوم رومية كما سنرى (ن ٧٧) وظلوا ثلاثة قرون بعد سنة ١٠٠٠ ق·م اعظم تجار البحر المتوسط · وكانت نتيجة امتداد تجارتهم في الآفاق بداءة تكوُّن عالم تجاريّ عظيم على سواحل البحر المتوسط· الاّ انهُ لم يكن لدى الفينيقيين جيوش ولا كانت انظمتهم السياسية شيئاً يُعتدُّ بهِ · ومستعمرتهم الوحيدة التي صارت فيما بعد دولة شديدة الحَول عظيمة الصولة هي قرطاجنة

الشكل ١٣١ مشط فينيقي قديم مصنوع من قطعة عاج

وزّع الفينيقيون سلعاً كهذه من صنع صيداء وصور ، في جميع انحاء البحر المتوسط (ف ٢٩٩) حتى اسبانيا غرباً حيث وجد المنقبون هذا النوع من الامشاط في بعض القبور القديمة. والاسد الذي يزدان به هذا المشط الذي تراهُ في الشكل ، هو النوع الذي ابتدع في سورية . وكان ملوك اشور يستخدمون في عاصمتهم ، نينوى ، صناعاً فينيقيين . وقد وجد الاثريون قطعاً من شغلهم عليها علامات فينيقية (ش ٧٨)

(٤٠٢) تقدم الفنون والصنائع الفينيقية

تعلّم الفينيقيون كيفية صُنع سلعهم التجارية — في معظم الاحوال — من مصر · فعنها اخذوا طريقة صنع الزجاج والخزف ونسج الكتان وصبغهِ وسبك المعدن وتطريقه ونقشه الاّ ان الرسوم التي كانوا يستعملونها في الحفر والتصوير لم يأخذوها عن امة واحدة فقط فالتي على الاطباق المعدنية (ش ١٢٢) كانوا يأخذونها تارة عن مصر وطوراً عن اسية · وهكذا كانت الفنون الفينيقية مركّباً شرقياً عناصرهُ الاصلية من بلاد النيل وبلاد الرافدين، وكان ملوك اشور يستخدمون صنّاعاً فينيقيين كما رأينا قبلاً ليُعدُّوا الاثاث والآنية المعدنية اللازمة لقصورهم الملكية (ش ٧٨) · والملك سليمان نفسهُ استخدم صناعاً فينيقيين ليبنوا لهُ هيكل اورشليم (١ مل ٥) (ف ٣٠٦) وبعد سنة ١٠٠٠ ق·م اصبح الفينيقيون الصناع الفنيين لعالم شاسع الاطراف يمتدّ من نينوى شرقاً الى بلاد

اليونان غرباً

(٤٠٣) انتقال فن التزويق الشرقي الى اوربا

وقد وجد الصناع اليونانيون على اطباق المعدن وقطع الاثاث العاجيَّة المنقوشة ، زخارف كثيرة كأشجار النخيل ، وزهرة النبات المسمى بالخندقوق ومشاهد الصيد على ضفاف النيل « وشجرة الحياة » الاشورية . وما يرتاح اليه الناظر بنوع خاص تلك المخلوقات العجيبة المجنَّحة التي ولَّدتها المخيِّلة الشرقية في العصور الخالية كالسفنكس مثلًا والغريفون والفرس ذي الجناحين . وما لبث اليونان ان اخذوا يقلِّدون هذه الاشياء . وشاع فن الزخرفة والتزويق الشرقي بين اليونان وحلَّ محلًّا رفيعاً بين الشعوب المتمدنة في الغرب . ويرجَّح كل الترجيح ان اليونان جاروا الصناع الفينيقيين واشتغلوا معهم جنباً لجنب ، في دكاكين فينيقية بجزُر بحر ايجه ، وتعلَّموا كيف يصنعون قوالب مجوَّفة من البرنز واشياء أُخرى كثيرة كانت تعود على التجار الفينيقيين بالارباح الطائلة . الاَّ انهُ لم يبقَ من آثار الفنّ الايجي الراقي في العصر الذهبي ، الاَّ بقية زهيدة لا تستحق الذكر ولذلك كانت اشغال اليونان الفنية في هذا العصر ، من سَقَط المتاع لا تكاد تضاهي اشغال اهل العصر الحجري المتوسط (قابل الخيل في ش ١١٩)



الشكل ١٢٢ طبق فينيقي . شغل حفر وتطريق

ان هذا الطبق الفضي المحفوظ في متحف برلين جميل الصنعة جدًّا في منتصفهِ وردة حولها مجرى ماء مستدير يحيط بها فوق الماء اربعة من زوارق النيل (احدها على شكل وزَّة عراقية) ووراءها حتار (برواز) من ازهار البردي . وكان الفينيقيون ماهرين جدًّا في نقش الصفائح المعدنية التي كانوا يزخرفونها بالرسوم المصرية والاشورية . وقد وجدوا قطعاً من هذا النوع من الشغل في عدَّة اماكن من نينوى شرقاً الى اسبانيا غرباً كان قد نقلها تجار فينيقية

٤٠

الفينيقيون يجلبون الى اوربا حروف الهجاء الاولى

(٤٠٤) اختراع الفينيقيين لحروف الهجاء نحو ١٠٠٠ ق·م

لم تكن ازياء الملابس ، وفن الزخرفة والترويق ، والاساليب الصناعية العملية ، الاشياء الوحيدة التي جاء بها التجار الفينيقيون الى بلاد اليونان · بل كان هنالك شيء اثمن من كل مصنوعات الشرق اخذه اليونان عن الفينيقيين وهو حروف الهجاء · وهي اهم ما وصل الى اوربا من خارجها · وكان الفينيقيون في سنة ١٠٠٠ ق·م قد هجروا منذ امد مديد استعمال اجرّ بابل في الكتابة (ش٥٧) لانهم كانوا قبل هذا التاريخ بقرن من الزمان قد استوردوا كميات كبيرة من ورق البَرْديّ المصري· واخترعوا اسلوباً للكتابة خاصاً بهم استعملوا فيه اثنين وعشرين حرفاً (ش ١٢٣ عمود ١) ولم يكن في هذا الاسلوب علامات للمقاطع بل كانت كل علامة تمثّل حرفاً واحداً صامتاً·ولم يكن علامات للحركات فبقيت غير مكتوبة· فكان الفينيقيون اوّل شعب ابتكر اسلوباً للكتابة ليس فيه الاّ العلامات الهجائية اي حروفاً حقيقية · وكان للمصريين وتأثيرهم معظم الفضل على الفينيقيين في ابتكارهم طريقة الكتابة هذه

(٤٠٥) ترتيب الحروف الهجائية الفينيقية وتسميتها

ورتّب الفينيقيون حروفهم الجديدة على اسلوب موافق بحيث تألّف من الاثنين والعشرين حرفاً مجموعةُ حروف خالدة (ش ١٢٣ عمود ١) سهلة التعلّم ولو لم يسمّ كلُّ حرف منها باسمه لما كان حفظها ممكناً· فسمّوا الحرف الاول من ابجديتهم بما معناهُ « ثور» لان اللفظة الفينيقية للثور اي الالف تبتدئ بالحرف الاوّل عندهم وسموا الحرف الثاني بما معناهُ « بيت » لان اللفظة الفينيقية «بَث» للبيت تبدأ بالحرف الثاني وهكذا الى الآخر· وكان اولاد التجار الفينيقيين اذا تعلّموا حروفهم الهجائية وسُئلوا ان يسردوها قالوا هكذا أَلِف بَث الخ

(٤٠٦) نقل روّية اليونان للحروف الهجائية الفينيقية

وتدل قرائن الاحوال على انهُ لم يكن للفينيقيين الاّ القليل مما يُعرف بآداب اللغة · اما معاملاتهم التجارية فقد دوّنوها على ورق البرديّ بموجب الاسلوب الجديد السهل · وكما حمل الاراميون الحروف الفينيقية من سواحل البحر المتوسط شرقاً الى اسية حتى الهند (ف ٢١١) كذلك حملها الفينيقيون عبر البحر المتوسط الى اوربا· وكان اليونان الذين رأيناهم قبلًا يزدحمون حول السفن الفينيقية ، يشاهدون بايدي الفينيقيين قطعاً من ورق

البردي الاصفر عليها علامات غريبة سوداء . ومع ان تلك القطع لم تكن سوى قوائم تجارية واوراق لا غنى للتاجر عنها ، فقد رأيهم امرها بادىء بديء وحسبوها رموزًا غامضة تتضمن خطرًا قريبًا . وقد جاء في احدى اغانيهم في ذلك العصر ، إلماع الى تلك العلامات التي كانوا يدعونها بالمؤذية . وبتكرار الاطلاع على قوائم حسابات التجار الفينيقيين ، تعلّم تجار اليونان حروف الهجاء التي كتبت بها . وبالتدريج صاروا يكتبون الالفاظ اليونانية باحرف فينيقية

٤٠٧١ تكميل اليونان الحروف الفينيقية بزيادة الحركات عليها

لقد اظهر اليونان من قديم الزمان تفوقًا عقليًا امتازوا به فانهم لاحظوا انهُ لم يكن مع حروف الهجاء الفينيقية ما يقوم مقام الحركات كما لاحظوا وجود احرف قليلة في الفينيقية تدلّ على انها احرف صامتة لا وجود لها في اليونانية . فاخذوا هذه الاحرف واستعملوها للحركات اليونانية وبذلك خطوا الخطوة الاخيرة في اكمال اسلوب الكتابة المبتكر الذي انتشر في الولايات اليونانية مبتدئًا من ايونيا . وظلّ استعمال الكتابة امدًا طويلًا محصورًا في المعاملات التجارية والشؤون الحكومية . وبما ان اكابر البلاد ظلوا

⩤	A	A	A	A
9	S 4	B	B	B
7	1	Γ	C G	C.G
Δ	Δ	Δ	D	D
ヨ	ᗑ	Ε	E	E
Y	Y	Ⲩ	F V	F.V.U
ⵊ	I	I	...	Z
H	B	B	H	E.H
⊕	⊗	⊗	...	TH.PH
Z	ϟ	S	I	I
Y	K	K	...	K.KH
6	V 1 1	L Λ	L	L
ᘺ	M	M	M	M
7	N	N	N	N
丰	Ξ	Ξ	X	X
o	o	o	O	O
7	1	Γ	P	P
ጉ	M	M	...	S
φ	φ	ϙ	Q	Q
q	q	P	R	R
w	≷	≷	S	S
X	T	T	T	T

الشكل ١٢٣ جدول يبين كيف مرت الحروف الفينيقية في اشكال يونانية ورومانية حتى بلغت اشكالها الانكليزية الحاضرة

تحتوي العمود الأول من اليسار حروف الهجاء الفينيقية وكلها صامتة (ف ٤٠٤) . كان الفينيقيون يكتبون من اليمين الى اليسار . وتابعهم في ذلك اليونان في اوّل الامر فكتبوا مثلهم من اليمين الى اليسار ولذلك يشاهد الناظر في العمود الثاني احرفًا كالحرف B على غير وضعهِ الحالي . ثم عدل اليونان عن هذه الطريقة تدريجًا واخذوا يكتبون من الشمال الى اليمين كما يظهر من العمود الثالث الذي تظهر فيهِ الحروف كما هي في اللغات الاوربية (انظر B في العمود الثالث) وكان الانتقال من اشكال الحروف اليونانية الحديثة (بالنسبة الى ما كان قبلها) (عمود ٣) الى الاشكال اللاتينية (عمود ٤) سهلًا جدًا . وقلما اختلفت الاشكال اللاتينية عن الاشكال المستعملة حتى في ايامنا هذه

احقاباً طوالاً أميّين، كانوا ينظرون الى الكتابة نظرة المرتاب الحذر، مع ان مزوّقي الآنية الخزفية كانوا في سنة ٧٠٠ ق·م قد تعلموها كما يشاهد على كؤوس الخزف المنقوشة (ش ١٢٤)·وبعد هذا الزمان بأمدٍ يسير شاع استعمال الكتابة بين جميع الطبقات · اما آداب اللغة فكانت امراً تتناقله الالسن زمناً طويلاً قبل ان قيّض لها ان تودع بطون الصحف

(٤٠٨) الاصل الفينيقي لحروف هجاء العالم المتمدن

وكان اولاد اليونان، في تعلمهم القراءة، يسمّون الحروف بنفس الاسماء التي كان يسمّيها بها الفينيقيون·ولما كان اليونان يجهلون معنى تلك الاسماء الغريبة، حرّفوا لفظها قليلاً. فصار يقرأها اولادهم بحسب ترتيبها الفينيقي المعلوم «ألفا بيتا الخ» بدلاً من الف با (ف ٤٠٥) وكما يقال عن ابن هذه الايام انهُ يتعلم الف با الخ كذلك كان يقال ان الولد اليوناني يتعلم الفا بيتا الخ التي منها جاءت اللفظة الاوربية (Alphabet) وهي اثرٌ باقٍ من الدّين العظيم المدين به الغرب للشرق ولا سيما للفينيقيين الذين نفحوهُ بعطية لا تثمَّن وهي الكتابة بالحروف الهجائية التي وصلت الى ايطاليا من بلاد اليونان ثم امتدت الى سائر جهات اوربا· والحقيقة التي لا مراء فيها، هي ان حروف هجاء بلاد الغرب والشرق الادنى متسلسلة من حروف الهجاء الفينيقية

(٤٠٩) الاصل الشرقي للفظتي ورق) و(اوراق) في اللغة الانكليزية

وجاء الى اوربا لاوّل مرّة، مع حروف الهجاء، القلم والحبر والورق. وجاء مع الورق اسمهُ الشرقي · لان اليونان اخذوا لفظة «بابيروس» المصرية وهي اسم الورق الذي كانوا يكتبون عليهِ·وكثير من الورق الذي كان يستعملهُ اليونان نقلهُ اليهم تجار فينيقيون من «بيبلوس» التي عرفناها قبلاً باسمها الفينيقي جُبلة (جبيل الحالية) من مدائن فينيقية المشهورة · وكما نستعمل الآن لفظة «صيني» لنوع من الخزف المستعمل على الموائد لانهُ جاء اولاً من بلاد الصين، كذلك كان اليونان يستعملون للورق لفظة «بيبلوس» اسم المدينة الفينيقية التي جاءهم منها ولما شرعوا يكتبون مؤلفاتهم على لفّات ورق كهذا (ش ١٤٤)سمّوا ما كتبوهُ عليها «ببليا» ومنها اخذت اوربا لفظة «بَيْبل» التي معناها «كتاب او كُتب»

٤١

رجال الحرب اليونانيون واغاني الابطال

كان رجال الطبقة النبيلة من اليونان مُولَعين جدًّا بالحرب حتى انهم كانوا يقضون حياتهم

٤١٠) عتاد رجال الحرب اليوناني في عصر الملوك

في القتال والكفاح والسلب والنهب ٠ وكان عتـادهم الحربيّ الذي يتّقون بهِ طعن العدو مصنوعاً من البرنز ٠ اما الاسلحة التي كانوا يقاتلون بها فكانت في الغالب من الحديد ٠ وقليل منها كان من البرنز ٠ ولما كانت عُدّة الحرب غالية الثمن لا يستطيع شراءها الاّ الاغنياء ، كان القوّاد بحكم الطبع من الطبقة الغنية ٠ وكان عليهم المعوّل في الكرّ والفرّ ٠ ولم يكن للاعزل شيءٌ من الاهمية في معترك القتال الذي لم يكن يقاتل فيهِ عددٌ كبير من الجنود دفعة واحدة ، بل كل بطلين على حدة ٠ فكانت الحرب عبارة عن سلسلة مبارزات بين اثنين اثنين من الابطال ٠ وكان الفوز في معتركات كهذه يتوقف على حذاقـة الفرد واختباره في فن الحرب اكثر مما على تمرين وتدريب عدد كبير من الجنود معاً ٠ وكان الظافر يجرّد خصمهُ الساقط في ساحة الوغى من سلاحهِ ثم يشدُّ جسدهُ المعرّى الى مركبتهِ ويجرّهُ في ساحة القتال من جانب الى جانب ثم يطرحهُ فريسة للجوارح ٠ وكثيراً ما كان يَنشب بـين المتحاربين عِراك هائل لتخليص جسد البطل الساقط من ايدي الاعداء ٠ وكان الظافرون اذا دخلوا قرية من قرى اعدائهم يستبيحونها نهباً وقتلاً ويضرمون النار في منازلها طمعاً باحراز الشهرة والفخر

٤١١) بداءة اغاني الابطال

وكان للشعب اليوناني شغف شديد بالتغني باعمال البطولة التي كان يقوم بهـا رجالهم الاشدّاء في ساحات الوغى ، وترديد فِعال ابطالهم الصناديد ايقاداً لنار الحماسة في الصدور واستنفاراً للقاعدين عن الانضواء تحت لواء الوطن ٠ وقد نُظم كثيرٌ من الاغاني التي تتضمّن وصف بطولة الآلهة وعظماء رجال الحرب في مراعي تساليا التي كان النـاظر منها يرى قمة جبل اولمبوس ، مسكن الآلهة ، معممة بالثلوج الناصعة البياض ٠ وكانت تلك الاغاني اقدم ما كُتب من آداب لغة اليونان ٠ وقد احتوت على كثير من ذكريات الحروب القديـمة التي وقعت فعلاً ، ولا سيا حرب طروادة الشهيرة (ف ٣٨١) وما جاءت سنة ١٠٠٠ ق٠م حتى كانت تلك الاغاني قد بلغت الى سواحل وجزُر ايّونيا على الجانب الاسيويّ من بحر ايجه

٤١٢) المنشدون الايونيون

ونبغ طائفة من الشعراء الذين اتخذوا انشاد الاغاني حِرفةً فكانوا يُنشدونها في المآدب الملكية ومنازل الاشراف مردّدين فيها على صوت القانون ذكرى المعارك والمغامرات التي خاض عُبابها ابطالهم المقذّفون ٠ ولما كانت هذه الاغاني الحماسية مصوغة في قالب من البلاغة ، ومسبوكة سبكاً بديعاً بأوزان تحلو للسمع وتعذب في الذوق ، بقيت تردّد اصداءها جُدران القاعات الملكية وتتجاوب بها ارجاء البلاد امداً طويلاً ٠ ولا بَدع فانّها ابكار مواليد القرائح في آداب اللغة في اوربا ٠ ولما توافر عدد هـذه الاغاني ضمّ شملها المتفرّق « الشعراء » الذين سبق الايماء اليهم والّفوا منها مجموعة من الشعر القصصي ولا سيا الروايات التي تتعلّق بالحملة

اليونانية على طروادة . ولم تكن تلك الاغاني نتاج قريحة رجل فذّ بل قرائح شعراء كثيرين قاموا على التعاقب في احقاب متطاولة . وبقي كثيرون منهم احياء حتى الى ما بعد سنة ٧٠٠ ق.م. وهي السنة التي دُوّنت فيها تلك الاغاني على الورق

(٤١٣) هوميروس

ونبغ بين اولئك المنشدين القدماء شاعر طائر الشهرة اسمهُ هوميروس يُظنّ انهُ هو ناسج برد القصيدتين العظيمتين الالياذة[1] الحاوية نبأ الحملة اليونانية على طروادة والاوديسي، رواية تيهان البطل اودسّوس وهو عائد من طروادة . هاتان هما مجموعتا الاغاني اللتان بقيتا كاملتين الى ايامنا هذهِ . وقد ارتاب اهل الزمان القديم في صحة نسبتها الى هوميروس

(٤١٤) الاغاني الهومرية اقدم اثر ادبي لليونان

ولم يكن اولئك الشعراء الاوّلون اوّل من نفح العالم باعظم شعر قصصي في الاليـاذة فقط، بل اقدم جماعة من اليونان سبكوا افكارهم فيما يختص بالآلهة والبشر في قالب ادبي خالد وقدّموا لامة اليونان المقطعة الاوصال آداباً في لغتها مشتركة بين طوائفها تُذكي في الافراد روحاً طيبة لانها تشير الى اتحادهم فيا خلا من الزمان في حرب عامة مع اسية

٤٢

بدء ديانة اليونان وتطوّرها الاوّل

(٤١٥) اغاني هوميروس والديانة

لم يكن في هذا الزمان كتبٌ مقـدسة عن اليونان فكانت اغاني هوميروس كتابهم المقدس . وكما تعلّم اتقياء العبرانيين مما كتبهُ لهم المؤرّخ المجهول كذلك تعلم اليونان من اغاني هوميروس الانيقة اشياء كثيرة عن آلهتهم وبذلك صار هوميروس المعلم الديني لليونان

(٤١٦) زفس ومسكن الآلهة على جبل اولمبوس - ابلون

تعلّم اليونان من اغاني هوميروس والاساطير القديمة ان آلهتهم تقيم في بهاء محجوب عن الابصار بين السحب فوق قنّة جبل اولمبوس وان زفس اله الجوّ الذي بيده عِنان البرق عالك عليها كلها من مقرّ سناهُ . وكان كل واحد من بقية الآلهة متسلطاً على جزء من الطبيعة . وكان ابلُون الاله الشمس رامياً عن القوس قتالاً . الاّ انهُ كان يحمي قطعان الرعاة وحقول الفلاحين . وكان موسيقياً بارعاً، فضلاً عن انهُ كان يعرف المستقبـل الذي حتم بهِ زفس .

---

(١) نسبة الى ايليوم وهو اسم طروادة اليوناني .

فكان الذين يرغبون في معرفة مستقبلهم يذهبون الى مزاره في دلفي ويستعلمونهُ امر مستقبلهم فينبئهم بما خبأتهُ لهم الاقدار فارتفعت بذلك منزلتهُ في عيون اليونان وصار احبَّ الآلهة اليهم

(٤١٧) اثينا حامية المدن اليونانية

والظاهر من قرائن الاحوال ان اثينا الاهة اليونان ، كانت الاهة حرب . فكان اليونان يحبون ان يتصوروها حاملة اسلحة براقة تحمي بها المدن اليونانية . الاَّ انها كانت في اوقات السلم ايضاً تبسط يديها فوق رؤوسهم وترعى بعنايتها الخزَّاف وهو يصنع جراره والحداد والنحاس والصائغ وهم يعملون في دكاكينهم ، والنساء وهنَّ يغزلنَ الصوف . هكذا كانوا يعتقدون فيها . وصارت حامية الامة والمحسنة اليها في حياتها السلمية سواء في الشؤون الصناعية او الفنية . ولم يكن بين رفيقاتها الالاهات من هي احصف منها رأياً ولا اسدُّ مشورةً . وقد جاء في احدى الاساطير القديمة انها وُلدت من دماغ والدها زفس وخرجت من رأسه مسلَّحة بالعدَّة الكاملة . وكوالدة إلهيَّة حربية لاجمل ما في الحياة اليونانية كانت احبَّ الالاهات اليهم . فزفس وابلُّون واثينا — هولاء الثلاثة — اعظم آلهة العالم اليوناني

(٤١٨) بوسيدون وديميتر وارطاميس وهيرا وافروديت

وكانت في الوقت نفسه طائفة أخرى من الارواح القديمة التي توهموا انها منتشرة في الطبيعة قد بلغت درجة الآلهة العظيمة الذين كان كلٌّ منهم متسلطاً على جزء معيَّن من هذا الكيان . فكان بوسيدون على زعمهم يقيم في قصره النحاسي في اعماق اليم ويتسلط على المياه . وكانت الامُّ القديمة ، الارض ، التي سمُّوها ديميتر تهب لهم محاصيل تربتها سنةً فسنةً . وكان عندهم إلهٌ اخر منسوب الى الارض اسمهُ ديونيسيوس . فهذا كان مالكاً على الكروم . وكان اليونان يفرحون بما يقدمهُ لهم من نتاج الكرمة . وصارت روح القمر القديمة ، هرمس . فهذا كان رسول الآلهة المجنَّح الرجلين ومنفِّذ اوامرها وقد جُعل مسيطراً على معاملات الناس بعضهم مع بعض فدُعي اله التجارة والصناعة . وعاين بعض اليونان القمر — وهو في لغات ابناء الغرب مؤنث — سابحاً في عُرض السماء فاعتقدوا انهُ إلاهة صيادة تمرُّ في مركبتها ليلاً فوق غاباتهم فدعوها ارطاميس ورآها البعض الآخر منهم فقالوا انها زوجة زفس فدعوها هيرا . وصارت عندهم وليَّة الزواج . وكانت الاهة الحب السامية المسماة عشتاروت (ف ١٩١) قد غادرت مدن سورية وجاءت بلاد اليونان مارَّة بقبرص لتصير إلاهة الحب اليونانية فسمَّوها افروديت .

(٤١٩) اخلاق الآلهة اليونانية

وصوَّر اليونان آلهتهم بهيئات بشرية وحسبوها ذات صفات انسانية صالحة ورديئة . وقد خيِّل لهوميروس ان الخصام العائلي بين زفس وزوجته هيرا هو كالذي كان يقع بين

العيال اليونانية · ولم تكن آلهة كهذه لتتوقع من البشر[1] تصرفاً احسن من تصرّفها هي · فيُرى من هذا ان الديانة عند اليونان لم تكن قد صارت بعد عاملاً يؤدّي الى السلوك الحسن والاخلاق السامية . فكان اليونان من هذه الجهة لا يزالون في الدرجة السفلى من التطوُّر الديني · وهذا عين ما رأيناهُ في مدنيات الشرق تماماً

مسائل

٣٩

اي معدن مهمّ شاع عند ظهور التمدُّن اليوناني ؟ ماذا كان قد جرى لفنون الايجيين وصناعتهم ؟ هل كان من اليونان صُنَّاع ؟ ماذا تظنُّ في الخيل التي على الكاس اليونانية الباقية من عصر الملوك ؟ قابلها بنقوش العصر الحجري المتوسّط · ممّن ابتاع اليونان بنوع خصوصي اشياء مصنوعة ؟ ماذا تعرف عن هذه التجارة ؟ ماذا تعلّم اليونان منها ؟

٤٠

بماذا جاء الفينيقيون علاوة على السلع المصنوعة ؟ قل ما تعرفهُ عن الحروف الهجائية الفينيقية · كيف وصلت الى اليونان ؟ ما هو اصل لفظة « ألفا بيتا » ؟ الى اين بلغت حروف الهجاء الفينيقية ؟

٤١

صِف اسلحة اليونان الاولى واساليبهم الحربيّ . ما هي العلاقة بين اعمال البطولة والاغاني ؟ حول ايّة حادثة تجمّعت هذه الاغاني ؟ قل ما تعرفهُ عن هوميروس والقصائد المنسوبة اليه

(١) كانت الديانة اليونانية نتيجة تطوُّر طويل الامد ابتدأ في المراعي وبين الايجيين الذين ورث اليونان بعض معتقداتهم ودام مرافقاً للتاريخ اليوناني

٤٣

ماذا كان تأثير اغاني هوميروس على الديانة ؟ ماذا تقول في الديانة اليونانية قبل ان ظهرت اغاني هوميروس ؟ هل اتى اليونان ببعض الآلهة حين دخلوا بلادهم الجديدة ؟ اذكر اسماء اعظم الالهة اليونانية واذكر شيئاً عن كل منها . اذكر بالاسهاب معتقدات اليونان من جهة الاموات وعاداتهم في عبادتهم واماكن العبادة

الفصل الحادي عشر

عصر النبلاء والتوسع اليوناني في بحر الروم

٤٣

سقوط الملوك وزعامة النبلاء

(٤٣٠) الموانع الطبيعية لاتحاد اليونان امة واحدة

رأينا قبلًا ان المدنية اليونانية نشأت تحت تأثير عوامل شرقيـــة . ولكن اليونان في تطوّرهم السياسي لم ينسجوا على المنوال الشرقي. ففي الشرق رأينا ان الممالك المدينية التي كانت الواحدة منها عبارة عن مدينة وضواحيها، قد اتحدت اخيرًا فتألف من اتحادها امّتان عظيمتان احداهما على النيل والاخرى على الرافدين . واما في بلاد اليونان فحال دون اتحاد اليونانيين، امةً واحدةً، موانعُ قوية اخصّها تقسّم البلاد الطبيعي بجبالها وخلجانها اقساماً متعددة مما جعل جواليها المختلفة منفصلة بعضها عن بعض فوق انفصالها عن مدائن اليونان الاخرى في الجزر وآسية الصغرى

(٤٣١) عوامل أخرى معاكسة الوحدة السياسية

وعلاوة على ما ذُكر من العوامل المانعة للاتحاد، نقول انهُ لم يبقَ، حتى في اقـدم تقاليد اليونان، ما يذكرهم باتحادهم في سالف الزمان ايام كانوا لا يزالون في مراعيهم القديمة. وقد مرّت عليهم الآن حِقب طوالٌ وهم عائشون جماعات منفصلة الواحدة عن الاخرى فنشأ بينهم من جرّاء ذلك، عادات ولهجات يختلف بعضها عن بعض كما هي الحال بين سورية ومصر . وكان كلٌّ من تلك الجماعات شديد الوَلع بمدينتهِ والتمسك بعبادة آلهتــهِ حتى امسى اتحادها امرًا مستصعباً جدًّا ان لم نقل مستحيلًا . وكان من نتائج هذا الانقسام انهُ وُجد في بلاد اليونان بعد سنة ١٠٠٠ ق.م عشرات من الممالك الصغيرة المستقلّة التي كان كل

منها عبارة عن مدينة صغيرة وارباضها · واذا اضفنا اليها مدن الجزر واسية الصغرى بلغ عدد تلك الممالك مئات

(٤٢٣) الاتحاد الرباعي ارغوس وسبارطة

كان في بلاد اليونان اربع مناطق كل واحدة منها كانت مستقلة بحدودها الطبيعية — كشبه جزيرة سبارطة وشبه جزيرة اتيكا — (خريطة ١٣) ومخالفة لسائر المناطق الاخرى في اتحاد مدنها التي كانت قبلًا ممالك صغيرة مستقلة · فتكوّن من مدن كل منطقة منها



الشكل ١٢٤

تمثل لنا هذه الصورة معركة بحرية قديمة في عصر الملوك . وتمثل لنا التصاوير اليونانية التي على الكاس ، اشراف اليونان ايام كانوا لصوص بحر (قرصانًا) (ف ٤٢٧) . ورجال الحرب منهم مسلحون وهم في البحر كأنهم على البرّ . ولمعرفة شكل سفنهم انظر (ش ١٢٥) وقد ادخل ارِستونوثس ، مصور هذه الصورة التي على الكاس ، اسمهُ فوق العلم الى جهة اليمين في الصف الاسفل حيث تجيء الحروف اولاً الى اليمين ثم تنحرف الى اسفل . وهذه هي ترجمة الكتابة "ارستونوثس عمل هذا" وليست هذه الكاس اقدم الكؤوس المضاة فقط بل هي اقدم اعمال التصوير في اوربا ايضًا وان كانت ليست في شيء من الاتقان . وهي ترينا ان المصور اليوناني كان يزداد اعجابًا بعملهِ . وتعدُّ هذه الكاس من اقدم الادلة على الاستقلال الفردي في تاريخ اليونان نحو ٧٠٠ ق٠م

مملكة كبيرة · واقدم تلك المناطق عهدًا هي ارغوس (خريطة ١٣) التي استولت على قلاع ميكاني وتيرنس وقلاع أُخرى في جوارها والّفت الامة الارغوسية ودعت السهل الذي هنالك باسمها · وتغلّب ملوك سبارطة على شبهَي الجزيرة الى الجنوب منها وعلى ارض المسّينيين الواقعة غربيّها · فكان في حوزة مملكتَي ارغوس وسبارطة جزء كبير من شبه جزيرة المورة (البلوبونيسس)

(٤٣٣) اثينا وثيبة

وضمّت اثينا في شبه جزيرة اتيكا ، جميع الممالك الصغيرة التي كان كلٌّ منها عبارة عن مدينة وضواحيها وبسطت سلطتها على كل شبه الجزيرة . وكان على حدود اتيكا من الشمال منطقة بيوتيا . فهذه وقعت تحت سيطرة ثيبة . واما المدن الاخرى التابعة لبيوتيا فلم يكن اخضاعها في حيّز الامكان فبقيت ممالك صغيرة مرتبطة بتحالف ترأسهُ مدينة ثيبة ولذلك لم يتألف في بيوتيا مملكة كبيرة . ولم يكن في بلاد اليونان اتحاد ثابت الاّ الاتحاد الاثيني الذي كانت ترأسهُ مدينة اثينا ، والاتحاد السبارطي الذي كانت ترأسهُ مدينة سبارطة . وبقيت في البلاد مدن اخرى مستقلة بذاتها . وعُرفت الامة التي في شبه جزيرة اتيكا بالامة الاثينية وتسلطت حكومتها على كل شبه الجزيرة . ودُعي كل فلاح فيها اثينيا

(٤٣٤) التطوّر الداخلي لدولة اليونان

وبلغ اليونان حوالي سنة ٧٥٠ ق.م درجة جديدة من الارتقاء في ادارة احكام مدنهم الصغيرة التي كانت كل واحدة منها مملكة مستقلة بذاتها خلافاً لما كانت عليهِ الحال في الشرق . فان الشرقيين مهما كانت تبلغ سآمتهم من احد ملوكهم فانها لم تكن تدفعهم الى اكثر من خلع الملك الذي سئموا ملكهُ ، وتنصيب آخر مكانهُ مع المحافظة على الحكم الملكي الذي لم يدر في خلَد احد منهم الغاؤهُ

(٤٣٥) المملكة اليونانية والجهاد في سبيل الجمهورية

ونهض عامة الشعب اليوناني وجاهدوا قروناً عديدة لتحسين مركزهم وحالتهم الاجتماعية فكانت نتيجة جهادهم ، في بعض الممالك الصغيرة ، انهم نالوا نصيباً مهماً في ادارة الاحكام حتى صار يصح القول ان الحكم قد تحوّل عما كان وصار ديمقراطياً اي « حكم الشعب » . وكان اليونان اوّل شعب في العالم القديم حصل على هذا النوع من الحكم

(٤٣٦) ايام النبلاء المشترعون

ولم يكن الباعث على هذا الجهاد حكم الملوك الفاسد فقط بل ظلم النبلاء ايضاً الذين بلغت منهم القحة الى ان صاروا يهتضمون حقوق الفلاحين دون رأفة . وتمكن ذوو القوّة واصحاب الدهاء منهم من توسيع نطاق املاكهم بالخداع والاغتصاب والزواج والنفوذ الشخصي فصاروا اصحاب ثروات طائلة وعقارات شاسعة يتوارثها الخلف عن السلف جيلاً بعد جيل . ولقّبوا انفسهم بالمشترعين

(٤٣٧) قوة المشترعين السياسية والحربية

وامتدّت اراضيهم بضعة اميال حول مدنهم والقرى المجاورة لها . ولكنهم كثيراً ما كانوا يغادرون اراضيهم ويسكنون المدينة لكي يكونوا قريبين من الملك ويحصلوا على عضوية المجلس فيكون لهم نصيب في ادارة الاحكام . وكانوا على جانب عظيم من الحَوْل حتى بات اعضاء اعضاء المجلس كلهم من طبقتهم . وفي زمن الحروب كانوا هم الذائدين بسلاحهم عن المدينة لان ثروتهم مكّنتهم من اقتناء اثمن الاسلحة كما مكّنتهم ايام الفراغ من المرانة على حمل السلاح والتدرّب باستعماله

(٤٢٨) ضعف الفلاحين وشقاء حالهم

وكان الفرق بين سكان المدينة والفلاحين القرويين عظيماً جداً . كان الفلاح مضطراً ان يقسم اراضي العائلة بينهُ وبين اخوتهِ فامست حقولهُ بهذه القسمة صغيرة وامسى هو فقيراً لباسهُ من جلد المعزى لا غير وكان يعمل طيلة نهارهِ ليقوم بحاجاتهِ الضرورية . فلم يكن لهُ متسع من الوقت ليتدرَّب على حمل السلاح بل لم يكن لديهِ شيء من المال ليبتاع بهِ السلاح الضروري . ولذلك لم يُحسب لهُ حساب في الحرب . وكان يعدُّ نفسهُ سعيداً اذا استطاع باجتهادهِ وكدحهِ المتواصل ان يُنتج من حقولهِ الصغيرة ما يقوم بنفقة عائلتهِ . وكثيرون من اولئك الفلاحين غرقوا في لجة الدَّين وابتزَّهم النبلاء اراضيهم فامسوا فعلة فيها يعملون لسادتهم الاغنياء بل وصلوا الى حالة اسوأ من هذه فانهم باعوا انفسهم من دائنيهم ايفاء للدين فصاروا عبيد من اشتروهم .ولم يكن للعبيد نصيب في الحقوق السياسية ولا حقُّ التصويت في المجلس

(٤٢٩) ضعف المجلس

وكان الفلاح اذا رغب في ان يكون لهُ شيء من النفوذ في المجلس يضطرُّ الى المجيء الى المدينة لحضور جلساتهِ . ولكنهُ متى حضر لم يكن يرى فيهِ الاَّ عدداً قليلاً من القرويين رفقائهِ اللابسين على ابدانهم جلود المعزى الوسخة . اما الطبقة الغنية التي كانت قِوام هذا المجلس فكانت تلبس اخر الملابس الشرقية وتتقلَّد اجمل الاسلحة البرَّاقة التي تدرَّبت باستعمالها

ولكن ما لبث هذا المجلس ان عراهُ الضعف بعد القوَّة . فصار يجتمع فيهِ عدد قليل من الفلاحين القرويين وعدد اقلُّ من اهل المدينة ثم هجرهُ الفلاحون وعادوا الى حقولهم الصغيرة وضعف ميلهم الى الاجتماع فيهِ سنة بعد سنة فآل امرهُ الى التلاشي

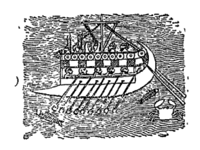
(٤٣٠) تقهقر الملوك وزوالهم

ولم يعبث النبلاء بحقوق عامة الشعب فقط بل تطاولوا على الملوك ايضاً لحسبوا انفسهم مساوين لهم لان الملك لم يكن في وسعهِ ان يثير حرباً بدونهم ولا ان يدير الاحكام دون مضافرتهم لهُ . ونحو سنة ٧٥٠ ق.م صارت وظيفة الملك في بعض الممالك اسماً بلا مسمَّى . واذا كان الملك في بعض الممالك يُخلع بالقوَّة، فقد كان النبلاء في معظمها ينتخبون من بينهم بعض الضباط ليديروا شؤون الحكومة التي كان امر ادارتها منوطاً بالملك نفسهِ . ففي اثينا عيَّنوا منهم قائداً حربيا وارخوناً او حاكماً ليعاون الملك في ادارة اعمال المملكة . وبالتدريج جُرد الملك ، بلا حرب ، من السلطة والنفوذ اللذين كان يتمتع بهما فامسى مدبراً للشعب في الشؤون الدينية . اما السبارطيون فاضعفوا مَلِكهم بتعيين ملك ثانٍ يشاطرهُ السلطة . وهكذا احتفظت سبارطة بملوكها واما في الاماكن الاخرى فما جاء القرن الواقع بين ٧٥٠ و ٦٥٠ ق.م حتى كانت وظيفة الملك قد زالت منها اجمالاً وان كانت في بعض الممالك

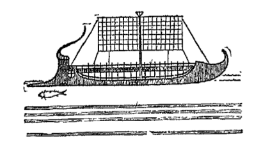
الاخرى قد دامت بعد ذلك وقتاً طويلاً . وكانت عاقبة هذا الجهاد السياسي والاجتماعي فوز النبلاء الذين قبضوا على اعنَّة الحكم في كثير من الممالك

(٤٣١) الاحتفاظ بالذخائر المقدسة في القصور القديمة

وبزوال الملوك أخليت القلعة الملكية . ولما مُدَّت اليها ايدي الخراب حافظ الشعب على الاماكن المقدسة التي فيها وصانوا الذخائر الثمينة التي ضمنها . واحترموا تلك الاماكن احتراماً شديداً كمبانٍ مقدسة . ثم صارت هذه المباني فيما بعد — كما سنرى في درسنا لفنّ البناء — هياكل لهم . وهكذا تحوَّلت قلعة ملوك اتيكا القدماء ، التي قامت على تل الاكروبلس باثينا ، الى هياكل مقدسة .



١



٢

الشكل ١٢٥ سفينة يونانية قديمة وسفينة فينيقية صنعت على شكلها

ان اقدم سفن بحر الروم اي المصرية كان معطوفاً من طرفيهِ الى الاعلى (ش ٣٠) وسفن الايجيين الاولى كانت على طرز السفن المصرية (ش ١١٨) ولكن الفينيقيين غيروا الشكل الاصلي بأن جعلوا لمقدم سفنهم منقاراً ناتئاً تحت الماء . وترى في هذه الصورة (١) سفينة منها ذات منقار منقولة عن رسم ناتئ في قصر سنحاريب ملك اشور الذي استخدم السفن الفينيقية لاغراضهِ . اما اليونان فلم ينسجوا في بناء سفنهم على منوال الايجيين الذين كانت سفنهم منعطفة من الطرفين بل على منوال الفينيقيين فكانت سفنهم ذات مناقير ناتئة تحت الماء كما يشاهد في التصاوير التي على الكؤوس المأخوذة عنها الصورة اعلاهُ (٢) . وهي صورة سفينة يونانية من القرن الثامن ق . م . رسمت هنا كاملة

٤٤

التبسُّط اليوناني في عصر النبلاء

(٤٣٢) بدء التجارة وبناء السفن عند اليونان

وحدث في عصر النبلاء تغيُّرٌ آخر عظيم في الحياة اليونانية . فان التجار اليونانيين قبضوا تدريجاً على ازمة التجارة البحرية . ولما كانت هذه التجارة تقتضي سفناً انتدبوا لبنائها اهل

الصناعة من اليونان، فبنوها على النمط الفينيقي (انظر ش ١٢٥ A وB) ولم يكونوا يعرفون من اشكال السفن الفينيقية سوى هذين الشكلين • ولما دخل التجار الفينيقيون الموانئ الايجية وجدوها مكتظة بالسفن اليونانية • وكانت التجارة قد بلغت درجة مهمة في المدن اليونانية على الشط الاسيوي شرقاً ، وفي اتيكا ويوبيا غرباً • وكانت في مقدمة المدن التجارية عند اليونان الاسيويين ، المدن الايونية • وبرع اليونان في الاسفار البحرية حتى صارت الطرق البحرية اسهل عليهم جداً من الطرق البرية

(٤٣٣) مستعمرات يونانية في نواحي البحر الاسود

وكان حكم النبلاء الجائر الذي آل الى افقار الفلاحين عاملاً مهما استفزّهم ان يهاجروا الى اراض جديدة وراء العالم الايجي • ولم تنحصر التجارة اليونانية في البلاد الايجية بل امتدت الى البحر الشمالي العظيم الذي دعوه « بنطس » وهو المعروف بالبحر الاسود • وكانت مراكز اليونانيين التجارية بين جماعات اهل العصر الحجري في هذه الاصقاع البعيدة مما مهّد السبيل لفلاحي اليونان ، غير القانعين بحالتهم ، للمهاجرة من بلادهم وتملك الاراضي الشاسعة في هذه البلاد النائية وبدء حياة جديدة • وقبل سنة ٦٠٠ ق•م كانوا طوّقوا البحر الاسود بقُراهم ومستعمراتهم وبلغوا الى الحقول الشاسعة على الدانيوب الاسفل، والى معادن الحديد في بلاد الحثيين على الساحل الجنوبي الشرقي من البحر الاسود (ف٣٦٦). الاّ ان العبقرية اليونانية لم تترقّ في الاصقاع الشمالية القاحلة ولم تبدِ شيئاً من الانتاج العقلي الذي سنقف عليه في العالم الايجي • فبلاد بنطس مع انها صارت اهراء بلاد اليونان ومخازن لغلالها لم تتحف الحياة العقلية اليونانية بشيء اكثر من ضروريات الحياة الحيوانية

(٤٣٤) المستعمرات اليونانية في الشرق، في اسية الصغرى الجنوبية وقبرس

وتصادمت قوّات سنحاريب (ف٢٢١) ملك الشرق العظيم بقوّة يونانية في كيليكية سنة ٧٠٠ ق•م فدارت الدائرة على اليونان وكانت نتيجة هذا التصادم الاوّل بين اليونان ودولة شرقية عظيمة ، وقف اليونان عن التبسّط شرقاً في السواحل الجنوبية من اسية الصغرى • وظلت قبرص اليونانية زمناً طويلاً ، اقصى مستعمرات العالم اليوناني شرقاً • واما في الجنوب فلقي اليونان في مصر صدوراً رحبة وأُذن لهم ان يشيدوا بدلتا النيل مدينة متجرية سموها نوكراتيس ، (سيدة السفن) جدّة الاسكندرية • واسّسوا اخيراً غربي الدلتا ، القيروان (خريطة ١٤/)

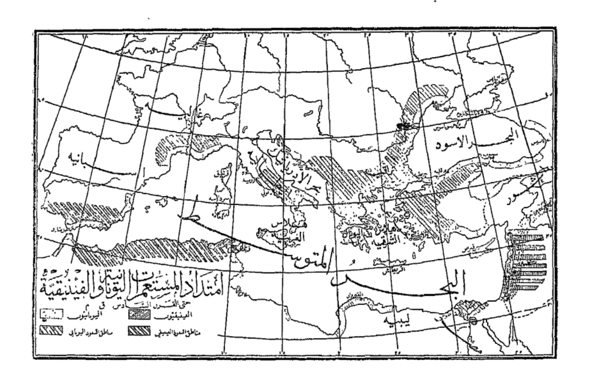
(٤٣٥) اكتشاف الغرب

وصار الغرب المجهول اميركا اليونانيين المستعمرين الاولين • وكثيرون منهم حذوا حذو كولمبس فاقتحموا البحر معرضين انفسهم للاخطار العظيمة طمعاً بالوصول الى بلاد غريبة عند اقصى حدود العالم حيث — على زعمهم — يعيش الابطال في جزر المغبوطين السعداء •

وكان تجارة اليونان اذا سرّحوا انظارهم من ساحل بلادهم الغربي الى جهة الغرب رأوا سواحل ايطاليا الجنوبية لانها لا تبعد عنهم اكثر من خمسين ميلاً . وكانوا حين بلوغهم اليها يدورون حول سواحل صقلّية . ثم يتقدمون الى الغرب الذي كانوا يحسبونهُ عالماً جديداً . ومع ان الفينيقيين كانوا قد سبقوهم اليهِ (ف ٤٠١) فقد عدُّوا اكتشافهم اهُ امرًا مهماً كما عدّ بعد ذلك اهل اوربا اكتشاف اميركا (انظر خريطة ١٤)

(٤٣٦) مستعمرات يونانية في الغرب ايطاليا الجنوبية

وفي سنة ٧٥٠ ق.م بدت طلائع مستعمراتهم في العالم الغربي الجديد . ولم يمرّ عليهم قرن من الزمان حتى كانوا قد طوّقوا جنوب ايطاليا من العقِب (الكعب) الى نقطة فوق ظهر القدم[1] وعلى مسافة من شمال نابولي ، فصار القسم الجنوبي من ايطاليا يُدعى « بلاد اليونان العظيمة » (انظر خريطة ٢٣) ولما كان اليونان في ذلك الزمان ارقى مدنية من الايطاليين ، كان تاريخ تمدن ايطاليا يبتدئ من دخول اليونان اليها لانهم اوّل كل شيء اتوها بالكتابة والآداب وهندسة البناء والفنون (ن ٧٧)



(٤٣٧) صقلية والغرب الاقصى

وعبر المستعمرون اليونانيون الى صقلية ايضاً وطردوا الفينيقيين من مراكزهم التجارية الاّ عند طرف الجزيرة الغربي حيث بقوا محتفظين بها . وشارك المستعمرون في الغرب اخوانهم

(١) ان هيئة بلاد ايطاليا كالرجل البشرية او "الجزمة"

في الوطن الاصلي بعلومهم وآدابهم . فصارت سرقوسه عند الطرف الجنوبي الشرقي من الجزيرة مقرًّا للعلوم كما صارت معقلًا حصينًا بل امنع مدينة في العالم اليوناني. واسس اليونان الغربيون في مسيليا (مرسيليا) ، على ساحل فرنسا الحديثة ، مدينة قبضت على ازمة التجارة من جانبي وادي الرُّون . وبلغوا سواحل بحر الروم في اسبانيا مندفعين اليها بجاذبية الفضّة التي في معادن طرسوس

(٤٣٨) الاستعمار قديمًا في بحر الروم . اختلاف جنسي . الجنس الهندي الاوربي شمالية والجنس السامي جنوبية

وتبسّط اليونان في المهاجرة والاستعمار، تحت حكم النبلاء ، حتى امتدّت مستعمراتهم من البحر الاسود الى الساحل الشمالي من بحر الروم، وكادوا يبلغون الى ساحل الاتلانتيكي. فنرى في هذه الحركة الخطيرة جزء الجناح الغربي من الصف الهندي الاوربي مبسوطًا على طولهِ (انظر ف ٢٥١) ولكننا في الوقت نفسهِ نرى الصفّ الساميّ ، بواسطة مملكة قرطاجنّة الفينيقية ، قد بسط جناحهُ الغربي على الساحل الجنوبي من بحر الروم مقابل الشعب الهندي الاوربي على ساحلهِ الشمالي . (ش ٨٣ وف ٤٠١ انظر خريطة ١٤)

(٤٣٩) عالم جديد في بحر الروم

وقد آل تبسط اليونان والفينيقيين (٤٠١) اخيرًا الى تكوُّن عالم عظيم في بحر الروم . ولكن لأيّة مدنية ستكون السيادة فيهِ ? أَلمدنيَّة اليونان ومستعمراتهم ام لمدنية شرقية تحملها السفن الفينيقية وتنشرها في الخافقين بواسطة مستعمراتها ? هذه هي المسألة العظمى . وجوابها يتوقف على كيفية نموّ المدنية اليونانية وترقّيها في وطنها الاصلي اي العالم الايجي الذي نوجّه اليهِ افكارنا الآن

((٤٥))

المدنية اليونانية في عصر النبلاء

(٤٤٠) عوامل باعثة على الوحدة . الالعاب الرياضية

قد عرفنا فيما مرّ الاسباب التي ابقت الممالك اليونانية منفصلة بعضها عن بعض بحيلولتها دون اتحادها امة واحدة (ف ٤٢١) . والآن نأتي الى ذكر العوامل التي حدت الى الوحدة. ومن جملتها المباراة بالاسلحة والالعاب الرياضية التي نشأت عن عادة قديمة عند اليونان وهي تكريم ابطالهم عند دفنهم بإقامة مثل هذه الالعاب . ولكنهم صاروا فيما بعد يمارسونها في اوقات معلومة معيّنة اكرامًا للآلهة . ومنذ سنة ٧٧٦ ق . م شرعوا يحتفلون باعياد عمومية في

اولمبيا[1] يمارسون في اثنائها تلك الالعاب. ولما كانوا يمارسونها مرَّة كل اربع سنين أُولع بها جميع اليونان واشتركوا فيها

(٤٤١) عضد المجالس الدينية للوحدة اليونانية

وصارت الديانة ايضاً عاملاً قويا على الاتحاد لانهُ وُجد عندهم آلهة كان اليونان عموماً يؤمُّون هياكلها ويشتركون في عبادتها مما دعا الممالك المدينية اليونانية الى تأليف مجالس دينية يُختار اعضاؤُها من المدن اليونانية المختلفة. وكان اولئك الاعضاء يجتمعون في اوقات معيَّنة وبهذه الطريقة كان لكل مدينة صوت في ادارة الهياكل العمومية . فكانت هذه المجالس من اقرب السبل التي اختطَّها العالم القديم للوصول الى الحكم التمثيلي . وكان اشهرها المجلس الذي كان يُعنى بادارة الالعاب الاولمبية ، ومجلس حَرَم ابلُّون الشهير في دلفي (ش ١٣٢) ومجلس العيد السنوي العظيم الذي كان يُقام في جزيرة ديلوس تكريماً لهُ

(٤٤٢) تقوية ربط الوحدة بواسطة اللغة

وكان اعضاء تلك المجالس يتكلمون في اجتماعاتهم بلهجات يونانية مختلفة . ولكن كان الواحد منهم يفهم كلام الآخر. وكانت لغتهم المشتركة مساعداً قويًّا على ربط سكان مدن اليونان الكثيرة المختلفة بعضها ببعض. وتولَّد في اليونان عاطفة جديدة وميل قوي الى الوحدة بتأثير الاغاني الهومرية (ف ٤١٣) التي كانت مألوفة عند كل يوناني — إرثٌ مشترك يمثل جميع اليونان متحدين على مدينة طروادة الاسيوية

(٤٤٣) البرابرة والهيلينيون

ولما وجد اليونان انفسهم مرتبطين بِرُبُط العادة والدين واللسان والتقاليد العمومية ، تولَّد فيهم الشعور بالوحدة الجنسية الذي افرزهم عن سائر الاجناس الاخرى فدعوا جميع من لم يجرِ في عروقهم الدم اليوناني « برابرة » دون ان يقصدوا بهذه التسمية امتهان من لم يكن يونانيا. ودعوا انفسهم « هيلينيين » وهو اسمهم الاوَّل الشامل لهم كلهم. وكانوا يرتاحون الى الاعتقاد أنهم تسلسلوا من جدٍّ واحد هو هَلّين . الاَّ ان هذه التسمية الجديدة لم تدلَّ على امة يونانيَّة معروفة بل على مجموع شعوب او ولايات تتكلَّم باللغة اليونانية ولكنها في الوقت نفسهِ كانت تثير حروباً بعضها على بعض

(٤٤٤) الوحدة اليونانية والتجارة

وكان عدم وجود الوَحدة السياسية الذي تدلُّ عليهِ حروب كهذه ، ظاهرًا تام الظهور في الشؤُون التجارية . فلم يكن لتاجر من احدى المدن حقٌّ من الحقوق الشرعية في مدينة أُخرى غير مدينتهِ حتى حياتهُ لم تكن في امن. لانهُ لم تكن قد سُنَّت بعد شرائع للمحافظة

---

(١) كل طالب من طلاب المدارس يعلم بان الالعاب الاولمبية قد صارت عمومية الآن في الدنيا باسرها

على حياة الغرباء • فلم يقدر احد ان يحصل على حق الحماية الاَّ بالاستناد الى « الضيافة » ، عادة البادية القديمة ، بشرط ان يثبت الغريب انهُ ضيف على احد سكان البلدة او المدينة • ولاِضافة من لم يكن لهُ صديق في المدينة يقبلهُ في بيتهِ ، كانت المدينة تعيّن احد ابنائها ليكون مُضيفاً رسميا عنها • فهذه الترتيبات التي كانت مرعيَّة في عهد خشونة الانسان القديم هي بيّنة على التحامل المحلي في كل مدينة يونانية • وكان العيب الشائن اكثر من سواهُ في اخلاق اليونان كافَّة تقصير الولايات المختلفة في نسيان ما بينها من المنازعات المحلية وارتباطها بمحالفة عمومية او انضمامها أُمة عظيمة تجمع شمل جميع اليونان

(٤٤٥) البداءة والفاقة

وكانت المعيشة اليونانية في عصر الاشراف لا تزال الخشنة ساذجة معما كان عليهِ اليونان من سعة العيش وتردّي الملابس الشرقية الفاخرة والتباهي بالشعور العارية الخافقة (ف٣٩٩) . ولم تكن المدن اليونانية التي سبق الايماء اليها الاَّ مجموعات بيوت قذرة مبنية باللبن العادي ، وشوارع ضيقة يضلُّ فيها الساري وبيدهِ مصباح • وقامت على الرابية التي كان مشيَّدًا عليها قصر الملك او القلعة ، بناية من اللِّبن شبيهة ببيوت المدينة التي تحتها وكان في مقدَّم البناية سُدَّة او سقيفة لها صفٌّ من الاعمدة الخشبية وسقف يستدقُّ من اعلاهُ فيكون شكل مثلَّث • فهذه البناية غير المتقنة كانت اوَّل هيكل يوناني • واما النحاتة في هذا العصر ، فيُعرف ما بلغ اليهِ اليونان فيها من انهم كانوا يصنعون تمثال احد آلهتهم من قِطعة خشب يُنحت رأسهُ في اعلاها نحتاً خشناً ساذجاً ثم يُلبس حلَّة اخفاء للخشونة

(٤٤٦) بدء كتابة آداب اللغة . التقدم الادبي . محبة الوطن

وفيما كان عدد الذين يقرأُون لا يزال قليلًا في البلاد اجمالاً ، وُجد في بعض الاماكن افراد كان لديهم نسخ من هوميروس يحسنون قراءتها • وكان الناس في هذا العصر يَرْوون لاولادهم اساطير غريبة عجيبة يصوّرون لهم بها العجماوات تفعل افعال العقلاء • وكانوا بحكايات كهذه ذات مغازٍ ادبية ، يوضحون لاولادهم ما يجب على الانسان ان يعملهُ وما يجب عليهِ ان يمتنع عن عملهِ • فيستدل من هذا ، على ان اليونان شرعوا يفكرون في كيفية التصرُّف او السلوك الانساني فلم تعد الكلمة اليونانية القديمة « فضيلة » تعني الشجاعة في الحرب فقط بل الحنو وانكار الذات في معاملة الغير ايضاً • وبدت تتجلى الآن واجبات المرء نحو بلادهِ بصورة العاطفة التي نسمّيها محبة الوطن • وعلّم بعضهم ان السلوك القويم مطلوب حتى من الآلهة .

(٤٤٧) تحويل الاهتمام الادبي من الماضي الى الحاضر

انهُ لامر طبيعي تحت هذه الاحوال ان ينشأ ضرب جديد من آداب اللغة لان اليونان اخذوا الآن يدققون في امر انفسهم وتصرّفهم الخصوصي • فان الذين كانوا يتغنّون بالاشعار

في عصر هوميروس لم يبدوا اقل اشارة الى انفسهم ولا قالوا شيئاً عن حياتهم بل كانت افكارهم بجملتها منصرفة الى وصف اعمال ابطالهم ذوي البأس والشدَّة الذين كانت قد طوتهم الغبراء منذ احقاب بعيدة . ولكن الزمان تغيّر فأخذت مسائل الحاضر تكون الشغل الشاغل لعقول الناس • ولما رأوا الفلاح المسكين يجاهد جهاداً شديداً حفظاً لكيانهِ (انظر ف ٤٢٨) شعروا بلزوم الاهتمام بحاجاتهم الزمنيّة واصبح امر الحياة الموضوع الحيّ المهمّ لديهم

(٤٤٨) هسيود واوّل نداء لاقامة العدل الاجتماعي في اوربا

هجعت الاصوات التي كانت قبلًا تتغنّى باغاني الابطال وطرق مسامع الناس اوّل صوت ارتفع في اوربا انتصاراً للمسكين والذليل فأنشد هسيود الفلاح الخامل اغاني أبان بها معيشة الفلاح الكئيبة المحفوفة باليأس ومعيشتهُ وهو يجاهد ليقوم بحمل ناء بهِ منكباهُ • وروى كيف ان اخاهُ وضع يدهُ على الاملاك التي خلّفها والدهُ كلها برشو القضاة ليثبتوا حق امتلاكها لهُ • واتفق انهُ لما تفاقم جور الاغنياء المُترَفين من سكان المدن المنغمسين في الشهوات والملذَّات وارتفع لاوَّل مرَّة في اوربا صوت المحتجّين على طُغيانهم ، كان العبرانيون في فلسطين واقعين في المأزق الحرج نفسهِ . فكان صوت هسيود المطالب بالقسط في الرعية كأنهُ صدى آتٍ من وراء البحر يردّد شكوى العبرانيين ، الاَّ ان الجَهر بوجوب اجراء القِسط والعدل كانت نيجتهُ في فلسطين ديانة تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر لا قلب الحكومة المستبدَّة . وكانت نتيجتهُ في بلاد اليونان قلب الحكومة الغاشمة وتنظيم حكومة ديمقراطية مكانها اي حكومة الشعب الذي ابى ان يبقى كالاذلّين مقيماً على الخسف والضيم خانعاً للاقلية الطاغية • وسنتتبع في الفصل التالي سير الاجتهاد الذي ادّى الى الحكومة الشعبية

مسائل

٤٣

هل كان شكل البلاد الطبيعي موافقاً لضمّ شمل اليونان كلهم واتحادهم اتحاداً سياسياً؟ كم اتحاداً مهمًا نشأ بينهم ؟ سمّها واشرح الاثنين الرئيسيين منها • كيف اختلف تطوّر

الشرق السياسي عن تطوُّر بلاد اليونان ؟ ما هي الديمقراطية ؟ اين نشأت اولاً ؟ ماذا كان موقف النبلاء تجاه الديمقراطية ؟ صف قوّتهم السياسية والحربية ؟ كيف كانت حالة الفلاحين ؟ ماذا حدث للمجلس ؟ وماذا حدث للملوك ؟ وماذا للاماكن المقدسة التي في القصر ؟

٤٤

على ايّة قواعد بنى اليونان سفنهم الاولى ؟ قل ما تعرفهُ عن استعمار اليونان في الشمال والشرق . والجنوب والغرب ؟ اي جنس منافس لهم كان قد انشأ مستعمرات في الغرب ؟ الى اية درجة بلغ بذلك؟ اي مدى بلغت التجارة البحرية بذلك؟

٤٥

أبنْ كيف ادّت الالعاب الرياضية الى الوَحدة ؟ ماذا كان موقف الديانة تجاه وَحدة اليونان ؟ واللغة ؟ اي تسميتين نشأتا جديدًا لليونان ولغير اليونان . ماذا كان موقف المدن اليونانية تجاه من لم يكن من تَبعتها ؟ صف اقدم الهياكل اليونانية ؟ هل كانت آداب اللغة والقراءة من الامور المألوفة عند الجمهور ؟ ما هي الافكار التي كانت آخذة بالنشوء من جهة السلوك ؟ اي تأثير كان لاهتمام الناس بامر انفسهم بدلاً من الاهتمام بابطالهم؟ ماذا كان تأثير ذلك على آداب اللغة ؟ ماذا تعرف عن هسيود ؟ الى اي شيء كانت تتجه حماسات هسيود ومن لفّ لفّهُ ؟

الفصل الثاني عشر

الانقلاب الصناعي وعصر الطغاة

٤٦

الانقلاب الصناعي والتجاري

(٤٤٩) تقدم اليونان في التجارة والصناعة

ان تبسّط اليونان الاستعماري العجيب مصحوباً بتقدم صناعاتهم في مدن الوطن الاصلي ادّى الى تغييرات جوهرية مهمة لان المستعمرات الجديدة ، فضلاً عن حاجاتها الخاصة ، كانت ذات علاقات تجارية مع داخلية البلاد زادت مع الايام. ففتح ذلك اقاليم متسعة الاطراف من اوربا صارت سوقاً للسلع اليونانيــة • وشرعت مدن اليونان الاصلية تقــدّم المطلوب من البضاعة على اختلاف انواعها • وكانت المدن الايونية المجلية في هذا الميدان كما كانت في غيره قبلاً • الاّ ان الجزُر وبلاد اليونان الاصلية شعرت بالدافع الجديد ونزلت الى ميدان الجهاد التجاري فانبرت اولاً كورنثوس ثم تلتها اثينا للاشتراك معها في تعزيز التجــارة التي كانت آخذة في النموّ والتقدم• وقبل ان يمضي ردحٌ من الزمان صارت سفن الهلّينيين تؤُمّ جميــع سواحل البحر المتوسط شمالاً وغرباً وجنوباً بشرق حاملة الى الجوالي القاصية السلع اليونانية من معدنية وصوفية وخزفيّة• وكانت في عودتها تشحن إمّا موادّ اوّليّة كالكهرباء او موادّ للاكل كالحنطــة والسمك او مصنوعات البلدان الاخرى كآنية الــبرنز من صنع الاترسكيين في شمال ايطاليا (ش ١٨١) •فكان اليوناني اذا ذهب الى السوق السنوية التي

تُقام في جزيرة دياوس او الى العيد السنوي يشاهد مصنوعات البرنز المجلوبة من اترُسكا في الغرب والبسط الزاهية من الشرق مرتبة جنباً الى جنب

(٤٥٠) تحرر الصناعة اليونانية من المؤثرات الشرقية

وبذل الصناع اليونانيون جهدهم في تحسين شغلهم تحسيناً يُذكر قياماً بمطالب التجارة المتزايدة ومجاراةً لمنافسيهم الفينيقيين في مضمارها. فلم تكن الصنائع اليونانية في القرن السابع ق.م تضاهي صنائع الشرق في الجودة والاتقان بل كانت دونها بمراحل من هذا القبيل. ولكن بعد سنة ٦٠٠ ق.م اخذ اليونان يتفوَّقون على اساتذتهم الشرقيين. ففي ساموس تعلَّموا صُنع سبائك مجوَّفة من البرنز كالتي كان يسبكها المصريون. واتقنوا زخرفة الخزف بتصوير مشاهد وطنية عليهِ مأخوذة عن سِيَر الآلهة والبشر. وقامت هذه المشاهد مقام الصوَر الشرقية التي كان منها ما هو نصف حيوان ومنها ما هو نصف انسان. (ش ١٢٦) وعلى هذا النمط اخذت صنائع اليونان تتحرَّر من الاستعباد للشرق



الشكل ١٢٦ كاس اثينية من اوَّل القرن السادس ق.م. مزدانة بالتصاوير

هذه القطعة النفيسة التي يُربي علوها على ثلاثين قيراطاً وُجدت في قبر رجل اترُسكي بايطاليا (انظر خريطة ٢٣) في المكان الذي نقلت اليهِ من قبل صانعيها الاثينيين في زمان صولون (ف ٤٦١). وقد كتب عليها اسم صانعها الخزاف ارغوتيموس، واسم الذي زخرفها بالصوَر كليتياس الذي صوَّر بيده الماهرة التصاوير الانيقة التي عليها. ولمعرفة مقدار انتشار مصنوعات هذين الرجلين طالع ف ٤٥٣. وهذه التصاوير دليل على تحرُّر المصوِّر اليوناني من المؤثرات الشرقية واعتمادهِ على خيالهِ في تصوير مشاهد منقولة عن سير الآلهة والابطال. وقبل نهاية هذا القرن (السادس) كان قد شرع مزخرفو الكؤوس يدهنونها اولاً كلها باللون الاسود ثم يدهنونها فوق الاسود باللون الاحمر. وهذا مكنهم من تحسين شغلهم كثيراً حتى صار اليونان احسن رسامي الدنيا. لاحظ هنا التقدم في غضون مئتي سنة (قابل الخيل في هذه الصورة بالتي في شكل ١١٩)

(٤٥١) ادخال اليونان للعبيد في الصناعات

واضطرَّ اتساع التجارة كلَّ يوناني ان يكبر دكانهُ الصغير الذي ربما لم يكن قبلاً اكبر من ان يقوم بلوازم دسكرة صغيرة. ولما لم يجد العَمَلة اللازمين لهُ عمد الى شراء العبيد وتمرينهم على العمل. ثم حوَّل دكانهُ الى معمل يشتغل فيهِ عشرات منهم اذا مكنتهُ احوالهُ المادية من ذلك. واصبح عمل العبيد في المعامل منذ الآن امرًا مهمًّا لا مناص منهُ في حياة اليونان الصناعية

(٤٥٢) امتداد التجارة الاثينية

دخلت اثينا معترك الصناعة بعد جميع المدن الايونية بوقت طويل، ولكنها غبَّ دخولها فازت فوزًا مبينًا لا يقل عن فوزهـا في مضمار الفنون والآداب والفلسفة والحرب • ولا بد ان معامل اثينا كانت بالغة درجة من الفخامة لم يبلغها معمل آخر في بلاد اليونان باسرها ، لانهُ وُجد ان نصف الكؤوس اليونانية المزخرفة بالنقوش والتصاوير التي اكتشفها المنقبون وعليها اسم صانعها ، كان قد صُنع في ستةٍ من معامل اثينا • ومما يزيد اعجابنا بقدماء الصناع الاثينيين وارباب الفن فيهم هو ان المنقبين عن الآثار في عصرنا ، سواء كانوا ممن نقَّبوا في قلب اسية الصغرى او في مقابر مدائن اتروسكا بايطاليا (ش ١٢٦) قد اكتشفوا كثيرًا من الكؤوس ذات التصاوير والنقوش وعليهـا اسماء صانعيها وناقشيها الاثينيين الذين تشاهـد اسماؤهم ايضاً على كؤوس وجدها المنقبون في دلتـا النيل • فنرى من ذلك كله انـهُ كان للصانع الاثيني صِلة تجارية ببلدان بعيدة تمتدّ الى العالم القديم

(٤٥٣) تحسين السفن وتكبيرها

وتلبيةً لداعي التجارة التي كانت تتزايد مع الايام هبّ بنـاة السفن من اليونان لبناء سفن جديدة اعظم من سفنهم القديمة ذات الخمسين مجذافاً • وكانت هذه السفن الجديدة شراعية تسير بقوة الرياح فقط (وقد سبق المصريون غيرهم الى هذا الاختراع) (ش ٢٩) • وكانت ضخمة يتعذر جرها الى الشاطئ ، كما كانوا يجرون السفن القديمة • فكان لا بد من بناء موانئ مصونة من فعل الرياح ، والاعتماد على مراس . دعت الحاجة الان الى اختراعها كما دعت حاجة السفن التجارية الى اختراع سفن حربية لحمايتها • فصاروا يفرقون بين السفن التجارية والسفن الحربية • وتبجحت كورنثوس بانها صنعت اولى السفن الحربية ذات الظهر وهو تحسين في بناء السفن ذو فوائد جمة • فانهُ يزيـد مساحة السفينة ويسهل حركة رجال الحرب الذين فيها ويقي المجذفين الذين في الطبقة السفلى منها لان اعتماد السفن الحربية كان في هذا الزمان على المجاذيف لا على الريح • فكانوا يرتبون المجذفين في ثلاثة صفوف كل ثلاثة منهم على مقعد وبيد كل منهم مجذاف • وبهذا الترتيب تمكّنوا من زيادة القوة ثلاثة اضعاف دون اقل زيادة في حجم السفينة • وفي سنة ٥٠٠ ق • م • كانت هذه الاختراعات قد شاعت كثيرًا • وهكذا اخذ اليونان ، بما لديهم من المعدات البحرية الممتازة وبتحسن صناعاتهم ، يفوزون على الفينيقيين في اسواق البحر المتوسط

(٤٥٤) المعادن الكريمة وسك النقود في الشرق

وفي اثناء ذلك كانت الحياة التجارية اليونانية قد دخلت عصرًا جديدًا ابتدأ بادخال النقود المسكوكة • كان الايونيون من سكان داخلية اسية الصغرى يستعملون المعـادن الكريمة وزنًا لتأدية ديونهم عملًا بعادة جرى عليها الشرقيون منذ القدم (ف ١٩٥) وكانت

وَحدة الوزن عندهم المَنَا البابلي ٠ وكل ستين مناً (ليبرة) كانت تساوي وزنة ٠ وكانت قيمة الوزنة من الفضَّة ٥٦٢٥ فرنك ذهب٠وبعد سنة٧٠٠ ق ٠ م ٠ بامدٍ يسيرٍ ، شرع ملوك ليدية باسية الصغرى(انظر خريطة ١٣) يقطعون الفضة قِطعاً ذات وزن معيَّن وحجم وقيمةمتناسبين ويطبعونها بطابع الملك او المملكة دلالة ان المملكة كافلة قيمتها لحاملها ٠ وهذه هي اقدم انواع النقود المسكوكة المعروفة عندنا

(٤٥٥) استعمال اليونان للمسكوكات (في اوائل القرن السابع ق ٠ م)

واعتمدت المدن الايونية على هذا التسهيل الجديد في المعاملات وسرى استعمال النقود المسكوكة الى الجزر ويونان اوربا ٠وقسم الاثينيون منا الفضة مئة جزء كل جزء منها يساوي نحو خمسة غروش ذهب وصار الجزء من المئة من المنا وَحدة القيمة الصغيرة العادية ، ولا يزال وَحدة في اقسام كبيرة من اوربا ٠ فالفرنك في فرنسا والليرا في ايطاليا والكورون في اوستريا ٠ ودعا الاثينيون هذه القطعة من النقود « دراخمة » ومعناها « قبضة » لانها كانت مساوية لقيمة قبضة من « الفرط » ٠ والفرط عبارة عن قطع صغيرة من الحديد او النحاس كان يستعملها عامة الشعب ٠ وكانت قوَّة الدراخمة الشرائية قديماً اعظم جدًّا من قوَّتها الآن لانهم كانوا في القديم يشترون بها راس غنم وبخمسة منها راس بقر ٠ فكان المَلاك اذا بلغ دخله خمس مئة دراخمة (مئة ريال اميركي) عُدَّ مثرياً



الشكل ١٢٧ نماذج توضح بداية سك النقود

هذه قطع بسيطة من الفضة كالتي كان يستعملها اهل الشرق قديماً (ف ١٩٥) ترقت بضغط الآلة الطابعة (السكة) وتشاهد على النموذجين ١ و٢ علامة الآلة التي ارتكزت عليها قطعة الفضة حين سكّت، وكانت السكة قبلاً مربعة الشكل ولكنهم جعلوها فيما بعد مستديرة ـ وصارت النقود المسكوكة بها كذلك ٠ فالقطعة ١ وجهها فلس من ضرب مملكة ليدية والقطعة ٢ وجهها فلس من ضرب جزيرة خيوس (صاقس) اليونانية (٥٠٠ ق ٠ م ٠) ومنها يبين ان اليونان احتذوا مثال مملكة ليدية في سك نقودهم. والقطعة ٣ وجهها فلس من نقود كنيدوس (٦٥٠ ـــ ٥٥٠ ق.م) نموذج السكة المربعة والقطعة ٤ وجهها فلس من نقود اثينا قيمته اربع درخمات (القرن السادس ق.م) وعليه صورة راس الالاهة وبومة وغصن زيتون (سكة مربعة) وتضمن هذه الكتابة الاحرف الثلاثة الاولى من اسم "اثينا"

(٤٥٦) قيام طبقة من الماليين

وكانت ثروة المرء قديماً تقاس بما في حيازتهِ من العقارات والمواشي ٠ واما الآن فصار الناس يحتشدون الاموال

بصورة نقود مسكوكة يتخذونها راس مال لهم ويعقدون قروضاً بفائــدة معلومة ٠ وهذه عادة مكسوبة من الشرق ٠ وكانوا يحسبون معدل الفائــدة السنوي ١٨ بالمئة ٠ فالذين لم يستطيعوا قط ان يجمعوا ثروةً من الزراعة اخذوا الآن يثرون ٠ لان تقدُّم الصناعة والاقدام على الاسفار البحرية بغية الاتجار اوجد ثروات بايدي طبقة من السكان كانوا قبلاً مُعدمين فكانت نتيجة ذلك ان قام من الطبقة الوسطى صنف من النــاس تجار وصناع وطلبوا ان يكون لهم صوت في الحكومة ٠ وما لبثوا ان صاروا من ارباب السياسة واهــل النفوذ فاضطرَّ النبلاء الى احترامهم ٠ فاستفزَّ ذلك صولون في مستهل القرن السادس ق ٠ م ٠ الى الجهر بالقول ان الدراهم تصيِّر رجالاً

٤٧

(قيام الحكم الديمقراطي) (وعصر الطغاة)

(٤٥٧) ذل الفلاحين

وفيما كان الماليون يزدادون رقيًا وفلاحــاً كان الفلاحون يزدادون بؤساً وشقاء لانهم كانوا يستدينون الاموال من اربابها ويرهنون عندهم اراضيهم فاذا استحقت الديون وعجز الراهنون عن الايفــاء في الآجال المضروبة غلقت الرهون فاستولى عليهــا المرتهنون وباعوا اصحابها عبيدًا في بلاد اجنبية مالم يركنوا الى الفرار من بلادهم تخلصاً من هذا القضاء الجائر المبرم ٠ وكان النبلاء الذين بايديهم زمام الاحكام يبذلون قصارى مجهودهم للانتفــاع من ضعف الفلاحين وصغار المزارعين (ف ٤٢٨)

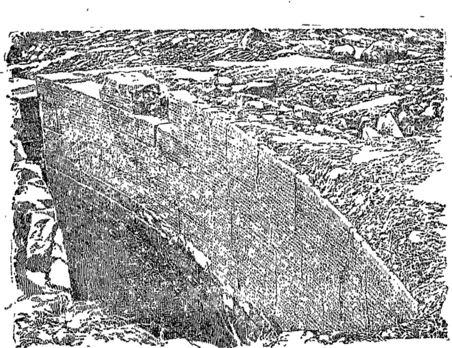
(٤٥٨) قوة الشعب وقيام الطغاة

وقام في هذا الوقت اعداء جُدَد يناهضون النبلاء ٠ وكان اولئك الاعداء من الاغنياء (ف ٤٥٦) ومن عامَّة الشعب الذين اصبحوا قادرين على اقتناء السلاح لرخصهِ ٠ فارتفعت بذلك منزلتهم وزادت اهميتهم في الجيش خلافاً لما كانوا عليهِ قبــلًا وهم عُزل بلا سلاح ٠ ومما زاد في طينة النبلاء بلة قيام بعضهم لمناوأة البعض الآخر مما جعل اتحادهم مستحيلًا ٠ وآلت المشاحنات بــين الأُسر النبيلة في كثير من الاحــوال الى تشتُّت شملهــا وتقسُّمها احزاباً ٠ وكثيرًا ما كان رئيس حزب من النبلاء يظهر ميلــهُ الى الشعب الساخط ومبادئهِ مرائياً او مخلصاً فيجعل نفسهُ زعيماً عليهِ ٠ فينضوي تحت لوائهِ الفلاحون والتجار ٠ وحــين

كان يرى نفسهُ مؤيدًا بهذه القوة لم يحجم عن التنكيل بخصومهِ من الطبقة النبيلة وطردهم من البلاد والاستئثار بالحكم بلا منازع

(٤٥٩) الطاغية والرأي العام فيه

والحاكم الذي من هذا النوع كان في الواقع ملكاً · الأَ انهُ يختلف عن الملوك الاوَّلين في انهُ ليس من الاسرة المالكة لانهُ اغتصب الملك اغتصاباً بالقوَّة الغاشمة فلم يكن لهُ شيء من الاحترام الذي كان عادة للملك متحدّر من اسرة ملكية · وكان الشعب



الشكل ١٢٨ اخربة دار الحكومة في غورتينا والشرائع اليونانية القديمة

موقع هذه الدار في غورتينا بجزيرة كريت . وهي من آثار الجيل السادس ق.م ، مستديرة الشكل طول قطرها ١٤٠ قدماً . وفيها كان مجلس القضاء الاستئنافي . فاذا حكم على احد حكماً غير عادل كان المحكوم عليهِ يستأنف دعواهُ اذا شاء الى هذا المجلس فترى وتطبق على الشرائع المكتوبة حفرًا على الجدار الحجري من داخل في اثني عشر عمودًا . وتشغل هذه الكتابة مساحة ١٠ امتار وارتفاعها عن الارض معتدل بحيث يستطيع القارىء ان يقرأها كلها . وكانت هذه القوانين عادلة من جهة الدائن والمديون وقد حظرت على الدائن ان يبيع ادوات حرفة المديون او اثاث بيتهِ . وهي تمثل لنا صورة فكر الشعب او الميل العمومي في عصر صولون (ف ٤٦٣)

اذا اقرَّلهُ بجميلهِ واحسانهِ لا يشعر بوجوب ولائهِ وامانتهِ لهُ · ولذلك كان مركزه غير مضمون الثبات · واصطلح اليونان على ان يسمُّوا حاكماً كهذا بالطاغية الاَّ انهُ لم يكن في هذه التسمية شيء من التحقير او المهانة في ذلك الزمان ، كما هي الحال الآن ، لان « الطغيان » لم يكن الاَّ اسماً للمنصب السامي الذي كان لحاكم كهذا · ومع ذلك كان الشعور الطبيعي العام في صدر كل يوناني ان الانسان تحت حكم كهذا ليس حرًّا · ومن فتك بطاغية كان يحسب بطلًا منقذًا لشعبهِ · وكان هولاء الطغاة ، مع سوء ظن الشعب فيهم ، حماة الديمقراطية

الذائدين عن حياضها . وكثيرون منهم كانوا يهتمون كل الاهتمام بمصالح الشعب ويُعنون كل العناية بالاشغال العمومية كتشييد الهياكل وبناء المرافىء وتنشيط الفنون الجميلة كالموسيقى والتصوير وفي سنة ٦٥٠ ق . م . اخذوا يظهرون الواحد تِلو الآخر . ولكن عصر الطغاة يطلق بنوع اخص على القرن السادس (من ٦٠٠—٥٠٠ ق.م.)

(٤٦٠) اقدم الشرائع اليونانية المكتوبة

وكانت الشرائع في بلاد اليونان يتناقلها آنئذٍ الخلف عن السلف مشافهةً مع انها في الشرق كانت قد كتبت منذ امد طويل (ش ٦٥) فكان من اسهل الامور على القاضي ان يعوّج القضاء لمصلحة من يقدّم له اكبر رشوة (ف ٤٤٨) فهبَّ الشعب اذ ذاك يطالب بوجوب تدوين الشرائع الموروثة عن السلف في كتاب مخصوص (ش ١٢٨) . وبعد جهاد طويل حصل الاثينيون على قوانين مكتوبة نسّق موادها ورتبها رجل يُدعى دراكو — وذلك نحو ٦٢٤ ق . م . وكانت في منتهى القساوة حتى نُسبت اليه فقيل شريعة دراكوية واتصل هذا النعت الى اللغات الاوربية وصار مرادفاً للفظة « قاس »

(٤٦١) عراقيل اجنبية في وجه اثينا

وتصعَّب موقف اثينا من جرَّاء تفاقم العداوة بينها وبين الحكومات المجاورة لها ، لان تجار مَغرا استولوا على جزيرة سلاميس المشرفة على ميناء اثينا فحمي غضب الاثينيين من جرى خسارتهم لسلاميس وعجز النبلاء عن استرجاعها . فقام فيهم رجل من نسل ملوك اثينا الاولين اسمهُ صولون كان قد جمع ثروة طائلة من مغامراتهِ التجارية فاضرم نار الحماسة في صدور مواطنيهِ مستنهضاً هممهم بابيات حماسية من الشعر ، الى استنكار معرَّة الخسارة فاسترجع الاثينيون سلاميس واصبح صولون معبود الشعب على اختلاف درجاته

(٤٦٢) اقتصاديات صولون ارخوناً ، اصلاحاته المالية

وكانت النتيجة انتخاب صولون ارخوناً وتخويله السلطة المطلقة لاصلاح حال الفلاحين . ولما ان قبض على زمام السلطة كان اوّل عمل باشرهُ الغاء الرهون العقارية وجميع مطاليب الدائنين التي تمسّ حرية الوطنيين الشخصية . وكان صولون سياسياً محنكاً فلما قام العامّة يطالبون بقسمة الاراضي التي في حيازة النبلاء قسمة جديدة ابى ان يلبي طلبهم ولكنهُ حدَّد مساحة الاراضي التي يحق للنبيل اقتناؤها

(٤٦٣) قوانين صولون الجديدة

وسنَّ صولون قانوناً يخوّل كلَّ من حُكم عليهِ في دعوى كما حُكم على هسيود (ف ٤٤٨) حقَّ الاستئناف الى محكمة تحقيق ينتخب اعضاؤها من الوطنيين بالاقتراع على شريطة الاَّ يكون الواحد منهم دون الثلاثين سنا . وبهذا الاصلاح وما ضارعهُ من الاصلاحات تحسَّنت حال الشعب لان كل فرد منهم امسى حاصلاً على حقوقهِ . وكانت

قوانين صولون كلها مكتتبة ٠ وهي اوّل مجموعة قوانين يونانية . وقد اتصل بعضها الينا في هذا العصر ولا يزال معمولاً بهِ حتى الآن

(٤٦٤) دستور صولون الجديد

وعلاوة على ذلك ، سنّ صولون دستورًا جديدًا جُعل بموجبهِ لكل من افراد الشعب صوت في الحكومة ٠ وكانت التغييرات التي طرأت اثر سنّ هذا الدستور طفيفة . قُسم الشعب اربع طبقات على نسبة الدّخل وحُصرت الوظائف العليا بالنبلاء الاغنياء فقط وأُجيز للفلاحين اذا شاؤوا ان يُعيَّنوا في الوظائف الدنيا ٠ وبموجب هذا القانون بقيت ادارة الاحكام بيد النبلاء ٠ ولكن كان لافقر انسان في الشعب حقّ التصويت في مجلس الامة

(٤٦٥) اعتبار صولون

ان صولون هو اوّل سياسي يوناني لدينا صورة حقيقية لاخلاقهِ منتزعة من قصائده الخالدة ٠ وقد امتاز باعتدالهِ واصالة رأيهِ ٠ وفيما كان الجميع يتوقعون لهُ الانتظام في سلك الطغاة اذا هو يستقيل من منصبهِ بلا تردُّد عند انتهاء المدّة المعينة لهُ ويتغيَّب عن اثينا بضع سنوات لتكون في غضونها فرصة للعمل بموجب شرائعهِ

(٤٦٦) تقصير شرائع صولون في منع قيام طاغية في اثينا

وانقذ صولون اتيكا من ضائقة اجتماعية عظيمة ولكنهُ بالشرائع التي سنها والاصلاحات التي اجراها منع اثينا من ان تنجح في الصناعة والتجارة ٠ وفوق ذلك لم تخوّل شرائعهُ طبقة التجار المتقدمين التربع في دست الوظائف العليا في الحكومة فظلوا يجاهدون طمعاً بالوصول اليها ٠ فشرائع صولون – وان كانت رفعت معرَّة المهانة عن الشعب – لم تقدر ان تخلّص حكومة اثينا من تعديات الطغاة

(٤٦٧) بيسستراتس طاغية اثينا

واخيرًا قبض بيسستراتس ، احد اعضاء أُسرة قوية من النبلاء ، على اعنة الحكم في اثينا ٠ وكان في احكامهِ حازماً ، وفقاً فشدّ ازره كثيرون من اهل اثينا واخلصوا لهُ ٠ وبنى اسطولاً حربيا مؤلفاً من ثمان واربعين قطعة ٠ واستولى على مدخل الدردنيل . فكان في عملهِ هذا نفعٌ كبير لاثينا فيما بعد لانهُ جعل في يدها مدخل البحر الاسود ٠ وازدهرت الصنائع والمتاجر في اثينا ازدهارًا لم يسبق لهُ مثيل ولما مات بيسستراتس (في نفس السنة التي مات فيها كورش الفارسي ٥٢٨ ق٠م٠) كان قد وُضع الاساس الذي بني عليهِ معظم العظمة التي بلغتها اثينا فيما بعد

(٤٦٨) سقوط ولدي بيسستراتس

ومهما كان عليهِ هبَّارخوس وهبياس ابنا بيسستراتس من الدهاء والمقدرة لم يستطيعا ان يتغلبا على تحامل الشعب على حاكم لم يقلِّدوهُ السلطة ٠ ومن اقدم مجالي محبة الوطن اليونانية

انفجار بركان الحماسة في اثينا حينما هبَّ شابان هَرْمُوديوس وارستوغيتن (ش ١٣١) وضحيا بحياتيهما وقتلا احد الطاغيتين هپارخوس واما هپياس الطاغية الآخر فاضطرَّ ان يلوذ بالفرار ويسلم . وهكذا تحرَّرت اثينا من طغاتها بعد سنة ٥٠٠ ق.م. بقليل

(٤٦٩) اصلاحات كلستنيس تحط من قوة النبلاء

وصار الشعب الآن قادرًا بمساعي كلستنيس ، احد النبلاء ، وصديق الطبقات الدنيئة ان ينال قوَّة جديدة لمناوأة النبلاء . فانهُ ابطل القسمة القديمة المبنية على قاعدة القرابة الدموية وجعل مكانها قسمةً مبنيَّة على الفوارق المحليَّة . ففرَّق شمل العشائر النبيلة وعيَّن قِطَعها في محلَّات مختلفة حيث كوَّنوا اقليات . فكان هذا سدًّا حائلًا بينهم حتى لا يتمكنوا من العمل معاً وبذلك خضدت شوكتهم

(٤٧٠) النفي بالاقتراع

ومنعاً لقيام طاغية آخر سنَّ كلستنيس قانوناً يخوّل الشعب مرَّة في كل سنة حق التصويت لابعاد اي شخص اوجسوا منهُ شرًّا على الحكومة مدة عشر سنين . وما على الواحد منهم الاَّ ان يلتقط شقفَةً (قطعة خزف) عن الارض ويكتب عليها اسم الشخص المستحق الابعاد ثم يلقيها في وعاء الاقتراع . وبما انهم كانوا يكتبون الاسم على شقفة ، فقد صاغوا منها في اليونانية فعلًا عنوا بهِ نفي المرء لتعطيل خططهِ السياسية . وبهذه الوسيلة وسواها حصلت اثينا نحو سنة ٥٠٠ ق.م. على نوع من الحكومة أُعطي فيها الشعب درجة عالية من السلطة اي ان الحكومة كادت تكون ديمقراطية محضة

(٤٧١) اتساع سبارطة . تأسيس العصبة السبارطية

وكانت سبارطة في اثناء ذلك قد بلغت درجة عالية من السؤدد . فان السبارطيين قاموا باعمال عسكرية عُقد لهم فيها الفوز فدان لهم ثلث شبه جزيرة المورة . وكانت عاقبة ذلك انهم قبل حلول سنة ٥٠٠ ق.م. كانوا قد اكرهوا الحكومات المجاورة لهم على عقد تحالف (العصبة السبارطية) ضمَّ كل شبه جزيرة المورة . وكانت سبارطة ، زعيمة هذه العصبة ، اقوى حكومات اليونان . ولما لم يكن في سبارطة صناعات لم يقم فيها كما قام في غيرها طبقة من اغنياء التجار قلبوا للنبلاء ظهر المجن وقذفوا بهم من حالق مجدهم ومهدوا السبيل لقيام الطغاة . فلهذا السبب واسباب أُخرى نجت سبارطة من قيام طاغية يتولى زمام الحكم فيها . وكانت تنظر الى ديمقراطية اثينا الراقية بعين الحسد والسخط لانها كانت مناوئة لهذا النوع من الحكم ، حكم الشعب . واقامت ملكين يحكمان في وقت واحد إضعافاً لهما بقسمة السلطة بين اثنين

٤٨

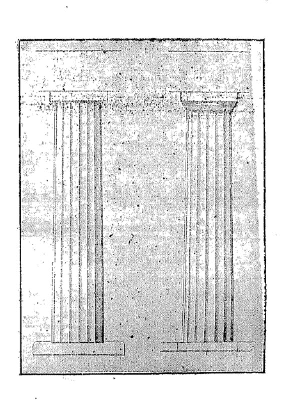
مدنية عصر الطغاة

(٤٧٣) بقاء الزعامة الاجتماعية بأيدي النبلاء . الالعاب الرياضية

وظلّ النبلاء قابضين على زمام الزعامة الاجتماعية مع ما كان عليه العامة من زيادة القوة والنفوذ . كيف لا وهم منشئو الهيئة الاجتماعية ولهم التقدّم والامتياز في جميع الاحتفالات العامة . وكان اولادهم قِبلة انظار الجماهير المحتشدة للتفرّج على المتبارين في الالعاب الرياضية (ف ٤٤٠) . ولذلك كان الاغنياء منهم يُنزّلون الى ميدان سباق المركبات اشدّ خيولهم جرْياً لاحراز قصب السبق ومدائح الشعراء الذين كانوا يصوغون قلائد القريض ليطوّقوا بها اجياد الفائزين (ف ٤٧٤)

(٤٧٤) التهذيب والموسيقى

وكان الشبان ينفقون معظم ساعات النهار في مزاولة الالعاب الرياضية ولكنهم مع ذلك لم يكونوا يحجمون عن تعلّم الكتابة . اما المرأة فلم يكن لها قسطها من التهذيب ولا شركة في حياة الرجل الاجتماعية . وكان من اعظم مواطن الضعف في المدنية اليونانية حَظرُها على المرأة التدخّل في شؤون حياة الامة . وكان تهذيب الشبان يُعدّ ناقصاً ما لم يتقنوا فنّ الموسيقى . ولذلك عُنيت الامة بتعليمه لهم ولا سيما في عصر الطغاة الذي ترقت



٢ ١

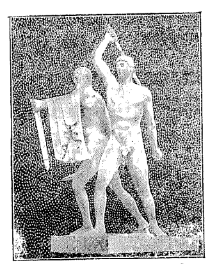
الشكل ١٢٩ عمود مصري قديم والعمود الدوري المنقول عنه

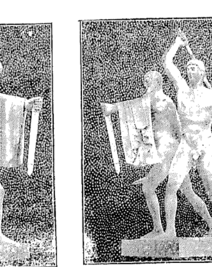
اقدم اشكال الاعمدة التي استعملها اليونان كان اسطوانة مضلعة او مقنّاة (٢) تشبه ابسط شكل (١) وُجد في مصر وتاريخه نحو ٢٠٠٠ ق.م الاّ ان اعمال الحفر والتنقيب في سقارة بجوار القاهرة كشفت لنا عن اعمدة مضلعة فاخرة تاريخها نحو ٣٠٠٠ ق.م . ولا يمكن ان تقع العين عليها الاّ ويشعر رائيها بقيمتها العظيمة ومهارة ناحتيها ولم يأخذ اليونان عن مصر فكرة تنظيم هذه العمد فقط بل اخذوا عنهم ايضاً شكل كل عمود بمفرده . ولكنهم زادوها اتقاناً وجمالاً بوضعهم تيجاناً على رؤوسها وتأنقهم في نحتها . اما في الشرق الاسيوي فلم تستعمل هذه العمد حتى ادخلها اليه الفرس (ش ١٢٧)

فيه الموسيقى حتى صارت علماً قائماً بنفسه ووُضع لها علامات مخصوصة بمثابة حروف الهجاء لآداب اللغة . واخذ اليونان عن الكريتيين الآلة المعروفة بالفلوت كما اخذها هولاء قديماً عن المصريين. ونظَّم اليونان اجواقاً من صبيانهم وبناتهم كانوا يتغنون معاً على صوت الفلوت او القيثار او الاثنين معاً

(٤٧٤) الشعر الغنائي. بند اروصافو

وكان للموسيقى تأثير عظيم في آداب هذا العصر بدليل ان الشعراء اخذوا منذ الآن ينظمون الاغاني لكي يترنم بها الناس على صوت القيثار . وصوَّر الشعراء في منظومهم احوالهم ورغائبهم واحلامهم واماانيهم





الشكل ١٢٠ اثر تذكاري لقاتلي الطاغيين في اثينا هرموديوس واريستوغيتن كما يُرى من موقفين

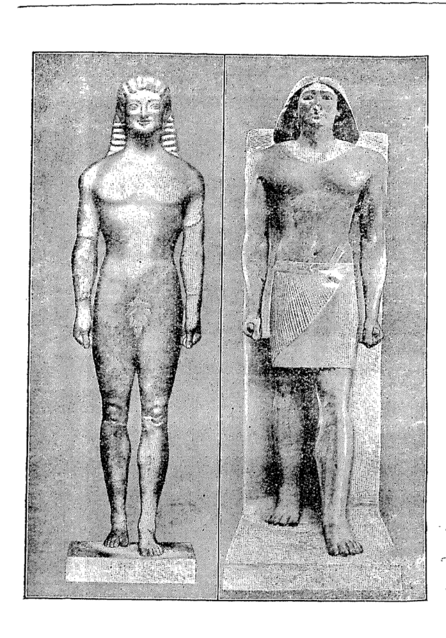
على مخدرات اريوس باغوس (ش ١٢٩) المطلة على السوق العمومية نصب الاثينيون هذا الاثر التذكاري الذي يمثل لعيون الناظرين هيئة هذين البطلين الشابين اللذين ضحيا بحياتيهما حين عمدا الى قتل ابني بسسترانس الطاغيين (٥١٤ ق.م) (ف ٤٦٨) ولما نهب الفرس هذا الاثر بعد معركة سلاميس، اقام الاثينيون آخر مثلهُ في مكانهِ بدلاً منهُ. الا ان الاسكندر الكبير او احد خلفائهِ اعاد التمثال المنهوب من بلاد الفرس فنُصب بجانب خلفهِ . وهذه الصورة نسخة عتيقة من الرخام يرجح انها نقلت عن التمثال الاحدث عهداً

وانفعالاتهم الشديدة . فكان لكل منهم مندوحة لان يصوّر بالشعر ما يخالج فؤادهُ من العوامل المختلفة فنجم عن ذلك ترانيم قصيرة كلٌّ منها يمثّل عاطفة من عواطفهِ . وربما كان بندار الثيبيّ اعظم اولئك الشعراء . وكانت صافو الشاعرة بل اعظم شاعرة برزت على مرسح هذا الوجود، ومنشدة من اعظم المنشدات في عصرها واقدم سيدة نالت شهرة خالدة في آداب اللغة

وكانوا يحبُّون الاغاني ذات القرار . فهذه كان يتغنَّى بها القرويون في حفلات اعيادهم

(٤٧٥) تحوُّل الاغاني القصيرة الى روايات تمثيلية

الريفيَّـــة (ش٩٩) وهم ســـائرون في مواكب تضمُّ عددًا كبـيرًا من الرجال اللابسين على ابدانهم جلود معزى وعلى وجوههم براقـع مسدولة . وبعض تلك الاغاني كان يترنم بهـا الجـوق ومديرهُ بالتناوب . ومن الشعراء الذين جادت قـرائحهـم بتلـك الاغـاني ستيـسيكروس الصقلي . فانهُ نظم عددًا من تلك الاغاني التي ضمَّنها حكايات عن الآلهة كما وردت في اساطيرهم . وكان المدير ، بحركاتـه الرشيقـــة ، يفسّر للحضور ما تضمّنتهُ تلك القصص من المعاني والمغـــازي . فاصبح بذلك ممثلًا ورائد ممثلي هـــذه الايام . وحـــين كان



الشكل ١٣١ تمثال يوناني قديم ورسم التمثال المصري الذي كان له تأثير على صانع التمثال اليوناني

التمثال المصري (٢) اقدم من التمثال اليوناني (١) باكثر من الفي سنة يرى النبيل (٢) وهو احد الذين زرنا دساكرهم على النيل (ف ٨٣) واقفًا الوقفة الاعتيادية في صوَر كهذه في الصناعة المصرية اي الذراعان مدلَّاتان الى اسفل والرجل اليسرى مقدمة قليلا الى الامام وفي الصورة اليونانية (١) نشاهد الوقفة نفسها . والرجل اليسرى الى الامام قليلاً . وكلا التمثالين ناظرٌ الى الامام في خط مستقيم كما كانت الحال قبل ترقي الفن . وتدل الصورة اليونانية دلالة واضحة على تأثير النحت المصري

يحضر مدير ثانٍ مع المدير الاول كانت تقع بينهما محاورة تمثيلية والجوق قائم بعمله فنشأ عندهم نوع من التمثيل الروائي الغنائي كان يقوم بهِ الجوق بمساعدة اثنين آخرين من الممثلين. وسمَّى اليونان هذا الضرب من التمثيل مأساة (تراجيدي) اي رواية المعزاة لان الممثلين كانوا في اثناء التمثيل يتنكرون بلبس جلود المعزى. وكانت حفلات الاعياد التي كانوا يعقدونها في العراء اساس المراسح اليونانية فيما بعد

(٤٧٦) فن البناء

وكان للطغاة شغف شديد بفن البناء نجم عنهُ تقدم عظيم في تشييد المباني. وكانت منازل المدن اليونانية ومباني الحكومة حتى بدء عصر الطغاة مبنيَّة باللبن لان المباني الحجرية كالتي شاهدناها في مصر لم تكن معروفة في اوربا منذ عهد الايجيين. واما في هذا العصر فان جميع الهياكل التي كانت مبنية باللبن قد جدَّد الطغاة بناءها بالحجر الكلسي وشيَّدوا مقدم هيكل ابلون في دلفي من رخام نقيّ

ولم يشيَّد من الهياكل في عصر من العصور، في العالم اليوناني باسره، لا قبل عهد الطغاة ولا بعده، ما شُيّد منها في ايامهم ولا يزال بعض الهياكل في جزيرة صقلية وجنوب ايطاليا ماثلًا حتى الآن يتجلّى فيهِ جمال البناء اليوناني وبساطتهُ قبل عهد ارتقائهِ. فبدلاً من العُمُد الخشبية التي كانت شائعة الاستعمال في عصر النبلاء صاروا يحيطون الهياكل بصفوف من عُمُد الحجر البسيطة على النمط المعروف بالدُّوريّ نسبة الى الدُّوريين (ش ١٢٩). ومع ان بنَّائي عصر الطغاة قد اخذوا فكرة تنسيق هذه الاعمدة عن المصريين، فاننا نراهم قد دأبوا في تحسينها حتى صارت اجمل ما ابدعتهُ ايادي النحاتين والبنائين الاقدمين قاطبةً. وكانت الهياكل اليونانية تدهن بالالوان الزاهية كهياكل اهل مصر

(٤٧٧) النحت

وكانت الهياكل مزدانة عند اطراف جدرانها المثلَّثة بصوَر الآلهة منقوشةً نقشاً ناتئاً ومنسَّقة في مشاهد تدلُّ على حوادث معلومة جاءت في اساطيرهم. وكان النحات اليوناني في بادىء امرهِ ينحت تماثيلهُ متحدياً الصوَر الشرقية الناتئة ولكنهُ صار بعد هذه يصنعها مستقلًا عن كل تأثير شرقي فتجيء آية في الجمال الحقيقي (ش ١٣١) ولكنهُ في نحتهِ تماثيل الفائزين في الالعاب الرياضية كان للصوَر المصرية الناتئة التي كان قد رآها قبلًا تأثير كبير عليهِ. وقد كانت صورهُ الاولى المنقوشة في الحجر بلا هندام ولا جمال (ش ١٣٠). ولكن نحاتي اليونان لم يقفوا عند الدرجة التي بلغوها اولاً بل تجاوزوها الى ما هو ارقى وحاولوا صُنع نوع من الشغل لم يخطر قبلًا في بال احد في الشرق. وقد صنعوا اثرًا تذكاريًا فخماً من البرنز للشابين اللذين بادرا الى تحرير اثينا من تسلط ابني بيسستراتس. وكان هذا الاثر جامعاً لتمثالي

الشابين معاً على شكل يمثلها للناظر حين مهاجمتها للطاغيتين . وهذا الاثر وان كان يبدو عليهِ شيء من الخشونة القديمة ، فانهُ يُرينا تقدماً يُذكر للنحاتين في كيفية اظهار حرية الحركة والعمل على الجسم الانساني ان منحوتاً او مسبوكاً (ش ١٣١) وتقدّم المصوّرون في هذا العصر تقدماً يضاهي تقدم النحاتين . فان كؤوس هذا العصر معرضٌ عجيب للمشاهد الجميلة المأخوذة من العيشة اليونانية التي تعيد الينا ذكرى ما رأيناهُ من مشاهد العيشة المصرية قبل ذلك بالفين وخمس مئة سنة — تلك المشاهد العجيبة في معابد القبور بوادي النيل

(٤٧٨) ارتقى روح الشعور بالحلال والحرام . العقاب في العالم الآتي

يستدلّ من آداب اللغة ومن فنّ التصوير على ان يوناني هذا العصر اصبحوا يهتمّون اكثر ممّا كانوا يهتمون قبلًا في كيفيَّة السلوك الذي يجب ان يسلكوهُ ولا سيما ما تعلّق منهُ بامر الحرام والحلال بحيث صار التمييز بينهما واضحاً تاماً ، وغدوا لا يصدقون ان الآلهة تعيش العيشة الشريرة الموصوفة في اغاني هوميروس . وكان لامانة المرأة وشرفها منزلة سامية لدى استيسيخورس حتى انهُ لم يقدر ان يصدق الحكاية التي تعزو الخيانة الى هيلانة الجميلة فرواها في اغانيهِ باسلوب آخر . والناس في الجملة صاروا يشعرون بان زفس ورهط الآلهة الاولمبية يجب عليهم ان يسلكوا بالاستقامة والحق وبان البشر قاطبةً يجب ان يسلكوا هذا المسلك لانهم صاروا يعتقدون ان عقاباً شديداً سيقع في العالم الآتي على جميع عمّال الاثم . واصبحت الهاوية مكان تعذيب الاشرار الذين كان سربيروس (كلب هائل بثلاثة رؤوس) خفيراً عليهم . وسربيروس هذا هو احد الحيوانات التي اولع بها الشرقيون للخفارة واقدم مثال لها ابو الهول في الجيزة

(٤٧٩) السعادة المستقبلة . غوامض الوسيس

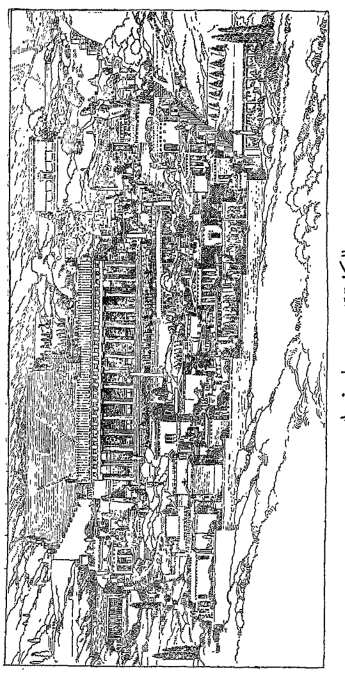
وكما قالوا بوجود مكان لتعذيب الاشرار قالوا ايضاً بوجود مكان لاثابة الابرار في العالم الآتي . وبناء على ذلك كان الكهّان يمثلون في هيكل الوسيس فصولاً من حياة ديمتر وديونيسيوس على الارض امام المقبولين في الديانة . وكل من نظر اليها وعدّها من الغوامض أُثيب بالحياة الخالدة ورُخص لهُ بالدخول الى جزر المغبوطين التي لم يكن يقبل فيها قبلًا سوى الابطال الاولين

(٤٨٠) العرافة

وصار الناس يوجهون انظارهم الى الآلهة اكثر من قبل لكي يعرفوا مستقبلهم في هذه الحياة وكانوا في كل مكان يعتقدون ان صوت ابلّون يعلن للخلق نتائج اعمالهم قبل الاقدام عليها حتى صار مزارهُ في دلفي المركز الديني الوطني الذي كان يؤمّهُ العالم اليوناني باسرهِ للاستشارة

(٤٨١) ــ طاليس وابناؤه بالخوف (٥٨٥ ق.م)

وقام بعض المفكرين واخذوا ينبذون المعتقدات الاولى خصوصاً ما تعلق منهـا بالعالم وادارة الآلهة له. وكان سكان المدن الايونية في مقدمة المفكرين بهذه القضايا الجديدة كما كانوا زعماء التجارة في بلاد الجه امداً طويلاً. ولاتصالهم الدائم بمصر والمدن الفينيقية، تعلموا



الشكل ١٢٣ ترميم مبان في دلفي

صار هذا المكان معبداً قومياً لليونان يخالف الناس اليه من يونانيين واجانب ليسمعوا وحي ابلون الجميل منذ القرن السابع ق.م (ف ٤٨٠) وقد جدّد بناء هيكل ابلون مراراً على النمط الدوري . ويرى الهيكل في الفسحة المسوّرة سامقاً الى العلاء . وقد انشئت طريق منعجة صعداً من الزاوية اليمنى السفلى . وكان على جانبيها عدد من خزائن تقادم اليونان ونذورهم للاله العظيم — تماثيل وتذكارات النصر وكثيرٌ منها مصوغ من ذهب وفضة قدّمها ملوك وممالك وافراد . وقد وُجد ان غلاء اثمانها كان شؤماً على اصحابها لانها كانت مطمح الانظار واخيراً نهبها الرومان . ولكن وان يكن نيرون (٥٤ — ٦٨ ب.م) قد نقل منها خمس مئة تمثال فقد كان الباقي منها في البلاد ايام زارها بلينيوس ، بعد ذلك بسنين قليلة ، ثلاثة الاف تمثال . واخذ الرومان من هنا الى القسطنطينية قسماً من ركيزة مثلثة القوائم ليزينوا بها المدينة ويشاهد ذلك في (ش ٢٢٠)

مبادىء الرياضيات والفلك بحسب معرفة اهل الشرق لها. وقام احد المفكرين منهم ونصب ساعة شمسية مصرية (ش٥٣) . وكان في ميليتس ، سيدة المدائن الايونية ، سياسي قدير يُدعى طاليس فهذا ساح كثيراً في العـالم الذي كان معروفاً في زمانه ، وحين كان في بابل

اخذ عن علمائها جدولاً بارصاد الاجرام السماوية · وكان البابليون قد تعلموا من جداول كهذه ان الكسوف يقع في فترات دورية (ف ٢٤٧) · فتمكن طاليس بما في يديه من هذه الجداول من معرفة الوقت الذي يقع فيه الكسوف التالي فانبأ اهل ميليتس بوقوعه وعيّن زمانهُ فلما وقع في الوقت الذي سماهُ طارت شهرتهُ

٤٨٣) الناموس الطبيعي ضد الآلهة. بزوغ شمس العلم والفلسفة بين الايونيين

لم يكن الانباء بوقوع كسوف ، وقد سبق اليه البابليون (ف ٢٤٧) ، بالامر الخطير جدًّا بالنسبة الى ما عقبهُ من النتائج المهمة في عقل طاليس · فقد كان الناس يعتقدون حتى قيام هذا الفيلسوف ان علة الخسوف والكسوف وسائر الاحداث الجوّية هي غضب احد الآلهة غضباً موقتاً · اما طاليس فنادى على رؤوس الاشهاد ان حركات الاجرام السماوية خاضعة لنواميس طبيعية مقرّرة · وهكذا اخرج الآلهة من دائرة التسلط على العالم الجوي حيث كان قبلًا نسر زفس قابضاً على زمام الحكم · ولما ساح طاليس في بلاد الشرق ورأى مبانيهُ الفخمة التي من جملتها اهرام الجيزة وكان قد مرَّ على بنائها اكثر من الفي سنة ، ادرك حالاً ان الآلهة لم تكن قبل زمانه ببضعة اجيال تجوّل في الارض · وهذه الحقيقة نفت الآلهة من الزمان الماضي كما نفتهم من بدء العالم

خريطة ١٥

العالم (٥١٧ ق.م) كما عرفهُ هقاتايوس

٤٨٣) الجغرافية الايونية والتاريخ

وقام رجل آخر من ميليتس – ربما تلميذ طاليس – وابان اصل الحيوانات مدّعياً ان الصوَر العليا منها نشأت من الصوَر الدنيا بطريقة شبيهة بنظرية النشوء والارتقاء الحديثة · ودرس هيئات البحار والبلدان ورسم خريطة العالم · وهي اقدم خريطة للعالم معروفة لدينا · نعم كان عند المصريين والبابليين قبل ذلك خرائط كثيرة لكنها كانت صغيرة الحجم

تحتوي فقط على رسم بعض اقسام الارض. وبعد ذلك قام في ميليتس رجل من علماء الجغرافية اسمهُ هقاتايوس امعن في السياحة في الارض التي كانت معروفة في عصره. فجاء مصر وساح في وادي النيل وألّف كتاباً في جغرافية العالم جاعلاً البحر المتوسط مركزاً كما جُعل في الخريطة المذكورة آنفاً وكانت البلاد المحيطة بهِ وعلى امدٍ قريب من ساحلهِ كلّ ما كان يعرفهُ المؤلف من الارض (انظر خريطة ١٥) وألّف هقاتايوس تاريخاً سداهُ اساطير اليونان القديمة ولُحمتهُ حكايات الاجيال الغابرة التي كان قد سمعها في الشرق. وهو — بعد المؤرّخ العبراني المجهول — اقدم مؤرخ من ابناء العالم القديم

(٤٨٤) الرياضيات والعلوم الطبيعية عند الايونيين

وهاجر من ايونيا الى جنوب ايطاليا رجل حكيم ومفكّر كبير اسمهُ فيثاغورس أُولع بالبحث في الرياضيات والعلوم الطبيعية. واليهِ او الى تلاميذه يُعزَى اكتشاف ان مربع الوَتَر في مثلث قائم الزاوية يساوي مجموع مربعي الضلعين الآخرين. والايونيون هم الذين اكتشفوا ان الارض كُرَة متحرّكة. وقام آخر منهم واشار في اثناء تعليله عن اصل الارض الى وجود نباتات بحرية متحجرة واحافير اسماك في الصخور مما يدل على ان البحر كان في عصر من العصور مغطياً الارض او ان الصخور التي نراها قد تكوّنت في قلبهِ

(٤٨٥) الخطوة العظيمة التي خطاها المفكرون الايونيون

وكان هولاء المفكرون الايونيون بُشرًا بين يدي العلماء الطبيعيين والفلاسفة المتأخرين لانهم اجتهدوا في ان يعرفوا ما هي النواميس الطبيعية التي كان لها يد في تكوين العالم منذ بدايتهِ ولا تزال متسلطة عليهِ. وعند وصولهم الى هذه النقطة من تفكيرهم فتحوا عالماً جديداً من عوالم الفكر يُسمّى عِلماً وفلسفة — عالماً لم يخطر على بال اعظم ابناء شرقنا القديم. فهذه الخطوة التي خطاها طاليس وعظماء رجال المدن الايونية لا تزال، ولن تزال الى الابد، اعظم ما عملهُ العقل البشري — عملٌ يدعو الى الإكبار والإعجاب في كل زمان ومكان

(٤٨٦) خلاصة عصر الطغاة وخاتمته

عُدَّ عصر الطغاة من اعظم ازمنة تاريخ العالم لانهُ نبغ فيهِ اعظم الرجال واكبر قادة الافكار. فكأن العقول حُلّت فيهِ من عُقُلها او انبعثت من رُقادها تحت عوامل الجهاد الشديد لاحراز قصب السبق في التجارة والسياسة والهيئة الاجتماعية، ودخلت عالماً جديداً — عالم العلم والفلسفة. فكأن جميع القوى الخفية في حياة اليونان المملوءة نشاطاً قد برزت من مكامنها وتجلّت في السياسة والآداب والدين والحفر والتصوير والهندسة وفن البناء. ونرى ان قادة الافكار في هذا العصر بوجه الاجمال — وكثيرون منهم كانوا طغاة — قد

احدثوا تأثيرًا في بيئتهم لم تقوَ على محوهِ الايام ولُقبوا بالحكماء السبعة٠ وهم اوّل سياسيي اليونان ومفكّريهم . ولذلك شُغف الناس باقتباس امثالهم الحكمية التي منها « ايها الانسان اعرف ذاتك » — عبارة نفيسة نُقِشت فوق باب هيكل ابلُّون في دلفي (ش ١٣٢) ٠ ومنها قول صولون الحكيم « لا تُفرط في شيء »٠ولكن بعد خَلع ابني بيسستراتس اخذ نجم هؤلاء الطغاة بالافول وانقضى عصرهم، ولو بقيت منهم بقية مبثوثة في اماكن متفرقة بآسية الصغرى وصقلية

مسائل

٤٦

ماذا كان تأثير المستعمرات الجديدة اليونانية في الصنائع في الوطن القديم ؟ ماذا تعرف عن التجارة والمصنوعات ؟ اية خطوة نحو التحرُّر من المؤثرات الاجنبية خطتها المصنوعات اليونانية ؟ اية بيّنة لنا على اتساع نطاق تجارة اثينا ؟ اي تأثير كان لهذا الاتساع على بناء السفن ؟ اي تسهيل جديد للتجارة جاء من الشرق ؟ كيف نشأ سكُّ النقود؟ ماذا كان تأثيرهُ على التجارة وتجميع الثروة ؟ هل كان لليونان من وجهة نظرنا شيءٌ من المدن الكبيرة او الحقول الفسيحة ؟

٤٧

اي شيء كان جارياً الآن على فلاحي اليونان من وجهة الثروة ؟ ومن وجهة القوّة السياسية والعسكرية ؟ هل كان النبلاء يدًا واحدة ؟ ايّ موقفٍ كان في

الغالب يقفهُ زعيم النبلاء نحو العامة ؟ ماذا كانت النتيجة ؟ ماذا كان شعور اليونان نحو الطاغية ؟ ما هو تاريخ عصر الطغاة ؟ كيف كانت الشرائع اليونانية حتى الآن ؟ ماذا طلب الشعب ؟ ما هي مجموعة القوانين التي سُنَّت في اثينا ؟ من هو الذي حمَّس اثينا لكي تحل مشاكلها الاجنبية ؟ ما الذي اتاهُ صولون بعد انتخابهِ ارخوناً ؟ ماذا تقول في اخلاقهِ ؟ هل نجَّى بعملهِ اثينا من حكم طاغية ؟ ماذا عمل بيسستراتس ؟ متى مات ؟ ماذا جرى لابنيهِ ؟ كيف ساعد كلسثنيس الشعب ؟ ما المراد من النفي ؟ ماذا كان جارياً في سبارطة في هذه الاثناء ؟ ماذا كان شعور سبارطة نحو اثينا ؟

٤٨

صف مركز النبلاء في الهيئة الاجتماعية مدة عصر الطغاة ؟ ماذا كان موقفهم من جهة الالعاب الرياضية ؟ ماذا تقول في التهذيب بهذا العصر ؟ قدم ملاحظاتك عن الموسيقى . ماذا كان الشعر الغنائي ؟ من كان امير الشعر الغنائي ؟ من كانت عظمى الشاعرات ؟ كيف آلت اغاني الاعياد الى الروايات التمثيلية ؟ هل كان لليونان مبانٍ جميلة في هذا العصر ؟ ماذا كانت مادَّة البناء ؟ ألم يكونوا قد رأوا قبلًا مباني من حجر ؟ على اي نمط هندسي بُنيت الهياكل ؟ اين نشأ شكل العمود الدُّوري ؟ هل حسَّن اليونان في هذه الاعمدة ؟ هل لوَّنوها ؟ اي زخرفة أُخرى استعملها المهندس اليوناني لهيكلهِ ؟ تحت اي عوامل نشأت صناعة النقش اليونانية ؟ اي تقدم يظهر من الاثر التذكاري الذي أُقيم اكراماً لقاتلي الطاغية ؟ قل ما تعرفهُ عن التصوير على الكرُوس في هذا العصر ؟ اي مواضيع انتقى مصوّرو الكؤوس ؟ قابل بين الهيئات البشرية في شكل ١٧٠ وبين التي في شكل ١١٩ وأعطِ رأيك في التقدم الذي حصل في قرنين ونصف قرن . اي تقدم حصل في الافكار من جهة السلوك ؟ قدم ملاحظاتك عن العالم الآتي . وعن هياكل الوحي . ماذا عمل طاليس ؟ هل كان اوَّل من اشتغل بمسائل كهذه ؟ الى اية نتائج توصل من جهة الآلهة وادارتها لشؤون العالم ؟ ماذا تعرف عن خرائط العالم الاولى ؟ اي عالم جديد فتحهُ المفكرون الايونيون ؟ ماذا تستطيع ان تقول عن عصر الطغاة بوجه الاجمال

الفصل الثالث عشر

صد مملكة فارس

٤٩

مجيء الفرس

(٤٨٧) قيام ليدية في اسية الصغرى

بسَم الدهر للمدن الايونية في عصر الطغاة ومالأها السعد ردحاً من الزمان فتبوَّأت من السؤدد اسمى منصب بين أترابها ولكن الدهر الخؤون ما لبث ان قذف بها من اوج زعامتها اذ قيَّض لها في اسية الصغرى من جيرانها ابناء الحثيين (ف٣٥٩) ومن انضوى اليهم من الغزاة الفاتحين (٣٨٢)، مَن تصدَّى لمناوأتها فصدموها صدمةً قوية صدَّتها عن التقدم في المضمار الذي كانت قطعت منهُ شوطاً بعيداً . وتمكَّنت ليدية من قهر كل المدن اليونانية على الساحل الايجي من اسية الصغرى الاَّ ميليتس فانها عجزت عن الاستيلاء عليها عنوةً . وجعل ملوك ليدية ساردس، امنع مدن اسية الصغرى، عاصمة ملكهم ومباءة عزّهم . وكان من ملوكها كريسس الغني المشهور (قارون) الذي تقدم ذكرهُ . (ف٢٦٨) وعن ليدية اخذ اليونان طريقة سك النقود (ف٤٥٤).

(٤٨٨) سقوط ليدية وزحف الفرس على بلاد اليونان

كان لدى الليديين قوَّةٌ كافية لصدّ هجوم الماديين ولكن لما هاجمهم كورش الفارسي في عُقر دارهم قهر ملكهم قارون واستولى على عاصمتهم ساردس (ف ٢٦٨) ففقدت المدن الايونية حريتها فجأةً وامست تحت حكم مملكة الفرس الغاشمة بعد ان كانت راتعة في حضارة بلغت في ظلها اوج التقدم والفلاح . (ف٤٨١ – ٤٨٦)

(٤٨٩) النزاع المقبل وثورة الايونيين

كان الفرس كلما علمنا قبلًا ممثلي حضارة ساميّة وحكومة راقية ولكن الشرق كانت تعوزهُ الوطنية الحرّة ويفتّ في ساعده تسلُّط الاوهام والخرافات على عقول ابنائـه تسلطاً مطلقاً بدلاً من سلطة العلم. ولذلك كانت السيادة الفارسية في بلاد اليونان حاجزاً قويًّا في سبيل ترقي الحضارة اليونانية. ولم يكن يلوح امام اليونان بارقة امل بالفوز اذا هم هبّوا هبّة واحدة وتهيّأوا لمنازلة دولة الفرس المترامية الاطراف التي عَنت لسلطانها بلدان الشرق القديم. ومع ذلك كله فقد قلب اليونان للفرس ظهر المجنّ ورفعوا لواء الثورة

(٤٩٠) هجوم الفرس الاول على اوربا

ارسل الاثينيون في اثناء العراك الذي عَقب هذه الثورة عشرين سفينة لمساعدة انسبائهم الايونيين. فكان عملهم هذا باعثاً للفرس على ارسال جيوشهم بقيادة داريوس الى اوربا للانتقام منهم. ولكن السفر الطويل الشاق في ارض الدردنيل وثراقية اهلك عددًا كبيرًا من جنود الجيش الزاحف، والسفن التي كانت تصحبهُ في زحفه

« الشكل ١٢٢ »

يرى في اعلى هذه الصفحة مشهد محفور حفرًا نائئًا على باب قصر احشويروش في بورسبا يمثل لنا هذا الملك في الهيئة التي كان يظهر فيها حين يتبوّأ العرش بحضور اشراف مملكته يحف به حشمه وحاملو مراوحه. ولما كان في سلاميس اتخذ لنفسه مركزًا على احدى هضاب ايغاليوس المشرفة على الخليج (ف ٥٠٢). وحين كان جالسًا هناك يشارف المعركة الناشبة تحت الهضبة كان متبوّئًا عرشًا كما نراه في هذا الرسم.

تحطّمت وهي تحاول ان تدور حول رأس جبل اثوس (٤٩٢ ق. م) فعدل الفرس عن خطة الهجوم برًّا بطريق بحر ايجه

(٤٩١) هجوم الفرس الثاني

وفي اوائل صيف سنة ٤٩٠ ق.م اقلع من جزيرة ساموس اسطول كبير من السفن الحربية النقّالة يقلّ الجنود الفارسية في بحر ايجه، ودخل المضايق بين جزيرة يوبيا (افية) واتيكا وبعد ان جعل الجنود ارتيريا طُعمةً للنار نزلوا على سواحل اتيكا عند خليج مَرَثون قاصدين الزحف على اثينا المجرمة الكبرى

وعَرَت اليونان الدهشة واستولى الاضطراب على كل بلادهم لان انكسار المدن الايونية

(٤٩٢) الذعر في اثينا واليونان

الثائرة ، واستباحة الفرس ميليتس سلباً ونهباً ، كانا قد احدثا تأثيراً عظيما في نفوسهم . وكان هذا العدو الذي سحق المدن الايونية معسكراً وراء التلال على بضعة اميال من شمال شرق اثينا . فارسل الاثينيون بملء السرعة ، رُسلاً الى سبارطة يستظهرون بها على مهاجميهم واخذوا يفكرون في موقف مدينتهم المحبوبة المحفوف بالخطر والاسى ملء جوانحهم

(٤٩٣) الجيوش والقيادة اليونانية

وظنّ داريوس ان اليونان غير مستعدين للحرب فلم يرسل عليهم جيشاً كبيراً بل اكتفى بارسال نحو عشرين الف مقاتل . ولم يكن لدى الاثينيين اكثر من نصف هذا العدد الاّ انهُ لحسن حظهم كان في عِداد قوادهم قائد محنّك وبطل مجرّب اسمهُ ملتيادس عُرف بالحزم والعزم والثبات في مواقف النضال وقد قضى شطراً من حياتهِ في الدردنيل وكان لهُ الالمام التام باساليب الفرس الحربية . ولذلك عهد اليهِ غليماخوس القائد العام ، في ادارة شؤون الحرب . ولمّا احتشدت الجنود القادمة من اتيكا في مدينة اثينا ملبية الدعوة الى حمل السلاح اقنع ملتيادس زملاءهُ القوّاد ان لا يتريَّثوا ريثما يهاجم الفُرس اثينا بل ان يهرعوا الى ملاقاتهم ويصدوهم عن التقدم بين التلال المشرفة على الشاطىء الشرقي وعلى السكّة المؤدية الى المدينة . فاثار هذا الرأي الحماسة والشجاعة في صفوف اليونانيين الذين كاد يتولاّهم اليأس والوجل

(٤٩٤) موقف اليونان

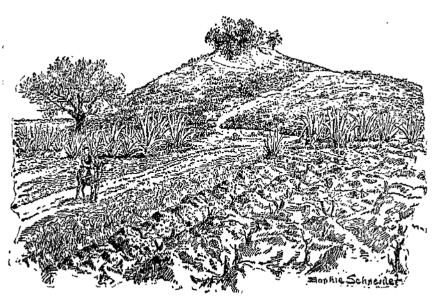
ولما تدفّق اليونان من بين التلال ووقع نظرهم على جند الفرس المعسكر في سهل مَرَثون يحميهِ اسطول ضخم يبلغ عدد سفنهِ مئات خامر قلوبهم الشك في مقدرتهم وجمد الدم في عروقهم لما عراهم من الوهن والقنوط لقلّة عددهم ، الاّ ان القائد ملتيادس قبض على القوّاد الذين تحت امرته بيد من حديد . ولما وصلت اليهم من بلاتيا نجدة مؤلفة من الف مقاتل انتعشت الشجاعة في صدور الاثينيين وبُعث فيها الرجاء . وكان موقف اليونانيين يشرف على الطريق العام المؤدي الى اثينا فلم يكن في وسع الفرس ان يتقدموا دون ان يتعرَّض جيشهم الزاحف لهجوم الاثينيين من هذه الجهة

(٤٩٥) معركة مرثون

ولما رأى الفرس بعد تربُّص سبعة ايام في مكانهم أنهم لم يتمكنوا من اغراء اليونان بالانسحاب من مركزهم الحريز ، اجمعوا على ان يزحفوا على اثينا من السكة المؤدية اليها . ويتخذوا الحيطة في الوقت نفسهِ بتعزيز قوّتهم المعرَّضة لجيش العدو وذلك باضافة قوات أُخرى متأهبة للكفاح . وكان ملتيادس عالماً حقّ العلم بان الفرس معظم جنودها في القلب فلذلك عزّز ميمنة جيشه وميسرتهُ بالعدد الكافي من الجند وغادر القلب ضعيفاً . وكان الفرس مسلحين بالقسي واليونان بالرمح فلّما دارت رحى القتال انهالت سهام الفرس على الاثينيين

انهيال السيول المتانة فتلقّاها جند الجيش المحارب غير هيّاب ولا وجل · ثم هجمت ميمنتهم وميسرتهم هجوم الاسود على جنود الفرس الذين كانوا جاثين على رُكبهم ومتوارين وراء تروسهم · وفي الوقت نفسهِ هجم قلب جيش الفرس على قلب جيش اليونان الضعيف فردّهُ الى الوراء ·

اما ميمنة وميسرة اليونان فطابقت جنودها على الاعداء من الجانبين ومزّقوهم كل ممزّق ففروا الى سفنهم والذعر ملء صدورهم تاركين في ساحة الوغي ستة آلاف قتيل او



الشكل ١٢٤ تل أُقيم تذكارًا للقتلى اليونانيين الذين سقطوا في ساحة الوغى في سهل مرثون

علوّ هذا التل ٥٠ قدمًا تقريبًا . وقد كشفت حفريات سنة ١٨٩٠ فيهِ رمم المئة والاثنين والتسعين اثينيًا الذين قتلوا في المعركة ، وبعض الخزف والكؤوس التي دفنت معهم وقت الاحتفال بدفنهم

تزيد · واما اليونان فلم يُربِ عدد قتلاهم على المئتين (ش ١٢٤) · وقد برهنت هذه الحرب على ان الرماح اليونانية كانت اصلح للقتال من القسي الفارسية · ولما كان قائد الفرس يستكبر الاعتراف بالانكسار اقلع باسطولهِ الى ميناء اثينا مارًّا حيال شبه جزيرة اتيكا · ولما بلغ الى المرفإ لم يرَ من الحكمة او السداد في الراي ان ينزل بجنودهِ الى البرّ لان جنود الاثينيين الظافرين كانوا لا يزالون معسكرين في ضواحي المدينة

٤٧

صدّ الاثينيين للفرس والفينيقيين

وكان بين الذين شهدوا وقعة مرثون ثيمستكليس ، اعظم سياسيي اليونان قاطبةً ·

(٤٩٦) قيام ثيمستكليس

وهو الذي تبوّأ قبلًا منصب أرخون في حكومة اثينا. فهذا رأى ان لا مناص لليونان من بناء اسطول منيع ولكنهُ لم يستطع ان يجعل بني وطنهِ يرون ما يراهُ هو. اما الآن، وقد رأى الاثينيون الفرس يقطعون بحر ايجه باسطولهم، فاتضح لهم جليا انهُ لو كانت لديهم قوة بحرية لكانوا صدوهم عن التقدم.

(٤٩٧) احشويرش يحالف الماء في محاربة اليونان

مات داريوس الكبير الذي درسنا، في ما مرَّ معنا من الكلام، شيئاً عن ملكهِ المجيد (ف ٢٧٥ — ٢٨١) قبل ان يثأر قتلى جنودهِ في مرثون وقبل ان ينتقم من اعدائهِ. فقام ابنهُ وخليفتهُ احشويروش يتمّم ما لم يتمكن ابوهُ من اتمامهِ. فرسم لهجومهِ خطة متسعة النطاق تتناول جميع الاماكن التي يقيم بها اليونان، من بلادهم الاصلية حتى صِقلّية. وكان في وُسعهِ ان ينفذ خطتهُ هذه بممالأة المدن الفينيقية لهُ. فانهُ كان لدى الفرس بحسن تدبير داريوس وسياستهِ الحربية، اسطولٌ حربيٌّ فينيقيٌّ عظيم. وبما ان الهجوم المنوي كان بحريًّا فانهُ يسوغ ان نحسبهُ ساميا. وقد اغرى احشويرش قرطاجنَّة الفينيقية ان تهاجم اليونان في صقلية. فترتَّب على ميمنة وميسرة الصف الساميّ العظيم الذي يمثلهُ في الشرق والغرب الفينيقيون (قرطاجنة) ان تهاجما الصف الاوربي الذي يمثلهُ في الشرق والغرب اليونان.

(٤٩٨) ثيمستكليس يغري اليونان ببناء اسطول

وكان اليونان في اثناء ذلك يتأهبون للقاء اعدائهم الفرس حين هجومهم. ورأوا قوّاد احشويروش يحفرون ترعة وراء جبل اثوس تقصيرًا للمسافة وتجافياً عن الخطر الذي داهم اسطولهم الاوَّل لحطمهُ وهو يدور حول رأس هذا الجبل الناتىء الى البحر. ولما بلغ نبأُ هذه الترعة الى مسامع الاثينيين، هان على ثيمستكليس اقناع المجلس الاثيني بوجوب بناء اسطول لا يقلُّ عدد سفنهِ عن مئة وثمانين سفينة. ولما تهيأ لديهم هذا العدد من السفن استطاعوا للمرَّة الاولى ان يصدُّوا عنهم برًّا وبحرًا هجوم الفرس الزاحفين عليهم

(٤٩٩) هجوم الفرس الثالث. خطة ثيمستكليس للمعركة

كانت خطة ثيمستكليس الرشيدة للمعركة مطابقة تماماً لخطّة هجوم الفرس، وكانت الجنود الاسيوية قادمة برًّا وبحرًا، جنود برية وجنود بحرية تسير متقابلة، الاسطول في البحر والجنود البرية على الساحل الشرقي من بلاد اليونان. فكأنهُ كان لجيش الفرس جناحان جناح برّي وجناح بحري يسيران متقابلين. وكان من رأي ثيمستكليس ان يهاجم الاسطول اليوناني الجناح الفارسي البحري بملء قوتهِ ويدير رحى معركة بحرية فاصلة باسرع ما يمكن من الوقت. فاذا قُدّر لهُ الفوز تمكَّن الاسطول الذي كانت لهُ السيادة في بحر ايجه ان يقلع مقابل الساحل الشرقي من البلاد ويقطع خطَّ الاتصال الذي بين الجيوش الفارسية وبين مؤنها وذخائرها. واشار بأن لا تهاجم جنود اليونان القليلة العدد جنود الفرس البرية

الجرّارة بل ان تعوقها ما امكن عند المضايق الشمالية التي يستطيع ان يقوم بحمايتها عدد قليل من الجند. وسعى ان يضمّ جميع حكومات اليونان معاً فاخفق مسعاهُ الاّ ان اثينا وسبارطة وحّدتا قواتها لتدرأا عنهما خطب خطرٍ مداهم مشترك. ولم يتمكن ثيمستكليس من اغراء سبارطة بقبول خطتهِ الحربية الاّ بتقليدها قيادة الاسطولين المتحدين

(٥٠٠) دخول الفرس بلاد اليونان

وفي صيف ٤٨٠ ق.م كانت جنود الفرس تدنو من مضيق ثرمبلي مقابل النقطة الغربيـة القُصيا من جزيرة يوبيـا والاسطول يمخر ازاءها. وكان عدد اولئك الجنود على ما يُظن يربو على مئتي الف محارب معهم مثل هذا العدد من الاتباع والخَوَل. وكان الاسطول مؤلفاً من الف سفينة يرجح ان ثلثيها سفن حربية تحطّم جانب كبير منها عندما هاج البحر عليها. وبقي على ما يرجَّح خمس مئة سفينة فقط، صالحة للقتال. وسار ليونيداس ملك سبارطة في خمسة آلاف جنديّ لصدّ غارة الفرس عند مضيق ثرمبلي. وكان الاسطول اليوناني، الذي لا يزيد عدد سفنهِ عن ثلاث مئة سفينة، يحاول ان يضرب اسطول العدو ضربةً قاضية عند ارتيمسيوم على ساحل يوبيا الشمالي حيث تلاقت قوّات المتحاربين البحرية والبرية وجهاً لوجه

(٥٠١) معركة ثرمبلي وارتيمسيوم

وبعد تربُّص بضعة ايام بدأ الفرس بالهجوم برًّا وبحرًا. فدافع الاسطول اليوناني — على قلّة عدده بالنسبة الى سفن اسطول العدو — دفاعاً مجيدًا وابلى بلاء حسناً. وحمى ليونيداس الباسل مدخل مضيق ثرمبلي طيلة النهار صادًّا جنود الفرس عنهُ. وهاجت الانواء فحطّمت عددًا كبيرًا من سفن الفرس. وعقب ذلك معركة بين الاسطولين لم تُسفر عن نتيجة فاصلة. ولكن جنود الفرس البرية داروا من وراء الجيش السبارطي في ثرمبلي وحاصروهُ من وراء ومن قدام فنشبت معركة هائلة بين الفرس وليونيداس وجنوده القليلين. وظلّ البطل ليونيداس يحارب هو وجنودهُ حتى جُندل قتيلًا وفنيت جنودهُ على بكرة ابيها. فاضطربت لموت ليونيداس بلاد اليونان من اقصاها الى اقصاها لانها بانخذال جنودها البرية وتقدُّم جنود الفرس اضطرّ الاسطول اليوناني الذي كان قد تعطل قسم مهمّ منهُ ان يرتدّ الى الجنوب ويرسو في خليج سلاميس. اما جيش سبارطة وجيوش حلفائهـا فتوجهت الى برزخ كورنثوس لانهُ المكان الوحيد المناسب لوقوف قوات اليونان البرية مرّة أخرى وقفة من يدافع عن كيانه

(٥٠٢) زحف الفرس على اتكا واحراقهم اثينا

وحين زحف جيش الفرس من ثرمبلي جنوباً هبّ ثيمستكليس الباسل وجمع اهل اثينا واقلّهم في سفن نقّالة الى جزيرتي سلاميس وايجينا الصغيرتين والى سواحل أرغولس. وكان

الاسطول في هذه الاثناء قد رُمم وعُزّز باضافة سفن جديدة اليهِ . فبلغ عدد سفنهِ الحربية ثلاث مئة سفينة . ولكن حين التفت الاثينيون من سلاميس شمالاً وعاينوا جنود الفرس الزاحفة ورأوا الدخان صاعداً من اثينا مدينتهم المحبوبة والسن اللهيب مندلعة من منازلها ذابت قلوبهم فرقاً وفقدوا شجاعتهم وحماستهم الا ان ثيمستكليس ضبط بحكمتهِ الفائقة قواد اليونان المتقلبي الافكار وبحيلة مدبّرة زيّن لاحشويروش الهجوم . فانهُ بعث اليهِ برسالة كذبٍ قائلاً لهُ ان الاسطول اليوناني على أهبة الفرار من الخليج

فببناء هـذا الاسطول القويّ أُنجت اثينا بلاد اليونان من عسف المستبدين وبرهن ثيمستكليس على انهُ اعظم رجال اليونان حُنكةً وسياسةً

(٥٠٣) معركة سلاميس ٤٨٠ ق.م

على الهضاب المشرفة على خليج سلاميس جلس عاهل الفرس على عرشٍ يحفّ بهِ رجال بلاطهِ بملابسهم الشرقية الزاهية يشارف العراك (ش ١٣٣) وكان الاسطول اليوناني راسياً بين برّ اتيكا وبين الرؤوس الناتئة الى البحر من ساحل جزيرة سلاميس حيث لم تكن مندوحة كافية لان يقوم اسطول كبير بعمل حربي عظيم . ولما كان موقف الاسطول الفارسي حرجاً اختلط حابلهُ بنابلهِ حين هاجمهُ الاسطول اليوناني وسدّ عليهِ منافذ النجاة . ودام القتال النهار بطولهِ ولما ارخى الليل سدولهُ على خليج سلاميس كان اسطول الفرس قد امسى اثراً بعد عين الا بقية زهيدة منهُ . فاصبح الاثينيون وهم ارباب السيادة البحرية . وغدا قيام الفرس في المستقبل بعمل حربي ، ضدّ اليونان ، في عداد المستحيلات

(٥٠٤) تقهقر احشويروش في الشرق واندحار قرطجنة في الغرب

واضطربت الآن افكار احشويروش مخافة ان يكون فوز الاسطول اليوناني ذريعةً لقطع خط الرجعة عليهِ . وهذا ما كان في نية ثيمستكليس اجراؤُهُ فعلاً لو توفّق الى اقناع سبارطة بالانضمام الى اثينا . ولكن السبارطيين كانوا ايقظ واحذر من ان يستولي احد على افكارهم ويدفعهم الى ركوب هـذا المركب الخشن المحفوف بالمكاره . ولو تمت خُطة ثيمستكليس فعلاً بارسال اسطول يوناني الى الدردنيل لكانت تخلّصت بلاد اليونان من متاعب حرب سنة أُخرى مع الفرس . وبعد ان كابد احشويروش خسائر جمّة في جيشهِ من جرّاء قلّة المؤَن وتفشّي الامراض فيهِ ، تقهقر الى الدردنيل ثم عاد الى اسيّة تاركاً مردونيوس احد قوّادهِ الممتازين في الشؤُون الحربية مع جيش يبلغ عددهُ — على ما يظن — خمسين الف مقاتل لكي يشتّوا في ثساليا . وفي اثناء ذلك جاء نبأٌ الى اثينا من صِقلّية مفادهُ ان اليونان ، بقيادة جيلون طاغية سرقوسه ، كسروا جيش قرطاجنّة الذي كانت قد ارسلتهُ من افريقية الى صقلّية ، شرّ كسرة . فحبطت اعمال الفرس الحربية ضد اليونان في الشرق والغرب في سنة واحدة

ان حُنكة ثيمستكليس السياسية التي يراها ابناء اليوم واضحة كالشمس لم تكن

(٥٠٥) معاكسة ثيمستكليس

كذلك في عيون الاثينيين حينما ولّى الشتاء وايقنوا ان فوزهم الباهر في سلاميس لم يُنجِ بلاد اليونان من وجود جيش فارسي فيها بامرة مردونيوس ينوي اعادة الكرَّة على اتيكا في الربيع القادم . فقامت الاحزاب المختلفة وعزلت ثيمستكليس من القيادة مبرهنين بذلك على انهم ناكرو الجميل . وهم لو انقادوا الى رأيهِ وعملوا باشارتهِ ونفَّذوا خطتهُ الرشيدة بارسال حملة بحرية الى الدردنيل لطردوا الفرس من بلادهم ودرأُوا عنها خطباً كان شرُّهُ مستطيرًا

(٥٠٦) الفرس في اتيكا ايضاً

وبعد ان انقطعت امطار الشتاء ، زحف مردونيوس بجيشهِ على اتيكا . فاضطرَّ الاثينيون الى الفرار كما فعلوا قبلًا . ومعظمهم فرَّ هذه المرَّة الى سلاميس . اما سبارطة المعروفة بالتردد والتذبذب في الاوقات العصيبة التي تستدعي الى الاقدام والسرعة ، فلما رأت حرَج الموقف اقتنعت بوجوب ارسال جيشها الى ساحة العراك . ولما رأى مردونيوس الذي كان وقتئذٍ في اتيكا ، ان بوسانياس ملك سبارطة زاحفٌ بجيشهِ على طريق برزخ كورنثوس يهدّد ساقة جيش الفرس ، ارتد الى الشمال بعد ان كان قد اجتاح اتيكا وغادرها قاعاً صفصفاً . وتبعهُ على الاثر بوسانياس الى بيوتيا وبامرتهِ جيوش اثينا وسبارطة وبعض الحلفاء وكان عدد جنودها ثلاثين الف بطل مدجَّج . ودارت رحى القتال فانكسر الفرس شرَّ انكسار وتمزَّق شملهم كل ممزَّق فان صفوف اليونان الرماحة اخترقت صفوفهم كما فعلت قبلًا في مرثون واعملت جنودها الاسنة في الاعداء الذين لم تُجدهم قسيُّهم في هذا الالتحام نفعاً فباءوا يتعثرون باذيال الخيبة والفشل . وفيما كان مردونيوس يحاول لمَّ شعث جيشهِ وملء صدرهِ اليأس خرَّ صريعاً على الارض فسارع الفرسان وحموا ساقة الجيش فانجوه من الهلاك التام

(٥٠٧) انتصار اسطول اثينا في ايونيا والشمال

ولم يحصل الخلاص ، من طموّ سيل الجنود الاسيوية ، لبلاد اليونان فقط بل شمل ايونيا ايضاً لان السفن اليونانية لما عبرت الى شبه جزيرة ميكالي شمالي ميليتس حطَّمت البقية الباقية من الاسطول الفارسي وتمكن الاثينيون من احتلال سَستُوس في الجانب الاوربي من الدردنيل وبذلك سدُّوا مدخل الدردنيل في وجه الفرس فامسى العبور من اسية الى اوربا لا يتسنى لاحد الاَّ باذنهم فحالوا دون هجوم الفرس عليهم في الزمن الآتي . فوقف حفدة اولئك الذين رأوا بعيونهم جيوش الفرس تجتاح بلادهم ، سدًّا يحول دون تقدم الفرس الى الغرب . وبذلك طردوهم من اوربا طردًا مؤبدًا لانهُ لم يطأ بعد ذلك قط جيش فارسي ارض اليونان في اوربا

مسائل

٤٨

اية مملكة كانت العظمى في اسية الصغرى وراء المدن اليونانية التي يزدان بها الساحل؟ ماذا كان قد حدث لهذه المدن في منتصف القرن السادس ق٠م ؟ من كان آخر ملوك ليدية ؟ من سحق مملكة ليدية ؟ ومتى ؟ اية دولة شرقية عظيمة على الجانب الشرقي من بحر ايجه ؟ ماذا تظن في نتائج المقاومة من جانب اليونان ؟ ماذا عملت المدن الايونية في اسية ؟ ماذا كانت حصة اثينا من هذه الثورة ؟ ماذا فعل الفرس من باب الجزاء ؟ ومتى ؟ من كان ملكهم ؟ اين نزلوا في بلاد اليونان ؟ كم تبعد مرثون عن اثينا ؟ ماذا فعل الاثينيون ؟ اذكر عدد الجيشين ؟ هل تريث اليونان في اثينا حتى يصل الفرس اليهم ؟ من كان قائدهم ؟ اي موقف وقف اليونان وما هي المنافع التي جرُّوها ؟ صف معركة مرثون ؟

٤٩

اي سياسيّ كبير حارب في مرثون ؟ ماذا كانت خطتهُ في الدفاع المستقبل عن اثينا ؟ صف خطط احشويروش لاخضاع اليونان . ماذا فعل الاثينيون ؟ اشرح خطة ثيمستكليس للحملة الحربية . ما هما المعركتان اللتان نشبتا ؟ صفها . ماذا كانت الخطة التالية لجيش الفرس ؟ صف معركة سلاميس ؟ اي خطة حضّ ثيمستكليس عليها ؟ ماذا كانت نتيجة رفض اليونان نصيحة ثيمستكليس ؟ اي غلبة حازها اليونان في صقلّية في الوقت نفسهِ ؟ اي عراك جنسي تمثلهُ هاتان الغلبتان ؟ ماذا جرى لثيمستكليس ؟ ماذا فعل الآن قائد الفرس ؟ من كان ذلك القائد ؟ اين جرَت المعركة الاخيرة ؟ صفها . ما هي الفوائد الاخيرة التي جناها اليونان في البحر ؟

الفصل الرابع عشر

اشتداد المنافسة بين اثينا وسبارطة وقيام الامبراطورية الاثينية

٥٠

بدء المنافسة بين اثينا وسبارطة

(٥٠٨) شعور الاثينيين بعد معركة سلاميس

ولما عاد الاثينيون الى مدينتهم ورأوا كَوْم الرماد التي استحالت اليها اثينا الجميلة، وشاهدوا التلّ الذي قام عليهِ الاكروبولس وقد كساهُ الدخان حلة سوداء، أدركوا عظمة نجاتهم وخطورة العمل الذي قاموا بهِ بسحقهم دولة اسية القديمة، وشعروا بانهم سادة العالم، فبان لهم الماضي ضئيلاً ضيق النطاق، وتجلّت لهم اثينا الجديدة بصورة اعظم وابهى جدًّا من القديمة

(٥٠٩) سبارطة المحافظة على القديم

وكان السبارطيون ذوي مزاج بارد يختلفون جدًّا عن الاثينيين في رقة الشعور ودقة الفكر. ولم يكن اهتمام حكومتهم الاّ في الشؤون الحربية، ولا كانت بلادهم الاّ عبارة عن ثُكنة حربية. وكانوا يقيمون في مجموعة من القرى لا تستحق ان يطلق عليها اسم مدينة. وكانوا شديدي المحافظة على عاداتهم وتقاليدهم القديمة لا يحيدون عنها قِيد شعرة. ولذلك ظلوا مثابرين على استعمال الحديد نقودًا وبقيت مدينتهم بلا اسوار. وكانوا ينظرون الى العالم الفسيح المفتوح امام الحياة اليونانية الجديدة نظرة الريب والحذر. ومع رغبتهم في ان يكونوا زعماء اليونان في الشؤون الحربية فانهم كانوا يستنكفون من تحمّل مسؤولية الزعامة. وبالاختصار انهم كانوا يمثلون العهد البائد وامتيازات الاقلية في البلاد

وكانت اثينا تمثل المستقبل وحقوق الاكثرية. فانقسمت بذلك أُمّة اليونان الى حزبين

(٥١٠) المنافسة بين سبارطة واثينا

كبيرين ، سبارطة موطن التقاليد القديمة والامتيازات المخصصة بطبقة الجنود ، واثينا نصيرة الرقي والحرية والشعب . ومات في صدور اليونان ذلك الميل الى الاتحاد الذي تولّد فيهم ايام جهادهم في سبيل الحرية وكان يرجّى ان يكون الذريعة لضم شتاتهم وتأليفهم امة واحدة . وخلفهُ نزاع مستمرّ بين زعيمتي « هلّاس » ، دام قرناً من الزمان ، وكانت عاقبتهُ وبالاً على اليونان اجمالاً لانهُ خسّرهم زعامة العالم القديم

(٥١١) ثيمستكليس وحصون اثينا

واصبح ثيمستكليس حياة اثينا وروح سياستها وقلبها النابض بحب التقدم والتوسّع . فارتأى ألاّ تكون اثينا فيما بعد تابعة لسبارطة . وخدع بدهائهِ السياسي السبارطيين واكمل بناء اسوار منيعة حول اثينا الجديدة غير عابىء باحتجاجهم ومقاومتهم . وحصّن ايضاً بيرية ميناء اثينا . ولما احجم السبارطيون ، بعد انهزام الفرس ، عن تولي قيادة الاساطيل المتحدين تحوّلت السيادة في بحر ايجه الى اسطول اثينا القوي

٥١

قيام الامبراطورية الاثينية وفوز الديمقراطية

(٥١٢) انشاء الاتفاق الديلوسي

وبما ان المدن اليونانية الاسيوية كانت لا تزال تخشى إثآر ملك الفرس ، اغتنم الاثينيون هذه الفرصة السانحة وانشأوا اتفاقاً دفاعيًّا بينهم وبين انسبائهم في اسية والجزر الايجية . وكانت المدن الغنية تقدم للاتفاق المذكور سفناً . وغيرها يقدّم كميات معلومة من المال للخزانة . وتولّت اثينا قيادة الاسطول المتحد وجباية الاموال وعهدت في ذلك الى الوطني الحرّ ارستيدس . وهو عمل خطير جدير بان يتولاهُ رجلٌ عرف باستقامة السيرة كارستيدس الملقّب بالعادل . وكان ارستيدس قد تصدّى قبلًا لمناوأة ثيمستكليس في ما كان ينوي القيام بهِ من المشاريع البحرية ولما اخفق مسعاهُ نُفي ، ولكنهُ عاد فلمع بعد ذلك في سلاميس وبلاتيا . ومع انهُ قاوم قبلًا مساعي ثيمستكليس ومشاريعهُ البحرية ، نراهُ الآن يؤدّي الى الوطن خدمة مهمة ببذلهِ الجهد في تنظيم الاتفاق البحري الجديد الذي اشتهر « بالاتفاق الديلوسي » نسبةً الى جزيرة ديلوس الصغيرة ، مركز هيكل ابلون حيث كانت تحفظ التبرعات والتقدمات صيانة لها من السرقة . وقد تمّ هذا الاتفاق في غضون السنوات الثلاث التي عَقَبت معركة سلاميس . ولم يكن صعباً على من أُوتي نظرًا بعيدًا ان يرى ان من

الهنات الهينات تحوُّل هذا الاتفاق الى امبراطورية تشتمل على حكومات اليونان المختلفة . وكانت سبارطة تنظر الى ذلك كله بعين ملؤها الحسد والحذر

(٥١٣) قيام كيمون

ان اسطول الاتفاق المعقود اللواء لكيمون بن ملتيادس، بطل مرثون، طرد الفرس من منطقة الدردنيل طردًا تامًا الاَّ ان كيمون لم يفقه تمامـاً معنى تفوُّق اثينا وتسلُّطها في بلاد اليونان . فمال الى سياسة غرضها مصادقة سبارطة . ثم عقد معها معاهـدة . فأدَّى ذلك الى عراك سياسي في اثينا اذ جنـح الاشراف وارباب الثروة والجماعة القديمـة من الشعب الى كيمون والى عقد عهد صداقـة مـع سبارطة . ومـال الاثينيون العصريون الاحرار الى ثيمستكليس وخطته التي غرضها مناوأتها

(٥١٤) سقوط كيمون ثيموستكليس



الشكل ١٣٦

يُرى في هذا الشكل قطعة خزف بيد احد الوطنيين عليها اسم ثيمستكليس (ف ٤٧٠) وكان هذا الوطني احد الستة الآلاف الذين اجمعوا على نفي ثيمستكليس . وقد تم لهم ما اجمعوا عليه سنة ٤٧٢ ق.م. وربما كانت هذه القطعة قد كتبت قبل نفيهِ هذه المرَّة حين قاموا عليهِ لكي ينفوهُ واخفق سعيهم

ولما لم يكن ثيمستكليس قادرًا ان يستميل المجلس اليـهِ حُكم عليهِ بالنفي (ش١٣٦) وقدِمت عليهِ شكاوى زور بانهُ خائن الوطن فحكم عليهِ واضطرَّ ان يغـادر البلاد حرصاً على حياتـهِ ففرَّ الى بلاد الفرس وقضى بقية ايامـهِ في خدمة ملكهـا . ولم يعـد يرى المدينة التي انقذهـا من الفرس وجعلها عاصمة الامبراطورية فخسرت اليونان خدمة اعظم رجالها سياسة وحنكـة

(٥١٥) سقوط كيمون

وسحق كيمون، في معركة فاصلة، قوَّة الفرس البحرية في الغرب (٤٦٨ ق.م) وعاد الى اثينا ظافرًا يجر ذيول الفخر . ولمـا شبت نار الثورة في سبارطـة والتمس السبارطيون مساعدة اثينا لاخمادها، الحَّ كيمون بارسال جيش الى سبارطة اجابة لملتمسهم . وفي هذا، احسن كيمون ظنهُ بالسبارطيين وبميلهم الى اثينـا اكثر مما يجب، فكان ظنـهُ اثمًا فان السبارطيين طلبوا منهُ باسلوب فظ، ولسان الثورة لا يزال مندلعًا، ان ينسحب هو وجيشهُ من البلاد . فجرح هذا التصرُّف الشائن شعور الاثينيين فحكموا بنفي كيمون الذي جلب عليهم هذه الاهانة بميله الى مصادقة سبارطة (٤٦١ ق.م)

وكان سقوط كيمون انتصار العامة على النبلاء . فسنَّ العامة شرائع انتزعوا بها القوة

(٥١٦) انقلاب المجلس الاريوباغي وسيطرة مجلس العامة ومجالس التحقيق الوطني

السياسية من المجالس القديمة. ونشأ في غضون ذلك مجلس كان احب المجالس الى الشعب وكان مؤلفاً من خمس مئة عضو قبضوا على زمام السلطة وادارة معظم اعمال الحكومة. وفي الوقت نفسهِ اتسع نطاق مجالس التحقيق التي ادخلها صولون لتكون محاكم استئناف (ف ٤٦٣) ولم يكن في طاقة الوطنيين الفقراء ان يغادروا اشغالهم وينتظموا في سلك هذه المحاكم لان الخدمة كانت مجانية. فسنَّ الشعب قوانين تقضي بتعيين رواتب لاعضائها. وقويت شوكة هذه المحاكم جداً حتى صار سنّ القوانين من جملة الامتيازات المنوطة بها وبالمجلس الكبير. فكانت السلطة في الواقع بيد الشعب وايدها القانون الجديد القاضي بوجوب انتخاب ارباب الوظائف العليا بالقرعة ما خلا وظيفة واحدة، وظيفة قائد الحرب

(٥١٧) قائد الحرب ينتخب بلا قرعة

ولم يكن الاَّ موظف واحد حُظر تعيينهُ بالاقتراع، وهو قائد الحرب الذي كان يُنتخب انتخاباً من ارباب النفوذ والمقدرة فكان في ذلك مندوحة لاي كان من النبلاء ان ينتخب لهذه الوظيفة المهمّة بشرط ان يكون ملما بالتهذيب العسكري ومن ذوي الوجاهة والسطوة فاذا كان ممن انقادت اليهِ الفصاحة بزمام وأُوتي قوّة الاقناع وسحر البيان بسط للشعب خطتهُ وامانيَّهُ واستمال المجلس الى قبولها

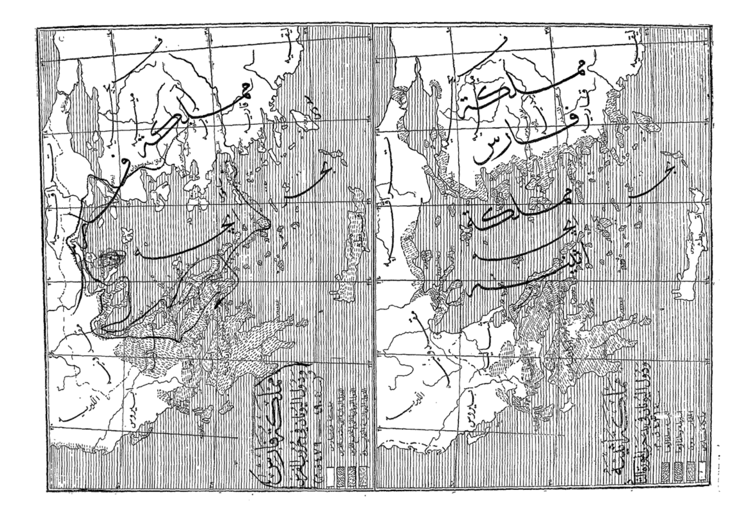
(٥١٨) زعامة بريكليس

وبعد سقوط كيمون برز الى ميدان السياسة شاب بهيّ الطلعة ذكي الفؤاد من سكان اثينا يُدعى بريكليس وهو من اسرة قديمة عريقة في النبل يتصل نسبها بكلستنيس. فهذا عقد النية على تشييد اركان امبراطورية اثينية سامية كانت من جملة احلام ثيمستكليس التي لم يقيَّض لهُ تحقيقها فرأس الحزب الحرّ الذي كان شعارهُ «التقدم وزيادة قوة الشعب» ونال ثقتهُ فاعاد هذا الحزب انتخابهُ للقيادة العظمى مرَّة بعد مرَّة سنة بعد سنة. وكانت نتيجة تكرار انتخابهِ انهُ صار رئيس الحكومة الحقيقي. وبكلام آخر اصبح الزعيم السياسي لاثينا غير مدافع من سنة ٤٦٠ ق.م الى حين وفاتهِ، قبل الاوان، بعد ذلك بثلاثين سنة

٥٣

التقدم التجاري وبدء النزاع بين اثينا وسبارطة

وعقب الحروب الفارسية زمن تقدَّمت فيهِ التجارة على اختلاف ضروبها فقبض اليونان



(٥١٩) تفوّق اليونان التجاري بعد الحروب الفارسية . عوض بيريوس ميناء اثينا الجديد

على ازمتها كزملائهم الانكليز قبل الحرب الكبرى (١٩١٤) . فكانت السفن اليونانية القادمة من جميع انحاء العالم اليوناني مالئة حياض بيرية، مرفأ اثينا، على الدوام، لان انكسار الفينيقيين في الشرق والغرب ذهب بسفنهم التجارية فانتقل جزء مهم من تجارتهم الى ايدي اليونان . هنا في بيرية، كانت ترسو المراكب اليونانية القادمة من البحر الاسود مشحونة حنطة او سمكاً جنباً لجنب مع السفن المصرية الموسوقة حنطة ومحاصيل سرقوسة على اختلاف اجناسها . وكانت البضائع الصادرة من معامل اثينا منضدة بعضها فوق بعض على المرفإ حيث كان يشاهد الحمالة صفوفاً صفوفاً ينقلون الرزم، والعرق يتصبب منهم، الى السفن التي كانت تنقلها الى سائر موانىء البحر المتوسط . وكانت السفن الحربية تملأ السواحل البحرية

(٥٢٠) السفن اليونانية . ارباح التجارة والصناعة

ومع كل التقدم العظيم الذي بلغهُ اليونان في الملاحة، لم تكن سفنهم كبيرة الحجم بل كانت السفينة التي محمولها من مئتين وخمسين الى ثلاث مئة طن تعدُّ عند يونان القرن الخامس ق.م عظيمة (ش ٤٤) . ولم تكن السفن تعمّر كثيراً كما تعمّر الآن . لانهُ لم يكن لدى اليونان الزيت المخصوص الذي تطلى بهِ السفن . وطريقة المصريين في طليها بالشمع المذوَّب كانت عظيمة النفقة جداً . اما ارباح التجارة البحرية فكانت فاحشة . فالسفينة التي كانت تؤمّ سواحل البحر الاسود الشمالية او بحر ادريا حيث كانت لصوص البحر تسرح وتمرح، كان بوسعها ان تبيع شحنها بما يساوي ضعفي ثمنهِ الاصلي بعد حسم جميع النفقات فيربح اصحابها ارباحاً طائلة . وكانت ارباح اصحاب معامل الصناعة عظيمة ايضاً لا تقلُّ عن ثلاثين في المئة

(٥٢١) الثروة والاجور

اذا رمنا ان نقيس ثروة اثينا وجب علينا الاَّ نعتمد على مقياس عصرنا الحاضر للثروة فان من كان يملك في ذلك الزمان خمسين الف فرنك، كان يعدُّ غنياً . ومن كان يملك ضعفي هذه القيمة كان يحسب مثرياً كبيراً . لان اجرة العامل كانت من ربع فرنك الى نصف باليوم الواحد واجرة الصانع الماهر فرنكاً . وكان الجندي اليوناني يخدم في جندية اي بلادٍ اجنبية براتب ليرة بالشهر وثمن سلاحه من جيبه . وكانت اجرة ارباب المواهب العقلية كالمهندسين مثلاً فرنكاً، او فرنكاً ونصفهُ باليوم، وكان المدرّس يُستأجر لتدريس اي فرع من العلوم كالبيان مثلاً بقيمة تتراوح بين اثنتي عشرة ليرة وست عشرة ولو طالت مدة الدراسة بضع سنين

(٥٢٢) النقود والاسعار

ونتج عن نموّ تجارة اثينا زيادة كمية النقود فيها زيادة فاحشة . فكان لنقود اثينا الفضية المنزلة الاولى في جميع اسواق البحر المتوسط . وكان في عداد نقود تلك الاسواق الدَّارك

الفارسي وقيمتهُ ليرة انكليزية · ولما كثرت النقود قلّت قيمتها كما هي الحال في اي مكان فنقصت قوّتها الشرائية عما كانت عليهِ قبلاً ، وبكلام آخر ارتفعت الاسعار · ولكن مع ارتفاعها لم يكن الموسر مضطرًّا ان ينفق على اطعام عائلتهِ اكثر من غرشين او غرشين وربع غرش باليوم الواحد · وكان المثري اذا انفق على تأثيث منزلهِ اكثر من اربعين ليرة مصرية يعدُّ مبذرًا

٥٢٤٢) نفقات الحكومة

واصبحت النقود من الحاجات الماسّة للقيام بمهام الحكومة التي كان في محاكمها الوف من الاعضاء (ف ٥١٦) وفي مجلس شوراها خمس مئة عضو · وكانت الخزينة مضطرَّة ان تدفع لهم رواتب سنوية يبلغ مجموعها نصف مليون فرنك · وكان تشييد هياكل الآلهة الرخامية الفاخرة يقتضي مبالغ تعدُّ جسيمة حتى في ايامنا هذه فضلاً عن النفقات الطائلة التي كانت تقتضيها التقادم للهياكل والولائم والحفلات الرسمية التي كانت تقام فيها · وكانت نفقات الحرب تفوق سائر النفقات الاخرى في المملكة ، وكان معظمها على سفن الاسطول البالغ عددها مئتي سفينة في كل منها مئتا رجل ما بين بحّار ومجذّف · وكانت اجرة كل واحد منهم باليوم نصف دراخمة (نصف فرنك تقريباً) فيكون مجموع اجرتهم الشهرية ست مئة الف فرنك · وكان دخل حكومة اثينا السنوي من جميع الموارد — من المعادن والاتاوات ومكوس الجمارك والضرائب المضروبة على الحكومات التابعة لها — لا يكاد يبلغ ثلاثة ملايين وسبع مئة وخمسين الف فرنك في ايام بريكليس

٥٢٤٦) سبارطة دون اثينا في ماليتها

ان القيمة المذكورة آنفاً ، وان ظهرت طفيفة في عيون ابناء هذا الزمان ، كانت في وقتها عظيمة بحيث لم تستطع حكومة اخرى يونانية ان تجمعها · وكانت سبارطة خصوصاً عاجزة عن مجاراة اثينا في هذا المضمار لانها ظلّت شديدة التمسك بتقاليدها القديمة ، فلم تنزل الى ميدان السباق التجاري ولا عدلت عن اصدار نقودها الحديدية القديمة ، ولم يكن لديها نقود فضية قط · والامر الذي لا ريب فيهِ هو ان الخدمة في جيشها النظامي كانت بلا بدل على الاطلاق · ولما ساقت جحافل الاتحاد البلبونيسي الى ساحات الوغى لم يكن في وسعها ان تتحمّل نفقاتها اكثر من بضعة اسابيع · فاذا كانت قد ناءت بهذه النفقات فكيف تقدر ان تقوم بنفقات اسطول حربي تربي كثيرًا على نفقات تلك الجحافل · ولما كانت الحروب لا تقوم الاّ بالمال كان نجاح تجارة اثينا واتساع نطاقها سببين بوّآها المنزلة العليا بين سائر الحكومات اليونانية · فاتقدت من جرّاء ذلك نار الحسد في صدر سبارطة وتملكها الحذر والخشية منها

واكتسب بريكليس رضى العامة وميلهم بانتهاجهِ خطة عدائية نحو سبارطة (ف

(٥٢٥) تحصينات جديدة في اثينا . اسوار مستطيلة

٥١٣) واذ سبق وراى ببصيرته الثاقبة وقوع العراك المقبل مع اثينا جدَّ في تقوية حصونها باغرائه الشعب بوصل حصون اثينا بحصون مرفإِها بيرية ببناء سورين مستطيلين بحيث يصير الطريق المؤدي من المدينة الى الميناء محاطاً بهذين السورين احاطة تامة

(٥٢٦) الحرب الاولى بين سبارطة واثينا (٤٥٩ - ٤٤٦)

وبعد ان نال بريكليس زعامة الشعب بامدٍ غير طويل ، نشبت بين اثينا وسبارطة الحرب التي لم يكن مناص منها ، ودامت خمس عشرة سنة سجالاً بين الفريقين . وساء الاثينيين مزاحمة الجينيا التجارية لهم في جوارهم بل في عقر دارهم فقهروها بعد حصار طويل واستولوا عليها . ثم عمد بريكليس الى مناوأة كورنثوس ، المنافسة الشديدة ، من الوجهة التجارية لاثينا والصديقة الحميمة لسبارطة . فكان عمله هذا مجلبة لافلاس تجارها وتدميرها ماليًا .

(٥٢٧) الحرب مع الفرس . الحملة المصرية

وفي الوقت نفسهِ وجهت اثينا اسطولها المؤلف من مئتي سفينة لمساعدة مصر التي كانت قد ثارت على الفُرس . فكان الاثينيون يحاربون سبارطة والفرس في وقت واحد سنين عديدة . وهلك الاسطول الاثيني في مصر على بكرة ابيهِ ولم تنج منهُ سفينة واحدة ، فآل هلاكهُ الى ضعف قوة اثينا البحرية وتعريض خزانة الاتفاق الديلوسي للخطر ، لانـهُ كان يخشى ان يقوم الفرس بهجوم بحري على جزيرة ديلوس الصغيرة مركز الخزينة . فاحتاط بريكليس للامر ونقلها الى اثينا فصيَّر المدينة عاصمة الامبراطورية الاثينية حقيقة

(٥٢٨) عقد الصلح مع سبارطة والفرس

ولما انعقد الصلح (٤٤٥ ق.م) لم يبقَ في حيازة اثينا سوى جزيرة الجينا الاَّ انها في الوقت نفسهِ تولت ادارة الحكم في جزيرة يوبيا الكبيرة . وتمَّ الاتفاق على ان تكون مدة الصلح ثلاثين سنة . وهكذا انتهت هذه الحرب البلوبنيسية الاولى التي نهكت قوة اثينا وقوات اعدائها في المورة نهكاً تاما . ولم يُظهر بريكليس في هذه الحرب انهُ القائد المحنَّك والبطل المدرَّب لا بحرًا ولا برًا . وكان الاثينيون قد عقدوا مع الفرس ، بعد حرب مرثون ، صلحاً مدتهُ اربعون سنة . على انَّ المنافسة بين اثينا وسبارطة على زعامة اليونان لم يكن قد انتهى امرها بعد ولا وُضع لها حد . فكان لا مناص لهما من امتشاق الحسام واستئناف القتال مرة أُخرى في حرب عوان دامية . وقبل ان نطلق للقلم العنان في وصف هذه الحرب لنلقِ نظرة عامة على اثينا الجديدة البهيَّة الآخذة بالتقدم والنمو تحت زعامة بريكليس

مسائل

٥٠

صف حكومة سبارطة . ماذا تعلم عن اسباب المنافسة بين سبارطة واثينا ؟ ماذا فعل ثيمستكليس الآن ؟

٥١

اي اتحاد عملتهُ اثينا الآن مع المدن اليونانية الشرقية ؟ اي دور مثَّل ارستيدس فيه ؟ الى اي شيء كان في الامكان ان يؤدي هذا الاتفاق الديلوسي بسهولة ؟ الى اي . . ة مال كيمون ؟ كيف كان موقف ثيمستكليس بالنظر الى سياسة كيمون ؟ ماذا حدث لثيمستكليس ولكيمون ؟ اي انتصارات جديدة نالها الشعب ؟ اي مجلس جديد قام الآن وكيف حكم ؟ باية وسيلة استطاع السياسي ان يحافظ على الزعامة ؟ من صار زعيم الشعب الآن ؟

٥٢

ماذا حدث للتجارة اليونانية بعد حرب الفرس ؟ قل ما تعرفهُ عن الملاحة والارباح التجارية ؟ ماذا تقول في قيم الاشياء بالنسبة الى ما هي عليهِ الآن ؟ ماذا اثَّر ذلك في الاسعار ؟ ماذا كانت نفقات الحكومة الاثينية الرئيسية ؟ هل استطاعت حكومة أخرى مضاهاتها في ذلك ؟ اذكر باختصار حوادث الحرب البلبونيسية الاولى

الفصل الخامس عشر

اثينا في عصر بريكليس

٥٣

الهيئة الاجتماعية . الوطن . التهذيب . تربية الوطنيين الاحداث

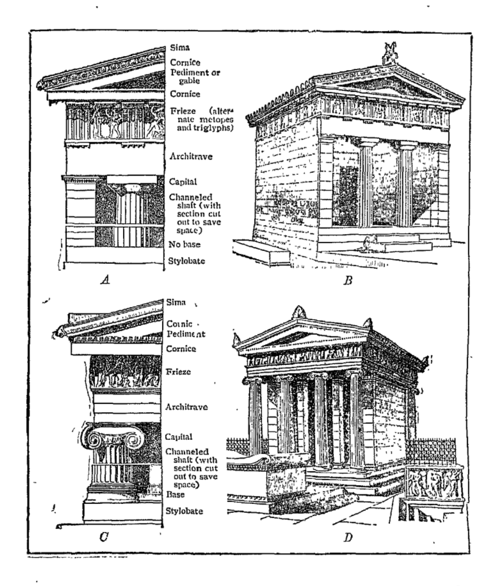
(٥٣٩) الهيئة الاجتماعية في اثينا

كان سكان اثينا – كما رأينا قبلًا – مؤلفين من وطنيين واجانب وعبيد . فكان العبيد اربعين بالمئة، والاجانب ما بين ١٠ و٢٠ بالمئة، والوطنيين البقية، وكلهم من الاحرار. وكان فريق كبير من الوطنيين الاغنياء يعيشون في اثينا من دخل املاكهم . ومنهم تألفت طبقة اكابر الامة واعيانها . لان الاراضي كانت لا تزال في عيونهم اعظم مظهر للثروة والجاه . وكان الذين يمارسون الاعمال اليدوية محتقرين وبلا مقام في الهيئة الاجتماعية . وكانت اثينا تغصُّ بمهرة الصنَّاع واصحاب الحوانيت الصغيرة . ولكن مع ذلك كان معظم الاثينيين لا يزالون يتعاطون الفلاحة والزراعة في جميع انحاء اتيكا مع ان اكتساح الفرس لبلادهم وتخريبهم لها قد احدث نقصاً مهمًا في الاراضي الصالحة للزراعة (ف ٥٠٢ و٥٠٦)

(٥٤٠) منازل الاثينيين

ان ترميم مباني اثينا بالسرعة المقتضاة بعد احراق الفرس لها، لم يحدث تغييرًا محسوساً لا في شكلها ولا في حجمها بل ظلَّت كما كانت لا كبيرة ولا مزخرفة . ولم يكن في اوربا كلها منازل تضاهي بجمالها المباني التي كانت في وادي النيل (ش ٣٥) حتى «واجهات» منازل الاغنياء، كانت عبارة عن جدار بسيط مبني بالاجر . وكانت المنازل ذات طبقة واحدة . والباب الذي كان في الغالب النافذة الوحيدة في الجدار، كان يؤدي الى دار غير مسقوفة يحيط بها رُواق ذو عمد على النمط المصري كانت العائلة تستعملهُ غرفة للجلوس في

معظم اوقاتها نظرًا لاعتدال الهواء في بلاد اليونان • وكان في الدار بضعة ابواب تؤدي الى غرف مختلفة ، منها للاقامة نهارًا ومنها للمنامة ليلًا ومنها للمائدة وحفظ المؤونة • وكان في عداد الغرف مطبخ صغير



الشكل ١٢٧ . نُرى هنا رسم الطرازين اليونانيين المهمين في هندسة البناء الطراز الدوري (A و B) والايوني (C و D)

البناية الصغيرة الدورية (B) هي خزينة الاثينيين في دلفي (ش ١٧٣) وهي تحتوي على تقادم الشكر التي كانوا يقدمونها لابلون • وعلى القاعدة الواطئة الى الجانب الايسر من البناية كان موضوعًا ما غنموهُ في معركة مرثون من تذكارات الانتصارات • وكان محفورًا على الجدران فوق هذه التذكارات اغاني لابلون مع علاماتها الموسيقية وهي اقدم علامات موسيقية باقية من الزمن القديم. والبناية الايونية الجميلة (D) هي مرمم هيكل النصر القائم على الاكروبولس الاثيني (ش ١٨٣ B والصورة على صفحة ٢٧٨) • عارض الاعمدة النحيفة باعمدة الطراز الدوري الثخينة فترى ان الطراز الايوني انحف واجمل وفي A و C تفاصيل الطرازين

(٥٢١) حاجة منازل الاثينيين الى كثير من اسباب راحة المعيشة

ولم يكن في منازل اليونانيين شيء – تقريباً – من اسباب الراحة وهناء العيش فلم يكن فيها مداخن لخروج الدخان حين اضرام النار في المواقد ، نعم كان في السقوف كوى او روازن معدَّة لخروجهِ ولكنهُ لم يكن يخرج منها بل كان يملأ البيت الى درجة يكاد يختنق عندها من فيهِ من السكان ثم يخرج من الباب ، وفي الشتاء كانت تهب الرياح الباردة وتدخل البيوت بلا مانع اذ لم يكن شيء يصدُّها ، لان معظم المداخل كانت بلا ابواب ، والبيوت التي كان لمداخلها ابواب ، كان اصحابها مضطرين الى ابقائها مفتوحة ليدخل منها النور لانهُ لم يكن للبيوت رواشن او شبابيك مزججة تسمح للنور بالدخول وتصدّ الامطار والرياح عنها كما هي الحال الآن ، لان الزجاج لم يكن قد عُرف بعد ، وفي بلاد معتدلة الهواء كبلاد اليونان ، كان يكتفي السكان ، لتدفئة منازلهم ، بايقاد قليل من الفحم في كانون او موقد اعتيادي حتى تصير حرارة داخل البيت ارفع قليلًا من حرارة الهواء خارجهُ وكل ما كان لديهم من ذرائع الاستصباح ، السُرج الاعتيادية التي كانوا يضعون في الواحد منها قدرًا معيناً من زيت الزيتون ويغمسون فيه فتيلة تبرز قليلًا من قناة صغيرة فيهِ وحين كان الليل يرخي سدولهُ كانوا يضيئون الفتيلة فيصدر منها نور ضئيل لا يكاد الجلوس في البيت يرون بهِ بعضهم بعضاً ، ولم يكن للمنازل انابيب لجرّ المياه منها او اليها ولم يكن للقرى او المدن اسراب ولا شيء من المرافق التي يتمتع بها ابناء هذا الزمان ، فكان العبيد يستقون الماء على ظهورهم من اقرب بئر او نبع جارٍ ، وكانت المنازل اليونانية غاية في بساطة اثاثها لان اصحابها اقتصروا على الضروري منهُ فقط حتى كادت تظهر عارية مع ان الصناع اليونانيين في هذا العصر كانوا يصنعون انفس الاثاث واجملهُ ، وقد رأينا قبلًا ان الفخار اليوناني كان اجمل فخّار صنعهُ القدماء (ش ١٢٦)

(٥٢٢) شوارع اثينا

وكانت شوارع اثينا ضيقة معوَّجة عرضها نحو ميل وطولها يزيد قليلًا عن ذلك تنعرج بين منازلها المنخفضة المبنية بالاجر المجفَّف بالشمس ، ولم تكن تلك الشوارع مرصوفة ولا مبلطة ، ولم يكن لها برازيق (ارصفة على جانبيها) يمشي عليها المارة ، فاذا ما رام انسان ان يتمشَّى في احد الازقة بعد مطرة خفيفة اضطرَّ ان يخوض الوحول خوضاً ، وكان الناس يطرحون قُمامات منازلهم ونُفايات مطابخهم في الشوارع العمومية ، ولم يكن للمدينة اسراب او مجارير تنتقل بها مياه المراحيض والبلاليع الى البحر

(٥٢٣) الازياء

وكان اهل الشرق قديماً يباهون باللباس الفاخر الزاهي الالوان ، اما في بلاد اليونان – في هذا العصر – فمال معظم الناس الى البساطة في اللباس ورغبوا عما كان يرغب فيهِ اسلافهم من الازياء الزاهية الالوان كما رغب عنها معظم رجال اوربا في القرن الماضي ، ولكنهم وان

كانوا قد اقلعوا عما رغب فيهِ اسلافهم من الازياء النفيسة الزاهية لم يقلع من كان منهم صَنَاع اليدين عن هندمة لباسهِ وتجعيده وتثنيتهِ . وكان المتأنقون منهم في لباسهم يفاخرون بعدد خطوط الثنيات او الطيّات في اثوابهم · اما النساء فحافظنَ على القـديم وابقينَ على زينتهنَّ وزخرفة ازيائهنَّ لانهُ — لسوء الحظ — لم يكن لديهنَّ شيء يوجهنَ اليهِ عقولهنَّ وافكارهنَّ سوى الملابس واعمال المنزل · ذلك لان الرجال مالوا اكثر من قبل الى ابقاء المرأة في حالة الانحطاط لكي تظلّ في بيتهـا تقوم بالشؤون المنزلية · ولم يكن عند اليونانيـين مدارس للبنات · اما الصبيان فكانوا حين بلوغهم سنًّا معيّنة يُرسَلون الى المدرسة بحراسة عبد قديم في البيت دعوهُ مؤدِّباً او رفيقـاً للولد · ولم يكن للحكومة مدارس ولا مبـانٍ مخصَّصة لتهذيب نشئها فكان يقوم على تعليم الاحداث بعض الافراد المحاويج الذين فقدوا ما كان لديهم من حُطام الدنيا او سُدَّت في وجوههم ابواب الارتزاق . فبدلاً من التسوّل في الاسواق كان الواحد منهم يفتح بيتهُ ويقبل فيهِ بعض الطلبـة ثم يشرع في تعليمهم · وكان يقوم احياناً بهذه الخدمة الشريفة الجنود المتقاعدون او بعض الاجانب . ومع شرف هذه الخدمة كان الجمهور ينظرون الى القائمين بها نظرة الازدراء والاستخفاف · اما اجور التعليم فكان يؤديها الآباء عن ابنائهم · ومع ان الحكومة لم يكن لهـا مدارس فقد كانت تعيّن من قِبلها مراقبين او مفتشين على المدارس الخصوصية لكي تمنع بذلك كل تعليم محظور لا يليق ان يتعلمهُ الاحداث

(٥٣٤) مواضيع الدروس

كانوا قديماً يعلّمون الولد القراءة والكتابة والموسيقى (ف ٤٧٣ وش ١٣٨) ثم اضافوا عليها مقاطع كثيرة من منظوم قدماء الشعراء للاستظهار . فاذا كان التلميذ قوي الذاكرة حفظ كثيرا من الالياذة والاودسّي · الاَّ انهم لم يعلّموهُ شيئاً من الرياضيات او الجغرافيا او العلوم

(٥٣٥) نيل الجنسية اليونانية

وكان الفتى الاثيني اذا ما بلغ الثامنة عشرة من عمرهِ وغادر المدرسة يمنح الحقوق الوطنية على شريطة ان يكون ابواه حائزين لهـا . وكانت اليمين الشرعية التي يحلف بها ، خـير مذكِّر لهُ بالواجب عليهِ لبلاده وامتهِ · وواضع صورة اليمين هذه هو صولون الذي اوجب بها على الشاب « ان لا يُهين سلاحهُ المقدَّس ولا يخذل رفيقهُ في الجندية ساعــة النزال بل يجاهد في سبيل الذود عن حرمة الهياكل المقدسة والخير العام سواء كان وحدهُ او مع غيره ، وان يغادر بلاده في حالٍ احسن من الحال التي وجدهـا عليها ، وان يطيع حكام البلاد وشرائعها ويدافع عنها اذا اقتضت الحال ذلك ، وفي الختام كان عليهِ ان يحترم ديانتها »

وكان على من نال هذه الحقوق ان يخدم سنة في حماية ثغور البلاد في برية حيث كان

(٥٣٦) تابع الحقوق المدنية والخدمة العسكرية

يدرَّب في الفنون العسكرية . وكان الذين ادَّوا هذه الخدمة عند بلوغهم التاسعة عشرة من العمر يعطَون رمحاً وترساً من المسلَحة (بيت السلاح) ثم يتوجهون توّاً الى المرسح ويدخلون دائرة الاركسترا حيث كانوا يُقدمون الى ابناء وطنهم المجتمعين هناك قبل الشروع في التمثيل . وكان الشاب بعد ذلك يخدم سنة أخرى في ثغور اتيكا تنتهي في ختامها مدة خدمته في الجندية





الشكل ١٣٨ المدرسة الاثينية في عصر بريكليس

هذه المشاهد مصوَّرة حول قاعدة قدح قليل القدر ولذلك اكتسبت هذا الشكل الخصوصي . نرى الى يسار الصورة اعلاه معلم الموسيقى جالساً امام قيثارته يعلم الفتى الذي امامه مثالته ونرى في الوسط معلم القراءة والآداب ماسكاً درجاً مفتوحاً (ش ١٧٤) يتعلم منه الصبي الواقف حياله قصيدة وقد جلس خلف الصبي العبد الذي يرافقه الى المدرسة اي المؤدب (ف ٥٤٣) الذي الى يؤالى المدرسة حاملاً له كتبه . وفي الصورة ادناه نجد مثالة غناء مع الفلوت لضبط العلامات الموسيقية . ويرى في الوسط المعلم جالساً يصلح تمريناً ناوله اياه الولد الواقف امامه . ووراء الولد يُرى العبد اي (المؤدب) جالساً كما مرَّ آنفاً

(٥٣٧) الرياضة البدنية

وكان الشاب متى اتمَّ خدمتهُ في الجندية ، يتفرَّغ اكثر من قبل للالعاب الرياضية في الملاعب الجميلة التي كانت في العراء ، خارج اسوار اثينا هذا اذا كان مركز اسرتهِ في الهيئة الاجتماعية وغناها يساعدان على ذلك .

كان الى الشمال من اثينا خارج السور ملعب للرياضة يُعرف بالاكادمية والى الشرق منها ملعب آخر شبيه بهِ يعرف بندْوة الفنون (Lyceum) وكانت الاكادميَّة والندوة اولاً مكانين مخصَّصين للالعاب الرياضية ولكنهما اكتسبا — بما كان يُلقى فيهما بعد ذلك من المحاضرات التعليمية — المعنى الذي لهما في الغرب . واقدم سباق أنشيءَ في اولمبيا ، كان

سباق مشي البرد الذي دعاهُ اليونانيون «بالستاديون» اي ست مئة قدم · وكانت الالعاب الرئيسية التي يمارسونها هناك، الملاكمة والمصارعة والحُضْر (الركض) والقفز والوثب ورمي الحراب وقرص الحديد · ثم زادوا على هذه الالعاب العاباً أُخرى اخصها سباق المركبات وسباق الخيل · وقام بعد ذلك بجيل من الزمان ، بعض الفلاسفة وانتقدوا اليونانيين انتقاداً عنيفاً لانهم خصصوا كثيراً من وقتهم واجتهادهم بالالعاب الرياضية

٥٥

التهذيب العالي والعلوم والتربية المكتسبة من خدمة الحكومة

(٥٣٨) قيام السفسطيين

وقام بين اليونان جماعة من اهل الرزانة وجهوا افكارهم الى الامور العليا فكان الشاب اليوناني اذا ما أتمَّ تعلُّم الموسيقي والقراءة والكتابة في مدارس البلاد القديمة (ف ٥٣٣) وكان على جانب من الذكاء ، يُعنِت اباهُ بالالحاف عليهِ بان يقدم لهُ المال اللازم ليتمكن من شهود محاضرات المعلمين الجدد والاصغاء الى تعاليمهم الجديدة لان ما تلقَّاهُ من العلم في المدارس القديمة لم يكن كافياً · وكان هولاء المعلمون الجدد امهر ممَّن تقدمهم · يطوفون في البلاد متنقلين من مكان الى آخر لنشر تعاليمهم

هذه هي اوَّل مرَّة انفتح فيها باب التهذيب العالي للشبان الذين لم يكونوا — حتى الآن — يحفلون بشيء سوى نيل قصب السبق في الالعاب الاولمبية او الظهور بهيئة تجذب الابصار حين عَرْض الفرسان في اثينا · ظهر هولاء المعلمون الجدد وشرعوا يعلمون الاحداث البيان والخطابة فنجحوا نجاحاً عظيماً · وما كان اعظم سرور الاب الذي لم تكن لهُ موهبة الخطابة، حين كان يرى أنَّ ابنهُ قد صار من الخطباء الذين تهتز لذكرهم المنابر وتسحر بلاغتهم الالباب · ولم يقتصر هولاء المعلمون على تعليم البيان فقط بل مرَّنوا تلاميذهم على كتابة النثر فنبغ منهم فريق كان اول من كتب نثراً بليغاً في اللغة اليونانية ووضعوا للغة قواعد تتمشَّى عليها وعلموا الرياضيات والفلك ومبادىء الطبيعيات اوَّل مرَّة · فالحقائق التي ابتدأ فلاسفة اليونان يكتشفونها من عهد طاليس (ف ٤٨٢–٤٨٣) اخذت بعد قرن ونصف قرن من الزمان ، تنتشر بين عامة الشعب

(٥٤٠) الانقلاب العقلي . المزج بين الاحداث والشيوخ

ولم يستطع الآباء ان يجاروا اولادهم في مضمار هذه الافكار الجديدة . فكان الاب، اذا رأى في يد ابنهِ كتاباً من تأليف احد السفسطيين مبدوءًا بعبارة يُشتمُّ منها رائحة الشك او التشكيك بوجود الآلهة، عدَّ تعليم ذلك الكتاب الجديد كفرًا . وجل ما كان في وسعهِ ان يفعلهُ انتقاماً من اولئك المعلمين المعطلين، هو ان يستدعي نفيهم واحراق مؤلفاتهم، وان كان يعلم بانها تتلى جهارًا في منازل اعظم رجال اثينا . فالثورة الفكرية التي كانت قد حصلت في عقل طاليس (ف ٤٨٥) كانت الآن ناشبة في عقول عدد غفير من اليونانيين الذين كانوا يزدادون عددًا على كرور الايام . وكان الموقف، في راي الطراز العتيق من الناس، يزداد حرجاً والحال سوءًا حيناً بعد حين

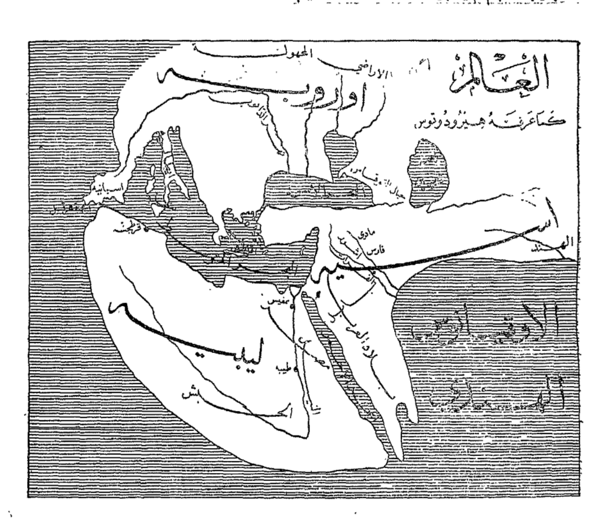
(٥٤١) حاجة القوم الى معرفة عمومية في العلوم كما يظهر من قياسهم للوقت

ومع انتشار المعارف الذي نجم عن تعليم السفسطيين بقيت معرفة الاثينيين العمومية بالعلوم ضئيلة محدودة اورثتهم تعباً عظيماً في قياسهم الوقت . فكانوا يسمون الوقت الذي قبل الظهر «وقت حمو السوق» اذ لم تكن المزولة المصرية قد ارشدتهم بعد الى ذكر الساعة بعددها كما كان يفعل المصريون قبل الف سنة . وكان اليونانيون لا يزالون يستعملون الشهور القمرية يزجون بينها شهرًا في كل ثالث وخامس وثامن سنة (١٥٦) . ولا مراء في انهم كانوا قد رأوا مرارًا كثيرة في المكان الذي كان يلتئم فيهِ المجلس (ف ١٨٥) بلاطة غريبة الشكل عليها تقويم (رزنامة) اقامها هناك المهندس ميتون . فهذا كان قد احصى طول السنة ولم يقع خطأ في حسابهِ سوى نصف ساعة لا غير . وقد اعتمد في تقويمهِ على الشهور القمرية ونسقهُ على اسلوب بديع بحيث يقع آخر يوم من الشهر القمري الاخير في كل سنة تاسعة عشرة، اليوم الاخير من السنة الشمسية . الا ان هذا الاسلوب في قياس الوقت كان فوق مدارك العامة . والاراخنة انغضوا عليهِ الراس ولم يكترثوا لهُ على الاطلاق وعولوا على التقويم القمري القديم المتعب وغير المضبوط الذي بموجبهِ كانوا يجعلون من كل ثماني سنين ثلاثاً كل واحدة منها مؤلفة من ثلاثة عشر شهرًا . وظنوا هذا التقويم خيرًا من سواهُ

(٥٤٢) تقدم الفلك والجغرافية

وثابر بعض علمائهم على القيام باكتشافات مهمة فارتأى احدهم وجاهر بما ارتآهُ ان الشمس كتلة متقدة اكبر من البلبونيسس وان القمر يستمد نورهُ منها وان فيهِ جبالاً واودية كالارض وانهُ مأهول بالمخلوقات الحية . وكان السفر في ذلك الزمان شاقاً لانهُ لم يكن عند اهل ذلك الزمان البعيد سفن للركوب ولا وسائل للنقل برًا الا عجلات ساذجة وبلا هندام . وكانت الطرق وعثة عسرة المسلك فاضطرَّ المسافر ان يقطعها ماشياً او راكباً على متن ركوبة . ومع وجود هذه الصعوبات شرع الموسرون منهم يكثرون الآن

من الاسفار قصد الاستعلام والاكتشاف · واما الاسفار التي غايتها ترويح النفس والتنزُّه فلم يشرع فيها الاَّ بعد هذا الزمان بمئة وخمسين سنة · فسافر هيرودوتس سفرات طويلة في بلاد مصر وبلدان أخرى في الشرق وآب وملء راسهِ حقائق تاريخية وعلمية عن الاراضي التي زارها · وظهر من خريطة رسمها بيده ان البحر الاحمر متصل بالاقيانوس الهندي · وهذه حقيقة لم يعلمها سلفهُ هقاتايوس ولكن ظلَّ العلماء في حيرة من جهة زمهرير الشمال وحرّ الجنوب لانهم لم يفقهوا علّة هذا الفرق العجيب



خريطة ١٨

العالم كما عرفهُ هيرودوتس

(٥٤٣) تقدم علم الطب

ومع عدم وجود مكرسكوب وكيمياء نجد الطب قد خطا خطوات مهمة الى الامام. فاوَّل كل شيء انكر اطباء اليونان الاعتقاد القديم ان علّة الامراض هي الارواح الشريرة ، وبذلوا جهدهم في البحث عن عللها الطبيعية · ولكي يتمكنوا من ذلك اكبُّوا على

درس اعضاء الجسم وتفهمها جيداً· وكانوا قد اكتشفوا قبلاً ان الدماغ آلة الفكر · واما الجهازان الوريدي والعصبي والدورة الدموية فكانت لا تزال مجهولةعندهم·ومعلوم انهُ بدون معرفة الدورة الدموية يتعذَّر اجراء عملية البتر · واذا استثنينا هذه العملية ، قلنا ان الجراحة كانت متقدمة في هذا العصر · وكان اعظم اطباء ذلك الزمان ابقراط واضع اساس الطب على القواعد العلمية الراهنة · وقد استطارت شهرة الطب اليوناني في الافاق حتى ان ملك الفرس استقدم اليهِ طبيباً يونانياً

(٥٤٤) التقدم في كتابة التاريخ · هيرودوتس

وعند ختام حياة بريكليس ، وفي إبان الكوارث والارزاء الوطنية ، قام المؤرخ هيرودوتس ونشر كتابهُ — تاريخ العالم — الذي قضى سنين عديدة في تأليفهِ وقد توخى فيهِ ان يجعل اثينا المجيدة بارزة من خلال سطوره وان يبيّن لابناء وطنهِ طرًّا انهم مدينون لاثينا بخلاصهم من براثن الفرس · فكان لكلامهِ وقع حسن وتأثير شديد في صدور اليونان ولا سيما الاثينيين حتى انهم مع فراغ خزانتهم من المال من جرَّاء تواتر الحروب عليهم ، نفحوهُ بعشر وزنات اي بما يساوي اثني عشر الف ريال اميركاني

(٥٤٥) التهذيب والحرية المكتسبان من خدمة حكومة البلاد

وكان تدخُّل الشبان في الشؤون العامة يكسبهم — علاوة على ما كانوا يكسبونهُ من العلم على ايدي السفسطيين — خبرةً واسعة تجعلهم رجالاً يفتخر بهم وطنهم · ففي « مجمع الخمس مئة » تعلَّموا كيف يقومون باعباء اشغال الحكومة اذ كان — في بعض الايام — ستة الاف منهم يمارسون القضاء كاعضاء محاكم (ف ٥١٦) · فهذه الخدمة وحدها جعلت مندوحة لخُمس شبان البلاد ان يقوموا باعمال ارهفت عقولهم وخرَّجتهم في المسائل الشرعية وادارة الاعمال فضلاً عن انها كانت ذريعة لتذكيرهم دائماً بواجباتهم نحو حكومتهم وامتهم

(٥٤٦) تبرعات الوطنيين

وكان ما ذُكر من الخدم التي قاموا بها للحكومة والامة ، دافعاً لبعضهم لان يجود على حكومتهِ بالمال الجزيل تبرعاً · وكثيرًا ما كان يقوم بعضهم بتجهيز سفينة حربية وتقديم سائر ما يلزمها من تلقاء نفسهِ غير مكرهٍ على ذلك ولكن كان بعضهم يُكرهُ عليهِ اكراهاً · وكان بعض المثرين منهم يأدِبون ، في الاعياد الوطنية ، المآدب الفاخرة لجميع افراد « القبيلة » كما كان غيرهم يقوم باعداد الاجواق الموسيقية للمراسح والانفاق على تعليمها وشراء الثياب اللازمة للتمثيل · روي ان احد اولئك الوطنيين أنفق في تسع سنين على الولائم والمآدب والاجواق ما لا يقل عن اربعة عشر الف ريال اميركي وهذه القيمة كانت تعدُّ في تلك الايام كبيرةً جدًّا

(٥٤٧) مآدب الحكومة

وكان للمآدب النفيسة التي كانت تادبها الحكومة تأثير كبير في حياة الشعب الاثيني . ففي كل ربيع عند حلول عيد ديونيسوس كان اعظم كتبة الروايات التمثيلية يقدم كل منهم ثلاث مآسٍ ومهزلة لتمثَّل في المرسح وكانت الحكومة تؤدي الجائزة للفائز . وكان الاثينيون يُقبلون على شهود تمثيلها ايَّما اقبال . وكان عندهم عدد كبير من الاعياد التي كانت تحتفل الحكومة بتذكارها بالغناء والطرب فكان سدس او سبع ايام السنة اعيادًا . اما عيد الحكومة العظيم المسمَّى بناثينيا فكان يقع مرَّة كل اربع سنين . وكان يسير فيه موكب فخم الى الاكروبولس حيث كان يهدى للالاهة حُلَّة فاخرة وتقدَّم الضحايا وتقام الاحتفالات الدينية المؤثرة . وكانت تقام ايضاً مُباراة في الموسيقى والالعاب الرياضية والرقص الحربي وسباق الزوارق في خليج سلاميس تسلية للجماهير العظيمة التي كانت تحتشد في اثينا لشهود الاحتفالات بهذا العيد العظيم

٤٧

الفنون والآداب

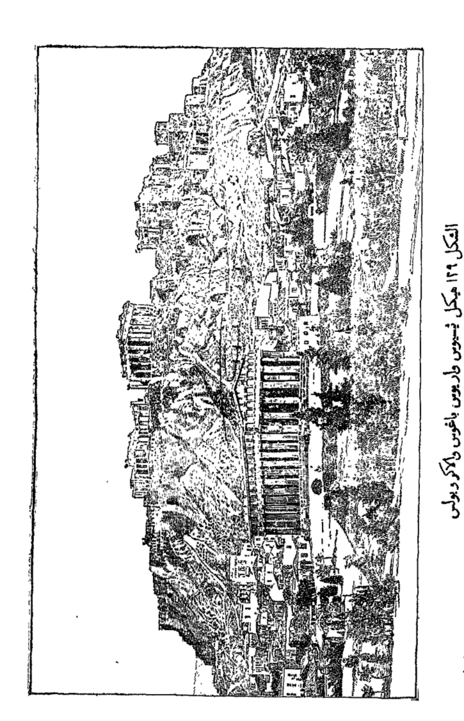
(٥٤٨) الفنون والآداب في العاصمة اثينا

ورأى الناس ، تحت تأثير عوامل كالمذكورة آنفاً ، عظمة الحكومة وابَّهة الملك بصورة لم يحلم بها العالم قبل هذا العصر . فكانت نتيجة ذلك تنبه خيال الشاعر والمصوّر وافكار النحّات والمهندس البنّاء واحقر الصناع وصغار الباعة . وما ذاك الاَّ لان كل طبقات الشعب صارت الآن تشترك في جميع شؤون الهيئة الاجتماعية على اختلاف ضروبها . ولم يقتصر تأثير النظر الى الحكومة بعين الاجلال والاحترام على النتيجة المذكورة فقط ، بل تناول الموسيقى والتمثيل والفنون والهندسة ولا يخفى ما لِما تنتجهُ هذه الاشياء من التأثير الكبير في حياة افراد الامة

(١)

(٥٤٩) التصوير

وكان الوطني الاثيني حيثما اتجهت خطاهُ في اثينا الجديدة التي اوجدها بريكليس تقع عيناهُ على آثار نفيسة انيقة الصنعة فاذا جال في السوق رأى كثيرًا من الاروقة ذات الاعمدة وفي جملتها الرواق المصوَّر الذي اهدتهُ أُسرة كيمون الى المدينة . وسُمِّي بالرواق المصوَّر لان الجدار الذي وراء الاعمدة كان مزداناً بتصاوير جميلة رسمتها ريشة بُولِغنُوتُس احد ارباب الفن الذي نبغ في الجزر التابعة لاثينا . وقد مثَّل بتلك التصاوير الفوز المجيد الباهر الذي



الشكل ١٢٩ هيكل ثيسيوس واريوس باغوس والاكروبولس

اننا في هذا المشهد واقفون داخل سور ثيمستكليس بالقرب من باب ديبلون في حي الخزّافين . نرى في مقدم الرسم ثيسيوس موحِد اثينا ـ على ما جاء في الاساطير اليونانية ـ الذي احترمهُ اليونان كأحد الآلهة وشيدوا هذا الهيكل على ما نظن اكرامًا لهُ . حجارتهُ من الرخام وبناؤُهُ تمّ بعد وفاة بريكليس بسنين قليلة . ولكنهُ لا يزال ، بعد مرور الفين وثلاثمئة سنة او اكثر على بنائهِ ، على رونقهِ وجمالهِ اكثر من سائر المباني اليونانية القديمة . وفوق البيوت وعلى اقصى يُعد من جهة اليمين ، ترى زاوية من الاكمة المعروفة باريوس باغوس التي كثيرًا ما تسمى بتل المريخ حيث القى بولس الرسول عظتهُ على مسامع جماعة من اهل اثينا (انظر سفر الاعمال ص١٧). والبنايات التي تشاهد على الاكروبولس هي اخربة المباني التي شيدت بعد تدمير الفرس لهذا المكان (ف ٥٠٢) ويظهر في البرثينون (٥٥١) القائم وسط التل ، الثغرة التي حصلت من انفجار مخزن البارود التركي بفعل قنبلة من قنابل البنادقة (الفينيسيين) سنة ١٦٨٧ وأطارت القسم الاوسط من البناية كلهُ . وكان سوق اثينا يشغل الفسحة الواقعة بين هيكل ثيسيوس واريوس باغوس وبين الاكروبولس

حازتهُ جنود اثينا في معركة مرثون والتضحية العظمى التي قام بها الاباء الابطال . ويرى الناظر الى هذا المشهد البديع صورة فلول الفرس المنهزمين يدوس لاحقهم سابقهم ، وصورة ثيمستكليس وملتيادس وكاليماخوس الذين جُندلوا في ساحة الوغى ، وصورة الشاعر اسخلوس ناظم المآسي المشهورة

٥٥٠) مباني الحكومة

وكان وراء ذلك الرواق المصوَّر تلّ قليل الارتفاع يعرف بتل السوق تحدق به مباني الحكومة البسيطة المبنية بالطوب او بحجارة بسيطة (دبش) كبيوت الاهلين · ومع ان الميل الى تعظيم الحكومة كان يتزايد في الشعب فقد كانت فكرة تشييد المباني الفخمة لم تتصوَّر بعد في عقولهم ولا في عقول سكان بلدان البحر المتوسط · ولم تكن مبانٍ كهذه قد عرفت في اوربا حتى الآن · وكانت الهياكل تقوم مقام المباني العمومية العظيمة في جميع بلاد اليونان · فلم يكن للحكومة مبانٍ خصوصية تقيم بها دوائرها المختلفة

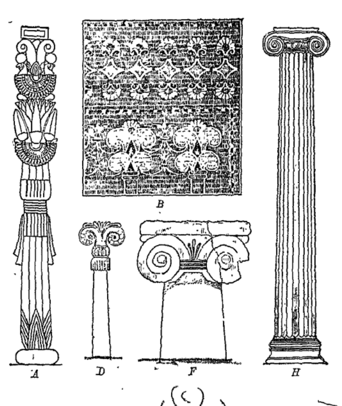
٥٥١) مباني بريكليس الجديدة على الاكروبولس · البارثينون

وكان الوطني اذا حوَّل طرفهُ عن الرواق المصوَّر يرى فوقهُ تل الاكروبولس سامقاً الى العلاء · وقد كانت قمتهُ مسكن الالاهــة اثينا التي كانت على الدوام باسطة ذراع الحماية فوق سميَّتها المدينة المحبوبة · وكان هذا التل مذ اعمل الفرس في مبانيهِ النار، لا يزال مُغشَّى بالدخان ومبانيهِ خَربة مع ان منازل المدينة اسفلهُ كانت قد رُممت · فنهض بريكليس بهمتهِ الشماء لترميم المزارات القديمة الخربة على نمط يجعلها افخم واجمل مما كانت قبلاً وطراز لم يُعرف مثلهُ في العالم اليوناني قاطبة · فتمَّ لهُ مــا اراد دون ان تثبط همتهُ جسامــة النفقات وشدَّة المقاومات من لدن اعضاء المجلس القديم الذين هالتهم ضخامــة النفقات · وجاءت المباني الجديدة آية في الرونق والبهاء · فكان الوطني اذا التفت الى شمعات الرخام الصقيلة البرَّاقة يشعر بان هذا الجمال الذي يتوّج هامــة الاكروبولس هو نتيجة اجتهاد شعب اثينا الذي كان لكل فرد من افراده يد في ايجاد تلك المباني الفخمة الفائقة برونقها وجمالها الفتَّان فهنا يرى امامهُ اروقة مدخل الاكروبولس ذات العمد الرخامية الفخمة النفيسة ويلاحظ ان البنّاء قد شرع يستعمل طرازاً جديداً من الاعمدة يُعرف بالايوني (ش ١٤٠) وهو اكــثر زخرفة من الطراز الدُّوري الفخم واخف منهُ وزناً · وكان صوت آلات البناء العديدة الآتي من التل من مسافة بعيدة يدل على ان هنالك قطّاعــين يقطعون الحجار ونحاتــين ينحتونها ويعدونها لاكمال البرثينون الهيكل الفاخر المكرَّس للالاهة اثينا الذي لم يكن قد أُكمل بعد (شكل ١٤١) · وكثيراً ما كان الناس يشاهدون بريكليس هناك يشارف اعمال البناء بجد واهتمام وفيدياس النحات الشهير واكتينوس المهندس المعماري يتمشيان صاعدين نازلين ضمن المكان يوضحان لهُ تقدم العمل · وفي هذه المباني اليونانية المدهشة كان يعمل البناء والنحات معاً آخذاً احدهما بيد الآخر

٥٥٢) فيدياس واعمال النقش والنحت في البرثينون

ان فيدياس يُعد اعظم نحاتي اثينا · وقد نقش هو وتلاميذهُ على زنّار من حجر الرخام يحيط بجوانب البرثينون الاربعة، صور ارباب المناصب العليــا في المدينة وهم سائرون في موكب فخم نهــار عيد الالاهة اثينا (ف ٥٤٧) · وكان تمثال هــذه الالاهة الذي صنعهُ

فيدياس النحّات الماهر من العاج والذهب ، يتألق من داخل الهيكل الجديد . حتى من المدينة ، باسفل التل ، كان يستطيع الاثيني ان يرى صور ابطال الآلهة المزخرفة بالالوان الزاهية التي ملأ بها فيدياس جناحي البناية اللذين كانا عبارة عن مثلثين وفي اصطلاح بنائي اليوم «ترسين» (ش ١٤١) وكان وراء المدخل المُعَمَّد تمثال للالاهة اثينا من صنع فيدياس هائل جدًّا ومرتكز على قاعدة عالية يبلغ ارتفاعهُ معها سبعين قدماً . وكانت الالاهة الحارسة لاثينا تحمل ترساً ورمحاً يُرى سنانهُ متألقاً من مسافة بعيدة في البر حتى من البحر كان البحّارة يرونهُ وهم يدورون حول راس اتيكا الجنوبي عائدين الى بلادهم



الشكل ١٤٠ (العمود الايوني) واسلافهُ في بلاد الشرق

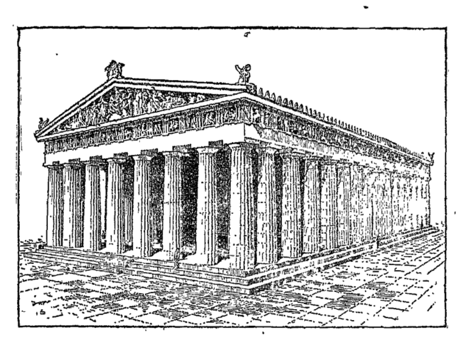
A عمود من خشب كالاعمدة المستعملة في البيوت والمزارات بمصر (القرن الخامس عشر ق.م) لاحظ عند قمّة A الزنبقة واطراف البتلات ملتفة التفافاً حلزونيًّا و B جزء من جدار عليهِ صوَر جميلة من الآجر الملوَّن مأخوذاً من الغرفة التي كان فيها عرش نبوخذنصَّر في بابل . وعلى هذا الجدار نُرى الزنبقة نفسها مصوَّرة مرتين و D راس عمود كان مستعملاً عند اليونان في اوَّل عهدهم بفن البناء في اسية الصغرى وبتلات زهر الزنبق ملتفة الى مدى ابعد ولكنها لا تزال العلاقة بينها وبين A بيّنة وهذه العملية تعظم اكثر واكثر في F وهو تاج عمود في الاكروبولس باثينا ، حتى ننسى ان هناك زنبقة واخيرًا يرينا العمود الايوني H بعد التطوّر الكامل ان الالتفافات التي فيهِ قلما تشبه الزنبقة التي اخذت منها اصلاً . والعمود المذكور مأخوذ من صف اعمدة هيكل النصر في الاكروبولس باثينا

وكان الاثينيون ، مع وجود السفسطيين بينهم ، وثنيين قلباً وقالباً يعبدون آلهة مختلفة ويقدمون لها الاكرام معتقدين انها هي التي رفعت اثينا الى مقامها السامي الذي تتبوّأهُ ويذكرون على الفخر انتصارهم المجيد في سلاميس كما ورد في رواية اسخلوس التي موضوعها «الفرس» وقد خلّد بها هذا الشاعر الكبير ذكرى الخلاص العظيم في الفتح الفارسي ، بصورة

(٥٥٣) الروايات الشعرية التمثيلية ، اسخلوس

من الشعر مثّلت فيها عبقريتهُ يوم سلاميس المخيف وحسرت اللثـام عن مقصد الآلهة من انقاذها «لهلّاس» (بلاد اليونان)

(٥٥٤) المرسح والشعب



١٤١ ترميم البرثينون كما كان في القرن الخامس ق.م
(نقل تيرش وميخايليس)

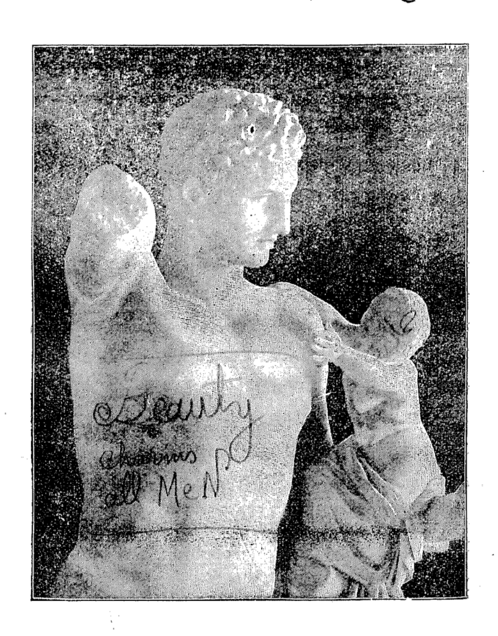
هذا هو هيكل اثينا الفاخر العظيم المشيد على اكروبولس اثينا بهمة بريكليس ومعاضدة المهندس إكتينوس والنحات فيدياس (ف ٥٥١) ويرينا الترميم جمال الاروقة الدورية المعمدة كما كانت حين تركتها ايدي البناة الذين شيدوها. والآن نستطيع أن نلقي نظرة على نفس الاروقة المعمدة بعد انفجار مخزن البارود التركي (ش ١٨٢) وعند كل طرف من اطراف "الترس" (Gable ends) كانت مجموعة مثلثة الشكل من الصور المنحوتة تمثل لعين الناظر ولادة اثينا وعراكها مع بوسيدبون اله البحر للاستيلاء على اتيكا. وافريز فيدياس المدهش (ف ٥٥٢) كان يحيط بالبناية داخل الاعمدة عند القسم الاعلى من الجدار

وكان المرسح عند سفح التل القائم عليهِ الاكروبولس. وكان الاثينيون يتقاطرون اليهِ في الاعياد زَرَافات ووُحداناً لشهود الاحتفالات العظيمة التي كانت تقام فيهِ وكلهم شاعرٌ ان المرسح وما فيهِ مُلك لهُ. وكان الواحد منهم اذا سرّح طرفهُ في ارجاء المرسح رأى كثيرين من جيرانهِ وذوي قرباهُ وابنائهم وشاهد بعضهم في عداد الجوق الذي يقوم بالتمثيل. ومن اعيادهم المشهورة عيد ديونيسيوس (ف ٥٤٧) الذي كان يتألّب فيهِ الناس من كل حدَب وصَوب لشهود التمثيل الغنائي في المرسح والاشتراك في افراح العيد وسماع ما يتخللها من المحاورات التي كانت تقع بين الممثلين الذين كانوا يتنكرون بالوجوه المستعارة (ف ٤٧٥). واما المرسح فكان عارياً من السُتُر المزخرفة التي تزدان بها مراسح هذا العصر

وفيما كان الممثلون مرّة يتلون رواية سوفكليس (ش ١٨٠) اذا برجل من الذين في

(٥٥٥) سوفكليس

المرسح ينحني على المقعد الذي امامهُ ويهمس في اذن جاره قائلًا انهُ منذ سنين كثيرة لما كان فتى غض الاهاب كان واقفاً على ساحل جزيرة سلاميس حيث كانت قد هربت اسرتهُ (ف ٥٠٢) يشاهد مع من شاهد تحطيم مراكب الفرس، كان سوفكليس هذا وهو في السادسة



الشكل ١٤٢ تمثال هرمس يلاعب الولد ديونيسوس
(من صنع بركسيتلس)

اكتشف هذا التمثال البديع في اخربة هيكل هيرا في اولمبيا وهو واحد من التماثيل القليلة الاصلية التي وُجدت في بلاد اليونان من صنع اعاظم الفنانين لان معظم التماثيل الاصلية قد فقدت او تلفت ولا نعرفها الاّ من التماثيل الرومانية المنقولة عنها طبق الاصل . ويرجح ان هذا الاله كان ممسكاً بيده اليمنى (وهي مقطوعة الآن) عنقودًا من العنب كان يلاعب به الولد ويسليه

عشرة من عمره ، واقفاً بين الجماهير ينظر الى ذلك المشهد المخيف ويعي في صدره حوادثهُ المحزنة التي نقشت صورها في اعماق نفسهِ · ومن يطالع روايات سوفكليس يرى في تضاعيف السطور ان كاتبها كان يرى اصبع الآلهة في الشؤون التي يتعرَّض لهـا البشر وينادي على رؤوس الاشهاد ان قضاء زفس الذي لا يردُّ هو كسيف مُصلَت فوق هـام الناس ولكنهُ وهو ينوّه بهذا كان يستفزّهم الى عبادة زفس مهما كان قضاؤهُ قاسياً والمصير الذي يؤديهم اليهِ داجياً مكفهرّاً · ذلك لان سوفكليس كان لا يزال راسخاً في ايمانهِ القديم بالآلهة ولم يكن على شيءٍ من الولاء للسفسطيين الذين كانوا يهزأُون بها · وقد جعل سوفكليس عدد الذين يمثلون رواياتهِ ثلاثة بدل اثنين كما كانت العادة سابقاً لانهُ اعتقد ان ذلك يجعل تمثيلها اوقع في نفوس السامعين · وقد كان لهذا الابتداع وقع حسن حتى اسخلُوس الشيخ اظهر استحسانهُ لهُ قبل وفاتهِ · ولكن متى زادت البدع خرجت عن المألوف ولم تستحب

(٥٥٦) اوريبيدس

وكان شعور العامي بعدم الاستحسان يزيد متى كانت الرواية المراد تمثيلها للشاعر يوريبيدس الذي كان ابن فلاح من سكان جزيرة سلاميس وصديقاً عشيراً للسفسطيين · وكانت الشكوك الدينية تغشّي عقلهُ · وكل من طالع رواياتهِ الجديدة كان يرى بين سطورها شبح تلك الشكوك ماثلاً امام عينيهِ يدفعهُ الى التسآل عن اشياء كثيرة والى الارتياب في امور ألِفها وهو لا يجد مهرباً او وسيلة لاقصاء الشكوك عن دائرة عقلهِ · ولذلك كان سوفكليس اكثر ملاءمة للذين هم من الطراز القديم · ولم يستطع يوريبيدس ان يجاريهُ مع ما كان عليهِ من المقدرة العظيمة في نظم القريض وكان الاثيني يعروه شيءٌ من قلق الفكر اذا تحقق لديهِ ان ابنهُ ومعظم اترابهِ هم من المعجبين بيوريبيدس ومحبيهِ مخافة انهم يطالعون رواياتهِ ويتباحثون مع السفسطيين في امرها

(٥٥٧) الروايات الهزلية

كان اليونان يمثلون قبل الظهر المآسي المهمة واما بعدهُ فكانوا يؤثرون الروايات الهزلية على الجدية · وقد كان من عادتهم ان يجتمعوا في اوقات معلومة للاحتفاء والابتهاج باعيادهم وعلى كرور الايام تولَّد من هذه العادة تمثيل الروايات على دكات المراسح · وكان مؤلفوها لا يحجمون عن ان يُدمجوا فيها اسماء اكبر ارباب المناصب في المملكة حتى بريكليس نفسهُ لم يتحاشوا عن ذكر اسمهِ في مهازلهم ولا راعوا حرمة الفلاسفة الكبار ولا فحول الكتبة الجدّيين كيوريبيدس بل مثّلوهم على دكات المراسح بهيئات مضحكة جعلت المتفرجين يقهقهون ويصفقون ويضجون

وفي غضون الفترة الطويلة بين عيد والذي يليهِ في ايام الربيع ، لم تفتر رغبة الناس في الروايات وانتياب المرسح لان المنافسة كانت تستفزّ ، على الاقل ، الفين من الرجال

(٥٥٨) شغف الناس الدائم بالروايات الشعرية التمثيلية والآداب واعتبارها

والاحداث في اثينا الى استظهار الادوار التي سيمثلونها ،مكتوبة على ورق البردي، وتحدوهم الى التمرُّن على القائها ، كل جوق على حدته . وكان في اثينا شارع مخصَّص برمتهِ لاقامة الآثار التذكارية للوطنيين الذين برَّزوا في تمرين الممثلين لكي يجيدوا تمثيل ادوارهم

الشكل ١٤٢ مرسح اثينا

كان هذا المرسح المركز الذي نشأ فيهِ فن التمثيل اليوناني ونما . وكان التمثيل بادىء بدء جزءا من الاحتفاء بعيد ديونيسوس الذي كان يقع في زمن الربيع . وكان ديونيسوس هذا اله الكروم والخصب . ويُرى هنا هيكل الاله قائماً عن اليسار . وقبل ان يعرف الناس المراسح بزمان طويل ، كانوا يتألبون في هذا المكان من كل صقع لشهود الاحتفال بعيد الاله الربيعي فيحدقون بالجوق من كل جانب ليسمعوا من افواهِ اعضائهِ انشاد قصص الآلهة (ف٤٧٥) وكانوا وهم محدقون بهِ يكوّنون دائرة سموها اوركسترا وجعلوا لها بعد ذلك حدودًا ثابتة بان اقاموا مكانها على الجانب الواحد مقاعد من خشب للمتفرجين على شكل نصف دائرة . واما الغناء والتمثيل فكانا يجريان على مستوى الارض ضمن الدائرة . وعلى الجانب الآخر المقابل للجمهور المتفرج كان خيمة او مظلَّة مختصة بالممثلين تغير شكلها مع الزمان حتى صارت دكَّة المرسح وهي تقطع القسم الخلفيَّ من الدائرة او الاوركسترا . وكانت المقاعد من الحجر تسع تقريباً سبعة عشر الف جالس . وكانت المقاعد الامامية من الرُّخام جميلة جدًّا . والمقعد الذي قدام الكل كان يجلس عليهِ عظماء اثينا . وكانت المقاعد القديمة التي كانت تستعمل في ايام ايسخلس وسوفكليس ويوريبديس لا تزال موجودة (ف ٥٥٣ — ٥٥٧) وكان المتفرّجون يرون البحر وهم جالوس على مقاعدهم ويرون ايضاً منافستهم القديمة جزيرة ايجينا (ف ٥٢٦) حتى جبال ارغولس كانوا يرونها مع انها على بعد ٤٠ ميلاً منهم لان الاوركسترا او محل المقاعد لم يكونا مسقوفين بل مفتوحين فكان السقف الوحيد لها السماء . وفي زمن الرومانيين اضيف الى المرسح رُواق معمد يقطع موَّخر دكة التمثيل

(٥٥٩) الكتب والمطالعة

وكان الوف من الشعب يطالعون الروايات التي تكون قد مثلت ، لان الكتب كانت قد اصبحت في منزلة سامية لدى الشعب الاثيني . فكان في مكاتب اهل الادب موَّلفات هوميروس وسائر مشاهير الشعراء القدماء

وكلها مخطوطةٌ على دروج مستطيلة من ورق البَرْديّ يبلغ طول الواحد منها مئة وخمسين او مئة وستين قدماً · فكان الاثيني المتعلم يجلس امام الدرج ويطالع كما كان يفعل المصري قبلهُ بزمن طويل (ف ١٤٤) وفضلًا عن الكتب التي كانت تحفظ في المكاتب فقد اخذ الكتّاب مذ الآن ينشرون كتباً أُخرى تعليمية في مواضيع شتى · فالنحّات كتب في فنّهِ واكتينوس نشر كتاباً في هندستهِ ورسمهِ للبرثينون وابقراط كتب سلسلة كتب في علم الطب والرياضيون كتبوا في الرياضيات وعلماء الادب في البيان حتى ربّة المنزل استطاعت ان تجد كتاباً في فن الطبخ

(٥٦٠) التباين ما بين اثينا وطيبة المصرية

رأينا في سفرتنا النيلية التي مرَّ ذكرها قبلًا (ف ١٢٠) انهُ قام في عصر الامبراطورية — قبل زمن بريكليس بالف سنة — رهط من الرجال الممتازين بمواهبهم وانشأُوا في مركز طيبة مدينة ملكية ذات مبانٍ فخمة جدًّا · الاَّ انهم مع ما كانوا عليهِ من الامتياز لم يكونوا من ذوي الحقوق الوطنيَّة ولا كان لاهل طيبة اقل تدخُّل في شؤُون الحكومة ولا يد في ايجاد المدينة الانيقة بخلاف ما كانت عليهِ الحال في اثينا في زمن بريكليس اذ قام طائفة من ارباب العقول الناضجة الذين علَّمتهم التجارب وحنَّكتهم الايام فكانوا ركن الحكومة المتين وقِوام الهيئة الاجتماعية ورافعي منار العلوم والآداب وعاضدي فنّ التمثيل والتصوير والنحاتة ومروّجي هندسة البناء · وبالاجمال لم يرَ العالم القديم لا في اليونان ولا في بلاد مشرق الشمس جماعة كهؤُلاء

(٥٦١) اثينا القديمة والحديثة . وحالة الديمقراطية

وكانت اثينا الحديثة تختلف كل الاختلاف عن اية مدينة من مدن الشرق القديم بل عن اثينا القديمة قبل الحروب الفارسية لان روح بريكليس نفخت فيها نسمة حياة جديدة جعلتها خلقاً جديدًا فرأَى شبانها رؤًى وحَلَم شيوخها احلاماً وغدوا ينظرون الى انفسهم بنور حياتهم الجديدة فوجدوا انهم اعظم مما كانوا قبلًا · ولم يقتصروا على النظر في امورهم الخاصة وفي مالهم من الحقوق وما عليهم من الواجبات بل تخطَّوا ذلك الى النظر في مطالب الحكومة وعمّالها وفي تطبيق ذلك على قواعد العدالة بحيث لا يقع شيء من الحيف او الظلم على افراد الامة ، ولا تناقض بين الحق والواجب · وصار الشعب يتداول المسائل العامّة بالغةً ما بلغت · وقد كان تداولها في اثينا القديمة منوطاً بافراد قلائل · وكما تصدّى افراد الشعب لشؤُون الحكم كذلك تصدَّوا للنظر في امر الديانة القديمة فخامرهم من الشكوك ما خامرهم ولكنهم ظلوا على القديم مهما كان يخالجهم من الريب في صحة ما يعتقدون · وصارت اثينا معلّمة اليونان قاطبةً كما رام لها بريكليس نافخ روح الحياة فيها · بقي علينا ان ننظر في

مسئلة جديرة بالاهتمام وهي هل يستطيع هذا الشعب القابض على ازمــة الامر والنهي ان يثابر على تسيير المدينة في مناهج الحكمة والسداد بحيث تتمكن من المحافظـة على قوّتها وسيادتها ؟ اننا فيما نحن نرقب هذا الشعب ينتقي الاكفياء للقبض على زمام الحكم في المدينة والسير بها في السبل المؤدية الى فلاحها اذا بالجانب المظلم من حياته يبدو امام عيوننا

مسائل

٥٤

ماذا تقول في الطبقات الاجتماعية في اتيكا ؟ هل كان في اوربا في عصر بريكليس ، مبانٍ جميلة ؟ صف بيتاً من بيوت الاثينيين في هذا العصر واذكر مرافقهُ ؟ كيف كانت شوارع اثينا ؟ صف زي اللباس اليوناني في هــذا العصر . صف المدرسة العادية ومعلمها . اي فروع كانت تعلّم ؟ ماذا كان يفعل الشاب حين يغادر المــدرسة ؟ ما هي اليمين التي كان يقسم بها قبل ان يمنح الجنسية الوطنية ؟ قل ما تعرفهُ عن الخدمة الجندية التي كان يقوم بها وعن تمرينهِ بالالعــاب الرياضية . ما هي الالعاب الرئيسيــة التي كانوا يمارسونها ؟

٥٥

ايُّ معلمين جدد بدأُوا يظهرون الآن ويعلمون على حسابهم الشخصي؟ ماذا علّموا ؟ هل تعلّم منهم الاحداث شيئاً لم يتعلمهُ آباؤُهم ؟ كيف حسب الآباء تعليم السفسطيين ؟ هل كان الناس ملمّين بالعلم الماماً عاما ؟ كيف كان يُعيَّن الوقت ليوم من الايام ؟ كيف كان يقاس الوقت في يوم معيَّن ؟ وفي اثناء السنة ؟ اية صعوبات وُجدت في ذلــك ؟ اية اكتشافات جدَّت في علم الفلك ؟ وفي الجغرافيا ؟ اي تقدم حصل في علم الطب ؟ وفي كتابة التاريخ ؟ كيف رقّت اشغال الحكومة سكان اثينا الوطنيين ؟ قل ما تعرفهُ عن تنزُّهات اهل اثينا . ماذا تعرف عن اعياد الحكومة الرسمية في اثينا ؟

٥٦

ماذا كان تأثير الشعور الوطني في الموسيقى والتمثيل والفنّ وهندسة البناء ؟ ابحث عن تصوير مرثون في سوق اثينا . هل ترى ادنى علاقة بين الفنّ ومحبة الوطن في عمل كهذا ؟ ماذا كانت بنايات اثينا العمومية الجميلة في هذا الزمان ؟ كيف كان منظر الاكروبولس بعد الحروب الفارسية ؟ ماذا فعل بريكليس بهذا الصدد ؟ ومن ساعده بانجاز العمل فعلًا في الاكروبولس ؟ ايّة بنايات شيّدوا ؟ صِف ما نحتهُ فيدياس . ايّة رواية الّفها اسخلوس عن الحرب مع الفرس ؟ هل ترى علاقة ما بين الآداب والمحبة الوطنية في تأليف كهذا ؟ صف المرسح الذي كانت تمثل فيهِ روايات كهذه في اثينا . هل كان الوطني يؤدي ثمن تذكرة الدخول الى المرسح ؟ صف تمثيل رواية في مرسح كهذا . من كان سوفكليس ؟ ماذا كان رأيهُ في الآلهة والسفسطيين ؟ كم ممثلًا كان عندهُ ؟ ماذا ظن يوريبيدس في الآلهة ؟ لمن من هذين اسنى الاثينيون معظم الجوائز ؟ هل كان يسمح وطنيٌ من الطراز القديم لولدهِ ان يطالع روايات يوريبيدس وماذا ظن فيها ؟ كيف اشترك الاثينيون في التمثيل والموسيقى ؟ كيف كان شكل الكتب في هذه الايام ؟ ايّة كتب كان يقدر ابن اثينا ان يجدها في مخزن الكتب ؟ عارض بين اثينا وطيبة المصرية . في اية اشياء كانت اثينا في عهد بريكليس تختلف عن اثينا صولون ؟

الفصل السادس عشر

النزاع بين اثينا وسبارطة وسقوط الامبراطورية الاثينية

٥٧

الحرب البلبونيسية الثانية

(٥٦٣) الحكومات السابعة للامبراطورية الاثينية وظلم اثينا لها

بلغت اثينا بهمّة بريكليس وارشاده منزلة سامية من العزّة والسؤدد حتى اصبحت مركزًا خطيرًا للتهذيب والثقافة ولكنها اصبحت عمّا قليل وموقفها السياسي حرجٌ جدًّا • لان الجزُر التي اتحدت معها حين داهمها الخطر الفارسي ارادت الانفصال عنها بعد زواله فأبت اثينا ذلك عليها وانفذت اسطولها الحربيّ واخضعت الجزُر الثائرة عليها وارغمتها على دفع الجزية نقودًا بدلاً من السفن التي كانت تقدمها قبلًا • وكثيرًا ما كانت تضطرها الحال الى طرد السكان وغصب عقاراتهم وتوزيعها على رعاياها الذين لم يكن يُسمح لهم ان يتجنسوا بالجنسية الاثينية لانهم لم يكونوا من اتيكا • ولكن هذه السياسة الخرقاء جعلت سكان المملكة اجانب وحرمتها عددًا كبيرًا من ابناء البلاد الامناء الذين كان بامكانها ان تكسبهم من المدن التابعة لها• وكانت في الوقت نفسهِ تكرههم على المثول امام قضاتها الوطنيين لفصل منازعاتهم بالطريقة الشرعية• فكانت سلطتها عليهم قاهرة وحكمتهم كما شاءت اهواؤها واغراضها• اما هم فرأوا ان الداخلين في الاتحاد السبارطي كانوا احسن منهم حالاً وانعم بالاً • فبعث غير واحد منهم برسائل سرية الى سبارطة مآلها الرغبة في التملص من سلطة اثينا والانضمام الى سبارطة

وفيما كانت الاحوال في داخلية الامبراطورية الاثينية جارية على هذا النمط كانت احوال

(٥٦٣) بغض خصوم اثينا لها

خارجيتها تزيد شؤماً وخطراً بسبب حسد حسّادها لها على عظمتها الظاهرة وتقدمها التجاري وازدياد قوّتها . أضف الى ذلك موقفها العدائي تجاه خصومها ، وجنوحها الى الديمقراطية . جميع هذه الاسباب اوقدت نار الغيرة والحسد في قلب مناظرتها سبارطة التي كانت دولة حربية متقهقرة مبدأها ابقاء القديم على قدمه . ولذلك بقي سكانها اميين وظلوا يستعملون النقود الحديدية . ولبثت مدينتهم بلا اسوار ولا تحصين . ولم تنحصر العداوة لاثينا في السبارطيين وحدهم بل عمت سائر اليونان . فتجار كورنثوس وجدوا مزاحمة اثينا سبب اغتياظ دائم لهم . ولما شبت نار الثورة في البلدان الموالية لاثينا في شمال ايجه ، زادت اضطراماً بالمساعدة التي اذّتها كورنثوس وسبارطة الى الثوار ولم تمنع هدنة الثلاثين سنة من نشوب الحرب مرّةً ثانيةً مع انهُ لم يكن قد مرّ اكثر من نصف مدّة الهدنة (ف ٥٢٨)

(٥٦٤) بداية الحرب البلبونيسية الثانية (٤٣١ ق.م) ورأي بريكليس في الحملة

وظهر الآن ان يونان اوربا كلهم قد قاموا قومة واحدة واتحدوا على اثينا لان سبارطة كانت متسلطة على البلبونيسس كله ما خلا ارغوس . وكان سكان شمال اتيكا وبيوتيا وثيبة وما جاورها في الجهة الغربية جميعهم معادين لاثينا . فكان جلّ اعتماد اثينا في هذه الحرب على المدن الايجية التي تالفت منها مملكتها وعلى بعض الحلفاء البعيدين ممن لا يعتدّ بقوّتهم . وابتدأت بالقتال وخزانتها مفعمة بالاموال ولديها اسطول حربي جعلها سيدة البحر لا ينازعها في ذلك منازع ولكنها كانت عاجزة عن مصادمة قوات العدو البرية البالغة ثلاثين الفاً من الاشداء الذين كانت خطتهم الحربية ان يتلاقوا معاً عند البرزخ في ربيع سنة ٤٣١ ق.م . ولذلك كانت خطة بريكليس في هذه الحرب انفاق ما كان لدى اثينا من المال في سبيل مشاريع بحرية تاركاً الدفاع عن اتيكا برّاً للاقدار . ولما اكتسحت جيوش البلبونيسس اراضي اتيكا ، امر بريكليس سكانها ان يغادروها الى اثينا ويحتموا ضمن اسوارها واسوار مينائها ففعلوا . وكانوا وراء تلك الاسوار المنيعة في حرز حريز . وكل ما استطاعت اثينا ان تفعلهُ لكي تنتقم من سبارطة بسبب ما ارتكبهُ جيشها من العسف في اجتياحهِ اراضي اتيكا هو تنظيم غارات بحرية لتخريب سواحل البلبونيسس او لمحاصرة التجارة الكورنثية والقضاء عليها كما كانوا يفعلون

(٥٦٥) الطاعون في اثينا

وزحف جيش الطاعون ، قادماً من الشرق ، على الجموع المتألبة ضمن اسوار اثينا وفتك بهم فتكاً ذريعاً وظلّ مدة طويلة يهجع ثم يُعيد الكرّة مرّةً بعد مرّة حتى جرف ثلثهم فيما يرجح . وبعد وقوع هذه الكارثة الشديدة على اثينا لم تعد اليها القوة التي فقدتها . ولما رأى الاثينيون ان الضرورة تدعوهم ان يكونوا دائماً تحت السلاح دون ان تسنح لهم فرصة يتمكنون فيها من ضرب عدوهم ولو مرّة واحدة تولاّهم الضجر وتطرّق الى قلوبهم اليأس

لانهم كانوا يرون جنود الاعداء يجتاحون بلادهم ويُعملون فيها ايـدي التخريب . ولا لوم عليهم ولا تثريب اذا عراهم اليأس لان النفوس الابية تأنف من الاقامة على الضيم والخسف

(٤٦٦) سقوط بريكليس وموته

وكان نفوذ بريكليس آخذاً في التضاؤل حتى ظهرت قبل نشوب الحرب امارات تدلُّ على ذلك لان بريكليس كان عصريا في افكاره يكثر من معاشرة السفسطيين ومخالطتهم حتى ظهر للملاءِ انهُ يعتقد اعتقادهم فكان لذلك تأثير غير حسن في الشعب عموماً آل اخيرًا الى انتزاع السلطة من يده ومحاكمته بتهمة سوء استعماله لاموال الحكومة ، والى وضع غرامة ثقيلة عليهِ . وبعدما أُقصي عن القيادة والادارة شعر الشعب بالفراغ العظيم الذي تركهُ . ولم يجدوا شخصاً آخر جديرًا بتولي منصب الزعامة مكانهُ مع كثرة الذين تقدموا لتوليهِ من صغار رجال السياسة الذين كانوا يناظرون بعضهم بعضاً وكل منهم يأمل ان يقيَّض لهُ القبض على زمام الحكم والادارة في مجلس الامـة . ولما تبين الشعب عجزهُ وضعفهُ عـاد فدعا بريكليس لتولي القيادة من جديد. ولكنهُ أُصيب بالطاعون بعد انتخابه بايام قلائل (٤٢٩ ق.م) فمات مأسوفاً عليهِ جدًّا مذكورًا بخدماتهِ الجليلة لامتهِ . ومع انهُ كان سياسيا محنكاً واداريا كبيرًا فانـهُ غادر حكومة اثينا تحت نظام لم يُحتَط فيـهِ لاستمرار القيادة كما تولاهـا هو . وبـدون قيادة كهذه ، كان مصير مملكة اثينا الى البوار



الشكل ١٤٤ شاب اثيني يقرأ من دَرْج

يُرى هذا الشاب ممسكا الدرج بطريقة يتمكن بها من ان يلفَّ جزءًا منهُ باليد الواحدة بينما هو يفتح جزءًا آخر منهُ باليد الاخرى و بوقت يسير يصبح في كل من يديهِ ملفٌّ ودَرْج وبين الملفين قطعة مبسوطة بسطاً تامًّا وهي الجزء الذي يقرأ منهُ عمودًا من الكتابة التي يتضمنها . وهي كالكتابة التي نراها مصوَّرة نقلاً عن اقدم كتاب يوناني باقٍ لنا (درج) في شكل ١٧٤ وكل عمود من هذه الكتابة كان عندهُ بمثابة صفحة عندنا . وبعد ان تُقرأ الصفحة كان تلفُّ لفًّا الى الجانب الايسر بدلاً من ان تقلب قلبًا ثم ينشر عمود آخر من الملفّ الذي الى الجانب الايمن

(٥٦٧) الحاجة الى قواد بعد موت بريكليس

مات بريكليس وبرز الى ميدان الصنائع المثرون الاَّ انهم لم يكونوا من ذوي المقام السامي في الهيئة الاجتماعية ولا من اهل الحُنكة السياسية ولا على شيءٍ من الاوصاف التي تتطلبها الزعامة لكي يحصلوا على ثقة الشعب واحترامهِ لهم . وفوق ذلـك كله لم يكونوا

جنوداً مدرَّبين حتى يستطيعوا ان يتولوا قيادة الاسطول او الجيش . الاَّ انهُ يستثني واحد منهم وهو شاب من اهل النجابة يدعى ألكيبيادس وهو من اقرباء بريكليس وقد تربى في بيتهِ . وكان ابنا بريكليس قد ماتا بالطاعون . ولو أُتيح لالكيبيادس بضع سنين يتدرب فيها تحت ارشاد مربيهِ لكان تأهَّب لان يكون منقذ اثينا واليونان . ولكن قدَّر ان يكون على الكيبادس اكبر مسؤُولية في تخريب امبراطورية اثينا وسقوط اليونان

(٥٦٨) قيادة الجلس المثالية

وكانت اثينا في اشدّ حاجة الى سياسي محنَّك خبير يرسم لها الخطط التي يجب ان تسير عليها ولكن لسوء الحظ لم يقيَّض لها رجل كهذا فساءت حالها وصارت امورها الى الفوضى وعمّت فيها سياسة التقلّب والتذبذب بدلاً من سياسة السداد والثبات والحكمة . وكان القوَّاد يسيرون في سياستهم كالغثاء على وجه الماء وفي الغالب من الرديء الى الاردإ . واستحال عليهم ان يستعيدوا القيادة الرشيدة التي فقدوها . ولما كانت مدة الحرب قد طالت كثيراً اضطرَّت الحكومة ان تتحمل نفقات الجيش والاسطول حتى كادت تنضب خزائنها . وكان كليون الدبَّاغ ، احد القواد الجدد الذي اختير من عامة الشعب، ذا عزم شديد ومقدرة مالية فضرب على الرعية ضريبة الدخل (التمتُّع) وزاد الجزية على المدن الايجية . ولكنهُ لم يكن على شيء من الخبرة العسكرية لانهُ كان من طبقة الصناع

(٥٦٩) صلح نيكياس

لم تقع في غضون الحرب كارثة حربية تفتُّ في ساعد اثينا او سبارطة وتوهي قواها . ولكن الضربة العظمى على اثينا جاءتها من الطاعون الذي اضعفها ونهك معها العالم اليوناني باسره وافقدها قواها المعنوية . وقد ابدى المحاربون في هذه الحرب من ضروب التوحش والقساوة البربرية ما لم يُعرف لهُ مثيل من قبل . فلم تأخذهم في العدو رحمة ولم تعطفهم عليهِ عاطفة ، الامر الذي غطّى كل الحسنات اذا كان للحرب حسنات . ولما سقط كليون في ساحة الوغى آل امر القيادة الى نيكياس الذي لم يكن من قبل اهلاً لان يتولى هذا المنصب الخطير . وبعد ان دامت الحرب عشر سنين سجالاً بين الفريقين عُقد صلح مدتهُ خمسون سنة وتعاهد الفريقان المتحاربان على ان يغادر كلٌّ منهما الفتوحات الجديدة ويحتفظ بالقديمة فقط اي المدن التابعة لكل منهما (خريطة ١٥)

٥٨

الحرب البلبونيسية الثالثة وسقوط الامبراطورية الاثينية

(٥٧٠) اضرام الكيبيادس نيران الحرب من جديد

ونشأت بعد عقد الصلح مشاكل خطيرة حالت دون القيام بشروطهِ . لان نيكياس الذي كان دائماً يحضُّ قومهُ على اتباع خطة المسالمة مع سبارطة اخفق سعياً في اثناء الانتخاب فلم يعيَّن قائدًا . ولما راى الكيبيادس ان الجوَّ قد خلا لهُ والفرصة سانحة لاحراز شهرة بعيدة اخذ يثير الحماسة في صدور افراد الحزب النازع الى الحرب في اثينا فانتخبوه للقيادة . وانقاد الى رأيهِ وخططهِ الحربية اعضاء المجلس الكبير فعقد محالفة بين اثينا وارغوس على سبارطة . وجرَّ اتيكا التي كان الطاعون وحرب السنين العشر قد انهكا قواها ، الى خوض غمار حرب فاصلة عاقبتها اما الحياة او الموت

(٥٧١) الحرب البلبونيسية الثالثة. الحملة على صقلية

نشبت هذه الحرب ومضت عليها بضع سنين دون ان يقع فيها شيء سوى بعض تدابير برية وبحرية كانت عقيمة . لان الذين قاموا بها لم يحسنوا ادارتها . اما السبارطيون فلم يسارعوا الى الشروع باعمال عدائية ولا ارسلوا جيشاً لاكتساح اتيكا . واخيرًا نجح الكيبيادس في اغرائهِ الاثينيين بوجوب ارسال حملة مهمَّة برية بحرية الى جزيرة صقلية للانتقام من سرقوسة مستعمرة كورنثوس العاتية التي كانت قد تمادت في ظلمها لبعض المدن الغربية الموالية لاثينا . فاعدَّ الاثينيون الحملة وعقدوا لواءها لالكيبيادس ونيكياس

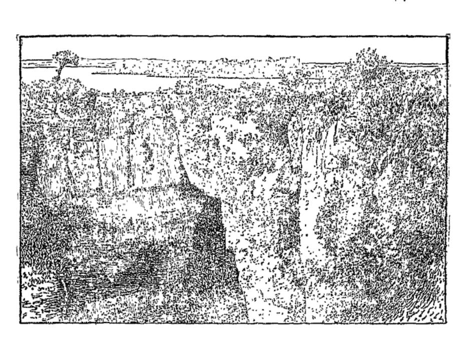
(٥٧٢) القبض على الكيبيادس. وفرارهُ الى سبارطة

وفيما كان الاسطول على أهبة الاقلاع من الميناء وُجد بعض تماثيل الآلهة في اثينا مشوَّهاً ووجهت تهمة تشويهها الى الكيبيادس احد قائدي الحملة . فالحَّ على الذين اتهموهُ بمحاكمته قبل سفره ولكنهم آثروا ، بالرغم من الحاحهِ ، تأجيل المحاكمة الى ما بعد رجوعه . ولما كاد الاسطول يُلقي مراسيهُ في مياه ايطاليا حتى عنَّ للاثينيين المتقلبين ان يأخذوا الكيبيادس على غِرَّة فاستدعوهُ الى المحاكمة . ولكنهم بهذه السياسة الخرقاء لم يحرموا الحملة قائدها القدير فقط بل اوجدوا لهُ سبباً لان ينضمَّ الى اعدائهم السبارطيين دون

ادفي تلكُوء • وكانت ارشاداتهُ في ذلك الوقت للسبارطيين الضربة القاضية على آمال الاثينيين والمحبطة لمساعيهم

(٥٧٣) ضعف نيكياس

ولما رأى السرقوسيون عن بُعد اسطول اثينا ذابت قلوبهم فرَقًا واستولى عليهم الرعب ولكن لم يدر في خَلَد نيكياس ان يفاجئهم بهجوم معجّل قبل ان يزول عنهم ما كان قد تولاّهم من الرعب ، ويستعدوا لمقاومتهِ والدفاع عن مدينتهم • وبعد حِوار وجدال مع رصيفهِ القائد الثاني للحملة اقتنع بلزوم مباشرة حصار المدينة ولكن الفرصة السانحة كانت قد فاتت وعادت الى السرقوسيين شجاعتهم ورباطة جأشهم وتهيأوا للدفاع عن مدينتهم



الشكل ١٤٥ مقالع الحجار التي طرح فيها الاسرى الاثينيون

نرى عبر المقلع والمينا الصغير الجزيرة القديمة ارتيجيا وهي الآن راس ممتد الى البحر قائمة عليهِ المدينة الحديثة التي نستطيع ان نرى منازلها . واما المقالع فيغطيها نبات اللبلاب والاوراق الخضراء . هنا سجن سبعة الاف من أسرى الاثينيين بدون ما يكفيهم من الزاد والماء فمات معظمهم جوعًا وعطشًا

(٥٧٤) حبوط الحصار

وارسل السبارطيون ، عملًا بنصيحة الكيبيادس ، قائدًا قديرًا أمَّروهُ على شرذمة من الجند لمساعدة سرقوسة التي كان لها ملء الثقة بحليفتها الجديدة • ولما رأى نيكياس ان النجاح لم يكن حليفهُ في الحصار استصرخ اثينا طالبًا منها ان تنجدهُ باسطول ثانٍ وقوات برية جديدة • فلبَّت طلبهُ بلا امهال • ولم تكن حكومة يونانية ، حتى هذا الوقت ، قد ألَّبت قوة كهذه وارسلتها فوق متن البحر • وكانت بلاد اليونان باجمعها ترقب تلك القوة والذهول آخذ منها مأخذهُ • وبعد ان وصلت النجدة من اثينا وانضم الاسطول الثاني الى الاوَّل بيَّت الاثينيون اعداءهم ولكنهم فاؤوا بالخيبة وكانت خسائرهم فادحة وغدا موقف

الحملة محفوفاً بالمخاطر

(٥٧٥) اسر اسطول اثينا وجيشها قبالة سرقوسة (٤١٣ ق·م)

ولما رأى الاثينيون ان الكارثة تتهددهم لم يبقَ امامهم الاّ التقهقر ولكن في تلك الليلة خسف القمر · ولما كان نيكياس ممن استولت على عقولهم الخرافات تشاءم من الخسوف واصرَّ على التريّث شهرًا آخر قبل ان يتقهقر · فكانت العاقبة ان سدَّ السرقوسيون عليه منافذ النجاة وحصروا اسطولهُ في الميناء ولما حاول الفرار بهِ لم يفلح · وصمم جيش اثينا اليائس على ان يلجأ الى الداخلية تاركاً المرضى والجرحى حيث كانوا · ولكنهُ قبل ان يتمكن من ذلك ادركهُ العدو واكرههُ على التسليم فسلَّم · وبعد ان اعدم السرقوسيون القوّاد، اخذوا الاسرى – وعددهم سبة آلاف جندي – فباعوا بعضهم عبيدًا وطرحوا البعض الآخر في مقالع الحجار (ش ١٤٥) حيث ماتوا موت الشقاء فبادت الحملة الاثينية على بكرة ابيها (٤١٣ ق·م)·فهذه الكارثة واجتياح الطاعون لاثينا قبلاً، كادا يذهبان بكل ما كان لديها من موارد الثروة والقوّة

(٥٧٦) حامية سبارطة في اتيكا

ولما رأت سبارطة ان اثينا قد امست بعد ارسال الحملة الى صقلية بلا حامية تدفع عنها هجمات اعدائها اغارت على اتيكا واحتلَّت مدينة ديكيلية [1] التي كانت تشاهد من اثينا، وانشأت فيها حصناً منيعاً وضعت فيه حامية قوية فصارت بها اثينا في حالة حصار مستمرّ · فتوقفت اعمالها الزراعية وامست معيشة الاهلين موقوفة على الحبوب التي تستورد من الخارج· فادرك الشعب الآن جهالتهُ بارسالهِ السفن والرجال في حملة حربية الى اصقاع قاصية دون ان يُبقي في الوطن قوَّة كافية لصدّ هجمات عدوّ مُداهم لم يُصَب مثلهم بكارثة تضعف قواهُ · ومما زاد في طين مُصاب الاثينيين بِلّة، العراك الدموي الذي نشب في مدينتهم بين النبلاء والعامة طمعاً بالقبض على زمام السلطة وادارة الحكم في البلاد

(٥٧٧) مساعدة الفرس لاهل البلوبونيسوس ضد اثينا

ولزيادة الشدائد والضيقات على الاثينيين، هبَّ مرزبان الفرس في غرب اسية الصغرى لمعاضدة السبارطيين · وكان قد مرَّ زمن طويل والمفاوضات جارية مع الفرس من قِبل اثينا بشأن طلب مساعدتها الاّ ان سبارطة سبقت واعترفت بسيادة الفرس على المدن اليونانية في اسية فتوجهت المساعدة اليها دون اثينا · وهبت الآن الجزُر اليونانية ومدن اسية الصغرى التي كانت قد انضمّت قبلاً الى اثينا في المحالفة الديلية لكسر نير الفرس · واتحدت مع سبارطة والفرس على اثينا · فنرى ان اتحاد اليونان السابق في العراك الشديد مع العدو

(١) ولهذا السبب كثيرًا ما تدعى الحرب التي نشبت بين اثينا وسبارطة ودامت تسع سنين (من ٤١٣–٤٠٤ ق·م) بالحرب الديكيلية

الاسيوي قد تمزّق كل ممزّق ، وقام اليونان يترضّون بذلّةٍ وجه ذلك العدو ملتمسين مساعدتهُ

(٥٧٨) استرجاع الكيبيادس وسقوطه وموته.

وفي اثناء ذلك قام الاثينيون وطلبوا مساعدة الكيبيادس فلبّى · وبمهارتهِ وحذقهِ تمكنوا بعد مناوشات عديدة من تحطيم اسطول البلبونيسيين واسترجاع سيادة اثينا البحرية. وعاد الكيبيادس الى اثينا محفوفاً بمجالي النصر ومظاهر الفخر وانتخب قائداً · وكان الحال يستدعي وجود رجل حاذق مدرَّب كالكيبيادس يلمُّ شعث الحكومات اليونانية التي كانت قد تولّتها الحيرة ويوحّدها ويؤسس امة يونانية عظيمة · ولكن الكيبيادس كانت تعوزهُ الشجاعة لكي يتقدم في هذه الفرصة السانحة الى الامام ويقبض على ازمة الاحكام · ففاتتهُ الفرصة ، والفرص قد لا تعود · وقد خسر فوق ذلك كلهِ ميل الاثينيين المتقلبين اليهِ ومحبتهم لهُ لمجرَّد انكسار طفيف ألمَّ بالاسطول في غيابهِ · فتلكأوا عن اعادة انتخابهِ للقيادة العامة فاعتزل في قلعة على الدردنيل كانت دائماً على تمام الاهبة لنزولهِ فيها · فاقام فيها بقية حياتهِ ولم يتسنَّ لهُ بعد ذلك ان تكتحل عيناهُ بمرأى ارض ميلاده وموطن آبائهِ واجدادهِ واخيراً مات في منفاهُ بطعنة خنجر فارسي

(٥٧٩) اسر الاسطول الاثيني في ايغسبتمي (نهر المعز)

ولم يكن النجاح الطفيف الذي احرزهُ اسطول اثينا ليذكر في جنب المصاب الكبير الذي حلَّ بهِ لعدم تسنّي قواد ماهرين يتولون قيادتهُ · فكانت الخسارة التي ألمّت بهِ اكبر من كل خسارة وقعت عليهِ من قبل · ولم يكن تلافيها قبل وقوعها في حيز الامكان · كان الاسطول راسياً للمبيت بمكان في الدردنيل قرب نهر ايغسبتمي وعدد سفنه ١٨٠ سفينة فباغتهُ ليساندر القائد السبارطي القدير واسر جميع سفنهِ سالمة

(٥٨٠) تسليم اثينا وسقوط امبراطوريتها

وكانت اثينا بعد مرور سبع وعشرين سنة منذ اثار بريكليس الحرب على سبارطة قد نضبت مواردها وتلاشت قواتها · ولما بلغ نبأ هذه الفاجعة الكبرى مسامع الاثينيين هالهم الخطب واكبروا المصاب فلم تكتحل عيونهم تلك الليلة غمضاً · ولم يلبث هذا النبأ الصادع للقلوب ان تحقق بظهور طليعة اسطول ليساندر في ميناء بيرية لانهُ جعل دخول السفن الواسقة الحنطة من البحر الاسود الى ميناء اثينا مستحيلاً · وظلَّ قواد اثينا الديمقراطيون بضعة اشهر على عنادهم فلم يسلّموا بشروط الصلح التي عرضها عليهم العدو لان عاقبتها تدمير امبراطورية اثينا تدميراً كاملاً · ولكن لما عضهم ناب الجوع اضطرّ المجلس الكبير الى التسليم تحت الشروط الآتية ١ هدم اسوار بيرية وحصونها ٢ وتسليم ما بقي من سفن الاسطول لسبارطة ٣ والتخلي لها عن كل المستعمرات الاجنبية ، ودخول اثينا مكرهة

في العصبة السبارطية . وكان قبول هذه الشروط القاسية الوسيلة الوحيدة لنجاة اثينا من الانقراض التام الذي كانت كورنثوس تريده وتروم وقوعه فالقرن الذي استهل بفوز اثينا فوزًا مجيدًا على الفرس يوم ردّتهم على اعقابهم — هذا القرن الذي بلغت فيه اثينا تحت زعامة وارشاد ثيمستكليس وبريكليس درجة سامية في كل ما هو حسن وشريف في الحياة اليونانية — انتهى بسقوط الامبراطورية الاثينية (٤٠٤ ق.م)

مسائل

٥٧

كيف عاملت اثينا الحكومات التابعة لامبراطوريتها ؟ ماذا كانت سياستها من جهة التابعية الوطنية ؟ كيف كان شعور تلك الولايات من نحو اثينا ؟ كيف شعرت الحكومات الخارجة عن الامبراطورية ؟ ماذا كانت العاقبة ؟ من كان اعداء اثينا في هذه الحرب ؟ ماذا كان لديها من الموارد؟ ماذا كانت خطة بريكليس للحملة المنوية ؟ اية كارثة الّمت باثينا ؟ ماذا كان تأثير ذلك على بخت بريكليس ؟ باية معاشرات اغضب الشعب ؟ ماذا نتج عن ذلك ؟ اي قائد شاب برز الآن الى الميدان ؟ ماذا كان نوع الزعامة التي دبرها المجلس الكبير الآن ؟ قدم مثلًا على ذلك . اي رجل اداري حاول الآن ان يقود الامة ؟ اي فوز حالفهُ ؟ هل كانت الاجراءات الحربية متسعة النطاق ؟ ماذا كانت عاقبة حرب عشر سنين ؟ من عقد الصلح ؟ ومتى ؟

٥٨

من كان مسؤولاً عن استئناف الحرب من جديد ؟ اية حملة وضع الاثينيون خطتها ؟ من كان قوّادها ؟ ماذا منع الكيبيادس عن الذهاب ؟ اروِ حكايةَ هذه الحملة .

وعاقبتها : ماذا فعلت سبارطة الآن ؟ كيف كانت الاحوال الداخلية في امبراطورية اثينا ؟ اي دور مثّلت دولة الفرس في هـذه الحرب ؟ ماذا تستطيع ان تذكر عن اعادة الكيبيادس الى مركزهِ ؟ ماذا كانت العاقبة ؟ كيف كان موقف اثينا بعد خسارة اسطولها ؟ اية شروط عملتها سبارطة ؟ قارن بين استهلال القرن الخـامس وانتهائهِ في تاريخ اثينا .

« الفصل السابع عشر »

المنازعات الاخيرة فيما بين حكومات اليونان وحياتهم العليا بعد موت بريكليس

٥٩

زعامة سبارطة وتأخر الديمقراطية

(٥٨١) حكم سبارطة والنزاع بين حكومة الخاصة والديمقراطية

وكانت عُقبى جهاد اثينا المديد للفوز بالزعامة السياسية ، الخيبة والفشل . ولكن هل برهنت مناظرتها سبارطة يا تُرى على انها اجدر منها بتولي الزعامة ؟ ان بلادًا كسبارطة قصرت همها على ترقية جنديتها فقط لا تصلح ان تتولى زعامة الحكومات المجاورة لها وادارة شؤونها ولا يتوقع على يدها نجاح . فقد اقامت سبارطة في كثير من المدن حاميات من جندها بإمرة ضباطها وعيَّنت في كل مدينة فئة قليلة من الخاصة قلّدتهم زمام الاحكام وعزّزتهم بقوة عسكرية ، وتذرّعت بسياسة العنف والجور في كل مكان نكاية بزعماء الديمقراطية الذين جاهروا بعداوتهم لها . وقد تمادى الخاصة في بعض المدن في جورهم واسرفوا في اذلال خصومهم السياسيين فنفوا بعضهم وفتكوا بالبعض الآخر وابتزّوا الاموال فكانت الخطة التي تمشّت عليها سبارطة تأييدًا لحكمها وتعزيزًا لسلطتها شرًا من كل ما اتته اثينا قبلًا من المظالم التي عُزيت اليها . ولكن لما استعاد الشعب قوتهُ كال لظلامهِ الصاع بالصاع ونفاهم من المدينة . لقد كابدت اثينا الاهوال والشدائد في حروبها الخارجية ولكن المنازعات الداخلية التي نشبت بين طبقتي شعبها كانت اشدَّ هولاً واعظم

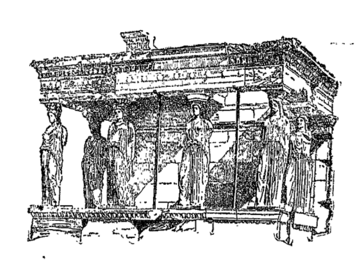
ضوءًا من جميع ما قاستهُ من اهوال الحروب الخارجية

(٥٨٢) اضطراب الحكومة الديمقراطية وضعفها

وكان المفكرون من الشعب في كل مكان، على ما كان عليهِ حكم الخاصّة من التقصير وخيبة الآمال، يحسبون الحكم الشعبي فشلًا بيّناً . وما اتتهُ الوطنية الحقّة من جلائل الاعمال في عهد بريكليس (فصل ١٥) يجب ان لا يعمينا عن مساوىء الديمقراطية الاثينية التي المعنا الى بعضها في تتبعنا مجرى الحروب البلبونيسية. وكانت تلك المساوىء نفسها ظاهرة تمام الظهور في تولي الشعب ادارة الشؤون الداخلية في اثينا . ولنفحص الآن عن بعض القضايا الرئيسية التي كان قد ظهر فيها تقصير الحكم الشعبي وظلّ مقصرًا فيها بعد ذلك

(٥٨٣) استنفاد كنوز الهياكل وافلاس الحكومات اليونانية

كان الاثينيون قد شرعوا منذ امد طويل ينفقون بطريق الاقتراض من الكنوز التي كانت، على تمادي الايام، قد حُشدت في هيكل الالاهة اثينا . وقد نقش الوعد بتأدية المال المقترض على لوح حجر نُصب على الاكروبولس لا تزال قطعهُ الباقية حتى الآن شاهدة على اثينا بالدّين الذي لم يؤدَّ الى الالاهة لانهُ بعد انتهاء العراك المديد بين اثينا وسبارطة، وُجدت الحكومات اليونانية في حالة الافلاس فعلًا . فلم يستطع القواد في البر والبحر تادية رواتب الجنود الذين تحت قيادتهم حتى القوت الضروري لم يكن في وسعهم ان يقدموهُ لهم لكي يستطيعوا ان يثبتوا امام العدو .



الشكل ١٤٦

نرى في هذا الشكل رواق العذارى الجميل الذي بني ليزدان بهِ الهيكل القائم على الاكروبولس والمشهور باسم إركثيوم . كان مقدسًا للالاهة اثينا و يظن ان سبب تسميتهِ بهذا الاسم هو انهُ كان في الاصل مزارًا في قلعة الملك اركثيوم السابق لزمان التاريخ — التي كانت قائمة على الاكروبولس. وكانوا يعتقدون انها بنيت على البقعة التي فيها غلبت اثينا بوسيدون يوم نشب بينها وبينهُ العراك لامتلاك اتيكا . وهنا كانت علامة صولجان اله البحر المثلث الشعب الذي دقهُ في الارض . وهنا نشأت الزيتونة الاولى التي استدعتها اثينا من الارض لتكون هبة للاثينيين (ف ٦٠٣). وقد شيد هذا البناء في اثناء الحرب البلو بونيسية الاخيرة معما كانت عليهِ اثينا من الضيق المالي في ذلك الوقت وهو من اجمل المباني التي خلّفها اليونان

وكانت الحكومة الديمقراطية في الوقت نفسهِ تقتصّ منهم وتعاقبهم جزاء تقصيرهم اذا

قصروا في محاربتهم العدوّ ٠ وكانت المحاكم تتوقف احياناً عن عقد جلساتها القانونية لعدم وجود المال اللازم لدفع مرتبات القضاة فاذا كانت لانسان دعوى كان يضطرّ الى اهمالها لعدم وجود قضاة ينظرون فيها ويحكمون بها

(٥٨٤) بداية النظرية المالية والاقتصاد السياسي

تحت هذه الاحوال شرعت حكومات البحر المتوسط تدرس لاول مرّة طرق جباية الاموال اللازمة لنفقات الحكومة ٠ فكان ذلك بداية علم المالية الوطنية والاقتصاد السياسي الاّ ان الضرائب والاتاوات ظلت تجبى بطريق الالتزام بالمزاد العلني. وكان الالتزام يرسو للزائد الاعلى ٠ فكان الشرق في هذه القضية لا يزال ارقى من الحكومات التي كانت الى شمال البحر المتوسط (ف ٥٣) وصارت ادارة مالية الامة من هذا الوقت فصاعداً تقتضي استعداداً خصوصياً ٠ واصبح امر القيام بوظائف الحكومة المالية اصعب مما كان قبلاً على من لم يكن مستعداً له

(٥٨٥) بدء تأخر الزراعة وظهور كبار الملاكين

ومع ما تجشمته اثينا من الخسائر الفادحة في المال والرجال في اثناء الحروب البلبونيسية ابتدأت في ملء الزمان تستعيد قواها ٠ ولكن مزارع اتيكا التي كانت قد خرّبتها جيوش سبارطة تكراراً لم تستعد خصبها السابق تماماً فحدا ذلك بكثيرين من اصحابها على ان يبيعوها ويتعاطوا الصناعات في المدينة ٠ ولا بدع في ذلك لان الاعمال الصناعية في اثينا جعلت امامهم فرصاً سانحة للاثراء ، وكفى بالثروة جاذباً لاولئك الفلاحين ٠ وفي الوقت نفسه كان الذين جمعوا ثروات من الاشتغال بالصنائع يبتاعون مزرعة اثر مزرعة ٠ وعلى كرور السنين اصبحت اراضي اتيكا اخيراً في حيازة نفر من كبار الملاكين في المدينة لم يكونوا هم انفسهم فلاحين ولكنهم استخدموا عبيداً ليعملوا في عقاراتهم المترامية الاطراف واقاموا وكلاء يشارفون العمل الجاري فيها ٠ وآل امر الفلاحين الملاكين ، الذين كانوا يعملون في مزارعهم بايديهم ويعيشون بعَرَق جبينهم ، الى الاضمحلال من البلاد ٠ وصار امر العقارات الكبيرة في بلاد اليونان مثلما كان في جارتها اسيا الصغرى في عهد الفرس (ف ٢٢٠)

(٥٨٦) تقدم الصنائع ونشوء المصارف المالية

وكانت اثينا لا تزال اهم مركز للتجارة واعظم مدينة في بلدان البحر المتوسط ٠ وفيما كانت الاعمال الزراعية تتقهقر فيها كانت الصناعة تزدهر وتتقدم ٠ وقام ارباب الاموال وتعاضدوا على انشاء اوّل مصرف يوناني ٠ وبذلك اصبحت اثينا المركز المالي للعالم القديم — كنيويورك ولندن في هذا الزمان — وصارت صيارفتها في ذلك الزمان مضرب مثل في الاثراء والرخاء

(٥٨٧) قيام الجند الاختصاصي كنتيجة للحروب البلبونيسية

وامست الخدمة العسكرية ايضاً حرفة تقتضي استعداداً خصوصيا . اما سابقاً فكان اليوناني يترك عمله مهما كان ويذهب ويتقلد السلاح مدة قصيرة يرافق في غضونها حملة حربية واحدة ثم يؤوب الى عمله الا في سبارطة . ولكن الحروب البلبونيسية الطويلة اضطرت كثيرين من اليونان ان يبقوا ردحاً مديداً من الزمان تحت السلاح حتى غدا كثيرون منهم يؤثرون الحياة العسكرية على سواها فاتخذوا الجندية مهنة لهم ينقدون عليها راتباً معلوماً . واصبحوا على اتم استعداد لتأدية الخدمة العسكرية حيث وجدوا الفرصة سانحة . والشبان الذين لم تسنح لهم فرصة للخدمة في بلادهم كانوا يقصدون الى مصر واسيا الصغرى وبلاد فارس للاستخدام هناك . وبذلك صار دم الشبيبة اليونانية المهراق في ساحات القتال ذريعة لتقوية الحكومات الاجنبية وشدّ ازرها بدلاً من ان يكون وسيلة لتعزيز البلاد اليونانية نفسها

(٥٨٨) قيام قواد حرب اختصاصيين . اكزنيفون والعشرة الالاف

وامست القيادة الحربية في غضون الحروب البلبونيسية ايضاً مهنة من المهن المألوفة وقد انجبت اثينا طائفة من القادة الاختصاصيين كان انبغهم اكزنيفون الذي ذهب حوالي سنة ٤٠٠ ق.م الى اسية الصغرى حيث حظي عند كورش الامير الفارسي الشاب الذي كان ينوي خلع اخيه من مملكة فارس فاستخدمهُ وزحف بعشرة آلاف يوناني قطع بهم اسيا الصغرى ولما بلغ الى الفرات اتبع مجرى النهر الى بابل تقريباً . وهنا واقع اليونان عساكر الفرس وكسروهم ولكنّ كورش قتل فاضطرّ اليونان الى التقهقر بقيادة اكزنيفون الذي سار بهم صُعُداً على محاذاة دجلة مارّين بنينوى . وبعد حروب دامت اشهراً بين مضايق الجبال المخطرة قاسوا في غضونها من الزّمهرير والجوع الواناً وصل من بقي منهم احياء الى البحر الاسود ثم الى بيزنطية سالمين . وترك اكزنيفون نبأً موجزاً عن هذه الحملة المدهشة على قلب مملكة فارس سماهُ (Anabasis) اي (الصعود) وهو من الكتب النفيسة التي تحدّرت الينا من العصور السالفة

(٥٨٩) نشوء العلوم الحربية . ادخال آلات الحصار وسفن حربية اكبر

وكان القوّاد — كالمذكورين آنفاً — يبحثون الآن في نظريات الخطط الحربية وادارة الجيوش وعن افضل الآلات الحربية . وقد مرّ معنا قبلاً ان السبارطيين في عصر بريكليس لم يحاولوا ان يهاجموا اسوار اثينا لان اليونان في ذلك الزمان كانوا لا يزالون يجهلون كيفية مهاجمة الحصون ولكنّ فينيقيي قرطاجنّة كانوا قد حملوا الى الغرب اساليب الاشوريين في الحصار (ش ٦٨) فاخذها عنهم اليونان الذين كانوا في الغرب واستعملوها في صقليّة . ومنها اتصل استعمال المنجنيق والابراج المنتقلة واضرابها الى بلاد اليونان نفسها . فلو هوجمت اثينا في ذلك الزمان بعدات حربية كهذه لتعذّرت سلامتها بل لاستحالت . فالغرب الذي تقضّت عليه ازمان وهو يأخذ عن الشرق صناعات السلام شرع الآن يتعلّم استعمال آلات الحرب

والتدمير وبناء السفن الحربية العظيمة البالغة مقاعد مجاذيفها خمسة صفوف بدلاً من السفن القديمة التي كانت مقاعد مجاذيفها ثلاثة صفوف فقط ولذلك غدت غير صالحة للحرب بعد اختراع السفن الجديدة

(٥٩٠) الحرب بين سبارطة وبلاد فارس (٣٩٥ الى ٣٨٧ ق.م) صلح الملك

ان الاعمال الخطيرة التي قام بها العشرة الآلاف بقيادة اكزنيفون حركت مطامع السبارطيين للشروع في اعمال الفتح في الولايات الفارسية باسية الصغرى فاستأجروا الثلاثين اللذين بقيا في قيد الحياة من العشرة الآلاف يونانياً . ولكن اليونان في الوطن كانوا قد سئموا ابهة الحكم السبارطي فثار سخطهم ورفعوا لواء العصيان. فذهبت الثورات الوطنية بثمار الانتصارات التي احرزتها سبارطة في اسية الصغرى وادّت الى عقد تحالف بين اثينا وثيبة لمناوأتها . وكان المحركون لعقد هذا التحالف عمال دولة الفرس الذين قصدوا الفتّ في ساعد سبارطة . ومن المضحكات المبكيات في هذه الاحوال التي كانت كلها مدعاة للاسف، ان اسطول اثينا ناصر الفرس على تأييد استبدادهم بالمدن اليونانية في اسيا . ولكن الفرس طفقوا يخشون استفحال امر اثينا وضيرورتها خطرًا على سيادتهم في اسية . فمهد ذلك السبيل لسبارطة لكي تعقد معهم صلحاً . والحكومات اليونانية التي كانت تحاربها صالحتها ايضاً . وتمّ عقد الصلح في بلاد اليونان على يد ملك الفرس تحت شروط مجحفة بشرف اليونان . ولكنهم رضوا بها صاغرين . ويُعرف هذا الصلح «بصلح الملك» (٣٨٧ ق.م) وكانت نتيجتهُ بقاء زعامة الحكومات اليونانية بيد سبارطة وترك المدن اليونانية التي باسية الصغرى للفرس . وفي ذلك ما فيه من العار والشنار

٦٠

سقوط سبارطة وزعامة ثيبة

(٥٩١) ثيبة وتحالفها الجديد مع اثينا على سبارطة

وكان الناس يكرهون سبارطة كرهاً شديدًا لم يبلغهُ كرههم لاثينا في عصر من العصور . وكان هذا الكره مدعاة الى قيام فئة من محبي الوطن البواسل وفتكهم برجال الحكومة غير هيّابين وكان اولئك الرجال من الخاصة فسلمت الحامية السبارطية وانشئت على اثر ذلك حكومة ديمقراطية قبضت على عنان الزعامة في بيوتيا كلها . وتسنّى لاثينا

وثيبة ان تعقدا تحالفاً آخر على سبارطة كانت عاقبتهُ شؤماً وبلاء عليها في البر والبحر فطلبت بلا تردّد ولا امهال ان تعقد صلحاً معها

(٥٩٢) عقد مؤتمر صلح في سبارطة لجميع حكومات اليونان

والتأم رجال الحكومات اليونانية في سبارطة لعقد الصلح . وكانت نتيجة اجتماعاتهم المتوالية انهم اكتسبوا خبرةً ودرايةً في ادارة شؤون بلادهم وامتهم على اسلوب يعود بالخير على هلّاس كلها . وقد كان في وُسع سبارطة ان تلمّ شعث اليونان وتؤلف منهم امة واحدة لو جعلت لكل حكومة من حكومات البلاد صوتاً في الحكومة الرئيسية ولكنها قصرت في ذلك . وبعد ان تمّ الاتفاق على شروط الصلح ابى السبارطيون ان يسمحوا لثيبة بان تكون ممثلة بيوتيا كلها . وابت ثيبة ان ترضى غير ذلك فتمّ الصلح بدونها وكانت العاقبة بقاء سبارطة وثيبة في حالة حرب

(٥٩٣) منوال حربي جديد ابيمنداس الثيبي

وكانت الامة اليونانية تتوقع ان تكون الحرب وبالاً على ثيبة فتقهرها صفوف سبارطة الرمّاحة التي برهنت في الحروب السابقة على انها لا تقهر ولكن ابيمنداس قائد الثيبيين الجديد المعروف بدهائهِ وتفانيهِ في محبة وطنهِ ، وضع لجيوش ثيبة خطة حربية جديدة بان صفّها على اسلوب لم تكن فيهِ على موازاة جيوش سبارطة اذ جعل الميمنة ابعد عن صفوف السبارطيين من الميسرة وحشد في الميسرة عدداً كبيراً من الجنود بحيث جعلهم كالبناء المرصوص في خمسين صفاً الواحد خلف الآخر وبايديهم المجان والتروس

(٥٩٤) معركة لكترا وسقوط سبارطة

أضيفت هذه المعركة الى المكان الذي نشبت فيهِ جنوب بيوتيا ولما دارت رحاها لم يستحرّ فيها القتال على طول الجبهة دفعة واحدة لان ميسرة الثيبيين المتراصّة كانت ادنى الى السبارطيين من الميمنة فاشتبكت معهم اولاً الميسرة وحدها فحملت على ميمنة العدوّ حملة عنيفة ابلت فيها بلاء حسناً فمزّقت شملها كل ممزّق في مثل لمع القبس او رجع النفس . ولما هجم قلب الجيش الثيبي وميسرتهُ على الاعداء انهزم هولاء امامهم لا يلوون على شيء تاركين على اديم الارض اشلاء قتلاهم البالغ عددهم نصف الجيش المقاتل . وكان الملك في عداد القتلى فدارت الدائرة على سبارطة وجنودها البواسل واضاعت شهرتها الحربية التي سار ذكرها في الخافقين امداً طويلاً . فسقطت من حالق عزّها واوج مجدها بعد ان تولّت الزعامة مدة تربي على ثلاثين سنة (من سنة ٤٠٠ ق . م .) وكان سقوطها عظيماً (٣٧١ ق.م.)

كانت اثينا وسبارطة زعيمتين مشهورتين في بلاد اليونان وكان بينهما من التنافس على الزعامة ما كان مما امرهُ معلوم ومشهور فافنتا قواهما في مناوأة احداهما الاخرى وبالتالي عجزتا

(٥٩٥) زعامة ثيبة وسقوطها العاجل

عن رأب صدوع البلاد وضمّ حكوماتها الى حكومة واحدة كبرى ، وجعل شعبها المتفرق امة واحدة . وكان في البلاد زعيمة ثالثة وهي ثيبة التي كانت قد احرزت فوزًا مبينا في البر . ولكن هل استطاعت يا ترى ان تقوم بالعمل الذي عجزت عنهُ اثينا وسبارطة ؟

ولما تبوَّأ ابيمينداس منصِب الزعامة في ثيبة اقنعها بلزوم بناء عمارة بحرية ففعلت وحاربت بها اثينا بحرًا فغلبتها واضعفتها وفازت بزعامة اليونان . الاَّ ان هذه الزعامة التي نالتها بُنيت على عبقرية رجل فذّ . فلما قضى في ساحة الوغى وهو يواقع السبارطيين في منتينيا (٣٦٢ ق.م) وهنت قواها وتهدَّم صرح عزّها فامسى ركاماً مركوماً

(٥٩٦) مقسوط العالم اليوناني بامرو سياسيا وتقدمه من وجهات أخرى

لا غروَ ان قلبت الايام لليونان ظهر المجن وقذف بهم الدهر من حالق لان دولهم المهمة ذات الحول والسطوة التي كان في وسعها ان تضمّ العالم الهلّيني وتجعلهُ امة واحدة ، افنت قواها في مواقعة بعضها بعضاً فعرَّضت نفسها اخيرًا للوقوع فريسة لفاتح اجنبي . فاليونان بلغوا في تمدنهم الى الاوج ولكنهم في سياستهم ظلُّوا في الحضيض . وما كاد يمضي على وفاة بريكليس جيلان — اذ كان بعض الذين عرفوهُ في صبوتهم لا يزالون احياء — حتى كانوا قد تقهقروا كثيرًا في شؤونهم السياسية ولكنهم تقدموا في اشياء أخرى ولا سيا الاثينيون الذين برَّزوا في الفنون وهندسة البناء والآداب والافكار ما جعل هذه الحقبة اعظم الحقب شأناً في تاريخ البشر . وعليهِ فانهُ يجب علينا الآن ان نوجه افكارنا الآن الى ما اتوه من جلائل الاعمال وبدائع الاشغال

٦١

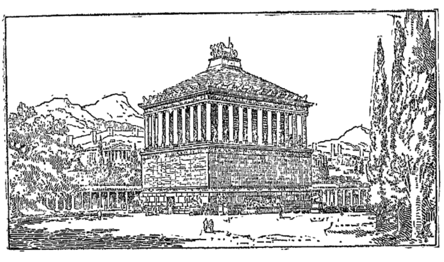
هندسة البناء والحفر والتصوير

(٥٩٧) الموصولوم في اسية الصغرى

وفيما كانت اثينا قد صارت الى حالة من الضنك المالي لا تمكنها من تشييد الهياكل الفخمة ، كان غيرها من الحكومات اليونانية الاخرى التي لم تُمنَ بمثل هذا الضنك قادرة على تشييد المباني الفخمة . ففي اسية الصغرى خصَّصت ارملة ملك كاريا اموالاً طائلة لتشييد ضريح من الرخام الفاخر لزوجها المتوفى فشيّد وكان انفس آثار العالم القديم حتى عُدَّ من عجائب الدنيا السبع . وكما كان هذا الضريح من وجهة هندسة بنائهِ فخماً مهيباً (ش ١٤٧)

كذلك كان لهُ تأثير عميق في نفس رائيهِ نظرًا الى النقوش والزخارف التي كان مزدانًا بها ٠ وقد دعت الملكة للقيام بهذا العمل الجليل اشهر نحاتي اليونان

(٥٩٨) نلش بركستلس وسكوباس



الشكل ١٤٧

نرى في هذا الشكل ضريح موصولس ملك كاريا المعروف "بالموصوليوم" نسبة الى اسم صاحبهِ موصولس ، بالهيئة التي ظهر فيها بعد ترميمهِ بعناية "ادكر" وقد شاعت لفظة موصوليوم في بلاد الغرب حتى أطلقت على كل ضريح فخم وبذلك عاش الاسم الخفي القديم لهذا الملك. ولما بني الموصوليوم (في القرن الرابع ق.م) كان في ذلك الزمان افخر اثر في شمال البحر المتوسط . وبناء على الشهرة البعيدة التي نالها بقي اسمهُ حتى الآن اما بناؤهُ فكان على هذه الصورة : وُضعت اولاً قاعدتهُ المستطيلة المربعة الزوايا ثم بُني عليها رواق معبد بني فوقهُ هرَم مدرَّج. وفوق الهرَم — كتاج لهذا الاثر التذكاري — قامت مركبة فاخرة يجرّها اربعة من جياد الخيل وقد جلس فيها الملك والملكة . وقد قام بهندسة هذا الاثر النفيس وبنيانهِ النحات بيتيوس وزخرفهُ بالنقوش سكوباس وجماعة من النحاتين الاثينيين الذين استقدمتهم الملكة لهذه الغاية (ف ٥٩٧)

وبعد وفاة فيدياس وتلاميذهِ شرع النحاتون الذين خلفوهم يظهرون في شغلهم عواطف واختبارات الحياة البشرية اليومية اكثر مما كان يظهرهُ النحاتون الذين قبلهم وبذلك صارت الاشياء التي توخوا تصويرها في النحت والنقش ادنى الى افهامنا مما كانت قبلًا ٠ وكان من الذين لهم منزلة عالية في النحاتة والنقش بل كانت لهُ المنزلة العليا فيها ، بركستلس ٠ فكانت الآلهة التي نحتها اقرب الينا من التي نحتها فيدياس مهما كانت عليهِ تلك من الجلال والسناء ٠ فمن مجرَّد نظرة واحدة اليها يشعر المرء في اعماق نفسهِ انها بشر مثلنا ولها اهتمام بحياة كحياتنا ٠ فاذا كانت واقفة على هيئتها وقفة من يستريح تمثّل لنا فيها جمال لم تستطع النحاتة اليونانية ان تمثلهُ في الزمن السابق (ش ١٤٢) ٠ اما سكوباس فكان بعكس رصيفهِ بركستلس فلم يكن يميل الى جعل صورهِ المنحوتة تمثل اصحابها في حالة السكون والدعة بل في حال العنف والتهيج الشديد كرجال الحرب في ساحة القتال (ش ١٤٩)

وهكذا لم تعد الوجوه التي نحتها بركستيلس وسكوباس كما كانت النحاتة قديماً جامدة خالية من المعاني (ش ١٣٠ و١٣١) . لان ارباب الفن اخذوا يودعونها شيئاً من حياتهم الروحية الداخلية . وكان المصوّرون قادة النحاتين في هذا السبيل وكان لعملهم تأثير عظيم في عقولهم

(٥٩٩) ظهور الصوّر على الخشب

ان ادخال فن التصوير على الواح الخشب حتى يمكن نقل الصوّر من مكان الى آخر سهّل على المصوّرين اتباع عواطفهم الشخصية اذ حرّرهم من ضرورة تصوير مشاهد عظيمة على جدران مباني الحكومة (ف ٥٤٩) . ولم يكن أناس العالم القديم يعرفون شيئاً عن التصوير بالزيت . ولكن المصوّرين من اليونان اخذوا عن المصريين مزج الالوان التي كانت لديهم بمذوّب من الشمع ثم دهن الالواح الخشبية بهذا المزيج بواسطة فرشة . فبهذه الطريقة صار في وسع المصوّر ان يجلس في مصوّره (Studio) ويشتغل لمجرد ارضاء مخيلته ثم يبيع صورهُ اذا شاء لمن شاء ان يشتريها . وشاعت بين الاغنياء عادة ابتياع الصوَر وتعليقها على جدران المنازل فكان ذلك ترويجاً لفن التصوير خطا خطوات مهمّة في مضمار التقدم والارتقاء

الشكل ١٤٨ راس عمود كورنثي

قُطعت شبعة هذا العمود في الرسم بين القاعدة والراس اقتصاداً في الفسحة وهو مثل رؤوس الاعمدة المصرية (ف ١٦٤) يمثل للعين اوراق نباتة الاكنثوس المعروفة بطابة الشوك التي تترادف فيها الاوراق في صفين حول الراس يتوّجها لفات حلزونية الشكل ترتفع حتى الزوايا الاربع من حجر كبير مسطح يرتكز عليهِ الحجر الذي فوقهُ . ووضع هذا الراس على جسم العمود اكسبهُ بهاء وجمالاً يبهران عين الناظر ويأخذان بمجامع لبهِ

(٦٠٠) اكتشاف كيفية تصوير النور والظل وفن رسم المناظر كما تبدو للعين فعلاً

وكان مصوّر اثيني يسمّى ابلودورس . فهذا اخذ يلاحظ ان النور في الغالب يقع على الجسم من جانب واحد تاركاً الجانب الذي لم يقع عليهِ مظلماً بحيث لا يرى عليهِ الاّ قليل من اللون حال كون الجانب المنير تبدو عليهِ الاوان الزاهية . فلما صوّر بهذه الطريقة ذراع انسان بانت مستديرة وخيّل لرائيها انها بارزة على وجه الصورة (ش ١٥٠) . اما في الرواق المزخرف بالصور الملونة لجميع الاطراف البشرية في صورة مرثون (ف ٥٤٩) تظهر مسطحة تماماً . وبتصوير ابلودورس اشكالاً وهيئات في مؤخر صوره اصغر من التي في مقدمها ادخل ما يُعرف الآن بفن رسم المناظر . وكان من نتيجة ذلك ان صورهُ صارت تظهر كأن لها عمقاً وحين كان يصوّر داخل احد البيوت كان الناظر الى الصورة كأنهُ يرى البيت نفسهُ من الداخل .

والكن لسوء الحظ قـد فقدت الصوَر الاصلية . وما يشاهد منها في بمبـاي بايطاليا قـد نقل عنها في زمان متأخر (ش ١٥٠)



الشكل ١٤٩ مشهد معركة منقولة صورَةُ البارزة عن الموصوليوم (ف ٥٩٧) على منوال سكوباس

ان نشاط رجال الحروب القدماء واعمالم العنيفة مباينة على خط مستقيم للهدوء والطمأنينة الباديين على صور بركستلس (ش ١٤٣) ولكن لسوء الحظ قد تلاشى كل ما صنعة سكوباس ولم يبقَ منهُ شيء مع انه كان كثيرًا . الاَّ انهُ يوجد عدد كبير من الكسر يظن انها من شغلهِ. وربما كان بعض ما يشاهد من الافاريز او الطنوف الباقية من الموصوليوم هو من عمل يديهِ . واما المشهد الذي في هذا الشكل فغير منسوب اليهِ ولكنهُ يميط الحجاب عن تأثيرهِ الشخصي . والمشهد المذكور مثال نفيس لتصوير اعمال الشدة والعنف في فن النحاتة (ف ٥٩٨)

(٦٠١٥) مزخرفوا الكؤوس وفنانون آخرون

وبعد نهضة عجيبة في تصوير الكؤوس مدّة الحرب البلبونيسية الاخـيرة ، اخذ هذا الفنّ يتقهقر وظلَّ كذلك حتى تلاشى بالمرَّة . وفي الوقت نفسهِ قام جماعـة من صغار الفنانين وشرعوا — تلبية لرغبات الشعب — في ان يصنعوا صورًا مصغَّرة انيقة منقولة عن صوَر قديمة شهيرة او صورًا هزلية مبهجة مأخوذة عن صوَر قديمـة مشهورة (ش ١٥١) حتى المشتغلون

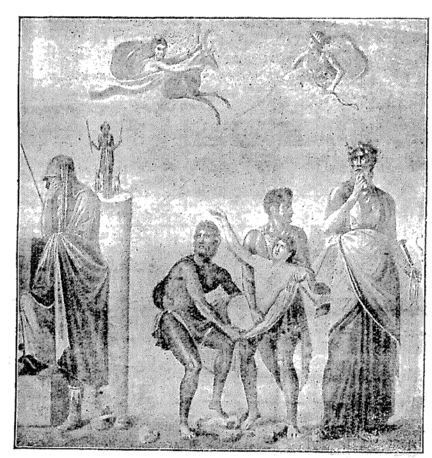
جبتقطيع الحجار صنعوا حجارة للضرائح عليها صور ناتئة يستشف الناظر اليها من تحت براقع الاسى والكآبة جمالاً بارعاً وحيرة ناجمة عن نظر يوناني هذا العصر الى عالم الاخيلة والاشباح بروح الشك وعدم اليقين

٦٣

الديانة والآداب والفكر

(٦٠٢) عصر النزاع الذي تلا موت بريكليس

كل شاب اثيني وُلد حوالي الزمان الذي مات فيه بريكليس وجد ذاتهُ أنَّى اتجهت خطاه في زمن نزاع : نزاع في الخارج — في ساحة القتال وهو يحارب في جيش اثينا مدة سني الحروب الطويلة التي نشبت بين المدن الثلاث، اثينا وسبارطة



الشكل ١٥٠ أ صورة على جدار في بمباي تظهر تضحية افيجينيا

قد تلاشت اعمال جميع الفنانين العظام الذين عاشوا في القرن الرابع . ولكنَّهُ يُظن ان الذين اشتغلوا بعدهم في زخرفة البيوت وتزويق الجدران بايطاليا قد نقلوا ما صوَّروهُ عن انفس الصوَر القديمة . فالمشهد الذي يُرى في هذا الشكل ينقل الى اذهاننا شيئاً من تأثير التصوير اليوناني القديم ويُرينا الفتاة أفيجينيا محمولة على الايدي لتقدَّم ضحية. والصورة المبرقعة الوجه التي الى يسار الشكل كثيراً ما ترمز في الصناعة الحديثة الى كارثة قادمة تستنكف العين البشرية ان تراها. وفي الخدام لنتنبه للمهارة التي صنعت بها الاطراف ، الايدي والارجل ، حتى ظهر فيها التخن والاستدارة (ف ٦٠٠)

وثنية، ونزاع في الداخل، في نفس مدينة اثينا — في اسواقها وشوارعها – بين حزب العامة وحزب الخاصة – بين الطبقات السافلة من الشعب والنبلاء، لان كلًّا من الحزبين كان يبغي الحصول على الزعامة والقبض على زمام الحكم في الدولة، فضلًا عن نزاع داخلي في نفسهِ بين المبادىء الدينية التي شبَّ عليها وربي فيها وبين الآراء الجديدة التي كانت آخذة في الشيوع والانتشار

(٣ ٦) ديانة الاثيني وزمن الصبوة

كان الشاب الاثيني يتذكر الحكايات التي كان يسمعها عن الآلهة وهو جاثٍ امام مربيتهِ. ولم ينسَ حين كان يسألها عن هيئة إلاهة اثينا وعن هيئات الآلهة الاخرى انها كانت تشير باصبعها الى اناء جميل في بيت ابيهِ كانت ترى عليهِ صوَر الآلهة بهيئات بشرية فيحسبها كباقي الناس الذين في اثينا. ورسخ في ذهنهِ هذا الفكر سنين كثيرة. ولما انتقل الى المدرسة واستظهر كثيرًا من المقاطع الشعرية من نظم هوميروس اطلع اكثر فاكثر على اعمال بطولتهم – على المخاطر التي اقتحموها والمغامرات التي خاضوا عُبابها



(٢) (١)

الشكل ١٥١ صبيٌّ يوناني يقتلع شوكة من رجلهِ (١)
وصورة هزلية لمقتلع الشوكة صُنعت بعد ذلك

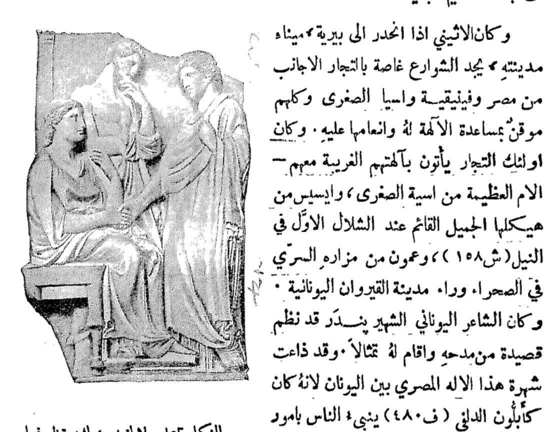
يرجح ان هذه الصورة الانيقة للصبي المشوق القوام والباذل جهدهُ اهتمامًا بقلع الشوكة، صنعت بعد الحروب الفارسية بوقت غير طويل وكما كانت مستحبة ومشهورة في القدم لدى الجميع كذلك كانت لدى المتأخرين. ومع ان الصورة الهزلية المضحكة (٢) المصنوعة من الصلصال المشوي، يعوزها رجلٌ واحدة، فانها مثال لطيف للخلق اليوناني معبرًا عنهُ بطريقة مبكية مضحكة (ف ٦٠١)

على الارض. وحين كان يذهب الى المرسح ويشهد تمثيل روايات ارستوفنيس اعظم روائي زمانهِ كان يرتاح جدًّا الى ما يرى ويسمع هناك. وكان ارستوفنيس يهزأ كثيرًا بيوريبيدس والسفسطيين الذين خامر عقولهم الشك بوجود الآلهة. ولم يكن للشاب الاثيني شيء من ذرائع الحصول على التعليم الديني لانهُ لم يكن عند اليونان في ذلك الزمان شيء يقوم مقام

الكنيسة او مقام خدَمة الدين في ايامنا ولم يكن عندهم كتاب مقدَّس يحترمهُ الجميع كالتوراة والانجيل والقرآن · ولم يتعلم الشاب ان الآلهة تحفل بهِ او يهمها امر سلوكهِ او انها تريدهُ ان يكون صالحاً او طالحاً · بل كان عنده انهُ متى اتمَّ الطقوس والفروض التي تطلبها الآلهة دون اهمال شيءٍ منها ، فقد اكمل الواجب ولا خوف عليهِ · واذا عاش عيشة شريرة كان على يقين من انهُ يُقضى عليهِ عند الموت بان يسكن تحت سطح الارض ، في مكان مخيف يسود فيهِ الظلام الدامس (ف ٤٧٨) واما اذا كانت عيشتهُ صالحة فمصيرهُ الى جنات النعيم الجميلة (ف ٤٧٩)

(٦٠٤) الآلهة الاجنبية التي من الشرق

وكان الاثيني اذا انحدر الى بيرية ، ميناء مدينتهِ ، يجد الشوارع غاصة بالتجار الاجانب من مصر وفينيقية واسيا الصغرى وكلهم موقنٌ بمساعدة الآلهة لهُ وانعامها عليهِ · وكان اولئك التجار يأتون بآلهتهم الغريبة معهم — الام العظيمة من اسية الصغرى ، وايسيس من هيكلها الجميل القائم عند الشلال الاوَّل في النيل (ش ١٥٨) ، وعمون من مزارهِ السرّي في الصحراء وراء مدينة القيروان اليونانية · وكان الشاعر اليوناني الشهير پندَر قد نظم قصيدة من مدحهِ واقام لهُ تمثالاً · وقد ذاعت شهرة هذا الاله المصري بين اليونان لانهُ كان كأبلُّون الدلفي (ف ٤٨٠) ينبئ الناس بامور مستقبلهم · وكانت سفينة يونانية تسير بين بيرية والقيروان سيراً مطرداً لتقلَّ اليونان الى مزار عمون النائي في قلب الصحراء · وكثيراً ما كانت تشاهد رموز مصرية على الضرائح اليونانية



الشكل ١٥٢ بلاطة ضريح اثيني تظهر فيها صورة ابنة تودّع والديها

ان حجر ضريح ابنة صبية يكشف لنا عن شعور لطيف كان في امكان قطاع الحجار ان يعبر عنهُ · فقد شخص وداع الوالدين الاخير حين انشبت المنية فيها اظفارها · تشاهد الامّ جالسة الى اليسار قابضة على يد ابنتها الصبية والاب واقفاً يخلل لحيتهُ باصابعهِ وهو يتأمل منقبض النفس مستسلماً للاقدار

(٦٠٥) ظفر الشك وانتصار اوريپيدس

وكان لبعض هذه الاعتقادات الاجنبية تأثير عظيم قبلاً على الاثيني في حداثتهِ · وحين كان يغادر معلم صبوتهِ ويذهب ليسمع محاضرات احد مشاهير السفسطيين (ف ٥٣٨) لم

يجد من يعلم بالتحقيق هل الآلهة موجودة ولا من يعلم ماذا تشبه . فلم يقدر ان يتبع خرافات الفقراء الجهلة ولا كان قد بلغ الدرجة التي يستطيع عندها ان يطرح الآلهة ويرفضها رفضاً باتاً كما كان يفعل بعض المتهذبين من جيرانه . ومهما اشبهت الآلهة فانهُ كان على يقين من انها ليست كائنات كالتي وجدها مصورة عند اسلافه الابطال في اشعار هوميروس وكان قد طرح هوميروس جانباً واصبح هو واخوانهُ المتعلمون يقرأون مآسي يوريبيدس النفيسة (ف ٦٦) ويطلعون على ما فيها من شكوك وريب وعدم يقين من جهة الحياة والآلهة . ويوريبيدس هذا الذي كان موضوع سخرية ارستوفنيس وهزله والذي قلما اعترف لهُ الاثينيون بالفوز مدى حياته (ف ٥٥٦) قد انتصر الآن . ولكن انتصاره كان خذلاناً للمعتقدات القديمة وفوزاً للشك ونبذ الآلهة وبدء عصر جديد في الافكار والاعتقادات

٦٠٦) سقراط

وحينما كان الشاب الاثيني يمرُّ بالشارع كان يرى ما يذكرهُ بمصدر آخر للشك وهو صورة بسيطة لرجل اثيني فقير الحال اسمهُ سقراط ابن نحات من صغار النحاتين . وكانت هذه الصورة منذ بداية الحرب الثانية مع سبارطة مشهورة لدى جميع سكان اثينا بقبح منظر صاحبها ورثاثة بُرديه . وكان سقراط يقف في السوق طول النهار يحادث كل من يمرّ به ويسألهُ مسائل جمة تغادر المسؤول في حالة اضطراب عقلي لانهُ — على ما يظهر — كان يُلقي في عقول الناس بذار الشك في كل ما كانوا يحسبونهُ حقائق مقرَّرة

٦٠٧) الحكومة اهتمام سقراط الخصوصي

ولكن كانت صورة هذا الرجل «ابن النحات» الدميم الخلقة تمثل افضل واسمى ما في العبقرية اليونانية . وكان لسقراط اهتمام كلي بشؤون الحكومة ولكنهُ لم يرغب في نيل منصب فيها ولا جنح الى السياسة قط . وكان يعتقد ان الحكومة المؤلفة من رجال البلاد يمكن تمحيصها وصيانتها باصلاح حال الافراد العاملين فيها ولكن ذلك لا يستتب الاَّ بتهذيب عقولهم حتى يعرفوا ما هو الحق وما هي الفضيلة

٦٠٨) اعتقاده ان الانسان يستطيع ان يعرف الحق ويطبق سلوكهُ عليهِ

هنا يتجلَّى اسمى ما جاءت به حكمة سقراط وهو اعتقادهُ الذي لم يتزعزع في وقت من الاوقات ، ان العقل البشري قادر ان يميز ويعيّن بالدقة التامة ما هي الفضيلة ، والصواب ، والحق ، والجمال ، والامانة ، والافكار العظيمة التي لها تأثير كبير في حياة الناس . وكان يعتقد ان الانسان الذي عرف هذه الفضائل ولو مرَّة في حياته يقدر ان يطبق كل عمل يأتيه على ما تقتضيه . وكان سقراط يبيِّن قوة الفضيلة وما شاكلها من الفضائل بقوة البرهان والمنطق . ولم يشر في تعليمه الى ان الديانة هي من الذرائع المودية الى حسن السلوك والسيرة . ولكنهُ في نفس الوقت كان رجلاً ديّناً مؤمناً بالآلهة من كل قلبه ولكن ليس

كما كان يؤمن بها اسلافهُ بل كان يشعر – كما كان يشعر انبياء العبرانيين – بصوت الهي داخلهُ يدعوهُ الى عملهِ الشريف

(٦٠٩) الراي العام في سقراط

كان سقراط وهو اعظم معلمي اليونان، بسيطاً في طرقهِ كبيرًا بعقلهِ واتساع مداركهِ ففتحت لهُ منازل الاغنياء والشرفاء وطارت شهرتهُ في الآفاق . ولما سُئلت كاهنة دلفي (ف٤٨٠) من هو اعظم الاحياء ؟ اجابت «سقراط». والتف حول سقراط فريق من التلاميذ اشهرهم افلاطون ولكن الجمهور لم يفقه كُنهَ مقاصدهِ ومساعيهِ الشريفة من جهة الحكومة فظهر من خلال المسائل الدقيقة التي كان يسألها انهُ مرتاب في جميع المعتقدات القديمة

(٦١٠) محاكمة سقراط وموتهُ

فاستدعى الاثينيون سقراط للمحاكمة لانهم اتهموهُ بانهُ يفسد عقول الشبان متذرعاً الى ذلك بجميع ضروب الشكوك والتعاليم الكفرية . وكان في استطاعتهِ ان يفرّ من اثينا حالما علم باقامة الدعوى عليهِ . ولكنهُ لم يفعل بل حضر الى المحكمة ودافع عن نفسهِ دفاعاً مجيدًا . وبعد صدور الحكم عليهِ بالاعدام كان يقضي ايامهُ الاخيرة في المحادثات الرصينة مع خلانهِ وتلاميذه الذين شرب بمرأى منهم كاس السم القتّال برباطة جأش (٣٩٩ ق م) . فحكومة اثينا الديمقراطية التي اساءت تدبير شؤون الامة في اثناء الحرب قد جلبت على نفسها اشدَّ الملامة والعار بحكمها بالاعدام على اطهر واعظم شخص بين رعاياها وان كان حكمها بموجب نص الشريعة

الشكل ١٥٢ رسم سقراط

هذا الرسم ليس احسن رسوم سقراط العديدة الباقية ولكنهُ يمتاز على الرسوم الاخرى بنوع خصوصي لانهُ يتضمن تسعة اسطر تحت اسم الفيلسوف تحتوي قسماً من دفاعهِ العلني كما رواهُ افلاطون

(٦١١) تاثير سقراط بعد مماته

ان رباطة جأش سقراط في الساعات الاخيرة من حياتهِ كما جاء وصفها في رواية افلاطون عن ذلك المشهد الرهيب ، كان لها تأثير عميق ووقع عظيم في العالم اليوناني طرًّا . ولا تزال تعدُّ حتى الآن من اشرف ما تتصف بهِ الانسانية . فقد كان اعظم يوناني . وبهِ بلغت مدنية اليونان اسمى درجاتهِ . ولكن يظهر ان تأثير شخصية هذا الحكيم الكبير كان بعد مماتهِ

اعظم منهُ في حياتهِ

(٦١٢) كتابة التاريخ باسلوب علمي

ويُرى ايضاً التغيُّر العظيم الذي طرأ على اعتقاد اليونان بادياً في كتاب تاريخ جديد يستحق الاعتبار مؤلفهُ ثوسديس وهو اوَّل من كتب تاريخاً على نمط علمي · كان تاريخ هيرودتس الذي كان قبلهُ بجيل من الزمان ، يعزو مقدرات الامم وحظوظها الى ارادة الآلهة · واما ثوسدّيس الذي كان ينظر الى حقيقة الاشياء كرصفائهِ المؤرخين العصريين ، بالبصر الثاقب ، فقد تتبع الحوادث التاريخية وردَّها الى اسبابها الطبيعية بين الاقوام الذين حدثت في وسطهم · وكانت مكاتب المتهذبين من الاثينيين تحتوي هذين الكتابين اللذين كُتِب احدهما قبل الآخر بثلاثين سنة لا غير · ولكن ما اعظم الفرق بين اعتقاد كل من هذين المؤرخين القديم والحديث · فتاريخ ثوسدّيس كان ولا يزال معدودًا من انفس كتب النثر في العالم كلهِ

(٦١٣) تقهقر الشعر وانتصار النثر

ان رواج مؤلَّف ثوسدّيس بيّنة ناصعة على ان شغف الاثينيين بالشعر لم يبق كما كان قبلًا بل تحوَّل الى النثر الجديد الفنيّ · وقد تأخر القريض تأخرًا بيّناً حتى في تأليف الروايات التمثيلية واصبحت الخطب التي تُلقى في الاندية العمومية تُحبَّر وتنمَّق عباراتها قبل القائها اذا توقَّع لها اصحابها قبولاً وارتياحاً اليها من قِبَل الجمهور · وكانت شدَّة الاقبال على الخطب البليغة دافعاً قويًّا مستمرًّا لاتقان النثر والتأنق فيهِ وامتلاك ناصية الخطابة

(٦١٤) اثينا مركز للعلم والتهذيب

وغدا اساتيذ الفصاحة والبيان في اثينا الذين خلفوا السفسطيين القدماء طائري الشهرة في كل مكان حتى اصبحت بهم المدينة مركزًا لتهذيب العالم اليوناني باسرهِ · وكان في طليعتهم أيسقراط ابن صانع الآلة الموسيقية المعروفة « بالفلوت » فهذا تخصص بدرس المسائل السياسية المهمة في عصرهِ ونبغ فيها · ولما لم يكن خطيباً ذربَ اللسان حسن البيان أكبَّ على الكتابة وشرع يحبّر الخُطب ويدبّج المقالات ثم ينشرها تحت عنوان « رسائل سياسية». وكان اليونان يتهافتون على مطالعتها تهافت الجياع على القصاع فاصبح موشي برودها لسان حال اثينا السياسي بل لسان حال بلاد اليونان باسرها

(٦١٥) نشوء علم ادارة الحكومة

ومع شدَّة شَغَف الناس عموماً بالعلوم الطبيعية الحديثة ، كانت المسائل التي لها مَساس بالشؤون العمومية الشغل الشاغل للاثينيين فمالوا اليها اكثر مما مالوا الى العلوم الطبيعية · وكان اهمُّ تلك المسائل عندهم اثنتين : كيف يجب ان تدار احوال الهيئة الاجتماعية بالنظر الى علاقتها بالحكومة ? وماذا يجب ان يكون شكل الحكومة الحرَّة ? هاتان هما المسألتان اللتان بحث فيهما الاثينيون طويلًا وعالجها سقراط جهدهُ بغية ايجاد جنسية

راقية مهذبة · أجلْ بحث اليونان عن المثال الاعلى للحكومة لعلهم يجدونهُ واما المفكرون من الشرقيين فلم يخطر لهم في بال ان يبحثوا عمَّا يسمُّونهُ المثال الاعلى للحكومة بل قنعوا بما كان لديهم عملًا بقول المثل «احفظ عتيقك» وقبلوهُ كأنهُ حقيقة مقرَّرة ومسلَّم بها من الجميع مع انهم كانوا قد بلغوا في الشؤون العمرانية والاجتماعية مبلغاً عظيماً · ولكثرة ما كان يدور بين اليونان من الحِوار والجدال فيما يتعلَّق بشكل الحكومة ما بين ان تكون ملكية او جمهورية او ارستقراطية نشأ عندهم علم ادارة الحكومة

(٦١٦) افلاطون

كان افلاطون اعظم تلاميذ سقراط مقاماً لانهُ كان اوفرهم عقلًا واسماهم ادراكاً · عمد الى كثير من مباحث وتعاليم استاذه سقراط فنقحها ونشرهــا على نمط محاورات متوخياً ان يقدم لمعاشر القراء من ابناء بلاده ما فاه بهِ ذلك المعلم العظيم · وكان افلاطون يصبو كثيراً الى السياسة ولكنهُ لما قنط من الديمقراطية اعتزل السياسة واقام في اثينا وتخصَّص بالتعليم · وكانت مدرستهُ في حَرَجَة (حرش) الاكادمية (ف ٥٣٧)

(٦١٧) شكل الحكومة التي هي المثال الاعلى عند افلاطون ونقائصها

بسط افلاطون في كتابهِ المرسوم (بالجمهورية) المثال الاعلى للحكومــة واسهب في كيفية ادارتها ، ولم تكن تلك الحكومة الاَّ ما قد كان من قبلها — حكومة مؤلفة من مدينة وارباضها منفردة بذاتها مستقلة عن سواها · ولم يفطن افلاطون الى ان المسألة الحيوية الضرورية لليونان في هذا الزمان كانت النظر في علاقة هذه الحكومات المدينيَّــة بعضها ببعض · ولا خطر ببالهِ ان تأثيــر المملكة الراقية لا يمكن ان ينحصر ضمن حــدودها السياسية بل لا مناص من تجاوزه الى ما وراء تلك الحدود بطريق مبــادلة السلع التجارية بينها وبين سواها · ولكل بلاد حدود سياسية معيَّنة واما حدودها التجارية فتمتدُّ الى حيث تصل سلعها بلا تعيين · فكل بلاد تستورد ما هي في حاجة اليهِ من محاصيل غيرها وتصدّر اليها ما هي في غنًى عنهُ من محاصيلها فيحصل من هذه المبادلة بين البــلدان المختلفة ، التأثير المذكور آنفاً

(٦١٨) نمو العالم اليونــاني بوفــرة الذين احتذوا مثاله

لا يمكن ان توضع حدود فاصلة تمــام الفصل بين الامم المختلفة لان حياة كل منهــا تتجاوز الحدود كما تقدَّم وتمتزج بحياة الامم المحيطة بها وتؤثر فيها · هكذا كانت الحــال بين بلاد اليونان والمناطق النائية عنها التي تمدَّنت وأُولع سكانها بمطالعة المؤلفات اليونانية ، وباستعمال الادوات اليونانيــة والاثاث اليوناني في منازلهم وبزخرفتها بالتصاوير اليونانية ، وببناء مراسح على انماط يونانيــة ، وبتعلُّم فنون الحرب اليونانية · وكانت تلك المنــاطق تكوّن عالمًا شرقيا كبيرًا مؤلفــاً من شعوب شتى شرقي البحر المتوسط تربطها معــاً رُبُط التجارة والسياحة والمصالح الاقتصادية المشتركة بينها · فهذا العالم الذي كان مزمعاً ان يؤلف

وَحدة سياسية تعامى عنهُ افلاطون معما كان عليهِ هذا الفيلسوف من سمو الفكر ورجاحة العقل والاختبار الناجم عن اسفاره الكثيرة . وقد نفح اليونان العالم الشرقي الذي كان قديماً خاضعاً للثقافة الشرقية ، باشرف المبادىء واسمى الافكار التي بلغ اليها عقل الانسان المتمدن فكان عليهم ان ينفحوهُ بالزعامة السياسية

(٦١٩) اسباب الوحدة . ابقراط واكزنيفون

كان اهل الخبرة الواسعة من اليونان كابقراط يرون جليا موقف البلاد ومصيرها في هذا الوقت . فقام ابقراط يحضُّ الشعب اليوناني على ان يدفنوا احقادهم ويُقلعوا عن منازعاتهم التافهة ويوسعوا نطاق محبتهم الذي كان حرجاً ويوحدوا تلك المحبة المجزَّأة حتى تشمل الامة باسرها فيلتئم العالم اليوناني المقطع الاوصال ويتكوَّن منهُ جسم واحد مرتبط الاعضاء ارتباطاً مكيناً لا ينفصم . وقد صرَّح لهم قائلاً انهم اذا كانوا متحدّين معاً استطاعوا ان يقلبوا بسهولة مملكة الفرس المتداعية ويجعلوا انفسهم سادة العالم . واما اذا ظلُّوا مثابرين على مناوأة بعضهم بعضاً فان ملك الفرس يستطيع ان يتصرَّف بهم كيفما شاء . وكان ضعف مملكة الفرس بادياً امام كل يوناني وقف على حكاية اكزنيفون عن زحف العشرة الالاف اليوناني تحت قيادتهِ . فنرى مما تقدم ان البواعث على الوحدة كانت مستتبة

(٦٢٠) الانقسام الدائم غاية تطوُّر اليونان الدماسي

ولكن لم تكن مدينة واحدة يونانية تميل الى ان تخضع لزعامة مدينة أخرى لان المحبة الوطنية المكانيَّة وروح الانقسام الذي لا يزال حتى الآن شاملاً للشرق تغلَّبا على بواعث الوَحدة فكان الانقسام الدائم عاقبة هذا التطوُّر السياسي اليوناني . فآل ذلك الى مجيء سلطة من الخارج لم يكن لها يد في ترقية الحضارة اليونانية لكي تخضع اليونان لسطوتها

(٦٢١) سيادة العبقرية اليونانية رغم السقوط الدماسي

ولكن مع تقهقر قوة اليونان السياسية لا نستطيع الآ ان نعترف على رؤُوس الاشهاد بان الحضارة اليونانية التي حاولنا تصويرها لذهن القارىء بالكلام ، كانت حضارة مجيدة لا مِثل لها . لان المنافسات التي قامت بين اليونان قد آلت الى قتل الزعامة السياسية واصبحت كل مدينة تبذل منتهى جهدها لتفوز على سواها في مضمار الفنون والآداب وسائر الاشياء التي تُعدُّ من مقوّمات الحضارة . ومهما حسبنا عصر بريكليس عظيماً فان العصر الذي عقبهُ كان اعظم منهُ لانهُ نبغ من مملكة اثينا الصغيرة التي لا يربي عدد سكانها على خمسة وعشرين او ثلاثين الف نفس ، طائفةٌ من عظام الرجال تفوَّقوا في جميع ما اتاهُ الانسان تفوقاً لم يسمع بمثلهِ في التاريخ في اية بلاد مساحتها وعدد سكانها بقدر مساحة وعدد سكان بلاد اليونان . واذا عُدَّ رجال التاريخ العظام كان هؤلاء كواكب متألقة

بينهم . ويتألف من الاعمال الخطيرة التي قاموا بها اعظم فصل في تاريخ حياة الانسان العليا.
وفضلًا عن ذلك فقد كان امام العبقرية اليونانية انتصارات أخرى مستقبلة بعد فقد الزعامة
السياسية التي نراها الآن قد اخذت تنتقل ازمتها الى ايدٍ أخرى

مسائل

٥٩

لماذا لم تكن سبارطة جديرة بتولي الحكم في البلاد اليونانية ؟ ماذا كان اسلوبها
في توليها للاحكام ؟ ما المراد بحكومة الاقلية او الخاصة ؟ كيف كانت وهل نجحت ؟
هل نجحت الحكومة الديمقراطية اكثر منها ؟ صف تأثير الحاجة الى النقود في اعمال
الحكومة . ماذا فعل اليونان لكي يفهموا المالية الوطنية ؟ ماذا كان جارياً على صغار
الملاكين ؟ أسهب في وصف الاشغال والدخل في هذا الوقت . ماذا كان تأثير
الحروب البلبونيسية الطويلة على جنود اليونان الوطنيين ؟ كيف كانت تتطوّر الزعامة
الحربية ؟ اذكر قصة اكزنيفون والعشرة الآلاف الذين كانوا معهُ ؟ اي علم كان في
طور النشوء الآن ؟ من اين تعلّم اليونان استعمال آلات الحصار ؟ الى اي عمل
استفزّت غارة العشرة الآلاف سبارطة ؟ ماذا كانت النتيجة ؟

٦٠

اي اتحاد تألف لاسقاط سبارطة من الزعامة ؟ ماذا جرى في مؤتمر الصلح ؟ ماذا
كانت النتيجة المتوقعة للحرب التي نشبت بين سبارطة وثيبة ؟ ماذا كانت خطة ابيمنداس
التي قابل بها فنّ سبارطة الحربيّ ؟ اين التقت الجيوش المحاربة ومتى ؟ ماذا كانت
النتيجة ؟ كيف نجحت ثيبة في تولي زعامة الحكومات اليونانية ؟ كيف كانت
حال العالم اليوناني باسرهِ من الوجهة السياسية

٦١

اي نوع من هندسة البناء دخل البلاد حديثاً ؟ باي شيء كان يختلف عن النوعين القديمين الدوري والايوني ؟ صف الموصوليوم ؟ اي نوع من الاشكال او الصوَر احبَّ سكوباس حفرها ؟ اي اسلوب جديد دخل الآن لصنع صوَر يمكن نقلها من مكان الى آخر ؟ اي طريقة جديدة للتصوير ادخلها اپلودورس ؟ هل بقي شيء من تلك التصاوير ؟ من اين تعرف كيف كان منظرها ؟ اي نوع من الاشغال الصغيرة صنع صغار ارباب الفن ؟

٦٢

من اي وجه كان العصر الذي عقب زمن بريكليس عصر منازعات ؟ ماذا كان الولد الاثيني يتعلم في هذا العصر عن الآلهة ، في بيتهِ ؟ وفي الحفلات العمومية ؟ ومن روائع الفن ؟ هل كان يحصل على شيء من التعليم الديني ؟ ماذا كان يعتقد من جهة سلوكهِ وعلاقة الآلهة بهِ ؟ اية آلهة غريبة بدأت الآن تدخل البلاد ؟ قل ما تعرفهُ عنها . ماذا كان يظن الوطني المتهذب في اعتقادات العامة ؟ كيف كان يشعر قبلًا من جهة الشك الديني ؟ روايات مَن مِن الروائيين كانت تهزأ بشك كهذا ؟ ممن تعلم هذا الوطني ان يشكَّ ؟ مآسي من كان يقرأ هو واصحابهُ ؟ أقمع الشك كان في ذلك ام انتصارهُ ؟ كيف كان سقراط يصرف معظم اوقاتهِ ؟ ماذا قصد بذلك ؟ هل تقدر ان تلخِّص تعاليمهُ ؟ هل كان رجل شرّ ؟ أكان مستخفا بالدين ام بلا دين ؟ ماذا كان راي العموم من جهة فلسفتهِ ؟ ومن جهة اخلاقهِ ؟ ماذا فعل الاثينيون اخيرًا ليسكتوهُ ؟ قل ما تعرفهُ عن محاكمتهِ وموتهِ . هل زال بموتهِ تأثير شخصيتهِ ؟ كيف كان تاريخ ثوسديس يختلف عن تاريخ هيرودتس ؟ ما هي الفترة بينهما ؟ ماذا

تقول من جهة النثر والشعر في هذا العصر ؟ من كان زعيم معلمي البيان وكتابة النثر في اثينا ؟ ماذا تقول في كتابتهِ ؟ اي علم كان الآن في طور نشوئهِ ؟ ماذا تعرف عن حياة افلاطون ؟ ماذا علَّم عن ادارة الحكومة ؟ اية مسئلة عظيمة قصَّر عن ادراكها ؟ اي عالم متمدن كان الآن آخذًا في النشوء ؟ لماذا لم يتحف اليونان العالم الذي اعتنق الحضارة اليونانية وَحدةً سياسية ؟ كيف شعر اهل الاختبار والعمل امثال ابقراط من جهة هذه القضية ؟ هل اتبع اليونان نُصحهُ ؟ ماذا كانت النتيجة ؟

الفصل الثامن عشر

" الاسكندر الكبير "

٦٣

قيام مكدونية

(٦٦٢) همجية ولايات البلقان والشمال

وظلَّ قبس الحضارة اليونانية في تخوم جبال البلقان يتضاءل تدريجاً حتى توارى في دياجي البربرية التي يتصل نسبها باوربا العصر الحجري . وكان هولاء الشماليون المنحطون — كالثراكيين مثلاً — ينطقون بألسنة هندية اوربية الاّ ان ذوي قرباهم في الجنوب لم يفهموا ما كانوا يراطنونهم به. وبعد زمان اخذت خشونة البربرية التي كان يتصف بها المكدونيون الفلاحون تحتجب تحت طُلاء رقيق من الحضارة اليونانية في الجنوب وذلك مذ شمّر ملوك مكدونية عن ساعد العزيمة واخذوا في غرس الآداب والفنون اليونانية وتعهُّدها بعنايتهم لكي تنمو وتنضر في بلادهم . وكانت والدة فيليب الملك مرتاحة جدًّا الى تمكنها من تعلم القراءة والكتابة في شيخوختها

(٦٦٣) فيليب المكدوني وجنوحه الى التوسع

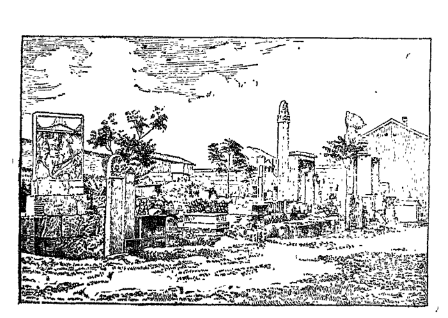
وكان من حسن حظ فيلبس انهُ تربّى في بلاد اليونان لانهُ باقامتهِ فيها علِم بما كان عليهِ العالم اليوناني من تفرُّق الكلمة وتقطُّع الاوصال. فلما تبوأ سرير مكدونية اعتزم ان يبسط نفوذهُ عليهِ وشرع للحال في التأهب لتنفيذ الخطة التي رسمها لتحقيق امنية نفسهِ متذرعاً بحُنكتهِ السياسية والعسكرية فبادر قبل كل شيء الى ايجاد قوّة حربية كافية . وكان قد تــدرَّب ايام كان رهينــة في ثيبة ، على قيــادة الجيش تحت نظر ابيمنداس الشهير قاهر السبارطيين. والمرويُّ انهُ فاق استاذهُ فيها

(٦٣٤) ابداع فيلبس للفسالق اليونانية المعروفة بالفالنكس

واختار فيلبس من فلاحي مملكته عددًا كبيرًا من الشبان الذين آثروا الخدمة في الجندية مدى الحياة على الفلاحة ورعاية المواشي · ونظَّم منهم جيشاً عاملًا سلَّحهُ بالعدَّة الكاملة على النمط الذي كان قد رآهُ في بلاد اليونان · ولكن كانت صفوفهُ اكثف ورماحهُ اطول

(٦٣٥) الفرسان المكدونيون . ضمّ فيلبس المشاة الى الفرسان في الاعمال الحربية الموحدة

ولم يكن للفرسان حتى الآن عملٌ في الحرب يستحق الذكر · كانت الخيول كثيرة العدد ولكن لم يكن يمتطيها الا الاشراف الذين كانت تتألف منهم كتيبة بلا نظام ولا ترتيب لان كلًّا منهم كان يحارب مستقلًا بنفسه



الشكل ١٥٤ يرينا هذا الشكل احد الشوارع حيث اعتاد اليونان والرومان ان يدفنوا موتاهم (ش ١٦٦ H و K) ·

كان هذا الشارع خارج باب ديلون على السكة المقدسة الى أليوسس · وكانت حجارة الاضرحة تبطّن جانبي السكة مسافة قصيرة . مثال ذلك (ش ١٥٣) · ولما كان سلَّا الروماني يحاصر اثينا في اثناء حربهِ الشرقية ، اصدر امرًا بتكويم التراب حتى بلغ ارتفاعهُ عند هذه النقطة مستوى اسوار اثينا. فكان عملهُ هذا واقيًا لهذا القسم من المقبرة من الدروس والاضمحلال فتمكن المنقبون في عصرنا من نبش القبور التي كانت مخبوءة تحت التراب وهو القسم الوحيد الباقي من سوق يونانية قديمة فيها قبور . في هذه المقبرة دُفِن الذين عاشوا في ايام سقراط الحكيم . ويرى على الاثر التذكاري الذي الى يسار الشكل تمثال شاب اثيني باسل ممتطيًا صهوة جوادهِ يطارد الاعداء الساقطين امامهُ وقد قُتل في الحرب الكورنثية (ف ٥٩٠) ودُفن هنا بعد موت سقراط (ف ٦١٠)

كيفما شاء ومتى شاء · اما فيلبس فقد نظَّم هولاء الفرسان ودرَّبهم في الفنون الحربية حتى اصبحوا قادرين على العمل معاً كأنهم جسم واحد · وكان هجوم عدد كبير من الفرسان دُفعة واحدة يُلقي رُعباً في قلوب الاعداء يكاد يكفي لجعل المعركة فاصلة · وادخل فيلبس تحسيناً آخر في فن المحاربة اهم من كل التحسينات السابقة وهو انهُ كان يؤلف قلب الجيش

من صفوف المشاة المتراصّة وجناحيهِ من الفرسان ٠ وكانت القوّة المركّبة من القلب والجناحين ترحف على العدو وتحارب كوَحدة عظيمة كأنها آلة حربية لا تُقاوم ، كل قطعة منها تعمل مع سائر القطع الاخرى على اتمّ ترتيب ودقة

٦٢٦) الفائدة العملية من حصر السلطة في شخص واحد . فتوحات فيلبس في الجهات الشمالية

ولو لم يتولَّ ادارة الشؤون وضبطها عقلُ رجل فذّ لما امكن ادماج هذا الفصل الجديد في تاريخ فنّ الحرب ٠ وقد استتب لليونان الآن ان يروا رأي العين التأثير الفعلي المحسوس لتولّي زعيم حازم ضبط شؤون البلاد سنين كثيرة متعاقبة ٠ ورأى فيلبس بعين فراسته السياسية ان يباشر اعمال الفتح في الاقاليم التي كان يتوقع منها مقاومة اقلّ فثابر على توسيع نطاق مملكتهِ شرقاً وشمالاً حتى ابلغ حدودها الى الدانيوب والدردنيل

٦٢٧) حزبان في اثينا . ابقراط

وكان امتداد فتوحات فيلبس الى الشمال من بحر ايجه سبباً لتحرّشهِ بمصالح الحكومات اليونانية التي كان لها بعض المدن في تلك الاصقاع الشمالية ، فلما بلغت انباء تلك الفتوح الى اثينا نشأ فيها حزبان حزب تلقّاها بالارتياح والرضي لانهُ رأى في فيلبس شخصاً مخلصاً لاثينا شديد الاعجاب باليونان واعتقد انهُ الموحّد لشمل اليونان المتفرق والمنقذ للعالم اليوناني طرّاً ٠ وكان زعيم هذا الحزب ابقراط (ف ٦١٩) الشيخ الذي كان الآن قد طعن في السن٠ وحزبٌ آخر تلقّاها بالاستياء والسخط لانهُ حسب فيلبس قاسياً سفّاحاً دائباً في استعباد مدن اليونان الحرّة فطعن فيهِ طعناً جارحاً

٦٢٨) ديمستنيس

وكان زعيم الحزب المناوىء للمكدونيين ، ديمستنيس الخطيب المِصْقع الذي القى على مسامع الاثينيين خطبهُ الشهيرة الخالدة المعروفة (بالفيليبيات) مظهرًا بها للاثينيين الخطر الذي كان يتفاقم باتساع فتوحات جيش فيلبس الباسل التي كان كل فتح منها تهديداً لكيان الحكومات اليونانية٠ فاستطاع ، بما أُوتيهُ من قوة العارضة وسحر البيان ، استمالة المجلس الاثيني الكبير اليهِ ٠ وصارت خطب ديمستنيس هذه التي القاها على مسامع الشعب اليوناني مضرب مثل في البلاغة في كل مكان وزمان حتى في اللغة اليونانية نفسها لم يكن لها ضريب في بلاغتها ٠ والسرُّ في ذلك كلهِ ان الدافع اليها كان غاية شريفة ولدتها محبة وطنية صادقة ٠ الاَّ ان صاحبها حمل حملة شديدة على الحزب المعارض في اثينا وجاوز الحدود في الطعن عليهِ ٠ ومن عجيب امرها انهُ لا يُلمَح من خلال سطورها ان موشّي برودها كان ينظر الى الاحوال نِظرة السياسي المحنّك ايرى ما وصلت اليهِ حكومات بلادهِ من سوء الحال بسبب انشقاقها ونزاعها بعضها لبعض حتى لم يبقَ عندها اقل امل بالاتحاد

وكان عاقبة القتال ، الذي لم يكن بدٌّ منهُ بين فيلبس وحكومات اليونان ، حسرَ

(٦٣٩) فيلبس زعيم اليونان

النقاب عن حقيقة جوهرية وهي ان آراء ابقراط — وان لم تجئ من الوجهة البيانية مسبوكة في قالب من البلاغة — كانت تدلُّ على حكمة بالغة وحُنكة سياسية اكثر مما دلّت خطب ديمستنيس التي كانت آية في سحر البيان · وبعد سلسلة مناوشات حربية كسر فيلبس قوات اليونان في معركة فاصلة في كيرونيا (٣٣٨ ق·م) وتبوأ منصب الزعامة في حكومات اليونان كلها ما خلا سبارطة التي اقامت على عدائه ومناوأته ولم تدخل عصبة الحكومات اليونانية التي رأسها · وكان فيلبس قد شرع في تحرير المدن اليونانية حين هجمت عليه شرذمة من اعدائه طعنته بخناجرها فمات متأثرًا من جراحه في اثناء الاحتفال بزفاف كريمته وذلك غبَّ معركة كيرونيا بسنتين

(٦٤٠) خلفاء فيلبس المكدوني

وخلف الاسكندر اباهُ فيلبس في الملك وهو ابن عشرين سنة لا غير . وخلّف فيلبس في البلاط الملكي رَهطًا من المكدونيين المشهورين بالدراية وحسن الادارة والاخلاص للعائلة المالكة والذين اليهم يُعزَى معظم النجاح الذي احرزهُ الاسكندر في اوائل ملكه · ولكن مع كل ما كان عليه هولاء من الامانة والاخلاص والمقدرة على ادارة الشؤون ، نجد ان نزاعاً شخصيًا نشب بينهم وبين الملك الشاب وكانت عواقبهُ مؤلمة جدًّا

(٦٤١) مهذب الاسكندر واخلاقه

وما كاد الاسكندر يبلغ الثالثة عشرة من عمره حتى كان ابوهُ الملك قد استقدم الى البلاط ارسطوطاليس الفيلسوف العظيم ليتولَّى تثقيف وتهذيب ولده الامير الشاب · وكان في جملة ما صبت اليه نفس الامير في اثناء تحصيله علوم زمانه ، الاعلاق النفيسة من آداب اللغة اليونانية ولا سيا اناشيد هوميروس التي استظهر كثيرًا منها · وكان لاعمال الابطال القدماء تأثير عظيم في اعماق نفسه الفتية ظهرت نتيجتهُ في تصوراته واخلاقه · ولما كبر ونضج عقلهُ كان قد أُشرب قلبهُ حب العبقرية والثقافة اليونانيتين ·

٦٤

حملات الاسكندر الكبير

(٦٤٢) اخضاع الاسكندر لحكومات اليونان وصيرورته زعيماً لتحالف يوناني

وكانت الحكومات اليونانية لا تزال تأبى الخضوع لزعامة مكدونيّة اذ قام في وهمها انها تستطيع خلع حاكم كالاسكندر لا يزال في طور الشباب . ولكنها ما لبثت ان أدركت انهُ كان بين منكبي ذلك الحدث رأس شيخ مملوء حكمة · فلما ثارت ثيبة على مكدونية مرّة ثانية بعد موت فيلبس رأى الاسكندر — وكان قد وطّن النفس على محاربة الفرس —

انهُ ليس من الحكمة ولا من أصالة الراي ان يزحف بجنوده على اسية قبل ان يؤدّب الحكومات اليونانية ويعلّمها درساً لا تنساهُ في امدٍ قصير فاستولى على ثيبة المدينة القديمة واعمل فيها ايدي التخريب والتدمير حتى جعلها قاعاً صفصفاً • ولكنهُ ابقى على منزل واحد فيها وهو منزل الشاعر الكبير پندار • فعلّم اليونان بذلك مثالتين . الاولى ان يخافوهُ ويحترموهُ والثانية انهُ يُجِلّ العبقرية اليونانية ويحترم النبوغ اليوناني • ولما شعرت الحكومات اليونانية الا سپارطة بانهُ القائد الطبيعي لها عقدت تحالفاً وانتخبتهُ زعيماً لهُ وقائداً لجيوشها وامدتهُ للحال بالجنود لتعزيز جيشه

(٦٢٣) الاسكندر بطل هلّاس وحامي ذمارها

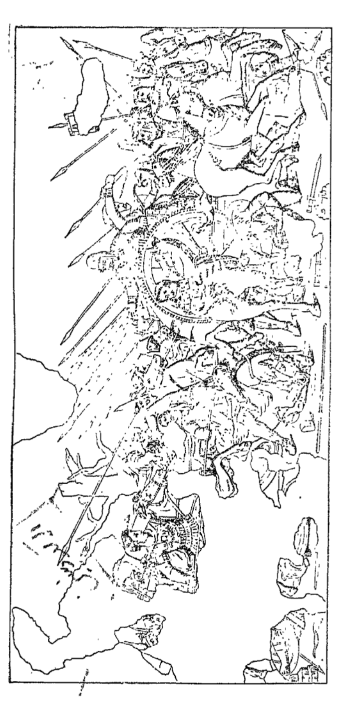
وكان الغرض من الحملة الاسيوية التي كان الاسكندر ينظم الآن خطّتها ، تأييد منصبه الجديد كحامي ذمار اليونان من اسية • وعقد نيتهُ على ان يتولى بذاته قيادة جيوش اليونان المتحدة تحت لوائه ويزحف بهم على ملك الفرس سيد اسية كما زحف اسلافهم من قبل بقلب واحد على طروادة الاسيوية • فسار في طليعة جنوده المكدونيين واليونانيين المتحدين الى اسية الصغرى • ولما ان بلغوا طروادة وقفوا عن السير ونصبوا مضاربهم في سهلها حيث قاتل ابطال اليونان الذين اشاد هوميروس بذكرهم ومدحهم في اشعاره • ودخل الاسكندر هيكل اثينا وسجد وابتهل الى الالاهة من اجل نجاح قصده بالزحف على الفرس • وقد توخّى بفعله هذا ان يضرب على نفسه قبّة من بطولة حرب طروادة لكي يرى جميع سكان هلّاس صورة البسالة متجسمة في الشاب المكدوني الذي اعاد اليهم ذكرى ذلك العصر المجيد القديم الذي توحدت فيه ، منذ عهد بعيد جداً ، قوات اليونان الحربية جميعها لمناوأة اسية

(٦٢٤) معركة غرانيكس ٣٣٤ ق.م. وفتح اسيا الصغرى

وكان ملك اسيا العظيم قد استأجر الوفاً من مشاة اليونان المدجّجين لكي يحاربوا اخوتهم وابناء بلادهم ، اليونانيين • فلما بلغوا الى نهر غرانيكس لم يجد الاسكندر اقل صعوبة في تمزيق قوات عمّال الفرس في الغرب • وعملاً بالعادة المكدونية خاض الملك الشاب ، وهو ابن اثنتين وعشرين سنة لا غير ، غمار القتال يقود جنودهُ غير هيّاب من تعريض ذاته الملكية للخطر • ولولا مساعدة جاءتهُ في حينها من لدن اكليتُس اخيه في الرضاع ، لكان الملك الشاب المتهوّر قد قُتل في تلك المعمعة • وزحف بعد ذلك بعساكره الى الجنوب واستولى على المدن اليونانية الواحدة تلو الاخرى وحرّر كل اسيا من نير الفرس الى الابد

وكان في هذا الزمان اسطول فارسي ضخم في مياه البحر المتوسط وله فيه السيادة

المطلقة . في هذا الموقف الضَّنك شرع الشاب المكدوني يظهر تفوقهُ في الفنون الحربية التي



الشكل ١٥٥ مهاجمة الاسكندر الكبير لحرس وضباط ملك الفرس في معركة اسوس

ان الفنّان الذي وضع رسم هذا العمل العظيم قد اختار لذلك اللحظة الخطيرة حين كان الفرس (الى اليمين) يجتهدون في انقاذ ملكهم من مهاجمة المكدونيين (الى اليسار). الاسكندر حاسر الراس في الصورة ممتطٍ جوادهُ (عن اليسار) يهجم هجوماً عنيفاً على ملك الفرس (داريوس الثالث) وهو واقف في مركبتهِ (الى اليمين). وكان الهجوم المكدوني شديداً جداً حتى كانت حياة الملك ، من جرَّائهِ ، في خطر. فترجَّل احد اشراف الفرس وقدم له جوادهُ ليمتطيهُ حالاً ويطلق له العنان طالباً للنجاة. وكان اشراف الفرس الامناء ممتطين جيادهم وحائلين بين ملكهم وهجوم المكدونيين لكي يكون لداريوس فرصة للركوب والهرب ولكن رمح اسكندر اخترق صدر احد اولئك الاشراف الذي افتدى الملك بنفسهِ . فمدَّ اذ ذاك داريوس يدهُ مرعوباً حزيناً لموت صديقهِ الشريف على هذه الصورة . اما سائق العربة الملكية (وراء الملك) فانهُ اعمل السوط في ظهور الجياد الثلاثة محاولاً ان يختطف الملك ويفر بهِ سريعاً (ف ٦٣٦) . صنع هذا المشهد النفيس للمعركة في الاصل من قطع زجاج ملوَّن (فسيفساء) واكتشف سنة ١٨٣١ في ارض احد المنازل بمدينة بمباي الرومانية (ش ٢٠٩) ولكنهُ وُجد بعض اجزائهِ مشوَّهاً وخصوصاً عن اليسار حيث زالت بعض الاجزاء من صورة الاسكندر وجوادهِ . مُدَّت هذه الصورة في الاصل على الارض بالاسكندرية ولما نُقلت الى ايطاليا بعد نزعها من مكانها بالقوة حصل فيهـا التشويه المذكور . وهذه ايضاً نسخة منقولة عن صورة يونانية اقدم منهـا صوِّرت بالاسكندرية (ف ٦٨٤) وهي من اعظم مشاهد البطولة في ساحة القتال يتبين منها نفاسة الفن الروماني

(٦٣٥) زحف الاسكندر بجيشه وسط اسيا الصغرى

دعت الحال اليها في هذا الوقت العصيب · وكان قبل براحه لوطنه قد غادر فيه قوة عسكرية وأيقن كل الايقان ان العبرة التي رآها الناس في سحق ثيبة ستكون مانعاً قوياً للاسطول الفارسي في بحر ايجه من ان يحرك بلاد اليونان الى ايقاد نيران الثورة في غيابه · ولذلك لم يتلكأ عن الجد في المسير شرقاً سالكاً الطريق التي سار عليها العشرة الآلاف يونانيا والبسالة رائده · فقطع بجنوده المضيق الشاق المسمى بابواب كيليكية ودار حول الزاوية الشمالية الشرقية من البحر المتوسط · ولما رفع عينيه ورأى اراضي الهلال المخصب تمثل لديه العالم الاسيوي الشاسع الاطراف البعيد الاكناف الذي يُقل اربعين مليوناً من السكان الخاضعين منذ مئتي سنة ، لاسرة « الملك العظيم » وايقن انه سيكون في العشر السنين التالية بطل هذا المعترك الخطير

(٦٣٦) انكسار داريوس الثالث في معركة أسوس (٣٣٣) ق·م

في هذه النقطة المهمة عند خليج اسوس التقى الاسكندر جيشَ الفرس الرئيسي يقوده داريوس الملك العظيم ، آخر الاسرة الملكية الفارسية بنفسه وسار الاسكندر الآن في ادارة الحركات الحربية على منهاج ابيه وابيمنداس ، وهو ان يكون البادىء بالهجوم مع ما كان عليه العدوّ من مناعة المركز وراء النهر · فصف جنوده في خط منحرف جاعلاً الفرسان الذين تالف منهم الجناح الايمن من جيشه ادنى الى صفوف العدوّ من سائر الجيش. ثم هجم هجوماً عنيفاً يتبعهُ فرسانهُ المكدونيون قاطعين النهر (ف ١٥٥) فانهزم الجناح المقابل من جيش العدو · ثم جرت المحاربة في القلب والجناح الآخر ، والحماسة آخذة من المتحاربين كل مأخذ ، ولكنها كانت سِجالاً فلم تقع معركة فاصلة بين الفريقين · الاّ ان الفرسان المكدونيين الظافرين في الميمنة ارتدّوا على قلب الجيش الفارسي وهاجموهُ من كل جانب فمزّقوهُ كل ممزّق وشرّدوا الاسيويين من ساحة العراك ففرّوا مع مليكهم لا يلوون على شيء حتى قطعوا الفرات حيث وقفوا وتنفسوا الصُعداء · وبعث الملك الفارسي العظيم برسالة الى اسكندر يلتمس بها منهُ ان يبعث اليه بشروط الصلح · وعرض عليه ان يكون الفرات الحدّ الفاصل بينهما · فكل ما كان من اسية واقعاً غربيّ ذلك النهر يسلّم الى المكدونيين

(٦٣٧) الموقف بعد اسوس واصدقاء الاسكندر

وحين وصول رسالة ملك الفرس تناولها الملك الشاب بيده وفيما كان يتلوها كان محفوفاً برهطٍ من انجب الشبان المكدونيين واشدهم باساً الذين شبّوا معهُ وكانوا اقرب المقرّبين اليه ، وبرهط آخر من كبار المستشارين الذين كانوا قبلاً لدى ابيه يعوّل على آرائهم ويعتمد على مشورتهم في الخطوب · وكانت اخطار المعارك ومشاق الزحف والمعاشرة اليومية في المضارب وسهر الليالي على اديم الارض في العراء قد ابرمت امتن رُبط الولاء والمحبة

الخالصة والعطف بين هولاء المكدونيين الامناء المخلصين وبين مليكهم الشاب المتقد حماسة

(٦٣٨) نصيحة برمينيو بقبول شروط الفرس بعد معركة اسوس

وبعد ان انعم القائد الكبير پرمينيو النظرَ في رسالة الملك داريوس قدَّم نصيحة مهمة. وكان پرمينيو هذا من قواد فيلبس وقد تولى هذه المرَّة قيادة ميسرة الجيش المكدوني في المعركة الاخيرة التي عُقد الفوز فيها للاسكندر . ويكاد يخيَّل الينا الآن ان هذا الرجل الجليل يتساند بلا كُلفة الى منكب الملك الشاب المتغطرس — وكان قد بلغ الآن الثالثة والعشرين من عمره — يحدّثهُ مشيرًا بيده في اثناء الحديث الى البحر المتوسط قائلًا لهُ «تذكّر ان وراءك اسطول الفرس الذي لا يبعد انهُ يحرّك اليونان الى الثورة عليك» ثم اضاف الى قوله «بما ان داريوس هو من وراء الفرات فبلاد فارس في مأمن من جهة اوربا والعالم اليوناني نظرًا الى بُعد المسافة . وفوق ذلك كله ان الحملة على ملك الفرس العظيم قد جاءت بحكم العقل بكل ما يُنتظر الحصول عليه منها . ولا مراء في ان اباك الملك لم تكن خطتهُ لتتعدَّى الحدود التي بلغت اليها هذه الحملة الظافرة»

(٦٣٩) الحكم البات عقب معركة اسوس والاختلاف بين الاسكندر واصحابه في الرأي

وكان الحكم القاطع الذي صدر بعد معركة اسوس الحدَّ الفاصل وبتعبير آخر مُفترَق الطرق . فظهر لعيني الاسكندر الشاب — كما بروْيا — منظر امبراطورية عظيمة الشان تشمل العالم باسره تحت سلطة الحضارة اليونانية — روْيا لم ترَها عيون الرجال الذين معهُ لانها ضعيفة فاقصاهم عنهُ ، وهم مستشارو والده المحنَّكون ، لانهم لم يروا ما رآهُ . وعقد النية على الزحف لفتح مملكة الفرس برمّتها فاماط هذا الحكم الفاصل ، البعيد النتائج في المكان والزمان ، الحجابَ عن شخصية قوية مثّلت عصرًا جديدًا . وهكذا قام النزاع بين العصر الجديد والقديم ، نزاع لا نهاية لهُ كما رأينا في اثينا (ف ٦٠٢) ولكنهُ بلغ معظم شدَّته بين الاسكندر ورهطه المخلصين من المكدونيين الذين جرَّهم الى القيام باعمال شاقة ينوء بها اعظم الابطال ألا وهي فتح العالم باسره

(٦٤٠) فتح فينيقية ومصر . تبديد الاسطول الفارسي

ان الخطر الذي كان يخشى وقوعهُ من الاسطول الفارسي قد زال الآن بطريقة دُبّرت بالتأني والحزم وهي الزحف جنوبًا مقابل الطرف الشرقي من البحر المتوسط والاستيلاء على جميع الموانئ الفينيقية . ولولا آلات الحصار التي كان ابو الاسكندر قد اخذها عن اليونان الغربيين لحبطت مساعي حملة ابنه حبوطًا تامًّا . فاستخدم الاسكندر في محاربته لمدينة صور وتدمير اسوارها الآلات التي اختُرعت اصلًا في الشرق (ش ٦٨) وقد أُعيدت اليه الآن مع بعض تحسينات اضافها اليها اليونان . وقد كانت صور حتى الآن في مأمن من عدوّ مفاجئ بالنظر الى موقعها البحري لان المياه من حولها اسوار لا تقوى عليها آلات الحصار . وقد

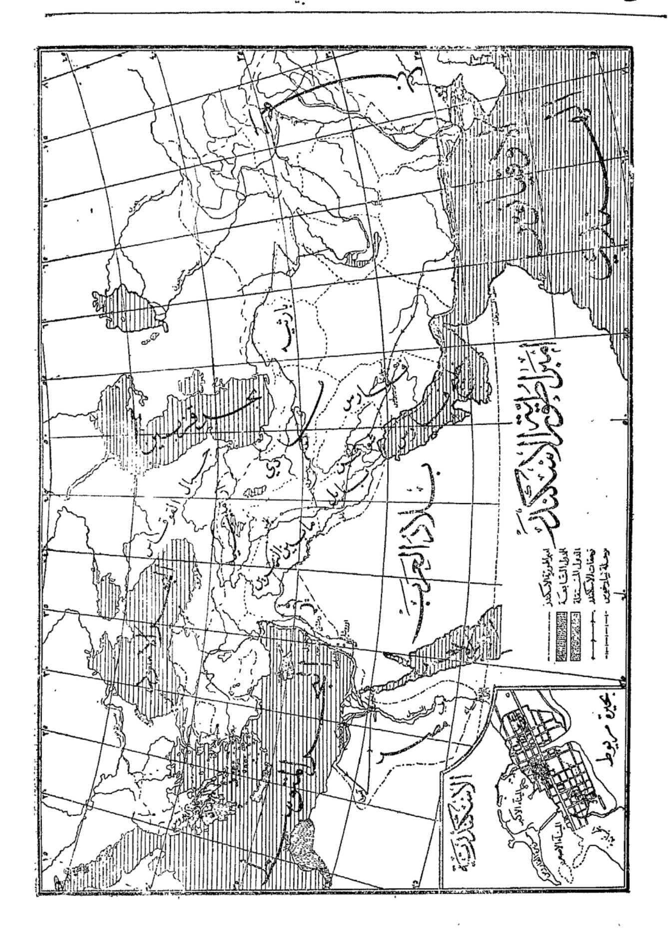
عجز الاسكندر باديء بدء عن الاستيلاء عليها ولكن فتقت لهُ الحيلة ان يبني سدًّا في المياه يصل البر بالجزيرة الصغيرة القائمة عليها المدينة · ولما انجز العمل اتى بآلات حصار وثغر بها الاسوار واستولى على المدينة · ولكن هذا السدّ طُمر بما سفتهُ عليهِ الرياح من الرمال على مرّ السنين فتكوَّن من ذلك برزخ تحوَّلت بهِ الجزيرة التي كانت قائمة عليها مدينة صور الى شبه جزيرة كما تُرى الآن · ثم استولى المكدونيون على مصر غنيمة باردة بعد ان لبثت امدًا طويلًا ولاية فارسية ضعيفة · واما الاسطول الفارسي فلما أُخذت جميع المواني التي كانت في حوزتهِ وانقطعت الصلة بينهُ وبين بلادهِ تفرَّقت سفنهُ ايدي سبا ولم يبقَ لها في مياه المتوسط عين ولا اثر

٦٤١) زحف الاسكندر على بلاد فارس · معركة اربيلا

وبعد ان مزَّق الاسكندر شمل ساقة العدوّ عاد من مصر الى اسية وسار بجيشهِ في الاراضي المعروفة بالهلال المخصب وقطع دِجلة بقرب الآكام التي كانت في قلبها اخربة نينوى · وكان ملك الفرس قد حشد جنودهُ للمرَّة الاخيرة في مكان بالقرب من اربيلا · ولم يكن الفرس يعلمون شيئاً عن التقدم الذي بلغهُ اليونان والمكدونيون في فن الحرب · وكانوا هم من هذهِ الحيثية متأخرين عن ابناء زمانهم كما كان اهل الصين متأخرين عن اليابان مراحل ايام نشبت بين البلادين حربها الاخيرة · الاَّ ان الفرس ابتكروا حيلة حربية جديدة وهي انهم هيأوا عددًا من المركبات وربطوا الى جزوعها مناجل حصاد بارزة من الجانبين ليحصدوا بها الاعداء · ولكن حيلتهم هذه لم تدفع عن جيشهم مقدورًا لان المكدونيين بطشوا بهِ وسحقوهُ على بكرة ابيهِ فلاذ ملك الفرس العظيم بالفرار ولسان حاله يقول ارضى بالفرار واسلم · وبعد ايام قليلة احتلَّ الاسكندر قصر ملك الفرس في بابل (ف ٢٨٢)

٦٤٢) موت داريوس الثالث (٣٣٠ ق·م) الاسكندر سيد الشرق القديم

وفيما كان داريوس هارباً الى الجبال الشرقية طعنهُ بعض حشمهِ الخَوَنة بخنجر فمات (٣٣٠ ق·م) فلما علم الاسكندر بذلك امتطى جوادهُ يصحبهُ بعض اركان حربهِ وذهب لكي يرى جُثمان آخر اباطرة الفرس وسيد اسية الذي قد انتقلت الآن مملكتهُ المترامية الاطراف اليهِ · واقتصّ الاسكندر من القتلة وارسل جثمان الملك القتيل محفوفاً بمجالي التكريم ومظاهر الأُبهة الى والدتهِ وشقيقتهِ اللتين كان قد قدَّم لهما حمايتهُ وضيافتهُ · وهكذا آل امر السلطة في وادي النيل والهلال المخصب ، مهد اقدم المدنيات ، الى دولة ذات مدنية احدث عهدًا واسمى درجة من المدنيات التي سبقتها · وقد مرَّ معنا تاريخ وادي النيل والهلال المخصب ووصف الادوار التي مثَّلها هذان البلدان على مرسح التاريخ القديم ·



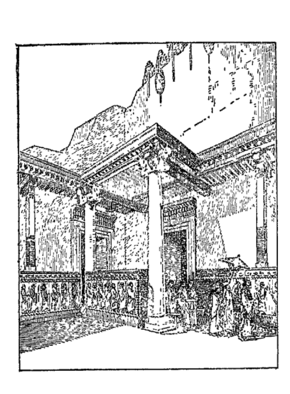
اما المدة التي مرّت منذ دخول الشاب المكدوني الى اسية حتى هذا التاريخ فاقل من خمس سنوات

٦٤٣) استيلاء الاسكندر على المدن الملكية الفارسية

وكان لا بد للاسكندر من القيام ببعض امور ترسيخاً لاركان مملكته في اسية مع انهُ لم يبق شيء يخشاهُ من الفرس. فاستأنف المسير ووجهتهُ مملكة الفرس الصغيرة الاصلية التي خرج منها كورش منذ ما يزيد عن مئتي سنة ظافرًا منصورًا. فلما بلغ الى شوشن وقف عن السير (ش ١٥٦) وذهب الى زيارة ضريح كورش في برسيبولس ولما بلغ اليها اضرم النار في قصر ملوك الفرس بيده كما فعل الفرس من قبل بميليتس وهياكل الاكروبولس في اثينا جاعلًا ذلك بيّنة محسوسة على سيادتهِ وتسلطهِ في اسية ولكنهُ امر باطفائها قبل ان تحتدم وتلتهم القصر لانهُ لم يقصد بفعلهِ هذا الا الرمز فقط

٦٤٤) غزوات الاسكندر في الشرق الاقصى ٣٣٠ — ٣٢٤ ق م

ولما وصل الاسكندر الى اكبتنا في الشمال غادر فيها برمينيو الذي ائتمنهُ على كنوز الذهب والفضة، التي كان ملوك الفرس قد قضوا السنين الطوال في جمعها وتكويمها، وجدّ في السير شرقاً وبعد مرور خمس سنين، فيما كان العالم اليوناني ينظر الى هذه الامور الواقعة بعين الدهشة والاستغراب، كان هذا الشاب المكدوني قد بلغ الى اطراف العالم المعروف في ذلك الوقت . زحف اولاً الى جهة الشمال يذلل الصعاب ويمهد



الشكل ١٥٦ زاوية فناء قصر داريوس الاوّل في شوشن الذي استولى عليهِ الاسكندر الكبير (حسبما رسمهُ بيله)

ان اعمال الحفر والتنقيب التي قام بها الفرنساويون في شوشن قد كشفت عن النقش البارز المدهش المختص بنارامسن (ش ٦٣) والعمود المنقوشة عليهِ شرائع حورابي (ش ٦٥). وفي الوقت نفسهِ كشف الفرنساويون اخربة القصر الذي بناهُ داريوس الاوّل في ايام مرثون وكمل في ملك احشويرش في زمن سلاميس قبل ان فتح الاسكندر شوشن بمئة وخمسين سنة وعمل الترميم الذي قام بهِ المهندس الفرنساوي يظهر لنا الامبراطور الفارسي وحشمهُ آتين الى احد افنية القصر. ونرى على طول قاعدة الجدار الزخارف الفاخرة من اللبن المدهون بسائل الزجاج يتمثل لنا منها صفوف الجنود الفارسية كما في (شكل ٨٤). ولا بد انهُ كان بنفس هذه الهيئة حينما دخلهُ اسكندر اول مرّة ليستولي على مقام ملك الفرس المتوفَّى الذي كان فاخرًا نفيسًا

العقاب حتى وصل الى انجاد ايران فقطعها وعبر نهري جيحون وسيحون ثم حول وجهتهُ الجنوب فقطع نهر السند وتخوم الهند وبلغ الى وادي الكنغ وهنا اصاخ الى تذمر جيشهِ الباسل واضطرتهُ الحال الى النكوص على الاعقاب

(٦٤٥) رجوع الاسكندر من الهند الى بابل ٣٢٣ ق٠م٠ وبعض نتائج غزواته في الشرق

ولم يرجع الاسكندر في الطريق التي اتى بها الى الهند بل في نهر السند الذي كان قد بنى عليهِ اسطولاً . ولما بلغ النهر في الاقيانوس الهندي قسم جيشهُ الى قسمين قسم سافر بحرًا في السفن التي كان قد بناها وقسم سافر معهُ برًا ووجهة الجميع بابل٠وقاسى هو والذين معهُ من الشدائد والمشقات والجوع والعطش في اثناء قطع المفاوز والفلوات مما لا يحيط بهِ وصف حتى ان كثيرين من جنودهِ كانوا يقعون على جانبي الطريق إعياء٠ووصل الاسكندر الى بابل العظيمة بعد غياب سبع سنين عنها ٠ وقد تلبث في اسية اثنتي عشرة سنة نقل في غضونها الحضارة اليونانية الى قلب القارة ٠ وكان في اثناء حملاتهِ الحربية يؤسس في الاماكن المهمة مدناً يدعوها باسم الاسكندرية نسبةً اليهِ وانشأ على تخوم الهند ممالك لتكون في المستقبل مراكز للنفوذ اليوناني ٠ وبواسطة هذه المراكز دخلت الفنون اليونانية بلاد الهند وصارت اساساً للفنون التي لا تزال موجودة فيها حتى الآن واتصلت ثمرات الصناعة اليونانية — ولا سيما قِطَع النقود القديمة — بواسطة رعايا الاسكندر في هذه الارجاء القاصية من الشرق ، الى بلاد الصين فكانت تنشيطاً للصناعة الحديثة فيها وفي اليابان ٠ ولم يحصل هذا الاختلاط بين الشرق والغرب في زمن من الازمان كما حصل في اثناء غزوات الاسكندر المدهشة في الشرق

٦٥

سياسة الاسكندر العمومية وعواقبها الشخصية

(٦٤٦) مساعي الاسكندر العلمية

وفي اثناء القيام بهذه المهام الخطيرة ، كان عقل هذا الشاب الذي أُوتي قوة هرقل لا يكف عن الاشتغال بالف مسألة ومسئلة ذات وجوه مختلفة٠ فارسل بعثة الى اعالي النيل للبحث عن اسباب فيضانهِ السنوي وبعثة أُخرى الى سواحل بحر قزوين لتبني سفناً وترود بها ارجاء ذلك البحر الذي كان طرفهُ الشمالي لا يزال مجهولاً وكان قد احضر معهُ من بلاد اليونان رهطاً من العلماء الذين تمكن بمساعدتهم من ارسال مئات من نماذج التاريخ الطبيعي الى استاذه الكبير ارسطوطاليس الذي كان يعلِّم الآن في اثينا

(٦٤٧) اجتهاده في مزج الحضارتين الاوروبية والاسيوية

واكبَّ بعد ذلك على تنظيم البلدان التي افتتحها وتدبير شؤونها وادارة احكامها ولا مراء في ان هذه الامور سامتهُ نصباً شديدًا لانها اضطرّتهُ ان يعاني مطالعة اوراق الحكومة التي كانت توضع امامهُ كوماً لمطالعتها فضلًا عن إملائهِ على كتابهِ وار كان حربه الرسائل المتعلقة بخططهِ العظيمة ومشاريعهِ الجسيمة • وكانت ثقتهُ بقوة الحضارة اليونانية وتفوّقها على سواها لا يشوبها اقل ريب • ولذلك عقد نيتهُ على ان يجعل العالم باسرهِ يصطبغ بالصبغة اليونانية وان يمزج اسية باوربا ببثّه جوالي يونانية ومكدونية في اماكن مختلفة من البلدان التي عنت لسلطانه • فكان في جيشه المكدونيون واليونان والاسيّون جنباً لجنب • وادرك بفراسته انهُ لا يستطيع ان يسود العالم كمكدوني بحت وان لا بدَّ لهُ من ان يمنح الفرس بعض الامتيازات • فاقترن بركسانا ، اميرة من اسيَّة • وكانت حفلة العرس مما بهر الابصار • واجبر ضباط جندهِ ان يقترنوا بكرائم اشراف اسية فاحتذى مثالهُ الوف من المكدونيين وتزوجوا نساء اسيات • وعيَّن كثيرين من الفرس في مناصب عالية في الحكومة وجعل منهم عمالهُ في الولايات وقيل انهُ احتذى مثال الفرس في بعض ملابسه

(٦٤٨) خطط الاسكندر لفتح الجزء الغربي من البحر المتوسط

(٣٢٣ ق م) وفي اثناء هذهِ الامور المذكورة آنفاً نظم الاسكندر خطَّة لفتح الجزء الغربي من البحر المتوسط • وكان في جملة ما اختطَّهُ لها، بناء اسطول ضخم جدًّا يتألَّف من الف سفينة حربية لاخضاع ايطاليا وصقلّية وقرطاجنّة ، ومدُّ سكّة عمومية على طول ساحل افريقيا الشمالي تنفق عليها البدَر الكثيرة من الاموال ، وبناء طريق سلطاني لجيشه يمتدُّ من مصر الى قرطاجنّة ومنها الى اعمدة هرقل (جبل طارق) وهنا مجال لانتقاد سياسة الاسكندر • فقد كان الاحزم ان تتمَّ هذه الامور كلها على اثر القضاء على مملكة فارس بلا امهال • والظاهر ان الاسكندر لم يستطع ، على ما أُوتيهُ من صدق فِراسة وبُعد نظر ، ان يرى ان توحيد سواحل البحر المتوسط وضمّها معاً امبراطورية يتولى امرها حاكم واحد، اسهل جدًّا من توحيد وتنظيم بلدان متفرّقة مترامية الاطراف في الشرق الاقصى

(٦٤٩) تأليه الاسكندر ونتيجته المنطقية

تُرى ما هو المنصِب الذي كان يحلم بهِ الاسكندر وتطمح نفسهُ اليه في هذه المملكة الكبرى التي تشتمل على العالم المعروف باسرهِ ؟ ان تصورات الاسكندر بهذا الصدد لم تكن لتنحصر ضمن حدود معيّنة • فقد خطر لهُ مرَّة ان يأمر بنحت جبل اثوس تمثالاً لهُ هائلًا يمثلهُ ممسكاً بيمينه بلدة يبلغ سكانها عشرة آلاف نسمة • واعتزم ان يدَّعي الالوهية لان ارادة الآلهة ، على ما كان يعتقدهُ اليونان ، كانت لا تزال امرًا واجب التسليم به بلا جدل • فكان الواحد منهم يحني رأسهُ امامها دون ان يخامره اقل شعور بان في عمله هذا شيئاً من البغي عليهِ او الخنوع • وقد وجد الاسكندر في هذا النوع من العقلية اليونانية حلًّا

موافقاً لقضية مركزهِ الخاصّ في مملكتهِ . فان كثيرين قبلــهُ من عظماء اليونان قد اعترف لهم بالالوهية . ولم يكن في معتقد اليونان خط فاصل بين مركز الالهة والبشر . فالاسكندر نزعت نفسهُ الى ان يُعد في مصاف الآلهة لكي يتحكم بالمدن اليونانية بلا اثمٍ ولا حرج وقد مالأَهُ على ذلك عادة قديمة كانت شائعة قروناً عديدة لدى المصريين وهي النظر الى الملك كأنهُ من اصل الهيّ ، وابن الاله الشمس . ولم تكن هذه العادة شائعة في مصر فقط بل في سائر الشرق ايضاً

(٦٥٠) زيارة الاسكندر لمعبد معبد عمون في الصحراء

لما كان الاسكندر في مصر قبل هــذا الوقت بسبع سنين وطّن نفسهُ على زيارة معبد عمون في الصحراء (٦٠٤) مصحوباً بشرذمة من اتباعهِ مع انهُ كان لا يزال في اسية جيش من الفرس لم يبطش بهِ بعد ، يتوقع زحفه اليهِ . هنا في هذه المفازة الشاسعة البعيدة عن العمران التي قلما تسمع فيها نأمة انسان ، دخل الاسكندر حُجرة المعبد وحدهُ . ولا يعلم الاَّ الله ماذا جرى لهُ هناك ولكنهُ يُقال انهُ لما خرج من المعبد حيَّــاهُ رئيس الكهّان كابن زفس عمون . وبذل الاسكندر جلَّ العناية ليبلغ بلاد اليونان بأسرها حكاية هذا الامر العظيم الذي وقع لهُ في هذا المكان . الاَّ انهُ مرَّت حقبة طويلة قبل ان فقه اليونان معنى ذلك كلهِ

(٦٥١) طلب الاسكندر من مدن التحالف المنحلّ ان تؤلهه

وبعد مرور اربع سنين رأى الملك الشاب ان الالوهية التي ادعاهــا تفتقر الى اعلانات ومظاهر خارجية وامور أُخرى تعلن الوهيتهُ للعالم الذي كان يملك عليهِ . فعوَّل في ذلك على عادات شرقية من جملتها ان كل الذين يدنون منــهُ في الاوقــات الرسمية يجب عليهم ان ينحنوا امامهُ حتى تمس جباههم الارض ثم يقبّلوا رجليــهِ . وارسل بلاغاً رسمياً الى جميــع المدائن اليونانية مآلهُ ان التحالف الذي كان يرأسهُ اصبح منحلاً ، وانــهُ من الآن فصاعداً اضحى في عداد آلهة كل مدينــة . فصار يحق لهُ ان يأخذ جميع التقــادم التي كانت تؤديها المدن المختلفة

(٦٥٢) الحكم المطلق وحق الملوك الالهي

وبهذه الطريقــة دخــل اوربا الحكم الملكي المطلق وحــق الملوك الالهي كما دخلها شيء كثير من روح الشرق الذي كان قد غُلب وطُرد في مرثون وسلاميس . الاَّ ان هذه التدابير التي لجــأ اليها الاسكندر لم تنجم عن عقل سخيف ارضاء لخُيلاء اسكرتها السلطة حتى صارت تكتفي بالامجاد البشرية بل هي تدابير محكمة قضت بها سياسة الدولة وتمشَّت على سنَّة الارتقاء سنين عديدة

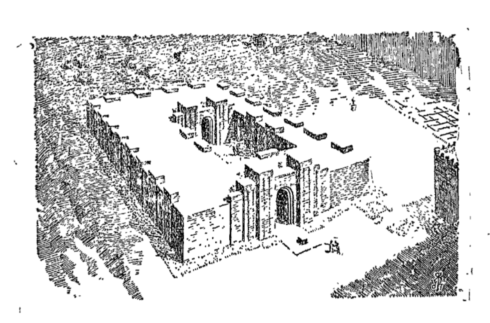
ولم يبلغ الاسكندر ، مَلِك العالم الآن ، الى تلك المــنزلة السامية ، الاَّ بعد ان حمَّل الاسكندر ، الشاب المكدوني ، واصدقاءهُ واتباعهُ الاخصَّاء ثمناً باهظاً (ف ٦٣٧) . وكان

(٦٥٣) تبعات شخصية وقعت على الاسكندر كنتيجة تعاليمه وسياسته الدولية

لا يزال يخفق تحت المطارف الفارسية التي كان يلبسها الاسكندر، إله المملكة، قلب ذلك الشاب المكدوني المملوء حماسة. رفع الاسكندر ذاتهُ الى درجة ممتازة من السموّ حتى لم يعد في طاقة الذين تبعوهُ الى اطراف الارض ان يتبعوهُ اكثر ولم يقدروا ان يُدركوا كُنه تلك التدابير التي قطعت رُبُط الأُلفة التي كانت تربطهم معاً في ساحات الوغى. ومما زاد في طينة تلك الحال بلّةً معاملة الاسكندر للدخلاء من الفرس كمساوين لاخدانهِ الاخصاء من المكدونيين او افضل. بل افضل ولم يكن بدٌّ من العواقب المحزنة لحالٍ كهذه

(٦٥٤) اعدام فيلوتاس و برمينيو واصحابهما

وفي اوائل تلك الاسفار المخيفة الى الشرق بعد موت داريوس اتصل بعلم فيلوتاس ابن برمينيو عقد مؤامرة لاغتيال الاسكندر ولكن بغضهُ لهُ ونفورهُ منهُ منعاه من ان يعلن



الشكل ١٥٧ هيكل بجانب القصر الملكي في بابل حيث كان الاسكندر يقدم قرابين كل يوم

ان اعمال الحفر التي قام بها الالمان كشفت عن خرائب هيكل عند باب القصر العظيم. وقد رسم مدير العمل الاستاذ كُلدوي هذه الصورة التي تمثل الهيكل بشكلهِ الاصلي. و يستفاد من الانباء القديمة التي اتصلت الينا ان الاسكندر كان معتاداً ان يقدم محرقة كل يوم على مذبح هذا الهيكل الذي يُشاهد امام الباب ومات كلدوي وهو يرمم مباني بابل ولاسيما برج الهيكل المتهدم وقد وجد مقادير كبيرة من التراب كان الاسكندر قد امر برفعها

الواقع. فحُوكم المتآمرون محاكمة عادلة بموجب القانون. وكم اشجى فؤاد الاسكندر حين رأى رَهطاً من اصحابهِ ورفقائهِ سابقاً وفيهم فيلوتاس يُحكم عليهم بالاعدام ويُنفَّذ الحكم بمرأى من الجيش. واتُّهم برمينيو الامين بأن لهُ ضلعاً في المؤامرة وكان لا يزال مقيماً باكبتنا محافظاً على الخزينة الفارسية فارسل الاسكندر رسولاً بيدهِ امرٌ بوجوب اعدام ذلك القائد الشيخ الامين بوجه السرعة. ولم تكن هذه الامور الاَّ بداية فقط للمحن التي كان على

الاسكندر ملك العالم ان يجتازها قبل ان يتبوأ عرش الالوهية

(٦٥٥) قتل الاسكندر لصديقه اكليتوس

واكليتوس ايضاً الذي انقذ حياة الاسكندر في غرانيكس امتلأ حزناً وغضباً من المسلك السياسي الذي سلكهُ مولاهُ ولما جاء ذكر هذه الامور في احدى المآدب الملكية لم يتحفظ في انتقادهِ لهُ ولم يقدر ان يضبط نفسهُ بل لامهُ وعنفهُ تعنيفاً شديداً فغضب منهُ الاسكندر وتهيج جداً حتى انهُ تناول رمحاً من احد رجال حرسهِ وطعن به صدر الرجل الذي كان لهُ الفضل عليه بتخليصه حياتهُ من الموت · ولكنهُ ندم على فعلتهِ وانفرد في سرادقه ثلاثة ايام صامتاً ينوح ويبكي من شدة حزنه وتبكيت ضميرهِ · وقد ابى ان يذوق طعاماً او شراباً مكتفياً بحزنه طعاماً وبدموعه شراباً · وعزم ان ينتحر ولكن اركان حربه حالوا دون ذلك · فهذا بعض الثمن الباهظ الذي اداهُ الاسكندر في سبيل السياسة الخرقاء التي سلكها

(٦٥٦) اعدام كلستنيس

وكذلك طلبهُ من كل من يريد مقابلتهُ ان يسجد امامهُ ويعفر جبينهُ في التراب ويقبل قدميه فانهُ خسرهُ صديقهُ المؤرخ كلستنيس الذي أتهم بعد هذا الوقت بقليل بأن لهُ خلطة في مؤامرة على الملك قام بها اتباعهُ من نبلاء المكدونيين فكان جزاؤهُ الاعدام وكان هذا ابن شقيقة ارسطوطاليس مهذب الاسكندر فانقلبت الصداقة بين المعلم وتلميذهِ الملك الى عداوة مرة

(٦٥٧) موت الاسكندر

ولما عاد الاسكندر الى بابل وجد ان صديقه (ش ١٥٧) هفستيون الذي كان احب خاصتهِ اليه قد مات فحزن عليه حزناً شديداً وابى ان يتعزى اياماً واحتفى بجنازتهِ احتفاء لم يسبق له مثيل · وفيما هو يتأهب لحملة على بلاد العرب لكي يخضعها ويتفرغ لفتح البلدان التي في الجهة الغربية من البحر المتوسط مرض اثر افراطه في رشف الخمرة ونهمهِ ومات بعد ايام قلائل في الثالثة والثلاثين من عمره والثالثة عشرة من ملكه (سنة ٣٢٣ ق·م)

مسائل

٦٣

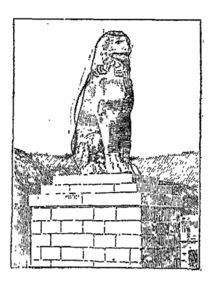
ماذا كانت سياسة فيلبس المكدوني ؟ اي تحسينات جديدة ادخلها على فن الحرب ؟ ماذا افتكر اليونان من جهة خططهِ ؟ من كان الحزبان الرئيسيان ؟ ماذا تستطيع ان تقول في ديمستنيس ؟ ماذا كانت نتيجة قتال فيلبس لليونان ؟ من خلف فيلبس ؟ كيف تأدب خليفة فيلبس ؟

٦٤

أين علاقات الاسكندر مع اليونان ٠ ماذا نتج عن ثورتهم ضدَّهُ ؟ حامي ذمار مَن حاول ان يظهر نفسهُ ؟ صِف فتحهُ لاسية الصغرى ٠ اين لاقى جيش الفرس الاعظم ومتى ؟ ماذا كانت النتيجة ؟ ماذا عرض ملك الفرس عليهِ ؟ اية نصيحة قدّمت للاسكندر ؟ ماذا فعل ؟ اي نزاع قـام ؟ كيف تخلَّص من الاسطول الفينيقي ؟ الى اين ذهب الاسكندر بعد فتحهِ مصر ؟ صِف مصادمتهُ التاليـة للفرس ٠ ماذا جرى لداريوس الثالث ؟ ماذا جرى بسبب ذلك لمصر وغرب اسية ؟ اية مدن عظيمة من بلاد فارس زارها الاسكندر وقتئذٍ ؟ ماذا حدث هناك ؟ صِف الاسفار البعيدة التي شرع فيها الآن ٠ هل تقدر تتبُّعها على الخريطة ؟ ماذا كانت نتيجة هذه الاسفار ؟

٦٥

اي مشاريع علمية قام بها الاسكندر ؟ أين الخطط التي عوَّل عليها في مزج المدنيتين اليونانية والاسيوية ؟ اية خطط أخرى عظيمة كانت لديهِ من جهة الفتوح ؟ ماذا كان مركزهُ في الامبراطورية الجديدة ؟ كيف استعدَّ لهذا المركز وهو بعد في مصر ؟ كيف طلب تعديل هذا المركز من جديد ؟ اي تأثير كان لهذا الامر في اصدقائهِ الاخصَّاء ؟ ماذا جرى لپرمينيو ؟ وأكليتس ؟ وكاستنيس ؟ اين مات الاسكندر وكيف ومتى ؟



الشكل ١٥٨

يرينا هذا الرسم الاسد الذي نصبهُ الثيبيون في ساحة معترك كورونيا تذكارًا لابناء مدينتهم الساقطين في حومة الوغى وقد كشفت الحفريات جثثًا وبقايا نار الجنازة

القسم الرابع

بلدان البحر المتوسط في العصر الهليني

الاسكندر وجمهورية رومية

الفصل التاسع عشر

خلفاء الاسكندر

٦٦

الخلفاء على مملكة الاسكندر

(٦٥٨) ما عقب موت الاسكندر من النتائج

لُقِبَ الاسكندر « بالكبير » وما اجدرهُ بهذا اللقبِ ! قليلون اهل العبقرية الذين تركوا آثارًا خالدة في مجرى الحياة البشرية دامت بعدهم آمادًا طوالاً دون ان يقوى الزمان على محوها . ولكن لم يقم من نسل آدم كلِّهِ شخص واحد كان لهُ في وقت يسير تأثير خالد في شؤون البشرية كالاسكندر في مدى حياتهِ القصيرة . فانهُ بفتوحاتهِ العظيمة قد أنال اليونان تفوّقًا في السياسة كانوا قد بلغوا الى مثلهِ في الحضارة قبل ذلك بزمن طويل كما رأينا في ما مرَّ علينا من تاريخ أمتهم . فوفاتهُ في إبَّان وضعهِ وتنسيقهِ الخطط التي كان ينوي القيام بها كان ضربةً قاضية على الآمال الخطيرة التي كانت تختلج في ذلك الصدر الكبير

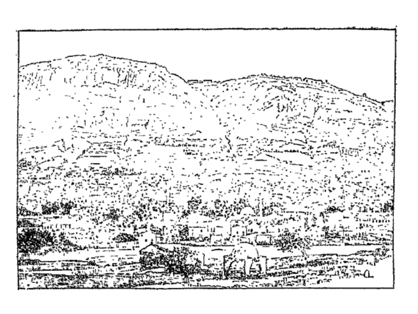
وامسى توحيد اليونان وسائر البلدان بقوة ذلك الشعب الممتاز الذي كان عاملًا على تمدين العالم ، ضرباً من المستحيل الى الابد . وهو لو فُسح لهُ في الاجل عشرين سنة أُخرى لتمكَّن من بلوغ الانقلاب العظيم الذي كان يروم احداثهُ في العالم . وقد وجد قوادهُ بين اوراقهِ في بابل رسم الخطط الحربية التي كان قد وضعها لحملتهِ الغربية العظيمة ولكن لم يُؤتَ احدٌ منهم عبقريتهُ ليقوم بتنفيذها . ولم يكن بينهم واحد متحلٍّ بالصفات التي تكسبهُ ثقة الجميع ليُجمعوا على انهُ جديرٌ بالملك واهلٌ لان يكون خليفة للاسكندر . هذا من هذه الجهة . ومن الجهة الاخرى لم يدرْ في خَلَد احد منهم العود الى الحالة التي كانت قبل عهد الاسكندر اذ كان العالم منقسماً الى يونان وبرابرة ، لان الاسكندر كان قد قضى عليها قضاء مبرماً ، ولا سلَّموا بقسمة المملكة بينهم قسمة نهائية ما دام يوجد عضوٌ واحد من الأُسرة الملوكية المكدونية يطالب بالعرش . وكان لا يزال باقياً من تلك الاسرة شاب معتوه هو اخو الاسكندر لابيهِ ثم زيد عليها بعد وقت قصير الابن الذي ولدتهُ رُكسانا ارملة الاسكندر في اسيا بعد وفاة زوجها ودُعي بالاسكندر الثاني . وبناء على ما تقدم انتخب الجيش احد القواد ليقوم بنيابة الملك عن الوارثَين الشرعيين للاسكندر وبذلك احتُفظ بنظرية وَحدة المملكة واقتُسمت ادارتها الفعلية بين عدد من القوَّاد الذين كانوا اعظم اقتدارًا وحُنكة من سواهم . ولكن دوام الوَحدة على هذه الحال التي كان اقرب الى الخيال منها الى الحقيقة كان من المحال بالنظر الى المطامع المتضاربة التي كانت تحتكُّ في صدور عُمَّال المملكة ومرازبتها الاشداء ممن كانت تنزع بهم انفسهم الى العلياء

(٦٥٦) خلفاء الاسكندر، ممالكهم الثلاث في اوربا واسية وافريقية

ونشِب عمَّا قليل بين القوَّاد الاقوياء ، الذين اقتسموا ادارة امبراطورية الاسكندر فيما بينهم ، عراكٌ هائل لم يكن يخمد قليلًا الاَّ لينشب من جديد اضمحلَّت في اثنائهِ اسرة الاسكندر ووالدتهُ معها . وكان اشدُّ المتبارين في هذا العراك انتغونس القائد العظيم في جيش الاسكندر الذي وطَّن نفسهُ على الاستيلاء على كل الامبراطورية المكدونية المترامية الاطراف . وقامت بين الطامعين بالمُلك حروب دامية مهلكة برًّا وبحرًا كانت معاركها اعظم المعارك التي قامت بها جيوش اوربا حتى الآن قتل فيها انتغونس وهلك كثيرٌ غيرهُ من المطالبين بالساطة . وانقسمت مملكة الاسكندر الى ثلاثة اقسام في اوربا واسية وافريقية رأس كل قسم منها احد قوَّاده او خلفائهِ[١] فاستولى على مكدونية في اوربا انتغونس حفيد انتغونس القائد الكبير المذكور آنفاً وحاول الاحتفاظ بالسلطة على اليونان[٢] وكان نصيب القائد سلوقس ، معظم ما كان يُعرف قبلًا بمملكة الفرس في اسية[٣] ونصيب بطليموس ، ادهى قوَّاد الاسكندر المكدونيين ، بلاد مصر بافريقيا

(٦٦٠) مملكة البطالسة المصرية

وبالتدريج جعل بطليموس نفسهُ ملكاً على مصر فاصبح مؤسس أُسرة ملوك تولوا شؤون المملكة على التعاقب واشتهروا باسم البطالسة · وكان بطليموس مؤسس الدولة معروفاً ببعد النظر وصدق الفِراسة فرأى ان الحال ستضطرهُ في المستقبل الى ان يأتي بجنود من المرتزقة من بلاد اليونان فدفعتهُ اصالة رأيه الى بناء اسطول لتكون له السيادة على بحر الروم · فتمّ لهُ ما اراد واتخذ الاسكندرية ، المدينة البحرية العظيمة التي اسسها الاسكندر عند الطرف الغربي من دلتا النيل ، مقاماً لهُ فاصبحت اعظم المرافىء على سواحل المتوسط · وصار الجزء الشرقي منهُ ، من بلاد اليونان الى سورية ومن بلاد الجهة (سفيد) الى دلتا النيل ، بحرًا مصريًّا فعلًا ، مدى قرنٍ من الزمان (القرن الثالث ق·م على وجه التقريب) · واستولى البطالسة ايضاً على منطقة فلسطين وجنوبي سوريا لتكون حاجزًا حصيناً بينهم وبين مناظريهم الاسيويين · وهكذا نشأت امبراطورية مصرية في الجانب الشرقي من المتوسط مثل الامبراطورية التي شاهدناها حين زرنا مباني طيبة الفخمة قبل هذا الوقت بالف سنة · وحذا البطالسة حذو الفراعنة بأن بلغوا باساطيلهم الى البحر الاحمر · وكانت تلك الاساطيل تغشى البحار مبثوثة فيها من الاقيانوس الهندي الى الدردنيل ومن صقلية الى سورية تحمل ثروات الامم الى خزانة ملك مصر



الشكل ١٥٩ يرى في هذا الشكل صورة انطاكية الحديثة في سورية

ان المعركة العظيمة الفاصلة التي وقعت بين قواد الاسكندر الكبير عند ابسوس في فريجية باسية الصغرى الوسطى (٣٠١ ق·م) صيّرت سلوقس سيد أسية (ف ٦٦٢) فأسس مدينة انطاكية ودعاها باسم ابيوانطيوخس (ف ٦٦٣) . وصارت انطاكية اخيرًا مركزًا عظيمًا للتجارة (٦٦٢) ومدينة فاخرة بلغ سكانها بضع مئة الف نفس ولكن توالت عليها الزلازل المخيفة فاندكّت بها المدينة العتيقة دكًّا . اما المدينة الحديثة فيبلغ سكانها اقلّ من ثلاثين الف نفس

(٦٦١) مملكة البطالسة الشرقية القديمة

ومع ان حكام مصر الجدد كانوا اوربيين ، لم يشيدوا مملكتهم على نمط يوناني او اوربي بل حسبوا انفسهم خلفاء الفراعنة القدماء فتسلطوا على مملكة مصر بالقوة المطلقة بلا قيد . الاّ انهم منحوا ثلاثاً من المدن اليونانية التي على النيل – ومنها الاسكندرية – الحقّ بادارة شؤونها المحلية كأنها في بلاد اليونان . وفي ما سوى ذلك لم يكن لاحد من الرعايا في كل بلاد مصر حقّ التصويت فيما يتعلّق بادارة الحكومة ولا الاعتراض على شيء من تصرفاتها او تصرف حاكم البلاد جرياً على ما كانت عليه الحال في ايام الحكومات الشرقية القديمة . فكان الغرض الرئيسي من وجود الحكومة ، ان تجمع للمتسلط على البلاد ما تستطيعهُ من الحصائل (الايرادات) ليملأَ بها الخزانة ويتمكن من القيام بنفقات اساطيلهِ الحربية العظيمة وجيشهِ من مرتزقة اليونان . وقد جرت مصر على هذه الخطة آلافاً من السنين فعيّنت موظفين محليين درّبتهم على اساليب فرض الضرائب وجبايتها . لم يكن في حكومات اليونان مثل هذا التنظيم ولكن البطالسة رأوا منهُ خيراً فحافظوا عليهِ . وكانت سلطة هولاء الموظفين تمتدّ حتى احقر بيوت الفلاحين الصغيرة المبنية باللبن . فكان حكم البطالسة من النوع الشرقي القديم المطلق وكان لهذا الضرب من الحكم القديم الذي لم تقوَ على ملاشاتهِ الايام ، تأثير عظيم بعيد في بلدان البحر المتوسط بأسرها حتى انهُ اخيراً قلب الحكومات الشعبية اليونانية والرومانية وحلّ محلها

(٦٦٢) مملكة السلوقيين باسيا

وكان السلوقيون اهمّ خلفاء الاسكندر وان كانوا اقلّ من البطالسة حولاً وشدّة لان القسم الاكبر من مملكتهِ كان في حيازتهم . وبعد حروب عديدة طويلة اوشك سلوقوس ان يشيّد ثانيةً اركان البناء السياسي العظيم الذي أُسس من قديم بقوة السلاح المكدوني فانهُ بعد ان وطّد امورهُ في اسية وجّه فكرهُ الى اوربا ولكنهُ قتل فيما كان على وشك ان يقرّر امر سلطتهِ على ثراكية ومكدونية . وبموتهِ قضي على الامل بالوحدة السياسيّة قضاء مبرماً . وكانت تخوم مملكتهِ غير محكمة الوضع والتعيين . ونظراً لترامي اطرافها ، من بلاد ايجه الى الهند ، كانت ادارة احكامها وضبط شؤونها من الصعوبة بمكان . وعلى تمادي الايام نهضت الولايات النائية من مملكة السلوقيين واعلنت استقلالها . اما الهند فبهمّة حكامها الوطنيين الاقوياء الذين اشهرهم تشندراغوبتا واسوكا ظلّت على استقلالها ولم تدنِ للسلوقيين قطّ . وقد كان للتقاليد اليونانية مدة يسيرة تأثير بيّن في تطوّر الجزء الشمالي الغربي من الهند . ويُعزى الى الفتح الاسكندري تحوّل بلاد البنجاب من مقاطعات عديدة صغيرة لا صلة بينها يتولّى حكمها نفرٌ من صغار الحكام الى مملكة كبيرة متحدة يرأسها حاكم فذٌّ كبير . وكان من اكبر الاسباب التي ادّت الى فقد الولايات الشرقية ، نقل عاصمة

المملكة السلوقية من بابل الى انطاكية سورية المدينة الجديدة التي اسسها سلوقوس في جوار مصب العاصي ودعاها باسم ابيه انطيوخوس. وعلى تمادي الايام نجحت انطاكية نجاحاً باهرًا واصبحت تنافس الاسكندرية في تجارتها بل غدت اهمّ مركز تجاري في شمال البحر المتوسط (ش ١٥٩) . وكان نقل عاصمة الحكومة مما جعل ضبط شؤون الولايات الشرقية البعيدة اصعب جدًّا مما كان قبلًا وجعل النفوذ اليوناني يزيد في سورية وينقص سريعاً في الشرق . وعاد النفوذ الشرقي في المنطقة الواقعة شرقي دجلة الى عزه السابق . ولما تقلّصت سلطة السلوقيين عن تلك البلاد شعر اهلها بانهم احرار وهبّوا لاعلان استقلالهم واغتنموا الفرصة واسسوا المملكة المعروفة بالفرتية في منتصف القرن الثالث ق.م. (ف ٦٦٤) وخلفوا الفرس في تقليدهم فصاروا قادة القوات الحربية التي تناوئ اليونان . وما لبثت المملكة السلوقية ان لاقت في الغرب نفس ما لاقته في الشرق من الشدائد والمصاعب لان اسطول البطالسة عرقل سير تجارتهم وحال دون تقدمها وجعل اتصالها ببلاد اليونان للاتجار او لجلب الجنود المرتزقة او المستعمرين صعباً جدًّا . وفوق ذلك كله كانت السلطة الرومانية الآخذة في الرقي قد شرعت تتدخل في سياسة الشرق الذي لم يستطع ، مع وجود هذا الخطر امامه ، ان يترك المنازعات التي كانت ناشبة فيه . وظلّ السلوقيون والبطالسة يتحاربون ويتطاحنون حتى افنوا قواهم واموالهم . واخيرًا حاول انطيوخوس الثالث ان يحالف فيلبس الخامس ملك مكدونية على رومية ولكنه قُهر في بلاد اليونان وردّ على اعقابه الى اسية الصغرى . واخيرًا اجبرته رومية على ان يتخلّى لها عن المنطقة الواقعة الى الشمال من جبال طورس ويتنازل عن كل ادّعاء بها في المستقبل . وظلّ نفوذ رومية يزداد في الشرق حتى امست على كرور الايام الحَكَم المستبد بين المتحاربين . ومن منتصف القرن الثاني ق.م حتى فُتحت سورية تحت إمرة پمپيوس القائد الروماني وأُدمجت في الامبراطورية الرومانية سنة ٦٤ ق.م تعاقب على عرش انطاكية عدة ملوك ضعفاء الواحد تلو الآخر في فترات متتابعة قصيرة الامد فابتلعت فرتيا جزء المملكة الواقع شرقي الفرات وعمّت الفوضى وتفاقم الاضطراب في الجزء الذي بقي للسلوقيين وظهر زعماء محليّون في اجزاء مختلفة من سوريا. وادّت محاولة السلوقيين لمدّ النفوذ اليوناني في فلسطين الى ثورة اليهود سنة ١٦٧ ق.م وعقدت رومية نكاية بالسلوقيين معاهدة مع الثوار واعترفت باستقلالهم لكنها لم ترفدهم بشيء . وبرهن زعماء الثورة على انهم فرسان الميدان وانهم اكفياء للموقف الذي وقفوه . وفي سنة ١٤٢ ق.م. جعلوا السلوقيين يعترفون لهم باستقلالهم الاداري ويعفونهم من تأدية الجزية . وبعد ذلك بامد يسير ، اعترفوا لهم ايضاً بسمعان المكابي رئيس كهنة واميرًا على اسرائيل . وتألفت

القبائـــل العربية التي على التخم الشرقي مملكة محاولة النظام عاصمتها البتراء واتسع نطاق سلطانها شمالاً حتى احاط بدمشق . وقام في اماسيا (حمص) وجبيل وايدسًا (اورفه) وفي لبنان زعماء من ارباب الاقطاع وانشأوا حكومات لانفسهم تعترف بسيادة سلوقيي انطاكية الذين كانت سلطتهم على اتباعهم وحكوماتهم اسميَّة فقط . ولما رات رومية تفاقم الشقاق في البلاد وان اوصالها آخذة بالتفكك حلَّت بها ضيفاً غير محتشم

(٦٦٣) دولة السلوقيين . المدن الحرة ووظيفة الملك

وكانت الخطة التي انتهجها السلوقيون لادارة شؤُون الحكومة تختلف جدًّا عن خطة البطالسة اذ كان سلوقوس على رأي الاسكندر في نقل جماعات من اليونان الى اسية ومزجهم بسكانها . ولذلك نراه قد اسس عشرات من المدن الجديدة في اسية الصغرى وسورية وما بين النهرين وبلاد الفرس وتخوم الهند[1] ومنحها استقلالاً اداريا على النمط اليوناني القديم اي ان كل مدينة كانت تعتبر جمهورية مستقلّة بذاتها يتولى ادارة الحكم فيها جماعة من سكانها . وكانت هذه المدن المستقلة مبثوثة في جميع ارجاء مملكة السلوقيين ولكنها كانت طبعاً خاضعة للملك وتؤَدي الجزية للخزانة . وانتهج السلوقيون نفس الخطة القديمة التي تمشّى عليها الاسكندر لاظهار سطوتهِ وسلطانهِ وهي النظر الى الملك كإله وتقديم الاحترام والطاعة لهُ . وكان الناس يقدمون هذا الاكرام للملك دون تردد او امتعاض مع انهم كانوا احرارًا مستقلين . وتخلق الاسيويون باخلاق اليونان واقتبسوا الكثير من عاداتهم وعلومهم وفنونهم الجميلة التي امتدَّت حتى انتهت الى اواسط القارّة العظيمة . الاّ ان التأثير اليوناني في حياة الاسيويين ، مع عظم انتشاره ، لم يسِر على السواء في جميع انحاء البلاد بل كاد ينحصر في المدن فقط . فلم يتأثر بهِ كثيرًا سكان القرى والدساكر الذين آثروا البقاء على عاداتهم الساميَّة القديمة والنطق بلغات آبائهم والاحتفاظ بتقاليدهم وافكارهم . وسنرى بعد قليل كما رأينا قبلاً كيف ان الساميين ابتلعوا غير الساميين الذين حلُّوا بينهم وطمسوا آثارهم

(١) نذكر من اشهر المؤسسات التي عني بتشييدها السلوقيون ما يأتي : في سوريا ، انطاكية وسلوقية (السويدية) الى الشمال من مصب العاصي وهي فرضة انطاكية ، وافاميا (قلعة المضيق قرب حمص) التي كانت المركز الكبير للقوة الحربية السلوقية حيث كان الملوك يحتفظون بقطعان الافيال التي كانوا يستخدمونها في حروبهم ، ولاودكية (اللاذقية الآن) . وفي اسية الصغرى ، افاميا أُخرى ولاودكية اخرى على السكة التي كانت تصل سوريا بساحل بحر ايجه في جوار افسس . وفي بلاد بابل سلوقية على دجلة وعلى مسافة ٦٥ كيلومترًا الى الشمال من مدينة بابل . وقد خلفت بابل في عظمتها بعد ان خربت هذه في العراك الذي نشب لامتلاكها وامتاز بهِ صدر العصر السلوقي . وكانت هنالك مدن أُخرى قديمة العهد بُدّلت اسماؤُها وتسمّت باسماء يونانية حين كان يمنحها الملوك السلوقيون امتيازات خصوصية او يجددون بناءَها

(٦٦٤) المناطق الرافعة الى الشرق من مملكة السلوقيين فرتيا وارمينيا

وكانت الاسباب التي مهدت السبيل لقيام مملكة فرتيا (ف ٦٦٢) نفس الاسباب التي ادَّت الى الثورة اليهودية وهي محاولة الملوك السلوقيين «يوننة» الاسيويين في اخلاقهم وعاداتهم وتقاليدهم ولسانهم وديانتهم. وكانوا تمهيداً لذلك، قد نهبوا هياكل الفرس واستهانوا بعبادة الاله مِثرا. فآل ذلك الى حركة وطنية غايتها الاستقلال والاستماتة في سبيل دفاع القوم عن حريتهم وتقاليدهم ولغتهم ومناوأة كل من يروم التعرُّض لهم فيها. فكانت هذه الحركة عوناً لمملكة فرتيا الحديثة النشأة وشدًّا لازر القائمين بالخطط العدائية ضدّ السلوقيين. وكان الفرتيون من اوفر الشعوب عدداً في مملكة فارس. وفي نحو سنة ٢٥٠ ق.م فازوا بشبه استقلال تحت زعامة الاسرة الطورانية من سلالة الارساكيين. وتبتدي عظمة مملكتهم الحقيقية من ملك مِثرداتِس الاوَّل (١٧٥–١٣٦ ق.م) الذي مدَّ سلطتهُ الى بلاد بابل. ولم يمنع الفرتيين من التهام مملكة السلوقيين برمتها الاَّ الاضطرابات الداخلية في مملكتهم والقلاقل المستمرَّة من جهة البرابرة على تخومهم الشمالية والشرقية. ومما عاق تقدم فرتيا حيناً من الزمن قيام ارمينيا التي كانت قد مزقتها المنازعات الداخلية منذ انقلاب مملكة الاسكندر ولكنها الآن قد اتحدت تحت قيادة تغرانس الاوَّل (ديكران) الذي بعد ان بسط سلطتهُ فوق الجزيرة (مسبوتاميا) وشمال كردستان واذربيجان حوَّل نظره الى الغرب فرأى وسط التشويش والاضطراب الضاربين اطنابها في مملكة السلوقيين بسورية فرصة سانحة لتوسيع نطاق سلطتهِ فاغتنمها وبسط سلطانهُ على كيليكية الشرقية وسورية الشمالية وفينيقية الى عكاء جنوباً. وجعل انطاكية من جملة المقامات الملوكية وسورية ولاية. اما مقرُّ سرير سلطنتهِ الجديدة فأسس لهُ مدينة تِغرانسرتا على التخم الواقع بين ارمينيا والجزيرة ونقل اليها عدداً كبيراً من سكان البلدان التي قهرها فنمت المدينة بسرعة واتسع نطاقها حتى صارت تضاهي مدينتي نينوى وبابل القديمتين. وظلَّت المملكة الارمنية زاهرة حتى فاجأتها قوة رومية في اثناء زحفها. فلاذ ملكها في اوَّل الامر بسياسة المراوغة والتقلُّب الى ان غُلب على امره اذ هاجمتهُ القوات الرومانية واستظهرت عليهِ وارغمتهُ على التخلي عن جميع فتوحاتهِ وتأدية غرامة حربية باهظة. فكان قيام تغرانس الاوَّل تتمَّة اضمحلال مملكة السلوقيين. وخلف الرومان الارمن في سورية

(٦٦٥) الامبراطورية المكدونية. ثورة الحكومات اليونانية بعد وفاة الاسكندر

كانت مقاطعة مكدونية في اوربا صغيرة بالنسبة الى مناظرتيها في مصر واسية. وكانت حكومات اليونان لا تزال تردد ذكرى استقلالها في غدواتها وروحاتها ولذلك كان احتفاظ مكدونية بسيادتها على شبه جزيرة البلقان امرًا شاقًا جدًّا. ولكن لما هبَّت الحكومات المذكورة آنفاً للحرب بعد موت الاسكندر لاستعادة حريتها برهنت على

ضعفها في مواقف القتال ولم تستطع ان توافف الجيش المكدوني او تواقعهُ فالجأتها الحال الى التسليم مكرهـة · اما ديمستنيس الجريء (ف ٦٢٨) فلما رأى ان المكدونيين ملحّون بطلب تسليمـه وتسليم زعماء آخرين معهُ من الدمقراطيين آثر المـوت على الحياة فعمد الى الانتحار وصَرَم حبل حياتهِ بيدهِ

(٦٦٦) صد انتيغونس الثاني لهجوم الغاليين الكبير وارتقاؤهُ الى عرش مكدونية

وفيما كان انتيغونس الثاني حفيد انتيغونس احد قوَّاد الاسكندر يجاهد ويعارك حتى يتبوَّأ منصب السيادة على مكدونية واليونان فاجأَهُ من جهـة الشمال الاقصى ومن الغرب خطرٌ لم يكن في حسبانهِ · فان طائفة عظيمة جدًّا من برابرة الجنس الهندي الاوربي تعرف بالكلتيين او الغاليّين ، كانت قبلًا تحتل البلاد الواقعة بين فرنسا والدانيوب من قارَّة اوربا ولكنها بعد السنة ٤٠٠ ق·م كانت قد اوغلت في ايطاليـا وبعد ذلك بمئة سنة هبطت شبه جزيرة البلقان وفي سنة ٢٨٠ ق·م قطعت الجبال الشمالية وغزت مكدونية ثم هاجمت بلاد اليونان وبلغت الى موحى دلفي · ثم طما سيل هولاء البرابرة على اسية الصغرى واحتلَّ جماعة منهم منطقة فيها دعوهـا غلاطية ولكن انتيغونس ما لبث ان قـام عليهم وواقعهم فكسرهم في ثراقية وطردهم من كل مكدونية وملك هو عليهـا (٢٧٧ ق·م) ولكن بقي تأثير هولاء البرابرة الشماليين ظاهرًا على اليونان وعلى صناعاتهم كما سترى (ف ٦٨٢)

(٦٦٧) الجهاد لضبط الشؤون في الجهة الشرقية من البحر المتوسط

وبعد انكسار الغاليّين عقد انتيغونس النية على استعادة مملكتهِ وتوطيد سلطتهِ فيها · ولكن كان للاسطول المصري حينئذٍ السيادة المطلقة في بحر ايجه فوقف لهُ بالمرصاد واحبط جميع مساعيهِ التي بذلها في سبيل القبض على زمام الحكم في بلاد اليونان · وبما ان انطيوخس في اسية كان يقاسي من هذا الاسطول ما قاساهُ انتيغونس (ف ٦٦٢) تحالف المليكان على مصر وشرع انتيغونس النشيط يبني اسطولاً حربيـًا ويُنفق عليهِ عن سعةٍ · وبعد حرب بحرية طويلة متقطعة دامت خمس عشرة سنة كسر انتيغونس الاسطول المصري مرَّتـين · وبما ان نسل البطالسة الاولين لم يكونوا على شيء من إقـدام اسلافهم الاقيال بل كانوا كسالى متراخين ، لم يرمموا الاسطول بعد نكبتهِ مرَّتـين فكان تقاعسهم عن ترميمه نفعاً لمكدونية واسية لان المِلاحة في الجزء الشرقي من البحر المتوسط اصبحت حرَّة · ولكن لم يمرّ زمن طويل على انتصارات المكدونيين بحرًا حتى بدأ الاضطراب في البـلاد اليونانية فاضطرَّت مكدونية ان تخوض غمار حرب طويلة أُخرى ضدّ الحكومات اليونانية

٦٧

تأخر البلاد اليونانية

(٦٦٨) تأخر بلاد اليونان التجاري

ولم تبقَ بلاد اليونان سيدة التجارة في بحر الروم كما كانت قبلًا لان فتوحات الاسكندر الكبير كانت قد فتحت لتجار اليونان المستعمرين مملكة الفرس المترامية الاطراف فانبروا من كل حدَب وصوب يتسابقون اليها كخيل الطراد لاحتلال المراكز التجارية التي توسموا فيها خيرًا ونجاحاً • فكانت هذه المهاجرة سبباً انقصان مهم في عدد سكان بلاد اليونان وزوال التفوُّق التجاري منها والزعامة وانتقالها الى الاسكندرية ، وانطاكية ، وافسس ، وردوس المشهورة باقدام تجارها • ولما نضبت ينابيع الثروة من مدائن اليونان لم يعد في طوقها القيام بنفقات الاساطيل والجنود المرتزقة ثم ما لبث اليونان ان وجدوا انفسهم اعجز من ان يقوموا بالذود عن حياضهم

(٦٦٩) نشوء المحالفات

واضطروا بطبيعة الحال التي وصلوا اليها الى عقد محالفات حبا بالمصلحة المتبادلة فكان لديهم بعد سنة ٣٠٠ ق•م تحالفان على جانبي برزخ كورنثوس • على الجانب الجنوبي التحالف الاخائي وعلى الجانب الشمالي التحالف الايتولي • وكان تحالف كهذا ضرباً من اتحاد ولايات صغيرة تدعى « بالولايات المتحدة » • وكان للتحالف قائد ينتخب كل سنة ليرأس الجيش المؤَلف من جنود جميع المدن الداخلة في التحالف ، ومن ضباط ينظرون في امر الدفاع والعلاقات مع الحكومات الاجنبية الخارجة عن دائرة التحالف وكانت كل مدينة تُعنى بشؤُونها المحلية كتقرير الضرائب وجبايتها وما شاكل ذلك • ولكن كانت حلقات العداء بين اعضاء التحالفين قد استحكمت وزمان عقد تحالف عامّ لجميع حكومات اليونان قد فات• ولذلك لم يكن في بلاد اليونان في زمن من الازمان ما يسمى بالولايات المتحدة

(٦٧٠) سبارطة واثينا

وكان سبب ذلك تمنُّع سبارطة واثينا عن الانضمام الى التحالفين المذكورين • وحاول الاخائيون اكراه سبارطة على الانتظام في سلك تحالفهم ولكن الملك كليومنيس ، داهية سبارطة ، قاومهم وانتصر عليهم نصرًا مبيناً في سلسلة معارك الواحدة تلو الاخرى • فكانت انتصاراتهُ هذه ، مشفوعةً بتنظيم المملكة تنظيماً جديدًا ، الذريعة التي اعادت الى

سبارطة بعض نشاطها القديم • واضطرّ الاخائيون الى الاستغاثة بمكدونيـــة فسارعت الى اغاثتهم وكسرت كليومنيس وسحقت قوات السبارطيـــين سحقاً تامـــاً • فاصبح التحالف الاخائي تابعاً لمكدونية فاقداً الحرية التي كان يتمتع بها قبلاً • وصار المكدونيون مذ الآن سادة اليونان جميعاً ما خلا التحالف الايتولي • وفي غضون ذلك ظلّت اثينا بعـــدم دخولها احد التحالفين محتفظة باستقلالها • وقد تسنّى لها ذلك بحصولها على اعتراف مصر اولاً وروميةً ثانياً بحيادهـــا وحرّيتها (ف ٠٨٧) ورغماً عن ضعفها السياسي بقيت موطناً لكل مـــا هو شريف وجليل في الحضارة اليونانية التي عرفنا عنها شيئاً في مـــا مرَّ بنا من الكلام عنهـــا وسنعرف اشياء أخرى فيما بعد

مسائل

٦٦

ماذا كانت اهم عواقب موت الاسكندر ؟ من بقي من اسرته ؟ مـــاذا فعل قوّاده ؟ ماذا كانت نتيجة حرب جيل كامل بينهم ؟ الى اية اقسام رئيسية انقسمت مملكة الاسكندر ؟ من تولى الحكم فيها ؟ ماذا كانت سياسة بطليموس الاوّل ؟ ماذا كانت النتيجة ؟ الى اين امتدَّت سلطة البطالسة اولاً ؟ اي نوع من الحكومة انشأوا في مصر ؟ أتحسبها شرقية ام يونانية ؟ هل كان تنظيمها من الوجهة الماليـــة احسن من تنظيم الحكومات اليونانيـــة ؟ بأي اعتبار ؟ الى اين امتـــدَّت مملكة السلوقيين اولاً ؟ كيف تشوَّشت حالهم في بحر الروم ؟ الى اي منطقة وجَّهوا افكارهم؟ اية مدينة اسَّسوا ؟ اي نوع من الحكومة انشأوا ؟ ماذا تعرف عن مدنهم اليونانية؟ هل كانت هذه المدن حرَّة كما كانت اثينا ؟ اية صورة اتخذت السلطة السلوقية ؟ ماذا كان العائق الاوَّل المهمّ في سبيل السيادة المكدونية في شبه جزيرة البلقان اليونانية؟ ماذا عمل انتيغونس الثاني برّاً وبحرًا ؟ الى اين امتدَّت المملكة المكدونية ؟

٦٧

ماذا كانت المدن التجارية الرئيسية الآن ؟ الى اية جهة انتقلت السيادة التجارية ؟ وما هو السبب ؟ ماذا فعل اليونان ؟ ماذا حدث لليونان من الوجهة التجارية والسياسية ؟ هل وُجد تحالف ضمَّ اليونان كلهم عُصبة واحدة ؟





الشكل ١٦٠

يُرى الى يمين هذه الصورة نموذج جميل لصناعة الفسيفساء الاسكندرية . والفسيفساء هي عبارة عن تركيب قِطع صغيرة ملوَّنة من زجاج او حجر معاً بحيث يتكوَّن من تركيبها صوَر او اشكال مختلفة كما يفعل الاولاد حين يُعطَون صورة مقطعة اجزاء ليركبوا القطع معاً كل قطعة في مكانها الحقيقي . واصل هذه الصناعة من مصر اخذها يونان الاسكندرية ورقوها كثيراً واستعملوها في التبليط الجميل (ف ١٨٤) حتى انهم نقلوا رسوماً مصرية الاصل كهذه الهرَّة التي في الصورة (الى اليمين) فانها مأخوذة من صورة مصرية ملونة (انظر الى يسار الصورة) يرى فيها عصفور في فم الهرَّة وعصفوران آخران احدهما بين يديها والآخر بين رجليها . فهذه القطعة المعدودة انفس نموذج للفسيفساء منقولة عن صورة معركة اسوس (ف ١٥٥)

الفصل العشرون

مدنية العصر الهلّيني

٦٨

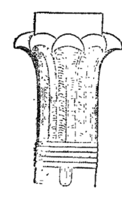
المدن وهندسة البناء والفنون

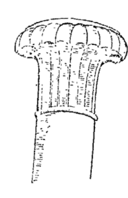
(٦٧١) العصر الهليني · سيادة اللغة اليونانية

يُراد بالعصر الهلّيني القرون الثلاثة التي عَقَبَت موت الاسكندر او المدة التي نشرت فيها المدنية اليونانيّة اعلامها في العالم القديم طرًّا ولا سيما الشرق الذي كان لثقافته تأثير كبير عليها · فان فتوحات الاسكندر جعلت زمام السلطة في اسية ومصر بايدي حكام مكدونيين اسماً يونانيين مدنيةً يتكلّمون باليونانية التي كان يتكلم بها اهل اتيكا · فوجد المشارقة ان اليونانية هي اللغة التي تُدار بها مصالح الحكومة (ش ١٦٢) وان اعمالهم التجارية انما هي مع عدد كبير من التجار اليونانيين وان بين ايديهم كثيرًا من الكتب اليونانية الجذّابة النفيسة فاقتضت الحال ان تكون اللغة اليونانية التي يستعملها اهالي اتيكا في قضاء شؤونهم المختلفة، اللسان المعوَّل عليه والمطلوب من كل مهذّب امتلاك ناصيته · وبناء على ذلك اضطرّ اليهود الساكنون في الاسكندرية في هذا العصر الى ترجمة العهد القديم من العبرانية الى اليونانية لكي تستطيع الطبقة المتهذبة منهم مطالعة اسفاره . وصارت اليونانية اللغة الشائعة في المدن وفي عالم شاسع الاطراف يمتدّ من صقلية وجنوب ايطاليا شرقاً على جانبي البحر المتوسط الى الشرق · اما في القرى الصغيرة فكانوا يتكلمون بلغة يونانية مكسّرة غير اللغة الصحيحة التي كان يتكلم بها سكان المدن ولا سيا الطبقة المتهذبة

(٦٧٣) منازل مرفهة وثائق في المعيشة

وتوافرت لدى سكان المدن في هذا العصر اسباب الترف والرفاهية واستتب لهم كثير من وسائل الراحة والهناء ما لم يكن له مثيل قبلاً • فكان الاغنياء منهم يشيدون منازلهم بالحجر بدل المَدَر ويُحيطون دورها بأروقة معمّدة من جهاتها الاربع (ش ١٦٣) ولكنّهم ابقوا معظم الغرف على النمط القديم صغيرًا وبلا تبليط • واما قاعة السكن فكانت كبيرة مفروشة بالفسيفساء الجميلة (ش ١٦١) وجدرانها مورَّقة ومزخرفة بالتصاوير او بلاط الرخام اذا كانت ثروة صاحبها تمكّنهُ من ذلك • وكان الاثاث آنق من ذي قبل يدل على رقي في الذوق • وفي بعض الاحيان كان يُزاد على ذلك بُسُط وتعاليق وزخارف • وقد جرّوا لاوّل مرّة لوازم المنازل من الماء بانابيب • وكانوا قبلاً يستقونهُ بأوانٍ من اماكن بعيدة ومُدَّت تحت بلاط الشوارع انابيب تجري اليها مياه المطابخ والمراحيض – شيء لم يكن معروفاً في عهد بريكليس





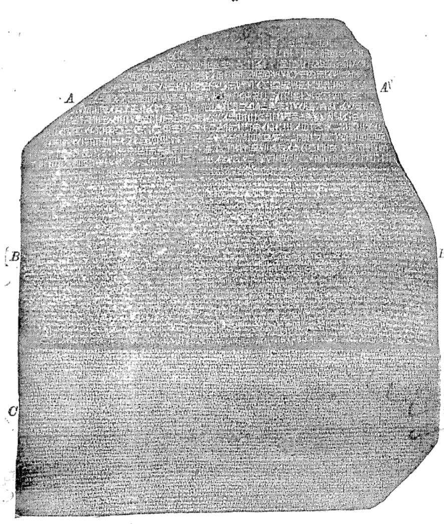
الشكل ١٦١

تريِنا هذه الصورة تاج العمود الذي يحاكي شجرة النخل في شكلهِ (الى اليسار) وقد رأينا مثلهُ كثيرًا بوادي النيل (ش ٣٨) فان المصريين كانوا اوّل من اخذ نماذج من الطبيعة يحذاها المصوّرون وينسجون على منوالها. فكان لقدوتهم تأثيرٌ عظيم في فن التصوير من ذلك الحين. فهذا العمود المشبه بالنخلة الى اليمين مأخوذ عن مثاله عند المصريين نقلهُ نحاتو برغامم اليونان في العصر الهليني اي عقب زمان الاسكندر فيرينا هذا الانموذج ان فكرة نقل الصوَر عن عالم النبات قصد الزخرفة اقتبسها اليونان من الخارج والعمود الكورنثي ايضاً لم يبتدعوهُ هم انفسهم بل نقلوهُ عن غيرهم)

(٦٧٣) اوراق عائلية وتجارية محفوظة في مصر

وقد أميط الحجاب عن حياة القوم اليومية وطرق معيشتهم في ذلك العصر البعيد بما حفظتهُ الايام من الاوراق الكثيرة الباقية من آثار الاسر التي عاشت وانقرضت منذ عهد بعيد • كان العامة يكتبون مفكراتهم التجارية والوصولات العادية بحبر على قطع الخزف (ف ١٦٤) دون ان يسومهم هذا الضرب من الكتابة شيئاً من النفقة • اما الصكوك المهمّة فكانوا يكتبونها على ورق البردي (ش ٢٠٧) وكانت مكتوبات كهذه تتراكم في منازلهم كما تتراكم لدينا المكاتيب بين قديمة وحديثة • وفي بلاد كمصر جافّة الهواء ليس

بعجيب ان تحفظ هذه الاوراق من التلاشي والفناء. فبقي منها شيء كثير تحت انقاض منازل



الشكل ١٦٢ حجر رشيد بمصر المنقوشة عليه كتابة باليونانية C هي ترجمة الكتابة المصرية القديمة (A و B)

ان هذه الكتابة الشهيرة هي بلغتين. كتبت باليونانية لانها لغة الحكومة ولان المتكلمين بها كانوا كثارًا جدا في مصر (ف ٦٧٢) وكتبت ايضا بالمصرية لتكون اثرًا عموميًا خالدًا و يطلع عليها العموم وكيف يطّلع عليها من كان يجهل اللغة اليونانية اذا لم تترجم الى المصرية. ولذلك كتبت هذه الكتابة الاثرية نفسها اولاً بالقلم والحبر بالخط المصري العادي الذي كان يسميه المصريون (ديموتيك)

(للايضاح انظر ش ٢١) ثم نُقشت في الحجر الذي تشغل منتصفهُ (B) ثم كتب الكهّان نفس الكتابة بالخط الهيروغليفي المقدس القديم على القسم الاعلى من الحجر (A) لانهُ المحل الاشرف ولكن – كما يظهر من الرسم – قد انكسرت زاويتا الحجر وفقدتا. فالكتابتان اذن مصريتان العليا (A) مثل الطبع عندنا والسفلى مثل الخط اليدوي. ونرى ترجمة الكتابة المصرية الى اللغة اليونانية اسفل الحجر (C) . وقد قصد الكهنة المصريون الذين نقشوا هذه الكتابة ان يكون الحجر المنقوشة عليهِ اثرًا خالدًا ليطلع عليهِ الناس عامةً وقد ضمنوها بعض عبارات الثناء والتكريم لاحد ملوك اليونان البطالسة (سنة ١٩٥ ق.م). وسقط الحجر بعد ذلك وانكسر وطمر تحت التراب والقمامة. وظلَّ مطمورًا قرونًا كثيرة حتى اكتشفهُ جنود نبوليون اتفاقًا اذ كانوا يحفرون خنادق بجوار مصب النيل عند مدينة رشيد سنة ١٧٩٩ ولذلك دُعي بحجر رشيد. وقد استولى عليهِ الانكليز وهو الآن في المتحف البريطاني. وبعد ان عرف شمبوليون الرموز التي في اسماء كليوبترا و بطليموس وآخرين غيرهما (ش ٥٥) تمكّن من قراءة الكتابة الهيروغليفية على الحجر نفسهِ (A) لان الترجمة اليونانية انبأتهُ بمعنى الكتابة المصرية. وبذلك صار حجر رشيد المفتاح الذي بهِ حلت الكتابة المصرية القديمة (الهيروغليفية). وحجر رشيد عبارة عن بلاطة سميكة من الحجر الناري الاسود عرضهُ ٧٢ سنتيمترًا وطولهُ اكثر من متر

هذا العصر [١] . فاذا تصفحنا بعضها وجدناهُ اما دعوة والدٍ او والدة الى عُرس ابنتها، او كتاباً من والدٍ الى ابن صالحٍ متغيب عن البيت في المدرسة، او اعتراف ولدٍ كان قد شرد من بيت ابيهِ ثم تاب ورجع نادماً، او رسالة تعزية من صديقٍ عن فقد ابنٍ او أبٍ او أمٍ او اخٍ . فهذه الاوراق تميط لنا الحجاب عن المعاشرات اليومية بين الاخوان والاقارب كما تميطهُ المكاتيب المتبادلة بيننا وبين اصدقائنا في هذه الايام . والرموز

الشكل ١٦٣ رسم منزل احد اغنياء اليونان في العصر الهلّيني

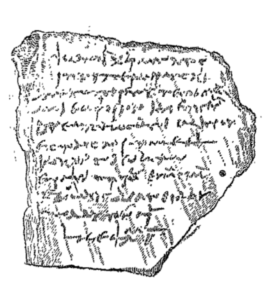
ترى الغرف مرتبة حول دار في الوسط (M) مفتوحة من اعلاها يحيط بها رواق معمّد (قابل ش٣٨) فعند (N) المدخل الكبير وعن اليمين (A) غرفة البواب وعند الزاوية دكان (B) والمحلات C و D و E اهراء وقد يستعمل بعضها لادارة الشؤون المنزلية و F مدخل باب خلفي كانت تُدخَل منهُ الذخائر والمؤن ومنهُ يصعد بدرج الى الطبقة الثانية من المنزل و J غرفة للسكن كان مبنيًا فيها ديوان او متكأ جانبهُ المحاذي للرواق كان مفتوحًا على طولهِ واجمل غرفة في المنزل (H) مقاسها ٨X٥ امتار وكانت ارضها من الفسيفساء (ش١٦٠) المركبة من سبعة الوان وجدرانها مزخرفة بالصوَر الجميلة . وكان النور يدخلها من باب وشباكين. و (K) غرفة نوم صغيرة وفيها جرن رخام كبير للحمّام. واما بقية غرف النوم في المنزل فكانت كلها في الطبقة الثانية التي لا يمكن الآن ترميمها و (I) دكان ثانٍ صغير، كشف الفرنساويون هذا البيت في جزيرة ديلوس

الصوريّة التي رسمتها دون تفكير اصابع يدٍ بليت تحت الثرى منذ آمادٍ عهيدة تُدني الينا بطريقة مدهشة شكل الحياة التي توارت في طيات الدهور حتى نراها كأنها قريبة منا حقيقية لا وهمية (ش ١٦٥ و٢٠٧)

(١) قد وُجد في الفيوم كثيرٌ من هذه الاوراق والصكوك الباقية من العصر الهلّيني كما وُجد في اماكن أخرى كجزيرة الايلفانتين مثلاً صكوك واوراق من عصر الاهرام الى عصر الاوراق التي وجدت في منازل الجالية العبرانية مكتوبة باللغة الارامية (ش ٩٨)، ووجدت اوراق أخرى باللغة اليونانية كالتي في شكل ٢٠٧ وقد كتبت بعد العصر المذكور آنفًا

(٦٧٤) معدّات المدن الهلينية، تشوه المباني العمومية العلمانية

وكانت المدن الجديدة الكثيرة التي بُنيت في العصر الهليني العظيم حسنة الهندسة والترتيب جدًّا فكانت شوارعها قائمة الزوايا ومنازلها ومخازنها يتصل عدد معيَّن منها بعضهُ ببعض بحيث يتكوَّن من اتصالها بناية ضخمة مربعة الشكل مستطيلةٌ . وكان في كل مدينة كثير من هذه الابنية المربعة المستطيلة (ش ١٦٦) وقد كشفت لنا اعمال الحفر احد عشر انبوباً لجرّ المياه موضوعة جنباً لجنب تقطع الشارع تحت البلاط . ولم يكن عند القدماء نظام لانارة الشوارع العمومية واما في هذا العصر فقد طرأ انقلاب عظيم في المباني العمومية . ففي عصر بريكليس كانت الهياكل تقوم مقام مباني الحكومة العمومية ولكن مهندسي العصر الهليني شرعوا يهندسون مباني فخمة فاخرة لتكون مكاتب لادارة اعمال الحكومة



الشكل ١٦٤ صك على شقفة خزف من اخربة مدينة مصرية

لقد حفظت لنا عصر الوفا من الصكوك والاوراق الشخصية من العصر الهليني مكتوبة بالقلم والحبر على قطع من الخزف المكسَّر التي لا تسوم كاتبها نفقة فهذا الانموذج صورة وصل استيجار ارض تختتم بهذه العبارة: "كتبهُ عنهُ أوميلوس بن هِرْمُلوس لانهُ لا يحسن الكتابة". والارجح ان معطي الوصل كان يجهل الكتابة جهلاً تامًّا ففرارًا من هذا الاعتراف الشائن بالاميَّة، قيل انهُ كان لا يحسن الكتابة او هو "بطيء اليد في الخط". والخط الذي كتب به أملوس عنهُ هو من نوع الخط الجاري السريع يختلف جدًّا عن الخط بالحروف الكبيرة التي كان يستعملها مزوّقو الآنية الخزفية قبل هذا العصر بخمسة قرون (ش ١٢٤) وقراءة هذا الخط صعبة حتى على الذي يحسن قراءة الكتابة اليونانية الحديثة

(٦٧٥) المباني العمومية في احدى المدن الهلينية

كانت هذه المباني العمومية الجميلة واقعة في وسط المدينة حيث كانت تشيَّد قديماً، في المدن اليونانية والشرقية، قلاع الملوك وكان في جوارها ارض فسيحة مربعة الشكل فيها مباني السوق العمومية تحيط بها اروقة مستطيلة الشكل لان اليونانيين شرعوا الآن يشيّدون المباني الفسيحة العالية الجدران الحسنة التهوية التي اقتبسوا هندستها من مصر . وكان كثير من المعاملات التجارية الشخصية يتمُّ في هذه السوق . وفضلاً عن ذلك كانت في المدينة بناية عمومية جميلة على شكل مرسح لان المجلس لم يعد يجتمع في العراء كما كان يفعل قبلاً بل صار يجتمع فيها . وحذا حذوهُ مجلس الشورى ايضاً . وهيَّأ المهندسون محلًّا للالعاب الرياضية وحمَّاماً وميداناً للسباق ومرسحاً للتمثيل . لان هذه

الاشياء اصبحت من الضروريات حتى ان مدينة صغيرة لم يزد سكانها عن اربعة آلاف نفس كمدينة پريَّان باسية الصغرى مثلًا كانت تحتوي كل هذه المباني (ش ١٦٦) فضلًا عن بضعة هياكل بنى احدها الاسكندر نفسهُ

(٦٧٦) دخول النور والقنطرة من الشرق

وكان على احد جوانب السوق بناية مستطيلة الشكل للاجتماعات العمومية سموها باسيليكا يدخلها النور من نوافذ في سقفها يدعى مجموعها منورًا (٢٣٢) وكان بنّاؤو العصر الهليني قد شاهدوا هذا الضرب من المباني في مصر (ش ٤٨) كما كانوا في اثناء ذلك قد رأوا في اسية الصغرى القناطر التي كانت قد اتصلت اليها من الهلال المخصب (ش ٥٩ و١٥٧) وقد اخذوا من الآن يُدخلون القناطر بين حين وآخر في مبانيهم مع انهم لم يكونوا قبلًا يستعملونها مطلقاً . فالشرق الذي نفح قبلًا فنّ البناء اليوناني بالاروقة المعمدة، نراهُ الآنَ ينفحهُ بشيئين آخرين هما القنطرة والباسيليكا الاّ ان اليونان لم يستعملوا القنطرة كثيرًا في مبانيهم

الشكل ١٦٥ رسالة على ورق البردي مطوية ومختومة لكي ترسل

وجد المنقبون عن الآثار كثيرًا من هذه الرسائل تحت انقاض مدن مصر القديمة (ش ٢٠٧) ويشاهد منظرها منشورة في شكل ٢٠٧ وهي تعرب لنا عن احوال حياة الناس في ذلك العهد البعيد

(٦٧٧) الاسكندرية تجارتها ومنارتها العظيمة

فاذا كانت مدينة صغيرة في مديرية كبريَّان مثلًا تشتمل على مبانٍ عمومية بالغة حدَّ الفخامة والاناقة فكيف كانت مباني عاصمة تجارية مهمة كالاسكندرية . انها بلا ريب كانت افخم وآنق من سواها لانها كانت الآن اعظم مدن العالم القديم طرًّا في عدد سكانها وغناها وتجارتها وقوّتها وفي جميع الفنون التي كانت قد بلغتها المدنية في ذلك الزمان. وكانت مرافئها المتقنة ممتدة الى مسافات بعيدة على ساحلها وذات حياض ترسو فيها السفن القادمة من الغرب آمنة بعد ان تكون قد قاست اهوال العواصف والامواج وهي تمخر في عباب الاتلانتيكي على سواحل اسبانيا وافريقيا-ترسو جنباً لجنب مع المراكب القادمة من الشرق بعد ان تكون قد اخترقت ابواب الاوقيانوس الهندي (ف ١٠٦) وجمّعت سلع الشرق المترامي الاطراف وراء الاوقيانوس. هنا على ارصفة هذه المرافئ كانت تقع العين على قضبان القصدير المجلوبة من جزر بريطانيا وعلى اثواب الحرير الموسوقة من الصين واقّات القطن من

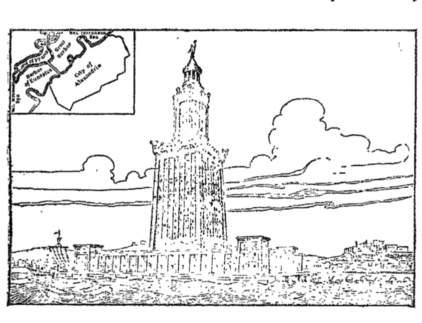
حين نيشت هذه المدينة تخيّل لرائيها انها تكاد تكون بومبايا أخرى لأنها اقدم (ش ٣٠٩) . على الصخر الكبير فوق الجرف (A) قامت القلعة وكان هناك شعبٌ (طريق في الجبل) يؤدّي اليها (B) ويُرى عند (C) قناة مبنية بالحجر يجري فيها الماء الى المدينة . وكان الداخل الى المدينة يمرّ من الرتاج (البوابة) عند (K) الى باحة مربعة الشكل حيث كانت تقام سوق تباع فيها الميرة او الزاد (L) وكان فوق السوق وعلى مقربة منها هيكل اثينا (J) بناهُ الاسكندر وبعد ذلك يصل الداخل

الشكل ١٦٦ ترميم مدينة بريان الهلينية باسية الصغرى

الى سوق التجارة الفسيحة الجوانب (M) التي تكتنفها أروقة معمدة خلفها مخازن الاّ من جانب واحد (تحت N) حيث أقيم نادٍ فخم للاتجار واقامة حفلات الاعياد وهو شبيهٌ بالاندية الباسيليكية التي كانت آخذة الآن في الشيوع بين اليونان (ش ٣٢٣، ٢) . وكان وراء هذا النادي (عند N) مكاتب موظفي حكومة المدينة والنادي الذي كان يلتئم فيه مجلس الشورى، والمجلس الكبير، والمرسح (E) وكان عند (G) هيكل أيسس (ف ٤ ٦) وامامهُ ساحة الالعاب الرياضية (F) والمسبق (Q) ولا يزال هنا في المغسل الاجران الرخامية ومنبجسات المياه بشكل رؤوس أسود وكان يتصل بذلك نادٍ مكشوف لالقاء المحاضرات (ف ١٧٥) . وكان فوق مقاعد المسبق، رواق جميل معمد طولهُ ١٨٠ مترًا يتمشى فيه المتفرّجون بين لعبة رياضية وتاليتها والبحر منبسط امامهم كأنهُ ديباجة زرقاء تقرّ بمرآه النواظر . وكانت المنازل التي ازاء السوق مثل المنزل الذي في الشكل ١٦٣ واما المنازل الاجمل، الواقعة في جوار المرسح (E) وهيكل اثينا (J) فكانت مبنية بناءً متقنًا بالحجارة ولم يكن ازاءها دكاكين . وكانت المدينة كلها مطوّقة بسورٍ متين مبني بالحجارة لهُ رتاج من جهة الشرق (H) وآخر من جهة الغرب (K) وكانت تشاهد على طول الشارع خارج الرتاجين قبور الاسلاف كما في اثينا (ش ١٥٤)

الهند · ولما استبحر امر التجارة فيهـا اقتضت الحال انشاء مصارف من قِبَـل الحكومة · وكان النوتية وهم قادمون ليلًا في سفنهم يرون نورًا متألقًا صادرًا من منارة هائـلة في ثغر الاسكندرية سامقة الى العـلاء تكاد تنطح برَوْقيها السحاب يتدفق منهـا النور الى كل الجهات لهداية السفن الماخرة ليلًا في عُباب اليمّ (ف ١٦٧) · فهذا البرج العجيب الذي كان اعلى بناء شيَّدهُ مهندسو اليونان بعد زمان الاسكندر كان سليل برج هيكل بابل (ش ٨١) الذي كان يتصل بهِ بلحمة النسب ·

وكان القادم الى الاسكندرية على احدى السفن التجارية الكبرى التي كان محمول الواحدة منها اربعة آلاف طن . اذا وقف على الظهر ووجّه بصره شطر المدينة الى ما وراء المنارة رأى الاسطول الحربي (ف ٦٦٠) الذي بناهُ البطالسة راسيًا صفوفًا في الميناء ورأى من خلال الصواري بحرًا آخر من الادواح الغنّاء والرياحين الخضراء النابتة في الحدائق الملكية الانيقة وشاهد القصر الملكي

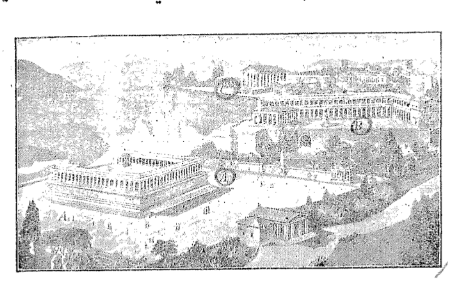


الشكل ١٦٧ مـنارة مرفإ الاسكندرية في العصر الهليني
اي بعد زمن الاسكندر

كان مرفأُ الاسكندرية (انظر زاوية خريطة ١٩) موقيًا لوجود جزيرة امامهُ تُدعى فاروس (الفنار) تتصل بالمدينة بجسر من الحجر وعلى هذه الجزيرة قامت منارة عظيمة بُنيت (بعد سنة ٣٠٠ ق.م) بالحجر بعلو ١١٠ امتار وتسمت باسم الجزيرة التي شيّدت عليها . وتدلُّ هذه المنارة على اتساع نطاق تجارة الاسكندرية وغناها بعد مضي جيل واحد على تأسيس الاسكندر الكبير لها . فكانت للعالم القديم بمنزلة نيويرك او لفربول في هذا العصر، اعظم مرفإٍ على البحر المتوسط (ف ٦٧٧) وكان تأثير عوامل الهندسة الشرقية ظاهرًا في هندسة هذه المنارة القائمة على جزيرة فاروس التي صارت فيما بعد مثالًا احتذاهُ المسيحيون في بناء ابراج كنائسهم والمسلمون في بناء مآذن جوامعهم (ش ٢٢٤) وبقيت قائمة في مركزها كاعظم منارة في الدنيا نحو ١٦٠٠ سنة ولم تسقط حتى السنة ١٣٢٦ م

(٦٧٨) حديقة قصر البطالسة · الاصل الشرقي لهذه الحدائق

المبنيّ بالرخام الناصع البياض قائماً على نقطة من الارض ناتئـة الى البحر يتكوّن منهـا الجـانب الشرقي من المرفـإ · وقد تعلّم مـلوك العصر الهلّيني من الحـدائق الملكية التي انشأهـا ملوك فارس ومن الجنات التي كانت تحف بقصور نبـلاء مصر القدماء التي شيّدوهـا في مصايفهم، ان يَقدروا جمال البساتــين والحدائــق الحسنــة الـــترتيب المزدانــة باشجار المنطقة الحارّة الغضّة وبالبحـيرات والمنـاهل وبالآثار الخالدة المنحوتـة، حق قدرها · فنرى من ذلك ان الاوربيـين صاروا يُعنَون بهندسة الجنـائن والتأنّـق في اتقانها وتخطيط المدن بمقتضى القوانين الفنية — امور كان قد الفها مهندسو البنـاء الشرقيون منذ القديم

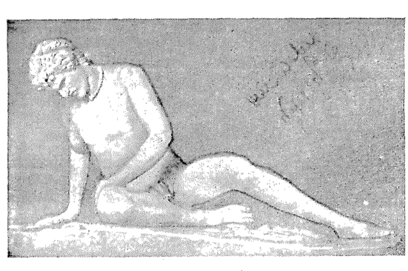


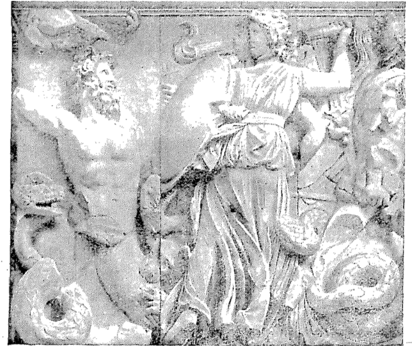
الشكل ١٦٨ ترميم مباني برغام العمومية مدينة هلينيّة باسية الصغرى

صارت برغام الواقعة على الساحل الغربي من اسية الصغرى، في القرن الثالث ق.م حكومة مدينية زاهرة تحت تسلط خلفاء الاسكندر الكبير (ف ٦٨٣) وكانت منازل الاهلين قائمة في القسم الاسفل منها امام مجموعة المباني الظاهرة هنا في الرسم (وكانت المباني العمومية قائمة على ثلاث مصاطب — سفلى ووسطى وعُليا) وكانت المصطبة السفلى الكبيرة (A) السوق الرئيسية يزينها مدبح مربع الشكل مبني بالرخام ارتفع له ثلاثة صفوف من الاعمدة على ثلاثة من جوانبه الاربعة . واسفلها زنّار طويل منحوت فيه صور الآلهة والجبابرة في حالة حرب (ش ١٧٠) وكان على المصطبة الوسطى (B) وراء صفوف الاعمدة، مكتبة برغام الشهيرة حيث لا تزال قائمة قواعد رفوفها الحجرية . وكان قصر الملك مشيّدًا على المصطبة العليا (C) . والهيكل الموجود هناك الآن بناهُ الامبراطور الروماني تراجانوس في القرن الثاني للمسيح

وكان عند طرف الحديقة الآخر عن جانب القصر مجموع بنايات المتحف الملكي الرخامية وفيها مكتبتهُ الكبيرة وقاعات المحاضرة وغُرف المعرض وابهاء واروقـة وغرف لسكن الفلاسفة ورجال العلم الذين كانوا يقيمون ضِمن المتحف · وكان بجواره هيكل سيرابيس الفخم اله المملكة الجديد (ف ٧٠٨) وفضلًا عن ذلك، كانت في المدينـة مبانٍ عمومية

نفيسة كبنايات الالعاب الرياضية والحمامات واماكن السباق والمنتدى الكبير ودار الموسيقى والاسواق والمباني المرتفعة من الوسط (باسيليكا) تحفُّ بها منازل الاهلين مقسّمة احياء، واسوء الطالع لم تُبق لنا عوامل الطبيعة وعوادي الدهر شيئاً من تلك المباني الفاخرة حتى الاخربة القليلة الباقية يتعذّر نبشها لان معظم الاسكندرية الجديدة قد بُني عليها





(٦٨٠) برغام وتاثيرها العجيبة

ولكن لدينا من هذا العصر مدينة أُخرى جميلة نشأت تحت مؤثرات وعوامل اثينية (ش ١٦٨) اسمها برغامُم التي كسر احد ملوكها قبائل الغال الرحّل التي قدمت من اوربا (ف ٦٨٣)

الشكل ١٦٩ والشكل ١٧٠ منحوتات برغام الهلينية

في اعلى الشكل ١٦٩ ترى صورة المبوّق (بورجي) الغاليّ وهو يسلم الروح وبوقه عند رجليه. (ف ٦٨٣) وفي اسفل الشكل ١٧٠ قسم من النطاق الذي كان يحيط بمذبح زفس العظيم في برغام (ش ١٦٨) وهو يمثل العراك الخياليّ بين الآلهة والجبابرة والى اليسار يشاهد جبّار تنتهي اطرافه بحيّات رافعاً فوق رأسهِ حجرًا كبيرًا ليقـذف بهِ على الالاهة التي الى اليمين (ف ٦٨٣)

٦٦٦) وهزمها شرّ هزيمة · فكان لما اتاهُ هذا الملك من خضد شوكة هولاء الرَّحل تأثير عظيم على الفن الذي كان يدأب في ابتداعهِ النحاتون من اهل اتيكا يضافرهم في ذلك ملوك برغامُم · فانهم نحتوا في الرخام صورًا تمثّل ابطال البرابرة الشماليين ساعة احتضارهم المُفجع على اسلوب مؤثّر جدًّا لم يفقهم فيه احد من قبل واحيوا ذكرى هذا العراك مع الغالبين بزنّار هائل من صنع النحت الناتيء يمثّل لعين الرائي المعركة الخيالية بين الآلهة والجبابرة (ش ١٧٠) وكان هذا الزنّار الهائل

الشكل ١٧١ موت لاوكون وابنيهِ

صنعت هذه الصورة في غضون القرن الأول ق·م وصانعها أجسندر من رودس بمساعدة نحاتَين آخرَين ربما كانا ابنيهِ يُرى فيها الكاهن لاكون خائر القوى ساقطًا على المذبح الذي كان يقدم عليهِ الخدمة الدينية من جرَّاء عراك مميت بينهُ وبين الحيَّات القتَّالة التي التفَّت عليهِ وعلى ابنيهِ وهذه الصورة تحسب احد الرسوم المدهشة التي ابتدعها الفن لتمثيل الآلام البشرية (ف ٦٨٣) ويضاهي هذه الصوَر (ش ١٦٩—١٧١) الصوَر المحفورة حفرًا بارزًا على تابوت الاسكندر الكبير وصورة معركة اسوس (ش ١٥٥) بالفسيفساء . فهذه الاشكال المشار اليها هنا هي اسمى واعجب ما ابتدعهُ الفن القديم

يحيط ، تقريباً ، بمذبح عظيم (ش ١٦٨) شيّـدهُ ملوك برغامم اكراماً لزفس وتزيينـاً لسوق المدينة

(٦٨١) الحفر الاثيني . تابوت الاسكندر . الحفر الرودسي . لأوكون

وكان لما صنعهُ نحاتو اثينا من بدائع المنحوتات تأثير عظيم في نحّاتي برغامم حتى كأنها كانت وحياً لهم بان يولّفوا بين عـدة رسوم يحفرونها في حجر واحـد بحيث يتكون من مجموعها صورة مركبة لما وَقْعٌ عظيم في النفس ، ودبيب في اعماقها واناقة تأخذ بمجامع اللبّ . وقد حفظت لنـا الايام شيئاً من تلك البدائـع الاثينية التي اجملها تمثيلًا لمجموعهـا تابوت الاسكندر الكبير الذي حوى من النقوش الجميلة المدهشة ما يكلُّ عن وصفـهِ اللسان . وهو يمثل لنا الاسكندر — وقد فاز في معركة أسُوس — منهمكاً في صيد اسدٍ من كبار الاسود . وقد حذا حذو الاثينيين في تصوير مشاهد العراك ومواقف الاهـوال التي ترتعد منها الفرائص ، رهطٌ من مشاهير نحاتي جزيرة رودس تلك الجمهورية الزاهرة في العصر الهليني الذي عَقَبَ موت الاسكندر (ف ٦٧٠) . ولكن قد عفا الدهر آثار معظم ما صنعوهُ من البدائع والروائع الاّ بقية زهيدة منها تعـدُّ اليوم من انفس اعمال الحفر والنقش التي ابقت عليها عوامل الطبيعة . واحدى تلك البدائع الباقية تمثل الكاهن الطروادي لأكُون وابنَيهِ حين التفَّت عليهم حيَّتان مميتتان وسحقتاهم سحقاً

(٦٨٢) التصوير والفسيفساء

ان عظماء مصوّري هذا العصر من اليونان يظهرون في صورهم نفس الاميال الظاهرة في النحاتة فانهم احبـوا ان يمثلوا الحوادث المخيفة المحزنة في معظم شدّتهـا . الاّ ان تراخي الحقب قد درس آثارهم الاصلية جميعها فلم يبقَ لنا سوى تقليد بعضها مرسوماً على جدران بعض المنازل الفاخرة المزخرفة من الداخل او ممدوداً على ارضها بصورة الفسيفساء بدلاً من التبليط . وصناعة الفسيفساء هذه هي التي ابقت لنا صورة الاسكندر الرائعة وهو هاجم على ملك الفرس في أسُوس . وصانعها مصوّر اسكندري مجهول الاسم ، من العصر الهلّيني ، وهو العصر الذي اختلط فيهِ اليونان بالاجناس الاخرى التي تخلّقت باخلاقهم واقتبست عاداتهم وبكلام آخر « تَيَوْنَنَت » (ش ١٥٥)

(٦٨٣) تصوير الاشخاص

وقد برَّز النحاتون والمصوّرون كلٌّ في المضمار الذي جرى فيـهِ . واعمالهم الخالدة فيما صوّروه تمثل لعيوننا الآن الهيئات والملامح الحقيقية للاشخاص الذين صوّروهم حتى اذا القينا نظرة على تلك الصوَر ادركنا للحال كيف كانت تقاطيع وملامح اصحابهـا . ومن سوء الحظ ان هذه الصوَر جميعها هي من صنع الحفارين في الحجر او المعدن امـا بشكل تماثيل كاملة او نصفية او ناتئة خصوصاً على الوُسُم (النياشين) وقطع النقود (السحاتيت) وامـا

التي من صنع المصوّرين فقد اضمحلّت كلها · وكان مصوّر الاسكندر المحبوب رجلًا يسمّى ابلّاس قيل انهُ مرّة صوّر الاسكندر ممتطياً جواده واحكم تلوين الجواد إحكاماً مدهشاً حتى ظهر كأنهُ حي تماماً يدلّ على ذلك انهُ مرّةً مرّ بتلك الصورة حصان فلما رآها ركض اليها وحمحم · وبقيت نماذج من هذه الصناعة احدث عهدًا من المذكورة آنفاً بين الجثث المحنطة في مصر

٦٩

الاختراعات والعلم . المكاتب والآداب

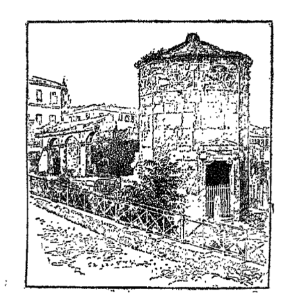
(٦٨٤) التقدم الميكانيكي والاختراعات العملية

وكانت نباهة وحذق ابناء هـذا العصر العجيب باديـين في كل مكان ولا سيما في تطبيق العلم على اعمال وحاجات الحياة اليومية · كان العصر عصر اختراعـات مثل عصرنا الحالي · فكان الرجـل العصري الراقي يخترع طريقة لانفتاح وانغلاق باب منزلهِ من نفسهِ دون ان تمتدّ اليهِ يد بشرية ويصنع مِغسلًا يقدّم الصابون والماء بقدر اللزوم · ويعصر الزيت من الزيتون في مزرعتهِ بمكبس يديرهُ لولب للضغط المقتضي · ونصب الكهّان موزّعـين خارج الهياكل لتوزيع الماء المقدس بحركة ذاتية كما نصبوا رشّاشة يحرّكها ضغط الماء لتخفيف خطر النار بماينبعث من رشاشها على السن اللهيب المندلعـة · واستعمال الاحمال، وسواعد الدواليب واللوالب والدواليب المسنّنة في الاعمال اليومية قد انتجت لهم الطرق السّلكية او الحَبْليّة لحدور الحجار من المقالع العالية، ودواليب لنشل المياه بمقادير وافرة · وعلى هـذا المبدإ اخترعوا جهازًا مؤلّفاً من سلسلة موصولة الطرفين لرفع المقذوفات الصخرية الثقيلة بسرعة كافية الى الآلات الحربية المخصوصة بقذفها · وبعض هذه الآلات كان يُدار بضغط الهواء لا غير · وكما نتهافت في هذه الايام على « السينما » كان الناس في ذلك الزمان يزدحمون في السوق ليشاهـدوا المرسح المتحرّك من نفسهِ الذي كان فيهِ مهندس ميكانيكي يمثّـل للحاضرين مأساة حرب طروادة في خمسة فصول او مشاهد يُظهر في خلال تمثيلها بناء السفن وانزالها الى البحر، والسفرة البحرية، والدلافين (ج دُلْفِـين) تمرح عن جوانب السفن، وطلوع نوء شديد يصحبهُ برق ورعد ثم غرق ابطال اليونان في اثنائهِ وهبوطهم الى قعر اليم · وكانت ربّات المنازل تروي قصصاً عن بساطة العيش في زمان جدّاتهنّ ايام لم يكن بعد في

المنازل مياه جارية اليها بل كانت النساء يذهبنَ الى اقرب المناهل ليستقينَ

(٦٨٥) سوقت والتقويم (الروزنامة)

وكان اليونان ينصبون في السوق العمومية ساعة إما شمسية كالتي كان يستعملها المصري مدة تربي على الف سنة (ش ٥٣) او مائية يونانية الاختراع (ش ١٧٢) لكي يعرف بواسطتها اهل المدينة او البلدة الوقت في اية ساعة كانت من النهار · وحاول البطالسة او الكهنة الذين كانوا في ايامهم ان يُدخلوا شيئاً من التحسين على التقويم باضافة يوم عليهِ كل سنة رابعة كبيسة ولكن الشعب ابى الاقلاع عن عادة تأصلت في نفسهِ واعتادها حتى صارت طبيعة ثانية لهُ فاحتفظ بالحساب القمري على ما فيهِ من عدم الضبط كما احتفظ بهِ اليونان من قبلُ · ولم يكن نظام لعدّ السنين الاَّ في سوريا وحدها · ففيها جعل السلوقيون لكل سنة عدداً مبتدئين من تاريخ اوَّل تساطهم عليها



الشكل ١٧٣
ساعة اثينا الكبيرة

ان هذا البرج الذي كثيرًا ما يُدعى "برج الرياح" قائم الآن بين البيوت الحديثة وكان فيما سلف من الزمان يشرف على السوق (ف ٥٤١) . اما القناطر التي تشاهد الى يسار الشكل فكان فوقها قناة قديمة يجري فيها الماء لادارة ساعة مائية كانت في البرج وكانت هذه الساعات المائية تشبه على نوع ما الساعات الرملية فكان الماء الجاري يملأ وعاء معلومًا في وقت مفروض كما يملأ الرمل في الساعة الرملية وعاء معلومًا في وقت معيَّن. وقد بني هذا البرج في القرن الاخير ق·م. اذ كانت رومية مستولية على اثينا

(٦٨٦) ارخميدس

وكان اعظم رجال العلم في هذا العصر — على ما يرجح — ارخميدس الذي كان موطنهُ سرقوسة ومن اشهر ما ابتدعهُ من الاعمال الخطيرة نظام البكرات والاثقال التي تعظم بواسطتها القوة التي تحرّكها الى درجة تفوق التصديق حتى ان الملك بمجرَّد ادارته لساعد دولاب خفيف تمكن من ان يحرّك سفينة كبيرة بثلاثة صوارٍ كانت راسية في المرفإِ مملوءة شحناً ويدفعها الى البحر · وبعد ان رأى الناس من ارخميدس اعمالاً عظيمة كهذه صدَّقوهُ حين قال مفاخرًا «اعطوني مكاناً اقف فيهِ ارحزح لكم الارض» واخترع آلات حربية قوية جدًّا وقتَّالة · فكان اختراعهُ ذريعة مهمَّة للدفاع عن مدينتهِ وصدّ الرومانيين عنها ·

ولكن لم يكن ارخميدس مخترعاً لامثال هذه الآلات فقط بل كان عالماً بحَّاثة من الدرجة

الاولى . ولما عهد اليهِ ملك سرقوسة في امتحان التاج الذهبي الجميل ليعرف هل هو من الذهب الخالص كما ادَّعى صائغهُ ، استطاع ان يبرهن للملك ان التاج كان مغشوشاً . والطريقة التي توصَّل بها الى معرفة الغش ومقداره مشهورة لدى كل من لهُ إلمام بالفلسفة الطبيعية والثقل النوعي . فكان ارخميدس الفيلسوف اوَّل من اكتشف المبدأ الذي يسميهِ العلماء اليوم بالثقل النوعي . وكان فضلاً عن علوّ كعبهِ في الطبيعيات اعظم الرياضيين القدماء (ف ٦٩٠)

(٦٨٧) علماء الاسكندرية

وكانت المراسلات تجري بلا انقطاع بين ارخميدس واخوانهِ العلماء في الاسكندرية الذين الَّفوا جمعية علمية في العالم القديم . وكانوا يعيشون معاً في المتحف يقبضون رواتب شهرية ويقوم البطالسة بجميع نفقاتهم . فكوَّنوا اوَّل معهد علمي شيَّدت اركانهُ حكومة وقامت بالنفقات كلها . ولما لم يكن على اولئك العلماء ان يهتمُّوا بامر معيشتهم والشؤون المالية ، تفرَّغوا بكليتهم الى الابحاث العلمية وكانت غُرف المعهد ومختبراتهُ ومكتبتهُ المجهَّزة بكل ما هو لازم لها تحت مطلق تصرُّفهم . وبذلك صار علماء العصر الهليني ، وخصوصاً هذا الرهط الاسكندري العظيم ، مؤسسي البحث العلمي القانوني واصبحت كتبهم موسوعة للمعارف العلمية . ودامت هكذا مدة الفي سنة حتى نهضة العلم في هذا العصر

(٦٨٨) الرياضيات والفلك . اقليدس وارخميدس وارسترخس

كان الجيل الاوَّل من رجال العلم في المتحف الاسكندري يفاخرون بأن اقليدس ، اعظم الرياضيين ، هو واحدٌ منهم . ولا يزال اسم اقليدس معروفاً ومشهوراً حتى اليوم . وكتابهُ في الهندسة المبني على امتن البراهين المنطقية لا يزال يدرَّس في مدارس بلاد الانكليز الحديثة . وهو الآن اقدم كتاب مدرسيّ . وشرع ارخميدس يبحث في الرياضيات ويدقق حتى رقَّاها وجعل منها فرعاً مهماً دُعي بالرياضيات العليا لم يسبقهُ اليهِ احد من قبل يشتمل على قضايا وعمليات صعبة جدًّا . ولفرط صعوبتها ندر من تصدَّى لها . فضعف شأنها وآل امرها الى النسيان حتى قام في الازمنة الحديثة من اعادها الى مكانتها التي فقدتها . فكأنها اكتُشفت اكتشافاً . ومن العلوم التي خطت خطوات مهمَّة الى الامام علم الهيئة ، لان البطالسة عُنوا بهِ كثيراً فبنَوا لهُ مرصداً بالاسكندرية ليتمكنوا بهِ من الحصول على ارصاد مهمَّة واكتشافات جمَّة مع انهُ لم يكن عندهم مَراقب للرصد . وقد قام باعظم اكتشافات هذا العصر فلكيٌّ من جزيرة ساموس ضئيل الشهرة اسمهُ ارسترخس . فهذا أبان بالبرهان القاطع ان الارض وسائر السيَّارات تدور حول الشمس . ولكن الناس عموماً لم يكترثوا لما ادَّعاهُ واجمع يونان العصر الهليني ومن قام بعدهم من العلماء القدماء على القول خطأً بان الارض هي المركز وان الشمس وسائر السيارات تدور حولها (ف ٩٤١) . وقام فلكيٌّ

من العصر الهليني وألّف — بعد ان عانى نَصَبًا شديدًا — جـدولاً يحتوي على ثماني او تسع مئة من النجوم الثوابت لتكون قاعدة يُعتمد عليها في تعيين التغيُّرات التي تطرأ في المستقبل على العالم العلويّ

(٦٨٩) حساب اراتستنيس لحجم الارض

وكان علم الفلك مساعدًا قويا على التقدم في علم الجغرافية. فان العالم الفلكي والرياضي الكبير اراتُسثنيس الاسكندري تمكّن من معرفة حجم الارض بملاحظته ان الشمس في الصيف، وهي تنتقل شمالاً من برج الى برج، متى بلغت نقطة الانقلاب الصيفي، كان نورها يقع عموديا على قعر بئر عند اول شلالات النيل

Circumference of the Earth
Zenith of Alexandria From C
Direction of the Sun
Zenith of First Cataract B
Alexandria
First Cataract
A
Equator
Center of the Earth

الشكل ١٧٢ يدلُّ هذا الشكل بوجه التقريب على الطريقة التي توصَّل بها العلماء الى معرفة جِرْم الارض بالحساب

اذا كانت الشمس وقت الظهر فوق الشلاّل الأوّل من شلالات النيل تمامًا فمن المعلوم انها تشاهد من الاسكندرية. وهذا نفس ما كان يحصل لو وقف رجل عند الشلاّل الأوّل ورفع بيديهِ عمودا او علمًا عموديًّا كالذي يرفعهُ معاون مهندس الخطاط او الماسح بشرط ان يكون طول العلم او العمود كافيًا حتى يُرى من الاسكندرية. وكان اراتسثنيس قد نصب في الاسكندرية آلات الرصد اللازمة قبل ان صارت الشمس عمودية فوق الشلال. ولما بلغت النقطة العمودية فوقهُ شرع في الرصد فوجد ان الشمس في تلك النقطة التي فوق الشلال الأوّل (الخط ا ب) كانت منحرفة ٧½° الى الجنوب من سمت آلة الرصد بالاسكندرية (الخط ا ج) فمقدار انفراج الخطين ا ب و ا ج ٧½° عند كل نقطة فيهما سواء كان في الجلد من فوق أم في الارض من اسفل. فعرف اراتسثنيس ان الشلاّل الأوّل يبعد عن الاسكندرية ٧½ درجة من درجات محيط الارض وبكلام آخر ان المسافة بين الاسكندرية والشلال الأوّل هي ٧½° من محيط الارض او جزءًا من خمسين من محيطها الذي هو ٣٦٠. والمسافة الحقيقية بين الاسكندرية والشلال الاول كان يظن انها اقلّ قليلاً من ٨٠٠ كيلومتر وكانت هذه المسافة وقتئذٍ تحسب جزءًا من خمسين من محيط الارض البالغ ٤٠٫٠٠٠ كيلومتر الاّ بضع مئات من الكيلومترات. اما قطرها فيبلغ على هذا التعديل ١٢٥٦٠ كيلومترًا والفرق بين هذا التعديل والتعديل المضبوط هو ٨٠ كيلومترًا لا غير

(٦٩٠) تنقيبات وابحاث جغرافية في الشرق

واضافوا الى معرفة حجم الارض معارف أُخرى تتعلّق بمساحة المناطق المسكونة منها توصّل اليها اهل هذا العصر بالاسفار بحرًا وارتياد الاماكن المجهولة والتنقيب عنها برًّا ٠ فتصدّى احد علماء الجغرافيا ببلاد اليونان الى قياس علوّ الجبال مع انهُ لم يكن لديهِ بارومتر اي ميزان ثقل الهواء ٠ وكانت غزوات الاسكندر للشرق الاقصى قد وسّعت حدود العالم المعروف في ذلك الزمان ٠ وكان تجار الاسكندرية قد خاضوا عباب اليمّ في سفن شراعية الى الهند غير هيّابين ولا وجلين واقلعوا حول راسها الجنوبي وزاروا جزيرة سيلان ثم ساحل الهند الشرقي حيث رُويت لهم اساطير وحكايات عن ساحل الصين وراء الهند

(٦٩١) تنقيبات جديدة في الغرب والشمال [بيثياس] والمد والجزر

وكان البحّارة الفينيقيون قد قطعوا بوغاز جبل طارق في الغرب الاقصى منذ سنة ٥٠٠ ق٠م وتوجهوا الى الجنوب ووصلوا على ما يرجح الى ساحل غينيا حيث سمعوا كثيرًا من القصص العجيبة عن الناس الشُعْر الذين سمّاهم لهم التراجمة غوريّلين ٠ ولما عادوا الى بلادهم رووا للناس تلك القصص كما سمعوها ٠ وقام عالمٌ فلكي من موسيليا اسمهُ بيثياس وجهّز سفينة على نفقتهِ واقلع بها من جبل طارق شمالاً ازاء الشاطيء فاكتشف شكل جزيرة بريطانيا المثلث ٠ ثم اخترق بسفينتهِ البحر الشمالي ٠ فكان اوّل متمدن سمع قصصاً وحكايات عن الاقيانوس المتجمّد الذي وراء البحر الشمالي وجزيرة ثول (ايسلَندا) العجيبة الواقعة عند تخمهِ واكتشف تأثير القمر العظيم — وهو بدرٌ — في المد والجزر وعاد الى بلادهِ وملء راسهِ انباءٌ شتى عن اشياء عجيبة غريبة كان يرويها للناس فاطلقوا عليهِ اسم تاجر الحكايات الغريبة

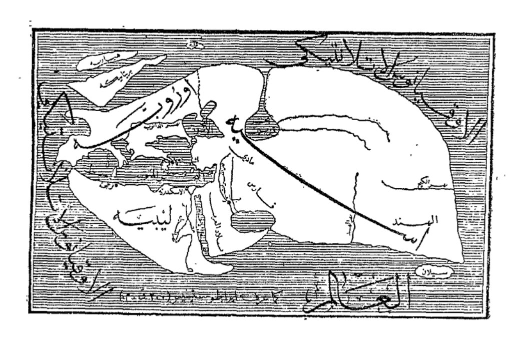
(٦٩٢) ارانستنيس مؤسس الجغرافية العلمية يرسم اول خريطة فيها خطوط الطول والعرض

ولما كان قد تهيأ لارانستنيس ان يجمع حقائق ومعلومات لم يتسنّ لغيره ان يجمع مثلها، استطاع ان يؤلف كتاباً مستوفى في علم الجغرافية ٠ ولم يقتصر في الخريطة التي رسمها للعالم المعروف، اوربا واسيا وافريقيا، على ان يُظهر فقط مواقع الاقاليم المجاورة للبحر المتوسط بشيء من التدقيق، بل رسم عليها خطوط الطول والعرض وبذلك اصبح مؤسس الجغرافية العلمية

(٦٩٣) النبات والحيوان والتشريح والطب

امـا علماء النبات والحيوان فظلّ ارسطوطاليس وتلاميذه قادة الافكار فيهما اذ لم يستطع احد من رجال العالم القديم ان يتخطّى الحدّ الذي بلغوهُ هم من معرفة هذين العلمين٠ نعم كانت المعرفة التي بلغوها في علم النبات، بلا ميكرسكوب، محدودة يمازجها شيء من الخطإ ولكنهم اكتشفوا كثيرًا من الحقائق العلمية التي نسّقوها وبوّبوها احسن تبويب ٠ وكان عندهم في متحف الاسكندرية مختبر للتشريح كان البطالسة يقدمون لهُ العدد الكافي

من المحكوم عليهم احكاماً جنائية لاجراء التجارب العلميـــة على اجسادهم وهم احياء ٠ وبذلك اكتُشف ان الاعصاب هي الاسلاك التي تؤَدي الى الدماغ رسائل اللذَّة والأَلم من اجزاء الجسم المختلفة ٠ وتبيَّن ايضاً ان الدماغ هو مركز الجهاز العصبيّ ٠ ومع ان ابحاثاً كهذه كادت توصل علماء هذا العصر الى اكتشاف الدورة الدموية ، بقيت معرفتهم بحقيقة الشرايين مشوبة بالخطإِ لحسبوها انابيب لدوران الهواء الآتي من الرئتين ٠ اما الاسكندرية فصارت اعظم مركز في العالم القديم للابحاث الطبية يتقاطر اليها الشبان من كل حدَب وصوب لكي يدرسوا العلوم الطبية مطوَّلاً ويصيروا من نطس الاطبـاء كما يفعل شبان هذا الزمان



خريطة ٢٢ العالم كما عرفه ارانستنيس

(٦٩٤) اقدم مكاتب الحكومة عند اليونان، مكتبة الاسكندرية

ومع شدَّة شيوع العلوم الطبيعيَّة وشغف الناس بها الآن ، كان الميل الى دراسة اللغـة وآدابها القديمة عظيماً ٠ وكانت المكتبة الاولى التي اسستها حكومة يونانية وقامت بنفقاتها ، هي التي اوجدتها مدينة هِرَقْلية على ساحل البحر الاسود في زمن صبوة الاسكندر (ليس بعد سنة ٣٥٠ ق٠م بزمن طويل) اما في الشرق القديم فكان امر المكاتب الملكية (ف ٢٣٣) شائعاً معروفاً قبل هذا العهد بزمن مديد ٠ وقام بعد ذلك ملوك برغامس واسَّسوا مكتبة شهيرة جدًّا ولكن البطالسة في الاسكندرية فاقوا سواهم من هـذا القبيل فانهم شيَّدوا وراء حديقة قصرهم مكتبة الحقوها بالمتحف بلغ مجموع الدروج فيها نصف مليون درج

(٦٩٥) تنوق في ادارة المكاتب وفهرستها

ان صناعة فَهرسة مجموعة عظيمة من الكتب كالمذكورة آنفاً وادارتها كان لا بدَّ من الاخذ فيها من اوَّل الامر • فاختار بطليموس الاوَّل فيلسوفاً وشاعرًا اسمهُ كلياخوس وجعلهُ مديرًا للمكتبة فشرع للحال في فهرسة كل الكتب المعروفة بانها من الكتب الثمينة المشهورة ذاكرًا اسماءها واسماء مؤلّفيها • فبلغ عدد كتب البرنامج الذي حوى اسماء الكتب التي في مكتبة الاسكندرية مئة وعشرين كتاباً • وبعد ان انجز هـذا العمل الشاق شرع يقسم الدروج الكبيرة التي يصعب رفعها وحطّها الى اقسام او اجزاء تسهيلًا لحملها عند من يستعملها (قابل ش ١٤٤) فكان اوَّل من ادخل طريقة تجزئة المؤلفات الكبيرة التي كانت قبلًا على شكل دروج الى سلسلة من اللفّات او الدروج الصغيرة فقد دُعيت كل حلقة فيها كتاباً • وعلى هذا النمط شرع في تقسيم قصائد هوميروس وتاريخ هيرودتس ومؤَّلفات أُخرى الى كتب

(٦٩٦) تأثير مكتبة الاسكندرية على صناعة التحرير والنشر

ان شدَّة الحاجة الى نسخ الكتب للحصول على نسخ مضبوطة منقولة عن مؤلفات شهيرة لتوضع هذه في المكتبة ادَّى تدريجاً الى ايجاد علم جديد غايتهُ العناية بنشر الكتب القديمة بعد تصحيحها وضبطها ولا سيا المنسوخ منها بخط سقيم • وصارت النسخ التي يصدرها مديرو مكتبة الاسكندرية وعلماؤُها هي المعوَّل عليها لدى سائر المكاتب الاخرى وجماعة النساخ • فكانت النسخ الاسكندرية توزَّع في كل مكان من العالم الهليني • ومن هـذه النسخ تسلسلت المخطوطات المحفوظة في مكاتب اوربا التي نسخت عنها طبعات كتب هوميروس واكزنيفون ومؤَّلفين يونانيين آخرين • ولكن لسوء البخت احترقت مكتبة الاسكندرية وراحت طُعمة للنار (ف ٨٧٠) واقدم نموذج من كتاب يوناني حفظتهُ لنا الايام درج وجدهُ منذ سنين قلائل بعض المنقبين العصريين في ضريح مصري

(٦٩٧) درس اللغة • ظهور المعاجم وكتب الصرف والنحو

ان الصناعة الجديدة — صناعة تحرير الكتب وتنسيق مواضيعها اقتضت طبعاً تعمُّقاً في دراسة اللغة • فحيثما وُجد اختلاف بين نسختين قديمتين كان لا بدَّ من السؤَال عن ايتهما هي الصحيحة • هذا فضلًا عن ان كثيرًا من الالفاظ كان حُوشيا يقتضي تفسيرًا يبيّن معناهُ كبعض الالفاظ العربية القديمة المهجورة التي لا يفقه لها ابن هـذا العصر معنًى ما لم يلجأ الى القاموس كالعُلوج والأُملوج والرُّهام والجِّهام والعَلَل والنَّهل والقارض والقريش وما شاكل من هذه الالفاظ التي اكل الدهر عليها وشرب • اما الامر الذي كان لا ينقطع السؤَال عنهُ فهو التهجئة • فكان ذلك حادياً لعلماء الاسكندرية على تأليف معاجم للغة • وكثيرًا ما كانت تنشأُ مجادلات ومباحكات صرفية ونحوية مهمة حتى قام في سنة ١٢٠ ق • م عالمٌ اسمهُ ديونيسيوس وتصدَّى لوضع اوَّل كتاب يوناني في صرف اللغة ونحوها تضمَّن اهمَّ المصطلحات

والحدود الصرفية والنحوية كاسماء اقسام الكلم التي لا تزال تستعمل في اوربا حتى الآن . وبما ان ديونيسيوس بذل جلّ عنايتهِ في تنسيق كتابهِ اجمل تنسيق وايضاح ماورد فيهِ من الاصطلاحات والحدود احسن ايضاح ، راج كتابهُ رواجاً عظيماً وظلَّ الناس يتداولون استعمالهُ قرناً بعد قرن حتى صار فيما بعد اساساً لكل ما أُلِف من كتب الصرف والنحو في جميع لغات شعوب اوربا الغربية المتمدنة

(٦٩٨) الاداب

وكادت الآداب تكون محصورة بين العلماء الذين كانوا في الاسكندرية فكان كلياخوس ، مدير المكتبة العظيم ، شاعر زمانه . ولم يعد هؤلاء العلماء يختارون لكتاباتهم مواضيع عظيمة تمثيلية كالحرب والقضاء والقدر والنوازل بل آثروا في كتاباتهم مواضيع أخرى

الشكل ١٧٤ صفحة من اقدم كتاب باللغة اليونانية باقٍ الى عهدنا

وُجِد هذا الكتاب مطروحاً بجنب جثة رجل مدفون في مقبرة مصرية وقد حفظ من العطب مع انهُ مكتوب على ورق البردي لان هواء مصر جافٌ فلا يقع فيها المطر الَّا نادراً (اشكال ٤١ و٩٨ و٣٠٧ و٣١٧) وما سميناهُ اعلاهُ بالصفحة هو بالحقيقة عمود كتابة . والكتاب مؤلف من سلسلة اعمدة كهذه مرتبة على الدَّرج جنباً لجنب (ش ١٤٤) . ويشتمل هذا الكتاب على قصيدة تُدعى "الفُرس" حبَّرها ونظم قلائدها الشاعر اليوناني تيموثيوس المتوفى سنة ٣٥٧ ق.م. ويشاهد اسمهُ في السطر الثالث من الاسفل ، في اوَّل السطر . وموضوع هذه القصيدة معركة سلاميس وقد كتبت هذهِ النسخة من الكتاب في حياة الاسكندر . والعمود المعروض هنا للنظر هو كسائر الاعمدة على الدروج التي كانت فيما مضى من الزمان مالئة رفوف المكتبة الاسكندرية . وهذا العمود مثالٌ للصفحات التي كان يكبُّ عليها رجال العلم العظام ينعمون فيها النظر

كتصوير راعٍ مثلاً عند نبع ماء يصغي الى موسيقى حفيف الغصون التي فوق راسهِ

ويسير الهوينا في اثر قطيعهِ يرقب حركات غنمهِ وسكناتها ويطير على اجنحة الخيال حتى يستقرّ فكرهُ عند فتاة قروية فتّانة خلبت لبهُ بجمالها الطبيعي ولكنها نكثت عهدهُ وازدرت ودّهُ • صورٌ كهذه تمثل بساطة العيشة القروية بين التلال والاودية الجميلة التي كان يرغب شعراء هذا الزمان في تصويرها بالشعر المطرب • الى الكتابة بمواضيع كهذه كانت ترتاح الطبقة الراقية المتهذبة في مدينة كالاسكندرية طبقت شهرتها الآفاق • لا الى المواضيع القديمة التي كتب فيها الادباء في الاعصر السالفة معها كانت عليهِ من النفاسة والجلال • وكان المجلّي في مضمار هذا النوع من القريض ثيوقريطس الصقلّي الذي كانت لمنظوماتهِ الانيقة المنزلة الاولى في آداب العالم بمدة الفي سنة • وكانت حياة العصر اليومية تمثَّل على دكات المراسح بصورة روايات عصرية عُرفت «بالروايات الجديدة» • فكان الذين يشهدون التمثيل يرون ما فيهم من عيوب ونقائص يمثَّل امام عيونهم باساليب تضحكهم وتسرُّهم • ونال القِدح المعلّى بين فرسان هذا الميدان في اثينا الروائي ميناندر ، لانهُ كان صادق الفِراسة يعلم من احوال بني زمانهِ ما لم يكن يعلمهُ غيرهُ ولو رآهُ بامّ العين ويدرك ما فيهم من مغامز وينتقدها في ما يحبّرهُ من الروايات البليغة بصورة خلّابة رشيقة قد يعزُّ منالها على سواهُ

٧٠

التهذيب والفلسفة والدين

(٦٩٦) التهذيب . المدارس الابتدائية ومدارس الالعاب الرياضية

لا بدع اذا خطا التهذيب خطواتٍ مهمّة الى الامام في عالمٍ نال من المدنية والرقي سهماً وافرًا وقامت فيهِ المدن الفاخرة والمنازل الباذخة والمباني العمومية النفيسة واحتوى على كثير من الروائع والبدائع الفنية والمكاتب الملكية • ونبغ فيهِ علماء شغفوا بالمباحث العلمية والتقصّي فيها • وقد كانت المدارس الابتدائية في اوّل عهدها خصوصية ولكنها في هذا العصر الذي بلغنا اليهِ صارت عمومية تهتمُّ بامرها الحكومة وتقوم بنفقاتها • وحين كان الولد يكمل مدّة الدراسة فيها كان والده يرخص لهُ بأن يواظب على سماع المحاضرات البيانية والفلسفية والرياضية في غرف المحاضرة ببناية الالعاب الرياضية • ولا يزال احد الجدران في هذه البناية في بريان (ش ١٧٥) مغشّى باسماء الاولاد الذين خطّوا اسماءهم بايديهم منذ الفي سنة لكي يثبتوا ادعاءهم بالمقاعد القريبة من الجدار

(٧٠٠) تأثير مدرسة الالعاب الرياضة في الدروس العليا

وصارت مدرسة الالعاب الرياضية ذريعة للتنبه العقلي · فان الوالدين حين كانوا يبلغون السن التي لا تعود فيها حركاتهم رشيقة كما كانت في صبوتهم للقيام بالالعاب الرياضية كانوا يجلسون في الاروقة المعمّدة يراقبون المباراة الجارية او يقتلون الوقت بالتمشي فِرَقاً فِرَقاً والتباحث في موضوع المحاضرة العلمية الاخيرة او في احدث اكتشاف ظهر في مختبر دار التحف · وكان الاحداث وهم خارجون من حمّامات هذه الدار ليحيّوا والديهم ويصحبوهم الى بيوتهم ، يسمعون عرضاً او اتفاقاً كثيراً من البراهين العلمية والفلسفية · فبيئة كهذه لا بدّ من ان تولّد في المرء شغفاً بالعلم والفلسفة · وكثيراً ما كان الشاب يُلحف على ابيهِ بأن يسمح لهُ ببضع سنين يتلقّى في غضونها الدروس العالية في المتحف او في اثينا

الشكل ١٧٥ جدار غرفة المحاضرات بمدرسة الالعاب الرياضية في بريان لا يزال مغشّى باسماء صغار التلاميذ

كانت غرفة المحاضرات تنفتح على الرواق المعمّد الذي كان يحيط بدار هذه المدرسة (ش ١٦٦) وكانت جدرانها الرخامية مخدشة بكتابة اسماء مئات من الطلبة الذين كانوا يحضرون المحاضرات والصفوف قبل القرن ومئتي سنة · ولكي يحافظ الواحد منهم على حقهِ في المقعد الذي كان يجلس عليهِ كان ينقش على الجدار المحاذي للمقعد المختص بهِ هذه الكلمات مثلاً " مقعد كليون بن كليارخوص " وحين كان يمتلئ الجدار من هذه الاسماء كان الطلبة ينقشون على المقاعد ثم على ظهور رفقائهم حتى يتمكنوا من وجود فسحة فارغة يسجلون فيها ادّعاءهم بالمقاعد

(٧٠١) التخصص بالعلوم

واصبح التخصّص الآن امراً لا مناص منهُ لكل من رام من الشبان ان يتعاطى احدى المهن وينجح فيها · فكما يستعدُّ طالب الطب لمهنتهِ بالدرس والاكباب على مطالعة الكتب الطبية كذلك كان يستعدُّ من رام ان يكون بنّاء ، بالدرس والانصباب على دراسة الكتب التي تبحث في فنّ البناء لكي يعرف كيف يبني قنطرة متينة مثلاً ويعلم ما هي النسبة بين اجزاء العمود — بين القاعدة والشمعة والتاج · والذين صبت انفسهم الى ان يكونوا في مستقبل حياتهم مهندسين كانوا يثابرون على درس الميكانيكيات ليتقنوا معرفة بناء الجسور وابتكار الطرق لجرّ الاثقال · فكان هذا العصر بوجه الاجمال عصر تهذيب في الفنون والصنائع · وقد جنى المتخصِّصون منافع جمة من تفرّدهم بفرع واحد حتى الفروع العلمية كالفلك او الرياضيات او الجغرافيا · وكان الراغبون في التخصُّص يقصدون المتحف الاسكندري

مقام كبار الاساتذة الممتازين

(٧٠٢) المتحف الاسكندري كجامعة

وحين كان الطالب يمشي في الهويناء وسط الحدائق الجميلة قاصداً المتحف، كان يجد هناك رهطاً من العلماء والحكماء يلقون محاضرات مختلفة في الفلك والجغرافيا والطبيعيات والرياضيات والنبات والحيوان والتشريح والطب والبيان والصرف والنحو والآداب . وبعد ان يتضلّع من الحقائق المعلومة عن هذه المواضيع، كان ينصرف بجميع قواه الى البحث والتنقيب ليكتشف حقائق جديدة عنها ويضيفها الى الحقائق المعلومة . وبعد تمتعه بسماع المحاضرات المفيدة في المواضيع التي يريدها كان اذا شاء يمرّ بالدار الى الغرف الاخرى . وقبل دخوله اليها كان يسمع صُراخ الحيوانات المتألمة تحت السكين والمشراط فيعلم ان في الداخل جماعة يشرّحونها حيّة . وكان مباحاً له ان يتسلّق سُلّم برج المرصد الفلكي ويقيم هناك على الرُحب والسعة ملازماً لاحد مشاهير علماء الفلك ليلةً بعد ليلة او يعاون اراتستنيس حين ينتصب قسطاس النهار، على رصد الشمس توصّلاً لمعرفة حجم الارض (٦٨٩) او يميل الى غرف المكتبة حيث تسود السكينة ويعاون القائمين بادارتها على تنظيم قوائم بالكتب القديمة التي فيها لكي تضمّ بعد تنظيمها الى البرنامج الكبير الذي أعدّهُ كلياخوس فاذا بدأ منهُ شيء من النبوغ او الامتياز سُمح لهُ فيما بعد بالقاء محاضرات على الطلبة ثم الانتظام في سلك اساطين العلم والفضل في هذا المعهد الطائر الشهرة

(٧٠٣) دار العلوم والمدرسة المشّاءة

لم تكن الاسكندرية بدأة ذي بدء تحفل كثيراً بامر الفلسفة التي كان قد نشأ منها العلم (ف ٤٨٤) فظلت اثينا المنتجع الاعظم للفلسفة يؤمها الطلّاب من مختلف الاصقاع لتلقّي الدروس الفلسفية على خلفاء افلاطون الذين ثابروا على التعليم في حَرَجة دار العلوم (ف ٦١٦) حيث كانت تسود السكينة ويخيم السلام ويُذكر اسم افلاطون بالتجلّة والاحترام . ولكن ارسطوطاليس تلميذ افلاطون ابى ان يقبل تعاليم استاذه وكان — بعد ان اتمّ تهذيب الاسكندر — قد عاد الى اثينا وانشأ بها مدرسة خصوصية في المكان المعروف بالليسيوم (ف٥٣٧) حيث كان قد احتلّ مصطبة فيه تُعرف بالممشى . هنا كان يدرّب الطلبة المتقدمين صفاً بعد صف في كيفية تنسيق العلوم المتنوعة ودرسها . وكان في عداد تلك العلوم التشريح والنبات والحيوان . وكان الطلبة على اختلاف فرقهم يجمعون كثيراً من الملاحظات العلمية فيبوّبونها وينسقونها تحت مراقبة الاستاذ وارشاده . فكان لهم مما جمعوهُ وبوّبوهُ موسوعة كبيرة صحيحة جمعت حقائق المواضيع المختلفة بين قديمة وحديثة . الاّ ان هذا العمل الخطير لم يكمل بل فُقِد الكثير من الرسائل والمقالات التي كانت جزءاً من الموسوعة . ولما مات ارسطوطاليس على اثر موت الاسكندر اخذت مدرستهُ في التقهقر

(٧٠٤) مؤلفات ارسطوطاليس ومنزلتها بين الكتب

كانت مؤلفات ارسطوطاليس اعظم مشروع قام بهِ الانسان في العصور القديمة لجمع المعارف البشرية بحذافيرها وبسطها باسلوب واضح شائق . ولذلك بقيت على مرور الاجيال في منزلتها الاولى من الخطورة ورفعة الشان . واكسبت مؤلفها شهرة سارت مسير النيرين وطبقت الخافقين وجعلت الناس في كل مكان وزمان يعترفون بأن عقل ارسطوطاليس اعظم عقل ظهر في العالم القديم . وكان بعد ذلك لمؤلفاتهِ مكانة رفيعة في عيون اهل اوربا وكانت المرجع الاعلى لدى اهل القرن الوسطى كلما ارادوا ان يفتشوا عن جواب او حل لمسئلة من مسائل العلم . فعوضاً عن ان يندفعوا بكلّيتهم الى اكتشاف حقائق جديدة في الطبيعة كانوا يعوّلون في حل ما يعثرون عليهِ من القضايا العلمية على مؤلفات ارسطوطاليس . ولم يقم في العالم باسرهِ شخص نالت مؤلفاتهُ الشهرة البعيدة والثقة الاكيدة التي لا يشوبها ريب كارسطوطاليس .

(٧٠٥) فلسفة الحياة العلمية : الستوا والابيكورية

لم ترق مباحث افلاطون العلمية كثيرين من اليونانيين ولا راقتهم مدرستهُ المعروفة بالاكادمية ولم تعجبهم حكمة ارسطوطاليس ومدرستهُ المشّاءة بل صبت عقولهم الى نوع من الفلسفة يُكسبهم هناء المعيشة وراحة البال والنجح في الاعمال . وتحقيقاً لهذه الرغائب أُنشيء في اثينا مدرستان أُخريان للفلسفة مؤسس الاولى منها رجلٌ شرقي ساميٌّ الجنس قبرصيٌّ المولد اسمهُ زينون كان يعلّم في الرواق المصوَّر القديم الشهير بسوق اثينا (ف ٥٤٩) ولذلك لُقّبت مدرستهُ بالرواقية وقد علم بأنهُ يوجد شيءٌ واحدٌ صالح هو الفضيلة وشيءٌ واحدٌ طالح هو الرذيلة وبان غاية الحياة العظمى يجب ان تكون طُمأنينة النفس الحاصلة عن الفضيلة والتي يستوي لديها الألم واللذّة . واشتهر اتباعهُ بشدّة الجَلَد . ولذلك شاع استعمال لفظة «الرواقيّة» مرادفاً لعدم المبالاة بالالم . وذاع صيت المدرسة الرواقيّة واشتهر امرها فمال اليها عموم الناس واصبحت واسطة عِقد المدارس التي من نوعها . والمدرسة الاخيرة — وهي التي اسسها ابيكورس في حديقته باثينا — كان جوهر تعليمها ان الخير الاعظم هو اللذّة سواءٌ كانت عقلية او جسدية بشرط الاَّ تخرج عن دائرة الفضيلة . فاصبح الابيكوري مضرب مثل للانغماس في الملذّات ولا سيما النَّهم او الافراط في الاكل . فكل من اشتهر بهِ كانوا يسمونهُ ابيكوريا . وفشا ذكر هذه المدرسة بعد ازدهارها فاقبل عليها الطلاب من كل فجّ سحيق حتى غصت بهم على رُحبها الاَّ ان الناس ما لبثوا ان حرَّفوا تعاليمها وافسدوها لكي يجدوا لانفسهم مبرّرًا من الانغماس في الملذّات الشهوانية التي ذهبوا فيها كل مذهب حتى طُبّق عليهم المثل الشرقي القائل « لنأكل ونشرب ونفرح لاننا غدًا نموت » فاصبح شعارًا لحياتهم .

(٧٠٦) جامعة العلماء وتأثيرها التاريخي

وكانت نفقات هذه المدارس من دخل الاملاك التي وقفها لها تلاميذها واصدقاؤها الاغنياء • وكان رئيس المدرسة يقيم هو ومعاونوهُ واتباعهُ في منازل ذات غرف مخصوصة بالمحاضرات والكتب والمطالعة • وكانت مدرسة ارسطوطاليس اعظمها تقدماً ونجاحاً ولا سيما في حياته • ونظّمت دار التحف الاسكندرية على منهاج المدارس الاثينية التي اصبحت منذ ذلك الحين نموذجاً للاكاديميات والجامعات بحيث صار يصح القول ان اثينا في العصر الهليني صارت مركزاً لجامعة مؤلفة من اربع دوائر (الاكاديمية والليسيوم والرواق وحديقة ابيكورس) وهكذا غدت في الوقت الذي فيه فقدت مركزها السياسي اعظم مما كان يرجّي لها بريكليس • فلم تكن معلّمة جميع بلاد اليونان فحسب بل اصبح الطلّاب يؤمونها من جميع اطراف العالم المتمدن لكي يقتبسوا علماً وحكمة

(٧٠٧) سقوط الالهة اليونانية القديمة

وصارت تعاليم الرواقيّة والابيكورية تقوم عند الفئة المتهذبة مقام الديانة • واصبحت الآلهة عندهم كأنها لم تكن • واذا اعترفوا بوجودها عدُّوها كائنات بشرية ممجدة لا غير • قيل ان احد كتبة الروايات الخيالية في ذلك العصر واسمهُ أُهميروس – أَلّف قصّة جميلة موضوعها سفرة خيالية في الاوقيانوس الهندي حيث وجد مجموعة جزائر غريبة • وهناك في هيكل زفس وجد صفيحة منقوشة عليها قصّة مآلها ان الآلهة العظيمة التي كان يعبدها اليونان كانت في الاصل ملوكاً من ذوي الحَول والدهاء بذلوا جهدهم في تمدين الجنس البشري • وبعد وفاتهم أُلّهوا • فهذه الحكاية المحكمة التركيب التي ولّدتها قريحة روائي خياليّ عاش بعد عصر الاسكندر ، صدّقها الناس في كل مكان ففقدت الآلهة ، بتصديق الناس لها ، ما كان لها من الاحترام والمنزلة السامية في عيون المتعبدين • ولم يكن محظوراً على احدٍ ان يصرّح بما يكنهُ قلبهُ عن الآلهة مهما كان اعتقادهُ فيها بل كانت الحرية مطلقة للجميع وفاقت الحرية التي منحها بعد ذلك ملوك اوربا لرعاياهم • ولو عاش سقراط في هذا الزمان لم يقضِ عليهِ مواطنوهُ الاثينيون بالاعدام

(٧٠٨) الميل المتزايد الى الآلهة الشرقية

وكان السواد الاعظم من الشعب غير متعلمين ليفهموا الفلسفة وغير قادرين لضيق ذات اليد ان يذهبوا ويتلقّوها في المدارس التي تعلّمها • ولكن كان لا بد لهم من آلهة مهما كان شكلها • ولما ضعف ايمانهم بالآلهة القديمة مالوا الى تكريم الآلهة الشرقية التي كانت – كما رأينا قبلًا – قد دخلت بينهم وأثرت في حياتهم (ف٦٠٤) حتى جعل البطالسة احدها المسمى (سيرابيس) اله المملكة العظيم ، وشيّدوا لهُ هيكلًا فاخراً بالاسكندرية • وكانت علوم المنجمين الكلدانيين الغامضة الصادرة من بابل تقطع البحر المتوسط وتنتشر انتشاراً عظيماً • كان لها مكانتها السامية بين المصريين ولم ينج من تأثيرها العلم اليوناني •

وكانت العقائد الشرقية قد شاعت في كل مكان . ومن هذا الوقت اخذ الناس يألفون الآلهة الاجنبية ولم يعودوا ينظرون شزرًا الى البدع الغريبة في الديانة . ففي عصر مثل هذا اجتازت الديانة المسيحية الشرقية من بلاد الى بلاد بسهولة كلية

٧١

تكوّن عالم جديد هليني مدنيتهُ يونانية شرقية .
زوال الجنسية والحكومة المدينية

(٧٠٩) استمرار دخول المؤثرات الشرقية في الجانب الشرقي من البحر المتوسط

من الخطإ العظيم ان يُظن ان معركتي مرثون وسلاميس قد نفتا نفيًا مؤبدًا المؤثرات الشرقية من سواحل البحر المتوسط ووقفتا سدًّا يحول دون رجوعها . فاننا بينما نرى من الجهة الواحدة انتصارات الاسكندر وفتوحاتهِ تلاشي قوات الشرق الحربية والعسكرية نرى من الجهة الاخرى ان الحياة الشرقية والحضارة الشرقية ظلّتا تضغطان بقوّة مستمرّة على حياة سكان السواحل الشرقية من البحر المتوسط وتحدثان فيها تأثيرًا محسوسًا سواء كان في التجارة او في شكل الحكومة او في العادات والاصطلاحات والفنون والصناعات والآداب والديانة . ولذلك لما خرجت الديانة المسيحية من فلسطين — كما سنرى — (ف ٩٤٩) كانت من جملة العوامل الكثيرة التي جاءت من الشرق ووجهتها الغرب . وهكذا فيما كانت المدنية اليونانية بلغتها وفنها وآدابها ومراسحها ومدارسها التي انشأتها ، عاملة على « يوننة » الشرق ، كان الشرق بهذه الطريقة عينها عاملًا بقوة عظيمة في الغرب لجعل العالم الواقع الى الجانب الشرقي من البحر المتوسط شرقيًا وعلى هذا الاسلوب تكوّن تدريجًا على الجانب الشرقي من هذا البحر عالم جديد ذو حضارة يونانية شرقية

(٧١٠) العالم الهليني شرقي المتوسط ونقصان الجنسية منهُ

وفي هذا العالم الاكبر ، لم يكن لليوناني القديم الذي ابلغ الحضارة اليونانية الى ما بلغتهُ ، من عمل او تأثير الاَّ قليلًا جدًّا لانهُ شعر بانهُ فردٌ من عالم مؤلف من كل امة وقبيلة ولسان واعظم بما لا يُقاس من المدينة التي كان يقيم بها . الاَّ ان هذا العالم الاكبر لم يجعل الناس يفقهون للجنسية معنى لانهُ لم يكن في الحكومات الكبيرة بعد عصر الاسكندر ما يُعرف بالجنسية . ولم يكن لابن المدينة نصيب في ادارة شؤون الامة او المملكة الكبرى التي كانت حكومة مدينتهِ جزءًا منها . ولم يكن لهُ حق في التصويت الاَّ في الانتخابات التي

تجري في مدينتهِ لتعيين الوظفين فيها ولم يتعدَّ حقهُ في التصويت هذا الحدَّ • ولم يكن من اسم لمملكة السلوقيين فكان رعاياهم انَّى ذهبوا ينتمون الى مدنهم[1] او بلدانهم فكانت فكرة الوطن معدومة ومحبتهُ غير معروفة

(٧١١) المنافع التي ادلتها الحكومات المدينية للعمران اليوناني

كانت الحكومات المدينيـــة مراكز القوة والتقدم في العمران اليوناني ولكن افضل تلك القوات التي كانت تعمل في تلك الحكومات من الداخل ولها التأثير الاعظم كانت قد اضمحلت الآن • فالآلهة القديمة التي كانت احدى تلك القوات كانت قد تلاشت والجندي الوطني الذي كان يذود عن مدينتهِ لم يبقَ لهُ عين ولا اثر حتى في بلاد اليونان نفسها • وقد حلَّ محلهُ الجندي الاجنبي المأجور ليدافـــع عن بلاد ليست بلاده • ولم يعـــد اليوناني يقف وسلاحهُ في يدهِ ليصدَّ الاعداء عن مهاجمة وطنهِ او مدينتهِ • ولمـــا وجد ان تولي المناصب اصبح من جمـــلة المهن التي يتعاطاها الناس، فقد ميلـــهُ القديم الى وطنهِ وامسى لا يهتمُّ الاَّ بشؤونهِ الخاصة وترقية حالهِ غير شاعر بالمسؤولية التي كانت تولِّدها في صدرهِ محبتهُ لمدينتهِ فتولِّد فيهِ حماسة شديدة تدفعهُ الى الاقدام على كل مـــا هو جليل وشريف سواء كان في السياسة والفنون او في الآداب وفن البناء والابداع • ولما قامت قبلاً المباراة بين الحكومات المدينية على قدم وساق، آلت الى نشوء مدنية فيها فاقت سائر المدنيات الاخرى التي كان قد عرفها العالم منـــذ وُجد • وكما كانت هذه المباراة سبباً لترقي البـــلاد الى اوج الحضارة كانت المباراة السياسية التي قامت بين الحكومـــات المختلفة سبباً لانحطاطها بل تلاشيها سياسيًّا • وبعد المهاجرة الى اسية (ف ٦٦٨) لم يبقَ في المدن اليونانية من الوطنيين الحقيقيين الاَّ بقية زهيدة تولاَّها اليأس ووهن العزيمة • وامست تلك الرِّحاب الفسيحة امـــام البنايات العمومية في المدن اليونانية، بعـــد ان كانت تغصّ بالخلق، مسرحاً للماشية • وهكذا مرَّ على اليونان الزمان دون ان يتحدوا امةً واحدة حتى في بلادهم الاصلية لم يعرفوا للاتحـــاد معنى

(٧١٢) شرق البحر المتوسط تحت سلطة غربهِ

ان الحكومات المدينية اليونانية القديمة كان قد ابتلعها عالمٌ اكبر منها ولكن هذا العالم الهليني في شرق البحر المتوسط لم تجيء عليهِ سنة ٢٠٠ ق٠م الاَّ كان بحروبهِ ومنازعاتـــهِ الداخلية قد وصل الى نقطة من كيانهِ عرَّض عندها نفسهُ للوقوع تحت صولة قوة حربيـــة جديدة عظيمة جاءت من عالم بعيد في غرب البحر المتوسط وقبضت عليهِ بيد من حديد •

---

(١) كان ابناء سوريا مثلاً الى مدنهم المختلفة، فيقول الواحد انا بيروتي او شويري او شامي بدلاً من ان يقول انا سوري

وبعد ان وصلنا الى هذه النقطة من التاريخ (٢٠٠ ق٠م) لا نستطيع فهم ما بقي من تاريخ البلاد التي في شرق البحر المتوسط حتى نكون قد درسنا تاريخ البلدان التي في غربهِ حيث كانت مدينة رومية قد قامت منذ ثلاثة قرون خلت تنشئ قوة قيض لها ان تضمّ الشرق والغرب معاً وتؤلف منها امبراطورية شاسعة الاكناف مترامية الاطراف دخلت في حماها بلدان البحر المتوسط جميعها

مسائل

٦٨

ما هي اللغة التي كانت شائعة في العصر الهليني اي العصر الذي عقب موت الاسكندر الكبير ؟ كيف كان حجر رشيد مثالاً لهذه الحقيقة ؟ صف ما حصل من التحسين او الاصلاح في المنازل ٠ اية مكتوبات تنبئنا شيئاً عن هذا العصر وكيف حُفظت ؟ صف المدن الهلينية الجديدة ولا سيا بريان ؟ اي اشكال جديدة في البناء دخلت الآن ؟ صف تجارة الاسكندرية وحدائقها ومبانيها العمومية ٠ صف النماذج المهمة في النحاتة التي تظهر فيها الاعمال الفظيعة المفجعة ٠ ماذا تعرف عن مواضيع كهذه في التصوير ؟

٦٩

ماذا تعرف عن الاختراعات في العصر الهليني ؟ وعن التقدم في معرفة قياس الوقت؟ وعن اعمال ارخميدس العظيمة ؟ قل ماتعرفهُ عن حياة العلماء الاسكندريين ؟ اي منهم ألّف في الهندسة ولا يزال مؤلفهُ مستعملاً حتى الآن؟ اية حقيقة عظيمة اكتشفها ارستارخس؟ كيف توصّل أراتستنيس الى معرفة حجم الارض بالحساب ؟ اخبر عن التقدم الذي حصل في معرفة الجغرافيا ٠ صف خريطة العالم التي رسمها اراتستنيس وأين التقدم في درس حياة الحيوان وعلم الطب ٠ ماذا تعرف عن نشوء المكاتب ؟ من كان اوّل مدير مكتبة عظيم ؟ وماذا عمل ؟ اي تأثير كان للمكاتب في نشر الكتب ؟ وفي درس اللغة ؟ اشرح التغييرات التي طرأت على الآداب ٠

٧٠

أسهب في الكلام عن مدرسة الرياضة كمصدر للتهذيب . اي مهن كان مباحاً للصبيان ان يتعلموها ؟ كيف كان يمكنهم الجمع بين الدروس العلمية والبحث والتنقيب عن الاشياء الغير المعروفة ؟ اين كان يدرس الشبان الفلسفة ؟ ما هما مدرستا الفلسفة اللتان نشأتا اولاً في اثينا ؟ ماذا فعل ارسطوطاليس ؟ ماذا كانت منزلتهُ بين المفكرين؟ اذكر اسمَي مدرستَي الفلسفة اللتين ظهرتا بعد ذلك في اثينا . ماذا كانت غايتهما ؟ ماذا حدث للآلهة القديمة ؟

٧١

ماذا كان نوع العالم الذي نشأ في مشرق البحر المتوسط ؟ ماذا تقول عن الجنسية او التابعية هناك ؟ تحت اي نوع من الحكومة تطوَّرت المدنية اليونانية بنوع خصوصي ؟ ماذا حدث الآن للحكومات المدينية ؟ ماذا كان مزمعاً ان يحل بالعالم الهليني في شرق البحر المتوسط ؟

الفصل الحادي والعشرون

عالم البحر المتوسط الغربي وفتح الرومان لايطاليا

٧٣

عالم البحر المتوسط الغربيّ

(٧١٣) الجزء الاهم من العالم القدم يتألف من البحر المتوسط وبلدانه الساحلية

انا في تتبعنا تاريخ البلدان التي في الجانب الشرقي من البحر المتوسط والشعوب التي تجمّعت فيها لم نكن نوجّه النظر الى تاريخ الجانب الغربي منهُ الاَّ لمحاً او اختلاساً وقبل ان ننتقل الى النظر في تاريخ الجانب الغربي يجدر بنا ان نرسم صورة اجمالية لعالم البحر المتوسط تمثلهُ لعيوننا كما هو. إنِ هذا البحر جسم كبير جدًّا من الماء يكاد طولهُ البالغ ٣٨٠٠ كيلومتر يساوي طول اوربا بأُسرها. ويهمّنا ان نتذكّر الآن ان معظم العالم القديم كان يتألف من البلدان المحيطة بهِ مضافاً اليها البحر الاسود والبلدان الشرقية. وقد كان هذا البحر وسواحلهُ المرسح الذي مُثِّلت على دكّتهِ معظم حوادث التاريخ القديم

(٧١٤) انقسام البحر المتوسط الى حوضين شرقي وغربي

ليس البحر المتوسط جسماً من الماء متصل الاجزاء بلا فاصل بينها مطلقاً فانهُ يمتدُّ من برّي ايطاليا وصقلية عبر هذا البحر العظيم جسر يكاد يفصلهُ الى حوضين كبيرين شرقي وغربي. وبما انهُ ليس لدينا اسمان جغرافيان مقبولان لدى العلماء يسميان بهما، رأينا ان نسمي احدهما بعالم البحر المتوسط الشرقي وصِنْوَهُ بعالم البحر المتوسط الغربي. وبما اننا قد تتبعنا في ما مرَّ بنا، تاريخ الانسان المتمدن في عالم البحر المتوسط الشرقي فالضرورة تقضي الآن بوجوب درس تاريخ العالم الغربي

بدأ تاريخ الحضارة في عالم البحر المتوسط الشرقي تحت زعامة الشرق القديم، وكانت

(٧١٥) انتشار الحضارة من شرق هذا البحر الى غربهِ

الشعوب المقيمة في العالم الغربي منهُ ابعد من ان تشعر بتأثير العوامل الشرقية مع ما كانت عليهِ تلك العوامل من الشدَّة والقوَّة الدافعتين الى مرابع الحضارة والعمران فبقي الغرب من الوجهة العمرانية متخلفاً جدًّا عن الشرق . الاَّ ان جزءًا كبيرًا من الغرب كان قد خطا بضع خطوات في سبيل العمران وتقدم عما كان عليهِ سكان القرى السويسرية في العصر الحجري. واذا دققنا النظر في الخريطة التي على الصفحة المقابلة رأينا ان عالم البحر المتوسط الغربي غير مفصول تماماً عن الشرقي الذي كان يستطفُّ عليهِ عند تخمهِ الغربي . ولا يخفى ما كان عليهِ العالم الشرقي من الحضارة اليونانية القديمة والهلينية . وسنرى في ما يأتي كيف عدّن الجزء الشرقي من المتوسط الجزء الغربي منهُ مبتدئاً بايطاليا وصقلّية

(٧١٦) ايطاليا . جغرافيتها وموازنتها بمقارنتها مع بلاد اليونان .

كانت ايطاليا قديماً اهم بلدان عالم البحر المتوسط الغربي . وبما ان ارضها تتحدَّر الى الغرب مُقابل العالم الغربي من البحر المذكور فهي منهُ . وتمتدُّ شبه جزيرة ايطاليا في البحر الى مدًى بعيد . ويبلغ طولها ٩٦٠ كيلومترًا ومساحتها اربعة امثال مساحة بلاد اليونان . ولا تقطّعها الجبال الى اودية متمعجة وسهول مقتضبة . فسلسلة الابنين الرئيسية، وان كانت تخترق شبه الجزيرة بانحراف من جهة الشمال، فهي موازية للسواحل ، ورؤوسها المنفصلة منها والبعيدة عنها هي كذلك ايضاً . وليس من مثيل لسهولها الكبيرة الزراعية في كل بلاد اليونان . وفي انجادها وهضابها مراعٍ خصيبة للانعام والمواشي لا تضاهيها مراعي بلاد اليونان في رحابتها ولا نضارتها . وفي وسع سهولها ان تقوم بحاجات عدد من السكان تعجز عن القيام بهِ بلاد اليونان . وسواحلها غير مفلّلة او مشرشرة كسواحل بلاد اليونان ولكن موانيها الصالحة لرسوّ السفن اقلّ . ولهذا اتقن اهلها الزراعة وتربية المواشي قبل ان اتقنوا التجارة

(٧١٧) المهاجرات الاولى الى ايطاليا

كانت سهول ايطاليا ومنحدرات جبالها التي تكسوها الغابات الغضّة، جاذباً قويا جدًّا لشعوب اوربا الشمالية حداهم الى مغادرة بلدانهم الشديدة الزمهرير والمهاجرة الى شبه الجزيرة الشامسة الدافئة في البحر الجنوبي بحوالي سنة ٢٠٠٠ ق.م قدم نحو الجنوب سكان بحيرات سويسرة العصر الحجري المتأخر (ف٢٧–٣٤) وقطعوا مضايق جبال الالب واستولوا على بحيرات شمال ايطاليا . وقد وجد المنقبون عن الآثار بقايا منازل اكثر من مئة جالية من جواليهم في وادي البو . كان هذا الوادي مستنقعات فسيحة جدًّا فتملكوها وبنوا فيها منازلهم التي كانوا يركزونها على عُمد مغروزة في الماء والوحل ، وتبسّطوا في تلك المستنقعات بقدر ما شاؤوا . ولا تزال منازل مدينة البندقية قائمة على عُمُدٍ، وان كان جزء كبير منها مبنيا بالحجر . وهي انموذج للطريقة التي كان يحتذيها سكان البحيرات في بناء بيوتهم

الخشبية الصغيرة على عُمُد في هذا المكان نفسهِ · وكان لطريقتهم هذه تأثير في الرومانيين الذين عاشوا بعد هذا الزمان لانهم بنوا معسكراتهم على نمط القرى التي قامت على عُمُد في وادي البو

(٧١٨) اقدم المعادن بايطاليا واسماؤها الشرقية

لما هبط هؤلاء الشعوب وادي البو كان المعدن معروفاً عندهم وقد وجدت بقايا منهُ في جميع محالّهم · وكونهُ من اصل شرقيّ ظاهرٌ من الاسماء التي جاء بها النحاس والبرنز من الشرق الى ايطاليا فان اللفظة الانكليزية للنحاس « Copper » كانت تُكتب بالايطالية « Cuprum » اخذاً عن جزيرة قبرص « Cuprus » التي كانت معادنها الغنية تقدّم لجميع بلدان البحر المتوسط حاجتها من النحاس منذ اقدم الازمنة · واللفظة الانكليزية «Bronze» مشتقة — على الارجح — من الجزء الاوّل من اسم المدينة « Brundesium »(المعروفة الآن ببرندزي « Brindisi ») التي لقرب موقعها من بلاد ايجه اخذت منها البرنز منذ زمان عريق جدًّا في القدم

الشكل ١٧٦ الرسم الهندسي الارضي لقرية في شمال ايطاليا قائمة على عُمُد

كانت هذه القرية محاطة بخندق (A) عرضهُ تقريباً ١٠٠ قدم مملوء ماء من نهر متصل به (C) وكان داخل الخندق حائط ترابيّ (B) سمكهُ عند القاعدة ١٥ متراً · وكان طول هذه القرية ٦٠٠ متر · وهي قائمة في اراضي وادي البو الغمقة على عمد مثل قرى البحيرات التي مرَّ ذكرها قبلاً وكانت هندسة الشوارع كهندسة معسكرات الجند الرومانيين المأخوذة عنها

(٧١٩) دخول جناح الشعب الهندي الاوربي الغربي الى ايطاليا

وفيما كان سكان القرى القائمة على عُمُد مغروزة في الوحل والماء يهبطون وادي البو كانت القبائل التي يتألف طرفها الغربي من الجوالي الهندية الاوربية (ش٨٣) قد اخذت تشعر بجاذبية آكام ايطاليا وهضابها الخضراء الدافئة · ويرجح انهُ بعد مجيء اليونان من الشمال الى جزيرتهم (ف٣٧٧) بزمن غير طويل كانت القبائل الغربية الهندية الاوربية الذم قد دخلت عالم البحر المتوسط الغربي الجميل الذي تمتدّ اليهِ شبه جزيرة ايطاليا · جاؤُوا اليها جالية بعد أخرى تدريجاً · وكان اهمّ تلك الجوالي التي احتلت الاقسام الوسطى والجنوبية من شبه الجزيرة وتُعرف بالقبائل الايطالية او الايطاليين الاولين · واسمهم

الذي اطلقهُ اليونان اولاً على القسم الجنوبي من شبه الجزيرة فقط، عاد فشمل البلاد كلها فصار اسمها «ايطاليا» ويرجح انهُ في غضون بضعة قرون عاد فطما سيل مهاجرتهم على صقلية ايضاً

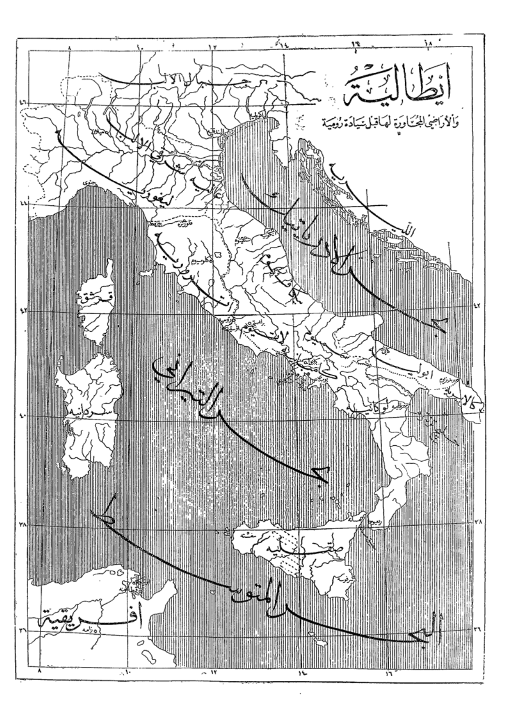
٧٣٠) ايطاليا والغرب قبل تمدنها

لم يبرح من بالنا بعد ان اليونان عند فتحهم لبلاد ايجه استولوا على منطقة واقعة على تخوم الشرق كانت حائزة درجة سامية من الحضارة. ولكن لم يكن الامر هكذا مع غزاة ايطاليا الذين هم من الشعب الهندي الاوربي، فانهم وجدوا ان عالم البحر المتوسط الغربي لم تشرق عليهِ شمس المدنية بعد. فكان فن البناء لا يزال غير معروف فيه. لم تكن هناك مبانٍ فاخرة ولا قلاع حصينة بل كانت الفنون والصناعات في ابسط حالاتها. ولم يكن من اثر للكتابة والآداب. وبما ان القبائل الايطالية كانت تحارب في اثناء زحفها فلا بد ان يكون سكان البلاد قد فرُّوا امامها كما فرَّ الايجيون امام اليونان الذين قدموا عليهم ولا تزال صور هولاء الغربيين، ابناء اوربا في العصر الحجري، محفوظة على آثار القرن الثالث عشر ق.م. المصرية والظاهر انهم خدموا في الجيش المصري وربما كانوا هم الهاربين الذين انهزموا امام الهجوم الايطالي في الغرب وكان سلاحهم سيوفاً هائلة من البرنز. والحقيقة انها لم تكن الاَّ خناجر مصرية مكبَّرة (ش ١٨٤) كالتي كانوا قد ادخلوا مثلها الى البلاد. وكان هولاء الغربيون الذين عاشوا قبل زمن التاريخ ماهرين في صنع الادوات المعدنية فاخترعوا السيف [١] الذي لا تزال اوربا تستعملهُ حتى الآن

٧٣١) الخصوم الشرقيون الثلاثة وتصدمهم للقبائل الايطالية. الاوّل الاترسكيون

كان في عالم البحر المتوسط الغربي ثلاثة شعوب بينهم مناظرات ومنافسات وكلهم جاء من عالم البحر المتوسط الشرقي. وبينما كان الايطاليون يتحاربون بعضهم مع بعض ابصروا جماعة من لصوص البحر البواسل المعروفين بالاترسكيين وهم شعب لا يُعرف لهم منبت أسلة يرجح انهم كانوا يستوطنون اسية الصغرى الغربية. والآثار المصرية تنبئنا بما قاموا بهِ من الغارات البحرية على شاطئ الدلتا منذ القرن الثالث عشر ق.م، في الوقت الذي ربما كانوا فيهِ يغادرون اسية الصغرى للتفتيش عن وطن جديد بايطاليا. وقد وجدوا هذا الوطن الجديد نحو سنة ١٠٠٠ ق.م فصدُّوا القبائل الهندية الاوربية الى الوراء واستولوا اخيراً على ساحل ايطاليا الغربي — من خليج نابولي تقريباً الى جنوا يتبع ذلك قسم كبير من داخلية البلاد حتى حدود جبال الابنين ووادي البو. فكأنهُ قُيّض لهم ان يكونوا هم المتسلطين

(١) كان النصل المغني ذو الحدّ الواحد معروفاً في الامبراطورية المصرية كما كان معروفاً في الامبراطورية الاشورية لكنهُ لم يستعمل الاَّ قليلاً ولم يصر قط في عداد الاسلحة التي كانت تستعملها جيوش الشرق. واما السيف ذو الحدَّين، وليد الخنجر، الذي كان يستعملهُ الجيش الروماني فمن اصل غربي



ايطاليه
والأراضي المجاورة لها قبل سيادة رومية
جبال الالب
ليغوريه
البحر الادرياتيكي
البحر التيراني
البحر المتوسط
قرشق
سردانيه
صقليه
افريقية
ابوليه
لوكانيه

على ايطاليا · وبقوا شعباً مهماً في الغرب حتى عصر التاريخ

(٧٢٢) الخصم الثاني قرطاجنة

كان القرطاجنيون ثاني المزاحمين الثلاثة الذين تصدّوا للقبائل الايطالية في اثناء المدة التي بلغ فيها الفينيقيون اوج نجاحهم التجاري اي سنة ١٠٠٠ ق·م· وخرجوا بتجارتهم الى البحر المتوسط الغربي كما ذكرنا سابقاً (ف٣٩٧) وشيدوا على الساحل الافريقي مقابل صقلية مدينة تجارية دعوها قرطاجنّة · ولم يمض عليها ردحٌ من الزمان حتى صارت اهمّ مرفإٍ تجاري في الجزء الغربي من البحر المتوسط (ف ٢٣٩) وبعد امدٍ قصير دخل في حيازة الفينيقيين ساحل افريقيا الشمالي حتى حدود الاتلانتيكي غرباً · وفضلاً عن استيلائهم على جنوب اسبانيا طمحت ابصارهم الى ابتلاع جزر الجزء الغربي من البحر المتوسط ولا سيا صقلية



الشكل ١٧٧ خوذة اترسكية غنمها يونان سرقوسة لما عقد لهم الفوز على الاترسكيين في كومي سنة ٤٧٤ ق·م

ان هيرو اليوناني حاكم سرقوسة الطاغية كرّس هذه الخوذة في اولميا كجزء من الغنيمة التي غنمها من الاترسكيين في انتصاره البحري العظيم في كومي (ف ٧٣٦) وهي الآن في المتحف البريطاني ولا تزال بادية عليها الكتابة التكريسية التي امر بنقشها عليها الطاغية السرقوسي منذ الفين واربع مئة سنة تقريباً

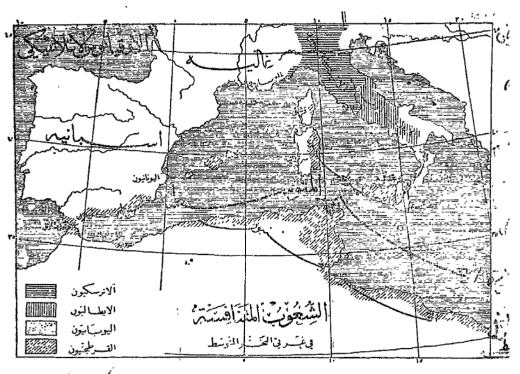
(٧٢٣) الخصم الثالث اليونان

وفيما كان القرطاجنيون يحاولون ان يستولوا على الجزء الغربي من البحر المتوسط ، رأى الايطاليون خصمهم الثالث ، اليونان ، يهاجم الغرب · وقد تتبعنا قبلاً توسع اليونان ايام كانوا يؤسسون حكوماتهم الصغيرة ، التي كانت الواحدة منها مؤلفة من مدينة وارباضها ، على سواحل ايطاليا الجنوبية وفي صقلّية في القرن الثامن ق·م· (ف ٤٣٣—٤٣٩) و لم تستطع هذه الحكومات ان تتحد معاً وتكوّن حكومة كبيرة لان النزاع الذي نشب بينها كان مانعاً قوياً كما كان مانعاً للاتحاد في بلاد اليونان الاصلية · وكانت سرقوسة اشدّ المدن اليونانية الغربية حَولاً فتولّت الزعامة عليها غير مرّة ولم ننسَ كيف حاول الاثينيون ان يفتحوا الغرب بمجرّد الاستيلاء عليها

(٧٢٤) طرد اليونان للقرطاجنيين من صقلية والاترسكيين من بلاد اليونان العظمى في الغرب

ذكرنا قبلاً ان هؤلاء الشعوب الثلاثة — الاترسكيين[١] والقرطاجنيين[٢] واليونان[٣] — هم خصوم القبائل الايطالية في الغرب ولكن يجب الاّ ننسى ان هذه القبائل لم تكن في بادىء امرها شيئاً يعتدُّ به فانحصرت المزاحمة بين هؤلاء الشعوب الثلاثة فكان اليونان في صقلية وجنوب ايطاليا ضد الاترسكيين والقرطاجنيين ولم يبرح من بالنا بعد ، كيف فاز اليونان في سرقوسة سنة حرب سلاميس الشهيرة فوزاً مبيناً على القرطاجنيين (ف ٥٠٤) وخلّصوا

صقلية من فتحهم لها (٤٨٠ ق.م.) . وبعد ذلك ببضع سنين قامت سرقوسة ايضاً وهاجمت قوات لصوص البحر الاترسكيين حالما بدت طليعة اساطيلهم في البحر الجنوبي فكسرتهم ومزقتهم كل ممزق. فنرى ان اليونان الغربيين قد ابلوا في الموقف السياسي بلاء حسناً اولاً بمنعهم القرطاجنيين من الاستيلاء على صقلية وجنوب ايطاليا، وثانياً بكسرهم قوة الاترسكيين البحرية



خريطة ٢٤ الشعوب المتنافسة في غربي البحر المتوسط

(٧٢٥) المدن اليونانية الغربية تاتي عالم البحر المتوسط الغربي بالمدنية

ان المدن اليونانية الغربية وان كانت كالمدن اليونانية الاصلية لم تستطع ان تتحد معاً وتؤلف مملكة باذخة الشان راسخة البنيان فان تأثير عوامل مدنيتها في الغرب كان من الاهمية بمكان. وما كانت هذه المدنية الا تلك التي وقفنا على تاريخها في ما مرَّ بنا من الفصول التي درسناها (ف ١١ — ٢٠) وفي نفس الوقت الذي كان فيه لواء النصر معقوداً لسرقوسة في مواقعتها للقرطاجنيين والاترسكيين في جبهتين مختلفتين، كانت تشيَّد في هذه المدائن الغربية افخم المباني اليونانية. وبتشييد مثل هذه المباني في عالم البحر المتوسط الغربي تجلَّى فنُّ البناء بابهى مجاليه. وما قيل في المباني يُقال في سائر الاشياء الاخرى التي حبتها المدنية اليونانية لهذه الاصقاع مما هو معروف لدينا الآن وغير مجهول عند غيرنا. وهكذا بعد مرور خمس عشرة سنة على استقرار القبائل الايطالية بايطاليا، نشأت الى الجنوب منها مدنية ظلَّت تتطوَّر وترتقي حتى بدت بمظهر كمالها بصورة المدنية الهلّينية التي انجبت ارخميدس في سرقوسة. والآن لنعد الى درس الخطة التي سلكتها القبائل الايطالية في اواسط ايطاليا تحت سيادة

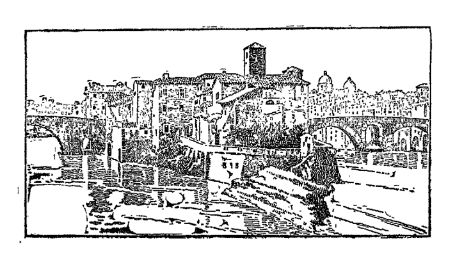
رومية ونرقب تقدمها البطيء في تنظيم شؤونها ونمو قوتها وترقي عمرانها باحتكاكها بالاترسكيين في الشمال ثم باليونان في الجنوب

٧٣

رومية في اوّل عهدها

(٧٣٦) قبائل لاتيوم والالعفا المدينة اللاتينية الرئيسية

على الضفة الجنوبية او الشرقية من نهر التيبر الذي يصبُّ في البحر عند منتصف الساحل الغربي من ايطاليا (خريطة ٢٣) كان يقيم فريق من القبائل الايطالية المعروفة باسم اللاتين. ولما جاء الغزاة الاترسكيون واحتلّوا اوّل مرّة الشطوط التي الى الشمال من التيبر كانت هذه القبائل اللاتينية قد احتلّت سهلاً اقل من ٦٤ كيلومترًا طولاً في ٤٨ عرضاً ودعتهُ لاتيوم التي اشتق منها اسمها، «اللاتين» وعاش اللاتين كجيرانهم الايطاليين جوالي صغيرة متفرّقة يزرعون



الشكل ١٧٨ التيبر وجزيرته برومية

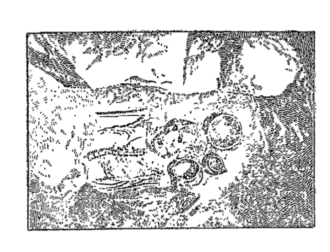
ليس التيبر بنهر كبير ولكن حين تمدهُ سيول الربيع تفيض مياههُ — حتى في هذه الايام — على جزء من رومية وتوقع بها ضررًا جسيمًا والبيوت التي تشاهد على الجزيرة بعضها قديم العهد لكنها ليست كرومية القديمة التي ندرس عنها الآن ولكن الجسور قديمة جدًّا. فالجسر القائم الى يمين الجزيرة بناهُ بحجارة ضخمة المالك فبريشيوس سنة ٦٢ ق.م وظل ثابتًا في مكانهِ مدة تربي على الفي سنة وقد عبر عليهِ مرارًا كثيرون من مشاهير الرومان المألوفة عندنا اسماؤهم كيوليوس قيصر وغيرهِ من مشاهيرهم

الحبوب ويرعون القطعان على الانجاد والهضاب. ولما لم تكن ارضهم شديدة الخصب اضطرّتهم الحال الى الجد والاجتهاد لحفظ كيانهم. وكانت عاقبة ذلك انهم صاروا شعباً نشيطاً

قويًا · وكان مركزهم بلدة اسمها ألبالُنغا كانوا ينضوون تحت لوائها كلما دعت الضرورة الى ذلك · وكثيرًا ما كانت تدعوهم الحال الى صدّ غارات جيرانهم المعادين لهم في كل الجهات وكانوا يرقبون نموّ المدن الاترسكية الزاهرة على الجانب الشمالي الآخر من نهر التيبر، وهم موجسون منها شرًّا· وبذلوا جهدهم ليمنعوا الاترسكيين من العبور الى الجانب اللاتيني

(٧٣٧) ظهور رومية القديمة

وحين كان اولئك الفلاحون اللاتينيون يرون انفسهم في حاجة الى شراء اسلحة او بعض الادوات الاخرى كانوا يضطرُّون ان يحملوا كمية من الحنطة او يأخذوا ثورًا الى سوق كانت تقام في الجانب الجنوبي من نهر التيبر، فوق المستنقعات المجاورة للساحل والممتدَّة الى الداخل مسافة تتراوح بين عشرة اميال واثني عشر ميلًا من مصب النهر · والذي سهَّل عليهم عبور النهر رقة الماء ووجود جزيرة صغيرة عند هذه النقطة · وكان هناك فوق النهر جسر متين بنوهُ بما كان لديهم من الآلات · وكان يُشرف على الجسر رابية شاهقة تُعرف بالپلاتينية كانت على قمتها قلعة مربعة الشكل لحراسة مخاضة الجسر · وكان في جوارها



الشكل ١٧٩ قبر قرويّ قبل عصر التاريخ وجد تحت الساحة المعروفة بالفورُم في رومية

ان اعمال النقب تحت هذه الساحة قد كشفت مقبرة حوت كثيرًا من القبور كهذا القبر · وهيكل العظام الذي تشاهدهُ في الصورة هو هيكل رجل عاش قبل زمن التاريخ في القرى المشيدة على قمم التلال المجاورة التي اتحدت فيما بعد فتكوّن منها مدينة رومية (ف ٧٣٠) وترينا الادوات والاسلحة والآنية الخزفية التي وُجدت في هذه القبور ان الذين ثووا فيها عاشوا بعد سنة ١٠٠٠ ق·م باجيال ليست عديدة في الزمان الذي فيهِ شرع الحديد يحل محل البرنز (ف ٧٢٩)

تلال اخرى مبثوثٌ عليها بعض القرى ولكن اهمها التل الذي شيّدت عليهِ القلعة · والنهر الوحيد الصالح لسير السفن بايطاليا هو التيبر ولكن حين كان يصل اليهِ احد المراكب كان يضطرُّ بسبب الزُّقارق والجسر ان يقف عن مسيره ويرسو هناك · وكثيرًا ما كانت تشاهد احدى السفن الاترسكية راسية مشدودة بحبل الى الشاطئ · وهناك في العراء، على المنخفضات العَمِقة التي تحدق بها الآكام، كانت تقام سوق بجوار مقبرة قديمة لاهل القرى المذكورة (ش ١٧٩) · وهنا في هذه السوق، بجانب المقبرة، كان يجتمع الفلاح اللاتيني بالتجار الاترسكيين ويستبدل بقمحهِ او ثوره الآلات المعدنية او الاسلحة التي كان يحتاج

اليها. هكذا كانت على الارجح حالة مجموع القرى المدعوَّة برومية سنة ١٠٠٠ ق. م. (ش ١٧٩)

(١٢٨) استيلاء الاترسكيين على رومية نحو ٧٥٠ ق. م.

ان مخاوف القبائل اللاتينية من هجوم الاترسكيين تحققت اخيرًا . فان احد امرائهم عبر التيبر ربما حوالي سنة ٧٥٠ ق. م. وطرد آخر رئيس من سلسلة الرؤساء اللاتين ، واستولى على القلعة القائمة على الرابية البلاتينية. ومن هذا المكان حيث كان قصره وقلعتهُ ضبط شؤون القرى القائمة على التلال فوق التيبر والتي امتزجت تدريجًا بمدينة رومية وصارت منها . وبسط هولاء الملوك الاترسكيون سلطانهم على القبائل اللاتينية

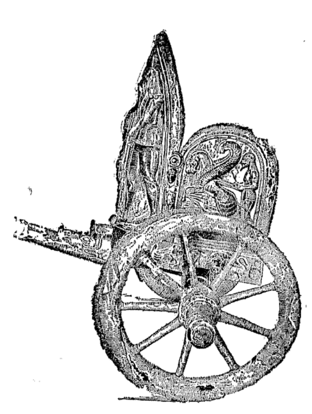
الشكل ١٨٠ شارع قبور اترسكية في سيري القديمة التي لم تكن بعيدة كثيرًا الى الشمال من رومية

حجرة الضريح او بضع حُجَر مثلها احيانًا كانت تحتوي على تابوت موضوع فيهِ جثمان الميت. وكان يوضع فيهِ ا كثر الاحيان مصوغات من الذهب والفضة واثاث وآلات واسلحة (ش ١٨١) فضلاً عن بعض اوانٍ للزينة (ش ١٢٦) وكثيرًا ما كانت جدران الحجر مصورًا عليها مشاهد مزخرفة مأخوذة من حياة الاترسكيين ومن اساطير يونانية كان قد تعلمها الاترسكيون من مخالطتهم لليونان . وكان الاترسكيون الثاوون في هذه الضرائح قبل وفاتهم ساكنين في مدينة ذات اسوار منيعة لا تزال اخربتها باقية في الجوار. وكانوا ماهرين في صنع الادوات من البرنز خصوصًا وكانوا يتاجرون مع بلدة اسفل مدينتهم ويربحون ربحًا طائلاً وقد وجد في احد القبور اسم الميت منقوشًا على الجدار هكذا ترخنس الذي لا يمكن الاَّ ان يكون طركوينوس الاسم الذي حفظتهُ التقاليد الرومانية كآخر ملوك رومية

المقيمة في سهل لاتيوم . وتوارت مدينة البالنغا عن العيان بعد ان لبثت مدة من الزمان زعيمة الفِرَق اللاتينية . وهكذا اصبحت رومية مملكة مؤَلفة من رومية وارباضها وعليها ملك اترسكي كباقي المدن الاترسكية التي كانت تمتدّ من كبوى في الشمال الى ميناء جنوى. ومع ان رومية بقيت قرنين من الزمان تحت تسلُّط الملوك الاترسكيين ، ظلَّ سكان

لاتيوم — وهم تحت حكم هولاء الملوك — لاتيناً وتكلموا باللغة اللاتينية [1]

٧٢٩) الاترسكيون يقبلون المدنية اليونانية. كانت السفن الاترسكية قد عرفت المياه اليونانية منذ العصر الميكاني وكان الاترسكيون يزاولون التجارة في الموانىء اليونانية وفيها تعلموا ان يكتبوا لغتهم بحروف يونانية . ولا يزال في ايطاليا كثير من ضرائحهم الحاوية كتاباتهم ولكن العلماء لا يزالون عاجزين عن فهم تلك الكتابات وان كانوا يعرفون الحروف التي كتبت بها ويحسنون التلفظ بكلماتها . وكان من نتائج اختلاطهم باليونان دخول الاواني الخزفية الى بلادهم (ش ١٢٦) وتعلمهم بوقت قصير كيف يصنعون صوراً مزخرفة مثلها . ولا يزال كثير من مثل هذه الصور يغشي جدران الضرائح الاترسكية ويرينا كيف كان المظهر الخارجي للاترسكيين والسلاح الذي كانوا يحملونه . وبما انهم تعلموا طريقة استخراج النحاس من معدنه استطاعوا من اول عهدهم ان يجيدوا صنع الادوات البرنزية (ش ١٨١) حتى انهم فاقوا اليونان بدقة الشغل في المعدن امداً يسيراً فازدهرت تجارتهم بنتاج هذه الصناعة



الشكل ١٨١ مركبة اترسكية من البرونز

ان هذا الشغل النفيس هو اجل اثر باقٍ يدل على المهارة التي بلغ اليها الاترسكيون في شغل البرونز (ف ٧٢٩) وقد وُجدت هذه المركبة في ضريح اترسكي (ش ١٨٠) وهي الآن محفوظة في متحف مدينة نيويورك . وقد صنعت في القرن السادس ق.م

٧٣٠) حكم الملوك الاترسكيين في رومية وطردهم منها. وادخل الملوك الاترسكيون الى رومية تحسينات واصلاحات جمة

(١) مما تقدم آنفاً يستنتج ان الملوك الذين ملكوا على رومية (من نحو سنة ٧٥٠—٥٠٠ ق.م) كانوا اترسكيين بلا استثناء . وما روته التقاليد عن تأسيس رومية قبل سنة ٧٥٠ ق.م بقليل ينطبق على استيلاء الاترسكيين عليها وانشائهم دولة منيعة الجانب . ليس لدينا آثار مكتوبة عن رومية في هذا العهد البعيد . والضرورة تقضي علينا ان نبني احكامنا بهذا الصدد على درسنا بقايا العاديات التي خلفها لنا الزمان في رومية ولاتيوم والجوار . ولو كانت هذه البقايا مع ما اقتبسه الرومانيون من الحضارة الاترسكية مستندنا الوحيد فيما نقول لما قام من يعترض على القول المأثور ان ملوك رومية كانوا اترسكيين . ولكن الرومانيين بعد ذلك الزمان ادعوا عملاً بتقليد اشاعوه فيما بينهم

ولكن عسف الحكام حمل الناس اخيرًا على رفع لواء الثورة يقودهم فيها نبلاء الاترسكيين انفسهم · وكانت العاقبة طرد ملوك رومية منها · وهكـذا حوالي سنة ٥٠٠ق·م· انتهى الشوط الذي جرته رومية تحت سلطة الملوك . ولكن التأثير الذي غادرهُ الحكم الاترسكي في رومية مدة قرنين ونصف قرن ، ظلَّ بعد اضمحلال الدولة بادياً في المباني والديانـة وتنظيم القبائـل وبعض اشياء أخرى

٧٤

الجمهورية الاولى . التقدم والحكومة

(٧٢١) اتخاذ رومية حروف الهجاء اليونانية

كان تأثير العوامل اليونانية — في غضون العصر الاترسكي — في لاتيوم كتأثير العوامل الاترسكية · وكانت السفن القادمة من مدن الجنوب اليونانية الى المرفإ الواقع تحت مخاضة التيبر ، تزيد عددًا حيناً بعد آخر · وقبل ان طُرد الملوك بامدٍ طويل ، كان التاجر الروماني قد تعلم تدريجاً معرفة اسماء بعض السلع التجارية من القوائم التي كان يسلمـهُ اياها التجار اليونان ، وبعد امدٍ قصير صار التجار الرومانيون يقيدون مذكرات بسلعهم التجارية بالحروف اليونانية نفسها التي صارت ، بعد تغيير طفيف فيها اقتضتهُ اللغة اللاتينية ، حروفـاً رومانية ايضاً · وهكذا تقدمت حروف الهجاء الشرقية مرحلة أُخرى في سفرهـا نحو الغرب · واخيرًا صارت الحروف التي تكتب بها معظم لغـات اوربا وسائر لغات اميركا الشماليـة والجنوبية · وهكذا على ايدي القرطجنيين والرومانيين في الغرب ، والاراميين في الشرق (ف ٢١١) انتشرت الآن حروف الهجاء الفينيقية والحروف الاخرى التي تسلسلت منها ، من الهند الى الاتلانتيكي (ش ١٢٣)

(٧٢٣) التأثير اليوناني في بناء السفن · التجارة والنقود والمقاييس في رومية

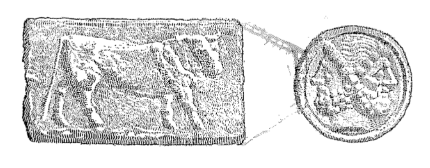
لم تكن اولاً سفن رومانية في احواض التيبر ولكن مع مرور الزمـان تعلم بعض الصناع الرومانيين ان يبنوا سفناً مثل السفن اليونانية الراسية في مياههم . ولما اتسع نطاق

بان ملوكهم الاولين كانوا من اصل روماني لانهم أنفوا من ان يكون ملوكهم الاولون من جنس غير جنسهم ، وهذا التقليد مع ما مازجهُ من الحكايات الجميلة والحوادث اللذيذة أُدمج في آداب اللغة ولا يزال كثيرون يعتقدون صحتهُ · وقد يمكن ان يكون في هذا التقليد شيء من الحقيقة الَّا اننا لا نميل كثيرًا الى ترجيحهِ نظرًا لما لنا من البينات المعروفة التي يتبرهن منها غير ذلك

التجارة الرومانية وُجد ان تأدية الحسابات المطلوبة حنطة وثيراناً ، مشقة كبيرة في حين كان اليونان يؤدون اثمان السلع التي يبتاعونها عند المرفأ قطعاً من النقود النحاسية والفضية . وظلّ الرومان مدة طويلة – بعد ان عدلوا عن استعمال الثيران في تأدية حساباتهم – يستعملون قطعاً ضخمة بلا هندام على كل منها صورة ثور (ش ١٨٢ : ١) ولم يسكّ الرومانيون نقوداً من النحاس الاّ بعد طرد الملوك الاترسكيين بمئة وخمسين سنة او تزيد (ش ١٨٢ : ٢) . وبعد ذلك حين زادت علاقتهم مع المدائن اليونانية شرعوا يضربون نقوداً فضية متخذين دراخمة اتيكا قاعدة لهم . وبالتدريج اخذوا المقاييس الشرقية للطول والحجم . وهي نفس المقاييس التي كان يستعملها اليونان حين كانوا يكيلون لهم ما اشتروهُ منهم

٧٣٣) المؤثرات اليونانية . الديانة

ولم ينحصر تأثير اليونان في الاعمال التجارية فقط بل تخطاها الى اشياء أخرى ايضاً . فان الفلاح سمع عن آلهة غريبة عند اليونان فقيل لهُ انها قسيمة لهتهِ . اما هو فكان يعتقد ان لكل قسم من الطبيعة إلهاً متسلطاً عليه وكذلك كان لكل اله شأن من شؤُون الحياة البشرية . فالمشتري (جوبتر) كان اله الجلد العظيم



(٢) (١)

الشكل ١٨٣ نماذج من النقود النحاسية الرومانية القديمة

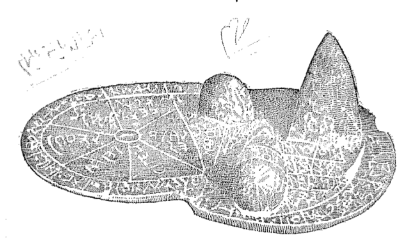
في زمن الاسكندر الكبير (النصف الثاني من القرن الرابع ق.م) وجد الرومان ان الطريقة التي كانوا يوفون بها ديونهم شاقة جداً لا تلائمهم ولا سيما متى كانوا مضطرين ان يؤدوها مواشي (ف٧٢٩) لان تأديتها سلعاً اخفُّ مشقة . ولذلك صبوا النحاس قطعاً كالتي ترى في الشكل وعليها صورة ثور بقر (انظر القطعة (١)) للدلالة على قيمتها . وكانت هذه القطع ضخمة ولذلك حذا الرومان حذو اليونان فصبوا قطعاً صغيرة مستديرة من النحاس (انظر (٢)) وهذه ايضاً كانت ثقيلة لا يقل وزنها عن ثلث الكيلو تقريباً فقسموها الى اثني عشرة قطعة اصغر منها دعوا كلاًّ منها اوقية (uncia) وفي الرومانية (ounce) وكان لديهم قطع من النقود من وزن اوقية واوقيتين وثلاث اواق واربع اواق وست اواق . وبعد جيلين من الزمان (سنة ٢٦٨ ق.م) شرع الرومانيون يسكون نقوداً فضية (ش١٨٥) وعدلوا عن استعمال النحاس في تأدية الدفعات الكبرى . وصغروا حجم القطع المستديرة الثقيلة فصار وزنها سدس ما كان قبلاً

ومالك جميع الآلهة والمريخ وليّ ابطال الحرب ، والزُّهرة ملكة الحب ، ويونو إلاهة قديمة للجَلَد وحامية النساء في الولادة والزواج ، وفِستا حارسة الحياة العائلية وكانت نار موقدها

دائمة الاضطرام منذ ايام بداوة الآباء في السهول الاسيوية قبل الفي سنة (ف ٢٥٧)، وسيريس الآلهة التي تولّت امر خصب الارض وانتاجها وخصوصاً حقول الحنطة. وكان عطارد رسول الآلهة وكانت عنايتهُ تتجه الى حفظ المواصلات والشؤون التجارية. وكانت الشوارع مملوءة من الحكايات اليونانية عن المغامرات والمخاطرات التي قامت بها هذه الآلهة لما كانت على الارض وتعلّم الروماني ان الزُهرة (ڤينس) هي افروديت اليونانية، وعطارد هرمس، وسيريس ديمتر وهلم جرّا

(٧٣٤) التكهنات

وقد رسّخ فيهم هذه الاعتقادات تأثيرُ (التكهنات) اليونانية في عقولهم. فالتكهنات التي كانت تنطق بها سيبل، نبية ابلّون الدلفي (ش١٣٢)، وقعت موقعاً سامياً لدى الايطاليين وعدَّ



الشكل١٨٣ مثال من البرنز لكبد كان يستعملها الاترسكيون للعرافة بحسب الطريقة البابلية القديمة

ان سطح هذه الصورة ينقسم اقساماً عديدة بواسطة خطوط فيتكوّن منها شكل يدلنا كيف كانت مُثل الاكباد المصنوعة من الصلصال المطبوخ التي كانت شائعة بين البابليين (ش٦٦) فلا بد ان يكون الاترسكيون قد اخذوا هذه الصناعة عن الشرق ويرجح انهم تعلموها في اسية الصغرى قبل مهاجرتهم الى ايطاليا

الرومان الكتب السيبلية المجموعة، اعلانات مدهشة عن احوال المستقبل. وكان لديهم طريقة أخرى لمعرفة الغيب والكشف عن المستقبل جاء بها الاترسكيون من اسية الصغرى الى ايطاليا وكانت قد اتصلت الى اسية من البابليين. فادَّعى الاترسكيون انهم يرون في كبد الشاة الذبيحة علامات ورموزًا تميط لهم الحجاب عن احوال المستقبل

(٧٣٥) الديانة الرومانية والعقل الروماني الميكانيكيات

وكان لهذه الصناعة التي ادَّعى اصحابها انها تكشف لهم احوال المستقبل وقعٌ حسن لدى العقل الروماني الرزين الذي كان يعوزهُ الخيال اليوناني السامي — ذلك الخيال الذي ولّد الاساطير اليونانية الجميلة. وكان الروماني يحسب الديانة مجرَّد عقد او اتفاق بين الآلهة والبشر فاذا قام هولاء بشروط العقد وجب على الآلهة ان تُسبغ عليهم النعم والبركات.

فكأن الديانة قائمة واجبات — كتقديم الضحايا والتقدمات — يجب اتمامها وكان القيام بها سهلاً عليه · فادراكهُ الدين على هذه الصورة جعلهُ اهلاً للقيام باعمال خطيرة في الشؤون السياسية والامور الشرعية · الاّ انهُ لم يكن مستعداً بالطبع للابتداع في الفنون والآداب والدين ولا للاكتشافات العلمية · ولننظر الآن في كيفية اشتراك العقل والحكمة السياسية الرومانيين لايجاد الدولة الرومانية

(٧٢٦) انقلاب قناصل بدلاً من الملوك . تقرير امر الجمهورية

لما طُرد الملوك الاترسكيون من رومية سنة ٥٠٠ ق·م· قبض على ازمة الحكم النبلاء الذين كانت لهم اليد الطولى في طردهم· وتمّ الاتفاق فيما بينهم على ان ينتخب اثنان منهم يتولّيان ادارة شؤون الحكومة ويسمّيان قنصلين · ويكونان متساويين في الرتبة والمقام وتدوم خدمتهما سنة كاملة يتخليان في ختامها عن منصبهما لاثنين غيرهما ينتخبهما مجلس كانت سلطة النبلاء فيهِ نافذة وسيطرتها عليهِ تامة · وقد عُرفت هذه الحكومة الجديدة بالجمهورية مع انهُ تولّى زمام الحكم فيها قناصل كانوا ينتخبون على التعاقب سنة بعد سنة من الفئة النبيلة · وبما ان حق الانتخاب للقنصلية كان محصوراً في الاشراف محظوراً على العامة كان الحكم جائراً وابى العامة خصوصاً بين القبائل اللاتينية ان يقيموا على الضيم او يرضوا بالذل وحكم الظالمين

(٧٢٧) التريبونيون حماة الشعب

ولما كان الاشراف عاجزين عن القيام باعباء الدولة وحدهم دون مساعدة الفلاحين الذين كانوا يقومون بالخدمة الجندية في حروبهم المتواترة ، اتفقوا على ان يجعلوا لهم نصيباً اكبر في وظائف الحكومة فمنحوهم الحق بأن ينتخبوا للمجمع المختص بهم، مجمع العامة ، فريقاً من الموظفين الجدد الذين سموهم تريبونيين· وكان لهؤلاء سلطان على ان يكسروا حكم ايّ كان من ضباط الحكومة حتى حكم القناصل انفسهم · وما كان على المظلوم الاّ ان يستأنف الى التريبونيين فينظروا في دعواهُ فاذا وجدوهُ محقًّا كسروا الحكم وانقذوهُ من الظلم ولو كان الحكم قد صدر من القنصل نفسهِ حتى كان في طاقتهم ان يلغوا حكم الاعدام ويخلِّصوا المحكوم عليهِ من الموت

(٧٢٨) زيادة عدد موظفي الحكومة

وكان في البدء جميع اعمال الحكومة تقريباً بيد القناصل · فكانوا قوّاد الجيش اذا استعرت نار الهيجاء ، ونظّار مالية الدولة ، وقضاة المجالس في جميع الدعاوي . ولم يكن الجمع بين هذه الوظائف العديدة من الهنات الهيّنات فوجدوا في الاضطلاع بهذه الاعباء الثقيلة التي كانت تزيد عاماً بعد عام ، مصاعب جمة ورأوا الحاجة ماسّة الى تعيين ضباط للاشغال المتنوعة فعيّنوا موظفين لادارة المالية سُمّي الواحد منهم «إكوَستر» ومأمورين اثنين

لاحصاء نفوس الشعب وحفظ قوائم بها ؟ ولتخمين الضرائب المختلفة على الافراد ، وتعيين حقوق الاقتراع او التصويت في الانتخابات العمومية ، ولمراقبة تصرّف الشعب حتى لا يقع منهم شيء محظور . وعيّن قاض سُمّي « بريتوراً » ليساعد القنصل في روية الدعاوي المرفوعة اليهِ . ثم زاد عدد القضاة تدريجاً . وحين كانت تشتدُّ على الامة الخطوب كانت تعين قائداً تضع كل ثقتها فيهِ تنصّبهُ رئيساً للدولة وتسمّيهِ « دكتاتوراً » جاعلة سلطتهُ مطلقة فوق كل سلطة أُخرى ولكن كانت مدة توليهِ السلطة قصيرة الأمد

(٧٣٩) مجلس الشيوخ وقوة الشراف

وكان للقناصل سلطة ونفوذ عظيمان في جميع شؤُون الحكومة ولكنهم كانوا تحت سيطرة مجلس الاشراف المعروف بمجلس الشيوخ (السناتوس) الذي وجد منذ عهد الملوك الاتوسكيين وكان مرجعاً لهم يستشيرونهُ في كثير من مشاكلهم . وكان للاشراف وحدهم الحق بتولي منصب القنصلية والتربُّع في مجلس الشيوخ والتعيّن في اية وظيفة في الحكومة (ف ٧٣٨) فالسلطة التي كان الاشراف قابضين على زمامها كانت اعظم جدًّا من سلطة العامّة . وهذا هو الظلم بعينهِ

(٧٤٠) النزاع بين العامة والخاصة

راينا (ف ٧٣٧) قبلًا انهُ كان للتريبونيين سلطان على حماية العامّة من بعض المظالم وانقاذ مَنْ كان قد حُكم عليهِ بالاعدام ظلماً ولكنهم لم يكونوا ذوي سلطة تمكنهم من ان يضمنوا لاحد من العامة الحصول على جميع ما لهُ من الحقوق . فلم يكن في وسعهم مثلًا ان يُعيدوا لمواشي العامّة العشب بعد ان تكون قد رعتهُ قطعان الخاصّة من المراعي العمومية ولم يستطيعوا ان يكفلوا لاحد من العامة الحصول على منصِب القنصلية او العضوية في مجلس الشيوخ او التزوج من ابنة احد الخاصّة . ولذلك عاد النزاع الذي كان قد انتهى بتعيين التريبونيين — نزاع غرضهُ الخصوصي ان يحصل العامة على حقوقهم من الخاصّة ، ذوي الثروة والقوة . وقد كان نزاعاً اشبه بالذي كان في اثينا وسائر الحكومات اليونانية الاخرى . الاَّ انهُ في رومية حُسم باسلوب افضل واحكم . هنا اعتصب الرعايا الرومانيون معاً ووقفوا كرجال يطالبون بحقوقهم المهضومة فنالوا معظمها في غضون القرنين الاولين من تأسيس الجمهورية بدون حرب اهلية ولا سفك دم على الاطلاق

(٧٤١) كتابة الشرائع القديمة ومسألة الشرائع الجديدة

والحُّوا بطلب كتابة الشرائع لكي يعلموا متى حُوكموا باية شريعة يحاكَمون . فكان لهم ما ابتغوهُ فكتبت الشرائع الرومانية القديمة اولاً ثم حُفرت على اثني عشر لوحاً من البرنز (٤٥٠ ق.م.) بعد تأسيس الجمهورية بنصف قرن . ولم يكتفِ العامة بذلك بل طلبوا ان يكون لهم نصيب في سن شرائع جديدة وان يكون لهم مجمع يحق لهُ ان يقرّر شرائع جديدة

(٧٤٢) سلطان مجامع العامة على سن القوانين . سعيهم فيها بين المساواة بين الخاصة والعامة

وبعد ان رفعت مجامع الشعب سلطة مجلس الشيوخ عنها وسيطرتهُ على اعمالها صارت هي تسنُّ الشرائع للدولة الرومانية . وبذلك حصل العامة تدريجياً على نصيب عادل من الاراضي العمومية وعلى حقوق اجتماعية اكثر من ذي قبل . واهمُّ من كل ما ذُكر ان هذه القوانين الجديدة فتحت لهم الابواب لولوج الوظائف التي كانت موصدة في وجوههم فصار ينتخب منهم مديرو المال ، ومأمورو النفوس ، والقضاة حتى القناصل صار يجوز انتخابهم منهم وصار منهم اعضاء في مجلس الشيوخ

(٧٤٣) طبقة جديدة ممن تولوا زمام الاحكام قبلاً

وصحب زيادة قوة العامة تطورات مهمة في الهيئة الاجتماعية والحكومة . كان الرومانيون يحترمون الحكومة وموظفيها احتراماً شديدًا . وكان القنصل الروماني اذا برز امام الجمهور يصحبهُ اثنا عشر من الحجّاب يحملون شارات الدولة وبيد كل منهم حُزمة عصيٍ اشارة الى ان للقنصل سلطاناً ان يجلد المحكوم عليهم بجرائم . وكان ينتأ من بين العصي فأس رمزًا الى سلطانهِ ان يحكم بالاعدام على مستحقهِ . وكان يتبع ارباب الوظائف العليا الاخرى عددٌ من الحشم اقلُّ من عدد حجاب القناصل . وكان القناصل وكبار الموظفين يرتدون حللاً بيضاء حواشيها من الارجوان . وكان التردّي بهذا النوع من اللباس محظورًا على سواهم . وكان اذا عزل احد الحكام من منصبهِ يحتفظ بحلّتهِ الرسمية ويحق لهُ التردّي بها ايام الاعياد . وبعد امدٍ يسير ، نشأت طائفة من الأسر من طبقات العامّة ولكنها امتازت بما قامت بهِ من الخدم الجليلة للامة والبلاد فصار ينظر اليها الرومان نظرة التجلة والاعظام . وحين كان يُدعى الذين لهم حق التصويت لانتخاب المرشحين للوظائف ، كانوا يؤثرون اعضاء هذه الاسر الممتازة بفضلها على غيرهم . وهكذا تألّفت طبقة جديدة من الاعيان قِوامها الاسر النبيلة القديمة وهذه الاسر العصامية الجديدة

(٧٤٤) سيطرة العمال الجدد على مجلس الشيوخ

وكان لهذه التطورات الجديدة تأثير ظاهر في حالة مجلس الشيوخ الذي كان اعضاؤهُ فيما مضى ينتخبهم القناصل من الخاصة . ولكن بموجب القانون الجديد فوّض الى مديري الاحصاء ان يؤثروا ، في الانتخاب ، الذين كانوا قبلاً حكاماً . وهكذا دخل مجلس الشيوخ الطبقة النبيلة الجديدة التي اصلها من الذين كانوا حكاماً من طبقات العامة، وادخلت اليهِ دماً جديدًا من جميع رتب الشعب

(٧٤٥) مجلس الشيوخ فوق القناصل

وكانت نتيجة هذه التبديلات ان تألّف مجلس الشيوخ من رجال رومية الثلاث المئة الذين كانت لهم الخبرة التامة في ادارة شؤون الحكومة والاحوال العمومية وعظم نفوذهم على مرّ السنين الى درجة عزّ عندها على القنصل التصدّي لهم . وبعد ان كان القنصل يبلغ

اعضاء المجلس رغائبهُ والشرائع التي يرغب في ان تسنّ وجد نفسهُ مضطرًا ان يعمل بما يقترحهُ عليهِ المجلس او يأمرهُ باجرائهِ • فامسى القنصل عاملًا للمجلس يسيّر الحكومة في المنهاج الذي يختطهُ

(٧٤٦) مجلس الشيوخ يسيطر على سن القوانين

وزاد نفوذ هذا المجلس من وجهة أُخرى هي وجهة سنّ النُظُم والقوانين • فان مجامع العامة ، وان كان لها الحق في تقرير القوانين لم يكن في سلطانها ان تقترح قانونًا جديدًا • فكان لهذه المجامع حق التصويت فقط على القانون بعد اقتراح الحاكم لهُ وخصوصاً اذا كان احد التربيونيين • وكان نفوذ المجلس عظيماً وسيطرتهُ على الحكام قوية حتى كانوا مضطرّين الى مفاوضتهِ بشأن كل قانون جديد كان يقصد طرحهُ امام مجامع الشعب للنظر فيهِ وتقريرهِ • فكان في سلطان الشيوخ ان يصدُّوا اقتراح اي قانون لم يستحسنوهُ

(٧٤٧) مجلس الشيوخ الروماني سيد الدولة الاعظم

وكان السواد الاعظم من رعايا الدولة الرومانية يقيمون في اماكن بعيدة عن رومية ، حتى انهم لم يتمكنوا من المجيء الى المدينة لاعطاء اصواتهم حين الانتخاب • وبما انهم كانوا شاعرين بانهم يجهلون الاحوال العمومية رغبوا في ان يتولى مجلس الشيوخ جميع المسائل العمومية الخطيرة ويكون لهُ القول الفصل فيها فاصبح هذا المجلس لجنة كبيرة مؤلفة من خبراء رجال السياسة تدير دفة السياسة وتتولى زمام الامر والنهي في الدولة الرومانية • وتنظّم منهم اعظم مجلس حكومة نشأ في الزمان القديم وربما لم ينشأ مثلهُ في عصر من العصور • كان اعضاؤهُ من الطبقة الارستقراطية وجلوسهم على منصّة الحكم في رومية جعلها دولة ارستقراطية رغماً عن شكلها الجمهوري؛ وسنرقب في الفصول التالية تقدم الدولة الرومانية تحت زعامة مجلس الشيوخ الحكيمة وسياستهِ الرشيدة • ويجب ان لا ننسى ان قوة هذا المجلس لم تحصل دفعة واحدة بل سارت على سنة النشوء والارتقاء واستمرّت تنمو حتى في زمن الحروب والفتوح التي سنقتفي تاريخها الآن

٧٥

تبسُّط الجمهورية الرومانية وفتح ايطاليا

ان الامة التي بدأت خطة حياتها بعد طرد الملوك الاترسكيين (نحو ٥٠٠ ق.م.)

(٧٤٨) التحالف اللاتيني والمعاهدة مع رومية

وهي تجهل مصيرها، كانت اولاً امة صغيرة جدًا لا يعبأ بها . فلم تكن الجمهورية الرومانية في بدء نشأتها الاّ عبارة عن مدينة رومية والحقول المجاورة لها الى مدى بضعة اميال حولها . وكان يقيم على الجانب الواحد من التيبر الاترسكيون الذين يخشى بأسهم وعلى الجانب الآخر الروماني ، حول الجمهورية الصغيرة ، القبائل اللاتينية (ف ٧٢٦) التي كانت قد اتحدت معاً وألّفت ما دعته حينئذٍ بالتحالف اللاتيني وعقدت معاهدة مع الجمهورية الاّ انها واهنة

(٧٤٩) المنازعات الاولى للجمهورية مع جيرانها الاترسكيين واللاتين

وبقيت الجمهورية الجديدة مدة حياة جيلين تجاهد للمحافظة على كيانها . ولحسن حظها ، دمّر اسطول سرقوسة اسطول اعدائها الاترسكيين تدميرًا تامًا في غضون الجيل الاوّل لتأسيسها (٤٧٤ ق.م.) (ش ١٧٧) وبعد ذلك هاجم ساقة الاترسكيين الغاليون الذين كانوا في هذا الوقت يتدفّقون من مضايق الالب تدفقاً الى وادي البو يعيثون في مدن الاترسكيين الشمالية فسادًا ويخربون كل ما تصل اليهم ايديهم والمرجح ان ايهان قوى الاترسكيين بمناوأة اعدائهم لهم في الشمال والجنوب آل الى نجاة رومية من التدمير . وفي سنة ٤٠٠ ق.م. او بعدها بقليل كان الرومان قد افتتحوا اراضي جديدة تحدق ببلادهم من جهاتها الاربع فكانت حمىً لهم ولبلادهم

(٧٥٠) الاستعمار الزراعي والتوسع سياسة رومانية

وكان من سياسة الرومان ان ينشئوا في الاراضي الجديدة التي كانوا يستولون عليها جوالي من رعاياهم الرومانيين الاصليين . الاّ انهم كانوا احياناً بدلاً من ذلك يمنحون سكان الاراضي المفتتحة جديدًا الحقوق الرعوية او يُولونهم امتيازات أُخرى مهمّة . ولما رأى الفلاحون الرمانيون انهُ يحق لهم حمل السلاح الروماني وان لهم حقوق الرعوية الرومانية لم يستنكفوا ان يترحّلوا الى اطراف اراضي دولتهم التي كانت آخذة في التبسط والتوسع . وكانت سياسة التبسط والتوسع الزراعي التي كان يؤيدها مجلس الشيوخ مرعيّة الجانب لانها مكّنت رومية ان يكون لها من رعاياها عدد كبير من الجنود الاشدّاء الذين يحرثون اراضيهم بايديهم . واذا أهاب بهم داعي الحرب في اي وقت كان غادروا مزارعهم وفلاحتهم وتهافتوا على حمل سلاحهم للذود عن دولتهم التي كانت تحميهم من الضيم . فنرى من ذلك ان السياسة الرومانية كانت مخالفة لسياسة الجمهوريات اليونانية الخرقاء التي كانت تحظر حقوق التابعية على اتباعها في الخارج . وكانت نتيجة سياسة التوسع هذه التي انتهجتها الحكومة الرومانية، ان صيّرت جمهوريتها الصغيرة ، بعد طرد الملوك الاترسكيين ، بقرنين او اكثر قليلاً سيدة ايطاليا كلها

(٧٥١) استيلاء الغاليين على رومية

استهلَّ القرن الثاني من عصر التوسع الروماني بكارثة مخيفة كانت تودي بحياة الامة. ففي العشرين سنة التي عقبت سنة ٤٠٠ ق.م، بلغ الغاليُّون البرابرة الذين كانوا يكتسحون بلاد الاترسكيين، (ف ٧٤٩) التيبر الاسفل وكسروا الجيش الروماني ودخلوا المدينة (٣٨٢ ق.م.) واعملوا فيها ايدي النهب والنار ولما لم يستطيعوا الاستيلاء على الحصن القائم على تل الكابيتول رضوا ان يأخذوا فدية من الذهب ويرتدوا الى الشمال وينزلوا بوادي البو ولكنهم حتى في هذا المكان ظلوا خطرًا كبيرًا على الرومان

(٧٥٢) اخضاع القبائل اللاتينية

ولما استعادت رومية قوَّتها بعد الكارثة التي ألَمَّت بها رأت ان لا بدَّ للمدينة من التحصين. فطوَّقتها للمرة الاولى بسور من حجر فاصبحت على جانب عظيم من المناعة. فراع ذلك جماعات اللاتين واوجسوا في نفوسهم خيفة من نموّ قوَّة رومية فحاولوا ان يتملصوا من سلطة المدينة المسوَّرة المنيعة فنشبت حرب بين الفريقين دامت سنتين كانت عاقبتها لرومية فنالت الزعامة اولاً على اللاتين ثم بعد ذلك على ايطاليا كلها

(٧٥٣) تقرير الزعامة على اليونان واللاتين في نفس السنة (٣٣٨ ق.م)

ان سنة ٣٣٨ ق.م. التي وقعت فيها هذه الحادثة المهمة لتاريخ يستحق ان يذكر لانهُ فيه انكسرت المدن اليونانية امام قوات فيلبس المكدوني (ف ٦٢٩). ورأى اليونان واللاتين انفسهم مقهورين وكل شعب منهما واقع تحت رئاسة حكومة واحدة — الشعب اليوناني تحت رئاسة مكدونية واللاتين تحت رئاسة رومية. الاَّ ان زمام الرئاسة على اليونان كان بيد رجل فذّ عرضة للهلاك — وقد هلك فعلاً — حالة كون زعامة اللاتين في ايطاليا كانت بيد جماعة من مَهَرة القادة في مجلس الشيوخ الروماني الذين في غضون خمس وستين سنة، تولوا رئاسة ايطاليا برمتها

(٧٥٤) الحروب السمنية ٣٢٥ — ٢٩٠ ق.م ومعركة سنتينوم

وفي اثناء ذلك بدا لرومية عدو مخيف من القبائل اللاتينية، قوم يُعرفون بالسمنيين كانوا قد اخذوا يستولون على جبال الداخلية من املاك رومية. وقد كانوا على جانب من المدنية اقتبسوهُ عن المدن اليونانية في جنوب ايطاليا. وكان في طاقتهم ان يعبِّئوا جيشاً عرمرماً من الفلاحين الاشداء ذوي البأس اذا شبَّت نار الوغى. وفي سنة ٣٢٥ ق.م نشبت حرب عَوان استمرَّت جيلًا كاملًا خسر الرومان في اثنائها بعض معارك. وحاول السمنيُّون ان يوحّدوا قوى اعداء رومية لمناوأتها فنقلوا جيشهم الى الشمال لكي ينضموا الى الاترسكيين والغاليين. واشترك في هذه الحرب جميع الجزء الاوسط من ايطاليا ومعظم شمالها. والتقى جيش الرومان جيوش الحلفاء بين الجبال في منتصف المسافة بين التيبر الاعلى والساحل الشرقي من ايطاليا فشبَّت في سنتينوم سنة ٢٩٥ ق.م. بين الفريقين معركة شديدة

دامية دارت فيها الدائرة على الحلفاء فتحطمت قواتهم تحطياً وتقرر بهذه المعركة مستقبل ايطاليا مدة الفي سنة . ولم يغنم الرومان بهذه المعركة اواسط ايطاليا فقط ، بل اصبحوا القوة العظمى في شبه الجزيرة كلها

(٧٥٥) رومية سيدة اواسط ايطاليا وشمالها الى نهر أرنوس وراء سلطنوم

ولم يعد في طاقة الاترسكيين من الآن فصاعداً ان يحتفظوا بما كان لهم من الزعامة القديمة في البلاد . فانتزع منهم الرومان مدنهم الواحدة تلو الاخرى . والتي لم تنتزع منهم بالقوة دخلت في حمى رومية وعقدت معها عهداً مسيرة لا مخيرة . وغلب الغاليون على امرهم وصُدّوا الى الوراء فتحوّل تيّار غزواتهم الى الشرق والجنوب الشرقي، الى شبه جزيرة البلقان كما رأينا قبلًا (ف ٦٦٦) الاّ ان الغاليين المتوطنين ظلوا مقيمين في وادي البو. وكان التخم الشمالي للفتوحات الرومانية واقعاً الى الجنوب من جبال الابنين على طول نهر ارنوس فامتدت سيادة الرومان من هذا النهر في الشمال الى المدن اليونانية في جنوب ايطاليا

(٧٥٦) محاولة اليونان الغربيين أن يتحدوا ضد رومية

واصبح الخصوم العظام في العالم الغربي الآن ثلاثة ، الرومان واليونان والقرطاجنيون. اما مدن اليونان في الوطن الاصلي فكانت تحت سلطة خلفاء الاسكندر تتقاتل وتتطاحن طمعاً بالاستيلاء على الاجزاء التي تقسّمت اليها مملكته (فصل ١٩) . واما رومية فكانت دائبة في جعل نفسها زعيمة ايطاليا . واما المستعمرات اليونانية الغربية (ف ٤٣٦—٤٣٧) فبعد نزاع دام بينها اربعة قرون ، ظلّت كما كانت مقطعة الاوصال مبثوثة على سواحل جنوب ايطاليا وصقلية . ولكن راعها تبسّط الرومان وتعاظم قوّتهم فحاولت ان تتحد معاً ودعت لنجدتها البطل المغوار برُّوس ملك ابيروس

(٧٥٧) الحرب مع برّوس (٢٨٠—٢٧٥ ق.م)

وكان برُّوس عدوًّا مخيفاً جدًّا لان جيشهُ كان مدرّباً وقويا ولانهُ هو كان جنديا ماهرًا بالفنون الحربية وقد عزم على ان يؤلف امة عظيمة من اليونان الغربيين في ايطاليا وصقلية . ولو صحت احلام برُّوس في تأليفها لكانت خصماً شديدًا لكلتا المدينتين رومية وقرطاجنّة . وكسر برُّوس الرومانيين في معركتين وهزمهم شرّ هزيمة واستولى على جزيرة صقلية كلها . وكاد مسعاه في تأليف مملكة يونانية غربيّة قوية ينجح لو لم يفاجئهُ من المصاعب الخطيرة ما لم يكن بحسبانهِ . فان القرطاجنيين اوجسوا شرًّا من قيام خصم مخيف على بعد بضع ساعات من ميناء بلادهم الاصلية فارسلوا اسطولاً لمظاهرة الرومان على برُّوس . فلما رأى برُّوس ذلك ارسل سفيرًا من قبلهِ الى رومية يعرض شروط الصلح على مجلس شيوخها فأبى هذا المجلس، حين عاين الاسطول القرطاجني عند مصب التيبر، ان يعقد صلحاً معهُ ما دام جيشهُ محتلًا لارض ايطالية . وفي الوقت نفسهِ اختصم اليونان بعضهم مع بعض جرياً على

عادتهم عند اشتداد الخطوب فارتدّ برُّوس عن صقلية٠ ولما رأى نفسهُ عاجزًا عن ان يكسر الرومانيين كسرةً لا تقوم لهم بعدها قائمة عاد الى بلاده ابيروس

(٧٥٨) امتلاك رومية لكل شبه جزيرة ايطاليا والنزاع بين رومية وقرطاجنة من جراء ذلك

ثم سلّمت المدن اليونانية التي اصبحت بعد عودة برُّوس بلا نصير، الى الجيش الروماني، الواحدة تلو الاخرى بلا شرط واتحدت مع الرومانيين٠ فخاب الامل بتأليف امة يونانية عظيمة في الغرب٠ وفي غضون قرنين وربع قرن من الزمان (٥٠٠–٢٧٥ ق٠م٠) بسطت الجمهورية الصغيرة سيادتها على شبه جزيرة ايطاليا كلها جنوبيّ البو ولم يبقَ في العالم الغربي من البحر المتوسط الآ خصمان رومية وقرطاجنّة٠ وفي تتبعنا النزاع الذي نشب بينهما ولم يكن منهُ مناص، للحصول على السيادة في عالم البحر المتوسط الغربي مدة الجيلين التابعين، نكون كأننا نشاهد حربًا مستعرة بين الصنفين العظيمين، الصف السامي والصف الهندي الاوربي اللذين سبق الايماء اليهما (ش ٨٣)، ولكننا قبل ان نأتي الى درس تاريخ هذا النزاع يجب ان نعرف اكثر عن اخلاق الشعب الروماني وعمران الدولة التي انشأها في ايطاليا هذا الشعب الذي بوّأ الجمهورية الصغيرة عرش السيادة في ايطاليا وكان اول جيل من الرومانيين٠ وقد ابقى لنا الدهر معلومات كثيرة عنهُ تمكننا من معرفة احوالهِ جيدًا

مسائل

٧٣

كيف ينقسم بحر الروم ؟ في اي قسم نشأ العمران ؟ ولماذا ؟ صف ايطاليا٠ قل ما تعرفهُ عن اقدم الهجرات اليها ودخول المعدِن٠ ايّة قبائل من الجنس الهندي الاوربي دخلت ايطاليا ومتى ؟ هل وجدوا فيها عمرانًا ؟ اي نوع من السلاح اخترعت شعوب البحر المتوسط الغربي ؟ من هم الخصوم الثلاثة، للقبائل الايطالية، الذين دخلوا البلاد ؟ ماذا تعرف عن دخولهم ؟ ماذا فعل اليونان ضدّ القرطاجنيين والاترسكيين ؟ هل انضم يونان الغرب امة واحدة ؟ لماذا اتوا الى ايطاليا ؟

٧٣

صِف لاتيوم · اية قبائل استقرَّت فيهـا ؟ . ايَّة بلدة كانت اولاً مسيطرة على الكل ؟ اين كانت سوق اللاتين ؟ من زاول التجارة هنـاك ؟ صف المكان . ماذا دُعي من استولى عليهِ في القرن الثامن ق·م· ؟ ايَّة سُلالة ملكية نشأت ؟ صف حكمهم ومدنيتهم ·

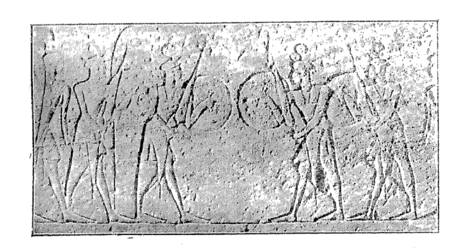
٧٤

من اين حصل الرومان على حروفهم الهجائية ؟ اية مؤثرات او عوامل يونانية أُخرى تستطيع ان تذكر ؟ ايّ نوع من العرافة مارس الاترسكيون والرومان ؟ ماذا تعرف عن افكار الرومان الدينية ؟ من خَلَف الملوك الاترسكيين في حكم رومية ؟ اي نوع من الحكام انتخب الشعب لحمايتهِ ؟ اي مجلس عظيم تنظَّم ؟ لمن كان الحق غير المنازع فيهِ في ان يتولى منصب قنصـل ويجلس في مجلس الشيوخ ؟ صف مجامع العامَّة · لمن كان السلطان على سنّ القوانين ؟ اية طبقة من الاشراف ظهرت الآن؟ كيف تسلَّطوا على مجلس الشيوخ ؟ وكيف تسلَّط هذا المجلس على الحكومة ؟ ماذا تقول في هذه السيادة ؟

٧٥

ايَّة علاقة كانت بين رومية والقبائل اللاتينية حواليها ؟ مـاذا جرى للاترسكيين بعد سنة ٥٠٠ ق·م· ؟ صف سياسة مجلس الشيوخ الروماني في المستعمرات · قل ما تعرفهُ عن مجيء الغاليين · ماذا حلّ بالتحالف اللاتيني سنة ٣٣٨ ق·م· ؟ ماذا

حدث في بلاد اليونان في السنة نفسها ؟ من هم السمنيون ؟ صف قتال الرومان معهم . اية معركة كانت خاتمة القتال ؟ ومتى نشبت ؟ هل استطاع يونان الغرب ان يتحدوا على رومية ؟ ماذا فعلت تارنتم ؟ أعِد ذكر الحرب مع برُّوس . ماذا جرى ليونان ايطاليا بعد عودة برُّوس الى بلادهِ ؟ كم من الزمان لزم رومية للحصول على الزعامة في ايطاليا برمتها ؟



الشكل ١٨٤

يرينا هذا الشكل رسوم رجال الحرب الذين كانوا قبل عهد التاريخ، في غرب البحر المتوسط في القرن الثالث عشر ق.م. لاحظ سيوف البرنز الثقيلة المعقوفة الرؤوس الى الاعلى. وما هي الا خناجر مصرية مطوّلة (ش ١٠٠ او ف ٧٣٠) وهذا المشهد منقوش على جدران هيكل ابي سمبل بمصر (ش ٥٠) الهيكل الذي بناهُ رعمسيس الثاني الذي كان هولاء الغربيون مستخدمين في جيشهِ

الفصل الثاني والعشرون

سيادة الجمهورية الرومانية في ايطاليا والمنافسة بينها وبين قرطاجنة

٧٦

ايطاليا تحت حكم الجمهورية الرومانية القديمة

(٧٥٩) لماذا تصير ايطاليا امة

وبعد الحرب اللاتينية التي همدت نارها سنة ٣٣٨ ق٠م٠ اصبحت رومية الزعيمة في ايطاليا ولكنها لم تلبث ان فقدت زعامتها، حتى الاراضي المحيطة بلاتيوم ذهبت من يدها وكان لا يزال جماعة ممن يتذكرون الحرب اللاتينية احياء يُرزقون الاّ انها بعد خمس وستين سنة اعادت سيادتها على ايطاليا كلها٠ وكان مجلس الشيوخ المشهور باصالة الراي والدراية في ادارة الاحكام هو القابض على ازمّة الامر والنهي في المدن والولايات العديدة التي استولت عليها رومية في امدٍ من الزمان لا يزيد عن مدى حياة الانسان٠ ولو حاولت رومية ان تضمّ اليها كل الاراضي التي افتتحتها وتحكمها هي رأساً لتبرَّم سكان ايطاليا من حكمها ورفعوا بين حين وآخر راية العصيان٠ فما هي الطريقة التي كانت ايطاليا مزمعة ان تنتهجها لتصير امة تتسلّط عليها رومية وتضبط شؤونها

(٧٦٠) معاملة رومية للجوالي المستقلة اداريا

شرع الرومان في حكمهم للمدن التي استولوا عليها بمنح سكانها ضرباً من الرعوية يخولهم حق حماية من لدن الدولة الرومانية في التجارة والاشغال، وباعطائهم في مجالس الشرع الحقوق المعطاة لكل روماني ومنحهم امتيازات اجتماعية من جملتها تبادل عقود الزواج مع سواهم٠ الاّ ان هذه الرعوية لم تخولهم حق التصويت في الانتخابات٠ ولكن الجوالي

المقيمة في الاماكن البعيدة لم تكن لتشعر بخسارة هذا الحق لان الذين لهم حق التصويت كان عليهم ان يذهبوا الى رومية لاعطاء اصواتهم في الانتخاب. وكانت رومية تدعو المدن والجوالي المحكومة على هذه الصورة «حلفاء» ولما كان هولاء الحلفاء يتمتعون بحق حماية الدولة الرومانية القوية جعلوا جيوشهم تحت إمرة رومية وناطوا بها جميع علاقاتهم ومعاملاتهم الاجنبية . فكانوا مستقلين في ادارة شؤونهم الداخلية المحلية الاَّ فيما يتعلق بالجيش

(٧٦١) الرعوية الكاملة بعض الجوالي

وبالتدريج الحقت رومية باملاكها كثيرًا من الاراضي لتتمكن من اداء نفقات الحرب وتقديم الاماكن اللازمة لرعاياها الذين كانوا يزيدون عددًا على مرّ الزمان. وكان من سياسة رومية انشاء مستعمرات رومانية في اراضي حلفائها فكانت جواليها مبثوثة في جميع انحاء ايطاليا تكثر وتقل بحسب مقتضى الاحوال

الشكل ١٨٥ دينار روماني فضي

بعد الاستيلاء على المدن اليونانية في الجنوب اخذ الرومان يسكون نقودًا فضية . (٢٦٨ق.م) (ف ٤٦٦) ولم تعد القطع التي كانوا يتعاملون بها قبلاً ضرورية للدفعات الكبيرة (ش ١٨٣) فصُغّرت فيما بعد الى سدس حجمها الاصلي. واصبح النقد الفضي قِوام جميع المعاملات التجارية الكبرى .

(٧٦٢) الحاجة الى الوحدة القومية في ايطاليا . اختلاف اللغة

بلغت رومية الى درجة من الوحدة نسميها من الوجهة الجغرافية «ايطاليا» وكان يرجى ان تمتزج قبائلها وشعوبها في المستقبل البعيد وتؤلف امة واحدة الاَّ انهُ في الوقت نفسهِ كان كثير من شعوب ايطاليا لا يشعرون بشيء من المحبة الوطنية لرومية ولا بِدْع فلم يكن لديهم تقاليد مشتركة بينهم كاليونانيين الذين كانت عندهم تقاليد حرب طروادة . وفوق ذلك كلهِ كان الرومان يتكلمون بلغات مختلفة فلا يفهم الشعب الواحد منهم لغة الآخر ولذلك لم يكن اتحادهم امّة من الهَنَات الهيّنات فظلوا شعوبًا متفرقة لكل شعب لغتهُ وميزاتهُ فتعذَّر على ايطاليا ان تؤلف منهم امة واحدة

(٧٦٣) صيرورة ايطاليا لاتينية في اللغة يونانية في المدنية

وقد قُدّر للامة المستقبلة ان تكون من الوجهة اللغوية لاتينية تتكلّم لسان المدينة الحاكمة، ومن الوجهة الجغرافيّة ايطاليّة، ومن الوجهة السياسية رومانية واذا نظرنا الى رومية من الوجهة العمرانية نرانا مضطرين ان ننعتها بنعت رابع لانها مع مرور الزمان صارت في مدنيتها يونانية ولا غرابة في ذلك فان الرومان رأوا لاول مرّة في حياتهم الهياكل الجميلة

والمراسح الفاخرة في المدن اليونانية بجنوب ايطاليا · ولا يبعد انهم شهدوا التمثيل اليوناني الذي كانوا يفهمون قليلًا منهُ او لا يفهمونهُ بالمرَّة· الاَّ ان المحاضرات على الاقدام والمصارعة والالعاب الرياضية الاخرى لم تكن تحتاج الى تفسير لكي يتفهَّمها جنود الرومان الاشداء الذين حاربوا برُّوس في الجنوب

(٧٦٤) الادلة الاولى على المدنية اليونانية في رومية. النقود الفضية

استولى الرومان في جنوب ايطاليا على الطرف الغربي من العالم الهلّيني العظيم الذي درسنا مدنيتهُ قبلًا (فصل ٢٠) ولم يلبثوا ان شعروا بتفوُّق مدنية وتهذيب العالم الجديد الذي دخلوهُ في الجنوب اليوناني وكان تأثير العوامل اليونانية ظاهرًا بنوع اخص في الامور التجارية الكبرى والصغرى · فبعد الاستيلاء على المدن اليونانية في الجنوب ظهرت النقود الفضية بكميات اكبر اذ لم تعد النقود النحاسية كافية للمعاملات الرومانية· وما لبثت رومية بعد محاربتها برُّوس ان اصدرت اوَّل نقدها الفضيّ (ش ١٨٥) وكما شعرت اثينا (ف ٤٥٦) بقوة الدراهم وتأثيرها كذلك اخذت رومية تشعر بذلك فقام فيها فريق من المتمولين معظمهم من صنف التجار · غير انهُ لم يقم في رومية صناع اصحاب معامل كما في اثينا ولم تصر رومية مدينة صناعية عظيمة

٧٧

التنافس التجاري بين رومية وقرطاجنة

(٧٦٥) توسع رومية التجاري البحري

لم تتجاوز اعمال فلاحي ايطاليا الى ما وراء سواحل بلادهم ،ولكن الاعمال التي قام بها تجارها تخطَّت الى ما وراء تلك السواحل · فحين كانت سفنهم التجارية تخرج من التيبر كانت تدخل قطعة من الماء مثلَّثة الشكل تُعرف بالبحر الاترسكي واذا القينا نظرة على الخريطة عرفنا كيف كانت رومية مقابل قرطاجنَّة عبر هذا البحر المثلَّث الشكل الذي كانت تخوض عبابهُ سفنها التجارية ذهاباً واياباً لان تجارة المدينتين فيهِ كانت متسعة النطاق

(٧٦٦) نجاح الساميين التجاري الاوَّل وتاسيس قرطاجنة

لا مراء في ان المنافس الذي وقف الآن مقابل رومية عبر البحر الاترسكي كان يُخشى جانبهُ · فقد كان يجري في عروق القرطاجنيين دم رجال بادية العرب الاشداء ، اصحاب القوافل الساميَّة (ف ١٤٣) الذين جعلوا اسواق بابل مركزًا للتجارة الشرقية القديمة قبل ان اقتنت رومية اوَّل سفنها بالفي سنة · وقد مخرت سفن اسلافهم الفينيقيين تشقّ لجج

البحر المتوسط منذ همجية ايطاليي العصر الحجري الذين كانوا يتوقعون بذاهب الصبر قدوم تاجر الشرق اليهم ومعهُ الادوات المعدنية لبيعها منهم (ف ٣٣٦) ولما كانت رومية لا تزال بعد قرية حقيرة محصورة تجارتها في التيبر – قبل ان عرف اليونان هذه المياه – كان التجار الفينيقيون، اقدم رواد البحر المتوسط الغربي، قد رأوا بعين فِراستهم اهمية موقع الراس الناتئ الى البحر تجاه صقلية · فأسّسوا عند الطرف الغربي من المكان المعروف الآن بتونس المدينة التي صارت مليكة التجارة في الجزء الغربي من البحر المتوسط واشدّ منافس لرومية

(٧٦٧) توسع قرطاجنة في افريقيا واسبانيا

كان لقرطاجنة من موقعها الممتاز مندوحة للاتجار لا يباريها فيها مبارٍ · فامتدَّت تجارتها تدريجاً الى تخوم القيروان، المدينة اليونانية، شرقاً والى الاتلانتيكي غرباً · فملكت الساحل من الجانبين واستولى تجارها على جنوب اسبانيا وما فيه من معادن الفضَّة الغنية واستبدُّوا بواردات الصفيح (القصدير) البريطاني عن طريق بوغاز جبل طارق وانتشرت مستعمراتهم خارج هذا البوغاز على ساحل اسبانيا شمالاً وعلى الساحل الافريقي الاتلانتيكي جنوباً الى حدود الصحراء فتمكن احد ربابنتهم الجريء هنّو من رَوَدَان ساحل افريقيا الى حدود غينيا (ف ٦٩١)

(٧٦٨) التوسع القرطاجني في جزر غرب البحر المتوسط

لم يمنع القرطاجنيين من الاستيلاء على جزر البحر المتوسط التي كان يشرف عليها ميناؤهم الجميل، الاَّ دخول اليونانيين (ف ٤٣٦–٤٣٧) · وقد كانوا غالباً مستولين على قسم كبير من صقلية التي كان يرى طرفها الغربي من سطوح منازل قرطاجنة · وانشأُوا لهم مستعمرات في جزيرتي سردينيا وكورسيكا · وكان لهم موانٍ في الجزر الواقعة بين سردينيا وكورسيكا كما كان لهم ايضاً في الجزر الواقعة بين سردينيا واسبانيا · وسدُّوا بوغاز جبل طارق وموانئ الجزر في وجه السفن القادمة من المدن الاخرى وكانت مراكبهم الحربية تهاجم السفن الاجنبية التي كانت تدخل هذه المياه، وتضربها بالمنجنيقات فتغرقها الى اعماق اليم

(٧٦٩) عسكر وجنود وطنية في قرطاجنة . نجاح التجارة وجيش من المرتزقة

ولم تكن قرطاجنة من الوجهة الحربية كرومية لانها كانت تعتمد في نفقاتها الحربية على ارباح تجارتها فكان اساس القوة الحربية عندها المال فما دامت تجارتها ناجحة وارباحها طائلة كانت تستطيع ان تستأجر جنوداً من الخارج للقيام بالخدمة العسكرية اللازمة لها · لانهُ لم يكن لديها فلاحون قائمون على حراثة اراضيهم تستطيع ان تجنّد منهم جيشاً وطنيا كما كانت تفعل رومية · كان في ارض تونس المخصبة الغنية فلاحون وطنيون يحرثون اراضيهم ويعيشون من غلالها ولكن القرطاجنيين اغتصبوهم اياها وانشأ فيها كبار تجارهم مزارع

فسيحة جميلة وعينوا لها عبيداً للقيام باعمال الفلاحة والغرس والزرع فيها ولكن لم تكن هذه المزارع تقدم جنوداً للحكومة لانهُ لم يكن فيها جماعة من صغار الفلاحين يعيشون على نتاجها

(٧٧٠) الحكومة القرطاجنية

وقد كان هذا الامر ضعفاً مهماً بادياً في نظام الحكومة القرطاجنية . فلم يكن لحكام المدينة ثقة بالجيش المؤلف من اجانب ولا كان لهم ثقة حتى في قوادهم المولودين قرطاجنيين لانهم خشوا انهم يسعون ليجعلوا انفسهم ملوكاً على قرطاجنة . وهذه الخشية سببت نفوراً بين حكومة قرطاجنة وقادة جندها فآل ذلك الى ضعف الامة . ومع انهُ كان على رأس الحكومة حاكمان منتخبان يلقبان بقاضيين ، كانت قرطاجنة في الواقع تحت امرة فريق من تجارها الاشراف اي انها كانت حكومة ارستقراطية غنية تألّف من اعضائها مجلس قبض على زمام السلطة ، وكان اليونان يدعون حكومة كهذه « اوليغاركي » اي حكم الاقلية ولكنهم على قلتهم ، كانوا ذوي نشاط وحُنكة في الامور السياسية وظلّوا قروناً يسيرون بالامة والبلاد في مناهج الحكمة والسداد حتى جعلوا قرطاجنة دولة عظيمة تفوق اية دولة من دول اليونان في ذلك الزمان وما سلفهُ من الازمان ولا تستثنى من هذا الحكم دولة اثينا

(٧٧١) المدنية القرطاجنية

الاّ ان قرطاجنة ظلت في مدنيتها شرقية . فحينما نبش المنقبون آثارها الغنية رأوا فيها التقصير البادي على الفن الشرقي في اوّل عهده . ولم يروا فيها من التأثير اليوناني الاّ قليلاً . ولم يستسلم القرطاجنيون لعوامل التأثير اليوناني الاّ في جزيرة صقلية حيث شرعوا في سك النقود واصدروا نقوداً فضية . واما في قرطاجنة نفسها فحافظوا على استعمال سبائك المعادن الكريمة (ف ١٩٥) متبعين العادة الشرقية التجارية القديمة . ولكن لما اتسع نطاق تجارة قرطاجنة وجد تجارها ان الضرورة تقضي بوجوب ايجاد طريقة تسهل لهم مبادلة السلع . فاصدروا نقوداً من جلد — اقدم سلف للنقد الورقي — مختومة بخاتم الدولة ضماناً لقيمتها . وكتب في الآداب رحالتهم الشهير ، هنّو ، (ف ٦٦٧) نبأ رحلتهِ الجغرافية الى الساحل الاتلانتيكي بافريقيا كما كتب ماغو ، احد رجال السياسة عندهم ، رسالة في الزراعة بعد ان قام في مقاطعة تونس بتنظيمات وتحسينات جمة . وقد امر مجلس الشيوخ الروماني بترجمة هذه الرسالة الى اللغة اللاتينية فصارت المعوَّل عليها في الشؤون الزراعية في جميع ايطاليا

(٧٧٢) مدينة قرطاجنة

وكان القرطاجنيون يشبهون اليونان في اثاث منازلهم وبناء مدنهم . فكانت مدينتهم قرطاجنة كبيرة وجميلة (١٨٩) تساوي مساحتها ثلاثة اضعاف مساحة رومة . وكانت

تمتدُّ الى الداخليَّة مسافة بعيدة وراء المرافى والارصفة العظيمة المكتظَّة بالسفن والبضائع · وكانت لها اسواق فسيحة الجوانب فيها كثير من معامـل الصناعة · وقامت وراء بيوت اصحاب الحرف والصنّاع منازل اغنياء التجار الفخمة تحفُّ بها الحدائق الغناء البهية · وكان يحدق بالمدينة اسوار ضخمة وحصون هائلة مما كاد يجعل الاستيلاء عليهـا عنوة مستحيلاً · وكان وراء المدينة وخارج الاسوار غابات النخل العظيمة تتلاعب برؤوسها النسمات فتتماوج كأنها بحر من الخضرة · وهنالـك مزارع حافلة بنباتات المنطقة الحارَّة مبثوثة في جنباتهـا منازل جميلة شيدهـا كبار ارباب التجارة الذين كان عليهم المعوَّل في العراك اذا نشب مع رومية

(٧٧٣) معاهدتان تجاريتان بين رومية وقرطاجنة وزيادة الاحتكاك بينهما

وفي ايام الحرب اللاتينية (نهايتها ٣٣٨ ق م·) او قبل ذلك بقليل حين كانت تجارة الرومانيين ضيقة النطـاق رغب تجارهم الى مجلس شيوخهم ان يعقد معاهـدة تجارية مع قرطاجنة ويرسم حدودًا في البحر لا يسوغ لسفن الفريقين ان تتعداها · وفي الواقـع حوالي منتصف الحروب السمنية كان مجلس الشيوخ الروماني قد عقد معاهدة ثانية مع قرطاجنة (٣٠٦ ق·م·) تم فيها الاتفاق بين الفريقين على انهُ لا يجوز للسفن القرطاجنية ان تـدخل موانئ ايطاليا ولا للسفن الرومانية ان تدخل صقلية · وكان استيلاء الرومانيين على المدن اليونانية في ايطاليا قد جعل يونان صقلية منفردين تحت رحمة قوات قرطاجنة · وكانوا فيما مضى يصادمونها ويفوزون عليها فوزًا مبيناً (ف ٧٢٤) · ولكنهم اذ لم يقدروا ان يتحدوا معاً على قرطاجنة اضطُروا الى التسليم تدريجاً · وظل القرطاجنيون يتقدمون شرقاً تقدمـاً مستمرًا حتى ابتلعوا صقلية · وكان تجار ايطاليا ينظرون الى مرافئ صقلية والحركة التجارية الجارية فيها فتنقبض نفوسهم بسبب حظر الاتجار عليهم فيها · وتحقَّقوا والغيظ ملءُ صدورهم ان رومية كأنمـا نالت السيادة في ايطاليا ومدَّت ثغور دولتهـا حتى اقصى الجنوب لكي تشاهد ارباب التجارة من القرطاجنيين وقد جعـلوا الجزء الغربي من البحر المتوسط بحرًا قرطاجنيا

(٧٧٤) الخطر على رومية من خسارتها بوغاز مسانا

وكانت قرطاجنة سائرة الى مركز ربما تمكنت فيهِ من قطع المواصلات بين روميـة وموانيها التي على جانب ايطاليا الادرياتيكي · فلكي تبلغ ايطاليا الى تلك الموانئ كانت مضطرَّة ان تمرّ في بوغاز مسَّانا بين ايطاليا وصقلية · فكان التجار الايطاليون ينظرون الى الجنوب والرعب مالئٌ قلوبهم لانهم كانوا يتوقعون قدوم اليوم الذي فيـهِ تمنع مراكب قرطاجنة في ميناء مسَّانا حركة الاتجار بين ساحل ايطاليا الغربي وبحر ادريا

(٧٧٥) قوة الرومان الحربية

وكان المجلس الروماني بلا ريب يُوجس خيفة من الامر الذي روّع قلوب التجار الايطاليين . ولا بد ان كثيرين من الشيوخ سأل نفسهُ في سرّه قائلًا ترى اذا نشبت حرب بيننا وبين الدولة التجارية القوية في شمال افريقيا فلمن يكون الفوز فيها واي امل لنا بالنجاح؟ لم تكن لرومية قوة بحرية . ولكنها كانت تستطيع ان ترسل الى ساحة القتال ثلاث مئة الف مقاتل فضلًا عن الجنود الرومانيين الاصليين وقد كان من مبدإ الرومانيين ان يجعلوا مع جنودهم في ساحة العراك عددًا مساوياً لهم من جنود الحلفاء فيتضاعف بذلك عدد جنودهم العاملة . وكان الجيش الروماني اكبر جيش تنظَّم في عالم البحر المتوسط . هذا وجيوش قرطاجنة لم تكن وطنية تضطرم قلوبها بمحبة الوطن كجنود رومية بل من المرتزقة الخالية افئدتهم من الحماسة والمحبة الوطنية

(٧٧٦) تحسينات رومانية في الاسلحة وحركات الجيش في الحرب

وادخل الرومان على الاسلحة والحركات الحربية بعض التحسينات فصارت افضل مما كانت في العصر الهلّيني بعد عهد الاسكندر (ف ٦٢٥) . فكانوا بعد ان يرشقوا رماحهم على صفوف العدو يهجمون عليهِ بسيوفهم القصيرة التي يسهل القتال بها عند الالتحام اكثر مما يسهل بالاسلحة الطويلة . وقد ادخلوا ايضاً تحسيناً جديدًا على فيالقهم المعروفة بالفالَنكْس التي كانت قبلًا جسمًا لا مفاصل لهُ ولا مرونة (ف ٥٩٣) فانهم جعلوا لها مفاصل واكسبوها مرونة بتقسيمها طولاً وعرضاً الى شراذم صغيرة . فلما مهر الرومان في ادارة حركات هذه الشراذم انتقلت صناعة الحرب الى عهد جديد . وكان الرومان عند استعراض الجيش واطعامهِ يقسمونهُ الى اقسام اكبر دعوها كتائب كل كتيبة مؤلفة من اربعة آلاف وخمس مئة جندي

CAMLCI... BERIAMEN
ENA CRISPVS MIL LCVIII
AVGANXI ESTI XXI F R C

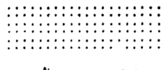
الشكل ١٨٦ جندي روماني من احدى الكتائب

صورة الجندي منقوشة على حجر الضريح الذي شيدهُ اخوهُ تذكارًا له . والاسلحة التي كان يقاتل بها هي رمحة المشرع القابض عليهِ بيمينهِ الممدودة وراسهُ متجه الى فوق ، وسيفهُ القصير الذي تقلدهُ على جنبهِ الايمن (انظر ف ٦٧٦) اما السلاح الواقي فكان خوذة ودرعاً من جلد وترساً

ومع التحسينات التي ادخلها الرومان لم يدركوا اوّل الامر اهمية وجود شخص محنك يتولى رئاسة قيادة الجيش — رجل اتخذ القيادة الحربية مهنة لهُ كقواد العصر الهلّيني (ف

٥٨٨) بل كانوا يجعلون القيادة للقناصل الذين رأسوا الجمهورية ولم يكن لهم اقل خبرة في اقتياد الجيوش اما في التدريب العسكري ففاق الرومان شعوب العصر القديم طرًّا

(٧٧٧) عدم وجود قواد محنكين للتدريب العسكري



شرذمة من مقدمة الجيش

فصيلة الساقة

فصيلة القلب

فصيلة الطليعة

طليعة الجيش

الشكل ١٨٧ رسم صف مثلث من الجنود الرومانية في ابان المعركة مع تفصيل شرذمة واحدة فوقه

ترى هنا الكتيبة اليونانية المتراصة منقسمة ثلاثة اقسام بالطول طليعة وقلب وساقة وكذلك تنقسم بالعرض الى اقسام صغيرة (شراذم) ففي المقدمة والقلب كانت هذه الشراذم تتألف من عشرين رجلاً بالطول وستة رجال بالعرض او العمق (انظر الرسم اعلاهُ) وفي الساقة كان طول هذه الشراذم نصف ذلك . وكانت هذه الشراذم تصفّ على نسق حتى لا تتطابق الفسحات بينها . لكن شراذم القلب او القسم الاوسط سدَّت المنافذ التي في المقدمة كما ترى في الرسم

٧٨

الحرب الصقلية او القرطاجنية الاولى

ولم يلبث الرومان ان اقتنعوا بان لا مناص لهم من محاربة قرطاجنة مهما كان في مطاوي تلك الحرب من الاخطار . فانهُ فيما كان السرقوسيون يحاصرون مسَّانا هبَّ فريق من المحاصرين واستنجد الرومان وفريق آخر استنجد القرطاجنيين . فبعث هؤلاء للحال بحامية احتلَّت القلعة فاصبح بوغاز مسَّانا تحت امرتهم . اما الرومان فبعد تردُّد طال امدهُ لبُّوا نداء الذين استغاثوا بهم وارسلوا اليهم جيشاً رومانيا من ايطاليا بطريق البحر . وهذه هي اوَّل مرَّة في التاريخ الروماني ركب فيها البحر جيش روماني . وكان العراك مع قرطاجنة قد ابتدأ (ف ٢٦٤ ق.م.)

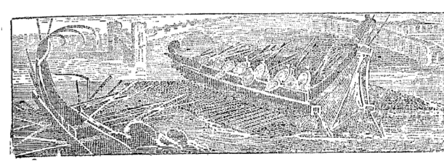
(٧٧٨) بداية الحرب الصقلية مع قرطاجنة عند مسانا

وعقد الرومان محالفة مع السرقوسيين آلت الى امتلاكهم القسم الشرقي من جزيرة

(٧٧٩) الرومان يبنون اسطولاً

صقليـــة ولـكن اعوازهم الى اسطول حربي عاقهم كثـيرًا عن المضيّ في عملهم . وفي السنة الخامسة من الحرب أنجز بمساعي المشيخة بنـاء اسطول حربي رومانيّ وأُنزل الى البحر . وكان عدد سفنهِ الحربية مئة وعشرين

(٧٨٠) انتصار الرومانيين البحري ٢٤١ ق.م



الشكل ١٨٨

نُشاهد في هذا الشكل قطعة من جدار مصوَّر في بومباي بايطاليا تمثل لنا سفينة حربية في اثناء المعركة لاننا نرى على اليسار مركبًا حربيًا محطَّمًا . لاحظ المجاذيف التي كانت تقوم مقام الدفَّة على كل جانب من المؤخر — اختراع وُجد في سفن النيل قبل ثلاثة آلاف سنة (ش٢٩) ولم تكن الدفَّة قد نشأت من هذه المجاذيف بعد . وقد عزا الرومان نجاحهم في البحر وغلبتهم على القرطاجنيين مع عدم اختبارهم في الشؤون البحرية الى اختراع جديد في سفنهم وهو انهم صنعوا لكل سفينة جائزًا اي جسرًا من الخشب وناطوهُ بالدَّقل بحلقة من حديد عند اسفلهِ وبحبل وبكرة من اعلاهُ . ورزُّوا في طرف الجائز الاعلى مسمارًا كبيرًا او شِصًّا. فكانوا اذا اقتربت سفن العدو منهم ينزلون الجوائز فترتزّ مساميرها في ظهور تلك السفن فتكوّن جسورًا اليها فيعبر الرومانيون ويقاتلون الاعداء في سفنهم بالسلاح الابيض عن كثب . فكان نفعهم من هذا الاختراع اعظم جدًا من خسارتهم بسبب عدم خبرتهم في الشؤون البحرية

ومع ما كان عليـــهِ الرومان من عدم الاختبار في الشؤون الحربيـــة البحرية فقد فاز اسطولهم في بـادىء الامر. ولكن لسوء حظهم قـام لهـم بعد ذلك من البحـر عـدو فحطّم اساطيلهـم الواحـد تـلو الآخر وكسر احـدها القرطاجنيون شرَّ كسرة . ففقد الرومان سيادتهم البحرية التي لم يطل عليها الامد وامسوا عاجزين عن الثبار على الحرب زمناً مديداً. وكان (هملقـار) برقة القائد القرطاجني يخرّب باسطولهِ سواحل ايطاليـا والحرب تجري وئيدًا سنة بعد سنة حتى نضب مَعِين الخزينة الرومانية اذ كانت رومية قد استنفدت كل ما كان لديها من الموارد . ولـكن هزّت الاريحية افرادًا من بنيها فجادوا بالمـال عن سعة فتمكنت من بناء اسطول آخر أُنزل الى البحر سنة ٢٤٢ ق.م. وكان عدد دوارعهِ مئتين لكل منهـا خمسة صفوف من المجاذيف بعضها فوق بعض . وكانت باكورة اعمال هـذا الاسطول انهُ هزم الاسطول القرطاجني وحطَّمهُ تحطيماً (٢٤١ ق.م.) . فلم يبقَ في طاقة القرطاجنيين ان يرسلوا مددًا ، بطريق البحر ، الى جيشهم في صقلية

(٧٨١) الصلح عند نهاية الحرب الصقلية (٢٤١ ق٠م)

واضطرّ القرطاجنيون ان يقبلوا شروط الصلح الثقيلة التي املاها عليهم الرومان٠ وكان عليهم بمقتضاها ان يتخلّوا لهم عن صقلية والجزر المجاورة لها ويؤدوا اليهم في غضون عشر سنين غرامة حربية قدرها ثلاثة آلاف ومئتا وزنة ٠ وهذه القيمة تساوي سبعة عشر مليوناً ونصف مليون من الفرنكات الذهبية ٠ وفي سنة ٢٤١ ق٠م٠ انتهى العراك الاوّل الذي نشِب بين رومية وقرطاجنة بفوز الاولى منها وكانت مدتهُ ثلاثاً وعشرين سنة

(٧٨٢) بعض نتائج الحرب الصقلية

ودام العراك بين الفريقين المتحاربين حتى عراهما الكلال وزحا اعياء٠ ولكنهما استفادا في غضونهِ اشياء كثيرة في فن الحرب واصبحت رومية للمرَّة الاولى قوة بحرية٠ وفي الوقت نفسهِ انتهجت خطَّة جديدة بدَّلت مستقبلها وحوَّلت وجهة مصيرها الى الابد٠ فانها استولت اوَّل مرَّة في تاريخ حياتها على ارض خارج ايطاليا٠ خطت هذه الخطوة ولم يعد في طوقها ان ترجع عنها لان الامة متى اصبحت ذات مصالح في الخارج وترتبت عليها تبعات، فلا مناص من اشتباكها مع امم أُخرى لها مصالح وعليها تبعات مثلها هي٠ والمصالح متى تضاربت فلا يُعرف لتضاربها حدّ بل قد تؤدي من حرب الى حرب

٧٩

الحرب الهنيبالية او الحرب القرطاجنية الثانية وتدمير قرطاجنة

(٧٨٣) استيلاء رومية على سردينيا وكورسيكا وافتتاح وادي البو

وانصرف الخصمان الآن الى زيادة قواتهما٠ ولم تتردد رومية في ان تفعل ذلك على حساب قرطاجنة فانها بعد تقرير الصلح بثلاث سنين فقط استولت على هاتين الجزيرتين غير عابئة باحتجاجات قرطاجنة فصار لديها ثلاثة مواقع حربية خارج بلادها تناوئ قرطاجنة منها٠ وبعد ذلك ببضع سنين اشتبك الرومان في حرب خطرة مع الغاليين الذين هجموا عليهم من وادي البو فانكسر الغاليون انكساراً عظيماً واستولى الرومان على اراضيهم ولم يمنحوهم الحقوق الرعوية كما كانوا يمنحون غيرهم ممن يفتتحون بلادهم٠ فامتدت السلطة الرومانية الى الشمال حتى سفح جبال الالب٠ واصبح شبه الجزيرة من حدود الالب حتى اقاصي الجنوب في قبضة رومية

(٧٨٤) فتوحات جديدة لقرطاجنة في اسبانيا وقيام هنيبال

وحفظاً لتوازن القوات بعد زيادة قوة رومية وجَّه قواد قرطاجنة انظارهم الى اسبانيا حيث امتدَّت سلطة قرطاجنة بهمة البطل هنيبال ابن هملقار الى حدود نهر ايبرو٠ ومع انهُ

لم يكن لهنيبال سوى اربع وعشرين سنة من العمر نراه يرسم الخطط الخطيرة لمفاجأة رومية في عُقر دارها وسحق القوة الرومانية في ايطاليا نفسها

(٧٨٥) بدء الحرب الهنيبالية ٢١٨ الى ٢٠٢ ق·م

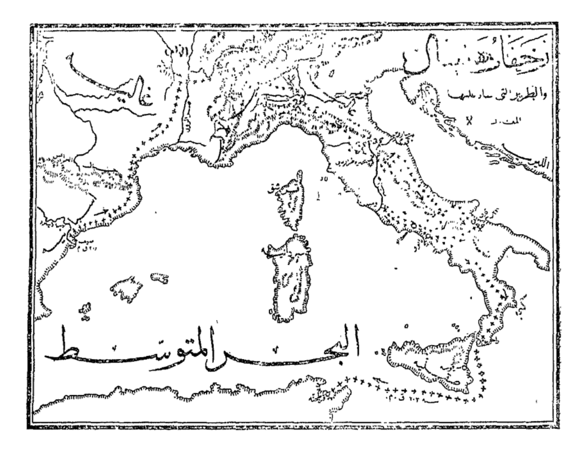
ولكن قبل ان يعبر بجيشهِ الى ايطاليا نشب بينهُ وبين رومية قتال على تخوم اسبانيا لنكثهِ العهد الذي كانت قرطاجنة قد قطعتهُ لرومية بأنها لا تتخطّى الى ما وراء نهر ايبرو شمالاً · ثم زحف بجيشهِ المؤلف من اربعين الف مقاتل مدرَّبين في الفنون الحربية احسن تدريب متبعاً ساحل اسبانيا الشرقي لكي يقطع جنوب غاليا ويهاجم ايطاليا · والذي حداهُ على اتخاذ هذه الخطة في زحفهِ هذا ، هو ايقانهُ ان اسطول قرطاجنة الذي انكسر في حرب صقلية لا يستطيع ان يحميهُ وجيشهُ اذا حاول ان يذهب بهِ رأساً من قرطاجنة الى جنوب ايطاليا · وفضلاً عن ذلك كان معهُ ستة آلاف من الفرسان او تزيد ونقل مثل هذا العدد بحرًا ليس بالامر الذي يستخفُّ بهِ · زد على ذلك انهُ لو نزل في جنوب ايطاليا للقي من السكان هناك مقاومة عنيفة من اوَّل الامر لانهم كانوا مقيمين على ولاء رومية · واما في الشمال فلم تكن الحال كذلك · لانهُ كان هناك جماعة الغاليين الذين كانت مراجل حقدهم على الرومانيين لا تزال تغلي في صدورهم لان هولاء كانوا منذ امدٍ غير بعيد قد افتتحوا بلادهم واستباحوا حماهم · وفيما كان اعضاء المشيخة الرومانية يرسمون خطتهم لغزو اسبانيا وافريقيا وجدوا ان هنيبال قد فاجأهم من الشمال غازياً

(٧٨٦) هنيبال يقطع بجنوده جبال الالب

بلغ هنيبال الى جبال الالب في اواخر خريف سنة ٢١٨ ق·م· بعد ان كابد هو وجنودهُ ما لا يوصف من المشاق والاخطار لوعورة المسالك وتراكم الثلوج على تلك الجبال · وكانت المسالك في بعض الاماكن ضيقة بحيث لم تتمكن الافيال التي كانت معهم من المرور بها فكانت تضطرهم الحال الى توسيعها بتقطيع الحجارة التي كانت تحول دون مرور الافيال · وكانوا وهم في تلك المسالك الحرجة اذا نظروا الى اسفل عراهم الدُّوار من مرأى ما تقع عليهِ عيونهم من المهاوي والتنائف · واذا نظروا الى فوق رأوا شواهق معمَّمة بالثلوج يقصر الطرف عن بلوغ مداها · ومما زاد في طين شقائهم بِلّة الحجارة الهائلة التي كانت تنهال عليهم من تلك الشواهق يدحرجها عليهم الوطنيون من اعدائهم مما فتَّ في سواعدهم واوهى قواهم · هذا فضلاً عما كانوا يقاسونهُ من التعب والجوع والزمهرير ولكن قائدهم الشاب الممتاز بمواهبهِ السامية لم يألُ جهدًا عن تشجيعهم ونفخ روح النخوة والرجولة في صدورهم ومساعدة من كان منهم خائر القوى على طول الصف · ولما انتهوا من قطع جبال الالب وبلغوا وادي البو كانوا قد تجشَّموا خسائر جمة في النفوس حتى انحط عددهم الى اربعة وثلاثين الف رجل

(٧٨٧) اعتدال جيش هنيبال وتفوق قائده في الفنون الحربية

بهذا الجيش الصغير دخل هذا الشاب القرطاجني، غير هيَّاب ولا وجِل، ارض اقوى دولة حربية في عصرها كان في طاقتها ان تستدعي الى نجدتها سبع مئة الف مقاتل من رعاياها وحلفائها وتؤلف منهم فيلقاً اثر فيلق. اما هنيبال فلم يكن في وسعهِ ان يستقدم نجدات عن طريق اسبانيا لانهُ لم يكن لقرطاجنة تسلُّط على البحر. وكان لا بدَّ لهُ من فوز معجَّل في ميدان القتال ليحيي الرجاء في صدور الغاليين ويستفزَّهم الى مناصرتهِ بالتطوع في جيشهِ. ولما كانت لهنيبال صلات قوية بكثيرين من اليونان، كان واقفاً على ارقى الخطط الحربية، وعلى الاعمال الباهرة التي قام بها الاسكندر الكبير الذي لم يكن قد مرَّ على وفاتهِ حين هجوم هنيبال على ايطاليا، الاَّ مئة سنة او اكثر من ذلك قليلاً. وكان قواد الجنود الرومانية القنصلين المنتخبَين لادارة الاحكام اللذين لم يكن لهما اقل اختبار في الامور الحربية فكانا من هذا القبيل كرؤساء البلديات في ايامنا. وكانا في الفنون الحربية دون الشاب القرطاجني الداهية بمراحل ومعما كانا عليهِ من الشجاعة والاستقامة والرغبة في الاسراع لمصادمة العدو لم يكونا على شيء من بعد النظر في الامور او صفاء الذهن



ولما كان هنيبال ماهرًا في ادارة فرسانهِ في ساحة القتال — الامر الذي كان الرومان ضعافاً فيهِ — عُقد لهُ الفوز العاجل في (معركتين شبّتا بوادي البو) فهبَّ غاليُّو هذه المنطقة

(٧٨٨) انتصارات هنيبال الثلاثة. وهي الاولى من نوعها

وانضووا تحت اعلامهِ ولكنهم لم يكونوا مدرَّبين على القتال • وفي اوائل ربيع سنة ٢١٧ ق ٠م٠ اجتاز هنيبال ، بعد مقاساة اهوال تروّع معظم القواد ، سلسلة القلاع الرومانية التي تحمي مسالك الابنين وباغت جيش القنصل (فلامينيوس) الآمن من شرّ مفاجيء • وكان القرطاجنيون قد كمنوا لهُ عند بحيرة تراسيميني فانقضُّوا على طليعتهِ وساقتهِ ومزقوهما كل ممزَّق • ووقع القنصل بين ايديهم واصبح هنيبال قريباً من رومية اذ لم يعد بينهُ وبينها الاّ مسافة بضعة ايام • وكان في طاقتهِ ان يستأنف الزحف عليها توًّا ولكنهُ امتنع عن ذلك لانهُ لم يكن لديهِ الآلات اللازمة لمحاصرة حصن منيع • فبات يعلّل النفس بنصرة أُخرى يوم يهبُّ حلفاء رومية ويقلبون لها ظهر المجن ويقومون معهُ قومة واحدة للهجوم عليها

(٧٨٩) فابيوس سياسة الابتعاد (٢١٧ – ٢١٦ ق٠م)

وفي إبان هذه الازمة الشديدة عيّن الرومان (فابيوس) دكتاتورًا اي حاكماً مطلقاً وكان شيخاً وقورًا رزيناً فكان من رأيهِ ان لا يُواقف هنيبال ولا في معركة بل يبذل الجهد في نهك قواتهِ (بالمطل) دون مواقعة فعلية وان يغتنم كل فرصة تسنح لمضايقة القرطاجنيين وازعاجهم ولكن لم تلقَ سياسة الحَذَر والتأجيل هذه استحساناً لدى الرأي العام في رومية وسُمّي صاحبها (فابيوس البطيء) فلبسهُ هذا الاسم عمرهُ • وشرع القنصلان اللذان أُنتخبا سنة ٢١٦ ق ٠م٠ في تعبية جيش مؤلف من سبعين الف جندي ولما تمّت تعبيتهُ زحفا بهِ الى الجنوب لملاقاة هنيبال (عند الكعب) وهناك في («كني») حمي وطيس المعركة

(٧٩٠) ابادة هنيبال للجيش الروماني في معركة كني

في هذه المعركة هزم فرسان هنيبال الاشداء الذين أَلفوا ميمنة الجيش القرطاجني وميسرتهُ فرسان الرومان الذين تألفت منهم ميمنة وميسرة الجيش الروماني وحين ادار فرسان هنيبال المدرَّبون ظهورهم ليهاجموا قلب الجيش الروماني الكثيف من ورائهِ ، امسى الرومان بين قلب الجيش القرطاجني من الامام وفرسانهِ من الوراء ولم يبقَ مفتوحاً من الفخ الذي نصبهُ لهم الاَّ جانباه • وفي تلك اللحظة خطر للشاب القرطاجني اللبيب ، خاطر مهمٌ جاء في وقتهِ وهو ان يسدَّ جانبي الفخ • وكان قد وضع فرقتين من الجنود الافريقية وراء ميمنة وميسرة الفرسان فامرهما بالتقدم فتقدمتا بمل التؤدة والسكينة واتخذت جنودهما مراكز لها عن جانبي الخمسة والخمسين الف روماني الشجعان الذين تألف منهم قلب الجيش • ثم اطبق القرطاجنيون عليهم من كل جانب ودارت بين الفريقين رحى معركة شديدة عقبتها مجزرة هائلة دامت بقية النهار هلك فيها كل من قضى عليهِ القدر بالهلاك • ولم يكد الليل يُرخي سدولهُ حتى كان الجيش الروماني قد اضمحلَّ على بكرة ابيهِ • فقضى في ساحة الوغى عدد ممن كانوا قبلًا قناصل وانتهت خدمتهم ، ومن الشيوخ ، والاشراف ، والوف من احسن الرعايا الرومانيين • فامست كل اسرة في رومية متردية بثياب الحداد على من فقدت

من احيائها · قيل ان هنيبال ارسل الى قرطاجنة مِلء مدّين من خواتم الذهب التي انتزعها جنوده من اصابع فرسان الرومان · وكانت الخواتم في ذلك الزمان تقوم مقام الشرائط التي يلبسها الضابط في هذه الايام، للدلالة على رُتبهم في الجيش

(٧٩١) تنظيم هنيبال حلفاء الرومان لمحاربتهم رومية ودعوته للمكدونيين

وهكذا استتب لهذا الشاب القرطاجني الباسل، اعظم قواد الساميين، ان يتغلّب على عدوّه الجبّار في اربع معارك ويُهلك من فيالقهِ ثلاثة في غضون سنتين من وصولهِ الى ايطاليا وقبل ان يتمّ الثلاثين من عمرهِ · وكان على ثقة من ان حلفاء رومية سيضرمون نار الثورة يوماً ويقومون قومة واحدة لمناوأتها · وهكذا كان فانهُ بعد بضع سنين، هبّت بلدان جنوب ايطاليا والمدن اليونانية، ومن جملتها سرقوسة، وقلبت لرومية ظهر المجن وانحازت الى هنيبال ولم يبقَ احد في الجنوب مناوئاً لهُ الاّ بعض المستعمرات اللاتينية · ومما زاد حالة رومية شؤماً وتعاسة بعد معركة كني، ارسال هنيبال سفراء من قِبلهِ الى مكدونية · وكان عليها في ذلك الوقت ملك اسمهُ فيلبس فلما كاشفهُ السفراء بما في نفوسهم وعدهم بارسال نجدات لمساعدة القرطاجنيين

(٧٩٢) حنكة هنيبال السياسية وسياسة الرومانيين وعزيمتهم

ان كل ما اجراهُ هنيبال من الاعمال الحربية دلّ على اصابة في الحكم واصالة في الراي وبُعد في النظر شأن السياسي المحنك الخبير · زد على ذلك المقدرة الفائقة على القيام بمقتضيات الموقف الحربي · ولكن تلك الغيرة المتوقدة في تلك النفس الكبيرة الفذّة وجدت خصماً شديداً في العزم الروماني الوطيد وفي تلك السياسة الناضجة وذلك النظام الراسخ كالجبال، وفي العدد من الجند الذي لا نفادَ لهُ · فكانت الحرب حرب جبّارين لنيل السيادة على العالم لان المنتصر فيها كان مزمعاً ان يكون، بلا مراء، القوة العظمى في البحر المتوسط ولو كان خلفاء الاسكندر في شرق هذا البحر ادركوا حقيقة هذا العراك العظيم في ايطاليا وكان في استطاعتهم ان يتحدوا على رومية فلربما كانوا سحقوها الى الابد · ولكن المشيخة الرومانية بحنكتها السياسية عقدت محالفة مع اليونانيين واوقدت نار ثورة في بلادهم على المكدونيين وبذلك منعتهم من ارسال نجدات الى هنيبال وهكذا مع انتصارات هنيبال استطاعت المشيخة الرومانية بما أُوتيتهُ من الثبات وحسن القيادة ان تُبقي اواسط ايطاليا محافظة على ولائها لرومية · ومع ان الحال اضطرتها اخيرًا الى تسليح العبيد وصغار الصبيان فانها لم تكف عن تعبئة الجيوش · وبهذا النوع من الجيوش تقدمت لمحاصرة المدن الثائرة التي كانت قبلًا موالية لها، فاستولت عليها الواحدة تلو الاخرى · حتى سرقوسة مع كل ما ابتكرتهُ فكرة ارخميدس من الحيل لانقاذها من الحصار الشديد لم تنجُ من الوقوع بين ايدي محاصريها الرومانيين (٢١٢ ق·م·)

(٧٩٣) خيبة هنيبال في زحفه على رومية (٢١١ ق.م)

ولم يبقَ لهنيبال الاَّ امل واحد وهو الزحف على رومية نفسها . فزحف عليها يحفُّ بهِ رجال حرسهِ الخاص حتى بلغوا الى احد ابواب المدينة العظيمة التي كانت لا تزال كأنها في إبَّان قوَّتها . وربما كان كثيرون من اعضاء المشيخــة يُطِلُّون من فوق الاسوار ويتفرَّسون في طلعة ذلك الشاب القرطاجني الذي القى الرعب في قلوب الرومانيين وهزَّ ايطاليا من اقصاها الى اقصاها كما تفعل الزلازل . ولكنهم لم يبلغوا درجة من الرعب تدفعهم الى التماس الصلح منهُ ولا واساوهُ في شيء على الاطلاق . ولما لم يكن جيش هنيبال كافياً لمحاصرة اعظم مدن ايطاليا ولا كان في طاقتهِ ان يستقدم اليهِ آلات للحصار اضطرَّ هو وجيشهُ الى النكوص على الاعقاب دون ان يقوموا بعمل حربي

(٧٩٤) القبض على النجدات المرسلة الى هنيبال واتلافها (٢٠٧ ق.م)

وبعد ان اقام هنيبال في ايطاليا سبع سنين تحقق ان مساعيهُ ستخفق اذا لم تتداركها نجــدات قوية . وكان اخوهُ (هسدروبال) في اسبانيا قــد جمع جيشاً وشرع يزحف بـهِ الى ايطاليا لمساعدة اخيهِ . ولكن جيشاً رومانيا التقى هسدروبال وجيشهُ فحاربوهم وكسروهم واعملوا في رقابهم السيف فهلك جيش هسدروبال على بكرة ابيهِ (٢٠٧ ق.م.) . وكان نبأ هذا الانتصار حسن الوقع جدًا في آذان المشيخة الرومانية لانــهُ آل الى خلاص ايطاليا وانهزام العدو — الذي لولا قليل لدمَّر رومية تدميرًا — انهزاماً لم تقم لهُ بعدهُ قائمة . واما هنيبال الذي كان يتوقع بذاهب الصبر وصول اخيهِ (هسدروبال) والنجدات التي كان في امسّ الحاجة اليها فكان اوَّل اعلان لهُ بالكارثة التي وقعت عليهِ وقضت على آمالهِ ، رأسَ اخيهِ هسدروبال الذي قذف بهِ رسول روماني الى معسكر القرطاجنيين *

(٧٩٥) تقهقر قوة هنيبال في ايطاليا وقيام شيبيو

وبقي هنيبال بعد ذلك بضع سنين يجاهــد في اقصى جنوب ايطاليا وهو الجزء الوحيد الذي بقي من الاراضي التي استولى عليها في تلك البــلاد . وكانت التجارب الماضية قــد علَّمت الرومان درساً مفيدًا فجعلوا هذه المرَّة قيادة قواتهم الحربية في اسبانيا بيد (شيبيو) الذي كان من خــيرة قوادهم الشبَّان وجنديًا مدرَّباً . وكان قــد هزم القرطاجنيين وطردهم من اسبانيــا طردًا تاما فقطع عنهم بذلك مــدَد موردهم الرئيسي للمال والرجال . واخيرًا رأى الرومان في شيبيو الصفات التي يمتاز بها كبار القواد فانفذتهُ المشيخة — تحقيقاً لرغائبهِ — الى افريقيا ليغزو املاك قرطاجنة فيها كما غزا هنيبال املاك رومية في ايطاليا

(٧٩٦) تصادم شيبيو وهنيبال في زاما (٢٠٠ ق.م) مهارة هنيبال في ادارة الحروب

ولما جاءَت السنة ٢٠٣ ق.م. كان شيبيو قد قهر جنود قرطاجنــة في وقعتين بافريقيا فاضطرَّت قرطاجنة استدعاء هنيبال اليها . وكان قد قضى في بلاد ايطاليا خمس عشرة سنة يجاهد جهادًا شديدًا . وقد طال امر هذا الجهاد حتى وهنت قوى الفريقين المتحاربين ثم قضت

الايام بان تكون افريقيا المكان الذي يُحسَم فيهِ هذا الجهاد نهائيا ٠ فنشبت في زاما بداخلية البلاد المعركة التي قُدِّر لها ان تكون الفاصلة بين الرومانيين والقرطاجنيين ٠ ورأى هنيبال بصدق فراستهِ وبُعد نظره ان لا مناص من انكسار جناحيَ جيشهِ امام جحافل شيبيو المتراصّة، لانهُ لم يكن لدى هنيبال عدد كافٍ من الفرسان ليعزّز جناحيَ جيشهِ الضعيفين مقابل جناحيَ جيش شيبيو القويين ٠ ولما وقع ما كان ينتظره هنيبال من انهزام فرسانهِ امام مطارديهم، فرسان الرومان، وتوارى جناحا كل من الجيشين الروماني والقرطاجني عن العيان عمد الى حيلة سنحت لهُ الآن وهي نفس الحيلة التي اتلف بها الجند الروماني في كني. فسيَّر من وراء صفهِ فرقتين الى جهتين متقابلتين بحيث صار طرفا صف جنودهِ ابعد مدى الى اليمين واليسار من طرفي صف الجنود الرومانية ٠ وقد قصد بذلك ان يُطبق على جنود الاعداء من كل جانب ٠ وكان الآن القضاء المحتوم على احدى الامبراطوريتين متوقفاً على فخ هنيبال الفولاذي الفاغر فمهُ عن جانبي الجيش الروماني لابتلاعهِ فكان نصيب كل من الامبراطوريتين في كفتي ميزان القدر لا يُدرَى اية الكفتين ترجح

(٧٩٧) حركة شيبيو المعاكسة سبب فوز الرومان

ولكن كان وراء الجيش الروماني عقل آخر مثل عقل هنيبال ٠ فان عين القائد الروماني رأت وراء صفوف القرطاجنيين بريق فولاذ يتحرّك فادرك (كنهه) هذه الحركة وتصوّر الخطر الذي كان يهدد جيشهُ ٠ وكان شيبيو بسبب ما وقع في كني قد اهمل التقاليد الرومانية القديمة ٠ فامر الفرقة الامامية من الصف ان تقوم بالمحاربة وحدها دون ان تتوقَّع اسعافاً من الفرَق التي وراءها ٠ وكانت اوامر هذا القائد الشاب الحازم جازمة لا يشوبها شيء من التردد ٠ وهذه هي اوَّل مرّة في تاريخ الحرب تركت فيها مقدمة قلب الجيش الروماني تحارب وحدها دون مساعدة الساقة ٠ ثم انقسم الجنود الذين في مؤخرة الجيش، فذهبت فرقة منهم الى اليمين واخرى الى اليسار بملء التؤدة كأنهم في ساحة عرض الجيوش حتى بلغوا المكان الذي كانت تشغلهُ فرسان الجناحين (الميمنة والميسرة) فوقفوا كلٌّ في مركزه ٠ فلما تقدم جنود هنيبال ليقوموا بحركة الالتفاف التي كانوا مستعدين لها وجدوا امامهم سورًا رومانيا من الفولاذ فاخفق مسعى القائد القرطاجني العظيم وغلبهُ في الحيلة التي هو مبتكرها، قِرنٌ لهُ روماني ٠ واستمرّت المعركة في صفين متوازيَين الاَّ انهما اطول مما كانا اولاً ٠ ولما عاد فرسان الرومان من مطاردة القرطاجنيين وهجموا على جناح العدو رأى هنيبال ان صفوف جيشهِ آخذة في التساقط والانهزام امام العدوّ لا تلوي على شيء راضية بالفرار

نرى في هذه المعركة العظيمة نتيجة تطوُّرات طويلة في فنّ الحرب ٠ من حرب بلا

٧٩٨) فن الحرب الجديد وادارة حركات الجيش في القتال

ترتيب ولا نظام بالمرّة الى فيالق منظمة متراصّة مؤلفة من رجال مدرَّبين تألف منهم اقدم الفيالق الحربية المنظمة في الشرق (ش ٦١) • وهذه الفيالق المتراصّة التي شاع امرها عند اليونان في اوربا، بعد عصر فيلبس والاسكندر، لم تبقَ عند الرومان كما كانت عند اليونان، وَحدة ثابتة غير قابلة التجزئة، بل كانوا يقسمونها الى صف امامي محارب وفرقة من ورائه مؤلفة من ظُهَراء متنقلين يشدُّون ازرهُ • في معركة زاما كان شيبيو وهنيبال قد قطعا مرحلة جديدة في فنّ الحرب وابتدعا اسلوباً كانا يديران بموجبه حركات الجيوش في ساحة القتال • وعلى هذا الاسلوب الجديد كان يُقسم الجيش الذي وراء الصف المقدَّم اقساماً تتنقل بحسب امر القائد كما يتنقل اللاعبون بكرة القدم بحسب امر قائدهم الماهر وكان على رجال الصف الامامي المحافظة على مراكزهم

٧٩٩) المعاهدة التي ختمت بها الحرب الهنيبالية (٢٠١ ق م)

وكان انتصار رومية على قرطاجنة السبب الذي جعل رومية في المنزلة الاولى بين دول العالم القديم قاطبة • وفي المعاهدة التي عقبت معركة زاما أجبر الرومانيون قرطاجنة ان (١) تؤدي لهم في غضون خمسين سنة عشرة آلاف وزنة اي خمسة وخمسين مليون فرنك ذهب (٢) وان تتخلّى لها عن سفنها الحربية ما خلا عشر سفن • والانكى ان قرطاجنة فقدت استقلالها كامّة ولم يعد في طوقها ان تثير حرباً على احد دون رضى الرومانيين • وامست تابعة لرومية وان كانت هذه لم تُلحقها بها مباشرة

٨٠٠) مصير هنيبال

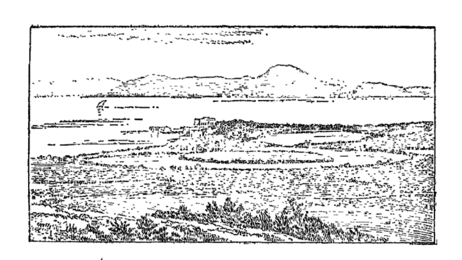
اما هنيبال فبعد هبوط آماله في معركة زاما رضي من الغنيمة بالفرار فلاذ به ونجا • وليس لنا عن سيرة هذا القائد الكبير الاَّ ما نتسقطهُ من افواه اعدائه • ومع ذلك فما رُوي لنا عنهُ يجعلنا نحسبهُ من اعظم القواد الذين حفظ لنا التاريخ ذكرهم • ولما كان لهُ من العمر اربع وعشرون سنة طفق يشن الغارات بقلب لا يهاب الموت رغبة في استقلال بلاده وظل يجاهد في هذا السبيل عشرين سنة بلا ملال ولا كلال • وكان اذا تلظت نار الهيجاء اسداً كراراً شديد الشكيمة والبأس حتى لم يستطع احد ان يقهرهُ الاَّ الامة الرومانية العظيمة • واخيراً اكرهت رومية قرطاجنة على نفي هنيبال من البلاد فذهب الى بلاد الشرق وهو في الخمسين من عمره وما استقرّ بهِ المقام هناك حتى اخذ يحرّض خلفاء الاسكندر على التحالف على رومية

الحرب القرطاجنية الثالثة

٨٠١) تخريب قرطاجنة (١٤٦ ق م) الحرب القرطاجنية الثالثة

كانت مقدرة القرطاجنيين التجارية عظيمة حتى انهم ظلوا مثابرين على السير في خطة النجاح بالرغم عن الجزية الثقيلة التي ضربتها عليهم رومية وبهظت بها عواتقهم • وفوق ذلك كانت سيدة غرب البحر المتوسط ترقب حركات عدوها القديم وسكناته بعين ملؤها القلق

والحذر . ولم يذكر الرومانيون الأعزَّة هجوم هنيبال عليهم الاَّ كان يبدو عليهم شيءٌ من الاضطراب وانزعاج الفكر . وكان (كاتو) احد رجال المشيخة الذين هم من الطراز القديم، مقتنعاً كل الاقتناع ان قرطاجنة لا تزال خطرًا على رومية حتى انهُ كان يختم كل خطبة يلقيها في المشيخة بهذه العبارة « يجب تدمير قرطاجنة » وكان قد انقضى على قرطاجنة خمسون سنة او تزيد في الاشتغال بالتجارة في القسم الغربي من البحر المتوسط بترخيص من رومية . ولكن هذه الاسباب، عادت فقبضت عليها بيد من حديد وقضت عليها القضاء الاخير .



الشكل ١٨٩ موالي قرطاجنة كما هي الآن

لم تبقِ لنا الايام شيئاً من المدينة التي هدمها الرومانيون الاَّ قليلاً لا يعتدّ بهِ . وقد أُعيد بناؤها في حكم يوليوس قيصر ولكن الباقي من آثار هذه قليل جدًّا وربما لو أُتيح لاخربة قرطاجنة بعثة منظمة من المنقبين الخبيرين لكشفوا عن دفائن من آثارها تطلعنا على ما كانت عليهِ من العمران والحضارة اللذين لا نعرف من امرها الاَّ قليلاً

حرَّضت رومية (النوميديين) سرًّا لكي يعتدوا على قرطاجنة فاضطرَّت هذه ان تدافع عن نفسها وهذا ما كان يودّ الرومان وقوعهُ لانهُ اخلَّ بشروط المعاهدة التي كانت بينهم وبينها فاغتنمت المشيخة هذه الفرصة وللحال دعت قرطاجنة لتناقشها الحساب . فكانت نتيجة تلك المناقشة حرب ثلاث سنين سقطت في (١) نهايتها قرطاجنة بيد اعدائها الذين دكُّوها الى الحضيض دكًّا وجعلوها خراباً يباباً (١٤٦ ق.م.) (انظر ش ١٨٩) (٢) وضمَّت رومية املاكها اليها وسمَّتها ولاية افريقيا . وانتهى ذلك العراك الذي دام مئة وعشرين سنة، باضمحلال المنافس الوحيد الذي بقي لرومية في الغرب

(٨٠٣) رومية المسيطرة في الغرب تلتفت الى الشرق

وهكذا انتهى التنافس الرباعي القديم الذي كان بين الاترسكيين والقرطاجنيين واليونان والرومان، بفوز المنافس الذي كان في الاصل قرية حقيرة لا شأن لها واقعة فوق السوق التي كانت قبل زمن التاريخ تقام على نهر التيبر (ف٧٢٧) ويقال من الوجهة الجنسية،

ان الجناح الغربي من الصف الهندي الاوربي تغلّب اخيرًا على الصف السامي (ش ٨٣) واصبح عالم البحر المتوسط الغربي تحت سيادة امة واحدة عظيمة هي الامة الرومانية كما كان العالم الشرقي من هذا البحر تحت سيادة المكدونيين • ولا بدَّ لنا الآن من ان نرجع ونتتبع معاملات رومية للعالم الشرقي الهليني في شرق البحر المتوسط الذي غادرناه بعد ان بلغ اسمى درجات العمران والحضارة التي بلغها الانسان القديم

مسائل

٧٦

ما هما العشيرتان اللتان نظمتهما رومية في ايطاليا ؟ هل كانت ايطاليا بسبب ذلك أُمّة ؟ لماذا ؟ ماذا كانت رومية بالنظر الى المدنية ؟ كيف حدث ذلك ؟

٧٧

اي تأثير كان للتجارة من وجهة نظر الرومان ؟ ما هو البحر المثلث الشكل الذي يصب فيه التيبر ؟ من هو المنافس التجاري العظيم لرومية على نفس هذا البحر ؟ من كان قدماء القرطاجنيين ؟ اية درجة بلغوا في التجارة ؟ اي اقليم كان لقرطاجنة سيادة تجارية عليه ؟ كيف كانت تعامل سفن الشعوب الاخرى في هذا الاقليم ؟ صف تنظيمات قرطاجنة الحربية • هل كان عندها جند من ابنائها ؟ اي صفات خصوصية كانت للدولة القرطاجنية والمدنية القرطاجنية ؟ صف المدينة وضواحيها • ماذا كان جارياً على يونان صقلية ؟ من كان القابض على الشؤون التجارية في غرب البحر المتوسط ؟ أين الخطر الذي تعرَّضت لهُ مسَّانا • كيف كانت قوة الرومانيين الحربية البرية ؟ اشرح التحسينات التي ادخلوها على فيالقهم (الفالنكس) • ماذا كان الغرض من الكتيبة (الليجيون) ؟ ما هو كبرها ؟ هل كان لدى الرومان قواد محنكون ؟ كيف كان تدريب الجند الروماني ؟

٧٨

عند اي نقطة حصل التصادم بين رومية وقرطاجنة ؟ كيف ؟ ومتى ؟ هل كان لدى الرومان قوة بحرية ؟ كيف توصلوا اليها ؟ ماذا كانت النتائج الرئيسية للحرب الصقلية ؟

٧٩

اي اقليم استولى عليهِ الرومان بعد حرب صقلية بامدٍ يسير ؟ اين ذهبت قرطاجنة للتفتيش عن موارد جديدة ؟ من اثار الحرب المقبلة ؟ اشرح خطة هنيبـال الحربية بالاسهاب . اخبر عن زحفهِ على ايطاليا . ماذا كانت النسبة بين عدد جنوده وجنود رومية ؟ ماذا تقول في معرفتهِ الحربية او الجندية ؟ اية حركات سياسية قام بها هنيبال ؟ كيف التقاها الرومان ؟ كيف تصرّفت رومية مع حلفائها الثوار ؟ ماذا فعل اخو هنيبال ؟ ماذا كان يفعل الرومان في غضون ذلك باسبانيا ؟ من هو القائد الروماني الذي كان هناك ؟ صف معركة زاما . اي تقدم في فن الحرب ظهر هناك ؟ ماذا كانت النتائج الرئيسية للحرب الهنيبالية ؟ ماذا جرى لهنيبال ؟ صف خراب قرطاجنة . كم كانت مدة العراك بين رومية وقرطاجنة ؟ من صار الآن سيّد الغرب وزعيمهُ ؟

الفصل الثالث والعشرون

سيطرة رومية على العالم وما صحبها من الانحطاط

٨٠

الفتوحات الرومانية في شرقي البحر المتوسط

(٨٠٣) النزاع بين عالمي البحر المتوسط الغربي والشرقي (الهليني)

وفيما كان خلفاء الاسكندر مثابرين على اثارة الفتن والمكايد والحروب وعقد المحالفات شرقي البحر المتوسط ، كما كانوا يفعلون حتى سنة ٢٠٠ ق.م. ، كانت رومية العظيمة تزيد في الغرب قوة وسناء . وقد تجلت الآن العواقب الخطيرة التي نجمت عن هذه الزيادة في قوة رومية ولا سيما في تبسُّطها فيما وراء البحر . فلم تكن المشيخة الرومانية لتطيق ان ترى حكومة على البحر المتوسط تبلغ درجة من القوة تكون في الآتي خطرًا عليها كما كانت قرطاجنة في اثناء الحروب الهنيبالية . ولهذا السبب واسباب أخرى لا محل لبيانها عقد الجبّار الغربي نيتهُ ان يلقي اولاً ظل سلطتهِ الظليل على العالم الشرقي الهليني ثم يبسط يدهُ ويستولي على الممالك الثلاث الكبرى التي يتولى امرها خلفاء الاسكندر . ولننظر الآن في الاسباب التي ادّت الى القتال

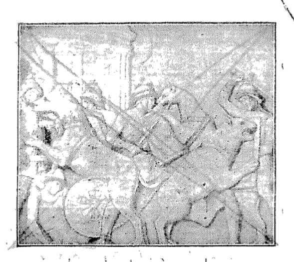
(٨٠٤) اسباب الحرب مع مكدونية

كان هنيبال قد اغرى مكدونية بالاتحاد معهُ على رومية (ف ٧٩١) فلم يستطع الرومان ان ينظروا بعد الحرب الهنيبالية الى هذه الخطة العدائية ويُغضوا عنها . وكان على مكدونية في هذا الزمان ملك على جانب كبير من الذكاء والمقدرة الحربية اسمهُ فيلبُّس كاسم سَلَفِهِ العظيم ، والد الاسكندر الكبير ، الذي جلس على عرش مكدونية قبل هذا الزمان بمئة وخمسين سنة . وقد ملأت الخطط الحربية التي وضعها فيلبس الجديد ، قلوب المشيخة الرومانية همًا وقلقًا . ومن جملة خططه اتفاقهُ مع انطيوخس الكبير (ثالث ملك

بهذا الاسم) على اقتسام املاك مصر بينهما · وبسبب ما اقترفهُ هذا الملك من قبلُ وما كان مزمعاً ان يقترفهُ من الشرّ ضد رومية اذا أُتيح لهُ ذلك، رأى الرومان ان الحال تضطرهم الى توجيه قواتهم شرقاً لسحق فيلبس المكدوني هذا قبل استفحال امره

(٨٠٥) معركة سينوسفلي ١٩٧ ق·م مكدونية تابعة لرومية

لم يكن لحكومات اليونان من باعث يستفزها الى تأييد تسلط مكدونية عليها، وكان انطيوخس منهمكاً في الاستيلاء على املاك مصر في اسية، فلم يسمح لهُ الوقت بارسال اقل مساعدة الى مكدونية· فوجد فيلبس نفسهُ، بعد الحرب الهنيبالية بسنة ، وجهاً لوجه مقابل جيش روماني دون ان يكون بجانبهِ حلفاء اقوياء يعتمد عليهم · وبالنظر الى مهارتهِ في القيادة الحربية استطاع — الى حين — ان يراوغ ويتملَّص من الوقوع في قبضة القوة الرومانية · ثم جاءَت الساعة الرهيبة التي اضطرَّت الفيالق المكدونية الكثيفة المسلحة بالرماح الطويلة ان تقف امام الكتائب



الشكل ١٩

ان هذا النقش الناتئ الذي وُجد في مرسح مرسلس الذي بناهُ اوغسطس ، يرينا لمحة خفيفة من معركة جرت بين الجلادين والوحوش كما شاهدها الرومان تماماً . ولم يكن على ابدان الجلادين الاَّ ثوب يُربط بزنار عند الوسط . ولم يكن لهم من السلاح الواقي الاَّ ترس وخوذة . لاحظ أمارات الالم بادية على وجه الجلاد الذي الى يمين الصورة وقد مزَّقت ذراعهُ براثن الاسد

الرومانية المسلحة بالسيوف القصيرة الفتاكة والمنظمة تنظيماً مكَّن الفرَق التي وراء الصفوف المقاتلة من تغيير مراكزها بحسب الاقتضاء، الامر الذي ربك الجنود المكدونية وحيَّرها لان تنظيمها لم يكن على شيء من اللدونة يمكّنها من مقابلة حركات العدو · ولما نشبت معركة سينوسفلي (رؤُوس الكلب) سنة ١٩٧ ق·م· انكسر جيش مكدونية شرَّ انكسار واصبحت مملكة الاسكندر الكبير القديمة خاضعة لرومية وفي عِداد البلدان التابعة لها · وانعم الرومان على الحكومات اليونانية بالحرية لإنها كانت موالية لرومية

(٨٠٦) النزاع بين رومية والمملكة السلوقية

كانت حرب مكدونية باعثاً على الحرب بين رومية وانطيوخس الكبير، الملك السلوقي، الذي كان تحت سطلتهِ قسم كبير من مملكة الفرس الشاسعة في اسيا، لان انطيوخس حاول ان يغتنم فرصة انكسار فيلبس ويستولي على بعض املاكهِ التي كان الرومان قد

صرّحوا بأنها حرّة . ولم يستطع الرومان ان يفكروا في محاربة هذه الدولة الاسيوية القوية دون ان يخامر قلوبهم كثير من الاهتمام وقلق الافكار . وفضلاً عن ذلك ان هنيبال المطرود من قرطاجنة (ف ٨٠٠) كان الآن في بلاد اليونان مستشاراً لانطيوخس الذي مع نصائح هنيبال لهُ وتوسلاتهِ اليهِ اضاع الفرص التي سنحت لهُ في بلاد اليونان حتى اضطرّتهُ اعمال الكتائب الرومانية وحركاتها الحربية ان يعود الى اسية الصغرى حيث تصادمت اوّل مرّة قوّة الغرب العظيمة وقوات الشرق القديم المؤلفة من شعوب مختلفة تحت قيادة عاهل الفرس في اسية .

(٨٠٧) اندحار انطيوخس في مغنيسيا ١٩٠ ق.م وخضوع مصر طوعاً

وكان القائد الروماني الذي قهر هنيبال في زاما مرافقاً للجيش الروماني بصفة مستشار لاخيهِ — شيبيو آخر — الذي كان قد انتخب قنصلاً لتلك السنة — فكان بالطبع قائداً للكتائب الرومانية ولم يكن لجنود الشرق غير المدرَّبة في فنون الحرب اقل رجاء بالفوز على كتائب رومية تحت امرة قواد محنكين ماهرين بجميع فنون الحرب الجديدة كالاخوين المسمَّى كلٌّ منهما بشيبيو . ففي مغنيسيا غلب الغربُ تحت قيادة رومية الشرقَ تحت قيادة انطيوخس المتواني (١٩٠ ق.م.) وخضعت بلدان اسية الصغرى من جهة الشرق حتى حدود نهر هاليس لسلطان رومية . وبمقتضى المعاهدة التي عقدت بعد ذلك، لم يؤذن لانطيوخس ان يقطع نهر هاليس غرباً ولا ان يرسل سفينة ما حربية الى اي مكان واقع غربي خط طول هذا المكان . وهكذا في غضون اثنتي عشرة سنة (٢٠٠—١٨٩ ق.م.) اخضعت قوات رومية اثنتين من الممالك الثلاث العظيمة التي انقسمت اليها امبراطورية الاسكندر بعد وفاتهِ وهما مكدونية وسورية . واما مصر المملكة الثالثة فكانت صداقتها لرومية من اوّل عهدها متينة العرى وبعد ان ظهرت في العالم الهليني طلائع الجيش الروماني بثلاثين سنة او اكثر قليلاً، صرّحت مصر بولائها وعبوديتها لرومية (١٦٨ ق.م.)

(٨٠٨) ابادة مكدونية واخضاع اليونان

وظلّ عالم البحر المتوسط الشرقي امداً طويلاً — مع انهُ كان قد غُلب على امرهِ — يُقلق راحة الرومانيين جداً . وفي نفس السنة التي دُمّرت فيها قرطاجنة، احرق الرومان كورنثوس وقضي بالطبع على الحرية اليونانية فصارت الحكومات اليونانية التي تتبعنا تاريخ عمرانها المجيد وحضارتها السامية، تابعة لرومية واما اثينا فبالنظر الى ما لها من حسن الذكرى والاحترام أُعطيت حرية اعظم (ف ٦٧٠)

(٨٠٩) عمل رومية العظيم في تنظيم امبراطوريتها

اظهرت المشيخة الرومانية مقدرة ممتازة في ادارة الحروب العظيمة التي تلظت نارها مدة قرن وربع قرن من الزمان (بدؤها ٢٤٦ ق.م.) والآن بعد ان تبوَّأت منصب السيادة المطلقة في عالم البحر المتوسط رأت ان الحاجة ماسة الى ابتكار نظام للحكومة تُجري عليهِ

الممالك التي قهرتها بسرعة مدهشة · وتنظيم امبراطورية كهذه اشبه شيء بالتنظيم الذي قام بهِ بنجاح تام داريوس، منظم امبراطورية الفرس (ف ٢٧٥)، وسنرى ان المشيخة الرومانية قد قصَّرت في سعيها لتنظيم الممالك الجديدة. ولننظر الآن لمحاً الى المساعي الفائلة التي عوَّلت عليها رومية في حكمها للممالك الجديدة ثم نلاحظ تأثير الحروب الطويلة واتساع نطاق الملك في حياة الرومانيين

٨١

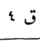
الحكومة الرومانية ومدنيتها في عصر الفتح

(٨١٠) تأسيس ولايات رومانية. السلطة المطلقة. وفساد الولاة

لم يكن للرومان في بدء امرهم خبرة في ادارة احكام البلدان التي افتتحوها فقسَّموها الى ولايات وجعلوا على كل ولاية والياً رومانياً مطلق السلطة كاحد ملوك الشرق · وفوَّضوا اليهِ مسألة جباية الضرائب على اختلاف انواعها في جميع انحاء ولايتهِ · فكان في طاقتهِ ان يجبي من الاهلين ما يقوم بنفقات الجنـود الذين تحت امرتهِ وبسائر النفقات التي اقتضتها مصالح الحكومة · وكانت مدة ولايتهِ سنة واحدة · ولذلك كان شديد الجشع في جمع المال لكي يحشد ثروة قبل انصرام المدة وكان جشعهُ وجهلهُ المطبق لما تحتاج اليهِ ولايتهُ مدعاةً لجعل منصبهِ ذريعة للسلب والنهب · ولذلك رأت المشيخة ان الضرورة تقضي بسنّ قوانين للضرب على ايدي العابثين بالنظام ووضع حد لتاديهم في الاسراف والمنكرات · الاَّ ان هذه القوانين لم تكن لتصلح الفاسد وتحسن الاحوال

(٨١١) ثروة رومية الجديدة

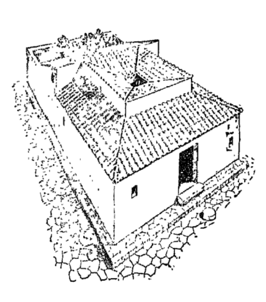
وما لبثت نتائج هذه الاعمال المارّ ذكرها ان ظهرت في ايطاليا فزاد دخل الحكومة الرومانية زيادة فاحشة حتى لم تبق حاجـة لجباية شيء من الضرائب من الرعايا الرومانيين · ولم ينحصر الاثراء في الدولة فقط بل كان للظافرين من القـواد وجنودهم قسط وافر من الغنائم والاسلاب، بل كانت كلها لهم · وفي الوقت نفسهِ كان ارباب التجارة من الرومان يغشَوْن الولايات على رُحبهـا · وكان فيهم جماعة من العشَّارين الذين كانوا يعقـدون مع الحكومة مقاولات على جباية الجزى والضرائب فيربحـون من مقاولاتهم ارباحاً فاحشة · وكانوا احياناً يستأجرون اراضي الدولة ويعملون فيها لحسابهم الخاص · وتبع العشَّارين الى الولايات الرومانية المُرابون الذين كانوا يقرضون سكان الولايات دراهم برباء فاحش · وكان هولاء مضطرّين الى اقتراض المال لكي يؤدّوا الضرائب الباهظـة التي كان يفرضها عليهم



الولاة الرومانيون · وكانت الضربة على البلاد من هولاء المرابين اشد كثيراً من ضربة الحكام الرومانيين الطماعين

(٨١٣) نمو التجارة ونشوء المصارف المالية

وحين رجع هولاء من الولايات الى ايطاليا تألف منهم طبقة تقلبت في مهاد الغنى والسعة لم يشاهد مثلها في البلاد من قبل · ودفعتهم مهارتهم التجارية الى استيراد الكثير من البضائع سداً لحاجة البلاد · فكانت السفن الشراعية الرومانية تملأ البحر من خليج نابولي حتى مصب نهر التيبر وتغشى موانئ رومية · فالذين كانت بايديهم ازمة هذه التجارة اصبحوا من ارباب الثروة · واقتضت ادارة هذه الاموال الطائلة انشاء مصارف وبنوك · وقد كانت المصارف الاولى في رومية في غضون الحرب الهنيبالية عبارة عن صف من الخيام المبنية بغصون الاشجار على جانبي الندوة الكبرى (الفورم) برومية التي كان يتألب فيها الرومانيون للخطابة والبت في المسائل الخطيرة وبعد السنة ٢٠٠ ق · م · قضي على هذه الخيام بالهدم وقام مقامها بناء الباسليقة الجميلة (ف ٦٧٦) الشبيه بالابنية التي شاع امرها في المدن الهلينية (ش ٢٢٣) · وفي الباسليقة كانت تلتئم طبقة الاغنياء الجديدة لتعقد الوثائق المالية وتؤلف الشركات الكبيرة لجباية الجزى والضرائب وعقد وثائق بينها وبين الحكومة لبناء الطرق والجسور (الكباري) وتشييد المباني العمومية

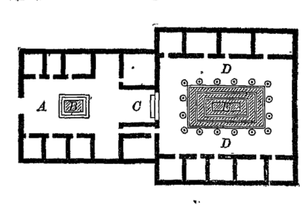


الشكل ١٩١ ضربٌ من البيوت الرومانية القديمة (Atrium)

لم يتوخ الرومان الزخرفة والجمال في مبانيهم حتى واجهات منازلهم كانت عارية من كل ما تزدان به المباني · والنافذة في السقف التي كان يدخل منها النور الى الدار التي كانت تشغل القسم الاوسط من البناء كان يدخل منها ايضاً ماء المطر الذي يقع على جرم سطح المنزل المائل نحوها والماء الداخل منها يصب في بركة معدة له بارض الدار (ش ١٩٢ (B)) · والمشابهة بين هذه المنازل الرومانية القديمة والمنازل التي لا يزال يشيدها حتى الآن سكان البلدان المجاورة لبحر الروم شديدة ظاهرة تمام الظهور اما الجنينة وراء الدار فلم تكن شائعة عند الرومان · الا انهم في الاعصر التي تلت هذا العصر اضافوا الى موخر مبانيهم اروقة مثل الاروقة الهلينية (ش ١٩٣) · ولما زاد الرومان ثروة شرعوا يتنافسون في تكبير مبانيهم وحين غلت اسعار الاراضي صاروا يشيدون المباني طبقات بعضها فوق بعض ويبالغون في اعلائها حتى اضطرت الحكومة ان تسن قانوناً يحدد معظم العلو

٨١٣) منزل روماني غني من الطراز الحديث

وحين كان يعود احد الولاة من افريقيا ويشيد منزلاً جميلاً كان جارهُ الساكن في بيت ابيهِ العتيق يغار منهُ ويستنكف ان يظلَّ ساكناً في ذلك البيت الرثّ القديم المبني باللبن • وكان رومانيُّ العصر الجديد قد شاهد في جنوب ايطاليا منازل اليونانيين وخبر ما يتمتع بهِ اصحابها من الراحة والهناء. فضلاً عن ابتهاجهم بجمال منظرها الخارجي (ف ٦٧٢ و٦٧٣) فلم يلبث ان اضاف الى بيتهِ رواقاً مُعمَّدًا (ش ١٩٢ و١٩٣) ينفتح منهُ ابواب تؤدي الى غرف النوم والطعام والمكتبة والاستراحة. وكان في مؤخرهِ المطبخ وربما كانت هنا غرفة الاكل ايضاً • وصارت الغرفة الوسطى التي تحدق بها سائر غرف المنزل، المكان الذي كان يُظهر فيهِ ربّ البيت ما لديهِ من التماثيل والتصاوير وثمار الفنون، ونفائس غنائم الحرب التي جيء بها من الشرق



الشكل ١٩٣ رسم هندسة منزل روماني ورواقه

كانت المساكن الرومانية الاولى مؤلفة من غرفة واحدة كما ترى عند (A) وبركة يجتمع فيها ماء المطر (B) ثم صاروا يبنون في المؤخر غرفة صغيرة (C) لرب البيت ثم اضافوا عليها بعد ذلك غرفة للنوم . وبعد مخالطتهم لليونان، صاروا ايضاً يبنون في المؤخر دارًا يربون فيها الازهار والرياحين بمثابة حديقة المنزل يحيط بها رواق معمد (ش١٦٣). وكان في الوسط فوارة (E) ثم زادوا على ذلك غرفة للأكل وغرفة للجلوس وغرفاً للنوم يدخلها النور من ابوابها التي تفتح على الدار. وفي منازل المدينة كان يسهل جدًّا فصل جزء من الدار ليجعل دكانًا او صفًّا من الدكاكين امام واجهة المنزل او الى احد جوانبهِ كما كانت الحال في المنازل الهلينية (ش١٦٣) وكان معظم منازل بومباي مبنيًّا على هذا الطراز . والمشابهة بين المنازل الرومانية القديمة والمنازل التي لا يزال يشيدها اهل الشرق ظاهرة كل الظهور

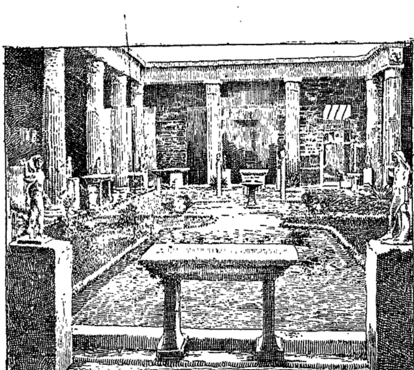
٨١٤) بساطة اثاث منزل الغني الروماني

لم يكن في المنازل الرومانية القديمة شيء من الاثاث الفاخر الذي كانت تزدان بهِ البيوت في الاعصر التي تلت العصور العريقة في القدم بل لم يكن فيها الأَ الضروريُّ من الاثاث البسيط • وكان المعتمدون السياسيون من القرطاجنيين يضحكون حين كانوا يرون في المآدب المتتابعة التي كانوا يُدعَون اليها آنية المائدة الفضية تنتقل من بيت الى بيت بطريق العارية • وقبل الحرب القرطاجنيَّة بامدٍ يسيرٍ غُرّم احد القناصل المعزولين لانهُ وُجد لديهِ من الآنية الفضية ما زنتهُ اربعة كيلوغرامات ونصف كيلوغرام • وبعد ذلك بجيل زمان كان لدى احد اغنياء الرومان من الآنية الفضية ما زنتهُ اربعة آلاف وخمس مئة كيلوغرام • وروُي ان احد القواد الذين فتحوا مكدونية دخل رومية ومعهُ مئتان وخمسون مركبة

مشحونة تماثيل وتصاوير يونانية · والقائد الذي اخضع اليونان غنم خمس مئة تمثال بعضها من البرنز والبعض الآخر من الرخام · والذي دمّر قرطاجنة ملأ رومية بالمنحوتات اليونانية · حتى في مدينة صغيرة كبومباي بلّط احد الاغنياء غرفة الطعام في منزلهِ بصورة فسيفساء تمثل الاسكندر في ساعة العراك (س ١٥٥) · وكانت هذه الصورة قبل ان وصلت الى بومباي تزين ارض احد المنازل الفخمة بالاسكندرية في العصر الهليني · وعلى هذا النمط اخذ الرومانيون يزخرفون منازلهم ويزينونها بانفس الاثاث واجمل انواع السجوف والطنافس المجلوبة من الشرق

(٨١٥) الكماليات في منازل اغنياء الرومانيين

وادخل الرومانيون الى منازلهم كثيرًا من اسباب الراحة التي كانت في منازل الهلينيين (ف ٦٧٢) كالانابيب لجرّ المياه والحمامات واشياء أخرى صحية · وكانت البيوت البالغة درجة تذكر من الاتقان تحوي انابيب فخار لنقل الهواء الحار الى الغرف المهمة في المنزل · وهذا اقدم نظام للتدفئة بلغ اليهِ الانسان وكان في المطبخ كثير من اواني البرنز انفس من التي تشاهد في مطابخ هذا الزمان (ش ١٩٤)



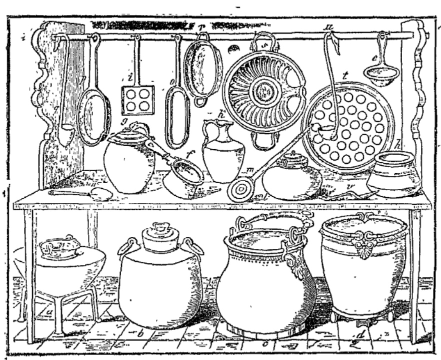
الشكل ١٩٣ رواق منزل في بومباي

لنتصوّر انفسنا واقفين وظهورنا مدارة الى جهة الغرفة التي في المركز (وراءنا تمامًا الغرفة (C) في ش ١٩٢). فيكون نظرنا متجهًا الى الدار والحديقة (١٩٣ (B)). وقد وجد المنقبون في اخربة بومباي الموائد والتماثيل والنافورة والفسقية في الوسط. وجميع هذه الاشياء مصنوعة من الرخام الناصع. ولا تزال في مراكزها مغطاة بحمم بركان ازوف منذ الف وثماني مئة سنة (ش ٣٠٩) هنا كانت تعيش العائلة وهنا كان يلعب الاولاد حوالي الدار متمتعين بمرأى الازهار وموسيقى المياه المنبعثة من النافورة

(٨١٦) كثرة الخدم في البيت ولا سيما من العبيد

واستدعت عيشة الرفاهية والرخاء وجود عدد كبير من الخدم في المنزل. فكان على الباب الكبير عند المدخل بواب وكان لكل عمل صغير في البيت خادم خصوصي حتى فرك جسم رب البيت بعد الحمام كان له خادم خصوصي ايضاً وكثيراً ما كانوا يستخدمون العبيد للخدم الدنيئة ولكن وجود الطهاة لم يكن امراً سهلاً . وكان الروماني الغني يؤدي خمسة وعشرين الف فرنك ذهب اجرة طاهٍ يجيد الطبخ

(٨١٧) الفن اليوناني في رومية وتأثيرها الجميل



الشكل ١٩٤ ادوات مطبخية من البرنز وجدت بين انقاض بومباي بايطاليا

لما نبش المنقبون هذه الادوات المطبخية وجدوها موضوعة في اماكنها في المطبخ ومكتوباً على كل قطعة منها بعض احرف ويفيد التلميذ ان يعمل قائمة باسمائها ويذكر بقدر الامكان الغرض من كل واحدة منها

وفي الجملة، كان لعيشة الرفاهية والترف التي دخلت من الشرق، تأثير سيئ في الاخلاق ولكنها في الوقت نفسه ايقظت الرومانيين ونقلتهم الى حياة جديدة ارقى جداً من حياتهم الاولى. وقد تمَّ ذلك كلهُ بتأثير ما ابتدعتهُ العبقرية اليونانية من روائع الفنّ . فابتدأت مباني العصر الهليني تتجلَّى في رومية. وقبل ان ينقضي رَدَح من الزمان شُيّد مرسح على الطراز اليوناني وزاد عليهِ الرومان اشياء جديدة صيَّرتهُ احسن مما كان قبلاً . ومن تلك المزيدات مظلّات تقي من فيهِ حرَّ الهجير، وستار في مقدَّم الدكَّة كالسُتُر التي تستعمل في هذه الايام، ومقاعد للجلوس في دائرة جوقة الموسيقيين حيث كان المرتلون اليونانيون قديماً ينشدون اغانيهم (ش ١٤٣)

(٨١٨) اندرونيكس وترجمة الآداب اليونانية الى اللاتينية

وكان في رومية عند ختام الحرب الصقلية (٢٤١ ق.م.) عبدٌ اسمهُ اندرونيكس كان قد اعتقهُ سيدهُ فاصبح حرًّا . فهذا اذ رأى شغف الرومان بالآداب اليونانية شمّر عن ساعد الهمّة وشرع في ترجمة الاودسي (ف ٤١٣) الى اللسان اللاتيني لتكون ترجمتهُ هذه كتاباً مدرسيًّا للاولاد الرومانيين . ثم ترجم للكبار المآسي اليونانية التي كانت تمثَّل قديماً في اثينا (ف ٥٥٤) وكثيرًا من الروايات الهزلية الاتيكية (ف ٥٥٧) فكان هذا العبد الفاضل اوّل اديب في التاريخ توخّى ترجمات فنيَّة صقلها الادب وجلاها حسن الذوق . فكان بذلك مؤَسس فنّ ترجمة الآداب . وابتدأت موادّ الآداب اليونانية على اختلاف مناحيها تدخل الحياة الرومانية بطريق الكتب التي ترجمها ذلك العبد الاديب

(٨١٩) تأثير العوامل اليونانية في التهذيب الجديد في رومية

اعتاد الرومان ألاَّ يهتمُّوا كثيرًا بامر تعليم اولادهم . ولم يكن عندهم في بادىء الامر مدارس لتعليمهم ولكن بموجب عادة رومانية قديمة كان على كل والدٍ ان يعلّم اولادهُ . وهكذا ثابر الآباء على هذه العادة الحميدة الى ان قام جماعة من العبيد اليونانيين المحرَّرين واخذوا يفتحون في رومية مدارس لتعليم الصغار فصار الآباء يرسلون اولادهم اليها . وكان في بعض البيوت عبيد متهذبون مثل اندرونيكس فشرع هولاء يعلمون اولاد الأسر التي يقيمون بينها . وكان الاعتماد في التعليم على الكتاب الذي اعدَّهُ اندرونيكس لتعليم مبادىء القراءة . وكان يؤُمُّ رومية بين حين وآخر بعض مشاهير رجال العلم من اليونانيين لالقاء محاضرات على مسامع الجمهور فيُقبل عليها الراغبون في التهذيب اقبال الظماء الى الماء . وكثيرًا ما كان الشبان الرومانيون يقصدون الى اثينا نفسها لاتمام دروسهم العليا فيها

(٨٢٠) نفوذ اليونانيين المتعلمين في رومية . بوليبيوس

وبعد استيلاء رومية على بلاد اليونان زاد امتزاج اليونانيين بالرومانيين . وتوثَّقت بينهم عُرى الالفة والوئام وكان بين الالف اليوناني الذين أُتي بهم رهائن الى رومية — وكلهم من اكابر واعيان بلادهم — رجل فذّ على جانب كبير من العلم والفضل ودماثة الاخلاق يدعى بوليبيوس . واتفق حين وصولهِ الى رومية أن حلَّ ضيفاً في بيت شيبيو واخيهِ اللذين حظي عندهما ورافقهما في حملاتهما الحربية وكان معزَّزًا مكرماً . وقد شاهد بام عينهِ خراب قرطاجنة وكورنثوس وكتب تاريخاً خالدًا للحروب الرومانية باللغة اليونانية . وكان للجماعة الراقية من اليونان نفوذ كبير بين المتنورين من الرومان كشيبيو واخيهِ . ومما رواه بوليبيوس في تاريخهِ عن احراق قرطاجنة انهُ وقف بجانب شيبيو الاصغر ينظر الى السن النار المندلعة والدموع تسح من عيني سيدهِ الروماني الشاب . وقد اقتبس بوليبوس في تاريخهِ ما قالهُ هوميروس في تدمير طروادة

(٨٣١) نشوء الآداب اللاتينية تحت تأثير عوامل يونانية

وبعد ان اطلع الرومان على الآداب اليونانية — وهي الوحيدة المعروفة عندهم — واكثروا من الامتزاج بالجماعات المتهذبة الراقية من اليونان وتمادوا في عشرتهم بالليل والنهار نشأ فيهم ميل شديد الى تحدّيهم والنسج على منوالهم في التعابير البليغة فنبغ في ايطاليا رهط من الشعراء والمؤرخين واصبح في استطاعة الروماني المهذب ان يطّلع على مفاخر اسلافهِ الغابرين مدوّنة في قصائد حماسية ضافية منسوجة على منوال اشعار هوميروس . وعلى تمادي الايام أُدمجت الحكايات الجميلة التي تروى عن رومية — في اوّل عهدها — بقالب من الشعر القصصي البليغ . ومن تلك الحكايات ، حكاية رومولوس وريمس وما ضارعها من القصص المبهجة عما جرى في عصر الملوك الاولين . وقام من الرومان جماعة من كتبة الروايات الذين نهجوا منهج الروائيين اليونانيين وكتبوا روايات هزلية انتقدوا بها الهيئة الاجتماعيّة الرومانية انتقادًا مرًّا باسلوب هزلي مضحك وكان الرومان يُصغون الى تلك المهازل بملء الرضى والابتهاج وضجيج الاستحسان

(٨٣٢) نشر الكتب والمكاتب والطبقة المهذبة

ولما ازدهرت الآداب الرومانية ، توافر عدد الدروج الحاوية المؤلفات اللاتينية الجديدة ، وذاع امرها في رومية . ولما كثرت الكتب نشأ جماعة عنوا بنشرها فاستخدموا عبيدًا قاموا بنسخها . وحين عاد احد الغزاة الرومانيين من حملتهِ على مكدونية احضر معهُ كتب ملكها وأسس اوّل مكتبة خصوصية في رومية . واصبح اغنياء الرومانيين ، بعد ذلك ، حين تشييدهم منازل جديدة ، يحسبون للمكاتب حساباً فيعينون لها غرفاً مخصوصة . ونشأت طبقة من اهل الادب كان من ضمنها افضل القواد الرومانيين . ولم يكن يسوغ لاحد ان ينتمي الى هذه الطبقة الراقية ما لم يكن لديهِ مكتبة مملوءة بانفس الكتب اللاتينية واليونانية . وكانت هذه الطبقة المتهذبة تحسن استعمال اللغة اليونانية كما تحسن استعمال اللاتينية . وتكوّن بين هذه الطبقة الراقية من الرومان والطبقة الجاهلة هوّة عظيمة لم يكن لها وجود في اوّل عصر الجمهورية ايام كانت البلاد في طور الزراعة وسكانها من طبقة الفلاحين

٨٣

الانحطاط في المدينة والقرى

وقد صحب حياة الحضارة اليونانية الجديدة وترفها شرورٌ كثيرة . فدفعت الحمية الوطنية رجلًا من الطراز القديم اسمهُ (كاتو) كان اصلب قومه عودًا فانضمَّ اليهِ جماعة من

(٨٣٣) العوامل المفسدة في حياة الترف الجديدة . قوانين ضد التبذير

اضرابهِ الرومانيين الى التضافر على سن قوانين لمقاومة الاسراف على اختـلاف اشكالهِ ومناحيهِ كافراط السيدات في التنافس في اقتناء الحلي والجواهر الثمينة وركوبهن المركبات الى الاماكن التي كنَّ يذهبنَ اليها سعياً على الاقدام . ولكن قوانين كهذه لم تكن الحاجز الحصين الذي يصدُّ الناس عن السير وئيـدًا الى مزالق الفساد ومهاوي الرذيلة . وقد دالت الايام التي ازدهرت فيها الاخلاق الرومانية وامست في خبر كان . وظلت قوة رومية تزيد مع كرور الزمان ولكن دون ان يرافقها من جانب الفضيلة الرومانية القديمـة وازع يردُّ الناس عن ارتكاب الرذيلة ويكبح جماحها

(٨٣٤) المجالدات وتأثيرها السياسي

وقد كان هذا الامر بادياً بنوع خصوصي في حياة الطبقة الامية والصعاليك الذي مالوا الى المدنية اليونانية كما مالت الاكثرية الساحقة من سائر الطبقـات الاخرى الى ما في تلك الحضارة من دواعي الترف ورغد العيش . فلم يفقهوا المعنى الحقيقي لها . وفي اوائل الحرب الصقلية بين رومية وقرطاجنة أُدخلت عـادة اترسكية قديمة وهي المجالدة الفردية بـين المجرمين المحكوم عليهم او بين العبيد الذين كانوا يتضاربون بالسيوف احتفاء بمأتم رجل من كبار الرومانيين . ودُعي هولاء (مجالدين) وكان بعض الموظفين الذين يقومون بتدبير حفلات الاعياد العموميـة ينظمون لوائح مطولة يعينون فيها جماعـات من هولاء المجالدين ليقوموا بالمجالدات تسلية للجماهير المتألبين ورغبة في نيل اصواتهم وقت الانتخاب للوظائف العليا . وكانت هذه الالعاب الدموية البربرية تجري اولاً في اماكن موقَّتة توضع فيهـا بعض مقاعد للجلوس . ولكنهم بنوا لهـا بعد ذلك مباني حجرية مخصوصة مدرَّجة سموها «امفيثياترات» ثم اضافوا الى هـذه العادة عادة أُخرى وهي المصارعة بـين المجالدين والوحوش . ثم انشأ الرومان ميادين عظيمة لسباق المركبات تحيط بها مقاعد جمة يجلس عليها المتفرجون دعوها « مضامير »

(٨٣٥) توزيع الحنطة مجاناً على الفقراء والرشوة

وانحطَّ عامة الشعب في رومية تدريجاً وهانوا وألفوا هذه المشاهد المذكورة آنفاً الـتي كانت احياناً تدوم اياماً واعتقدوا كما لُقِّنوا انها نصيبهم من غنائم الفتوحات العظيمة . ولما اشتدَّت الفاقة اهتمَّت الحكومة بتوزيع الحنطـة عليهم بصورة قانونيـة ولم يكن الضرر الذي نجم عن هذه العادة على رداءتها شيئاً في جنب ضرر الرشوة التي كان يمارسهـا خفيةً المرشحون للوظائف . وقد سنت قوانين لاستئصال شأفة هذه العادة ولكنها لم تأت بالفائدة المنتظرة بل كان تأثيرها مما لا يؤبهُ لهُ . وكان حق التصويت بين الرومانيين محصورًا في الذين كان يجوز لهم حضور المجامع السياسية في رومية . فاذا ما رام احد طلاب المناصب القبض على ازمة الاحكام في الدولة التي دانت لها المسكونة باسرها لم يكن عليهِ الا ان يرشو

جماعة قليلة العدد من الرعايا الرومانيين الذين كانوا اعضاء في المجامع السياسية

(٨٣٦) النفقات في سبيل الخطط السياسية

وكانت نفقات الخطط السياسية هائلة جداً . فكان الشاب الروماني الذي يهوى الانخراط فيها يضطرُّ الى اقتراض دراهم ليؤدي نفقات المجالدات الكثيرة فضلاً عما كان يؤديه رشوة للمنتخبين وحين كان ينتخب للمنصب الذي يطمح اليهِ لم يكن يقبض راتباً بدل خدمتهِ بل كان مضطراً ان يقوم بنفقات الكتّاب الذين يقومون بالعمل الملقى على عاتقهِ في منصبهِ الجديد

(٨٣٧) المنافسة الشخصية وصفات الولاة الراجعين الى رومية بعد انتهاء اجل ولايتهم

وكان رجل السياسة الروماني يطلب الوظيفة الآن ليتمكن بها من الحصول على النفوذ الذي يبوّئهُ حاكمية ولاية غنية . وحين رجوع احد هولاء الولاة الى وطنهِ بعد انتهاء مدة ولايتهِ لم يعش عيشة ذلك الروماني الساذج في الايام القديمة الطيبة بل كان يعيش عيشاً ملكياً محفوفاً بجميع ضروب التنعم والترف . وقد كان هولاء النفعيون الذين كان بايديهم زمام القوة العليا في ولاياتهم خطراً على الجمهورية لانهم كانوا قد ذاقوا لذّة سلطة الملوك بلا وازع الشريعة الرومانية ولا قيود نُظُم الجمهورية

(٨٣٨) اتساع العقارات الكبيرة وأخذ المزارع الصغيرة

لم تكن شرور الغنى الحديث النشأة اقلَّ ظهوراً خارج رومية مما كانت داخلها . وبما انهُ لم يكن في نظر الرومانيين لائقاً ان تتعاطى مشيختهم ونبلاؤهم التجارة ولا الاشغال الاخرى، لانهُ كان عندهم اشرف مظاهر الثروة العقارات، اخذ نبلاؤهم وارباب الاموال الطائلة منهم يشترون مزرعة صغيرة اثر أخرى ويضمونها بعضها الى بعض فيتكوّن منها مزرعة كبيرة جداً شاسعة الاطراف . ولم يبقَ من تلك المزارع الصغيرة القديمة الاّ نزرٌ مبثوث هنا وهناك . هذه كانت حال مناطق كبيرة من بلاد ايطاليا فاضمحلت فيها المزارع الصغيرة كما اضمحلت قبل ذلك في بلاد اليونان (ف ٥٨٥)

(٨٣٩) استعباد اسرى الحرب

وكان يستحيل على ارباب الاملاك الاغنياء ان يديروا العمل في عقاراتهم الواسعة باستئجار عَمَلة احرار . ولم يكونوا مجبرين على ذلك لانهُ من الحرب الهنيبالية فما بعد كانت الفتوحات الرومانية ينابيع تدفقت منها على ايطاليا أُسارى الحرب الذين كانوا يباعون عبيداً . ولم تكن حياتهم في العقارات التي أُخذوا اليها ليعملوا فيها بارقى من حياة البهائم . وكانوا يُكوَوْن بمياسم محماة بالنار فيبقى الوسم علامة ابدية يُعرفون بها . وكان سادتهم يضعونهم ليلاً في سُكن وفي النهار يساقون الى الحقل كدواب الحمل ليعملوا فيها . ولما نقص عدد اسرى الحرب صارت حكومة رومية تغضُّ الطرف عن اعمال النخّاسين الذين كانوا يخطفون الاولاد من بلاد الجه وشرق البحر المتوسط ويبيعونهم عبيداً . فداوموا على

هذا العمل الشرير سنين كثيرة

(٨٣٠) ثورات العبيد والتشويش

وامتلأت ايطاليا وصقلية من العبيد الذين اقلقوا البلاد بالثورات التي كانوا يقومون بها من جرّاء المعاملة السيئة الوحشية التي كانوا يعاملون بها في انحاء مختلفة من ايطاليا . واما في جنوب صقلية وأواسطها فتجمّع نحو ستين الفاً منهم وقاموا على سادتهم وقتلوهم واستولوا على المدن والقرى واسّسوا مملكة . فاقتضى اخضاعهم جيشاً رومانياً بقيادة قنصل روماني وحرباً دامت بضع سنين

(٨٣١) العداء بين الاغنياء والفقراء وخصوصاً صغار المزارعين

وفي غضون ثورة العبيد في صقلية قام اصحاب الحقول الاحرار واخذوا يحرقون المزارع الكبيرة والدساكر التي انشأها كبار الملاكين من ارباب الثروة في البلاد فكانت ثورة العبيد مظهراً للضغائن الكامنة في الصدور ليس بين العبيد والاغنياء فقط بل بين هؤلاء وبين الطبقة الفقيرة من الاحرار ايضاً — فكان الملاكون الكبار مبغضين من العبيد والاحرار على السواء . فالفتوحات العظيمة والثروات الطائلة التي دخلت البلاد بواسطتها جعلت الغنيّ اغنى جدًّا مما كان والفقير اشدّ فقراً فتكوّن بين الفئتين هوة عظيمة لا يمكن اجتيازها وفقدت بينهما الشركة في العواطف . فانقسمت بذلك الهيئة الاجتماعية الايطالية الى صفين كبيرين صف الاغنياء وصف الفقراء وبينهما من الاحقاد والضغائن ما لا يوصف . وقد كان معظم سكان ايطاليا كما رأينا قبلاً من صغار المزارعين . فلننظر الآن في تأثير الحروب العظيمة على هؤلاء المزارعين

(٨٣٢) اتلاف المزارع والحياة المزرعية في ايطاليا بسبب الحرب .

ظهرت لنا الحرب بمظهر العظمة والمجد حين كنا نتتبّع انتصارات هنيبال الباهرة وفوز شيبيو العظيم في زاما . ولكننا اذا نظرنا الى الوجهة الاخرى نرى انهُ لم تتجلَّ في عصر من عصور التاريخ نتائج الحرب المخيفة والنفقات العظيمة المبذولة في سبيل نيل المجد العسكري كما تجلّت في ايطاليا . فقد غادرت الحرب الهنيبالية جنوب ايطاليا قاعاً صفصفاً وكثيراً من اواسطها في حالة احسن قليلاً من حالة الجنوب . واهملت هذه المناطق المخرَّبة بالمرَّة فلم تعد تعمر ولم تفلح بل صارت مسرحاً للماشية ومرعىً للبهائم . واما في المناطق التي لم تمسّها يد الحرب المدمّرة فقد غاب الآباء وابناؤهم البالغون سنين عديدة عن بيوتهم في الخدمة العسكرية يخوضون المعارك التي جعلت رومية سيدة العالم . وحين كان يعود الواحد منهم الى بيته لم ترقهُ اشغال الحقول المتعبة المملّة في وطنه بعد خوض غمرات الحروب في الخارج . فتقوّضت بذلك اركان الحياة البيتية ورأت الامهات اولادهنّ يغادرون الحقول الواحد بعد الآخر حتى امست قفراً بلقعاً

وكثيراً ما كان يتفق للجندي حين عودتهِ الى ارض ميلادهِ ان لا يرى للمنزل الذي

(٨٣٣) اصحاب المزارع الكبرى الاغنياء يبتاعون المزارع الصغرى

آواهُ في ولوديتهِ عيناً ولا اثرًا ويجد عائلتهُ قد تشتت شملها ومزرعتهُ الصغيرة بيعت من احد الاغنياء ، ايفاء للدين ، وضُمَّت الى مزارعهِ الكبيرة التي كان الروماني قد رأى امثالها في ضواحي قرطاجنة (ف ٧٦٩) ويجد ايضاً ان جيرانهُ قد غادروا وطنهم بعد ان بيعت حقولهم توسيعاً لاملاك الاغنياء الذين ابتاعوها · فيلعن ، اذ ذاك ، الغنى الذي كان مجلبة لجميع هذه الاضرار · ويؤمُّ المدينة العظيمة حيث تقدَّم لهُ الحنطة مجاناً من لدن الحكومة ويحضر الالعاب والمسابقات ويزيد في عدد الفقراء

(٨٣٤) عجز الفلاح عن مباراة العبيد في العمل وتأخر الزراعة في ايطاليا

واذا والاهُ الحظ واتفق ان وجد بيتهُ وحقولهُ لم تصب بضرر فلا يلبث ان يرى جماعات العبيد القائمين بحراثة وزراعة المزارع الكبرى يُنتجون الحنطة بنفقة اقلَّ من التي يبذلها هو في سبيل انتاجها فاذا ما باع غلّات ارضهِ وجد ان مجموع ثمنها غير كافٍ للقيام بنفقات عائلتهِ · وفي الوقت نفسهِ كانت اسواق ايطاليا تكتظُّ بكميات الحنطة الرخيصة الثمن الواردة اليها من صقلية وافريقيا ومصر فتضطرهُ الحال الى بيع مزرعتهِ الصغيرة ومغادرة وطنهِ واللياذ برومية حيث كان يجد الوفاً والوفاً من اضرابهِ بلا مأوى يقاسون مضض الفاقة ومرارة العيش معتمدين في تحصيل القوت الضروري على الحكومة · هولاء هم الذين كانوا فيما مضى اصحاب الاراضي الزراعية وعماد الامة الرومانية الذين كانت تنظم منهم اعظم جيوشها وافخرها · هولاء هم الذين كانوا قوام تلك القوة التي اسَّست عليها المشيخة الرومانية مملكتها الشاسعة الاطراف البعيدة الاكناف · هولاء هم الذين كانوا لرومية كل ما ذكرنا نراهم الآن صائرين الى البوار والاضمحلال

(٨٣٥) الانخفاض الزراعي والاقتصادي في بلاد اليونان

لقد كان للقوة والثروة اللتين بلغتها رومية بتسلطها على المسكونة اسوأُ تأثير فيها لانهما جرَّاها الى شفا جُرف الهلاك · ولم تكن الحال في معظم مناطق الدولة الرومانية خارج ايطاليا حتى في ارقاها مدنية ، ولا سيما في بلاد اليونان ، احسن مما كانت في ايطاليا . فان فلّاحيها — تحت نظام المزارع الكبرى الذي دخلها من اسية حيث نشأ في ايام الفرس (ف ٢٧٧) — كانوا قد تلاشوا كما كان فلاحو ايطاليا آخذين الآن في التلاشي · أضف الى ذلك الغصب والاختلاس اللذين كان يرتكبها الحكام وجُباة الجزى والضرائب ، وغزوات لصوص بحر ايجه النخاسين الذين لم تستطع الجمهورية ان تضرب على ايديهم وتمنعهم عن النهب وخطف الاولاد ، وتحوُّل التجارة اليونانية شرقاً (ف ٦٦٨) اضف كل ذلك تجد الاسباب الكافية لقتل الاعمال التجارية والزراعية ، والقضاء المبرم على آمال العالم اليوناني وتقدمهِ · وفي الوقت نفسهِ كانت علامات التقهقر والانحطاط بادية كل البدإ على تلك المدنية السميا التي كان قد بلغها العالم الهليني (فصل ٢٠)

(٨٣٦) تقصير حكومة شرق البحر المتوسط الرومانية، وقف المدنية لخطر

كان الآن القسم الشرقي من البحر المتوسط وطن المدنيـة اليونانيـة كما كان القسم الغربي منهُ وطن المدنية الرومانية. ولكن تقصير المشيخة الرومانية في تنظيم حكومة موافقة للامبراطورية التي افتتحوها — حكومة مثل حكومـة بلاد الفرس تحت حكم داريوس (ف ٢٩٤) — هذا التقصير، قد جرَّ جميع بلدان البحر المتوسط ومدنياتها الى حافة الدمار. وفضلاً عن ذلك كان يسمع الآن من وراء التخوم الالبية ضجيج حركات برابرة الشمال الذين كانوا يتهددون بالزحف والتدمير ذلك العمران الذي شيدهُ تدريجياً بنو المشرق واليونان والرومان في بلدان البحر المتوسط في غضون ثلاثة آلاف سنة. وقد كانت جميع الامارات تدلُّ على قرب اضمحلال الدولة الرومانيـة وزوال العمران الذي استمرَّ قروناً متعاقبة في حال النشوء والتطوُّر. أفكان الانسان المتمدن مزمعاً حقيقة ان ينقرض عن وجه الارض او كانت الدولة الرومانية قادرة ان تعيش اكثر وتقي ذلك العمران من الخراب

(٨٣٧) تقصير الحكومات المدنية في السدواسة الامبراطورية

كانت رومية حكومة مدينية وكان بطلان هذا الضرب من الحكومة الضيق النطاق، وعدم نفعهِ وكفايتهِ لتنظيم مملكة كبيرة واحسان ادارتهـا من الامور التي لا تحتاج الآن الى برهان لانها قد تبرهنت مراراً كما تبرهن بطلانهُ في الجمهورية الرومانية وعدم صلاحيتهِ لادارة احكام عالم البحر المتوسط الفسيح الارجاء. ولكن هل كان في الامكان تحويل هذا النوع من الحكومة الضيّق النطاق الى حكومة امبراطورية تصلح لادارة الاحكام بين الشعوب والامم المحيطة بالبحر المتوسط مع ما فيها من تعدُّد المناصب والوظائف وهل كان في الامكان ان تكون هذه الامبراطورية لعالم البحر المتوسط ما كانتهُ الامبراطورية الشرقية لعالم غرب اسية ومصر الذي لا يقل اتساعاً عن العالم الروماني

(٨٣٨) مسؤولية رومية في تنظيم وحماية ومدنية عالم البحر المتوسط

نقف الآن حيال النقطة التي اخذت عندها المدنية الهلينية بالتقهقر وهي خراب قرطاجنة وكورنثوس (١٤٦ ق·م·) ونأخذ في مراقبة الشعب الروماني في اثنـاء جهاده في معالجة ثلاث مشكلات في وقت واحد. الاولى النزاع الداخلي القتّال الذي رأينا قبـلًا انهُ كان على وشك الوقوع بين الاغنياء والفقراء. والثانية تنظيم حكومة رومانية صالحـة لادارة الشؤون في عالم البحر المتوسط مع وجود التحوُّل الداخلي المخيف جاريـاً مجراهُ. والثالثة هجوم برابرة الشمال في إبان هذه الاحوال الخطيرة. وبالرغم من كل هذه الاخطار التي كانت تتهدد الرومانيين نراهم قد نظموا حكومتهم على نمط جديد مكّنهـم من صد برابرة الشمال ومن المحافظة على الحدود الشمالية خمس مئة سنة أخرى، ووقـاية التمدن الذي مرَّت عليهِ قرون وهو يسير على رِسلهِ حتى بلغ ما بلغهُ من الرقيّ. هذا التمدن قد اصبح بهذه الوقاية ميراثنا اليوم. فهذا العمل الخطير الذي قامت بهِ رومية سيكون موضوع درسنا في ما بقي من فصول هذا الكتاب

مسائل

٨٠

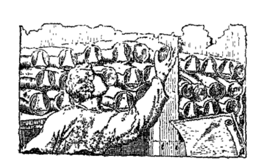
ماذا كان مزمعاً ان يكون موقف رومية كسيدة عالم البحر المتوسط الغربي ازاء الامم الاخرى التي تنتمي الى هذا البحر ؟ لماذا كانت الحال تقضي على رومية باخضاع فيلبس المكدوني ؟ صف القتال بين رومية ومكدونية . باية امبراطورية شرقية اتصلت رومية بعد بسط سلطتها على مكدونية ؟ صف القتال بين رومية ومملكة سلوقية . ماذا جرى حينئذ لمكدونية ؟ ولليونان ؟ اية مدينتين فاخرتين هدمها الرومان في سنة واحدة ؟ صف واجب الحكومة الذي كان الآن امام رومية

٨١

هل كان للرومانيين خبرة في ادارة احكام الولايات في الخارج ؟ صف حكم حاكم روماني اعتيادي ؟ ماذا تستطيع ان تقول عن زيادة الثروة الرومانية ؟ ماذا كان تأثير ذلك على الاعمال في رومية ؟ ما هو نوع المنزل الذي كان الروماني يقيم فيه اولاً ؟ اي نوع بنى الآن ؟ ماذا كان اثاثهُ ومن اين كان يؤتى بالاشياء النفيسة التي كانت فيه ؟ ما هي المقابلة بين الحالة الآن والحالة قبل الحروب القرطاجنية ؟ ماذا تقول في الخَدَم الذين كانوا لدى أُسرة مثرية ؟ صف تأثير اشغال الفن اليوناني في رومية . هل كان بين رجال الفن الرومانيين من يضارع رجال الفن اليونانيين ؟ قل كيف صارت الآداب اليونانية معروفة في رومية ؟ ماذا كان تأثير اليونانيين المتهذبين في التعليم في رومية ؟ قل ما تعرفهُ عن بوليبيوس . كيف نشأت الآداب اللاتينية ؟ ماذا تعرف عن المكاتب والطبقة المتهذبة من الرومان ؟

٨٣

اي تأثير احدثته عيشة الترف في الحياة الرومانية ؟ صف نشوء المجالدات . ماذا تستطيع ان تقول عن نفقات الخطط السياسية ؟ ماذا كان يجري على المزارع الصغيرة ؟ صف الاسترقاق في المزارع الكبرى . صف ثورات العبيد . صف تأثير الحروب على صغار الفلاحين وتأثير المزارع الكبيرة وحنطتها الرخيصة . صف حالة ايطاليا بوجه الاجمال . صف حال بلاد اليونان والعالم الايجي . كيف كانت حال المدنية الهلينية بوجه الاجمال ؟ كيف كانت حالة الزعامة الرومانية من النجاح في عالم البحر المتوسط حتى الآن ؟ هل كانت الحكومة المدينية ذات نظام يوافق حكم امبراطورية عظيمة ؟ ما هي المشكلات الثلاث التي كانت ماثلة امام الحكومة الرومانية في ايطاليا اولاً وفي جميع عالم البحر المتوسط ثانياً وعلى الحدود الشمالية والشرقية ثالثاً



الشكل ١٩٥

يرينا هذا الرسم زاوية من زوايا مكتبة رومانية فيها الكتب كلها بهيئة دروج (ش ١٤٤) مصفوفة بحسب مواضيعها في طاقات . واطرافها بارزة الى الخارج مربوطة بها بطائق مكتوبة عليها عناوين الكتب لكي يتمكن مدير المكتبة من وجود اي كتاب كان بالسرعة اللازمة ، وارجاعهِ الى الرفوف ووضعهِ في محلهِ المخصوص كما تراه في هذا الرسم

الفصل الرابع والعشرون

قرن الثورات ونهاية الجمهورية

٨٣

مشكلة الاراضي وبدء النزاع بين المشيخة والعامة

(٨٣٩) الموقف الخطر امام المشيخة

ذكرنا في نهاية الفصل السابق المشكلات الثلاث الصعبة التي كان على المشيخة الرومانية معالجتها . ففي ايطاليا كانت لديها مشكلة خطيرة جداً – بل اخطر مشاكلها – وهي حالة من بقي من صغار المزارعين والاهتمام بامرهم وامر مزارعهم . وكانت هناك مشكلة أخرى لا تقل عن هذه خطراً وهي تبرُّم الحلفاء الايطاليين الذين لم يمنحوا حق التصويت قط ولا سُمح لهم بحق التوظف في الحكومة . ولم تكن المسائل التي خارج ايطاليا اقلَّ خطورة من هذه ويمكن حصرها في اثنتين اولاهما اصلاح حكومة الاقاليم اصلاحاً تاماً وايجاد نظام لادارة احكام الدولة الرومانية على اسلوب موافق يؤدي الى فلاحها وخيرها والثانية تقرير حدودها





الشكل ١٩٦ نرى في هذا الشكل وجهي قطعة نقود ضربها بروتس زعيم قتلة قيصر . على الوجه الواحد يشاهد وجه بروتس واسمه واللقب امبراطور المدلول عليه بالاحرف (.IMP) وعلى الوجه الآخر خنجران يقصد بهما التذكير بمقتل قيصر وبينهما قلنسوة الحرية رمزاً الى الحرية التي يظن ان الرومان نالوها بمقتله . ولكي يتضح معنى ذلك كله رُسم في الاسفل هذه الحروف EID.MAR ومعناها Ides of March اي الخامس عشر من اذار وهو تاريخ مقتل قيصر

وصد البرابرة الغزاة عنها فانهم كانوا يهددون عالم البحر المتوسط وعمرانهُ بالدمار والاضمحلال كما دمَّر اليونان قبل عهد التاريخ العمران الايجي (ف ٣٨٦)

(٨٤٠) النزاع بين المشيخة والعامة طيباريوس غرقس تريبيون ١٣٣ ق.م

لم يكن صراخ فئة المزارعين الشديد ليؤثر في مسامع اشراف المشيخة الذين اعماهم حب الذات واصمَّ آذانهم عن صراخ شكاوي المساكين. وقد حاول بعضهم اعادة توزيع الاراضي من جديد فاخفق مسعاه الاَّ انهُ نبغ من طبقة الاشراف رجل اشتهر بحب الوطن والتجرُّد عن المصلحة الذاتية فعقد النية على ان يكون زعيماً للعامة ومنقذاً لايطاليا من الدمار باعادته اليها جماعة المزارعين والفلاحين. وكان اسم هذا الرجل طيباريوس غرقُس وهو حفيد شيبيو الاكبر بطل زاما. فلما انتخب تريبيوناً (١٣٣ ق.م.) اخذ يلقي الخطب الحماسية على مسامع العامة ويعدد لهم ضروب المظالم التي وقعت عليهم. قال في احدى خطبهِ: «ان للوحوش التي تجول حول ايطاليا اوجرة ومكامن تأوي اليها وتنام فيها. وانتم الذين تحاربون حروب ايطاليا وتموتون من اجلها ليس لكم ما تتمتعون بهِ سوى بركات الهواء النقي ونور الشمس هاتان البركتان فقط هما نصيبكم من الميراث. لا مأوى لكم ولا مستقرّ ولذلك انتم مضطرُّون بحكم الضرورة ان تتنقلوا بنسائكم واولادكم من مكان الى مكان. تحاربون وتموتون وغيركم يتنعم بالثروات الطائلة ورغد العيش. تُدعَون سادة العالم ولكن ليس لكم مدَرَة تستطيعون ان تدَّعوا انها ملك لكم»

(٨٤١) قانون الاراضي الذي سنهُ غرقس

وعرض طيباريوس غرقس على مجمع العامة، بصفة كونهِ تريبيوناً، قانوناً يقضي بوجوب توزيع الاراضي المشاعة من جديد وحماية الفلاحين والمزارعين واعالتهم. ولا غرابة في ان يصدر هذا القانون المصوغ في قالب الاعتدال من سياسيّ كبير كغرقس الذي كان يحاول ان يخدم ايطاليا بمثل ما خدم بهِ صولون اتيكا (ف ٤٦٢) بل كان القانون الذي سنهُ غرقس اكثر اعتدالاً من تشريع صولون. ولكن بينما كان يجاهد لاعادة انتخابهِ لكي يتمكن من تنفيذ قانونهِ هجم عليهِ وعلى الذين التفوا حواليهِ بعض سفلة المشيخة الذين كانوا كامنين في بناية المجلس واغتالوه. فكان اغتيالهُ اوَّل حادثة استُهلَّ بها قرن الثورة والحرب الاهلية (١٣٣-١٣١ ق.م.)

(٨٤٢) النزاع بين غايوس غرقس والمشيخة

وبعد وفاة طيباريوس غرقس بعشر سنين انتُخب اخوهُ غايوس مكانهُ للمنصب نفسهِ (١٢٣ ق.م) ولكنهُ لم يكتفِ باستئناف النزاع الذي كان قد شرع اخوهُ فيهِ لحماية الفلاحين الذين لا اراضي لهم، بل جعل نُصب عينيهِ غايةً محدودة سعى الى بلوغها وهي مناصبة المشيخة العداء والفتّ في سواعدها. واقترح في نفس الوقت ان يُمنح الحلفاء

الايطاليون ما طالما طمحت نفوسهم اليه ومنوهـا به، وهو حقوق الرعوية الكاملة . فاثار هذا الاقتراح غضب العامة فضلاً عن غضب المشيخة . فكانت عاقبة سعيه شغباً عظيماً قتل في اثنائه كما قتل اخوه قبلهُ (١٢١ ق.م.)

٨٤

ظهور سلطة الفرد : ماريوس وسلاّ

(٨٤٣) ظهور سلطة الفرد . ماريوس وسلاّ

ان نقطة الضعف في الاصلاحات التي قام بهـا طيباريوس غرقس واخوهُ واقعة بنوع اخص في اعتمادها على التصويت اي على مساعدة الشعب لهما حين الانتخابات واجتماعات مجمع العامة . وهذا امر لم يكن لهما مناص منهُ . وليس بالامر السهل ضبط رغائب الشعب وامياله من انتخاب الى انتخاب . ففي انتخاب طيباريوس غرقس واخيه ، حين كان العمل في المزارع من الامور التي تستدعي النظر والاهتمام ، ابى السكان المقيمـون في ضواحي رومية ان يذهبوا اليها ويعطوا اصواتهم مع ان الفائدة من قانون غرقس كانت محصورة في مصلحتهم . ولكن اعمال «الغرقيين» علّمت العامّة ان يثابروا على التفتيش عن زعيم حتى يجدوهُ . فكان هذا العمل بدء السلطة الفردية الاّ ان الزعيم الذي اشرأبّت اليه اعنـاق العامة لم يكن من مأموري الحكومة بل قائدًا حربيًا

(٨٤٤) تسمين قائد الشعب ضد المشيخة

وانكشفت مساوئ حكم المشيخة في الخارج فقام مجمع العامـة وسنّ قانوناً وعيّن بموجبه قائدًا من قبله لكي يحل محلّ قائد كانت المشيخة قد عينتهُ للقيـام بحرب اجنبية . فحمل العامة وقر مشروع اجنبي كبير . واهم من ذلك كله انهم بفعلهم هذا اصبح زمـام الجيش في ايديهم . ولم يكن في طاقـة المشيخة ان تمنع تنفيذ قانون مجمع العامّة . ولم تعد مصالح العامة موقوفـة برمّتها على الحكام الملكيين تتغير من انتخاب الى انتخاب بل على القوة العسكرية بإمرة قائد في الامكان تمديد مدة خدمته

(٨٤٥) ماريوس قائد الشعب يقهر اوغرثـا وبرابرة الجرمان

ان القائد المسمى (ماريوس) الذي وضع العامة ثقتهم فيه ، كان هو نفسهُ واحدًا منهم وكان في صبوته حارثاً في الارض . ولحسن الحظ كان ايضاً جنديًا قديرًا . وكانت رومية بمسيس الحاجة الى مقدرته العسكرية . لانهُ كانت قد قامت في الشمال قبيلتان قويتـان من برابرة الجرمان تُدعى احداها قبيلة السمبريين والاخرى قبيلة التيوتينيين فاتحـد هولاء مع الغاليين وشرعوا يزحفون جنوباً وقطعوا تخوم رومية فسيّرت عليهم رومية ستة فيالق ولكنهم

مزّقوا شملها كل ممزّق واتضح للكتائب الرومانية انها قد لاقت قِرنها فعرا اهل رومية قلق وهبَّ العامة لاعادة انتخاب ماريوس قنصلاً وارسالـهِ الى مقاتلة برابرة الشمال فنشبت بينهُ وبينهم في الشمال معركتان عظيمتان دارت الدائرة فيها عليهم · ولم يكتفِ بطل العامة بان كسر الاعداء بل اعمل في رقابهم سيفهُ وسيوف جنده حتى افناهم · ولم يبقِ على احد من جنود الجرمان وهكذا كان خلاص رومية على يد جندي من العامة

(٨٤٦) الغاء ماريوس شرط المالكية للخدمة العسكرية وقيام جيش اتخذ الخدمة العسكرية مهنة له

لم يكن ماريوس جنديًا قديرًا فقط بل كان ايضاً اداريًا كبيرًا · فلكي يتمكن من الحصول على عددٍ كافٍ من الجنود لتعبية الكتائب الرومانية الغى العادة القديمة التي كانت تحظر الخدمة العسكرية على من لم يكن من ذوي الاملاك وتحصرها في الملاكين · وادخل في الجندية الفقراء الذين لا يملكون فلساً ولم يلبث جماعة كهؤلاء ليس لهم من حطام الدنيا شيء ان اتخذوا الجندية مهنة لهم · فانقضى الآن في رومية عهد حصر الخدمة العسكرية في فئة من الناس دون أخرى كما انقضى قبلاً في بلاد اليونان (ف ٥٨٧) · ومع ان الخدمة العسكرية ظلت اجبارية على كل وطني روماني فانها لم تكن شديدة الوطأة ولم يكن اولياء الحل والعقد يدققون في اجرائها

(٨٤٧) ابتكار ماريوس الفصيلة (Cohort) وجعلها الوحدة الحربية

وبرع الشبان، الذين اتخذوا الخدمة في الجندية مهنةً لهم، في الحركات العسكرية واصبحوا قادرين ان يقوموا «بمناورات» يستحيل على الوطنيين الذين يخدمون في الجندية امدًا قصيرًا ان يقوموا بمثلها · ولذلك عاد ماريوس فنظم الكتيبة (اللجيون) من جديد · وزاد عدد رجالها من اربعة آلاف وخمس مئة الى ستة آلاف · وقسم كل كتيبة الى عشرة اقسام دعا كل قسم منها فصيلة جعل عدد رجالها ست مئة · وكانت هي الوحدة في المناورات الحربية المتنقلة · وعليها كان يتوقف النصر والكسر في المعارك (ف ٨٠٠) · وكانت هذه الوحدات مدرَّبة في الفنون الحربية اتمَّ تدريب وحركاتها وتنقلاتها في ساحة القتال بغاية التدقيق والضبط · وكانت ثقتها بخطة القائد تامة لا يشوبها شيء من الارتياب · فبايجاد الفصيلة في الجيش تمَّ الفصل الاخير من موضوع نشوء فن الحرب في العصور القديمة

(٨٤٨) تقصير ماريوس في الحكم

ولكن معما كان عليه ماريوس من المقدرة العسكرية وتنظيم الجيوش فانهُ لم يكن سياسيًا محنكاً ولا بدع فقد ارتقى سريعاً من جندي بسيط الى رتبة قائد وبقي في قلبهِ فلاحاً رومانيا خشناً وان كان في قالبهِ الظاهر قائدًا كبيرًا · ولم يكن اهلاً للزعامة السياسية التي ظهر فيها قصورهُ تمام الظهور · فعادت السيادة والكلمة العليا الى المشيخة وتنحَّى ماريوس عن منصبهِ مرتدياً الفشل والعار الاَّ ان زعامتهُ علَّمت العامة كيف يفوزون على المشيخة

باجماعهم على اختيار قائد حربي لا تقوم سلطتهُ بمجرَّد تنفيذ القوانين والعادات المرعية لدى المشيخة الرومانية بالطرق السلمية ، بل باستعمال القوة العسكرية بالطرق غير المشروعة

٨٤٩) الشقاق في ايطاليا وتبرُّم الحلفاء الايطاليين

ومما زاد النزاع بين المشيخة والعامة تعقيدًا تبرُّم الحلفاء الايطاليين الذي كان يزيد مع الايام لان هولاء قدَّموا جنـدًا للجيش الذي افتتح المملكة مثلما قدمت رومية ولكنهم حُرموا حق التصويت ولم يُعطوا نصيباً من الثروة العظيمة التي كانت تتدفق على الرومانيين من جميع انحاء المملكة . وقد اعمت ابَّهة السلطة بصائر المشيخة والفئة الحاكمة في رومية . وكانت بلاد ايطاليا لا تزال ملأى بالجماعات المشاقَّة بعضها لبعض فكان على رومية مسألة تأليف القلوب لجعل ايطاليا امة واحدة

٨٥٠) استبداد الرومانيين (٩٠ ق·م) الاحسن واغتيال دروسس

وبقي لحسن الحظ جماعة من قادة الفكر بـين الرومان ارتأوا ان يُعطى الايطاليون حقوق الرعوية الرومانية . وكان في عدادهم رجل من النبلاء الاغنياء اسمهُ دروسس اكتسب ثقة العامة فانتخبوهُ تربيوناً . فلم يلبث بعد انتخابهِ ان شرع في اتخاذ التدابير اللازمة لمنح الحلفاء الايطاليين حقوق الامة ولكنهُ لقي من مناوئيهِ مقاومة شديدة وحشية . وهجم عليه احد الرعاع في السوق وطعنهُ بسكين طعنة أودت بحياة هذا السياسي الروماني الكبير فحدا هذا الفعل البربري القبيح بقبائل الشعوب الايطالية في اواسط وجنوب ايطاليا الى رفع لواء الثورة وتأليف دولة جديدة وتنظيم حكومة خاصة بهم واتخذوا عاصمة لهم مدينة متوسطة بين اطراف بلادهم يسهل الوصول اليها من جميع الجهات على السواء دعوها بالاسم القديم ايتاليكا (٩٠ ق·م)

٨٥١) الحرب مع الحلفاء (حرب اجتماعية) (٩٠ — ٨٨ ق·م) منح حقوق الرعوية لجميع ايطاليا

ولما رأى الرومان انهم انكسروا من اوَّل الامر في الحرب التي نشبت ، قرَّروا مكرهين ان يمنحوا حقوق الرعوية لطالبيها فانفرط بهذه المنحة عقد الاتحاد الايطالي وعاد الايطاليون فدخلوا حظيرة الدولة الرومانية ولكن كطوائف سياسية من مدينة رومية الاَّ انها بعيدة عنها . فالرعايا الداخلون في هذه الطوائف البعيدة لم يكن لهم حق التصويت في الانتخابات ولا التدخل في شؤون الحكومة ما لم يحضروا الى رومية بالذات . ولكن هذا الامر كان بالطبع مستحيلًا وظهر فيهِ جليًا عجز الحكومة المدنية عن ان تنشئ نظاماً يصلح لادارة احكام امة عظيمة فكيف بادارة امبراطورية تشمل المسكونة باسرها . ولكن مع كل ذلك ، كانت ايطاليا تسعى لكي تصير امة متحدة في الحكومة واللسان

٨٥٢) قيام سلا . قنصل ، وتأييد المشيخة وخذل العامة بقوة الجيش

وكان على رأس الجيش الزاحف الآن على الحلفاء الايطاليين ضابط اسمهُ سُلَّا كان قبلًا من ضباط جيش ماريوس فهذا عينتهُ المشيخة ليتولى قيادة جيش زاحف على اسية الصغرى لان الحرب كانت على وشك ان تستعر نارها فيها . الاَّ ان زعماء العامة لم يرضوا

عن هذا التعيين فسنُّوا قانوناً انتخبوا بموجبه ماريوس للقيادة في الحرب الاسيوية المقبلة. ولكنهُ لم يكن لديهِ الآن جيش. واما سُلّا فكان لا يزال على رأس جيشهِ ولذلك لم يعبأ بالقانون الذي سنتهُ العامة وزحف بجيشهِ على رومية. وهذه هي اوّل مرّة استولى فيها قنصل روماني على المدينة عنوةً. وحذت المشيخة الآن حذو مجمع العامة سابقاً في انها جعلت اعتمادها في تنفيذ مآربها على قوة الجيش. وادخل سُلّا، بالقوة، قانوناً جديداً يقضي على مجمع العامة بوجوب استشارة المشيخة قبل الاقدام على اجراء شيء من التدابير. وبعد ان تمكّن بطريقة مشروعة من ملاشاة قوة العامة حتى لا يُقدموا على مناوأة المشيخة توجّه الى اسية الصغرى ليتولى القيادة فيها

(٨٥٣) استعلاء العامة زمام الربط والضبط في غياب سلاّ. قتال وسفك دماء في شوارع رومية

وكان لواء الفوز قد عُقد للمشيخة ولكن بعد زحف سُلّا بكتائبهِ على اسية الصغرى رفع العامة لواء العصيان. وكان ماريوس قد عاد الى رومية مصحوباً بجنودهِ فشرع في مذبحة هائلة قُتِل فيها زعماء حزب المشيخة. فالمشيخة التي كانت اوّل من زرع بزور العنف والجور بقتلها طيباريوس غرقُس قد حصدت الآن حصاداً ذريعاً (ف ٨٤١) وانتخب ماريوس للقنصلية مرّة سابعة ولكنهُ مات بعد انتخابه بايام قليلة (٨٧ ق م). فقبض العامة على زمام الامر والنهي في رومية حتى يوم مناقشتهم الحساب الذي كان لا بد من حلولهِ عند رجوع سُلّا

(٨٥٤) تغلب سلا على جنود العامة وتجريدهُ العامة من القوة السياسية وتسليمهُ زمام السيادة العليا الى المشيخة

وبعد ان انجز سُلّا الحرب التي ابلى فيها بلاءً حسناً في اسية الصغرى عاد الى رومية تخفق فوق راسهِ اعلام النصر. وفي طريقهِ كافحت جنودهُ الرومانية جيوش العامة الرومانية فكسرتها كلها الواحد تلو الآخر. ودخل رومية كرئيس لحكومتها دون ان يكون لهُ سلطان شرعي لتولي الرئاسة ولكنهُ بقوة جيشهِ اجبر الناس على تعيينهِ دكتاتوراً. وكان اوّل عمل باشرهُ بعد تعيينهِ، الشروع في مذبحة منظمة أُريقت فيها دماء حزب العامة وصُودرت املاكهم. ثم استعمل قوة الضغط والاكراه لسنّ مجموعة قوانين جديدة جُرّد بموجبها مجمع العامة والتربيونيون من سلطتهم وجعلت السلطة العليا بيد المشيخة التي برهنت عن ضعف كلي في ادارة شؤون الدولة منذ عهد الفتوحات العظمى. وهكذا قضي بالخيبة على السياسة التي جعلت زمام السلطة العليا بيد المشيخة

٨٥

انقلاب الجمهورية : بمبيوس وقيصر

(٨٥٥) انقضاب العامة بمبيوس قنصلاً بإعادته السلطة السياسية

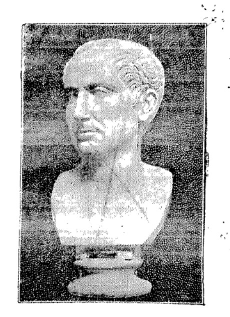
وعلى اثر وفاة سُلّا نهض حزب العامة فورًا وقام بحركة قصد الغاء القوانين الممقوتة التي غلّت ايدي وارجل العامة والتربيونيين • وكان العامة قد تعلّموا الآن ان يستفيدوا من الزعيم الحربي • وقد وجدوا ضالتهم هذه المرّة في شخص بمبيوس احد ضباط سُلّا الذي كان منذ عهد قريب قد امتاز في حرب اسبانيا • فانتخبوه قنصلًا (٧٠ ق٠م٠) لانهُ وعدهم بان يُلغي قوانين سُلّا المكروهة وقد برّ بوعدهِ لهم • فضمنت لهُ خدمتهُ هذه للعامة إمرة حربية من الدرجة الاولى في خطورتها

(٨٥٦) قطع دابر لصوص البحر وفتوحات في الشرق قام بها بمبيوس

وبلغ من اهمال المشيخة ان تركت سفن التجارة تحت رحمة لصوص البحر الذين غشوا بحر الروم وبلغت بهم الوقاحة ان ظهروا عند مصب التيبر ينهبون ويحرقون ، وخطفوا بعض موظفي الحكومة في الطريق على مسافة بضعة اميال من رومية • واستولوا على ذخيرة الحنطة المرسلة من مصر وافريقيا الى رومية • وفي سنة ٦٧ ق٠م٠ سن العامة قانوناً قلّدوا بموجبه بمبيوس القيادة العليا في البحر المتوسط الى مسافة خمسين ميلًا عن سواحلهِ • ولم تمرَّ اربعون يوماً على تعيينهِ لهذه القيادة حتى كان قد طهر غرب البحر المتوسط من لصوص البحر • ثم ابحر شرقاً ولم يمضِ على وصولهِ الى بحر ايجه سبعة اسابيع حتى كان قد استأصل شأفة لصوصهِ وخرَّب حياض سفنهم وحصونهم • وفي السنة التالية اتسع نطاق إمرتهِ حتى شمل قيادة الحرب ضد (مثرداتس) ملك بنطس في شمال اسية الصغرى • وكانت قبلًا بامرة (لوكلس) القائد الروماني الممتاز بقدرتهِ الحربية الـذي كسر شوكة مثرداتس وقهر مملكة ارمينيا المترامية الاطراف ايام كان تغرانس مالكاً عليها • ولذلك لم يجد بمبيوس صعوبة في اخضاع مثرداتس ولم يكن عليهِ الاَّ ان يقبل خضوع تغرانس الذي قدّمهُ طوعاً من تلقاء ذاتهِ • ثم سحق بمبيوس البقية المتخلفة من مملكة السلوقيين (ف ٦٦٢) وجعل سورية ولاية رومانية • ودخل اورشليم وجعل وطن اليهود تحت الحكم الروماني • وقبل رجوعهِ كانت الكتائب التي تحت قيادتهِ قد زحفت على اراضي الفرات واشرفت على بحر قزبين • ولم يشهد الشرق فتوحات كهذه منذ الحملات المكدونية • فخيل للعموم ان اسكندرا جديدًا ظهر في العالم بشخص بمبيوس زاحفاً على الشرق تحت اعلام النصر

(٨٥٧) قيام قيصر

وفي غضون ذلك نبغ في رومية بطل جديد مشهور اسمهُ يوليوس قيصر ابن اخت ماريوس (ش ١٩٧) وُلد سنة ١٠٠ ق·م· ولم يلبث ان صار في مقدمة زعماء العامة · الّا انهُ حصلت لهُ صدمة خطيرة اثّرت كثيرًا في حياتهِ السياسية · وتحرير الخبر هو انهُ كان في رومية رجل من الخاصة وأحد اعضاء المشيخة ، اسمهُ قتّاينا · كان سيء الخلق رديء السمعة · حاول جهدهُ لكي يحصل على منصب قنصل ولقي معاضدة من جانب قيصر لكنهُ اخفق سعياً ولم يُنتخب للقنصلية · فجمع حولهُ جماعة كبيرة من اهل البغي والشر وحاول بواسطتهم ان يغتصب السلطة ويقبض على ازمّة الحكم ولكنهُ لم يفز بالمرام بل فاءَ يتعثَّر باذيال الخيبة لان القنصل شيشرون كان لهُ بالمرصاد فاحبط مساعيهُ · فزيّنت لهُ نفسهُ الأمّارة بالسوء ان يعمد الى القتال فقاتل هو ورجالهُ مستبسلين حتى هلكوا عن آخرهم · فاتُّهم قيصر بان لهُ ضلعاً في الثورة القتّلينيَّة · وكان لهذه التهمة تأثير عظيم في حياته السياسية



الشكل ١٩٧
تمثال نصفي يقال انهُ رسم يوليوس قيصر

ان الرسوم المقبولة اعتياديًا كرسوم يوليوس قيصر غير موكدة الهوية

(٨٥٨) عودة بمبيوس · حكومة الثلاثة ب بمبيوس وقيصر وقرسس · انتخاب قيصر قنصلًا (٥٩ ق·م)

ولما عاد بمبيوس الى ايطاليا يجر اذيال الفخار كفاتح الشرق العظيم ، كان يفتقر الى نفوذ سياسي يضمن لهُ اقرار المشيخة الرسمي لاجراءاتهِ في اسية الصغرى واقطاع جنوده بعض الاراضي · وظلّت المشيخة سنتين غير راضية ان تمنح بمبيوس هذه الامتيازات · فانبرى قيصر لمعاضدته · ثم تمكّنا من استمالة رجل من نبلاء الرومانيين واغنيائهم اسمهُ قرسُّس الى تأييدهما في مساعيهما فآلَ الاتفاق الشخصي بين هولاء الرجال الثلاثة النافذين ، الى القبض على ازمة الحكم · وسُمّي اتفاقهم «تريومفراتس» اي حكومة الثلاثة وكانت النتيجة انتخاب قيصر للقنصلية للسنة ٥٩ ق·م·

(٨٥٩) حصول قيصر على حكومة غاليا عن جانبي جبال الالب

ولم تكن القنصلية الّا يسيرًا من كثير من مقاصد قيصر ، فانهُ بعد ان انفذ مآرب بمبيوس وسنّ شرائع جديدة للاراضي لمنفعة العامة تأهب لخطتهِ المستقبلة وكان على يقين من انهُ لا بدَّ لهُ من إمرة حربية واسعة لكي يستطيع ان يعبيء جيشاً فرأى الفرصة سانحة في الغرب ، في البلاد المسمّاة الآن بفرنسا التي كان يحتلها الغاليون · فطلب ان تقرَّر ولاية غاليا

لهُ ولم يلقَ صعوبة في سن قانون عُيّن بموجبهِ والياً على إلّيريا وغاليا على جانبي ألبا

(٨٦٠) فتح قيصر لغاليا ٥٨ الى ٥٠ ق·م

تسلّم قيصر مقاليد ادارة ولايتهِ الجديدة في سنة ٥٨ ق·م·وبرهن عن مقدرة عظيمة ومهارة فائقة في القيادة الحربية · فانهُ تمكن في غضون ثماني سنوات قضاها في الزحف على الاعداء ومحاربتهم من اخضاع الغاليين وفتح بلادهم من حدود الاقيانوس والخليج الانكليزي شرقاً الى نهر الرين · ثم صدّ عن غاليا هجوم جيش من الجرمانيين فعادوا الى بلادهم بعد ان تجشموا خسائر جمة · وقد اذهلتهم الحذاقة والسرعة اللتان بنى بهما جسرًا فوق الرين حتى تمكن من مهاجمتهم في بلادهم وعُقر دارهم · وجعل الرين حدًّا لولايتهِ الجديدة الّا انهُ لم يقف عند هذا الحد بل قطع البوغاز وغزا بريطانيا الى حدود نهر التيمس فاضاف الى الامبراطورية الرومانية بمملكة واسعة اشتملت على فرنسا الحديثة وبلجيكا · ويجب ان لا ننسى ان فتحهُ هذا كان ذريعة لدخول اللغة اللاتينية الى فرنسا وهي الاصل الذي اخذت منهُ اللغة الفرنساوية

(٨٦١) نظر قيصر الى الحال بعين السياسي القدير

برهن قيصر في رومية على انهُ داهية السياسة وفي غاليا على انهُ جندي ماهر · ولكن أكان مع ذلك سياسياً ؟ ام كان كبمبيوس لا ارب لهُ الّا ان يتولى القيادة الحربية مرّة بعد اخرى دون ان يعمل شيئاً ينقذ بهِ رومية من ان تكون «برثن الهرّ» اي آلة بيد القواد يستخدمونها للمصلحة الشخصية · وقد كان حال رومية في عين قيصر واضحاً كالشمس ولم يكن في النظام القديم الذي وضعتهُ الجمهورية ما يمنع ان يقوم في الولايات قواد من ذوي المطامع الواحد بعد الآخر يحاربون قصد القبض على زمام الحكم في الدولة كما فعل ماريوس وسُلّا سابقاً · ولم يعد في طوق الجمهورية ان تستعيد النظام والحكومة الثابتة الى ايطاليا فضلًا عن الامبراطورية

(٨٦٢) نشر قيصر تقريراً عن حروبهِ في غاليا

وكانت الحال الآن تستدعي وجود قائد قدير أُشرب قلبهُ حب وطنهِ يشدّ ازره جيش يظاهرهُ على تبوّء منصب السلطة الدائمة في الدولة الرومانية واخضاع كل من سوّلت لهُ النفس ان ينازعهُ فيها · فجعل قيصر هذا الامر نصب عينيهِ وسعى لهُ سعياً ثابتاً · ومن اهم ما خطر لهُ ودل على حصافة رايهِ في الحال الحاضرة نشرهُ رواية حملاتهِ الغاليّة التي كتبها في اثناءِ زحفهِ على الاعداء المحفوف بالمكاره وفي ابان المعارك الشديدة المخاطر · وهذا المصنّف المعدود من انفس ما كُتب باللغة اللاتينية نثرًا هو عند التحقيق رسالة سياسية تذرّع بها كاتبها لكي يطبع على عقول الشعب الروماني اثرًا لا تمحوهُ السنون عن فتوحاتهِ العظيمة وخدمهِ الجسيمة التي قام بها واستوجب الشكر من اجلها · وقد قامت رسالتهُ هذه بما اراده بها حق قيام · وتحسب الآن احسن كتاب لتعليم القراءة للمبتدئين باللاتينية

(٨٦٣) انحياز بمبيوس الى المشيخة

ولما اوشكت المدة الثانية لولاية قيصر في غاليا ان تنصرم، كان مناصروهُ في رومية يستعدون بايعاز منهُ الى انتخابهِ مرَّة ثانية للقنصلية. ولما كانت المشيخة تخشى عاقبة رجوعهِ الى ايطاليا، بثَّت العيون والارصاد لكي تجد قائدًا حربيًا كسُلَّا. واتفق ان قرسُس المثري احد اعضاء حكومة الثلاثة (ف ٨٥٨) كان قد قُتل في حرب مشؤومة ضد الفرتيين وراء الفرات. فانفرط عقد الحكومة الثلاثية واصبح بمبيوس حرًّا طليقاً. فسارع زعماء المشيخة وعرضوا عليهِ اشياء يستميلونهُ بها اليهم مع انهُ كان قد تعيَّن قائدًا من قبل المجمع وزعيماً لحزب الشعب. وبما انهُ لم يكن اداريًا محنكاً، سعى للحصول على القيادة العسكرية. فكانت النتيجة انهُ مال الى المشيخة وشرع يعضد مبادئها فقام النزاع بين الزعيمين قيصر وبمبيوس كما قام بين ماريوس وسُلَّا قبل الآن بنحو نصف قرن. فبدلاً من ان يكون بين هذين القائدين الزعيمين منافسة سياسية مشروعة وقعت بينهما منازعة حربية

(٨٦٤) قيصر وجنده المؤلف من جنود اختصاصيين

وحاول قيصر ان يراضي المشيخة ولكن حين جاءهُ جوابها يتضمَّن الامر بتسريح جيشهِ لم يتردَّد قط في البتّ بما كان ناويًا ان يقوم بهِ في المستقبل. ولم يكن جنودهُ المتخصصون بالفنون الحربية يجنحون الى الشؤون السياسية ولا كانوا يشعرون بشيء من المسؤولية التي عليهم كوطنيين، ولم تكن رابطتهم بدولتهم متينة ولا احتكَّ في صدورهم الواجب الادبي نحوها. ولكنهم كانوا شديدي التعلق بقائدهم المحبوب مستعدّين لان يضحُّوا بكل مرتخص وغالٍ اكراماً لهُ ولا سيا اولئك الذين حاربوا معهُ جنباً لجنب في حروب غاليا. ولم تكد تبدر من شفتهِ كلمة الامر بالزحف على رومية حتى بادروا الى قطع الروبيكون وهو النهر الصغير الواقع على حدود ولايتهِ من جهة رومية. ولم يكن لقيصر حق شرعي ان يتخطَّى بجنودهِ هذا الحدّ فعُدَّ فعلهُ هذا ثورةً

(٨٦٥) استيلاء قيصر على رومية واخراجه بمبيوس منها بالحيلة والخيانة قنصلاً ٤٩ ق.م

وكان من اعظم اسباب نجاح قيصر سرعتهُ البرقية في اجراء ما يروم اجراءهُ. فقبل ان تمرَّ ساعة من الزمان على وصول رسالة المشيخة الى يده كانت كتائبهُ قد شرعت في الزحف من وادي البو على رومية (٤٩ ق.م.) ولما لم تكن المشيخة على استعداد لهذا الجواب السريع من لدن قيصر الجأتهم الضرورة الى مفاوضة بمبيوس بالامر الواقع. فاجابهم بان القوات الحربية التي تحت إمرتهِ ليست بكافية لصدّ قيصر عن رومية. والحقيقة انهُ لم يكن في تلك الفترة جيش في الجمهورية كلها يستطيع ان يواقف كتائب قيصر وفي صدره اقل امل بالفوز. فتأخر بمبيوس ولما دنا قيصر من رومية فرَّ منها بمبيوس وجيشهُ مع معظم المشيخة وعدد كبير من الاماثل. واحتال قيصر على بمبيوس وجماعتهِ وزيَّن لهم مغادرة

ايطاليا والذهاب الى بلاد اليونان · فلما خلا لهُ الجوّ واضحت رومية في قبضة يـدهِ وطوع بنانه امسى انتخابهُ للقنصلية من الهنات الهينات · وغدا المدافع الشرعي عن رومية وحامي ذمارها من المشيخة وجيش بمبيوس

(٨٦٦) فوز بمبيوس · أسر قيصر الجيش بمبوس في اسبانيا (صيف ٤٩ ق·م)

٥ ولكن مع ذلك لم يكن مركز قيصر حريزًا بعد لان بمبيوس كان في عيون ابناء الشرق اعظم رجل في رومية · فكان بوسعهِ ان يؤلّب على قيصر جميع الشعوب والممالك التي في الشرق فضلًا عن انهُ كان تحت سلطانهِ الاسطول الضخم الذي تمكن بهِ من قطع دابر القرصان وجعل نفسهِ سيد البحر · ولما كان الشرق باسره ظهيرًا له ، كانت احوالـهُ تتحسن من يوم الى يوم · فشرع يعبئ جيشًا ويدرّبهُ على القتال على امل ان يبطش بقيصر ويسحقهُ سحقًا تاما وكان جماعة من ضباط جيشه لا يزالون مستولين على اسبانيا · فكان قيصر مضطرًّا ان يحارب اتباع بمبيوس في الشرق والغرب وعقد النية على ان يشرع اولاً في محاربة الغرب · فبلغ اسبانيا بسرعتهِ المدهشة في شهر حزيران (٤٩ ق·م·) وهناك التـقى قواد بمبيوس ولجأ الى الحيلة والدهاء فتمكن بعد بضعة اسابيع من ان يقطع عنهم الميرة والذخيرة · واحدق بهم من كل جانب · واكرههم على التسليم دون ان ينشب بينهُ وبينهم معركة واحدة

(٨٦٧) قيصر يفاجئ حزب المشيخة بعبوره الى بلاد اليونان حيث كسر بمبوس

ولما بلغ مسامع بمبيوس واعوانهِ من اعضاء المشيخة والاماثل ان قيصر توجّه الى اسبانيا شرعوا في الاستعداد على هينتهم ليعبروا الى ايطاليا ويتملكوها · ولكن قبل ان يتمكنوا من ذلك كان قيصر قد عاد من اسبانيا مظفرًا منصورًا وركب البحر من برنديزي — مع ان السيادة البحرية كانت بيدهم — ونزل في ابيروس · فاثارت هذه المباغتة الدهشة في نفوسهم وتوأتهم الحيرة لتملصهِ من مراكبهم الحربية · وبعد انكسارات عديدة رضي قيصر انّ يواقع بمبيوس مع ان جنودهُ كانت اقل من جنود خصمهِ · فنشبت بينهما معركة في فرساليا من ثساليا (٤٨ ق·م·) فانكسر بمبيوس شرّ كسرة ولجأ جيشهُ الى الاستئمان

(٨٦٨) قيصر يكمل فتح عالم البحر المتوسط

وبعد انكسار بمبيوس كما تقدم ، نجا بنفسهِ الى مصر حيث قُتِل قتلًا شائنًا · وتبعهُ قيصر الى مصر فوجد على عرش المملكة كليوباترة الجميلة ، السابعة بهذا الاسم ، وخاتمة البطالسة · فلما عاين جمالها الفتّان ووجد ان في صداقتها منافع سياسية هام بها هيامًا شديدًا وقضى في قصرها بالاسكندرية تسعة اشهر يغازلها ويمتع طرفهُ بجمالها الرائع واذنيه بحديثها الساحر (من تشرين الاول الى حزيران سنة ٤٧ ق·م·) ولم يبدُ في حياة قيصر كلها ضعف ادبيّ مهم كما بدا هـذه المرّة بعد ان رأى فاتنة لبهِ كليوباترة · وحدثت فتنة خفيفة في

الاسكندرية ضد قيصر وهجم عليهِ العامــة وضايقوهُ اذ كان عسكره قليلًا فانحصر في قصر . ولما كان يخشى ان يسدُّوا عليهِ الميناء اضرم النار بسفن المصريين فاحترقت . وادركت النار المكتبة الاسكندرية العظيمة (ف ٦٩٤) فاحــترق جانب كبير منها . وبقي قيصر محصورًا الى ان اتاهُ المدد من سورية فخرج من الحصار وبدَّد شمل المصريين واقرَّ كليوباترة على الملك على ان تتزوَّج اخاها الاصغر اذ كان الاكبر قد هلك . ثم سار الى اسية الصغرى لمحاربة اعدائهِ فيها . ولسنا نعلم الاَّ القليل من امر اعمالهِ الحربية ومعاركهِ هناك التي قهر بها مناوئيهِ واعداءَهُ . ومن هناك بعث الى المشيخة بتقريرهِ المشهور عن احوال الحرب قال فيهِ : أتيت . رأيت . غلبت . وكان النصر حليفهُ في الولاية الافريقية في مــا وراء قرطاجنة وفي اسبانيا . وهكذا زالت الموانــع التي حالت دون تسلط قيصر على المملكة كلها في اذار سنة ٤٥ ق.م . بُعَيد استيلائهِ على ايطاليا باربع سنين او اكثر من ذلك قليلًا

(٨٦٩) سياسة قيصر

لم ينتهج قيصر خطة سُلَّا في معاملتهِ للناس . فلم ينتقم من اعدائــهِ ولمْ يقتل احدًا لمجرَّد عداوتهِ لهُ بل عامل الجميع بالرفق والانسانية . وحقن دم شيشرون الخطيب مع شدة عداوة هذا لهُ . وكانت نفسهُ تنزع الى الحصول على مقام ملك تشبهاً بالاسكندر الكبير . ولكنهُ كسياسي محنك كان احكم من ان يُقدم على نسخ شكل الحكومة الجمهوري . لانهُ علم حق العلم ان الرومانيين كانوا يكرهون اسم ملك . وفي الواقع انــهُ كان ملكاً فعلًا وان لم يلقب هكذا فان السلطة الحقيقية كانت بيدهِ لان الجمهورية كان قد قضي عليها بالاعدام . وانتخب دكتاتورًا مدى الحياة . وتقلَّد مناصب أُخرى في الحكومة . ولم يجسر احد في رومية ان يتصدَّى لمقاومة من كان اعظم الرومانيين واشدهم بأساً

(٨٧٠) تنظيم قيصر الحكومة والدولة من جديد

وعاش قيصر بعد فتحه لرومية خمس سنوات لا غير (٤٩ — ٤٤ ق.م .) قضى منهــا اربعاً في الحروب وخوض المعارك . فلم يبقَ لهُ الاَّ وقت قصير للقيام بعملهِ العظيم وهو تغيير شكل الحكومــة وتنظيم الدولة من جديد — العمل الكبير الذي عجزت عنــهُ المشيخة الرومانية تمام العجز . لم يلغِ قيصر المشيخة بل زاد عدد اعضائها زيادة مهمة اذ ملأَها من اصحابهِ واخصائهِ فامست رهن امره واشارتهِ وبذلك فقدت منزلتها الاولى واحترام الشعب لها . ولم يكن في طاقة المشيخة الجديدة ان تناوئهُ في شيءٍ . واصبحت ادارة الولايات في يده . وكان القائمــون بسياستها مسؤولين لهُ رأساً . وظل انتخاب موظفي المشيخة يجري على النمط القديم . ثم شرع قيصر في اصلاح الادارة الرومانية الفاسدة من اساسها . فكان ما يجريهِ من هذا القبيل تمهيداً لقيام الامبراطورية التي كان في الواقع هو امبراطورها الاول ولولا

ادراك الاجل لهُ قبل الاوان لم تبقَ الجمهورية خمس عشرة سنة أُخرى تجاهد حرصاً على البقاء وهي في نزع الموت

(٨٧١) مشروعات قيصر الكبيرة واصلاحاتهُ

ورسم قيصر خريطة هندسية لرومية ونوى تجديد بنائها على طراز بديع وخطَّط سككاً جديدة تسهيلاً للمواصلات · وعزم على احداث ترعة بشق برزخ كورنثوس · واجرى كل ما يلزم من ضروب الاصلاح في ادارة حكومات المدن · وفي جملة ما فعلهُ لمنفعة العالم عموماً ، الغاؤهُ التقويم القمري القديم ، واراحة الناس منهُ بعد ان تحمَّلوا مشقَّة استعماله بضعة قرون ، وادخالهُ التقويم الذي كان شائعاً في مصر منذ عهد عريق في القدم (ف ٦٢)

(٨٧٢) اغتيال قيصر في ١٥ اذار سنة ٤٤ ق·م ونتائجهُ

وكان لا يزال في رومية قوم لا يرغبون في ان يخضعوا لحكم رجل فذّ · ففي الخامس عشر من شهر اذار سنة ٤٤ ق·م· قام هولاء واغتالوا اعظم رجل روماني · واذا كان بعض الذين اشتركوا في قتلهِ كبروتس وقسيوس توهموا انهم خدموا وطنهم بارداثهم رجلاً مستبداً كان في نيتهِ تقويض اركان الجمهورية ، فما كان ابعدهم عن ادراك حقيقة الحال وهي ان كل المساعي للمحافظة على الجمهورية التي كان الدهر قد اكل عليها وشرب ، ذاهبةٌ ادراج الرياح لان التسلط على المسكونة والقوة الحربية التي يقتضيها ، كانا قد زعزعا اركان الجمهورية الرومانية . واغتيال قيصر جرَّ ايطاليا بل الدولة باسرها الى الحروب الاهلية

٨٦

انتصار اوغسطس وانتهاء الحرب الاهلية

(٨٧٣) حداثة اقتافيوس ابن ابنة اخت قيصر

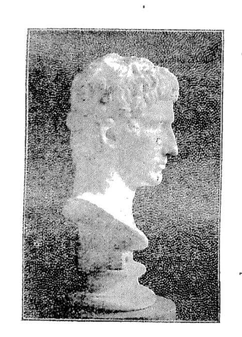
وبلغ نبأُ اغتيال قيصر الفظيع مسامع ابن ابنة اختهِ اقتافيوس (ش ١٩٨) الذي كان يتابع دروسهُ في ايليريا وهو في الثامنة عشرة من عمرهِ · وبعثت اليهِ والدتهُ برسالة مع رسول سرّي امرتهُ بها ان يفرّ بلا امهال الى جهة الشرق لينجو من كل خطر ينويهِ لهُ قتلة خالهِ · اما جواب هذا الشاب عن رسالة والدتهِ فكان اسراعهُ الى رومية بلا تردُّد ولا امهال · فهذا الحزم الذي ابداهُ هذا الشاب برهن عمَّا كان عليهِ من الدراية والحنكة السياسية على حداثة سنهِ

وعند وصول اقتافيوس الى رومية علم بان خالهُ — وقد مات كَلًّا (بلا عَقب) — قد

(٨٧٤) ايام اقتافيوس الاولى

تبنّاهُ شرعياً وجعلهُ وارثهُ الوحيد · وقد كان اصغر من ان يحسب لهُ اعداء قيصر حساباً · ولكنَّ مَنكِبيهِ الغضَّين كانا يحملان رأس شيخ حنكتهُ السنون · فنظر في حالة البيئة التي وُجد فيها بِنظرة الحصيف ووقف على حقيقة حالها غير ناسٍ ان يتعلم دروساً مفيدة من حياة ابيهِ بالتبني · واعظم درس استفادهُ من تلك الحياة العظيمة شدَّة لزوم القوة العسكرية · ثم خاض الشؤون السياسية يشد أزرهُ عسكرهُ فبرهن انهُ السياسي الكبير الذي لا يُستخفُّ بهِ · واما قاتلو قيصر فانهزموا وقتلوا في معركة هائلة نشبت في فيلبي (٤٢ ق·م·) وبعد اغتيال قيصر بعشر سنين كان هذا الشاب الذي بلغ الثامنة والعشرين من عمرهِ قد استولى على ايطاليا والغرب استيلاء تاماً

(٨٧٥) اقتافيوس يخالع انطونيوس ويملك الشرق (٣١ ق·م·)



الشكل ١٩٨ رسم اوغسطس محفوظ في متحف الفنون الجميلة في بوسطن

واما انطونيوس احد رجال قيصر ، الذي كان اقتافيوس قد وثق بهِ وعقد معهُ عهداً ، فبدا منهُ ما دلَّ صريحاً على انهُ ليس بالسياسي الذي يسوغ الركون اليهِ · زد على ذلك انهُ اضاع كثيراً من شهرتهِ الحربية في حملتهِ المشؤومة على الفرتيين · ولما فتن بجمال كليوباترة ودلَّههُ حبها آثر الاقامة في الاسكندرية وانطاكية · ومنها حكم الشرق الى حدود الفرات · واقام مع كليوباترة مليكتهِ بابهَّة شرقية كأبهة ملوك الفرس في عهد الامبراطورية · وطلق زوجتهُ اقتافيا · فاغرى اقتافيوس المشيخة ان تشهر حرباً على كليوباترة وبذلك تمكَّن من الزحف على انطونيوس · وكما التقت كتائب قيصر وبمبيوس في ساحة الحرب ببلاد اليونان (ف ٨٦٧) — كتائب الواحد تمثِّل الغرب وكتائب الآخر الشرق — كذلك التقى الآن قائدا الشرق والغرب ، اقتافيوس وانطونيوس ، في اكتيوم على الساحل الغربي من بلاد اليونان · وكانت نتيجة هذا الالتقاء انتصار خليفة قيصر انتصاراً عظيماً

(٨٧٦) اقتافيوس يجعل مصر ولاية رومانية (٣٠ ق·م·) ويضع حداً لقرن الثورات والحروب الاهلية (١٣٣ الى ٣٠ ق·م·)

وفي السنة التالية دخل اقتافيوس مصر دون مقاومة تذكر واستولى على البلاد العريقة في القدم : والمرجح ان كليوباترة هجرت انطونيوس فانتحر وقد حذت هي ايضاً حذوهُ فانتحرت انفةً وكبرياء · وكانت آخر من جلس على عرش مصر من البطالسة (ف ٦٦٠) الذين حكموا مصر مدة ثلاث مئة سنة تقريباً ، منذ موت الاسكندر الكبير · وجعل اقتافيوس

مصر بلادًا رومانية (٣٠ ق.م.) وضمّ الشرق الى الغرب الذي كان متولياً امرهُ. وكانت البلدان التي تحت سلطتهِ تمنطق بجر الروم الذي امست بلدانهُ كلها تحت سلطة حاكم واحد. فتمّت اخيرًا وَحدة الحكومات الرومانية وانتهى (٣٠ ق.م.) قرن الثورات والحروب الاهلية الذي كان قد ابتدأ في زمان طيباريوس غرقس واخيهِ (١٣٣ ق.م.)

(٨٧٧) بداية قرني السلم

وكان فوز اقتافيوس علامة لانتصار قوة الفرد النهائي في العالم القديم باسرهِ كما انتصرت تلك القوة في الشرق منذ عهد عهيد. وعَقَب قرنَ النزاع الذي انتهى بنصرة اقتافيوس قرنا سِلمٍ راسخ لم يتزعزع الاَّ مرَّة واحدة. هذان هما القرنان الاولان للامبراطورية الرومانية بدايتها سنة ٣٠ ق.م.[1] وسندرس في الفصلين التاليين قرني السلم المشار اليهما

مسائل

٨٣

اية مشاكل احاطت بالحكومة الرومانية في ايطاليا؟ وخارج ايطاليا؟ ماذا تقول في مقدرة المشيخة وحقها المشروع في تلافي هذه المشاكل؟ ماذا قال طيباريوس غرقس للعامة؟ ماذا عمل لمساعدتهم؟ وماذا كانت النتيجة.

٨٤

ماذا كان السبب الرئيسي لحبوط مساعي طيباريوس غرقس واخيه؟ الى اي نوع من السلطة اتجهت زعامتها؟ كيف تسلَّط العامة على الجيش؟ كيف كان ماريوس من الوجهة السياسية؟ وهل توفّق؟ كيف كان الآن شعور الحلفاء الايطاليين نحو

---

(١) يجب ان يلاحظ ان قرني السلم المذكورين اعلاهُ لم يبتدئا ببدء العصر المسيحي بل قبل السنة الاولى منهُ بثلاثين سنة. ولذلك كان قرنا السلم هذان لا يقابلان تمامًا القرنين الاولين من التاريخ المسيحي

رومية ؟ ماذا كانت نتيجة الحرب مع الحلفاء ؟ قصَّ خبر قيام سُلّا · كيف تغلّب على ارادة العامة ؟ هل كان عملهُ جائزًا مشروعاً ؟ ماذا جرى في رومية بعد براح سلّا لها قاصدًا اسية الصغرى ؟ ماذا حدث بعد رجوع سلّا الى ايطاليا ؟ ماذا كانت سياسة سلّا ؟ وكيف مشّاها ؟

٨٥

هل نجح العامة في خلعهم تسلط المشيخة ؟ اي قيادة عظيمة اسندوها الى ببيوس ؟ قص نبأ اعماله الحربية ضد لصوص البحر وفي الشرق · أخبر عن قيام يوليوس قيصر · كيف كانت علاقاتهُ مع قتلينا صدمة لهُ ؟ قص نبأ حملاته في غاليا · ماذا كان رايهُ في الحالة السياسية برومية ؟ ماذا فعلت المشيخة لتحبط اعمال قيصر ؟ ماذا كانت نتيجة زحف قيصر على رومية ؟ اذكر نبأ هجومهِ على ابيروس · اذكر ما انجزهُ قيصر من الاعمال بعد انتصاره · قص نبأ موته وما نتج عنهُ ·

٨٦

اذكر قصة اقتافيوس حتى معركة فيلبي · كيف استولى اقتافيوس على الغرب ؟ من كان المتسلط على الشرق ؟ اي عالم عظيم اصبح تحت تسلطه ؟ اي نوع من القوة انتصر عند نهاية قرن من الثورات ؟ ماذا كان مزمعاً ان يتلو ذالك ؟

القسم الخامس

الامبراطورية الرومانية

الفصل الخامس والعشرون

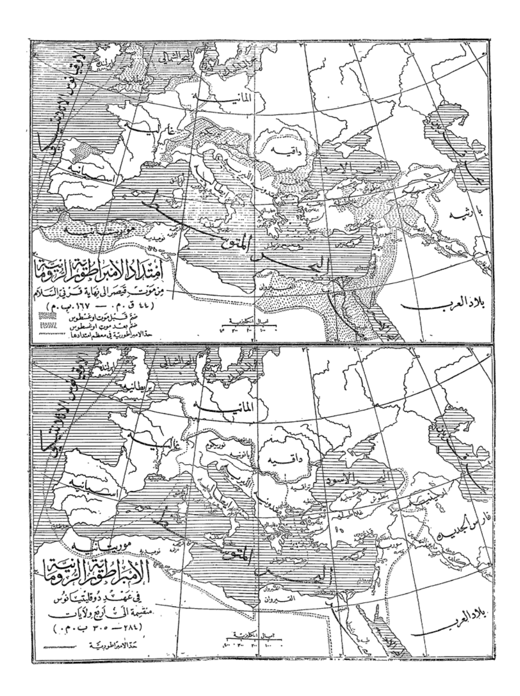
اوّل قرنَي السلم : عصر اوغسطس وخلفائه

٨٧

حكم اوغسطس وبداية قرني السلم

(٨٧٨) اعتدال سياسة اقتافيوس

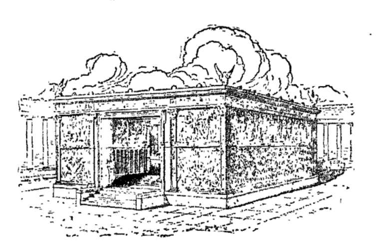
ولما عاد اقتافيوس الى ايطاليا تهلّل جميع النــاس على اختلاف درجاتهم لانصرام قرن الثورة والحرب الاهلية والنهب والتخريب . وشعرت الاكثرية الساحقة من الرومان الآن بلزوم وجود متسلط فرد يتولى ادارة شؤون الممالك الرومانية في جميع الاصقاع . وبناء على ذلك اقدم اقتافيوس على تنظيم شؤون الامبراطورية الرومانية واصلاح حكومتهــا بهمّة لم يخامرها كلال . واستمرّ على عمله هــذا اربعاً واربعين سنة متذرعاً بالوسائل السلمية فقط حتى انال الامبراطورية ما كانت في حاجة ماسة اليه آمــادًا طوالاً . وكانت العقبة الصعبــة المرتقى في عمله هذا تغيير شكل الحكومــة الحالي الى شكل آخر يستتب معهُ للسلطة التي حصل عليها بالقوة الحربية محلٌّ مشروع . وكان اقتافيوس شديد الاحترام لانظمة الجمهورية


امتداد الامبراطورية الرومانية
من موت قيصر الى نهاية قرني السلام
(٤٤ ق.م. — ١٦٧ ب.م.)
ضم قبل موت اوغسطوس
ضم بعد موت اوغسطوس
حد الامبراطورية في معظم امتدادها
اميال انكليزية
المانيه
غاليه
اسبانيه
موريتانيه
نوميديه
داقيه
البحر الاسود
البحر المتوسط
البحر الشمالي
ايرلندة
بريطانيه
بلاد العرب
بارثيه
الامبراطورية الرومانية
في عهد دوقليتيانوس
منقسمة الى اربع ولايات
(٢٨٤ — ٣٠٥ ب.م.)
حد الامبراطورية
المانيه
غاليه
اسبانيه
موريتانيه
نوميديه
داقيه
نوريكوم
بانونيه
تراقيه
البحر الاسود
البحر المتوسط
البحر الشمالي
ايرلندة
بريطانيه
القيروان
فارس الجديده
بلاد العرب

وقوانينها فلم يُقدم على الغائها ، ولا طمحت نفسهُ الى الجلوس على عرش الملك بأبّهة ملوك الشرق ، خلافاً لقيصر . ولذلك نراهُ من الآن فصاعداً وهو يجاهد لنيل السيادة ، محافظاً على رسوم الجمهورية . ولما جاءَ ملء الزمان انتخب ليتولّى منصبهُ السامي

(٨٧٩) تنظيم اقتافيوس للدولة الرومانية

وحين عاد اقتافيوس الى رومية ، لم يتعرَّض للمشيخة بشيء بل بذل جلَّ العناية في سبيل تقويتها واصلاح حال اعضائها فانعم عليها وعلى الشعب الروماني حرًّا مختارًا بما كان لهُ من السلطان . وذلك في كانون الثاني سنة ٢٧ ق ·م· ولكن لما كان الدهر قد علَّم المشيخة ضعفها وعجزها عن تنظيم العالم الروماني وإحكام ادارتهِ ، قلدتهُ بصورة رسمية قيادة الجيش



الشكل ١٩٩

ترى في هذا الرسم فسحة محوّطة بالرخام تتضمن "مذبح السلام الاوغسطي" الذي شيّد بامر المشيخة اكراماً لاوغسطس . وكانت الفسحة مكشوفة من اعلاها بلا سقف والجدران المحيطة بها التي لا يزال بعضها موجودًا مغطاة من الاسفل بزنار عريض من اللوالب النباتية المزخرفة . وفي الواقع كانت فاخرة جدًّا . وكان فوقها سلسلة من النقوش البارزة احدى حلقاتها الى يمين الباب تمثل البطل الخرافي اينياس آتياً بتقدمة الى هيكل أسرة الآلهة الرومانية (آلهة البيت) التي حملها من طروادة الى لاتيوم

وتولّي حكم اهم الولايات التي على الحدود . وفضلًا عن هذه السلطة الواسعة ، كان لهُ اهمّ حقوق التربيون (ف ٧٣٧ و٧٤٦) وعلى هذا المنصِب الاخير أسس مدَّعاهُ الشرعي بسلطتهِ في المشيخة

(٨٨٠) القائد المتسلط الجديد

وفي الوقت نفسهِ منحتهُ المشيخة لقب « اوغسطس » الموقر وكان الاسم الخصوصي لمنصبهِ ، لفظة لاتينية معناها « الاوّل » اي اوّل الاهالي . ومُنح لقباً آخر كان في القديم يُمنح للقائد وهو لقب امبراطور . وحسب اوغسطس منصبهُ منصب موظف روماني عيَّنتهُ لهُ المشيخة الى مدة معلومة يُعاد انتخابهُ في نهايتها

كانت الامبراطورية الرومانية التي برزت الآن الى الوجود تحت حكومة مزدوجة ،

(٨٨١) حكومة الدولة الجديدة المزدوجة . تفاوُل قوة المشيخة

حكومة المشيخة وحكومة الامبراطور الذي نراه قد فعل ما كان ابوهُ بالتبني ، يوليوس قيصر العظيم ، يَعدُّهُ مما لا يؤبهُ لهُ . فانهُ ارضى انصار الجمهورية القديمة لان التنظيمات الجديدة قضت باعادة الجمهورية رسميا الأ ان التوازن في هذه الحكومة المزدوجة ، التي حاول بها اوغسطس ان يحتفظ بالجمهورية القديمة ، لم يكن كما يجب اذ كان الامبراطور هو الحاكم الحقيقي الذي بيده العزل والتولية بلا معارض ولا منازع . لان جميع كتائب الجند كانت رهن امره واشارتهِ . والحكومة الجمهورية التي اوجدها افضى امرها الى ان تكون حكومة عسكرية . وهكذا كان مصير الامور في الشرق فان مصر ظلت مملكة خاصة بالامبراطور ، ولم يكن للمشيخة اقل سلطة فيها او عليها فكان هو المالك عليها بكل ما تعنيهِ لفظة ملك في الشرق ، فكان يجبي منها دخلهُ الهائل ويتسلط عليها كما تسلط الفراعنة والبطالسة من قبل (ف٦٦١) وكان لسلطانهِ المطلق في مصر تأثير كبير في مركزهِ كامبراطور وفي اجراءاته السياسية في سائر الاماكن . ولم يفهم الشرق عموماً الأ ان مقام اوغسطس هو مقام ملك فاطلق عليه لقب ملك . وكان لذلك تأثير عظيم في رومية

(٨٨٢) سياسة اوغسطس السلمية

وكانت الامبراطورية التي بسطت رومية سلطتها عليها مؤلفة من عالم البحر المتوسط اي البلدان التي تحيط به من جميع جهاته مشتملة على جميع سواحلهِ . وكانت المسألة الخطيرة التي تستدعي النظر والاهتمام ، مسألة الحدود على الثغور التي غادرتها الجمهورية بلا حلّ . كان في الجنوب حدّ طبيعي وهو الصحراء وكان في الغرب حدٌّ آخر طبيعي وهو الاقيانوس الاتلانتيكي . واما في الشرق والشمال فلم تُقم حدود لانهُ كان في الامكان القيام بفتوحات جديدة فيها . ولكن اوغسطس انتهج خطة التنظيم والترتيب واحكام رَبط اجزاء الامبراطورية كما تسلَّمها دون ان يطمح الى الفتح . وبناء على ذلك كان الفرات الحدّ الشرقي والدانيوب والرين الحد الشمالي . ونظّمت على الحدّ الشمالي سلسلة ولايات غربي الرين وجنوبي الدانيوب تمتد من البحر الشمالي الى البحر الاسود

(٨٨٣) الجيش

وكان لا بدَّ من جيش كبير دائم لحماية الثغور المترامية الاطراف . ويرجح ان عدد رجال الجيش كان ، على وجه التعديل ، مئتين وخمسة وعشرين الفاً حشِد معظمهم من الولايات التابعة لرومية . وكان الجندي الذي ينتظم في سلك الجيش يُمنح حقوق الرعوية الرومانية جزاء لهُ على خدمتهِ . وفي ذلك تأييد لادعاء ان الجيش الروماني كان مؤلفاً من الرعايا الرومانيين . ولكن لم يسمع فيما بعد وقع اقدام الكتائب في ايطاليا لانها أُقيمت من هذا الوقت على حماية الثغور التي كانت متفاوتة المسافات فلم يرَ الرومان الجنود الذين كانوا يذودون عنهم

(٨٨٤) عمل اوغسطس العظيم • تنظيمهُ الولايات

وشرع اوغسطس الآن يقوم، لعالم البحر المتوسط، بعمل قام بمثلهِ داريوس لامبراطورية الفرس قبل خمس مئة سنة (ف ٢٧٥) ازمان كانت اعظم مساحةً من الامبراطورية الرومانية الآ ان هذا العمل الخطير الذي قام بهِ اوغسطس من تنظيم وتنسيق لم يرَ مثلـهُ العالم القديم لان عمران العالم الذي قام بتنظيمهِ اوغسطس الآن كان ارقى من عمران الفرس بما لا يقاس • وكانت التجارة في بحر الروم متسعة النطاق الى درجة لم يحلم بها اهل العصور القديمة • وكان لا بـدَّ من إدماج شعوب وامم عظيمة في جسم الامبراطورية بطريقـة رسمية ، ومنحهم حكومة عادلة وقديرة • وكان لبعض تلك الامم حكومات ذات انظمة قديمة راقية جدًا واما البعض الآخر فكان امرهُ فوضى • فالامة المصرية كانت حكومتها ارقى حكومات العـالم في العصور الخوالي ونُظُمها ارقى ما عرفهُ العالم القديم • وامـا اقاليم الغرب كبلاد غاليا فلم يكن لديها نظام تتمشَّى عليهِ بعد • وكان اوغسطس يسعى لسدّ هـذه الثلمة في ادارة الحكومة

(٨٨٥) نظام الحكـام والولايات المصلح

ولم يكن البلاء بحاكم الولاية في عصر الجمهورية في انـهُ يتولى الاحكام امدًا قصيرًا فقط ، بل في انهُ كان غِرًا عديم الخبرة ايضاً • وبما ان سلطتهُ في ولايتهِ كانت مطلقة كسلطة ملوك الشرق ، لم يستطع القناصل الذين كانوا يتغيرون في الوطن كل سنة ، ان يبسطوا عليهِ شيئاً من السيطرة • اما الآن فصار الوالي يتعين على ولايتهِ من قِبَل الحاكم الدائم في رومية الذي كانت لـهُ السلطة ان يناقشهُ الحساب • فاذا اظهر مقدرة في الادارة وحسن تصرُّف في ولايتـهِ كان على يقين تام من انهُ يبقى في منصبهِ الى مـا شاء الله • فنشأ في عهد مُلك اوغسطس جماعة من حكام الولايات جمعوا ، الى الحُنكة والاختبـار ، المقدرة الكافية في ادارة الاحكام

(٨٨٦) تنظيم اوغسطس لمالية الامبراطورية اول مرة

لم يتصدَّ احد في عهد الجمهورية لمعرفة الكمية اللازمة من المال لنفقات الحكومة ولا المقدار الذي يجب على كل ولاية ان تؤديهُ منها بحيث لا يقع شيء من الحيف على واحـدة منها في تعيين مقدار الجزية المطلوبة • واما اوغسطس فامر بأخذ الاحصاءات المدققة وتخمين الممتلكات لكي يُعلم عـدد النفوس في الامبراطورية وقِيَم الاملاك في كل ولاية فيها • ولما تمَّ لهُ ما اراد من الاحصاء والتخمين استطاع ان يعيّن بالتمام مقـدار الضريبة التي يجب على كل ولاية ان تقدمها لجانب الخزانة وكان جزء مهم من الضرائب المجموعـة يُعاد الى الولايات المختلفة للقيام بالاعمال العمومية اللازمة كمد الطرق ، وانشاء الجسور ، وبناء القناطر لتجري من فوقها قنوات المياه ، وتشييد المباني العمومية • وفي اعداد اوغسطس لهذه التنسيقات

نراهُ قد اخذ كثيرًا عن المصريين ٠ وقد انقضى بهمته الشمَّاء ومساعيه الجليلة قرنا الفوضى والتشويش في الولايات واستتب اخيرًا لرومية القيام بواجب خطير كان مطلوباً منها للحكومات التابعة لها وهو اعطاؤها حكومة موافقة لاحوالها

(٨٨٧) عالم البحر المتوسط يوشك ان يصير امة

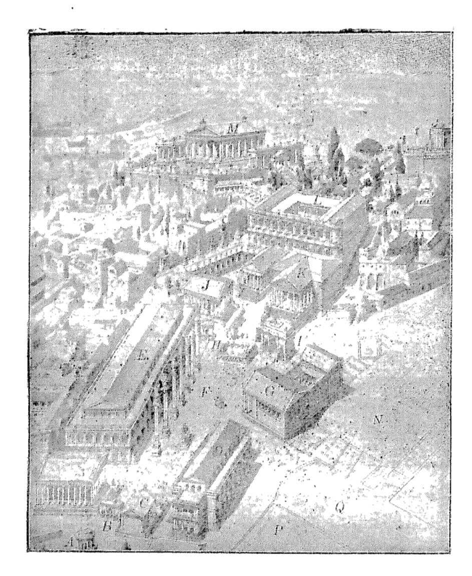
ونرى الآن ان عالم البحر المتوسط، تحت حكم رومية، قد دخل عصرًا جديدًا من التقدم والترقي لم يُعرف قبلًا ازمانَ كانت الامم المقيمة على سواحله يثير بعضها على بعض حرباً اثر أُخرى ٠ وابتدأ عمل التوحيد والضمّ الذي كان غرضهُ جمع شتات الامم المختلفة التي على سواحل البحر المتوسط الى امة واحدة ٠ وقد كانت حتى الآن متفرّقة الاوصال كما رأينا في درسنا تواريخ الامم الشرقية كاثينا وسبارطة ومكدونية ورومية وقرطاجنة وسواها من البلدان التي تتبعنا تاريخ كل منها على وجه الاستقلال ٠ والآن ستضم اوصال هذه البلدان لتؤلف جسماً واحدًا يدعى الامبراطورية الرومانية التي سيكون لها تاريخ واحد قومي يُعرف بتاريخ الامة الرومانية ٠ واما برابرة الجرمان في الشمال فكانوا خارجين عن حظيرة الامبراطورية الرومانية وكذلك كانت البلاد التي شرقيَّ الفرات لانها لم تدوَّخ

٨٨

مدنية عصر اوغسطس

(٨٨٨) محاولة اوغسطس احياء الروح الرومانية القديمة وتدابيره لرفعة شان ايطاليا

وقصد اوغسطس ان يبوّئ ايطاليا مركزًا سامياً في الامبراطورية الجديدة ويجعلها بمنزلة القائد المهيب لجميع الشعوب المحدقة ببحر الروم ٠ فلم يكن شعبها لينحطَّ الى مستوى تلك الشعوب او يعدَّ كواحد منها بلا ميزة ٠ وقد رأينا قبلًا كيف كان تأثير الغنى والسؤدد الفجائيين في الفضائل والاخلاق الرومانية الصلبة ٠ فانهما افسداها وزعزعا اركانها (ف ٨٢٣ —٨٣٥) قبل ان أُتيح لايطاليا ان تصير امة ٠ فسعى اوغسطس سعياً مشكورًا لازالة الضرر واعادة الايام القديمة التي تجلّت فيها الفضيلة الرومانية الساذجة والعادات القديمة الحميدة ومعتقدات السلف الدينية ؛ وسنّ قوانين لصيانة طهارة الزواج ومحاربة الطلاق وقضى على الآلهة الشرقية، التي كان قد ذاع امرها حقباً طوالاً في بلاد اليونان (ف ٦٠٤) وانتشر خبرها في ايطاليا، بان تنبذ من البلاد نبذ النواة ٠ وحضَّ الشعب على وجوب الرغبة في ديانة الآباء والاجداد بعد الرغبة عنها زمناً طويلًا ؛ وأُعيدت الحفلات الدينية القديمة الى



الشكل ٣٠٠ الندوة الرومانية ومبانيها العمومية في عهد الجمهورية الاوّل

ننظر عبر السوق القديمة (F ف ٧٣٧) فنرى التيبر وسفنة وعلى جانبي السوق كانت تُشاهد المباني (E وJ وD وC وI) وكان في الزمان الماضي، صنوف من الخيام الصغيرة المبنية بالخشب كان يباع فيها السمك واللحم واشياء اخرى. وبعد بداية الحروب القرطاجنية نقضت هذه الخيام وأقيم مكانها مبانٍ فاخرة كبناية الباسليقا D التي شيدت بعد السنة ٢٠٠ ق·م بأمدٍ يسير. لاحظ الرسوم الهندسية الارضية المربعة (J و M) والقناطر الدالة على تأثير النفوذ الاترسكي، والسقوف والاروقة المعمدة التي كانت على منهاج سقوف اتيكا واروقتها، والمناور التي كانت تنير داخل البناية (C و E) وهي مقتبسة عن المدن الهلينية. وكان الطريق المقدس يمرُّ بالهيكل المستدير المكرَّس لوستا الاهة المواقد (A)، ويتصل بالندوة عند قنطرة اوغسطس (B)، وهيكل يوليوس قيصر الذي أَلَّه (C). وكان الى اليمين باسليقا اميليوس (D) (ف ٨١٢) والى اليسار باسليقا يوليوس قيصر الجديدة الفاخرة (٨٩٠) ومقابل هذه عبر سوق الندوة القديمة كانت دار المشيخة C التي هندسها يوليوس قيصر (ف ٨٩١) وعند طرف الندوة (الفورم) الاعلى كانت دكة الخطابة الجديدة (H) وبقربها بنى سبتميوس سفيرُس قنطرتهُ الساذجة (I) ووراءها بسمق الكابتول (حصن رومية) وهيكل زُحل (E) وعند قاعدتهِ هيكل كنكورد (K) وفي اعلى منحدرهِ كان المحل الذي تحفظ فيهِ الصكوك العمومية والآثار الكتابية. وعلى قمة الحصن القديم كان هيكل المشتري M وقد مدَّد يوليوس قيصر الندوة الى الشمال بتخطيطهِ ندوتهُ الجديدة (N) وراء دار المشيخة الخاصة بهِ (C) ويمكن مشاهدة ازدياد حجم ندوات الامبراطرة من هذا الجانب في الصورة التالية (ش ٣٠١) حيث ترى نفس الحروف مكرَّرة

سابق رونقها وبهائها باساليب تثير العواطف الكامنة وتضرم الحاسات الخامدة · ورُمّمت في الوقت نفسه هياكل المملكة التي كثيرًا ما آل امرها الى الخراب وشيدت هياكل جديدة ولا سيما في رومية وأُعيدت الخِدم والطقوس الدينية الرومانيـــة في كل مكان الى سابق عهدها

(٨٨٩) رومية الجديدة

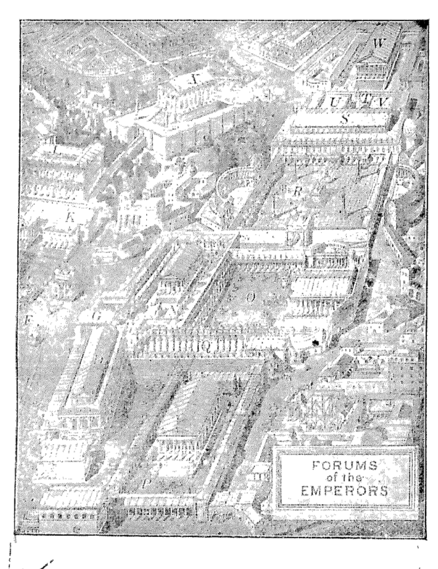
ولم يكن اقتلاع الميول المتأصلة والمتشعبة في اعماق نفوس البشر وطبائعهم، كالتي كانت قد تملكت الشعب الروماني، بالامر السهل · لانها اعمق من ان تبلغها سلطة الحكومـــة او ضغط الشرائع الجديدة · ولقد كان العالم الذي عاش فيه الرومان في العصر الاوغسطي عالمًا جديدًا · وكلما كان اوغسطس يحدث تغييرًا في الاحوال كان يظهر الفرق بين عصره وبين الايام– القديمة قبل ان حُصرت السلطة بيد رجل فذّ – واضحاً كالشمس · فقبل عهد اوغسطس لم يكن في رومية نظام معروف للشُّرَط ولا كانت فيها دوائر للحريق والماء، ولا مكتب منظم كما يجب لبيع الحنطة من لدن الحكومة · وكان اوغسطس يباهي بأنهُ وجد رومية مدينة مبنية باللبن فغادرها مبنية بالرخام · وكان اهمّ ما يتجلّى لعين من يزورها في عصرها الجديد، المباني الفخمة الجديدة · لان رومية الجمهورية كان ينقصها مراسح جميلة ومدارس عظيمة لتدريس العلوم الراقية ومكاتب واندية للموسيقى مما كانت تزدان به المدائن الهلّينية · وبالطبع لم يكن في روميـــة قصر ملكي كالذي كان في الاسكندرية المدينة التي كانت لا تزال بمبانيهـــا العظيمة اجمل وابهى مدن العالم القديم قاطبةً

(٨٩٠) روميـة اعظم مركز للفن · مباني اوغسطس الملكية

ان المباني العظيمة التي شرع فيها اغسطس الآن جعلت رومية في المقام الاول من الوجهة الفنية في العالم القديم طرًّا · وكانت معظم المبـــاني التي عُني اوغسطس بتشييدها اما مما كان قد وضع هندستهُ ابوهُ بالتبني، الدكتاتور العظيم، او شرع في بنائه ولم يفسح لهُ الاجل ان يتممهُ · وضمّ اوغسطس جملة منازل كانت قائمة على التل البلتيني وجعل من مجموعهـــا قصرًا فخماً لسكناهُ · وشيد هيكلًا جـــديدًا لابلُّون محاطاً بالاروقـــة المعمّدة وانشأ فيه مكتبة كبيرة بالقرب من باب قصره

(٨٩١) المباني الجديدة في الندوة وجوارها

وكان القصر يشرف على مجموعة فخمة من الابنية الرخامية الجديدة التي كانت تحدق بالندوة القديمة · وكان اقرب الابنية الى القصر البناية التجارية الفاخرة التي كان قيصر قـــد شرع في بنائها ولم يفسح لهُ في الاجل لاتمامها · ثم اتلفت النار بعد ذلك جانباً منها فقام الآن اوغسطس ورمّم ما تلف (ش ٢٠٠ E) وشيّد مقابـــل الباسيليقا الجديدة بناية جديـــدة للمشيخة كان قيصر قد وضع هندستها ولكنهُ لم يبنها قط (ش ٢٠٠ G) وبنى اوغسطس



الشكل ٣٠١ ندوات الامبراطرة متصلة بالندوة القديمة التي في شكل ٣٠٠

كانت ندوات الامبراطرة تكوّن حلقة اتصال اذ تربط الندوة الرومانية القديمة (F) بالبنايات الجديدة الفاخرة المختصة بكمبوس مارتيوس ، كمرسح بمبوس وحمامات اغريبا والبانثيون الخ ولكي يتمّ هذا الاتصال قطع تراجان حرف الجبل الذي يصل تل الكابتول بالتل الكويرانلي الى عمق مئة قدم ولا يزال عموده ُ (T) دليلاً على علو الحرف المذكور . ولم يبقَ من هذه الفخامة الاّ القليل الآن وكانت دار المشيخة الخاصة يوليوس قيصر (C) والندوة الجديدة (N) تمتدان من الندوة القديمة شمالاً وتشغلان بقعة الارض التي كان يجتمع فيها مجمع العامة فيما غبر من الزمان . ثم امتدت هذه الزيادة على الندوة من الشمال في نفس الجهة باضافة ندوة اوغسطس (O) (ف ٨٩١) . ثم مدّد امبراطرة القرن الاول والثاني (ب·م) العظام هذه الزيادة الشمالية في جهتين من الجنوب الشرقي (P وQ) ثم من الشمال الغربي (R و S و U و V و W) وبنى فسباسيانس في القرن الاوّل (ب·م) ندوة السلام الجميلة (P) وادخل نرفا الشيخ ندوتهُ الضيقة المستطيلة (Q) وفي القرن الثاني (ب·م) بنى تراجان على الجانب الآخر من ندوة اغسطس (O) افخر جميع الندوات (R) و باسيليقا فسيحة (S) تدعى باسيليقا البيا بالقرب منها وكان وراءها مكتبتاهُ (U وV) وعمودهُ المدهش قائم (T) بينهما و بنى هدريانس اكراماً لتراجان هيكلاً (W) وهو تكملة صف افخم وافخر المباني التي رآها العالم القديم

مقابل طرف الندوة هيكلًا لعبادة ابيه بالتبني ، قيصر ، الذي الّهَهُ قومــهُ فدُعي الهيكل بهيكل يوليوس الاله (ش ٢٠٠ C) واقام اوغسطس عند طرف الندوة الآخر دكّة للخطابة من الرخام النقي (ش ٢٠٠ H) مقابل الهيكل . وكان قيصر قــد بنى ندوة جديدة وراء الارض المقصود بنــاء دار المشيخة الجديدة عليها عرفت بنــدوة قيصر (ش ٢٠٠ و ٢٠١ N) . وحدت زيادة الاشغال التجارية اوغسطس على بناء ندوة ثالثة بجانب ندوة قيصر دُعيت بندوة اوغسطس

(٨٩٢) تأثير العوامل اليونانية والشرقية في هندسة المباني الرومانية

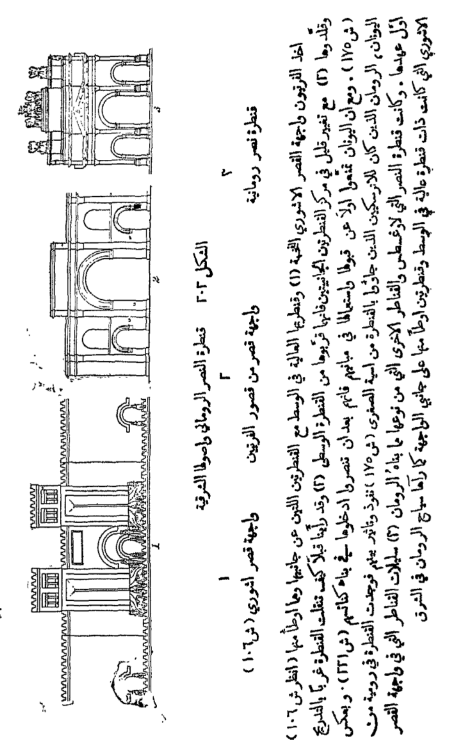
وقد نسج الرومان في هندستهم البنائية على منوال اليونان والشرق . فكانت مبانيهم منقولة عن نماذج يونانية وشرقية . لم يكن للقنطرة محل في المباني اليونانية ولكن الرومان احلُّوها في مبانيهم منزلة رفيعة كما احلُّوا الاروقة المعمدة . فكانت القنطرة وهذه الاروقة من اهم ما يجذب النظر في مباني الرومانيين . ولولاهم لم تنل القنطرة منزلتها المهمة في المباني الحديثة عندنا والظاهر ان اوغسطس كان شديد الشغف بآثار الشرق القديم الذي زاره غير مرَّة . وكان لقنطرة النصر التي بنيت اكراماً لهُ ابواب كما كان لواجهــة القصر الاشوري (ش ٢٠٢) . ونقل اوغسطس من وادي النيل عدداً من المسلّات المصرية ونصبها في رومية وحين عزم على تشييد ضريح عائلتهِ اخــذ رسم هندستهِ من الشرق . وبنت احدى الاسر النبيلة من سكان رومية هرماً ليكون مقرّ راحتها الابدي لا يزال قائماً في ارباض المدينة حتى اليوم (ش ٢٠٣)

(٨٩٣) لم يكن للرومان شيء من قوة الابتكار لا في النقش ولا التصوير

ومع انصباب الرومان واقبالهم على تشييد المبــاني النفيسة ، كان اهتمامهم بالنقش اقل مما ينتظر . فلم يقم في روميــة نقاشون مبتدعون كالذين قاموا في اثينــا . ولم يكن في رومية مصوّر واحد مشهور . وكان نوع التصوير الوحيــد الذي زاولوهُ ضرباً من زخرفــة الجدران التي يشاهدها السياح في بمباي حتى الآن والتي سنتكلم عنها فيما بعد

(٨٩٤) عجوز رومية الى العلم . سترابو والجغرافية . تأخر العلم

اذا حسبنا رومية مقلدة في الفن او الصناعة فقد كانت كذلك بل اكثر في العلم . فلم ينبغ فيهــا مثل ارخميــدس (ف ٦٨٦) واراتستنيس (ف ٦٨٩) وكان اشهر كتاب في الجغرافيا تأليف رجل يوناني اقام في رومية اسمهُ سترابو . ومع ان هذا الكتاب لم يكن منسقاً تنسيقاً علمياً ، كان المؤلف الجغرافي المعتمد عليهِ . ولا يزال النــاس حتى الآن يُقبلون على مطالعتهِ والاستفادة منهُ ككتاب رحلات قديم العهد . ولكنهُ في الوقت نفسهِ كان الحدّ الفاصل بين العصر الهليني الذي نبغ فيهِ رهط من جلّة العلماء الذين جعلوهُ ، بنتاج قرائحهم ، اعظم عصور العلم في العالم القديم ، وبين هذا العصر الذي اخذ يتضاءل فيهِ نور العلم



الشكل ٢٠٣ قنطرة النصر الروماني واصولها الشرقية

١ واجهة قصر اشوري (ش١٠٦) ٢ واجهة قصر من قصور الفرتيين ٣ قنطرة نصر رومانية

اخذ الفرتيون واجهة القصر الاشوري الفخمة (١) وقنطرتها العالية في الوسط مع القنطرتين اللتين عن جانبيها وهما اوطأُ منها (انظر ش ١٠٦) وقلّدوها (٢) مع تغيير قليل في مركز القنطرتين الجانبيتين فانهم قرَّبوهما من القنطرة الوسطى (٢) وقد رأينا قبلاً كيف تنقلت القنطرة غربًا بالتدريج (ش١٧٥) . ومع ان اليونان تمنَّعوا اولاً عن قبولها واستعمالها في مبانيهم فانهم بعد ان تنصروا ادخلوها في بناء كنائسهم (ش٢٢١) . و بعكس اليونان , الرومان الذين كان للاترسكيين الذين جاؤُوا بالقنطرة من اسية الصغرى (ش١٧٥) نفوذ وتاثير بينهم فوجدت القنطرة في رومية من اوّل عهدها . وكانت قنطرة النصر التي لاوغسطس والقناطر الاخرى التي من نوعها مما بناه الرومان (٣) سليلات القناطر التي في واجهة القصر الاشوري التي كانت ذات قنطرة عالية في الوسط وقنطرتين اوطأَ منها على جانبي الواجهة كما رآها سياح الرومان في الشرق

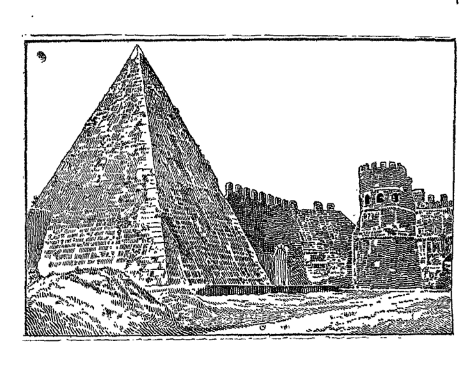
(٨٩٥) الاهتمام العظيم في الآداب. الرومان الحاصلون على التهذيب اليوناني الروماني في مقدمة مهذبي العالم القديم

وكان الرومان كَلِفين جدًّا بالآداب عديمي الاكتراث للعلوم • وكان زعماؤُهم يظهرون احيانًا ميلًا شديدًا الى الادبيات يكاد يقرب من العبادة حتى تحت اثقل الواجبات • فان قيصر كتب رسالة موضوعها «اللغة اللاتينية» وهو يقطع جبال الالب في هودج وعقلهُ منهمك في قضايا ومشاكل حروبهِ في غاليا • رجال كهولاء كانوا قد درسوا في اثينا او رودس وتطلَّعوا

من انفس كتب العلوم والآداب اليونانيـــة · وكان قيصر وشيشرون واضرابهما كل يوم يتكلمون باليونانية بعضهم مع بعض وربما اكثر مما كانوا يتكلمون باللاتينية· وقد امتزجت فيهم المدنية الهلينية والاخلاق الرومانية فحصل من امتزاجها اسمى العقول تهذيبـاً ورقياً في العالم القديم · ولم يكن بين متهذبي الجوالي اليونانية المتقهقرة في الشرق من يستطيع مباراة هولاء الرومان في التهذيب وقوة العقل · والصحيح ان بلاد اليونان لم تنجب رجالاً من هذا الطراز اجتمعت فيهم مواهب متعددة جعلتهم في المقدمة سواء كان في الزعامة الاجتماعية او في ما انتجتهُ عقولهم من جواهر الآداب

(٨٩٦) شيشرون نموذج المتهذبين التهذيب العالي في عصر الجمهورية · كتاباته وتأثيرها الدائم

وكان شيشرون اعظم الرجال الذين انجبتهم رومية علماً وتهذيباً· وحين اخفقت مساعيـــهِ السياسيـــة لافتقـاره الى الثبات والحزم، تحـوّل عـن السياسة الى الآداب · ولكنهُ قبل ان تحوّل عن معترك السياسة والشرع اغنى اللغة وجمّل نثرها بما كان يلقيـه فيها من الخطب الرنّانـــة · وهو اعظم خطيب ورد ذكره في تاريخ رومية · وبعد اعتزالـهِ السياسة ومهامّها عكف على تحبير المقالات في فن الخطابة وغيره من المواضيع المفيدة فكتب سلسلة مقالات في علم السلوك · وكتب رسائل في الصداقـة



الشكل ٢٠٣ قبر هرمي الشكل لنبيل روماني يسمى قستيوس

يرجح ان اغنياء الرومانيين الذين كانوا يعرفون الشرق معرفة تامة آثروا ان يبنوا قبورهم على نمط شرقي كما فعلت اسرة النبيل قستيوس . ولما بني هذا القبر في عهد اوغسطس كان خارج المدينة ولكن غب مرور ثلاث مئة سنة اصبح ضمن السور الذي بناهُ اوريليانس (٢٧٠ — ٢٧٥ م) صيانة المدينة من هجمات البرابرة . ويشاهد هنا جزء من سور اوزيليانس على جانبي الهرم

والشيخوخة وغيرها وخلّف بضع مئين من الرسائل التي احتفظ بها اصدقاؤُهُ · وكان آخر ضحية من ضحايا الحرب الاهلية · فتك بهِ جماعة من جنود انطونيوس القُساة فمات ولكن تأثير كتاباتهِ خالد لا يموت · فقد جعلت اللغة اللاتينية من اجمل الذرائع للتعبير عن العواطف البشرية ونموذجاً لانفس اساليب الانشاء البليغ · وكان لها تأثير عظيم في ابلغ الكتابات في جميع لغات اوربا لا يزال حتى الآن

(٨٩٧) ظهور الشعر في عصر اوغسطس· هوراس

ولما بلغت الجمهورية ايامها الاخيرة كان شيشرون والمعاصرون لهُ من اضرابهِ قد ابلغوا النثر في اللغة اللاتينية درجة الكمال معها كانت عليه البلاد من الاضطراب والحرب الاهلية· ثم ظهر في اوائل الامبراطورية ابلغ الشعر اللاتيني فكأنَّ الامبراطورية في اوَّل فتوَّتها وعهد السلام الذي اوجدهُ اوغسطس قد اوحيا الى قرائح الشعراء ما اوحيا من نفيس الشعر · وكان هوراس ، انبغ شعراء زمانه، قد درس في بلاد اليونان وعرف الشعراء الغنائيين (ف ٤٧٤) من قدماء اليونانيين مع انهُ لم يكن الاَّ ابن احد الموالي من اصل مجهول · وقد كابد من المخاطر وقاسى من البلايا ما كابدهُ وقاساه اولئك الشعراء من قبل في الحروب الاهلية التي طال امدها · وكانت رنات اصوات اولئك الشعراء الغنائيين تتجاوب اصداؤُها في اعماق نفسهِ حتى انهُ وجد صوتهُ بينها· ثم شرع ينظم الشعر ويمثل فيهِ احوال الناس في الزمان الذي عاش فيهِ·ولا تزال اشعارهُ صورة حية لحياة الامة الرومانية في عصر اوغسطس وستبقى منظومات هوراس من اعظم المتروكات التي ورثها الادب عن العالم القديم لانها كنزٌ نفيس يمثل لنا الحياة الرومانية كما صوَّرها عقل مهذب ناضج · ولا يعلو عليهِ كلام منظوم حتى في انفس وارقى الآداب اليونانية

(٨٩٨) ڤرجيل والاينيدية

وكان ڤرجيل الشاعر الآخر العظيم في العصر الاوغسطي يقضي الكثير من وقتهِ في هدوء العُزلة بمزرعتهِ الموروثة عن اسلافهِ في ظلال جبال الالب في الشمال · وحين كان يسرح طرفهُ في حقولهِ الفسيحة كان الوحي الشعري يأتيهِ فتفيض قريحتهُ بالقريض الذي تحدَّى فيهِ روح ثيوقريطس فمثَّل لنا الحياة القروية الساذجة على هضاب وآكام ايطاليا بكل ما فيها من الجمال الشعري·وعلى كرور الزمان تجلَّى لهُ ما قامت بهِ رومية من الاعمال بصورة مفخَّمة ولا سيما ما تمَّ على يد اوغسطس معيد السلام الى العالم · وشرع ڤرجيل الآن في ابداع قصيدة حماسية أخرى يصوّر بها لذهن القارىء جولان اينياس بطل طروادة من اسية الصغرى الى ايطاليا حيث اسس في غضون مغامراتهِ البطلية الكثيرة أسرة لاتيوم الملكية· ومنهُ على ما يُروى تسلسلت الاسرة اليوليوسية – القياصرة – التي كان آخر زعمائها اوغسطس الذي نجى رومية ووطَّد اركان السلم في العالم · وقد كانت القصيدة الحماسية

هذه المسماة بالاينيدية — نسبة الى اينياس — موضوع اعجاب اهل الزمان الذي نظمت فيهِ • وما زالت حتى الآن تُعدّ من انفس الكتب المدرسية في العالم المتمدن قاطبة • وقد كان لها تأثير خالد في انفَس الآثار الادبية في الاعصر الحديثة

(٨٩٩) اوغسطس يكتب نبأ اعمال حياته بيده ويتركه في الاثر التذكاري بانقيرة

وخلف لنا اوغسطس نبأ اعمال حياته • فانهُ لما بلغ الخامسة والسبعين من عمره وشعر بدنو اجلهِ شرع يجمع قصة حياته السياسية التي نُقشت فيما بعد على صفائح من البرنز ونصبت امام ضريحهِ • وفي هذه القصة المؤثرة المسبوكة في قالب من البساطة والجلال تتجلى لنا اعمال اوغسطس الخطيرة الواحد إثر الآخر على نسق بديع يتجسم فيهِ السموّ والعظمة والمجد حتى عدَّت انفس اثر تاريخي لرجل عظيم خلفهُ لنا العالم القديم ، وقد كتب اوغسطس سطورها الاخيرة وهو في الرمق الاخير من حياتهِ • وقضى اوّل امبراطرة الرومان في التاسع عشر من شهر اوغسطس (آب) الذي تسمى باسمهِ سنة ١٤ م

٨٩

سلالة اوغسطس ونهاية قرن السلم الاول

(٩٠٠) الخلفاء الاربعة من سلالة اوغسطس (١٤ — ٦٨ م)

وكان زمام السلطة العليا في الامبراطورية الرومانية العظيمة مدة نصف قرن تقريباً بيد اوغسطس • وعقبهُ على السرير اربعة من سلالتهِ اما بالدم او التبني الواحد بعد الآخر • وكانت مدة ملكهم نصف قرن آخر فتمَّ بذلك قرن السلم الاوّل • ولم يهيّء اوغسطس في حياتهِ قانوناً للخلافة يعيّن بموجبها خليفتهُ او الخلفاء الذين يعقبونهُ على السرير • فكان لكل روماني مندوحة ان يطمح الى هذا المنصِب السامي • فاضطرّ اوغسطس ان يشرك معهُ برضى المشيخة ربيبهُ طيباريوس ، ابن زوجتهِ من زوجها الاول فشاركهُ طيباريوس في قيادة الجيش ومنصب التربيونية • وبعد موت اوغسطس عينتهُ المشيخة بلا تردُّد مكان رابّهِ • فكان لهُ من السلطة ما كان لاوغسطس دون تحديد مدة توليهِ لمنصبهِ

(١) (٩٠١) ملك طيباريوس

كان طيباريوس جنديًّا قديرًا واداريًّا خبيرًا فعيَّن للولايات حكاماً من اهل الدراية والمقدرة السياسية فبرهن على انهُ الحاكم المحنك القدير ؛ ولم يسمح لغوغاء الرومان الذين

كان يحتقرهم ان يمثلوا المهزلة التي اعتادوا تمثيلها في ايام اوغسطس بان يقترعوا على امر يكون الامبراطور قد بتَّهُ نهائيًا • وهكذا لم يبقَ لحكم عامة الرومان من عين ولا اثر

(٩٠٢) كاليغلا

ولما مات طيباريوس ، انتخب لمنصب الخلافة غايوس قيصر ابن حفيد اوغسطس الملقب بكاليغلا (الحذا الصغير) وقد نال هذا اللقب من الجنود الذين ربي بينهم ثم كان شابًا في الخامسة والعشرين من عمره حسن السيرة ومحبوبًا من اهل رومية في اوّل امره ولكنهُ ما كاد يحس بالسلطة الواسعة التي كانت لهُ حتى ظهرت سجاياه الحقيقية فتمادى في الغي والجور وانغمس في اللذات وذهب في الخلاعة كل مذهب كأنهُ مجنون ونصَّب جواده قنصلًا • قيل انهُ كان يحضر بهِ الولائم ويطعمهُ افخر الأطعمة ويسقيهِ الخمر في كؤوس ذهبية • وبذَّر الاموال الطائلة التي كان قد ادَّخرها طيباريوس في خزانة الدولة ، في الفجور والمنكرات وتشييد المباني التي لم تكن من حاجة اليها • وفيما هو على هذه الحال من ارتكاب القبائح والموبقات من ظلم واغتصاب وقتل ، وثب عليهِ بعض رجال حرسهِ واغتالوهُ في قصرهِ فاراحوا البلاد من شرهِ بعد ان ملك اربع سنين

(٩٠٣) كلوديوس وفتح بريطانيا واقامة نظار الحكومة (٤١ — ٥٤ م)

وفيما كان رجال الحرس الملكي يفتشون القصر وينهبون ما فيه وجدوا شخصًا مختبئًا في احدى غرفهِ يرتعد فَرَقًا اسمهُ كلوديوس ، حفيد طيباريوس وعم كاليغلا • وكان اهلهُ يرفقون بهِ لانهُ كان ناحل الجسم ضعيف القوى الجسدية والعقلية وهو في الخمسين من عمره • ولكن حرسهُ الخاص اخذوهُ ونادوا به امبراطورًا على رغمهِ فاضطرت المشيخة ان تُقرَّهُ على السرير • ومعما كان عليهِ من ضعف الجسم والعقل فقد تجرَّد لخدمة الامبراطورية وعمل كثيرًا في سبيل نفعها •

ومن جملة مآثره غزوتهُ بنفسهِ لبريطانيا تلك الغزوة التي فاز فيها وعادت عليهِ بالفخر لانهُ اضاف الجزء الجنوبي من بريطانيا وجعلهُ من جملة ولايات الامبراطورية الرومانية • وكان ولوعًا بتشييد المباني • ومن اهم آثاره في البناء قنوات الماء في رومية التي اجرى فيها اصلاحات جمة • وقام بعض رجال معيتهِ الذين كانوا يعاونونهُ في ادارة الامبراطورية — ومعظمهم من الموالي اليونانيين — وشرعوا في تأليف نوع من الوزارة قيض لها ان تكون اوّل طائفة من النظار المقتدرين • فكان منهم وزير المالية ووزير الداخلية وآخرون غيرهما

وكان سبب موت كلوديوس — فيما يرجح — عدم مقدرتهِ على انتقاء رجال معيتهِ بالحكمة ، وعجزهُ عن ضبط امور معاونيهِ في ادارة الاحكام مما مهد لاغريبينا ، آخر نسائه ،

(٩٠٤) اغتيال كلوديوس وارتقاء نيرون الى السرير ٥٤ م

نبذ ابن ابنهِ وتعيين ابنها نيرون من زوجها الاوَّل خليفة لهُ . وكان نيرون سليل أُسرة اوغسطس من جهة والديهِ كليهما . وقد وكانت والدتهُ امر تربيتهِ وتثقيفهِ الى الفيلسوف سنقا . فجعلهُ نيرون في الخمس السنين الاولى رئيس وزرائهِ فجرت الاحكام في مجرى السداد والعدل . ولكن نيرون خلع العذار وخاض بجور الشرور والمنكرات منقادًا الى طقيعتهِ الشريرة وسلك مسلك الجور والعسف والقساوة حتى امسى اسمهُ مرادفاً لكل ما هو شرير ومتناهٍ في القبح

(٩٠٥) مساوىء نيرون . حريق رومية ٦٤ م

وكان نيرون ميالاً الى الاشتغال بالفنون . فسلَّم ادارة الحكومة الى اخصائهِ من رجال القصر وخرج الى السياحة في بلاد اليونان والتنقل في امهات مدنها مدَّعياً انهُ من المؤلفين البارعين في فنّ الموسيقى . وكان يدخل مباراة الرقص والغناء وسباق المركبات طمعاً باحراز الجوائز . وكان شديد الولوع بفنّ التمثيل والصيد والملاكمة والمصارعة قيل انهُ كان يجالد بالسيف في المراسح بمرأى من المتفرجين . وكان في الوقت نفسهِ جباناً سيّئ الظنون بالناس فقتل معلمهُ سنقا لسوء ظنهِ بهِ واغتال ابن كلوديوس وغيرهُ من الابرياء والافاضل وقتل امرأتهُ . وتكملة لمساوئهِ وفظائعهِ امر بقتل والدته . وكان شديد التبذير والاسراف فالجأهُ ذلك الى زيادة الضرائب على الولايات التي أسرف في قتل اشرافها واغنيائها حتى سخط الناس عليهِ ونقموا منهُ افعالهُ الشريرة . فآل الامر الى سقوطه . وحلت برومية نكبة شديدة من جرَّاء النار التي شبَّت فيها اسبوعاً كاملاً والتهمت قسماً كبيرًا منها . قيل ان نيرون هو الذي اضرم النار في المدينة لكي يتمكن من بنائها على شكل ابهى وافخم مما كانت . روي انهُ لما كانت السن النار مندلعة تلتهم المدينة ومن فيها كان نيرون جالساً يلهو بمنظرها ويعزف على آلة طرب لحناً الَّفهُ هو موضوعهُ تدمير طروادة . الاَّ انهُ لا بيّنة لدينا تؤيد صحة هذه المزاعم والتهم المعزوَّة الى هذا الطاغية . وزاد نيرون شرَّهُ بان اتهم المسيحيين باضرام النار في رومية فقبض على كثيرين منهم وعذبهم عذاباً شديدًا اليماً

(٩٠٦) موت نيرون آخر واحد من سلالة يوليوس . نهاية قرن السلم الاول ٦٨ م

وتبرَّم اهل رومية من سوء سلوك هذا الطاغية ومقتوهُ وسئم منهُ المقرَّبون اليهِ لسوء معاملتهِ لهم فاصبح منفردًا بلا صديق ولا نصير . وناء سكان الاقاليم والولايات بالضرائب الفادحة التي ضربها عليهم فشقُّوا عصا الطاعة ورفعوا لواء العصيان . وزحفت الجنود الثائرة على رومية فتوارى نيرون ولجأ الى مخبإٍ يحتمي فيهِ . ولما بلغهُ ان المشيخة اباحت دمهُ انتضى سيفهُ وانتحر . فمات في السنة الثامنة والستين ب.م. آخر متسلط من اسرة اوغسطس . وانتهى بموتهِ قرن السلم الاوَّل (٣١ ق.م — ٦٨ م) لان نفرًا من القواد الرومانيين هبوا الى الجهاد في سبيل القبض على زمام السلطة العليا وكادوا يوقعون البلاد في حرب اهلية

أُخرى يُضرمون نارها ويثيرون شرارها

(١٩٠٧) آثار التقدم الباقية مدة السلالة اليوليوسية

ومعما كانت عليهِ البلاد من التشويش والفساد في ملك اثنين من سلالة اوغسطس فقد بقي فيها شيءٌ من آثار الصلاح والاصلاح اللذين تمتعت بها في عصر طيباريوس وكلوديوس سواءٌ كان في رومية او في الاقاليم الاخرى · ولكن الدولة الرومانية كانت تسعى سعياً حثيثاً الى الملكية التي ينتقل فيها التاج من الوالد الى ابنهِ بالوراثة · ومما ساعد على ترويج هذه الفكرة، المنزلة السامية التي كان قد بلغها القياصرة[١] (هكذا كانوا يسمون الامبراطرة) في عيون الامة الرومانية التي ألَّهتهم وقدمت لهم العبادة في جميع انحاء البلاد كما أَلَّهَ الاسكندر الكبير وقُدّمت لهُ في عصرهِ العبادة · وكان يوليوس قيصر اوَّل من نال هذا الاحترام الفائق · وكانت عبادة الامبراطور فرضاً من فروض التابعية الرومانية · ولم يكن للمنازعات التي ثارت على اثر موت نيرون شيء من التأثير في المكانة السامية التي كانت للامبراطور في عين امتهِ · وكان لاتساع سلطة الامبراطور الروماني، حتى بعد انقراض سلالة يوليوس قيصر، تأثير كبير في التمتع بقرن آخر يسود فيهِ السلم والفلاح · وسيكون كلامنا في الفصل الآتي مقصورًا على هذا القرن — قرن السلم الثاني

مسائل

٨٧

كيف كان العصر الذي ابتدأ فيهِ ملك اوغسطس ؟ كيف كان موقف اوغسطس بالنظر الى الجمهورية ؟ ما هي الوظائف والسلطات الرئيسية التي تقلدها ؟ من قلده اياها ؟ ماذا كانت القابهُ ؟ هل عاشت الجمهورية ؟ من كان المتسلط الحقيقي ؟ ما هي العوامل التي تضافرت على تصييرهِ مليكاً ؟ ماذا كانت سياسة اوغسطس على

(١) اذا استثنينا يوليوس قيصر واوغسطس نجد ان كلوديوس هو الامبراطور الوحيد من السلالة اليوليوسية الذي اله قومهُ لان طيباريوس لم ينل هذا الشرف لعدم محبة الناس له وكاليغلا ونيرون حرماهُ لمساوئهما الكثيرة واخلاقهما الفاسدة

الثغور ؟ كيف حسّن الاحكام في الولايات ؟ اذكر اصلاحاتهِ المالية . هل كان عالم البحر المتوسط موشكاً ان يصير امة ؟

٨٨

اي نوع من العيشة اراد اوغسطس لايطاليا ؟ ماذا اراد ان يكون مركز ايطاليا ؟ كيف كانت رومية قد صارت عالماً جديداً ؟ اية اصلاحات ادخل اوغسطس الى المدينة ؟ والقصر الملكي ؟ والندوة ؟ تأثير اي شعب كان ظاهراً في المباني ؟ هل وُجد جماعة من اهل الابتكار في النقش والتصوير ؟ كيف كانت حالة العلم في رومية ؟ في اي علم ألّف سترابو ؟ كيف كان موقف الرومانيين المتهذبين نحو الآداب ؟ كيف كان نفوذ شيشرون في العصر الاوغسطسي ؟ كيف كان مقام رومية الادبي ؟ ماذا تعرف عن هوراس ؟ وڤرجيل ؟ قل ما تعرفهُ عن اهمّ مؤلفات ڤرجيل . ما هو النبأ النفيس الذي كتبهُ اوغسطس نفسهُ ؟

٨٩

كم كانت المدة التي حكم فيها اوغسطس والاربعة الذين خلفوهُ من سلالتهِ ؟ من خلف اوغسطس ؟ صف حكمهُ ؟ ماذا جرى لسلطة العامة القديمة في حكم طيباريوس؟ مَن خلف طيباريوس ؟ وماذا تعرف عن ملكهِ ؟ قل ما تعرفهُ عن ارتقاء كلوديوس الى السرير ؟ ماذا عمل ؟ من خلف كلوديوس ؟ كيف تهذّب نيرون ؟ صف ملكهُ واخلاقهُ ؟ اية نكبة نزلت برومية ؟ صف نهاية حياتهِ واسبابها ؟ ما هو تاريخها ؟ ماذا تقول في نتائج ملك السلالة اليوليوسية ؟ اي مركز سامٍ أُعطي لامبراطرة الرومان ؟ ما هو العصر الذي عقب اضمحلال سلالة يوليوس

الفصل السادس والعشرون

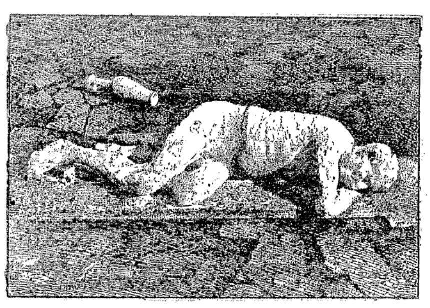
قرن السلم الثاني ومدنية الامبراطورية الرومانية القديمة

٩٠

امبراطرة قرن السلم الثاني من سنة ٦٩ م

(٩٠٨) حلول قرن السلم الثاني بانتصار قسباسيانوس (٦٩ م)

وكان النزاع على العرش بين كبار قواد الجندية، بعد هلاك نيرون، يهدد البلاد سنة كاملة بحروب اهلية أخرى طويلة الامد . ولكن لحسن الحظ كانت جنود قسباسيانوس



الشكل ٢٠٤

يرينا هذا الرسم جثة احد اهالي بومباي الذي مات حينما هاج بركان ڤزوف سنة ٧٩ م ودمَّر المدينة وقد رميت ذرَّات الرماد الدقيقة حول الجثة . وتكوَّن منها بعد وقوع المطر عليها قالب كفر الجثة قبل ان بليت فكان مثلها تماماً في الشكل . وبعد ان بليت تركت في قلب كتلة الرماد قالباً اجوف اخذه الاثريون المحدثون وملأوه جبساً فكان لم تمثال مسبوك لهذا المنكود الحظ في الوضع الذي كان عليه حين خنقه الرماد الذي غشيه منذ أكثر من ١٨٠٠ سنة

القائد القدير في الشرق قوية جدًا حتى عُقد لهُ الفوز دون عناء فنادت بهِ المشيخة امبراطورًا سنة ٦٩ م · وابتدأ بملكهِ قرن السلم الثاني الذي ارتقت في غضونهِ الامبراطورية الى اسمى درجات الفلاح والسعادة بظل من جلس على عرشها من الاباطرة العظام الذين سنذكر فذلكة ما اتوهُ من الاعمال الحربية والسياسية ثم ننظر نظرة اجمالية في حياة الامبراطورية ومدنيتها مدة قرن السلم الثاني

(٩٠٩) ثورة اليهود وتدمير اورشليم

ما كانت الحروب التي شبَّت على الثغور او في الولايات القاصية، لتنزع سلام الامبراطورية جملة · كان ڤسباسيانوس قبل انتخابهِ لعرش الامبراطورية منهمكاً في قمع ثورة اليهود بفلسطين وفي السنة التالية من شبوبها استولى ابنهُ (تيطس) البطل على اورشليم ودمَّرها تدميرًا · ووقعت في غضون ذلك مذابح مخيفة هلك فيها عدد كبير من الثوار (٧٠ م) · وحُظر على اليهود دخول مدينتهم المحبوبة المقدَّسة · ثم جُعلت مستعمرة رومانية تحت اسم جديد · وامست اليهودية ولاية رومانية

(٩١٠) تحصين الثغور وتنظيم الحكومة

وقام الاباطرة في العصر الذي نحن بصدده بعملين عظيمين ، اكمال تحصين الثغور وترقية الحكومة وانظمتها · وكان الحصن الطبيعي للامبراطورية في الجنوب الصحراء وفي الغرب الاتلانتيكي واما في الشمال والشرق فكانت عرضة لهجمات اعدائها. كانت القبائل الجرمانية الرحَّل تهدد الحدود الشمالية بلا انقطاع ولم تكن الحدود الشرقية على الفرات في امن ، او طمأنينة لوجود الفرتيين ، الامة المتمدنة الوحيدة التي لم تكن رومية قد قهرتها بعد ·

(٩١١) الامبراطورية الرومانية حصن مدنية البحر المتوسط ضد الهمجية الداخلية

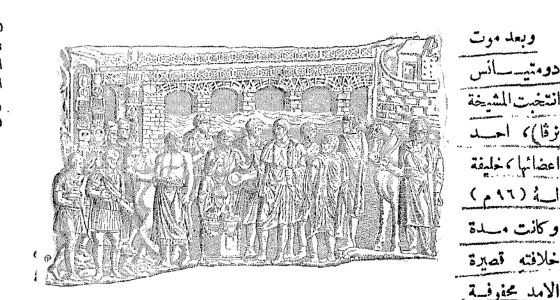
ان مضايقة البرابرة للثغور الشمالية التي بدأت في عهد ماريوس (ف ٨٤٥) لم تكن الاَّ استئنافاً لتلك الحركة العظيمة المعروفة عندنا بتيار المهاجرة الذي جرف منذ عهد بعيد الشعوب الهندية الاوربية الى جهات البحر المتوسط (انظر الشكل الهندسي ٨٣) وحمل اليونان والرومان الى شبهي جزيرتيها · فكانت مدنية البحر المتوسط الآن في خطر ان يغشاها تيار البرابرة ويغرقها كما اغرق تيار اليونان قديماً المدنية الايجية السامية (فصل ٩) · وقد كانت المسألة العظمى امام البشرية في المستقبل «هل يستطيع اباطرة الرومان ان يصدُّوا البرابرة مدة يتسنَّى لهم في غضونها ان يقتبسوا من مدنية البحر المتوسط ما يكفي لجعلهم يحترمونها ويحتفظون على الاقل ببعضها لمنفعة الجنس البشري في المستقبل»

وبذلت الأُسرة الفلاڤانية ، ڤسباسيانوس وابناهُ تيطس (ودومتيانُس) ما في طاقتها

(٩١٣) تحصين الثغور الشمالية (٦٩١ — ٩٦ م)

لتأمين الثغور الشمالية · فبنى (دومتيانس) اسوارًا منيعة في الاماكن التي كان اوغسطس قد عيّنها حدودًا للملكة · واما في بريطانيا فابعد الحدود الى جهة الشمال ثم بنى صفًا من الحصون · ولكنهُ لم يستطع ان يواقف قوات مملكة داسيا المخيفة على الدانيوب الاسفل فرشا ملكها ارضاءً لهُ ومنعاً لتعديّه · فاوجد بهذه السياسة الخرقاء مشكلة صعبة في هذه المنطقة ترك حلها للذين خلفوهُ على السرير

(٩١٣) صد تراجانس قوات البرابرة على الدانيوب الاسفل وافتتاحه لداسيا (١٠١ الى ١٠٦م)



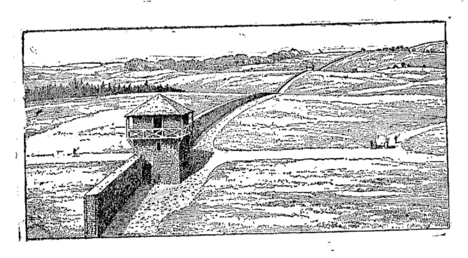
الشكل ٢٠٥ الامبراطور تراجانس
يقدم ضحية عند جسره الجديد فوق الدانوب

نرى في مؤخر الصورة دعامات الجسر الثقيلة من الحجر تدعم القسم الخشبي الفوقاني المبني من اخشاب قوية وفي مقدمها مذبح يدنو منهُ الامبراطور من جهة اليمين وفي يده اليمنى اناء يسكب منهُ سكيبة على المذبح . وعن يسار المذبح وقف كاهن عريانًا حتى وسطهِ يقود ثورًا لمحرقة . ويدنو من جهة اليسار طائفة من ضباط الامبراطور حاملين الوية الجيش . وهذا المشهد منقوش مع مشاهد أخرى كثيرة على عمود تراجانس برومية . وهو من اجمل نماذج النقش البارز الروماني في القرن الثاني

وبعد موت دومتيانس انتخبت المشيخة (نرڤا) احد اعضائها خليفة لهُ (٩٦ م) وكانت مدة خلافته قصيرة الامد محفوفة بالهدوء والسكينة فظلت الحالة في منطقة الدانيوب الاسفل على ما كانت عليهِ من الشدة والخطر حتى قام (تراجانس) الجندي الباسل المحنّك خليفة لنرڤا فاستولى على حصون الداسيين الواحد تلو الآخر ودمّر عاصمتهم بعد ان اثار عليهم حربين · وبنى فوق الدانيوب جسرًا هائلًا (ش ٢٠٥) وجعل داسيا ولاية رومانية وبثّ على الجانب الشمالي من النهر العظيم كثيرًا من الجوالي الرومانية التي لا تزال انسالها حتى الآن تنتمي الى الرومانيين وتدعو بلادها رومانيا · فسكنت القلاقل وساد الامن زمناً طويلًا في جميع منطقة الدانيوب الاسفل · وكل ذلك بفضل سياسة تراجانس الرشيدة الحازمة

(٩١٤) محاربة تراجانس للفرتيين (١١٥-١١٧م)

وعاد مجد رومية بهمّة هذا الامبراطور القائد الكبير ، الى سابق تألقه وبهائهِ بعد ان غشيتهُ غواشي التقهقر والانحطاط منذ عهد قيصر حتى الآن · واوّل ما وجه تراجانس اهتمامهُ اليهِ هو التخم الشرقي الممتد جنوباً من الطرف الشرقي للبحر الاسود الى شبه جزيرة سيناء · واما الجزء الشمالي من هذا التخم فكان الفرات الاعلى الحدَّ الطبيعي لحصَّة كبيرة منهُ · وبسطت رومية جناح سلطتها على النصف الغربي من الهلال المخصب ولم تتعرَّض لنصفهِ الشرقي حيث ازدهرت قديماً مملكتا بابل واشور وحيث كانت قد نشأت مملكة الفرتيين ، انسباء الفرس ، الشديدة الحول وحافظت على كيانها في السراء والضرَّاء منذ عهد السلوقيين الاولين ، مدة ثلاث مئة وخمسين سنة وصدَّت الحملتين اللتين وجَّهتها رومية عليها · ولكن تراجانس نزعت به نفسهُ الكبيرة الى انشاء امبراطورية شرقية عظيمة كمملكة الاسكندر · فزحف بجيشهِ على الفرتيين وقهرهم وضمَّ ارمينيا وما بين النهرين واشور الى امبراطوريتهِ كولايات جديدة تابعة لها وزار اخربة بابل لكي يشاهد المكان الذي مات فيه الاسكندر قبل اربع مئة واربعين سنة · ولما رآهُ قيل انهُ لم يرَ شيئاً يستحق شهرة كهذه لانهُ لم يرَ سوى كُوَم من الانقاض والحجارة والاخربة · وفوجيء بعد ذلك بشبوب ثورة وراءهُ الجأتهُ الى تقهقر محفوف بالخطر · واعتراهُ مرضٌ لكثرة ما عانى من مشاق السفر فوهنت قواهُ · ولما ان تحقق — والاسى ملء جنانهِ — انَّ حملتهُ العظيمة ستنيء بالخيبة والفشل وافاهُ الحِمام في اسية الصغرى وهو عائدٌ الى رومية (١١٧ م)



الشكل ٣٠٦ ترميم السور الروماني المحصن على الحد الجرماني

هذا السور الحجري البالغ طولهُ نحو ثلاث مئة ميل كان واقياً حدَّ الامبراطورية الرومانية من جهة الشمال ، بين الرين الاعلى والدانوب الاعلى ، حيث كان معرَّضاً للهجوم الجرماني · وكان على مسافات قصيرة معينة في السور مخافر على طول السور وعند النقط الشديدة الخطر أُقيم حصون ونكن تأوي اليها الحاميات (ش ٣٠٨)

(٩١٥) هدريانوس ١١٧ – ١٣٨ م يعتني بتحصين الحدود

وكان (هدريانس) ، خليفة تراجانس ، قائدًا محنكًا واداريا حصيف الرأي في الشؤون السياسية . فلم يحاول ان ينتهج خطة تراجانس ويستأنف اعمال الفتح في الشرق بل بحكمة عدل عنها الاَّ في شبه جزيرة سيناء حيث ارجع الحدَّ الى الفرات · واحتفظ بداسيا وعزز

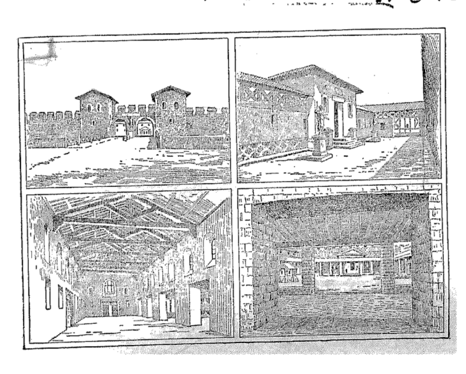
ان هـذا الشاب المصري دخل الجيش الروماني مع رهط من اترابه وابناء قريته . وودَّع اسرته وسافر من الاسكندرية الى ايطاليا في احدى سفن الحكومة الكبرى . وبعد معاناة الاهوال في البحر وصل بسلام الى ميسانوم الميناء الحربي ، بالقرب من نابولي . واسرع في النزول الى البر لكي يتصوَّر ويرسل الى والده كتابًا مع الصورة وكان الرقيم مكتوبًا على ورق البردي باللغة اليونانية بخط جميل . والذي كتبه كاتب عمومي بالاجرة . وهذا نص الرقيم : (ما بين الاهلة تفسير المؤلف) . " من ابيون الى ابيماخوس والده وسيده اولاً ارجو ان تكون بصحة جيدة وان تكون احوالكم جميعكم انت والشقيقة وابنتها واخي حسنة دائمًا . اشكر الرب سيرابس (اله مصري عظيم) لانه انقذني من خطر البحر . وحين وصلت الى ميسانوم وصلني من الامبراطور ثلاث قطع نقود ذهبية (نحو ٧٥ فرنكًا ذهبيًّا) لنفقات سفر . وانا مبسوط جدًّا . فارجو منك يا سيدي الوالد ان تكتب اليَّ سطرًا واوَّل كل شيء طمئني عن حالك وثانيًا طمئني عن حال اخي وشقيقتي . وثالثًا اقبل يديك بالاحترام لانك ربيتني تربية حسنة . ولي الرجاء باني سأترقى سريعًا اذا شاءت الآلهة · سلم على كبتون (احد اصدقائه) واخي واختي وسرنلاَّ واصحابي · سارسل اليك صور تي الصغيرة · اسمي (الروماني الجديد) انطونيوس مكسيموس ارجو ان تكون احوالكم طيبة". وعلى الهامش الايسر حيث يرى سطران عموديان قد أدمجا في الكتاب كالعادة الجارية عندنا ارسل سلام وتحيات رفقائه ابيون (اولاد الضيعة الذين انتظموا معه في الجيش) ثم طوي الرقيم وختم كما في الشكل ١٦٥ وارسل مع البريد الروماني العسكري ووصل سالمًا وقرأهُ والد الجندي واسرته الذين كانوا بذاهب الصبر يتوقعون وصوله اليهم في قريتهم الصغيرة على النيل قبل أكثر من الف وسبع مئة سنة (ف ٩١٦) وبعد ان توفي الاب بعد سنين فقد الرقيم بين قمامة البيت ووجدهُ الاثريون المحدثون بين انقاض جدران المنزل المتهدم . وكان في الرقيم الاصلي بعض ثقوب ووجد مع هذا الرقيم رقيم آخر مرسل من الشاب الى شقيقته بعد ذلك بسنين بعد ان كان قد عين مركزهُ على بعض الحدود الرومانية (ف ٩١٦) وصار له زوجة واولاد . فهذا كل ما حفظته انقاض تلك القرية على النيل من آثار هذا الشاب الذي انتظم في سلك جيش الامبراطورية الرومانية العظيمة في القرن الثاني للمسيح

الشكل ٢٠٧ رقيم ابيون جنديٌ شاب ، في الجيش الروماني الى والده ابيماخوس بمصر

حصون التخم الشمالي كله وخصوصاً الحاجز الممتد من الرين الى الدانيوب حيث بنى السور المتصل الاجزاء (ش ٢٠٦) وشيد سوراً مثلهُ على طول الحد الشمالي قاطعاً بريطانيا . ولا يزال رسم هذين السورين ماثلاً حتى الآن . وبهذه التدابير الرشيدة مشفوعة بالانتصارات المجيدة التي قام بها تراجانس ، بقيت الحدود آمنة هادية ودام فيها الامن امداً طويلاً

(٩١٦) الجيش في ملك تراجانس وهدريانوس

وكان الجيش الروماني الذي حمى الحدود ودافع عن الثغور بقيادة تراجانس وهدريانوس اعظم جيش رآه العالم القديم واحسن تدريباً من كل الجيوش التي وجدت قبلهُ وفي زمانهِ . كانت الجنود



« الشكل ٢٠٨ مرأى حصن روماني على الثغور »

يرى على اليسار في القسم الاعلى من الصورة باب القلعة والصور الثلاثة هي الثكن (قابل ش ٢٠٥)

من جميع اجزاء فيهِ مجموعة الامبراطورية من كل امة ولسان — مثل الجيش الانكليزي في الحرب العالمية الكبرى . فكانت كتيبة من الاسبان مثلاً على ضفاف الفرات وفرقة من الشبان المصريين حامية للسور الذي شُيِّد لصدّ غارات الجرمان . وكان الجنود يستطيعون مكاتبة اهلهم واصحابهم في اوطانهم ولو كانوا في اقصى اطراف الامبراطورية . لان نظام البريد فيها كان غاية في الدقة والاتقان والسكك متشعبة الى كل الجهات فتكوّن مثل شبكة عظيمة تمتدّ الى بلدان الامبراطورية الشاسعة الاطراف . ونستطيع الآن ان نلمس بايدينا ونرى بعيوننا رقعاً حقيقية كتبها شاب مصري كان متجنداً في الجيش الروماني الى ابيهِ المقيم في احدى القرى على ضفاف النيل (٢٧٠). كان هذا الشاب مقيماً على الحد الشمالي من الامبراطورية . وحافظ الرومان كل المحافظة على تدريب الجيش المخصص

بمطاردة البرابرة الذين وراء الحصون ولم يتراخوا فيه قط · وكانوا علاوةً على التدريب العسكري يستخدمون الجنود في بناء السكك والجسور والقنوات العالية وتشييد المباني العمومية وترميم الاسوار التي عند ثغور البلاد ونحوها

(٩١٧) تنظيم دوائر الحكومة من جديد

وفي غضون ذلك كانت هناك تغييرات داخلية خطيرة تجري في الحكومة · فان الامبراطرة انشأوا نظاماً قسموا به الحكومة الى دوائر كان قد بدا ظلها في عصر كلوديوس والآن ظهرت حقيقتها (٩٠٣) · فنشأ لديهم جماعة من الاداريين الخبيرين كان منهم رؤساء الدوائر المذكورة ومعاونوهم الذين قاموا باعباء الحكم في الامبراطورية · ويُعزى معظم الفضل في ابلاغ هذا التنظيم الدرجة التي بلغها من الاتساق الى هدريانوس · فبعد ان مرَّ على رومية ثلاثة قرون او تزيد تدير احكام عالم البحر المتوسط ، تسنّى لها اخيراً احراز نظام راقٍ عرفهُ اهل الشرق وعملوا بهِ منذ عهد بناة الاهرام (ف ٧٥–٨٦)

(٩١٨) ابدال طريقة جباية الضرائب

ومن اهمّ التغييرات الكثيرة التي جرت الغاء نظام الالتزام وجباية الضرائب ، ذلك النظام الذي جلب في الماضي متاعب جمة على اليونان والرومان (ف ٨١١) · وبعد الغائهِ اصبحت الضرائب تجبى من عالم البحر المتوسط العظيم على غطٍ جديد شاع في وادي النيل قبل ان عرفهُ الرومان بثلاثة آلاف سنة (٧٥ وش ٢٨) · وذلك بواسطة جباة قانونيين كانت الحكومة تعينهم من قِبَلها راساً

(٩١٩) اتساع سلطة الامبراطور

ولما اصبح ضبط شؤون هذه الدوائر منوطاً بالامبراطور ، اتسع نطاق سلطتهِ كثيراً · وبعد ان كان « الاوَّل بين رعايا الدولة » كاوغسطس يحكم البلاد بالاشتراك مع المشيخة ، امسى سلطاناً غير مقيد بالمشيخة الاَّ قليلاً بل كاد يكون ملكاً مطلقاً · وحصل في اثناء ذلك تغيير في موقف ايطاليا فان حالة الفلاحين فيها ساءت الى درجة خيف عندها اضمحلال الرعايا الاحرار في الداخلية اضمحلالاً تامًّا · وبما ان ايطاليا لم تكن بلاداً صناعية انحطَّ سكانها انحطاطاً كليًا · ومما زاد في طينة شقائها بلة ، الخاطر الجديد الذي خطر للامبراطرة الآن وحلَّ محل فكرة اوغسطس من جهة الامبراطورية · فان اوغسطس رغب في ان تكون الامبراطورية مؤلفة من حكومات مختلفة ترأسها ايطاليا واما هم فمنحوا الولايات ولا سيما في الغرب الرعوية الرومانية كلها او بعضها وقلَّدوا ارباب النفوذ من سكانها رُتباً وبوَّأوهم مناصب عالية في رومية نفسها · فكانت عاقبة ذلك قيام امة جديدة تحدق بنواحي البحر المتوسط · رأينا ظلها في عصر اوغسطس واما الآن فقد تبدَّت حقيقتها · فهبطت ايطاليا الى مستوى الولايات ولم يعد لها ميزة عليها بشيء

(٩٣٠) مجموعة قــوانــين للامبراطورية كلها

ولم يكن سكان الامبراطورية يؤدون الضرائب الى خزانة واحدة فقط بل اصبحوا كلهم تحت حكم شريعة واحدة • وكان رجال القانون في ملك الاباطرة الذين نحن بصددهم اعظم من نبغ في العالم القديم • فمدّدوا قوانين مدينة رومية ووسعوها لكي توافق حاجات سكان الامبراطورية بجذافيرها • واسسوا مجلة احكام شاملة عُدّت اعظم ما ابتكرتهُ العبقرية الرومانية. واذا انعمنا النظر في ما اشتملت عليهِ من القوانين وجدناه عادلاً حقًّا يوافق الطبع البشري • ولا يزال بعض تلك القوانين مرعيا ومعمولاً بهِ حتى في ارقى البلدان المتمدنة • من ذلك ما اصرّ على تنفيذه الامبراطور (انطونيوس بيوس) الذي خلف هدريانس قال : «يجب ان يُحسَب المتّهم بريئاً حتى تقوم بيّنة تثبت الجُرم عليه » • وقد كان لهذه القوانين فعل عظيم في توحيد شعوب عالم البحر المتوسط وتكوين امة واحدة تحت دولة عظيمة تعطف عليهم وتحميهم وتدافع عنهم وتساوي بينهم في معاملتها لهم

(٩٣١) حكومة الولايات . استمرار الميل القديم في الشعب الى الاشتراك في الاحوال العمومية

وكانت الامبراطورية لا تزال مقسمة الى ولايات كان عددها يزيد على مرّ السنين ومعظم سكانها يؤثرون الاقامة في المدن • وكانت كل مدينة تؤلف مع ضواحيها حكومة مستقلة كالحكومات التي فشا امرها في بلاد اليونان في اوّل عهدها • فكان لكل مدينة حق انتخاب حكامها وادارة احكامها المحلية • وكان الشعب يميل جدًّا الى الاشتراك في ذلك حتى كانت تشتد المنافسة بين المرشحين للوظائف العمومية الى درجة عظيمة • ولا يزال السياح يرون على جدران مدينة بومباي بعض كتابات هي صور طلبات المرشحين لاصوات المنتخبين• ولكن ، مع هذا الاستقلال النوعي ، كانت كل مدينة تحت حكم الامبراطورية الرومانية وتسلط حاكم الولاية الروماني

(٩٣٢) شدة اهتمام الامبراطرة وضعف اهتمام الشعب بالشؤون العمومية

وكان يتولى ادارة الامبراطورية في هذه الحقبة ولاة من اهل الاقتدار والذمّة النقية • واذا أُتيح لنا ان ننظر الى الرسائل التي بعث بها احدهم الى الامبراطور تراجانس بشأن ولايتهِ تجلّت لنا امانتهُ وجسامة العمل الذي كان الامبراطور نفسهُ يُعنى بهِ

٩١

مدنية الامبراطورية الرومانية القديمة : الولايات

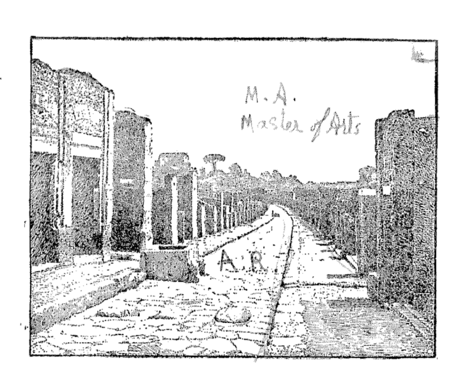
كان يطوّق البحر المتوسط عالم كبير يحتوي من السكان عددًا يتراوح ما بين خمسة

(٩٢٣) شعوب الامبراطورية الرومانية

وستين مليوناً ومئة مليون نفس · ولو كان النظر يمتدُّ الى مدًى بعيد بقدر ما نريد، لكنا نقف عند بوغاز جبل طارق ونسرّح الطرف في الشعوب المقيمة بسواحل البحر المتوسط، بافريقية واسية واوربا، فنرى عن اليمين في افريقية المغاربة والافريقيين الشماليين والمصريين، وفي الشرق العرب واليهود والفينيقيين والسوريين والارمن والحثيين · وحين يرتدّ الطرف الى اوربا نرى اليونان والايطاليين والغاليين والاسبان والى الشمال منهم البريطان وبعض الجرمان ضمن الحدود · كانت هذه الشعوب تختلف بعضها عن بعض في الآداب والعادات واللباس ولكنها كلها كانت تحت الحماية الرومانية تتمتع بالسلام الروماني الوارف الظلال. وبما ان معظم السكان كانوا يقيمون بالمدن، كانت حياة اهل العصر بوجه الاجمال حياة مدنية وان كان الكثير من تلك المدن ضيّق النطاق

(٩٢٤) بومباي مدينة ريفية من مدن الامبراطورية الرومانية القديمة

ولحسن الحظ قد ابقت لنا الايام مدينة من مدن الريف حفظ لنا فيها كثيرٌ مما كنا نشاهده فيها قبل الفي سنة لو كان امكننا ان نزورها في ذلك العهد العريق في القدم · فهذه المدينة الصغيرة التي طمرتها المواد البركانية في زمن تيطس (٧٩ م) لا يزال زائرها حتى الآن يرى شوارعها وبيوتها والندوة والمباني



الشكل ٢٠٩ شارع من شوارع بومباي القديمة كما يرى اليوم

البليط والرازيق (الماشي عن جانبي الشارع) كاملة كما كانت حين غطتها الحمم من البركان (ف ٩٢٤) ونرى عن اليسار عين ماء عمومية . وفي الصدر محل تقاطع الشوارع (مصليّة) اما البناية التي على الشارع فلم يبقَ ماثلاً منها سوى نصف طبقة الّا من جانب اليسار حيث نرى مداخل دكاكين والجدران على مستوى ارض الطبقة الثانية

العمومية والحوانيت والاسواق واشياء أُخرى جمّة على الهيئة التي كانت عليها قبل ان حلّت عليها تلك الكارثة التي كانت سبب دمارها (ف ٢٠٩) . نرى فيها شوارع مستطيلة والحُفر التي احدثتها دواليب المركبات في البلاط المرصوفة بهِ تلك الشوارع . ونستطيع ان ندخل غرف الطعام ونرى التصاوير الانيقة التي لا تزال على الجدران حتى الآن (ش ١٥٠) وندخل الافران فنرى الخبز لا يزال فيها الاَّ انهُ ملذوع . ونلج المطاحن فنراها واقفة ومهجورة . وننظر الى المطابخ فنجد فيها اواني الطبخ مبعثرة (ش ١٩٤) ولكن الموقد لم يُصَب بضرر بل هو صالح للايقاد فيهِ والذي يجوّل في شوارع هذه المدينة الساكنة التي حُفظت حفظاً عجيباً تتمثل امام عينيهِ حياة الشعب الروماني في اوّل عهد الامبراطورية الرومانية (ش ٢٠٩)

(٩٣٥) تحسين طرق المواصلات، سكك رومانية وجسور

كانت بومباي قريبة جدًّا من المدن اليونانية في جنوب ايطاليا . ولذلك كانت هلينية ولا سيا في نسق معيشتها وفنونها واذا تأملنا في احوال البلدان التي في جنوب ايطاليا والتي الى الشرق منها مما كان تحت حكم رومية وجدنا ان حياة سكانها انما هي نسخة منقولة طبق الاصل عن الحياة الهلينية ومدنيتها الاَّ في بعض الاشياء التي كانت قد تقدمت كثيراً خصوصاً المواصلات وطرق المنابأة السريعة . فانَّى اتجه المرء في طول البلاد وعرضها كان يقع طرفهُ على السكك الجميلة المرصوفة بالبلاط المجلوّ كانها شوارع مدينة (ش ٢٠٩) ويشاهد فوق الانهار جسورًا فخمة لا يزال بعضها قائمًا حتى الآن . وكانت الحركة التجارية على تلك السكك المتقنة في جوار المدن عظيمة جدًّا . وكان معدَّل سرعة المواصلات والتنقلات السفرية كما كانت في اوربا واميركا منذ قرن من الزمان اي قبل دخول البخار واتقان السكك

(٩٣٦) الملاحة والشحن

وكانت الطرق الرومانية اكثر اتقاناً من الطرُق اليونانية بعد عصر الاسكندر والاسفار البحرية امينة جدًّا لخلوّ البحر من قرصان العصر القديم (ف ٨٥٥) . والنتيجة انتظام سير السفن فيهِ . فكان الروماني الذي لهُ ابن يتعلم في اثينا ، يرسل اليهِ تحويلًا على البنك وبعد اسبوع كان يقبض القيمة لينفقها في سبيل لوازمهِ . وكان التاجر يرسل رسالة الى وكيلهِ في الاسكندرية فتصل اليهِ في عشرة ايام . وكانت سفن الحكومة التي توسَق حنطة وتُسيَّر سيرًا مطردًا بين الموانئ الرومانية والاسكندرية ، فخمة جدًّا . ومحمولها بضعة آلاف من الاوساق (الاطنان) وكان للمرافىء الجيدة في كل الاماكن احواض ومنائر على شكل منارة الاسكندرية لهداية السفن والبحارة في كل ميناء . وكانت التجارة البحرية توقف في فصل الشتاء

(٩٢٧) التجارة من الاتلانتيكي الى الهند ومن البلطيك الى بحر الروم

وزهت التجارة في هذه الاحوال اكثر من قبل فالطرق المتقنة استفزّت هِمم التجار الى ان يتجاوزوا التخوم ويتاجروا في اسواق جديدة • فكانت البضائع ترسل من ايطاليا الى سواحل اوربا الشمالية وبريطانيا التي كان يؤتى منها بمقادير عظيمة من التنك (الصفيح) الى مرسيليا بطريق نهرَي السين والرُّون • واما في الطرق الاخرى فقد دفع اكتشاف الرياح الموسمية (المواسم) التجار الى زيادة تجارتهم مع الهند حتى بلغ عدد السفن التي كانت تمخر في الاوقيانوس الهندي بين البحر الاحمر ومرافئ الهند ذهاباً واياباً مئة وعشرين سفينة مطردة السير • وكانت السلع التي تشحن فيها ، تنقلها القوافل وسط الصحراء من البحر الاحمر الى النيل • ومن ثمَّ تُوسَق الى الغرب من حياض الاسكندرية التي كانت اعظم المدن التجارية على ساحل بحر الروم اي كانت لقربول الامبراطورية الرومانية • وصارت بتجارتها مضرب مثل فكان يُقال «يستطيع المرء ان يجد في الاسكندرية مهما طلب الاَّ الثلج» • وكانت القوافل تصل الى بلاد الصين بالطرق الشمالية الممتدة في بلاد الشرق فتأتي بالحرير الى بحر الروم • فيرى مما تقدم ان التجارة كانت تغشى العالم القديم من تخوم الصين وسواحل الهند في الشرق الى بريطانيا وموانئ الاتلانتيكي في الغرب

(٩٢٨) كثرة الاسفار الاحساسات ومدارس الولايات

وأَلِف الناس الاسفار كثيرًا اما للنزهة او للاتجار واصبحت السياحة امرًا مألوفاً عندهم فاتسع بذلك نطاق معرفتهم كثيرًا • فكان الروماني الغني المتهذب يقطع البحر المتوسط مجوِّلاً في ارجائهِ كما يفعل سائح هذه الايام • وحين كان يمرُّ بمدن الولايات كان تتراءى لهُ بيّنات جليَّة على ما كان يصبو اليهِ سكانها من مناهل ومراسح ودور للموسيقى وحمامات واندية للالعاب الرياضية ومدارس شيَّدها محبو الخير من اهل الثروة واهدوها الى عامة الشعب • فكان شبان تلك المدن وشاباتها يجدون مدارس تعلم فروع العلوم التي كانت تُلقى في المدارس الهلينيــة التي قرأنا عنها قبلاً • وكانت الحكومة تنقد المدرسين رواتبهم مهما بلغت (ش ٢١٠) • وكان الشاب الروماني اذا صبت نفسهُ الى التجارة واتخذها حرفة لهُ يستأجر شخصاً متقناً للكتابة المختزلة لكي يعلمهُ اياها • واذا اراد التضلع من العلوم العالية والتعمق فيها قصد مدارس الاسكندرية او اثينا حيث كان يجد كبار الاساتذة او اماكن أُخرى حيث كان يجد مدارس احدث عهدًا من هذه في الشرق والغرب كليهما وخصوصاً المدرسة الجديدة التي شيدها هدريانوس في رومية وسماها اثينيوم • وهكذا كان السائح المتهذب يجد رجال العلم والادب انَّى توجه

وكان السائح الذي يطوّف في بلاد اليونان ، وينظر بعين الفكر الى الوراء ، الى عصر بريكليس او حروب اثينا الفارسية ، قبل نحو ست مئة سنة ، يخيَّل اليــهِ ان بلاد اليونان

(٩٢٩) السائح الروماني في الشرق · بلاد اليونان

هي من عالم بعيد قديم قرأ عنهُ في مؤلفات توسديس وهيرودوتس التاريخية (ف ٥٤٤ و ٦١٢) · وحين كان السائح الروماني يتمشَّى في اثينا ودلفي كان يرى كثيرًا من قواعد التماثيل خالية من تماثيلها فيخطر على بالهِ بيوت اصدقائهِ في الوطن والتماثيل التي تزدان بها قائمة في الحدائق الجميلة ويتيقَّن ان تلك التماثيل كانت قبلًا مرتكزة على هذه القواعد · ويرى المدن اليونانية التي انتجت هذه البدائع امست فقيرة ضعيفة تجاريًا وسياسيًا خلافًا لما كانت عليهِ قبلًا من المدنية السامية التي انعمت بها على الرومان

(٩٣٠) السائح الروماني في الشرق · اسيا الصغرى وسوريا

وحين كان السائح الروماني يؤُمُّ الشرق مارًّا بمدائن اسية الصغرى وسوريا الزاهرة كان يخامر نفسهُ شعور عميق بانهُ يحق لهُ ان يفتخر بما قامت بهِ رومية من جلائل الاعمال · ففي النصف الغربي حيث كانت البلاد سابقًا قفارًا تنتابها القبائل الرحل وتنتقل في جنباتها كان يشاهد مدنًا زاهرة وحمامات ومراسح فاخرة وقنوات عالية تجري فيها المياه واندية ومباني عمومية فخمة لا تزال خرائبها الآن مدعاة للدهشة والاعجاب · ولم تكن تلك المدائن متصلة بعضها ببعض فقط بطرق جميلة كالسكك التي سبق الالماع اليها بل كانت متصلة ايضًا برومية بسكك جميلة تخترق قلب اسية وشبه جزيرة البلقان

وكان وراء الصحراء وخلف هذه المدن الزاهرة مملكة فرتيا بؤرة الفتن

الشكل ٢١٠ "خربشة" اولاد صفليين على اجرَّة في ايام الامبراطورية الرومانية

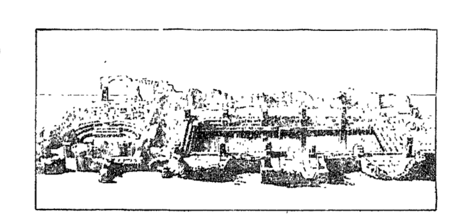
كان اولاد المدرسة حين يمرُّون بمعمل الاجر او الطوب منذ الف وسبع مئة سنة يتلهُّون بكتابة فروضهم المدرسية باليونانية على الاجر وهو طري قبل طبخهِ بالنار · ونرى في راس الشكل الحرف اليوناني الكبير الذي يقابل (S) في الانكليزية مكتوبًا عشر مرات ما يدل على ان الصبي الصغير الذي كتبهُ كان لا يزال يتعلم كتابة الحروف بصورها الكبيرة وتحت هذا الحرف يشاهد حرف آخر (K) مكتوبًا عشر مرَّات ايضًا. وبعد هذه الاحرف كتب الكلمة اليونانية التي معناها بالعربية عامة او سخافة واللفظة التي معناها مطحنة واللفظة اخرى معناها سطل او دلو وكلها بحروف كبيرة. ونرى ايضًا ان صبيًّا اكبر من المذكور آنفًا يستطيع ان يكتب غير الحروف الكبيرة قد دفع الصبي الصغير الى جانب وابان بالبرهان تفوقهُ عليهِ بان كتب عبارة متنافرة الالفاظ مثل قولنا "وليس قُرْبَ قبرِ حربٍ قبرُ". ومعنى العبارة التي كتبها "يا صبيان قطعوا الواحًا جديدة لسفينة جديدة لكي تستطيع السفينة ان تعوم". وزاد صبيٌّ ثالث على ما ذُكر سطرين في الاسفل. فيتضح من هذه الاجرَّة انتشار اللغة اليونانية والمعارف عمومًا بظل الدولة الرومانية

(٩٣١) السائح الروماني في الشرق. قرنيبا واشور وبابل

والقلاقل. وكان يؤمها السياح الرومان كما يؤمون غيرها من بلدان الشرق. والمتهذب منهم يكون قد طالع قبل مجيئهِ الى الشرق كيف ان اكزنيفون قبل خمس مئة سنة او تزيد والاسكندر الكبير بعدهُ قد مرّا بخرائب نينوى على دجلة، وقد عرف من عدَّة تواريخ يونانية ومن تقرير تراجانس (ش ٩١٤) ان مباني بابل الخربة لا تزال ماثلة على الفرات الى جهة البحر. وبما ان مساعي تراجانس لفتح تلك البلاد كلها قد خابت، (ف ٩١٤) لم يكن السائح الروماني يحاول ان يجتاز الى ما وراء الحدود ليتوغل في اراض اجنبية

(٩٣٢) السائح الروماني في الشرق. مصر

وكان السائح يركب سفينة رومانية من السفن الكبار التي في انطاكية ويتوجه فيها الى الاسكندرية حيث يجد عالمًا اقدم من العالم الذي رآهُ في سياحتهِ يتوقع قدومهُ اليهِ. فيرى في المنارة



الشكل ٣١١

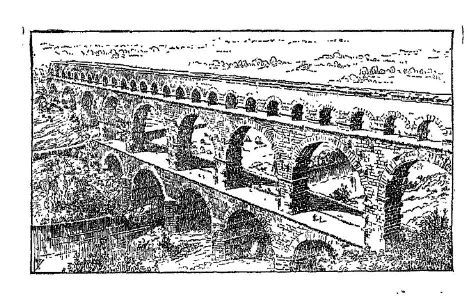
خرائب حمامات رومانية في باث بانكلترا حيث انشأت الجالية الرومانية في بريطانيا منهلاً من الطراز العصري. وقد كشفت في السنين المتأخرة الاتربة والقمامات التي تراكمت مع مرور القرون على المباني الرومانية حتى صار في الامكان تصوُّر كيفية وضعها وترتيبها. والصورة هذه تمثل لنا نموذج جزء من الخرائب. ويشاهد الى اليمين بركة كبيرة مربعة الشكل طولها ٢٥ مترًا في ١٠ ١/٢ عرضًا والى اليسار حمام مستدير الشكل وقد بُني فوقهما ردهة وجعل على جانبي البركة الكبيرة خلوات انيقة حيث كان الواحد يجلس الى اصحابهِ ويحادثهم

العظيمة (ف ٦٧٧) التي بنيت قبل اربع مئة سنة او يزيد، مثال المنائر الرومانية التي كان قد رآها قبلًا. وكان يرى منارة الاسكندرية سامقة الى العلاء قبل وصولهِ اليها ببضع ساعات. وفي الاسكندرية كان يجد نفسهُ بين جماعة من سياح اليونان والرومان الاغنياء ينوون السياحة في ارض النيل فيرافقهم في رحلاتهم. وحينما يغادر الركاب الاسكندرية ومبانيها اليونانية الجميلة كانت تبتدىء سفرتهم النيلية الى اقدم عالم معروف لدى الانسان حيث يشاهدون مباني شيدت قبل ان اسّست رومية بآلاف السنين. وكثيرون منهم كانوا كسياح هذا العصر القادمين من بلاد الغرب الى مصر لكي يشاهدوا آثار الاقدمين ومآثرهم الفاخرة. وكثيرًا ما كانوا يسيرون الهوينا في الشوارع يتباحثون في احدث

الانباء من رومية او يترتّثون عند جوانب بحيرات الهياكل يتلهّون باطعام التماسيح المقدسة او بنقش اسمائهم على التماثيل القائمة في سهل طيبة (ش ٤٩) حيث وقف هدريانس قبلًا واصغى الى الصوت الالهي الذي كان يصدر من احدها كل صباح حين تقع عليهِ اشعة الشمس· ولا تزال كتاباتهم حتى يومنا هذا ظاهرة على تلك التماثيل · وكان الروماني المفكّر لا يكتفي بما يراهُ من دواعي المسرّة والبهجة — وهي موفورة لديهِ — بل كان يكتب في مفكرتهِ ان هــذه الارض المعدودة ارض العجائب والغرائب مكتظّة كما كانت قديماً بالقطعان والاصورة·وفيها سهول الحنطة الخصيبة التي جعلتها اهراء لرومية ومصدرًا لثروة الامبراطور الخصوصية لا ينفَد

(٩٢٣) المدنية القديمة في الشرق والمدنية الرومانية الاحدث عهدًا في الغرب

وكان الرومان يحسبون الجزء الشرقي من بحر الروم ، عالمهم القديم الحائز لمدنية قديمة يونانية وشرقيـة · فكان السائح فيهِ انّى توجه يلقى امامهُ اللغة اليونانية حتى جزيرة صقليـة غرباً وكان في



الشكل ٢١٣ جسر روماني وقناطر لقناة ماء فوقها في نيمس بفرنسا

شيد هذا البناء الرومانيون نحو السنة ٢٠ م لتقديم الماء اللازم لجالية نيمس في جنوب فرنسا من نبعين فاخرين يبعدان عنها ٢٥ ميلاً. طول هذا البناء ٩٠٠ قدم انكليزية وارتفاعهُ ١٦٠ قدماً وجرت المياه في قناتهِ من فوق وادي نهر الغار · وكانت قناة الماء على اعلاهُ يستطيع اي كان ان يسير فيها . واما القناة التي كانت عن جانبي الجسر على مسافة بعض اميال وتتصل بالقناة الكبرى فاوشكت ان تضمحل

اثناء سفره يتكلم بها ولكنهُ حين كان يــدير ظهرهُ الى الشرق ويتوجــه الى الغرب كان يجد ان اللغة اللاتينية ، لسان رومية، هي ذريعة التخاطب بين الفئة المتمدنة من الخلق هناك·وكان هذا الغرب باقاليمهِ المترامية الاطراف احدث عهــدًا من ذلك الشرق· والعمران فيهِ حديث النشأة كعمران اميركا اليوم · وكانت اوربا الغربية في هذا العصر قد

شرعت لاوّل مرّة تشيد مدناً ولكن بارشاد مهندسين رومانيين . وكانت هندسة المباني هنا كهندسة مباني رومية . ونستطيع الآن ان نزور بقايا تلك المباني وننعم النظر فيها فنجد جسورًا كبيرة ومراسح فسيحة وقصورًا فاخرة وحمامات انيقة وآثارًا تذكارية جليلة — وهي تؤلف خطاً طويلًا من الخرائب يمتدُّ من بريطانيا مارًّا بجنوب فرنسا وجرمانيا الى شمال البلقان (ش ٢١١–٢١٣) وبشمال افريقيا بين الصحراء والبحر، غربيَّ قرطاجنة . ولا تزال هناك خرب مدن برمتها كانت ذات مبانٍ انيقة تدل باجلى بيان كيف حوّلت المدنية الرومانية تلك الاقاليم من حالة ارقى قليلًا من الهمجية قبل الفتح الروماني لها الى هذه الدرجة من العمران .

الشكل ٢١٣ ترميم قوس نصر روماني في اورانج بفرنسا .

وبعد ان عقد الرومان النية على اتخاذ هذا الشكل لمبانيهم التذكارية (ش ٢٠٢) شيدوا كثيرًا من امثال هذه القوس احياء لذكر انتصاراتهم المهمة . وبالطبع شُيد عدد منها في رومية (ش ٢٠٠ B و A) . وقد بقي بضعة مما شيد منها في امهات مدن الامبراطورية حتى الآن . وهذه القوس المصوَّرة هنا شيدت في مستعمرة أَرُوسيو (تدعى الآن اورانج) على نهر الرون تذكارًا لانتصارهم على الغاليين سنة ٢١م . وقد شيد في المدن العصرية ، كباريس وبرلين ولندن ونيويرك ، اقواس شبيهة بهذه

(٩٣٤) بلوغ عالم البحر المتوسط اخيرًا درجة عالية من المدنية

وكما كانت معاشر الرعايا الرومانية في القديم تحدق بالبحر المتوسط ، كذلك آثارهم الباقية ومبانيهم التي كانوا يقيمون بها لا تزال حتى الآن تحدق بهذا البحر الكبير من بريطانيا الى اورشليم شرقاً ومن اورشليم الى مراكش غرباً توضح لنا حقيقة ناصعة وهي ان المدنية السامية التي بلغها عالم البحر المتوسط في الغرب والشرق هي نتيجة ارتقاء البشرية

في جميع العصور التي درسنا عنها قبلاً . والصورة التي ارتسمت في عقل السائح الروماني للعالم الكبير الذي حكمهُ ابناء بلادهِ هي هذه : في الوسط ، البحر المتوسط العظيم تحيط بهِ منطقة عظيمة من البلدان المتمدنة تُطيف بها صفوف الكتائب من جميع الجهات لحمايتها . وكانت تلك الكتائب تمتدُّ من بريطانيا الى اورشليم ومن اورشليم الى مراكش كسدّ عظيم يمنع اوقيانوس القبائل الهمجية الهائج من الطمو . ولولاها لطما وغطّى نتائج ما بلغتهُ العصور من الرقي والمدنية . وبعد هذا البيان لا بدَّ لنا من نظرة الى مركز تلك القوة العظيمة التي تولّت ادارة الاحكام في عالم البحر المتوسط . الى رومية نفسها ، للوقوف على سير المدنية فيها منذ العصر الاوغسطي اي مدة ثلاثة ارباع قرني السلم

٩٣

مدنية الامبراطورية الرومانية في عهدها الاوّل

(٩٣٥) مباني رومية العمومية . الكلوسيوم وندوة الامبراطرة الجديدة

كانت رومية في آخر ملك هدريانوس افخم وافخر مدينـة بمبانيها الاثرية في ذلك العصر . ففاقت الاسكندرية في مساحتها وعدد سكانها وبهاء مبانيها العمومية . وكان اعظم تلك المباني قائمـاً بجوار الندوة القديمـة – مبانٍ لم يكن لها نظير في سائر انحـاء الامبراطورية . هنـاك شيد ڤسباسيانوس مرسحاً مدرَّجـاً للمجالدات يُعرف الآن باسم الكلُوسيوم (ش ٢١٤) وبنى الامبراطرة على جانب الندوة القديمة ثلاث ندوات جديدة ابهى وافخم من كل ما شوهد قبلها في عالم البحر المتوسط

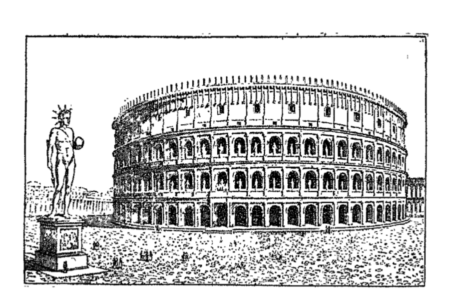
(٩٣٦) الباطون الروماني . البانتيون وضريح هدريانوس

وبلغ فن البناء الروماني اسمى درجات الفخامة والاناقة ، في المباني التي شادها تراجانس وهـدريانوس . وكان مهندسو البناء قـد شرعوا في العصر الهليني يكثرون من استعمال « الباطون » في البناء مـع ان الشخص الذي اكتشف خاصية التصلب فيهِ والمكان الذي عُرف فيهِ اولاً لا يزالان غير معلومَين . فسقف البانتيون المعزوُّ الى هـدريانوس صفيحة واحدة من الاوَّل الى الآخر يربي قياسها من جانب الى جانب على مئة واربعين قدماً . فنرى ان الرومان كانوا منذ اكثر من الف وثماني مئة سنة يستعملون البـاطون على نمط لم نستطع ان نقلدهم فيهِ الاّ منذ زمن قصير . ومع مرور هذه الحقبة الطويلة لا يزال سقف البانتيون متيناً سليماً كما كان حين نزع المهندسون الدعائم التي كان قائماً عليها القـالب الخشبي لتلك

الصفيحة الهائلة التي تكوّن منها السقف

(٩٢٧) الفن الروماني

كان النقش البارز الذي تبدو فيهِ الآثار الفخمة اهم مظاهر الفن الروماني . فالنقوش البارزة التي تغشي عمود تراجانس هي عبارة عن كتاب مصوَّر انيق لحملاتهِ الحربية ظهرت فيهِ قوة الابداع اكثر مما ظهرت في الفن الروماني في الاماكن الاخرى في كل زمان الاَّ ان الرومان لم يبتدعوا شيئاً في نحتهم للتماثيل . فان معظم تماثيلهم كان منقولاً عن البدائع والروائع التي ابتكرها نحاتو بلاد اليونان . وقد تلاشى كثير من



الشكل ٣١٤ المرسح المدرَّج الفسيح في رومية المسمى الآن بالكلوسيوم

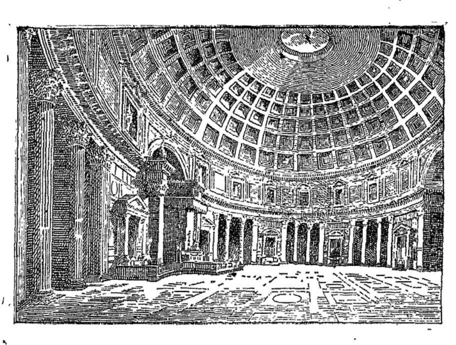
هذه البناية الفخمة المعدودة من اعظم بنايات الدنيا كانت ميداناً بيضي الشكل محاطاً بصفوف من المقاعد يعلو الصف الواحد منها على الذي قبلهُ ويسع خمسين الف نفس . نرى هنا الجدار الخارجي فقط بعد الترميم . شيد هذه البناية الامبراطوران فسباسيانس وتيطس وتمَّ بنيانها سنة ٨٠م (ف ٩٣٥) وقد كانت المراسح المدرَّجة اوَّلاً عبارة عن مقاعد متفاوتة في الارتفاع وقتية الوضع يعلو بعضها كدرجات السلم لكي يتمكن المشاهدون من روْية المجالدين حين الصراع . ويرى الى يسار الشكل تمثال نيرون الهائل المصنوع من البرنز والبالغ علوهُ مئة قدم . كان اولاً منصوباً في جوار هذا المكان قرب مدخل "المنزل الذهبي" الشهير شرقي الندوة . وكان في كل مدينة رومانية مهما كانت مساحتها ميدان مثل هذا . ففي بولا بدلماطيا، البالغ عدد سكانها اربعين الفاً لا يزال الميدان ماثلاً حتى اليوم يسع نحو عشرين الفاً من المتفرجين . ولا يزال ميدان آخر في فيرونا بايطاليا . وفي هذه الميادين كان الامبراطرة يطرحون الوفاً من الاسرى البرابرة للوحوش الضارية

منحوتات اليونان منذ آمادٍ طويلة ولولا صُورها التي نقلها نحاتو الرومان في ذلك العصر طبق الاصل واكتشفها الاثريون المحدثون في ايطاليا (ش ١٧١) لما كان لنا سبيل الى معرفة شكلها الاصلي . وقد اتّبع نحّاتو التماثيل البشرية الاميال التي ورثوها عن العصر الهليني وكانت التماثيل التي نحتوها لمشاهير رجال الرومان تعدُّ من انفس ما نُحت من نوعها

(٩٢٨) التصوير الروماني

لم يكد يبقى من المشتغلين بفن التزويق الاَّ مزخرفو الجدران الذين لم يكونوا إلاَّ مقلّدين ينقلون الرسوم عن عظماء ارباب الفن من اليونان في العصر الهليني ويزخرفون بها جدران المنازل الرومانية مكرّرين الرسوم عينها مرَّة بعد مرَّة (ش ١٥٠) وازدهرت صناعة تصوير الاشخاص فكان المصورون في زوايا الشوارع لا يقلُّون عدداً عن مصوّري الصوَر الشمسية في عصرنا فكان الانسان اذا ما رام اخذ صورتهِ يقف امام المصوّر فيصوّرهُ بسرعة مدهشة على قطعة خشب ثم يناولهُ الصورة

(٩٢٩) تقهقر آداب اللغة



الشكل ٢١٥ المنظر الداخلي لقبة البانثيون الذي بناهُ اغريبا وهدريانوس في رومية

ان اول بناية في هذا المكان شيدها اغريبا الوزير الكبير لدى هدريانوس . قطر القبة المستديرة في سقفها ٢ / ١ ٩ متر وارتفاعها عن البلاط ٤٣ متراً وقطر القبة الهائلة ٤٣ متراً ايضاً. هذه في البناية الوحيدة القديمة برومية التي لا تزال قائمة ولم يعرُ جدرانها ولا سقفها شيء من الخلل . وهي شاهد محسوس على مهارة الرومان في استعمال "الباطون" (ف ٩٣٦) وقبتها من الداخل من اجمل القبب واوقعها في النفس (انظر كنيسة اجيا صوفيا ش ٢٢)

وزاد الآن في رومية عدد المتأدبين عما كان قبلاً زيادة تذكر: وكانت المكاتب التي انشأتها الحكومة مباحة للجميع واجرى الامبراطرة على ادباء اللغة رزقاً عدّاً لا ينقطع الاَّ انهُ مع وجود هذه البيئة الموافقة . لم ينبغ عبقري واحد استطاع ان يجري شوطاً بعيداً في مضمار الابتكار والخيال . فكما كان النحاتون والمصوّرون من صف النقلة كذلك كان المتأدبون . فان المجلين فيهم آثروا ان ينقلوا عن المؤلفات القديمة . فوقفت الآداب ولم تعد تخطو خطوة الى الامام . ولكن لما أُطلقت حرية القول في عهد الامبراطرة ذوي المبادئ الحرَّة بعد موت دومتيانس ، قام تسيتس وكتب تاريخاً حرًّا صادقاً للامبراطورية من موت

اوغسطس الى موت دومتيانس (من ١٤ الى ٩٦ م) ومع انهُ اطلق لنفسهِ في ما كتب عِنان هواها حتى سوّد صحيفة الامبراطرة اليوليوسيين ، جاء كتابهُ – بالنظر الى مقدرتهِ الكتابية – اعظم تاريخ خطهُ قلم روماني . والرسائل التي تُبودلت في هذا الزمان بين بلينيوس الاصغر والامبراطور تراجانس (ف ٩٢٢) تعدُّ من انفس ما كُتب في آداب العالم القديم وتذكرنا برسائل حمورابي البابلي قبل ذلك بالفين ومئتي سنة (ف ١٨٤–١٨٨) . ويجب ان نضمَّ الى كتبة كهولاء كتبة يونانيين عاصروهم – وان لم يعيشوا في رومية – ووضعوا مؤلفات خالدة باللغة اليونانية . فكتب بلوطرخس سلسلة كتب في سِيَر اعظم رجال رومية وبلاد اليونان جاعلًا اياهم ازواجاً كل زوج مؤلف من يوناني وروماني لتسهل مقابلة الواحد بالآخر . فتألف من تلك السِيَر معرض ابطال خالد الاثر بقي موضوع اعجاب البشر الفاً وثماني مئة سنة مع ان كثيراً من تلك السير من باب الحكايات الخياليَّة . وقام في ذلك العصر نفسهِ يوناني آخر يدعى اريانس كان والياً في اسية الصغرى من قِبَل الرومان وجمع ما تخلَّف من انباء الاسكندر الكبير . ونبغ كاتب آخر يسمى بوسانياس والَّف دليلًا ضخماً لبلاد اليونان المَّ فيهِ بذكر المباني والآثار التي كانت لا تزال في ذلك الزمان ماثلة في امهات المدن اليونانية ، كاثينا ودلفي واولمبيا . فهذا مؤَّلف خالد صوَّر فيهِ الكاتب بالكلام بلاد اليونان القديمة بما فيها من هياكل باذخة وتماثيل فاخرة ومراسح رحبة ومبانٍ عمومية فخمة

(٩٤٠) التقصير العلمي في رومية . التاريخ الطبيعي لبلينوس

وظلَّ الرومان في الامور العلمية جمَّاعاً للمعارف التي كان قد بلغ اليها اليونان فبلينيوس الاكبر ، تفرَّغ مدة خدمتهِ الطويلة في الحكومة ، للدرس العلمي بهمة فائقة الوصف فتمكن من الحصول على مجموعة كبيرة من الحقائق التي كان العلم قد اماط عن محياها نقاب الخفاء وجُمِعت في كتب معظمها يونانيَّة ، فضمها معاً فجاءت مؤلفاً كبيراً سماهُ «التاريخ الطبيعي» وهو بالحقيقة عبارة عن دائرة معارف . ولفرط شغفهِ العلمي قضى مأسوفاً عليه وقت ثوران بركان يزوف وهو يدنو من فوَّهتهِ ليدرس هذه الحادثة الرائعة عن كثَب وينقذ الفارّين من اهل بومباي (ف ٩٢٤) (وكان في ذلك الوقت قائداً للاسطول) . ولكن مؤلف بلينوس المعروف باسم «التاريخ الطبيعي» لم يتضمَّن حقائق جديدة خطيرة اكتشفها المؤَّلف نفسهُ . ليس ذلك فقط بل قد وقع فيهِ اغلاط كثيرة شوَّهتهُ لان مؤَلفهُ اساء فهم كثير من الحقائق التي دوَّنها فيهِ ومع ذلك فقد بقي هذا المؤَلف مئات من السنين ، حتى زمان النهضة العلمية في الازمنة الحديثة ، المرجع المعوَّل عليهِ عند الفئة المتهذبة من الاوربيين كما كان لديهم ما الفهُ ارسطوطاليس . فبلُدت العقول وفترت الهمم واكتُفي من العلم بما كان قد بلغ اليهِ المكتشفون الاولون . ففي حال كهذه يستحيل على العلماء ان يتوصلوا الى معرفة حجم الارض

كما فعل اراتسثنيس (ف ٦٨٩) ، او الى اكتشاف الاشعة المجهولة والتلغراف اللاسلكي الذي توفق الى اختراعهِ علماء هذا العصر

(٩٤١) انتهاء زمن البحث العلمي في الاسكندرية . بطليموس

وكان آخر مشاهير رجال العلم في العالم القديم عالماً فلكيًّا جغرافيًا نبغ في الاسكندرية في ملك هدريانوس والانطونين . وكان في جملة ما الَّفهُ كتيّب في علم الفلك جمع معظمهُ من مؤلفات فلكيين نبغوا قبلهُ . وقد جاء في هذا الكتاب ان الارض مركز والشمس تدور حولها . ولكن لسوء الحظ ، اصبح هذا الكتاب مرجعاً في علم الفلك ففشا هذا الاعتقاد الفاسد من جهة النظام الشمسي ، وهو المعروف بالنظام البطليموسي ، وقبلهُ اهل الارض طرًّا وظلوا متشبثين بهِ الى ان تجلَّت لهم ، على يد الفلكي البولندي كوبرنيكس الحقيقة الراهنة التي اكتشفها قديماً الفلكي اليوناني ارسترخس الساموسي (ف ٦٨٨)

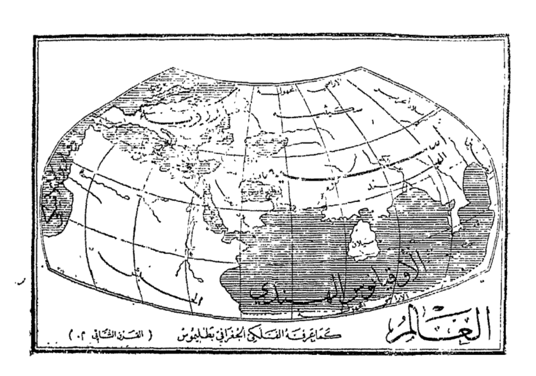
(٩٤٢) رومية مزيج من شعوب مختلفة

لقد اصبحت في هذا العهد منزلة اليونان المتأدبين غير ما كانت عليهِ ايام كانوا إمَّا عبيدًا او معلمين يقيمون مع أُسر خصوصية للعناية بتعليم الصغار . فانهم صاروا في هذا الزمان يشغلون مناصب خطيرة في الحكومة وفي دوائر التعليم بالمدارس العالية والكلية والجامعة وكثيرون منهم كانوا برتبة استاذ يقبضون رواتبهم من خزينة الحكومة . فلم تعد المدينة رومانية او ايطالية بل امست مشتركة بين سكان عالم البحر المتوسط اجمعين . فأَمَّها من الاقطار المختلفة كثير من العيال الكريمة واقامت بها فكان لها في الهيئة الاجتماعية تأثير حسن جدًّا فتقدمت بعد ان كانت تسير متقهقرة . وكان هذا الخليط من الناس يزدحم في المصارف ومخازن التجار بالندوة الجديدة ازدحاماً شديدًا للمباحثة في الشؤون التجارية وغيرها ويختلف الى دوائر الحكومة لمطالعة الجريدة اليومية التي كانت الحكومة تصدرها مخطوطةً باليد وللمفاوضة والمحاورة في منشوراتها . وكان البعض يقصدون الى المكاتب العمومية واندية المحاضرات والخطابة في الجامعة الرومانية ويتألبون في غرف الاستراحة بالحمامات العمومية وفي المراسح الكبيرة المدرَّجة . ومن هولاء تألف معظم الهيئة الاجتماعية الزاهرة . وكانت الشوارع تارةً ترى ملأَى منهم وطورًا خالية فكأنها البحر في مدّ وجزر على التعاقب . واما الاغنياء والحكماء فكانوا يجتمعون في المآدب الفاخرة والسهرات الانيسة في المدينة ولا سيما في ليالي الشتاء الباردة او يقتلون وقتهم في التمشي بين الحدائق المكتظة بتماثيل المشاهير وفي الدساكر الانيقة المشرفة على خليج نابولي حيث كان اغنياء الرومان يقضون ايام عطلة الصيف .

(٩٤٣) دخول التنعم الشرقي

وكان تجمُّع اهل العالم في رومية ظاهرًا في عيشة الترف التي تمتع بها الاغنياء . فكانت السيدات الرومانيات يتحلَّين بالالماس واللآلئ واليواقيت المجلوبة من الهند ويلبسن الحلل

الفاخرة من حرير الصين • وكانت موائـد الاغنياء الرومانيين تزدان بالدرّاق الذي كانوا يسمونهُ «بالتفاح الفارسي» والمشمش • وكلاهما من الفواكه التي ظهرت اوّل مرّة في العـالم



خريطة ٢٦ العالم كما عرفهُ الفلكيّ الجغرافي بطليموس

الروماني • وقد تعلم الآن طهاة الرومـان ان يطبخوا الرز طعاماً للاصحاء • وكان قبلًا لا يتناولهُ الاَّ الاعلَّاء • وقد نظم هوراس شعرًا فكاهيا صوَّر بـهِ ضيق نفس احد الاغنياء البخلاء وكربهُ حين عرف ثمن الرز الذي اشار عليـهِ طبيبهُ بان يتناولهُ • وصارت الأُسر الرومانية — بدلاً من ان تحلي الوان اطعمتها بالعسل كما كانت تفعل قديمًا — تستعمل لذلك مادة جديدة وجدت في السوق تدعى «سكاري» جاء بها بحرًا احد النوتية الشرقيين

٩٣

شيوع الاديان الشرقية وانتشار الديانة المسيحية الاولى

وكان الشرق — وهو يرسل الى بلدان البحر المتوسط ما تقدَّم ذكرهُ من الكماليات — مثابرًا على ارسال اشياء أُخرى اهمَّ منها جدًّا بالنظر الى تأثيرها في العالم الروماني • ولكن

(٩٤٤) تقهقر الحياة العقلية والديانة الرومانية

لم يكن تتبع آثارها من الامور السهلة كتتبع آثار تلك الكماليات وما كانت تلك الاشياء الاخرى التي كان الشرق يرسلها الى الغرب سوى دياناته · كانت الحياة العقلية في الامبراطورية الرومانية في تأخر مستمرّ بدليل ما مرَّ معنا من تقهقر الآداب والعلوم فيها · وكان مفكرو الرومان يطالعون فلسفة الرواقيين والابيكوريين اليونانيـة في المقالات البليغة التي كتبها شيشرون · وكانوا قبل ولوعهم بها واقبالهم على مطالعتها قد اقلعوا عن عبادة الآلهة الرومانية واتخذوا لهم من التعاليم الفلسفية ديانة يطبقون سلوكهم اليومي عليها · الاّ ان تعاليم كهذه لم تكن الاّ لرجال الطبقة العاقلة النائلة من التهذيب العالي قسطاً وافراً

(٩٤٥) الديانة المصرية في اوروبا

على ان رجالاً كهؤلاء كانوا احيانـاً يسايرون الجمهور ويستسلمون الى الاستهـواء بالديانات الغامضة الخفية الآتية من الشرق · حتى في زمن اوغسطس ، كتب الشاعر الروماني طيبلُس الى خطيبتهِ ديلية — وقد كان متغيباً عن رومية في احدى الحملات الحربية ومُنيَ بضعف اقعدهُ عن مواصلة القتال — قال « ماذا تصنع لي الآن إلاهتك ايسيس يا ديليه ؟ وماذا تنفعني آلاتها الموسيقية النحاسية التي تعزفين عليها بتحريك يديكِ · الآن ساعديني ايتهـا الالاهة ايسيس المصرية » · وقد كان طيبلُس وخطيبتهُ من ارقى طبقات الامـة علماً وتهذيباً ولكنهما اتخذا ايسيس المصرية ملاذاً لهما · وكان في جوار دسكرة هدريانوس الانيقة حديقة مصرية متصلة بهـا ومكرَّسة بنـوع خاص لايسيس وأوسيريس · وكانت تلك الحديقة مشحونـة بالآثار التي شيّدت اكراماً لهما · وقـد كتب بلوطرخس مقـالاً عن ايسيس وأوسيريس قدمهُ الى كاهنة ايسيس في دلفي · ومنذ اوّل عهـد الامبراطورية وُجد جماهير غفيرة كانت قد اعتنقت هذه الديانة المصرية فشُيّدت في المـدن الكبرى هياكل لايسيس (ش ٢١٦) وفي عصرنا الحاضر يجد الناس كثيرًا من صغار التماثيل ورموزًا أُخرى لهـذه الالاهة المصرية ، على ضفاف السين والرّين والدانيوب

(٩٤٦) الالاهة الأم العظيمة باسية الصغرى · مثراس الفارسي · رواج الاسرار والغوامض الشرقية

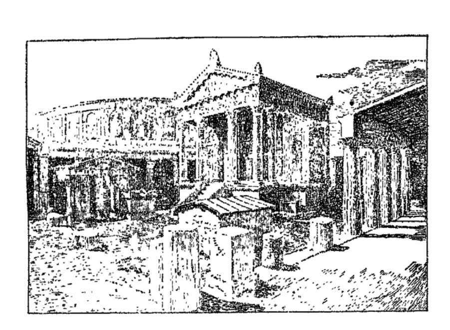
وكان اللام العظيمة ، إلاهة اسية الصغرى ، وقرينها آتس ، جمهور كبير من الرومانيين المتعبدين · وكان مثراس الفارسي ، اله النور ، محبوباً جـدًا من رجال الجيش فشيَّدت لـهُ الكتائب معابد تحت الارض كانت تقام لهُ فيها الحفلات تذكارًا لانتصارهِ · وكان لكل من تلك الديانات الشرقية « اسرار » مختصة بها معظمها يتعلق بحيـاة الاله ولا سيا خضوعهُ لسلطان الموت وانتصارهُ عليهِ وصعودهُ الى الحياة الخالدة (ف ١٢٢) وشاع الاعتقاد ان من يشهد هذه الاشياء ويعـاني القيام باعمال تكريسية معلومة ينجو من الشر ويؤهَّل لمشاركة الاله في حياتهِ الخالدة والسكنى معهُ الى الابد

(٩٤٧) تنفير الديانة الرومانية والآلهة القديمة

لم تتعرّض الديانة الرومانية القديمة للسلوك او السيرة الشخصية ولم تعلّل العبّاد بآمال السعادة المستقبلة ٠ وكان الناس الآن في جميع انحاء العالم الروماني الفسيح يتوقون الى ما يضمن لهم الحياة بعد الموت ٠ وكانوا في وسط متاعب هذه الحياة وتحت تجاربها يطلبون حافظاً الهيا يؤيدهم ويعينهم فلا بَدْع اذا كانت مواعيد هذه الديانات الشرقية المملوءة تعزية ورجاء بغبطة الحياة المستقبلة تجذب اليها الجماهير الغفيرة من الخلق

(٩٤٨) اليهودية

وكان عدد اليهود بعد تخريب الرومان لهيكل اورشليم ، يزداد في المدن الكبرى ٠ قال استرابون الجغرافي «يظهر ان اليهود قد وجدوا سبيلاً الى كل مدينة حتى انهُ ليصعب وجود مكان في المسكونة لم يتطرّق اليهود اليهِ ويتسلطوا عليهِ٠وأَلِف الرومان مجامع اليهود ولكن اليهود لم يعترفوا بالهٍ مّا سوى الههم هم ٠ وباعتزالهم عن الناس جلبوا على انفسهم ازدراء الحكومة وإعناتها لهم.(ش ٢١٧)



الشكل ٢١٦ هيكل ايسيس في بومباي

حتى مدينة بومباي الصغيرة كان فيها هيكل لايسيس (ف ٩٤٥) كما كان ايضاً في مدينة بريان الصغيرة الملينية (ش ١٦٦) وهذا هو رسمهُ بعد ترميمهِ نقلاً عن "مابو"

(٩٤٩) ظهور الديانة المسيحية

وكان ميل عامة الشعب يتزايد اكثر فأكثر نحو ديانة واحدة من بين تلك الديانات الشرقية فآثروها على سواها ٠ وكان معلمو هذه الديانة يقولون للناس ان معلمهم يسوع العبراني وُلد في فلسطين بين امّتهِ العبرانية في ايام اوغسطس قيصر ٠ وكان جوهر تعليمهِ ابوّة الله وأُخوَّة البشر وقد كرز بضع سنين بهذا التعليم الجليل الذي فاقَ ما علَّم بهِ انبياء اليهود الذين ظهروا قبلهُ (ف ٣١٢) ،وكانت كرازتهُ للشعب بلغتهِ الارامية (ف ٢١٣) فابغضوهُ واماتوهُ في زمن ملك طيباريوس

(٩٥٠) بولس وتأسيس الكنائس الاولى . العهد الجديد

وظهر يهوديٌّ خيّام من طرسوس اشتهر بالفصاحة وشدة المعارضة ومحبتهِ المتوقدة على الدوام لسيّده . وشرع يجول في مدن اسية الصغرى وبلاد اليونان حتى وفي رومية ايضاً منادياً بتعليم ذلك السيّد وكان حيثما مرَّ يغادر وراءَهُ جماعة قادها الى الايمان بتعليم ذلك السيّد . وكانت هذه الجماعات المؤمنة تؤلف صفًّا طويلًا يمتدُّ من اورشليم الى رومية . وقد كتب اليها رسائل (ش ٢٠٧) باللغة اليونانية انتشرت بينها وطُولعت برغبة شديدة . وفي اثناء كتابة الرسائل ، كان قد كُتب تاريخ حياة يسوع باللغة الارامية (ش ٩٨) التي كان يكرز بها الاَّ ان هذا التاريخ قد فقد تماماً . واخيرًا ظهر في اليونانية اربع سيَر لحياتهِ دوَّنها اربعة من الكتبة معتمدين في ما كتبوهُ على التاريخ الارامي المذكور آنفاً . وشاعت هذه السيَر الاربع واقبل الناس على مطالعتها اقبالاً عظيماً . وكان لها المنزلة الاولى لديهم ولتعليمها القول الفصل . وسُمّيت بالبشائر الاربع وضُمت بعد ذلك الى رسائل بولس وغيرها في مجلَّد واحد باللغة اليونانية سمي العهد الجديد

الشكل ٢١٧ شهادة بانَّ رجلاً رومانيًا قدَّم ذبيحة للامبراطور كاله

(٩٥١) تفوق الديانة المسيحية على سائر ديانات الشرق

ومع ما كانت عليهِ ديانات الشرق الاخرى من المكانة ومع ما كان لها من الجاذب لم تستطع ان تولي اتباعها مؤاساةً او شركةً مع حياة سامية جدًّا وجميلة ومملوءَة رأفة وشعورًا مع الغير كحياة المعلم العبراني الجديد الذي كان لدعوتهِ البسيطة «تعالوا اليَّ يا جميع المتعبين» مفعول عظيم في قلوب الملايين من الرومانيين التعابى لم يكن لمناشير الامبراطرة الرومانيين اجمع . وقد

كشف المنقبون عن الآثار في خرائب قرى مصرية ما يزيد عن عشرين شهادة من هذا النوع كل واحدة منها مكتوبة على قدَّة من ورق البردي وقد جاء في هذا الانموذج من الشهادات ان وطنيًّا اسمهُ اوريليوس هُوريون مقيم في قرية ثيادلفيا بمصر، حضر امام لجنة مندوبي الحكومة واعترف بانهُ كان دائمًا محافظًا بكل امانة على عبادة الآلهة ليس ذلك فقط بل انهُ ايضًا قدم امام المندوبين والشهود ، ذبيحة وسكب سكائب . واستنفد قسمًا من هذه التقدمات . ويُشاهد في الوسط امضاء رئيس المندوبين وفي الاسفل تاريخ في اربعة اسطر يقابل ٢٥٠ م وكل روماني في هذا الوقت مهما كان معتقدهُ الديني كان مجبرًا ان يحمل شهادة كهذه ويبرزها حين الطلب . اما المسيحي الذي كان يلجأ الى واسطة كهذه لكي ينجو من اضطهاد الحكومة ، فكان يحتقر من جماعة المؤمنين الذين كانوا يأنفون من عمل كهذا

اصغى لندائه هذاء العبد والمُعتَق والصانع والمحترف والوضيع والمزدرى المقيم في تُكَن الحكومة، مأوى الفقراء في رومية. وبعد زمان لبى النداء كثيرون فوجدوا فرحاً في الرجاء الذي ولَّدهُ فيهم ذلك التعليم السامي · وفي قرن السلم الثاني برَّزت الديانة الجديدة على سائر ديانات الامبراطورية الاخرى

(٩٥٢) اضطهاد رومية للمسيحيين الاولين

وقد وجد عمال الامبراطورية الرومانية المسيحيين الاولين يأبون ان يقدموا للامبراطور العبادة المطلوبة ليس ذلك فقط بل كانوا يتنبأون وينادون جهارًا بسقوط الدولة الرومانية فجرَّ عليهم ذلك وبالاً واضطهادات شديدة (ش ٢١٧) واتضح للملإ ان ديانتهم لا تتفق مع شروط الرعوية الرومانية التي مرَّ ذكرها قبلًا لانها تحظر على اتباعها تقديم الاحترام المطلوب للامبراطور والحكومة

(٩٥٣) تنظيم الكنائس واحياء العبادة الشعبية

وكان عدد المؤمنين يزداد زيادة مستمرَّة وكل جماعة منهم كانت تنظم ذاتها كنيسة· واللفظة كنيسة مأخوذة من لفظة يونانية الاصل (اكليزيا) معناها جماعة المؤمنين وكان اليونان يستعملونها قبلًا لمجمع العامة · وقام في الكنائس رجال من اهل الاقتدار اخذوا يسعون جهدهم للحصول على الزعامة والنفوذ اللذين لم تعد تتسنى لهم فرصة للحصول عليهما بعد تقهقر امر الرعوية في الجمهوريات القديمة · وقد قدّر لهولاء الزعماء ان يصبحوا قادة الشعب من الوجهتين السياسية والدينية

٩٤

نهاية قرن السلم الثاني

(٩٥٤) بدء التقهقر. مرقس اوريليوس (١٦١ — ١٨٠ م)

وفي قرن السلم الثاني كانت مدنية البحر المتوسط قد اخذت في التقهقر، مع ما كان يُرى في البلاد من مظاهر النجاح والرخاء ولا سيا المباني الفاخرة التي شيَّدتها الامبراطورية· وقد استبان هذا التقهقر في ملك هدريانوس · وكان خليفتهُ انطونيوس الملقب بيوس (التقي) على جانب عظيم من الحلم والرقة والفضل ومحبة السلام فلم يثر حرباً ولا ابدى شيئاً من الهمة في سبيل المحافظة على هيبة الدولة وان كان قد شيد اسوارًا على التخوم الشمالية صيانة لاملاك الامبراطورية من هجمات برابرة الشمال · واما خليفتهُ مرقس أوريليوس فوجد نفسهُ

في موقف ضنك (١٦١ م) لان الفرتيين الذين كان قد اطمعهم حلم ورقة سلفهِ انطونيوس بيوس ، اخذوا يعتدون على الحدود الشرقية فاثار عليهم اوريليوس حرباً استعرت لظاها اربع سنين قبل ان عاد الامن الى الحدود · ولما عادت الجنود الرومانية من الحرب رافقهم طاعون مخيف قتّال هلك فيهِ عدد كبير من الرجال في الوقت الذي كانت فيهِ البلاد في اشد الحاجة اليهم · لانهُ في هذا الوقت الحرج اخترق برابرة الجرمان الحصون الشمالية (ش ٢٠٦) وانهالوا ، اوّل مرّة في مدة قرنين من الزمان ، على ايطاليا انهيال السيول (١٦٧ م) فانقضى بذلك عهد قرني السلم · وتأخرت في الوقت نفسهِ مالية الدولة حتى اضطرَّ الامبراطور الى بيع جواهر تاجهِ ليشتري باثمانها مِيرةً واعتدة حربية للجيش · وظل مرقس اوريليوس يحارب الجرمان في المنطقة التي صارت فيما بعد بوهيميا، الى نهاية عمره الاَّ فترةً يسيرة هادن فيها العدو فلم يقع بين الفريقين قتال · وقضى والحرب لم تنقض · ومع ان هذا الامبراطور قد نال نصراً مبيناً على الاعداء لم يستطع ان يكسحهم من اقاليم الامبراطورية الشمالية بالمرّة · فاقدم على امر شديد الخطر وهو انهُ سمح لبعضهم ان يقيموا في البلاد بصفة مهاجرين فلاحين يحرثون الارض التي عيّنت لهم داخل الحدود ويستثمرونها الاَّ ان هذه السياسة الخرقاء عادت على البلاد بالنتائج الوخيمة

(٩٥٥) اخلاق مرقس اوريليوس

ولكن مع ذلك كلهِ لا يُنكر على مرقس اوريليوس ما كان عليهِ من الاقتدار والحُنكة السياسية والادارية فضلًا عما عُرف بهِ واشتهر عنهُ من كرم العنصر وجمال الاخلاق ونقاوة السيرة · ففيما كان موقفهُ يزيد قلقهُ وبلبلة افكارهِ — وهو جالس في خيمتهِ يُشارف ويدير حركات الكتائب الحربية ، بين غابات بوهيميا ، في قلب الشمال الهمجي — وجد لهُ متسعاً من الوقت فيهِ دوّن افكارهُ في كتيّب اودعهُ تأملات مفيدة باللغة اليونانية عُدّت بين انفس ما غادرهُ الماضي للحاضر من الارث الثمين لانها اشواق قلب صابرٍ الى العيشة النقية الشريفة · ولكن لم يكن في طاقة المليك ولو كانت مقاصده نبيلة مجرَّدة عن المنفعة الذاتية ان يقف عوامل التقهقر التي كانت سارية في جسم العالم الروماني · وكان مزمعاً ان يعقب قرني السلم ، قرن ثورات وحروب اهلية وفوضى تقلب شكل العالم الروماني بطناً لظهر ويظهر بعدها عالم روماني جديد يختلف جدًّا عن الذي كان قبلهُ

مسائل

٩٠

هل بقي النزاع الذي حصل عند موت نيرون خطرًا على سلام الامبراطورية مدة طويلة؟ من انتصر ؟ ما هما الواجبان العظيمان اللذان كانا امام الامبراطورين ؟ صف الاخطار على التخوم . ماذا عمل دومتيانس لحماية الثغور ؟ اذكر الاعمال العظيمة التي قام بها تراجانس على الدانيوب الاسفل . وفي الشرق . كيف تصرّف هدريانوس بفتوحات تراجانس ؟ ماذا تعرف عن الجيش الروماني في ملك تراجانس وهدريانوس ؟ كيف تحسنت ادارة الحكومة ؟ اي تبديل جرى بسبب ذلك التحسن في الضرائب وكيفية جبايتها ؟ اذكر ما تعرفهُ عن رغبة الشعب في الشؤون العمومية بالولايات

٩١

قف بطريق التخيُّل على جبل طارق وانظر نظرة تخيُّلية الى الامبراطورية الرومانية : صف ما تراهُ . صف بومباي . قل شيئًا عن سفر البحر . وعن التجارة . ماذا وجد السائح الروماني في اسية الصغرى ؟ وسوريا ؟ ومصر ؟ اين كان العالم القديم حسبما تراءى للروماني ؟ واين كان عالمهُ الحديث ؟ ماذا تستطيع ان تقول عن المباني الرومانية المختلفة في الغرب

٩٢

كيف كانت قد تحسنت رومية الآن ؟ صف الكلوسيوم . ماذا تقدر ان تقول عن استعمال الرومانيين للبلاط في البناء ؟ وعن النقش الروماني ؟ والتصوير ؟ ماذا حدث للآداب في رومية منذ زمن اوغسطس ؟ قل ما تعرفهُ عن كتّاب النثر اللاتيني

وعن الكتّاب اليونان . ماذا تقدر ان تخبرنا عن حال العلم في رومية ؟ والاسكندرية ؟
قل ما تعرفهُ عن الحياة المختلطة في رومية . ماذا تستطيع ان تخبر عن دخول الاشياء
الكمالية في الشرق

٩٣

ماذا تقدر ان تخبرنا عن حالة الحياة العقلية في رومية ؟ وعن الحياة الدينية ؟ وعن
الاديان الشرقية الداخلة جديداً ؟ كيف كان شعور عامة الشعب نحو الديانات الشرقية؟
ماذا تعرف عن اليهود في هذا الزمان ؟ صف ظهور الديانة المسيحية وعمل بولس .
ماذا تقدر ان تفيدنا عن تفوّق الديانة المسيحية ؟ ما هي الصعوبة الفعلية التي لاقاها
المسيحيون في علاقتهم بالحكومة الرومانية ؟ اية شهادة كان على كل روماني ان
يقتنيها ؟

٩٤

اي شعب اولاً اتعب مرقس اوريليوس ؟ اية حادثة خُتم بها قرن السلم الثاني ؟
ماذا فعل مرقس اوريليوس لاخضاع البرابرة ؟ مـاذا تقدر ان تقول عن عقل واخلاق
مرقس اوريليوس

الفصل السابع والعشرون

قرن الثورة وقسمة الامبراطورية

٩٥

تقهقر الامبراطورية الرومانية الداخلي

(٩٥٦) علامات التقهقر الداخلي . استمرار التأخر الزراعي السابق

قد رأينا ان الحكومة الجيدة والمباني الفاخرة والمدارس الراقية وغير ذلك من بيّنات المدنية ، كانت اعظم انتشارًا في القرن الثاني للسلم مما في سائر القرون التي سبقتهُ . ولكن مع ذلك كلهِ كانت الامبراطورية تتألم من علّة قلبية داخلية نذكر من اعراضها الظاهرة ، اوّل كل شيءٍ التأخر الزراعي الذي كان بادياً قبل سقوط الجمهورية (ف ٨٣٢) وظلّ يزيد على مرّ السنين

(٩٥٧) شيوع نظام التملك الشرقي . الدساكر

وظلت الاراضي مهما كان قد ضُرب عليها من الضرائب الثقيلة تنتقل الى ايدي الاغنياء اهل القوة . وقد كان للنظام الشرقي الذي بموجبه تقسمت الارض الى عقارات كبيرة تملكتها الحكومة وافراد قلائل ، تأثير عظيم ايضاً . نشأ هذا النظام وشاع في اسية الصغرى ايام كانت تحت سلطة الفرس . ومنها اتصل الى بلاد اليونان (ف ٥٨٥) وقد وجدهُ الرومان ايضاً في ولاية افريقيا وراء قرطاجنة . ففي ملك نيرون كان نصف هذه الولاية مقسوماً الى ستة عقارات كبيرة تملكها ستة من كبار الملاكين . وكانوا يدعون عقارات كبيرة كهذه دساكر . وكما لاشى هذا النظام صغار الفلاحين في ايطاليا نفسها (ف ٨٣٢ – ٨٣٤) كذلك كان آخذاً في ملاشاتهم في الولايات التابعة لها في الخارج ايضاً فلم يشع هذا النظام في ايطاليا فقط بل عمّ غاليا وبريطانيا واسبانيا وغيرها من الولايات الكبرى

(٩٥٨) قيام الكولونيين

ولما رأى صغار الفلاحين انفسهم عاجزين عن مباراة ارباب الاملاك الواسعة وتحمُّل الضرائب الفادحة ، عدلوا عن المباراة وتركوا الجهاد في هذه السبيل ودخلوا في خدمة كبار ارباب الاملاك في دساكرهم . وكان قانون هذه الخدمة يقضي شرعاً بوجوب بقاء المستخدَم ونسله مرتبطين الى الابد بالارض التي يعملون فيها . فاذا بيعت الارض وانتقلت الى آخر كانوا يبقون فيها كانهم بعض المبيع . لم يكونوا عبيدًا ارقاء ولكنهم لم يكونوا احرارًا لكي يذهبوا الى حيث يشاؤون . ولما لم يكن لهم امل بتحسن احوالهم في المستقبل ، ولا بسنوح فرصة لاولادهم تمكنهم من تملك الارض التي يعملون فيها — وقد كانت قبلًا ملكاً حلالاً لهم — فقدوا نشاطهم واستقلالهم واصبحوا غير اولئك الفلاحين النشيطين الذين وُجدوا في رومية القديمة . واصبح كثيرون من برابرة الشمال في عِداد العاملين في عقارات كبار الملاكين داخل حدود المملكة تحت الشروط المذكورة . وبعد ان كان العبيد الارقاء يقومون بحراثة هذه الاراضي اصبح الكولونيون اهم العناصر العاملة فيها

(٩٥٩) نقصان مساحة الارض المحروثة وبالنتيجة نقصان كمية المواد اللازمة للطعام

ولما كان كثيرون من سكان الداخلية غير راضين عن هذا النوع من الاستخدام غادروا حقولهم وهرولوا الى المدينة لكي ينالوا فيها معونة وتفريجاً لكربهم . فبارت الاراضي وعلاها الشوك والاعشاب الضارَّة . وعلى هذا المنوال ظلَّت الاراضي المفلوحة تقل والاراضي البور تزيد حتى امسى العالم القديم غير قادر ان ينتج من الارض الكميات الكافية لهُ من الطعام . وكان الشعور بنقص كمية المأكولات على اشدّهِ في المدن الكبيرة كرومية مثلًا حيث تزدحم الاقدام وتتصاعد الاسعار بسرعة . فنحن ابناء هذا الزمان لسنا اوَّل من رفع عقيرتهُ بالشكوى من « ارتفاع الاسعار »

(٩٦٠) تواري الفلاحين وعجز رومية عن ارجاعهم

وقام الامبراطور يعرض الارض عرضاً على الفلاحين ويغريهم بحراثتها وزرعها ولكن ذلك لم يجدِ فتيلًا في زيادة المحروث والمزروع منها . فتوارى صغار الفلاحين وعجز اهل رومية عن الاتيان بمن يسدُّ مسدَّهم كانا السبب الرئيسي بين جملة اسباب أُخرى تضافرت معاً فأدَّت الى تأخُّر هذه الامبراطورية العظيمة ثم سقوطها

(٩٦١) التأثير السيء الذي حصل من العيشة في المدينة

ان سكان الداخلية الذين تهافتوا على رومية جلبوا على انفسهم انقراضاً مروَّجاً فكأنهم بحثوا عن حتفهم بظلفهم لان شبانهم احجموا عن الزواج فتضاءل امر العيال كما هي الحال — عادةً — في المدن . وفضلًا عن ذلك ان اهل المدن لا يرغبون في العيال الكبيرة كاهل القرى فحصل نقص عظيم في عدد سكان الامبراطورية . وبما ان الفلاح النشيط قد انحط من الوجهة الاخلاقية عما كان عليهِ قبلًا لمجرَّد اقامتهِ في المدينة فاننا نراه فقد استقلالهُ وعزَّة

نفسهِ ايضاً بزاحمته غيره من الفقراء ليحصل على موقف بينهم حيث يوزَّع عليهم الاحسان من لدن الحكومة . فامتلأَت المدينة من ابناء الفصيلة الحَلَمية العديمي التدبير الذين يعيشون على نفقة غيرهم . فاضطرَّت الحكومة ان تثقل كاهل الفلاحين باعباء الضرائب الفادحة التي ناءت بهم لكي تتمكن من توزيع المال على هولاء البطالين الذين امسوا عالةً على عاتق الانسانية . وكانت الحال في سائر امهات المدن كما كانت في رومية نفسها

(٩٦٢) انحطاط الروح الوطنية في المدن

وكانت هـذه المدن مع ما هي عليهِ من بهاء المظهر الخـارجي تسير الى الوراء . فانها اعتادت ان تعتمد على رومية في العناية بامورها حتى في ما كان منهـا محليًا محضاً . ولم يعد سكانها يشعرون باقل مسؤولية او واجب نحو الوطن . وانقضى عهد التنافس المفيد بين المدن المتجاورة . وكان وجوه المدينة في كل الاماكن يُعرضون عن الشؤون العمومية ولا يكترثون لها مثقال ذرَّة لان الروح الوطنية التي تنشِيء افاضل الرجال كانت في جميع ارجاء العالم القديم صائرة الى الزوال المؤَبَّد كما زالت قبلًا من بلاد اليونان

(٩٦٣) تأخر التجارة

وكانت المدن تتقهقر في الامور التجارية والمالية لانهُ لم يبقَ في البلاد عـدد يستحق الذكر ممن يستطيعون ابتياع السلع التجارية من اربابها . فقلَّت الاسواق التي كانت تروج فيها مصنوعات المـدن فعادت المدن غير قادرة على تصريف بضائعهـا فمُنيت من جرَّاء ذلك بالتأخر . ولما اصبح الصناع بلا عمل انضموا الى فقراء المدينـة . ومما اثر تأثيرًا بليغاً في تأخير الاعمال التجارية في المدينة عدم وجود كمية كافية من المعادن الكريمة لسك النقود

(٩٦٤) عـدم وجود كمية كافية من المعادن الكريمة لسك النقـود . وغش الدراهم

ولاسباب عديدة لم تكن الحكومة قادرة على ان تحصل على المقدار اللازم من المعادن الثمينة لسك النقود الضرورية للتعامل التجاري . فاضطرَّ الامبراطرة ان يسكُّوها من مزيج مغشوش بمعادن احطّ قيمة من المعادن الكريمة وارخص منها . ومن يطَّلع على مجاميع النقود الرومانية المحفوظة في المتاحف الاوربية يجد ان النقود المسكوكة في عهد اوغسطس خالصة . واما التي سُكَّت في عهد مرقس اوريليوس فمغشوشة بمقدار ربع وزنها من معدن منحط القيمة . وبعد مرور جيلين على عهد اوريليوس لم يكن في قطع نقود الحكومة من الفضة الأ خمسة بالمئة من زنتهـا حتى ان الدينار المعروف الذي كان يساوي فرنكاً تقريبـاً هبطت قيمتهُ فصارت سنتيمين ونصف سنتيم

(٩٦٥) تأخر الجيش

يستحيل على اية دولة كانت ان يكون لديها جيش منظم وخزينتها صِفرٌ من الدراهم . وبمـا ان جباية الضرائب نقودًا ، اضحت من المستحيلات اضطرَّت الحكومة ان تستوفيها حنطةً وغلالاً أُخرى . ولذلك نابت الاهراء والمخازن مناب الخزانة كما حدث في مصر قديماً

(ف ٧٦) وكانت رواتب الجيش تؤدى حنطة · واما على الحـدود فلما كان يتعذّر دفع مرتبات الجيش باية صورة كانت ، أُقطع الجنود اراضي لكي يفلحوها ويزرعوها ، وأُجيز لهم ان يتأهـلوا ويقيموا في اكواخهم قرب الحدود · ولمـا كانوا لا يُدعَون الى التمرين العسكري او لصدّ غارة من غارات البرابرة الاّ نادرًا نسوا التدريب العسكري الذي دربوا عليهِ سابقًا وامسوا ضعفاء كالرديف لانهم لم يكونوا يدعون الى الخدمة الاّ عند الضرورة وسُمّوا حفظة الثغور

(٩٦٦) عدم وجود نظام تمشي عليهِ الخلافة

ومما عجّل كثيرًا في انحطاط الجيش ، النقص المهمّ الذي غـادرهُ اوغسطس في تنظيم الدولة الرومانية · اما هذا النقص او العيب في التنظيم فهو عدم وجود طريقة قانونية لانتخاب الامبراطور تنتقل بموجبها سلطة الامبراطور المالك الى خلفهِ وهكذا على التوالي دون وقوع خلل يمنع استمرار السلطة بلا انقطاع من مُلك الى مُلك · ولوجود هـذا الخلل ، كان في طاقة الجند ان يختاروا الامبراطور الذي يرضون عنهُ حالما يموت الامبراطور المالك · ولم يكن للامبراطور المعيَّن على هذا الاسلوب الا القليل جدًّا من الاحـترام · واذا حاول ان يقتصّ من احدهم جزءا على هفوة اقترفها كانوا يعزلونهُ ويعينون آخر مكانهُ · وهكذا امست السلطة العليا بيد جنود من مرتزقة البرابرة

(٩٦٧) ارتفاع الولايات الى مستوى ايطاليا والمباراة بين الفريقين

ولما ضربت المدنية سرادقاتها فوق الولايات التابعة لايطاليا جعلت سكانها يشعرون انهم في مستوى واحد مع ايطاليا نفسها · ولما مُنحت الرعوية الرومانية سنة ٢١٢ م لجميع الاحرار الذين ضمن الامـبراطورية على اختلاف الاقاليم او الولايات التي يقيمون بها زالت الامتيازات وصار جميع الرعايا على مستوًى واحد · وبذلك اصبح للاقاليم التي خارج ايطاليا مندوحة اعظم للتنافس في سبيل الحصول على السيادة الامبراطورية

٩٦

قرن الثورات

وكانت عوامل التأخر هذه مجلبة لقرن سلسلة ثورات كانت مزمعـة ان تخرّب عمران العالم القديم · ابتدأ هذا القرن المشؤوم بموت مرقس اوريليوس سنة ١٨٠ م لانهُ لمـا اغتيل

(٩٦٨) التاخر مدة ملك سبتيميوس سفيروس

ابنهُ كومودس الذي لم يكن خير ابن لخير أب بل على شاكلة نيرون، انبرى جماعة من رجال الجندية واخذوا يقتتلون فيما بينهم لان كلًّا منهم كان يطمح الى اغتصاب الملك . ولكن قُدِّر الفوز في هذا العراك لجنديّ خشن اسمهُ سپتيميوس سفيروس . فهذا اخذ منذ استتبت لهُ السلطة يعين في اعلى مناصب الحكومة قوادًا عسكريين من اصل دنيء . ولم يحد عن خطتهِ هذه مطلقًا بل سار عليها سيرًا مطردًا . فاصبح زمام السلطة في الحكومة والجيش معظم الاحيان بيد جماعة من الرعاع الاجانب

(٩٦٩) انقراض سلالة سفيروس (٢٣٥م) والحروب الاهلية التي تلتها

ولما انقرضت سلالة سفيروس سنة ٢٣٥ م حدث الانفجار العظيم اذ قام الجنود البرابرة في الاقاليم الخارجية ونصَّبوا في كل اقليم شخصاً سموهُ امبراطورًا فجعلوا لهولاء الامبراطرة الصغار مندوحة للاقتتال والتطاحن في سبيل الارتقاء الى عرش عالم البحر المتوسط . وكانوا كلما نادوا بامبراطور لا يلبثون ان يسمعوا بنبإ اغتياله . وتكرَّر هذا الاغتيال مرّة بعد مرَّة حتى بلغ عدد الامبراطرة الذين اغتيلوا في تسعين سنة، ثمانين امبراطورًا جميعهم من قادة جند البرابرة

(٩٧٠) فوضى خمسين سنة وانهيار صرح العمران

ودامت الحال فوضى خمسين سنة كانت في غضونها الجنود النهَّابة تدفع صولجان رومية من امبراطور جندي الى آخر . وكان الامن مفقودًا في جميع الانحاء، والمال والحياة تحت الخطر . والاضطراب الذي نجم عن تقاتل الامبراطرة المتنافسين عرقل التجارة وجعل البلاد تنتقل من الرمضاء الى النار . وكانت نتيجة ذلك كلهِ افلاس الامة جمعاء . ولما تفاقم امر الفوضى وبلغ سيلها الزُّبى، في غضون القرن الثالث للمسيح انهار عمران العالم القديم انهيارًا نهائيًّا . وعنت سيادة العقل والعلم التي بلغها اليونان في القرن الثالث ق . م . (ف ٦٨٧) لسلطان الجهل والخرافات في هذه الكوارث الاجتماعية التي حدثت في القرن الثالث ب . م

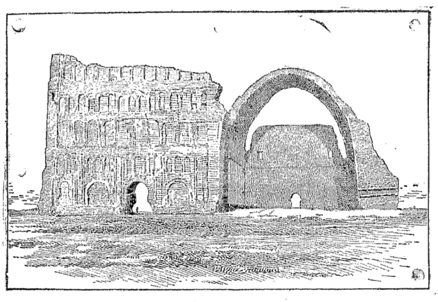
(٩٧١) غارات البرابرة

ولما وهنت قوى الجيش الروماني وظهرت عليهِ أمارات الضعف ادرك برابرة الشمال، في الحال، ان الامبراطورية الرومانية امست تحت رحمتهم . وكان في الشرق القوط، احدى القبائل الجرمانية البحرية القوية، فجاءوا بسفنهم من البحر الاسود الى بحر الروم . وفيما كانوا يدمّرون المدن الساحلية، في اماكن عديدة، كانت عصابات أُخرى قد قطعت شبه جزيرة البلقان واعملت ايدي النهب والتخريب في بلاد اليونان حتى حدود المورة ولم تسلم اثينا من عيثهم . وتوغل البرابرة في ايطاليا ودوَّخوا غاليا واسبانيا وقطع بعضهم الى افريقيا . والذين منهم دخلوا غاليا اضرموا النار في مدنها فدمّرتها تدميرًا . وكان قوادهم يضحكون ويقهقهون حين كانوا يرون النار تلتهم المباني الجميلة

"٧٣" استقلال غاليا الرومي وبينات تجديد بنائها

ولما رأى سكان الاقطار المنهوبة انهُ لم يعد في استطاعة المملكة الرومانية ان تحميهم اتخذوا على عواتقهم امر حماية انفسهم • فاستقلّت غاليا تحت زعامة حكامها سنين عديدة في هذا القرن الذي تقوّضت فيهِ دعائم الامن • وهبَّ سكانها هبة واحدة وصدُّوا عنهم تيار البرابرة الجارف.

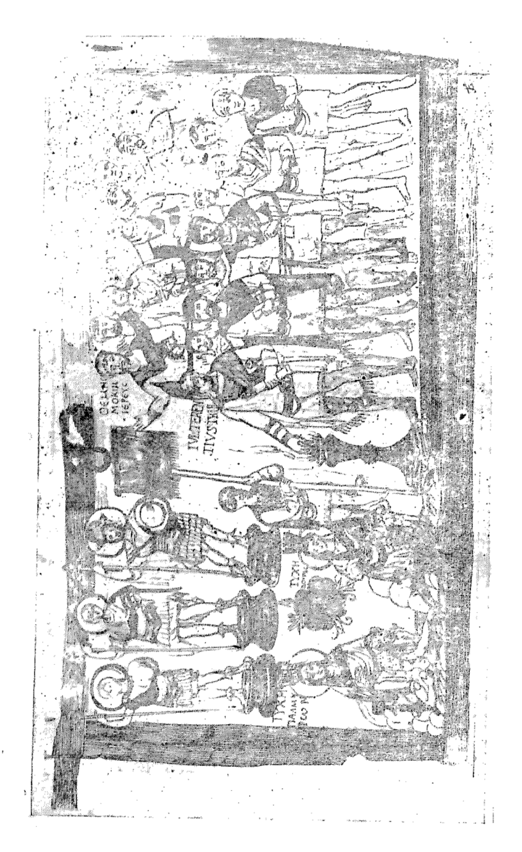
وبنوا مدائنهم الخربة من جديد على هيئتهم ولم يجسروا ان يوسعوا نطاق المدينة بل ضمّوا المباني بعضها الى بعض ثم طوّقوها بسور هائل بني معظمهُ بحجارة أُخذت من المباني التي تهدمت بفعل النار التي شبّها فيها البرابرة فسوّدت حجارتها • ولا تزال هذه الحجارة تشاهد حتى الآن في اسوار كثير من مدن فرنسا • قيل ان عدد المدن التي تشاهد فيها هذه الحجارة المسودَّة يربي على الستين . وكشفت اعمال الاثريين خارج اسوار هذه المدن اسس مبانٍ رومانية فاخرة كانت تتألّف منها مدينة عظيمة اكبر من المدينة التي تشاهد بقاياها ضمن الاسوار



الشكل ٢١٨

يرينا هذا الرسم الانقاض الباقية من القصر الملكي في تيسيفون على دجلة . وقد كانت تيسيفون هذه عاصمة بلاد فارس الجديدة . وتدل صورة الشخص الصغيرة في احد الابواب على ضخامة البناية . و"بضدها تتبين الاشياء". والقنطرة الهائلة التي ترى الى اليمين شيدت على البناء الذي تحتها بدون قالب يدعمها في اثناء البناء . عرضها خمسة وعشرون مترًا وربع متر . كانت اعظم قنطرة حجرية في عصرها ولا تزال ماثلة الى الآن . هنا كان ملوك بلاد الفرس الجديدة العظام يجمعون رجال بلاطهم . وقلّدهم في ذلك اباطرة القسطنطينية الضعفاء . لاحظ موقع بابل "كمحطة" نهرية على السكة العظيمة بين اسية الصغرى والشرق . وكانت تيسيفون حلقة من سلسلة العواصم القوية التي عاقب بعضها بعضًا على التوالي في هذا الموقع من النهر — اكّد (ف ١٧٣) وبابل (ف ١٨١) وآخر الكل بغداد

وفي الوقت نفسهِ بان في الشرق خطرٌ جديد بانتعاش المحبة الوطنية في صدور ابناء



الشكل ٢١٨

جنود رومانية من تدمر، بلميرا، يقدّمون العبادة لآلهة مدينتهم في قلعة ديورا على الفرات الاوسط

يمثل لنا هذا الرسم جنودًا رومانية على الحد الشرقي الاقصى للملكة، فيما نعلم . والى يسار منتصف الصورة

(٩٧٣) قيام الملوك الساسانيين

مملكة فارس القديمة وعَود الحياة القومية اليهم . فهبَّ زعماؤهم من العائلة الساسانية وقلبوا عرش فرتيا (٢٢٦ م) وانشأوا في بلاد فارس أُسرة ملكية جديدة متهذبة . ولما استتب لهم الاستيلاء على الهلال المخصب واتخاذ «تسيفون» على دجلة شماليّ بابـل عاصمة لهم، قام شرق جديد على انقاض الاعصر الخالية التي كان الدهر – في الظاهر – قـد ضرب عليها حجاب النسيان، وشُيِّدت مبانٍ نفيسة مشرفة على الرافدين من النمط الفارسي وان ظهرت عليها مسحة من الفن اليوناني . واخـذت تظهر الاشياء الجميلة التي صنعهـا ارباب الفنون والحِرف، وبـدت ديانة زورواستر بمظهر جديد من الحياة . فلنا في هذه الحركة، آخر نهضة للجنس الايراني القديم الذي اوجـد ديانة زورواستر وشيَّد مملكة الفرس الشاسعة الاطراف . اما الدولة التي انشأها الملوك الساسانيون فكانت اعزَّ جانباً من دولة الفرتيين التي قلبوها . وحسب هولاء الملوك الساسانيون انفسهم انداداً للرومانيين ومنافسين لهم في الملك على العالم . وبذلك عاد التنافس القديم بين الشرق والغرب كما كان قـديماً بين بلاد اليونان وبلاد الفرس وكانت رومية زعيمة الغرب وبلاد الفرس الجديدة زعيمة الشرق

(٩٧٤) تدمر بين بلاد الفرس الجديدة ورومية

وفي الوقت الذي كانت فيهِ أُسرة سڤيرس آخذة في الانحطـاط، كانت مملكة الفرس الجديدة ترقى الى ذروة العزَّة والمَنَعـة حتى صارت عدوًّا يُرهَب جانبـهُ على الحد الشرقي للامبراطورية الرومانية التي اصبحت من الآن فصاعـدًا مهددة من الشمال ومن الشرق. ولكن قيام مغتصب — الى حين – ضمن حدود المملكة الرومانية كما حدث في غاليا وفي الشرق، كان وسيلة لانقاذ رومية من استيلاء عدوّ من الخارج عليها . فقيام احـد الولاة الشرقيين الذي استقلّ واتخـذ تدمر مركزًا للملكهِ كان منجاةً لرومية لان استقلالهُ حداهُ على الدفاع عن تخم الامبراطورية الشرقي على حسابهِ الخاص . وبعد وفاتـهِ خلفتهُ ارملتهُ

مركوزٌ علمٌ روماني طويل القناة، او رايةٌ حربية يحملها احد الجنود (بيرقجي) قاسماً المشهد الى قسمين . فالى يمين العلم طائفة من الجنود الرومانية قائدها، الحاكم يوليوس ترنتيوس، واقفٌ الى جانبها . والى يمينه مبخرة متّقدة يضع على جمرها البخور ويقوم بالخدمة الدينية للحامية الرومانية التي هو قائدها . والى يسار العلم (من الاعلى) آلهة تدمر الثلاثة . ومن اسفل الاهنا الحظ، الى اليسار الاهة تدمر والى اليمين الالهة ديورا . وكل الآلهة هنا لابسون تيجاناً او هالاتٍ كالتي كان يرسمها المصورون المسيحيون الاقدمون على رؤوس القديسين . ولا شك في ان قدماء المصوّرين المسيحيين اقتبسوا هذه التيجان من الصور التي وجدت في الهيا كل الوثنية قبل عهد المسيحية في سورية . والظاهر ان هولاء الجنود هم من سكان تدمر وقد كانوا يقومون باعباء الحراسة والحماية في قلب الصحراء في قلعـة ديورا على الفرات على بعد ١٤٠ ميلاً شرقي تدمر . وعلى بعد ٢٥ ميلاً من مصب نهر خابور حيث اقـام الرومانيون بعد ذلك تخم ملكهم، وقد وجد هذا المشهد على جدار معبد في قلعة ديورا القديمة . اكتشفهُ الاثريون في اثناء القيام باعمال التنقيب التي قامت بها بعثة جامعة شيكاغو سنة ١٩٣٠

زنوبيا الجميلة التي جعلت تدمر عاصمة مملكتها ولقبت نفسها بملكة الشرق لان اسية الصغرى وسورية ومصر كانت ضمن مملكتها التي درأت الشرّ موقتاً عن رومية وحالت دون هجوم مملكة الفرس الجديدة عليها

(٩٧٥) اوريليانس (٢٧٠ – ٢٧٥ م) يسترد الشرق وغاليا ويحيي قليلاً بعيد العظائم ٢٨٤ م

ولما استوسق الامر لهذه الدولة الشرقية القوية في بلدان شرق البحر المتوسط تحت حكم زنوبيا ، وقام المسمى تتريقس احد اعضاء المشيخة وذوي المقدرة الادارية ، وتسلّط على غاليا وبريطانيا وشمال اسبانيا كامبراطور مستقل (ف ٩٧٢) وسيّد لبلدان الغرب ، خيّل للعالم ان المملكة الرومانيـة اوشكت ان تتمزَّق كل ممزَّق . ولما بلغت الفوضى التي سبقت الاشارة اليها ، معظم شدَّتها في المملكة ، قام احد الامبراطرة المنصَّبين بالقوة العسكرية – واسمهُ اوريليانس (٢٧٠ – ٢٧٥ م) – وزحف على زنوبيا وكسر جيشها واستولى على تدمر واخذ الملكة اسيرةً . وكان النصر حليفهُ في غاليا كما كان في تدمر فمكنهُ ذلك من ان يقيم احتفالاً باهرًا في رومية زانهُ وجود زنوبيا وتتريقس وعدد كبير من الاسرى . واعاد اوريليانس الى البلاد شيئاً من النظام والامن . ولكي يصدّ غارات البرابرة في المستقبل شيَّد حول المدينة السور الهائل الذي لا يزال ماثلاً الى اليوم بيّنة على موقف رومية الخطير في القرن الثالث م . وكان قد مرَّ على موت مرقس اوريليوس قرن من الزمان او يزيد لما قام الامبراطور ديوقليتيانس واعاد ما خيّل للناس في ذلك الزمان انهُ سيكون سلماً دائماً

(٩٧٦) خلاصة اربعة قرون من تاريخ السيادة الرومانية

اذا نظرنا من النقطة التي بلغنا اليها نظرة الى الوراء وراجعنا تاريخ رومية مدة نحو ربع مئة سنة منذ اصبحت سيدة العالم رأينا فيهِ ثلاثة اعصر[1] عظيمة فبتأسيس اوغسطس للامبراطورية ابتدأ قرنا سلم تقدمها قرن ثورات وتلاهما مثلهُ . فجاء قرن ثورة تلاهُ قرنا سِلم وعقبهما قرن ثورة ثانٍ وقد ادَّى قرن الثورة الاوَّل الى انتصار سلطة الفرد وتأسيس الامبراطورية على يد اوغسطس نحو ١٣٣ – ٣٠ ق.م . واما قرنا السلم فيبدآن من تأسيس اوغسطس للامبراطورية ويستمران الى ملك مرقس اوريليوس (نحو ٣٠ ق.م – ١٧٠ ب.م تقريباً) ويبتدئ قرن الثورة الثاني من عهد مرقس اوريليوس الى زمن استبداد ديوقليتيانس (من نحو ١٨٠ – نحو ٢٨٤ م) . فالاربعة القرون التي سادت فيها السلطة الامبراطورية ، بعد ان انجبت امثال سُلّا ويوليوس قيصر ، تغلبت فيها سلطة الفرد على اطوار شتى الى ان انتهت بالاستبداد . واول ما نتوخّاهُ الآن ، النظر في هذا الاستبداد وكيف طا

(١) اعصر التاريخ لا تنتهي ولا تبتدئ فجأةً بل يكون الانتقال فيها من عصر الى الذي يليهِ تدريجيًا . والتواريخ بالسنين تدلُّ على الزمان الذي صار فيهِ الانتقال ظاهرًا جليًا

عليهِ تيار غارات البرابرة من الشمال مدة قرنين من الزمان فاغرقـهُ في لجحِهِ • وفي الوقت نفسهِ قامت دولة الشرق الجديـدة فسحقتهُ وقيّض لحملاتها الحربية ان تدوم بعد ذلك قروناً عديدة

٩٧

تحوُّل حكومة الامبراطورية الرومانية الى الاستبداد

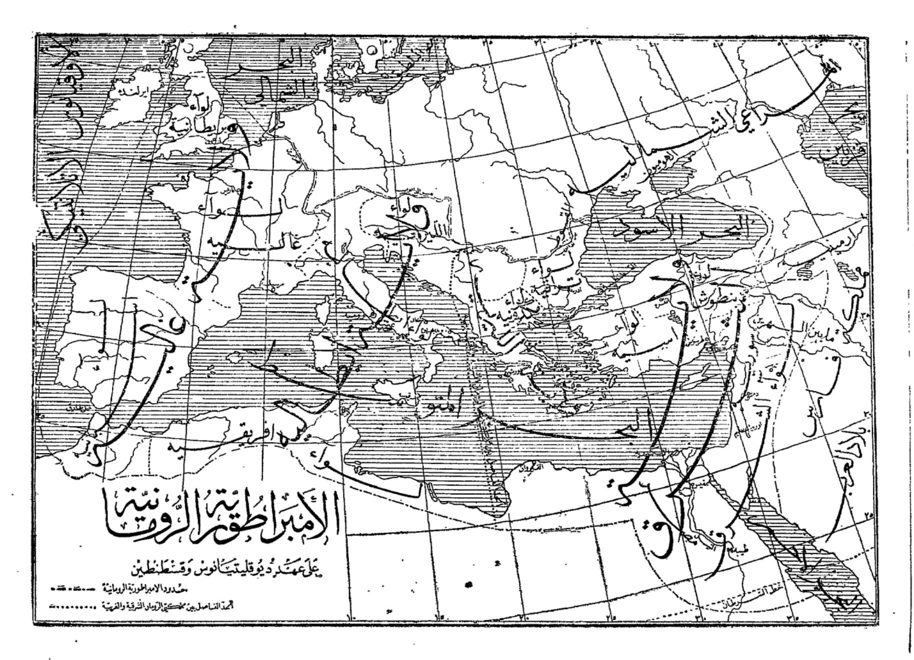
٩٧٧ ديوقليتيانس ٢٨٤-٣٠٥م

وكان العالم الذي برز الى الوجود بعد نكبات قرن الثورات حوالى نهاية القرن الثالث ب٠م ٬وفي اثناء حكم ديوقليتيانس ٬يختلف كثيراً عن العالم الذي ملك عليهِ اوغسطس والمشيخة الرومانية قبل ذلك بثلاث قرون • فان ديوقليتيانس جرَّد المشيخة التي لم تكن الاَّ ظلَّا للحقيقة ٬من كل سلطة الاَّ سلطة الحكم البلدي في رومية فاصبحت مجرَّد مجلس بلدي ليس الاَّ وتوارت عن مرسح التاريخ فصار الامبراطور ملكاً مطلقاً اذ لم يبقَ من يقيد سلطتهُ وتحوَّلت الدولة الى قوة حربية • ولم يكتفِ الامبراطور بانهُ صار ذا قوة مطلقة كحكام الشرق بل اضاف الى ذلك مستلزمات تلك القوة كالتاج والحلل المزركشة باللآلىء والحجارة الكريمة والعرش موطىء القدم الذي وجب ان ينحني امامهُ كل من رام المثول لديه حتى يمس جبينهُ التراب

٩٧٨) القوة الفارسية الشرقية وتأثيرها

ابانت الاكتشافات الجديـدة ان الزي الفاخر الذي اختارهُ امبراطور الرومان لملابسهِ مأخوذ عن الزي الذي كان للساسانيين ملوك بلاد فارس الجديدة فان القواد الرومان كانوا قد رأوا مملكة الشرق الجديدة وخبروا احوالها مدة جيلين من الزمان فاخذوا عنها ٬الزي الملوكي ٬وشارات البلاط وكثيراً من العادات الشرقية • وكان للعوامل الشرقية التي اثرت في معتقدات الرومانيين كما رأينا في انتشار عبادة الاله الفارسي مثراس (ف ٩٤٦) ٬تأثير خصوصي الآن في فكرة تأليه الامبراطور (ف ٩٠٧) • ونرى في هـذه الاشياء ٬خطوة أخرى لامتزاج الشرق والغرب الذي شرع فيهِ الاسكندر الكبير قبـل ست مئة سنة (ف ٦٤٧) فكأن الامبراطورية الرومانية قد اصبحت اسفنجة تمتص حياة الشرق ومدنيتهُ اي انها صارت تنسج على منوالهِ وتتحدَّاهُ في امور كثيرة

وكان الامبراطور قد اصبح الآن الهاً شرقيا برتبة الالـه الشمس ودُعي في الشؤون


الامبراطورية الرومانية
على عهد ديوقليتيانوس وقسطنطين
حدود الامبراطورية الرومانية
الحد الفاصل بين مملكتي الرومان الشرقية والغربية
البحر الشمالي
البحر الاسود
ايرلنده
بريطانية
افريقية

(٩٧٩) الامبراطور اله شرقي · فوز الحكم الاستبدادي وتلاشي الحكم الديمقراطي

الرسمية بالشمس المنيعة · وتعيَّن اليوم الخامس والعشرون من كانون الاوَّل عيد ميلادهِ · وهو اليوم الذي تأخذ فيهِ الشمس تنقلب الى جهة الشمال بعد ان تكون قد بلغت اقصى انقلابها نحو الجنوب · وكان سكان الاقاليم المختلفة مطلقي الحرية في عبادة آلهتهم الخصوصية دون معارضة من لدن الحكومة الرئيسية · ولكنهم كانوا كلهم مجبرين ان يشتركوا في تقديم الذبائح الرسمية لرأس الدولة كاله · وبدخول هذا الشعور الشرقي نحو الامبراطور انقضى زمن الجهاد في سبيل الديمقراطية — ذلك الجهاد الذي تتبعناهُ قروناً عديدة في تاريخ الانسان القديم — وقضي على الديمقراطية بفوز الحكم الاستبدادي

(٩٨٠) ديوقليتيانس يقيم في الشرق ويعين امبراطوراً للغرب

وقضت ضرورة قيادة الجيش لمحاربة الفرس ان يتوجه الامبراطور ديوقليتيانس الى الشرق ويقيم فيهِ · واختار نيقوميديا في اسية الصغرى مقاماً لهُ فكانت النتيجة ان الامبراطور لم يعد قادراً ان ينتبه كما يجب لشؤون الغرب · فعين امبراطوراً آخر معهُ يشارف امور الغرب بالنيابة عنهُ متبعاً في ذلك عادة قديمة ربما كانت — فيما يرجح — عادة انتخاب القنصلين في الجمهورية القديمة · ولم يدر في خلد الامبراطور انهُ بعملهِ هذا يقسم الامبراطورية الى شطرين · ولكن جاءت النتيجة بخلاف المقصود وانقسمت الامبراطورية الى قسمين شرقي وغربي

(٩٨١) تنظيم ديوقليتيانس الاداري

وكان في الامبراطورية مئة ولاية او تزيد فقسمها الامبراطور الى اربعة اقسام كبرى وعيَّن لكل قسم حاكماً سمَّاهُ والياً ، وقسم الولايات الصغرى اثني عشر قسماً وعين لكل منها حاكماً دون الوالي رتبةً سماهُ متصرفاً وجعل تحت المتصرف حكاماً على الاقضية لكل قضاء حاكم خصوصي · وكان في كل ولاية عدد كبير من الموظفين يقومون بالاعمال المختلفة · وكانوا من درجات متفاوتة من الاعلى الى الادنى ولكنهم كانوا مرتبطين بعضهم ببعض كحلقات السلسلة من ادنى موظف الى الامبراطور · وكان مقدار المال اللازم للقيام بهذا التنظيم ونفقات القصر الامبراطوري الطائلة هائلاً جداً لان كل موظف من الاعلى الى الادنى في الملكية والعسكرية كان يُنقد راتباً كافياً للقيام بنفقاتهِ ونفقات عائلتهِ · فاقتضت الحال زيادة الضرائب على الشعب زيادة مستمرَّة فساءَ الحال وزاد حرجاً سائراً من الرديء الى الاردإ منذ ملك مرقس اوريليوس

(٩٨٣) مساوئ طرق جباية الضرائب

ولما أكرهت الحكومة على ان تقبل الضرائب حنطة وغلالاً مختلفة بدلاً من النقود التي قلَّت ، اصبحت الضرائب عبارة عن حصة من غلال الاراضي · وبذلك تكون الامبراطورية الرومانية عملت بنظام عتيق اكل عليهِ الدهر وشرب في الشرق منذ آلاف السنين · وكانت

الحكومة كل سنة تكرهُ جماعة من الاغنياء في كل مدينة على ان يضمنوا لها أداء الضرائب كلها واذا حصل عجز في الكمية المطلوبة كانت تجبرهم على سدّه من مالهم الخاص • فكان عقاب الغنى — حسب الظاهر — الدمار • وكيف يُقدم الشعب على الاجتهاد والكسب وحشد الثروة اذا كان الجزاء عليها زيادة الضرائب الى درجة تنوء بمن وضعت عليهِ

(٩٨٣) خسارة البلاد فلاحيها وتجارها الوسط

اضاعت الحكومة الرومانية قبلاً فلاحيها ولم تستطع ان تسترجعهم • والآن نراها قد اضاعت ايضاً تجارها النشيطين الذين هم من الدرجة الوسطى • فقام ديوقليتيانس وحاول ان يكرههم على ان يثابروا على اعمالهم ، وسنّ قانوناً يقضي على كل انسان بوجوب المثابرة على العمل في ارضهِ او حرفتهِ

(٩٨٤) فقد الحرية والحقوق الوطنية

وتحت هذا الاستبداد ، فُقدت من اوربا الحرية التي جاهد الناس ازماناً طويلة في سبيل الحصول عليها • واضحى الروماني فاقداً لحياتهِ الاستقلالية لان ارادة الامبراطور امست شريعة • فكانت اوامرهُ الملكية ترسل الي جميع انحاء الامبراطورية للعمل بها • فكانت الحكومة تعين الاجور والاسعار • وكان الامبراطور يبث العيون والارصاد لمراقبة جميع الناس حتى اوضعهم مقاماً • فكانوا يلاحظون تجار الحبوب والجزّارين والخبّازين لكي يتحققوا انهم يقدمون للجمهور ما يحتاجون اليهِ ويثابرون على مهنهم دون تردد او اهمال وكانت الحكومة في بعض الاحوال ، تجبر الابن على تعاطي حرفة ابيهِ • وبالاختصار ان الحكومة الرومانية حاولت الآن ان تشارف كل الاعمال والمصالح التي كان يزاولها الناس مدى الحياة • فكان الروماني انّى توجّه يلاقي مراقبة الحكومة وظلمها

(٩٨٥) الموظفو عامل للحكومة

ولما امسى كل انسان في الدولة الرومانية رازحاً تحت عبء الضرائب الباهظ الذي وضعتهُ على عاتقهِ حكومتهُ المحكوم عليها فعلاً بالافلاس ، ساءت الحال جدًّا وصار كل انسان يحسب ذاتهُ سنًّا صغيرًا في الدولاب الكبير الذي يدير اعمال الحكومة • فكأنهُ وُجد ليعمل للحكومة التي كانت تسلبهُ ثمرات كدّهِ وسعيهِ ولا تترك لهُ شيئاً الاّ ما يمسك الرمق • فصارت حالتهُ كحالة فلاح وادي النيل التي عاش فيها آلافاً من السنين • وامسى الامبراطور كأحد الفراعنة والامبراطورية الرومانية كمصر القديمة الاّ انها اضخم منها كثيرًا

ان قرن الثورة الذي ختم بتنظيمات ديوقليتيانس الاستبدادية الجديدة ، امات قوة

(٩٨٦) عاية ارتقاء المدنية العظمى في العالم القديم: مهمة رومية المستقبلة

الابتكار والابتداع التي اتصف بها القدماء سواء كان في الفنون او في الآداب كما امات روح التقدم والارتقاء في التجارة وسائر اعمال الحياة . فارتقاء ديوقليتيانس الى العرش كان نهاية تاريخ العالم القديم من وجهة التقدم في الحضارة والعمران الاَّ انهُ بقي امام رومية مهمة عظيمة كان عليها القيام بها الا وهي — على الاقل — الاحتفاظ بشيء من ميراث المدنية لكي تسلمهُ الى الاجيال المستقبلة جيلاً بعد جيل حتى يصل الى ابناء هذا العصر

٩٨

قسمة الامبراطورية وانتصار الديانة المسيحية

(٩٨٧) نقل مركز السلطة من ايطاليا الى البلقان: اتخاذ قسطنطين (٣٢٤ – ٣٣٧ م) القسطنطينية عاصمة للملك

وفي ملك ديوقليتيانس انحطت ايطاليا عن منزلتها الاولى فاصبحت كبقية الولايات التابعة تؤدي الجزى والضرائب . وفقدت آخر اثر من تفوُّقها على بقية ولايات الامبراطورية . حتى الامبراطور غادرها وذهب الى الجهة الشرقية الشمالية من المملكة بسبب تيَّار برابرة الجرمان الجارف عند الدانيوب الاسفل وقيام مملكة الفرس الجديدة . وكلاهما كان يهدد بالخطر . ولم تظل رومية مقام الامبراطور ولا مركز السلطة لانهما نُقلا من ايطاليا الى البلقان اذ لانهُ في غضون قرن الثورة كان افضل جنود الجيش ، من شبه جزيرة البلقان . وقد قام منهم بعض الاباطرة . ولم يكن الامبراطور المنتخب من بين جنود جاءوا من خارج ايطاليا ، شديدَ المحبة لرومية . وكان سبب هذا الانتقال ، احتراماً للشرق كاد يتلاشى فانتعش من جديد ، ومصالح في البلقان كانت تتزايد على مرّ السنين ابتدأت منذ عصر هدريانوس الذي انفق اموالاً طائلة على تجميل اثينا . ثم جاء ، بعد انتهاء المنازعات التي حدثت عقب موت ديوقليتيانس ، الامبراطور قسطنطين الكبير تخفق فوق راسهِ اعلام النصر (٣٢٤ م) ولم يتردد في توجيه نظره الى الطرف الشرقي من شبة جزيرة البلقان وتأسيس رومية جديدة هناك مقاماً لهُ . وباختيارهِ هذه البقعة التي لا مثيل لها برهن على بُعد نظرهِ وحُنكتهِ السياسية . اختار البلدة اليونانية القديمة ، بزنطيا ، على الجانب الاوربي من البسفور (ش ٢١٩) موقع بديع يشرف على اوربا واسية معاً ويوافق ان يكون مركز السلطة لكلتيهما . وبانتقائهِ هذا الموقع لعاصمتهِ الجديدة جعلها مدينة لا تضاهيها في الاهمية مدينة أُخرى سوى الاسكندرية بمصر . وشرع الامبراطور يسلب كثيراً من المدن آثارها

النفيسة ليجمّل بها كرسي ملكهِ · وما جاءَت سنة ٣٣٠ م حتى كانت العاصمة الجديدة على البسفور قد صارت فاخرة جدًّا غنية بالآثار جديرة بان تكون خير خلف لرومية · مركز امبراطورية البحر المتوسط · وقد دعيت بالقسطنطينية نسبة الى مؤسسها

(٩٨٩) القسطنطينية وانفصال الشرق عن الغرب · استمرار التقهقر

وكان نقل عاصمة الامبراطورية الرومانية الى الجانب الشرقي من شبه جزيرة البلقان انتصارًا لمدنية الجانب الشرقي من البحر المتوسط التي هي اقدم عهدًا من مدنية الجانب الغربي ، كما كان فصلًا للشرق عن الغرب اي قسمة الامبراطورية الرومانية الى قسمين · وهذا الانفصال في الامبراطورية الرومانية وان لم يتم فجأة ، فقد جرى فعلًا بعد تأسيس القسطنطينية بجيل من الزمان فان الامبراطورية اصبحت حينئذٍ عبارة عن حكومتين لم تتحدا بعد انفصالها الاّ موقتاً · فيكون تأسيس القسطنطينية قد قضى قضاء مبرماً على مصير رومية والجزء الغربي من الامبراطورية الرومانية المعروف بعالم البحر المتوسط الغربي · وكانت تنظيمات ديوقليتيانس نافعة ومقوية للقسم الشرقي من الامبراطورية ولكن الى حين لان هذا القسم قُضي عليهِ ايضاً بالانحطاط المستمرّ

الشكل ٢١٩ منظر عبر البسفور من اوربا الى اسيا

نرى هذا المنظر ونحن وقوف على شاطئ البسفور الاوروبي . فاذا ارسلنا رائد الطرف شرقًا كانت انجاد اواسط اسية الصغرى (ف ٢٥٩) ووراءَنا ورأينا الى الجنوب منا تمامًا (عن اليمين) مدينة القسطنطينية على الشاطئ نفسهِ . والى الشمال قليلاً (الى اليسار) المكان الذي — على ما يرجح — بنى عليهِ داريوس الكبير الجسر حين هاجم اوربا اوّل مرة ليفتح بلاد السكيثيين (ف ٤٩٠) . والابراج والاسوار التي امامنا هي بقايا قلعة بناها الفاتحون الاتراك حين عبروا من اسية لفتح القسطنطينية (١٤٥٣ م). وقد كان هذا المعبر العمومي ولا يزال الحلقة التجارية الحربية بين اوربا واسية عصورًا كثيرة

ولما زاد في هذه الاحوال عدد الكنائس المسيحية زيادة مطردة ، وعظم نفوذها زادت

(٩٨٩) الكنائس ذريعة جديدة للقيام رجال مقتدرين

حاجتها الى رجال مقتدرين يتولون ارشادها وقيادتها • واقتضى تدبير الجماعات المسيحية الكبيرة وكنائسها مقدرة كافية وخبرة واسعة • وقد مكنت المباحثات والمجادلات الجهارية في الاجتماعات الكنائسية اصحاب المواهب العقلية من الظهور امام الجماهير • واكسبتهم مقدرتهم العقلية مقاماً ونفوذاً • فاصبحت الكنيسة المسيحية مركزاً جديداً لترقية الناس في الشؤون السياسية • فنبغ فيها رجال من ذوي المقدرة السياسية صاروا في مقدمة اهل النفوذ في عصرهم بعد ان كانت الديمقراطية الحرّة قد انقطعت منذ امد طويل عن ان تنجب رجالاً مثلهم

(٩٩٠) تسوية الكنيسة ونظامها • كهنة واساقفة ورؤساء اساقفة

وكرّس عمّال الكنيسة انفسهم كبالتدريج، للقيام بواجباتهم الكنائسية حتى لم يبقَ لديهم وقت للاشياء الاخرى • وامتازوا عن بقية اعضاء الكنيسة وألفوا طبقة مخصوصة دعوها الاكليروس، وتألّف من سائر الاعضاء طبقة أخرى، دُعيت بالعلمانيين • ودُعي الاعضاء

الشكل ٢٢٠ آثار قديمة في القسطنطينية

المسلّة التي في مقدم هذه الصورة البالغ علوها تقريباً ثلاثين متراً نصبت اول مرّة في طيبة بمصر بامر الفاتح تحتمس الثالث (ف ١١٥) وقد نصبها هنا الامبراطور الروماني ثيودوسيوس • والعمود اللولبي الصغير الذي هو قاعدة ركيزة من البرنز مثلثة القوائم نصبة اليونان في دلفي (ش ١٢٢) تذكاراً لانتصارهم على الفرس في بلاتيا (ف ٥٠٦) ولا تزال اسماء المدن الاحدى والثلاثين التي اشتركت في المعركة منقوشة على القاعدة ومقروءة فهذه الآثار الباقية من عهد السيادة الشرقية واليونانية القديمة لا تزال قائمة في المكان الذي كان قبلاً ميداناً لسباق الخيل حين اصبحت بزنطية المدينة اليونانية القديمة العاصمة الشرقية لرومية (ف ٩٨٧). ويدلّ الجامع المعظم وراء المسلة مع مآذنه الجميلة على انتصار الاسلام في زمن الاتراك الذين استولوا على المدينة سنة ١٤٥٣ م

المتقدمون في السنّ الذين كانوا يهتمون بامر الجماعات الصغيرة في القرى شيوخاً وتسلّط على

مجموع الكنائس في كل مدينة احد متقدمي للكهنة ولقب بالاسقف . وفي المدن الكبرى ازدادت قوه الاسقف وعظم سلطانهُ في المدن المجاورة فاعطي لقب رئيس اساقفة . وهذا النظام الكنائسي أُخـذ معظمهُ من نظام الحكومة الرومانية التي استعارت الكنيسة منها اسماء بعض الوظائف فيها (ف ٩٨١) وكان هـذا التقدم في نموّ ساطة الكنيسة وقوّتهـا تدريجيًا وزاد بزيادة عدد الجماعات المسيحية فاصبحت الديانـة المسيحية مؤسّسة قوية تناظر الحكومة الرومانية بعد ان كانت ديانة المستضعَفين والمحتقرين

(٩٩١) الديانة المسيحية على مستوى واحد مع الديانات الاخرى

وابتدأَت الحكومة الرومانية ترى ان لا فائـدة من اضطهاد المسيحيين . فصدر امر عالٍ من غاليريوس ، رفيق ديوقليتيانس ، سنة ٣١١ م صُرّح فيهِ بوجوب اعتبار الديانـة المسيحية ديانة قانونية . وكان صدور هذا الامر العالي في الوقت الذي كانت فيهِ المملكة مهدَّدة من الخارج ، وبعد ان وُجد ان لا فائدة من مناهضة المسيحيين في الداخـل . واصبح المسيحيون امام القانون كبقية اتباع الآلهة القديمة . وايَّد هذا الامر العالي الملك قسطنطين

(٩٩٢) يوليانس الجاحد (٣٦١ — ٣٦٣ م)

ولكن مع ذلك لم تنل الديانة المسيحية انتصارًا نهائيا كاملًا . فانهُ بعد حروب سنين كثيرة بين ابناء قسطنطين وابني عمها في سبيل التاج لم يبقَ حيا منهم سوى احدهما يوليانس ، اقدر امبراطور قام منذ قرن السلم الثاني . كان ولوعاً جدًّا بآداب اليونان القديمة وفلسفتهم الوثنية فجحد الديانة المسيحية وبذل جهدهُ في مقاومتها وارجاع الديانة الوثنية والمدنية الهلينية الى سابق عهدها . وكان قائدًا محنكاً كسر البرابرة الجرمان في الغرب ولكنـهُ فيما كان زاحفاً بجيشهِ لمحاربة دولة الفرس الجديدة مات في الطريق ولقبتـهُ الكنيسة « بالجاحد » . وهو آخر امبراطرة الرومانيين الذين قاوموا الديانة المسيحية

مسائل

٩٥

ماذا كانت حالة الامبراطورية الرومانية الحقيقية على رغم فلاحها الظاهر ؟ مـاذا تعرف عن تأخر الزراعة ؟ صف نظام الكولونيين . ماذا تعرف عن مساحة الاراضي المحروثة والمؤونة اللازمة ؟ ماذا كان جارياً على جماعة الفلاحين ؟ صف عيشة المدينة

وتأخر الاشغال · فصل مسألة المعادن الكريمة والنقود · اي تأثير كان لهذه المشكلة في الجيش ؟ ماذا كان تأثير عوز قانون للخلافة في الجيش ؟

٩٦

قل ماذا حدث بعد موت مرقس اوريليوس · صف الاحوال التي عقبت ايام سبتيميوس سفيرس · ماذا فعل برابرة الشمال ؟ ماذا حدث في غاليا ؟ اشرح قيام المملكة الفارسية الجديدة · قل ما تعلمهُ عن تدمر وزنوبيا · كيف أخضعت غاليا وتدمر ؟ كيف حمى اوريليانس رومية ؟ من اتمَّ قرن الثورة ومتى ؟ كيف يمكننا ان نلخص الحكم الامبراطوري الروماني مدة الاربعة القرون التي انتهت بقيام ديوقليتيانس (٢٨٤ ق٠م) ؟

٩٧

كيف عامل ديوقليتيانس المشيخة الرومانية ؟ اية عوامل كان لها الفوز ؟ ماذا جرى للديمقراطية ؟ ماذا تقدر ان تقول عن محل اقامة الامبراطور ؟ قل ما تعرفهُ عن تنظيماتهِ الادارية · ماذا تقول في الضرائب في حكم ديوقليتيانس ؟ كيف كان تأثير ذلك على الاغنياء ؟ اية طبقتين من الشعب خسرت الامبراطورية الآن ؟ ماذا تستطيع ان تقول عن الحرية والرعوية الحرَّة ؟ ماذا كانت العاقبة ؟

٩٨

الى اين انتقل مركز السلطة ؟ من فاز في المنازعات التي تلت موت ديوقليتيانس ؟ اين شيِّد رومية الشرقية الجديدة ؟ كيف كان تأثير ذلك على رومية القديمة ؟ وعلى الامبراطورية ؟ مـاذا تعرف عن الفرص التي سنحت بواسطة الكنيسة امـام الرجال الممتازين ؟ قل ما تعلمهُ عن نظام الكنيسة . كيف نالت الديانة المسيحية الاعتراف بانها ديانة قانونية ومتى ؟ قل ما تعرفهُ عن يوليانس الجاحد

الفصل الثامن والعشرون

انتصار البرابرة ونهاية العالم القديم

٩٩

غزوات البرابرة وسقوط الامبراطورية

(٩٩٣) الخطر البربري

كثيرًا ما لقينا برابرة الجنس الهندي الاوربي الذين كانوا يقيمون بشمال أوربا، وراء المنطقة المتمدنة . ومنذ عهد رجال العصر الحجري لم ترتق تلك الاقاليم الشمالية . وكثيرًا ما كانت شعوبها البربرية خطرًا على الامم المتمدنة المقيمة بسواحل بحر الروم . وقد مرّ معنا قبلًا كيف اغرق سيل الغاليين العرم شمال ايطاليا حتى انهم استولوا على رومية نفسها وكيف طما بعد ذلك هذا السيل على شبه جزيرة البلقان وآسيا الصغرى (ف ٦٦٦ و ٧٤٩ و٧٥١) . ولا نزال نتذكر الرعب الذي استولى على رومية لما انقضّ عليها الجرمان اوّل مرّة وقهرتهم قوة رومانية تحت إمرة القائد المحنك ماريوس الذي فاز عليهم فوزًا مبينًا (ف ٨٤٥)

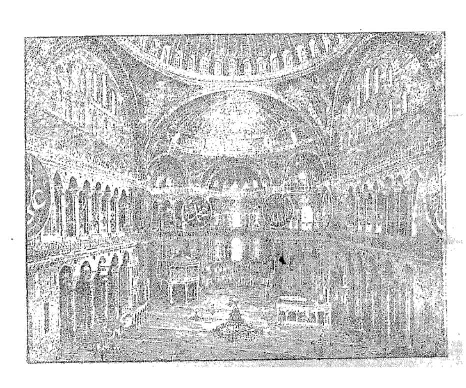
(٩٩٤) تفوق الجيوش الرومانية على جيوش البرابرة ابدًا وانحطاطها عدا لاحقًا

اتى على الرومان حين من الدهر كانت فيه جيوشهم مدرَّبة احسن تدريب ومنظمة ابدع تنظيم والدولة قادرة على ان تقوم بنفقات تلك الجيوش امدًا طويلًا مهما وفر عددها . فكان الرومان يفوقون البرابرة كثيرًا بكثرة جيوشهم وحسن تنظيمها، الامر الذي كان سرّ فوز الاسكندر عليهم (ش ٨٦٠) . ولكن في غضون قرن الثورة، بعد ملك مرقس اوريليوس، تلاشى نظام الجندية الروماني فكثرت غزوات البرابرة للامبراطورية ولم يكن شيء يصدهم . وكانوا قبلًا بعد كل غزوة يرجعون عادةً الى بلادهم الا انهم غيّروا خطّتهم

هذه فعدلوا عن الرجوع وآثروا الاقامة ضمن حدود الامبراطورية وطفقوا يهاجرون مدة قرنين من الزمان استولوا في غضونها على عالم البحر المتوسط الغربي برمّته

(٩٩٥) الشعوب الجرمانية في وطنها

وكان الجرمان شُقر الشعور زرق العيون طوال القامات اقوياء الاجسام جدًّا. وكان كل شعب منهم، وهم في وطنهم الاصلي في غابات الشمال، يقيم ضمن منطقة محدودة ضيقة النطاق لا يتجاوز قطرها — في الراجح — اربعين ميلاً. ولم يكن عدد النفوس في كل شعب من شعوبهم ليزيد عن خمسة وعشرين الف نفس او ثلاثين الفاً. وكانوا يقيمون في قرى تضمّ كل واحدة مئة عائلة يرأسها شيخ من رجالها. وكانت المنازل التي يقيمون بها عبارة عن اكواخ حقيرة يسهل نقلها من مكان الى مكان وكان السكان بوجه الاجمال لا يرغبون في فلاحة الاراضي الضيقة التي في سواد قراهم، بل كانوا يؤثرون عليها رعاية المواشي والقيام على تربيتها وشعار حياتهم كثرة التنقل والارتحال بمواشيهم انتجاعاً للكلإ. وكانوا يجهلون الكتابة تماماً ويتعاطون التجارة وبعض الصناعات قليلاً. وكانوا يختارون زعماءهم واحياناً



الشكل ٢٢١

يرينا هذا الرسم داخل كنيسة اجيا صوفيا الشهيرة التي بناها في القسطنطينية يوستنيانس من ٥٣٢ – ٥٣٧ م. واوّل كنيسة بنيت في هذا المكان كانت من النوع الدارج المعروف بالباسيليكا (ش ٢٢٣) الّا ان بنائي يوستنيانس آثروا القبة الشرقية. فجعلوا سقف الكنيسة العظيمة قبة هائلة علوها عند المركز ٥٥١/٢ متر. وهي افخم قبة باقية من العالم القديم. قيل ان يوستنيانس انفق ثمانية عشر طناً من الذهب واستخدم عشرة آلاف عامل في تشييد هذه الكنيسة التي تحوّلت الى جامع للمسلمين منذ استولى الاتراك على القسطنطينية (١٤٥٣ م). وغطى الاتراك الفسيفساء الجميلة التي كان يزدان بها الداخل الفاخر بدهان ابيض بالكلس، وعلقوا مكانها على الجدران تروساً منقوشة عليها الطغراء السلطانية (الطرّة)

ملوكهم من الأسر النبيلة بينهم فيتولّون ادارة شؤون الامة باسرها

(٩٩٦) الشعوب الجرمانية في المهاجر؟ والحرب

ان معيشة هولاء الجرمان في بلادهم الاصلية التي يشتدّ فيها الزمهرير جعلتهم اقوياء البنية ذوي بأس وجلَد على تحمُّل المشاق · والشعب الذي تجتمع فيهِ قوة البنية والجلد والبأس يميل غالباً الى الحرب والغزو والنهب · والذي يميل الى الغزو والنهب يجنح الى التنقل من مكان الى آخر · فكان هولاء يتبعون ميلهم الفطري الى الغزو والنهب والتنقل من مكان الى مكان يتبعهم نساؤهم واولادهم واقرباؤهم في مركبات ضخمة · وكانوا منقسمين شعوباً يقيم كل شعب منهم في خمسين قرية متحدة معاً · وكان يجيء كل قرية من تلك القرى مئة من رجالها الاشداء · وكان يتألف من اتحاد هذه القرى جيش كبير كل مئة مقاتل منهُ تكوّن وَحدة يحارب رجالها جنباً لجنب اذا تلظَّت نار الوغى · وكان كل رئيس مئة يقيم مع المئة التي تحت إمرتهِ · فكان الجندي وهو في ساحة النزال يرى حولهُ اقرباءهُ الادنين واصحابهُ · وكان رجال هذه الصفوف المحاربة من اشد الجنود بطشاً مع ما كانوا عليهِ من النقص في التدريب العسكري · ولم يوجد في العالم القديم من كان يفوقهم بأساً · والسر في ذلك كلهِ هو انهم كانوا مرتبطين بعضهم ببعض بربط القرابة الدموية فضلاً عما كان بينهم من الاختلاط الاجتماعي والمعاشرات اليومية · وكانوا اذا خرجوا الى الهيجاء يسيرون متهللين ومتى هجموا كان هجومهم عنيفاً جداً حتى لا يستطيع احد ان يثبت امامهم

(٩٩٧) الاذن لجميع الشعوب الجرمانية بان يقيموا في المملكة ويخدموا في الجندية

ان الكتائب الرومانية المنظمة احسن تنظيم والمدرَّبة في الفنون العسكرية احسن تدريب — الكتائب التي جعلت رومية في المنزلة الاولى في العالم قد بادت فلم يبقَ لها عين ولا اثر · والكتائب المؤلفة من رجال تربَّوا في مهد السلام لا تصلح للنضال · فلو تصدّت لمناهضة رجال الحرب من الجرمان لكانت تتبدّد امامهم تبدُّد العصافة امام الرياح · ولما رأى الامبراطرة انهم عاجزون عن صدّ الجرمان وارجاعهم الى مواطنهم سمحوا لهم بالبقاء داخل حدود المملكة · وكان اوغسطس قد سمح لهم بذلك من قبل · وعدم وجود رجال في المملكة يصلحون للخدمة الجندية حدا بالامبراطرة على استنجاد جنود من الجرمان · فكان معظم فرسان يوليوس قيصر من البرابرة · والامر الآخر الذي اتاه الامبراطرة وكان اشدَّ خطراً مما تقدم هو ادخال شعوب جرمانية برمتها الى البلاد لتقيم بها وتبقى متمسكة بعاداتها ، واستخدام رجالها في الجيش الروماني تحت قيادة ضباط جرمانيين ليحاربوا على نمطهم القديم اي وحدات قروية كل وحدة بنفسها تحت امرة رئيسها · واذا كان للجيش الروماني في هذا الزمان شيء من النفوذ فانهُ يُعزى الى هذه الوحدات الجرمانية

وبدخول الجرمان الى المملكة دخلت معهم عاداتهم واخلاقهم وطرق معيشتهم البربرية ايضاً . وكان الجيش الروماني الآن بوجه الاجمال من البرابرة ولكن القواد كان يُعترف بهم انهم رومانيون وان كانوا برابرة

(٩٩٨) الشعوب الجرمانية الرئيسية . غلبة يوليانس على الفرنكيين والالمانيين في ستراسبورغ

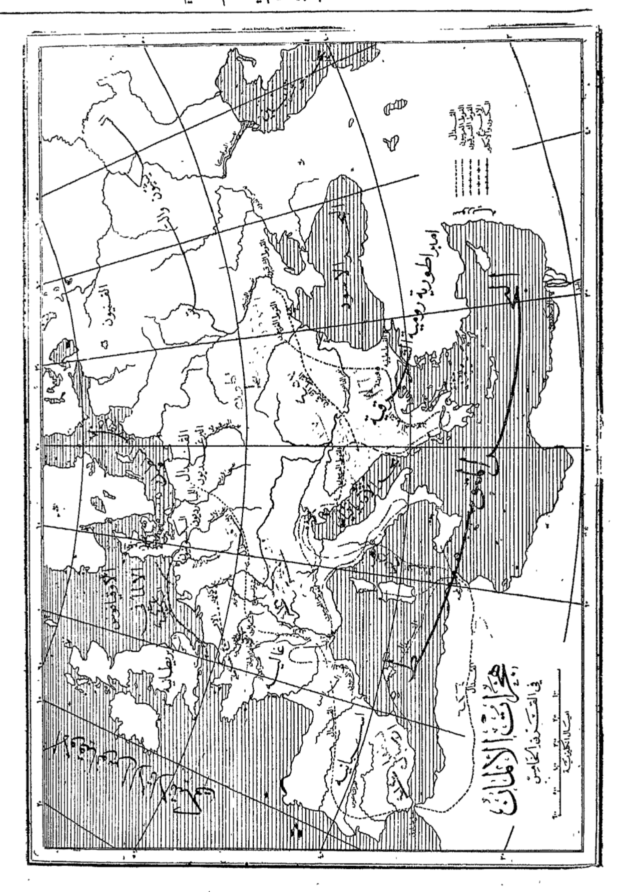
وكان على ضفاف الرين السفلى طائفة من الشعوب الجرمانية الشديدة البأس تُعرف بالفرنكيين وكان في الشمال القندال ولهم سمعة سيئة بسبب غزواتهم المخرّبة . وكان الى الجنوب منهم الالمان الذين كثيراً ما كانوا يخترقون الحدود . وكان القوط على الدانيوب الاسفل خطراً دائماً . اما الجرمان فكان يوليانس ابن اخي قسطنطين (ف ٩٩٢) قد وقفهم عند حد الرين بعد معركة شديدة نشبت بينهُ وبينهم في ستراسبورغ (٣٥٧ م) فاز فيها عليهم فوزاً مبيناً . واتخذ باريس مركزاً لادارة الجيش واخذ في مطالعة الكتب التي كان يرتاح اليها وهو لا يزال في إبان الحملة الحربية التي كان قائدها . واقامة هذا الامبراطور الفيلسوف في باريس ، قبل الف وخمس مئة وخمسين سنة ، ادخلت هذه المدينة الخطيرة ، مدينة اوربا في المستقبل ، لاول مرة في التاريخ

(٩٩٩) الشعوب الجرمانية يتمدنون بعض التمدن ويتعلمون الكتابة ويعتنقون الديانة المسيحية

وكان لامتزاج الشعوب الجرمانية الدائم بشعوب الامبراطورية المتمدنة ، تأثير كبير في تغيير اخلاق وعادات اولئك الجرمان تدريجاً فدمّث اخلاقهم وليّن عرائكهم وازال عنهم ما كانوا عليهِ من الخشونة والفظاظة فصاروا ينظرون الى الحضارة نظرة الاعظام والاحترام . وصار لزعمائهم الذين كانوا مستخدمين في الجيش الروماني صِلة باشراف الرومان وصداقة معهم وتزوّج بعضهم بنبيلات رومانيات متهذبات بعضهنَّ من اقارب الامبراطور لحاً . واعتنق بعضهم الديانة المسيحية . واحدهم المدعو أُلفيلاس ترجم العهد الجديد الى القوطية وهي لهجة نسيبة للجرمانية . وبما ان الشعوب الجرمانية كانت تجهل الكتابة اضطرَّ المترجم ان يخترع حروفاً هجائية اخذها عن اليونانية واللاتينية لكي يكتب بها اللهجة القوطية . فهم اوّل من احدث الانموذج الكتابي الاوّل باللسان الجرماني وساعد الشعوب الشمالية في اعتناقها للديانة المسيحية

(١٠٠٠) طرد الهونيين للقوط الغربيين عبر الدانيوب . معركة ادريانوبلي (٣٧٨ م) بدء قرن مهاجرة بربرية مستمرة

ووُجد في هذا الزمان برابرة لا يجري في عروقهم الدم الهندي الاوربي يدخلون اوربا قادمين اليها من اسية وهم الشعب المعروف بالهونيين . وكانوا اشدَّ تخريباً للبلدان من سائر البرابرة الغزاة . زحفوا على الدانيوب الاسفل حيث كان القوط الغربيون ففرَّ هولاء من وجههم واستعطفوا الرومانيين بان يسمحوا لهم بعبور الدانيوب والاستيطان في المملكة ، فأذن لهم الامبراطور (فالنس) خليفة يوليانس على الشرق وحصل احتكاك فيما بينهم وبين


امبراطورية رومية

بعض موظفين رومانيين ادّاهم الى رفع لواء الثورة · ونشبت معركة في ادريانوبلي (٣٧٨ م) انكسر فيها الرومان او بالحري الجرمان الذين كانوا يحاربون عنهم، وقُتِل الامبراطور ڤالنس مع ان جند القوط لم يكن يربي على خمسة عشر الفاً · فاصبح عجز الامبراطورية الرومانية منذ الآن بادياً للعالم اجمع · فكان انتقال القوط الغربيين ومعركة ادريانوبلي بداءة قرن مهاجرة مستمرة ابتلع البرابرة في اثنائهِ الجانب الغربي من الامبراطورية على عيثتهم وجزّأوهُ الى ممالك جرمانية تحت حكم زعماء عسكريين

(١٠٠١) ثيودوسيوس (٣٧٩ – ٣٩٥ م) يضم جميع الامبراطورية

وكان ثيودوسيوس الذي خلف ڤالنس على عرش القسطنطينية آخر الاباطرة العظام الذي ضمّ شمل الامبراطورية الرومانية وتسلّط عليها كلها وعقد اتفاقاً مع القوط الغربيين وسمح لهم بالاقامة حيث كانوا واستخدمهم في جيشهِ وبوّأ زعماءَهم مناصب عالية في الحكومة · الاّ انهُ لم يستطع الاحتفاظ بمملكتهِ الاّ باستخدامهِ مقتدري الجرمان وزراء وقوّادًا في الحكومة والجيش حتى انهُ زوّج كبير قواده العسكريين، استيليخوس الڤاندالي، بابنة اخيهِ · وحين دنت ساعة احتضاره سنة ٣٩٥ م عهد اليهِ في العناية بابنيهِ القاصرين هنوريوس واركاديوس

(١٠٠٢) قسمة المملكة عند موت ثيودوسيوس (٣٩٥ م)

وقسم ثيودوسيوس المملكة بين ابنيه الصغيرَين فاعطى اركاديوس الشرق وهنوريوس الغرب وبعد هذه القسمة لم تعد المملكة الى الاتحاد كما كانت قبلًا بل قضي عليها بالانقسام قضاء مؤبدًا · وبعد قيام هذين الامبراطورَين الصغيرَين استمرّت المملكة الغربية تتجزأ بسرعة فلم ينقضِ جيلان حتى كانت قد توارت هي وامبراطورها عن العيان

(١٠٠٣) مهاجمة القوط الغربيين لبلاد اليونان وايطاليا (٤٠٠ م) واستيلاؤهم على رومية (٤١٠ م) وتأسيسهم مملكة في غاليا

وبقي البرابرة يتنقلون من ضفاف الدانيوب الى الجنوب والغرب تحت قيادة مليكهم أَلرك · فارتحلوا اولاً الى شبه جزيرة البلقان ثم تقدموا الى بلاد اليونان واستولوا على اثينا · فتصدّى لهم هنا أستيليخوس الجرماني ومعهُ جنود جرمانية فقهرهم واكرههم على التقهقر · فارتدوا يسوقون مركباتهم الثقيلة مكدّسة بغنائم السلب والنهب التي غنموها من بلاد اليونان · وقاد أَلرك القوط الغربيين الى الّليركون حيث حظي لدى اركاديوس بجعلهِ قائدًا رسميًا · ولما قضى هنوريوس باعدام استيليخو الامين لتهمة خيانة اوقعها عليهِ ونُفِّذ فيهِ حكم الاعدام، لم يبقَ من يستطيع ان يصدّ أَلرك عن مهاجمة ايطاليا · وفي سنة ٤١٠ قُضي على امبراطور الغرب ان يرى بأم عينهِ جند القوط يستولون على رومية نفسها [١]

(١) ليس بعد سنة ٤٠٠ ق.م بوقت طويل استولى الغاليون على رومية (ف ٧٥١) وبعد ذلك بسنين قلائل ستولى عليها القوط

ويعملون فيها ايدي السلب والنهب وهو مكتوف اليدين لا يبدي حركة . وبعد موت ألرك لما ارتد القوط الغربيون من ايطاليا الى جنوب غاليا والى اسبانيا ، اضطرَّ هنوريوس ان يعترف بمملكة القوط الغربيين التي شيدوها هناك

(١٠٠٤) تأسيس ممالك الفندال في اسبانيا وافريقيا . البرغنديون في غاليا

وفيما كانت هذه التنقلات التي قام بها القوط الغربيون جارية في مجراها بعد سنة ٤٠٠م، كان الفندال وشعبان جرمانيان آخران قد عبروا الرين ومرُّوا بغاليا الى اسبانيا حيث التقى هولاء الشعوب الثلاثة وانشأُوا ثلاث ممالك جرمانية ، اعترف شعوبها بانهم اتباع لهنوريوس امبراطور الغرب . وبعد ان استتبَّ للفندال المقام في اسبانيا الجروا عبر بوغاز جبل طارق واستولوا على الولاية الرومانية الافريقية (٤٢٩م) وجعلوها مملكة افريقية اعترف بها ايضاً امبراطور الغرب . وبعد ذلك بامدٍ يسير جاء ايضاً البرغنديون الجرمان ، ونزلوا بجوار القوط الغربيين وشيدوا مملكة في الجنوب الشرقي من غاليا

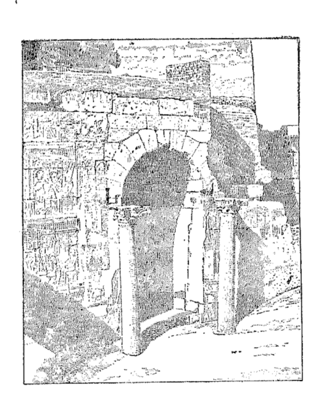
(١٠٠٥) خسارة الامبراطورية الغربية لبريطانيا وانحصارها ضمن حدود ايطاليا

وفي اثناء ذلك كانت الشعوب الجرمانية المقيمة بسواحل البحر الشمالي قد عبرت المياه ونزلت بجزيرة بريطانيا . وبينما كان ألرك ينهب رومية كان آخر الجنود الرومانية يغادر تلك الجزيرة . وفي غضون جيل واحد ، بعد ذلك ، كان الانجليز والسكسون من القبائل الجرمانية ، يؤسسون هنا ممالك لم تعترف بسيادة رومية . ولم يستطع الامبراطور الخصيم الذي في غاليا ان يبدي اقلَّ معارضة . ولا كان في طاقة امبراطور الغرب الضعيف في ايطاليا ان يسترجعها . وكان ايضاً واهن القوة تجاه بقية الممالك الجرمانية في الغرب . ولم ينقضِ جيل واحد بعد سنة ٤٠٠ م حتى كانت المملكة الغربية قد تضاءلت جداً وتقلَّصت حتى انحصرت ضمن تخوم ايطاليا فقط . وحتى هنا كان امبراطور الغرب العوبة في ايدي عماله وقواده الجرمان

(١٠٠٦) هجوم الهونيين على ايطاليا والغرب (٤٥٠ الى ٤٥٣ م) استيلاء الفندال على رومية

وفي هذه الحالة من الوهن ، كانت ايطاليا عرضة لهجومين مهمَّين . فان المملكة الشرقية لم تستطع ان تكبح الهونيين الذين اكرهوا القوط الغربيين قبلاً على عبور الدانيوب (ف ١٠٠٠) فظلت مملكتهم تتقوى ويعظم شأنها مدة جيلين من الزمان حتى صارت في حيازة ملكها اتلّا ، مملكة مترامية الاطراف تمتدُّ من روسيا الجنوبية الى الرين . فجعل الامبراطورية الغربية تحت الجزية . وفي سنة ٤٥٠ م كان هو وجنده من البرابرة الاشداء الذين يُرهب جانبهم هاجمين على ايطاليا هجوماً عنيفاً لم يُمنَ الجنوب بمثلهِ فسارع القوط الغربيون وجرمان الغرب الى معونة امبراطور الغرب على العدوّ المشترك ونشبت معركة في شالون بفرنسا دارت فيها الدائرة على اتلّا فانهزم سنة ٤٥١ م وارتدَّ شرقاً ومات بعد سنتين في اثناء هجوم

قام بهِ على ايطاليا فتمزّقت مملكة الهونيين كل ممزّق ، واستراحت منها اوربا الى الابد . ولم تكد رومية تتخلّص من ورطتها حتى قدم عليها الفندال بحرًا من قرطاجنة الى صقلية ثم ايطاليا . وفي سنة ٤٥٥ م استولوا على رومية . ومع انهم اخذوا منها كثيرًا من الاسلاب والغنائم مما خف حملهُ وغلا ثمنهُ لم يمسّوا مباني المدينة الفاخرة بسوء او ضرر بل ابقوا عليها جميعها كما فعل ألَرِك وجماعتهُ القوط الغربيون قبل هذا الوقت بخمس واربعين سنة



الشكل ٢٢٣ : هو هيكل مصري تحوّل الى كنيسة مسيحية

منذ الف وخمس مئة سنة ، في ملك ثيودوسيوس (٣٧٩ — ٣٩٥م) ليس قبل سنة ٤٠٠ م بكثير ، أُقفلت هيا كل الآلهة القديمة التي حول البحر المتوسط بامر عال من الامبراطور ثم هجرت تدريجيًا كما نراها اليوم او ازدحمت ضمنها اكواخ و"عشش" الفلاحين المبنية بالاجر الجاف في حرّ الشمس . وفي بعض الاحوال كان الهيكل المخصص بعبادة الآلهة يحوّل الى كنيسة مسيحية . ففي هذا هيكل لقصر في طيبة بمصر ترى المحراب المقوّس قد حفر في الجدار ليكون منبرًا للواعظ . وقد نُصبت اعمدة يونانية لكي تُنشر عليها مظلّة كبيرة فوق الراس وغُطيت النقوش الوثنية البارزة على الجدران "بورقة" من الجص رسمت عليها صوَر القديسين . وقد سقط قسم كبير من هذه "الورقة" التي تشاهد الى يسار العمود الايسر وظهرت الصوَر الوثنية القديمة التي تراها ابعد الى اليسار حيث برزت صوَر الآلهة المصرية القديمة لترى ان الذين كانوا يسجدون لها قد بادوا

(١٠٠٧) آخر الامبراطرة في رومية ، روموِلس اوغسطولس ، عزل وخلفهُ القائد الجرماني أودواسر

وفي ايطاليا ، وهي كل ما بقي من المملكة الغربية ، كانت السلطة كلها محصورة في القواد العسكريين الجرمان فكانوا ينصّبون الامبراطرة ويعزلونهم كما شاءت اهواؤهم . اما الآن فقد جاء الزمان الذي فيهِ يتوارون الى الابد . ومن غرائب الاتفاق ان آخرهم دُعي روموِلس اوغسطولس اي روموِلس « اوغسطس الصغير » فيكون قد تسمى باسم المؤسس الخرافي لرومية نفسها واسم مؤسس الامبراطورية . وقد خلعهُ العسكر الجرماني ونصبوا مكانهُ احدهم المدعو اودواسر . فيكون قد زال سنة ٤٧٦م اي بعد ثيودوسيوس بجيلين . آخر امبراطرة الغرب . وتكون المدة التي تولّوا فيها الحكم الامبراطوري من ابتداء ملك اوغسطس مؤسس الامبراطورية ، خمس مئة سنة او اكثر قليلًا وارسل القواد

الجرمان علماً الى امبراطور الجانب الشرقي مؤداهُ انهم يعترفون بسيادتهِ . فصدر امرهُ الى اودواسر ان يتولى زمام الحكم ويلقّب «بنبيل»

(١٠٠٨) تأسيس ثيودورك مملكة قوطية شرقية في ايطاليا (٤٩٧ م)

وفي اثناء هذه الامور طما تيّار مهاجرة البرابرة مرّة أُخرى فأحدث تغييرًا جديدًا في حالة الغرب . فان فرعاً شرقيا من القوط الذين دُعوا بالقوط الشرقيين بقي مدة جيلين على ضفاف الدانيوب بعد مهاجرة انسبائهِ (ف ١٠٠٠) ثم بدا لهُ ان يهاجر جنوباً الى ايطاليا . وفي سنة ٤٩٣ م قام ثيودورك ملك هـذا الفرع الذي هاجر حديثاً لخلع اودواسر وملّك مكانـهُ على مملكة قوطيَّة شرقيـة ذات حـول وطول . وكان ثيودورك — مع انهُ امي — ملكاً حكيماً متمدناً نهضت في مدة ملكهِ ايطاليا من كبوتها واستعادت قوتهـا بعد الكوارث التي حلّت عليها . وامتدّت سلطتهُ على ايطاليـا وصقلية وجزء من غاليـا واسبانيا وخُيّل للملإ مرّة ان الامبراطورية الغربية كانت على وشك ان ترجع تحت حكم امبراطور جرماني ولكن حدث ما منع هذا الرجوع الا وهو قيام يوستنيانس آخر امبراطور عظيم في المملكة الشرقية على عرش القسطنطينية

(١٠٠٩) فتح يوستنيانس للغرب ثاني مرة فتحاً جزئياً

وبعد موت ثيردوسيوس (٣٩٥ م) تعاقب على عرش المملكة الشرقية حكام عرفوا بوهن القوى وضعف العزيمة حتى قام يوستنيانس وتُوّج امبراطوراً في القسطنطينية سنة ٥٢٧ م بعد قيام ثيودورك بجيل واحد . وكان يوستنيانس حاكماً من ذوي المواهب السامية والهمم العالية فكان جلُّ ما يحلم بهِ اعادة الامبراطورية الى ما كانت عليهِ قبلاً من الاتحاد. فحاول ان يفتح الغرب وناط امر فتحهِ بقائـده الهمام بليساريوس الذي تمكن من قلب عـرش مملكة القندال بافريقيا ثم سحق مملكة القوط الشرقية بايطاليا . فعادت سلطة الامبراطور الى ايطاليا وصقلية وافريقيـا واسبانيا الجنوبية بالرغم من الثورة الشديدة التي حدثت في ايطاليا . ولكن يوستنيانس لم يُصب في حكمهِ حين حكم انهُ يستطيع ان يتولى زمام عالم البحر المتوسط كلهِ في الشرق والغرب . وبسحقهِ مملكة القوط الشرقية غادر ايطاليا ضعيفة لا تقوى على صدّ سيل مهاجرة البرابرة الذي كان مزمعـاً ان يطمو ولا قوي خلفاؤهُ على الاحتفاظ بفتوحاتهِ

(١٠١٠) مجموعة يوستنيانس

ولكن اذا كان الامبراطور قد اخفق سعياً في تحقيق الوحدة السياسية فانهُ فاز بتحقيق خططهِ الكبيرة التي وضعها لتأسيس وَحدة شرعية . وقـد انتدب رجلاً من رجال القانون المقتدرين يُدعى تريبونيانس ووكل اليهِ ان يجمع جميع السُنن والقوانـين التي سنّت في عهد تسلط رومية منذ عصر الالواح الاثني عشر التي خُطّت عليها الشرائع (ف ٧٤١) قبل الف

سنة · فكان يوستنيانس حمورابي الامبراطورية الرومانية · وكانت القوانين التي سعى في جمعها وتنسيقها ثمرات اختبار اشهر رجال الادارة والحكم الذين نبغوا في العالم. وقد حوت من المواد تقريباً كل ما هو ضروري للحكم في كل شأن من شؤون الحياة الاجتماعية والاعمال التجارية واصول المحاكمات الشرعية فكل هذه الاشياء قد تلافى امرها والحكم فيها القضاة الرومانيون · وقد دُعيت مجموعة الاحكام التي عُني يوستنيانس بجمعها وترتيبها «بخلاصة القوانين» وصارت فيما بعد الاساس الذي بنيت عليه الشرائع ، ولا يزال معظمها اساس شرائع الشعوب المتمدنة اليوم

(١٠١١) حماية الهياكل القديمة

وفي مدة حكم يوستنيانس نالت القسطنطينية شهرة بعيدة واعترف لها القاصي والداني بالامتياز · وانفق الامبراطور المال جزافاً على تجميلها بتشييد الهياكل القديمة للآلهة وبناء «الباسليقات» والمراسح المدرَّجة لان ثيودوسيوس آخر امبراطور على المملكة بتمامها كان قد حظر عبادة الآلهة القديمة واصدر امرًا عالياً باقفال هياكلها · وكانت المساعدة الاخيرة التي نالتها المدنية اليونانية القديمة من يوليانس ، قبل ذلك بمئتي سنة (ف ٩٩٢) · ومنذ سنة ٤٠٠ م ترك الناس هياكل الآلهة الفاخرة وبالغوا في هجرها · وقد كانت تزدان بها سواحل البحر المتوسط وتمتدُّ الى النيل (ش ٤٦) واخيرًا أُهملت بالمرَّة وصارت مآوي للبوم · وتحوَّل بعضها الى كنائس مسيحية (ش ٢٢٢) · وقوَّض يوستنيانس اركان الديانة الوثنية اليونانية باقفاله مدارس الفلسفة التي تألفت منها جامعة اثينا لان الكنيسة المسيحية اعتبرت الفلسفة اليونانية معقل الوثنية الحصين · وقد كانت المباني التي اختصها الامبراطور بثروته الطائلة ، الكنائس · ولا تزال كنيسة اجيًا صوفيًا العظيمة التي شيدها في القسطنطينية موجودة حتى اليوم وهي ابهى وافخر الكنائس الاولى في الشرق

(١٠١٢) انشقاق الكنيسة الى شرقية وغربية

وكما تُظهر هذه البناية العظيمة اصلها الشرقي بهندستها كذلك اظهرت الكنيسة في الامبراطورية الشرقية اصلها الشرقي بتعاليمها · وسعى يوستنيانس لتوحيد الشرق والغرب فاخفق سعيهُ · ويعزى هذا الاخفاق الى حسد الكنائس الشرقية وقوة الكنيسة الغربية · وكان الخَرْق بين الكنيستين الشرقية (اليونانية) والغربية (اللاتينية) يزيد اتساعاً على مرور الايام لانهُ بينما كانت تجزئة المملكة الغربية لا تزال جارية مجراها كما رأينا قبلًا اخذ يظهر في رومية امبراطور للكنيسة ورث معظم القوة التي كان قد فقدها امبراطور الغرب · وكما كان مملكة شرقية ومملكة غربية كذلك كان مزمعاً ان يكون كنيسة شرقية وكنيسة غربية · والى هذه الكنيسة الغربية يجب ان نلتفت الآن

١٠٠

غلبة الكنيسة الرومانية وتسلطها على الامم الغربية

(١٠١٣) مركز رومية الفريد وأسقفها

ان مدينة رومية المكرَّمة التي بقيت قروناً مديدة سيدة العالم، نالت قسطاً كبيراً من الاكرام والاحترام حتى بين البرابرة. فالقوط والفندال وقفوا في ظل مبانيها العمومية الفاخرة موقف الخشية والاحترام وغادروها دون ان يضرُّوها بشيء. وظلَّت رومية بجمال واناقة تلك المباني، اعظم مدن الدنيا لا ينافسها في ذلك سوى القسطنطينية والأسكندرية، المدينتين الملكيتين الاخريين فلا بدع اذا حاز اسقف رومية مقاماً لا يُسامى عزًّا واحتراماً لانهُ حين هدَّد القوط المدينة — وفي احوال أُخرى عصيبة نتجت عن دخول البرابرة البلاد — برهن عن مقدرة جعلتهُ زعيم ايطاليا السياسي الفرد ان لم نقل زعيم الغرب باسره. ولا مراء في ان تأثيره الشخصي كان العامل الاكبر الذي بعث القوط والفندال على احترامهم للمدينة الذي ظهر في ابقائهم على مبانيها

(١٠١٤) قيام رجال من اصحاب النفوذ في الكنيسة الافريقية منذ اول عهدها، اوغسطين

وفي الوقت نفسهِ قام في الكنيسة في سائر اقطار الغرب رجال من ذوي المقدرة العظيمة. ويصدق هذا القول بنوع خاص على الولاية الرومانية المسماة افريقيا، وراء قرطاجنة، حيث نبغ الكتبة المسيحيون الاولون الذين يعدُّون من الطبقة الاولى بين ارباب الاقلام. واصبح اسقف قرطاجنة بعد قليل، مناظرًا لاسقف رومية. وتذكرنا مناظرة هذين الاسقفين الكبيرين في العصر المسيحي بالنزاع القديم الطويل الذي وقع بين تينك المدينتين. فهنا، في افريقيا، نبغ في ايام ثيودوسيوس اوغسطينوس، اعظم مفكري الكنيسة الاولى. وفي تلك الايام بعد ما نهب ألَرك رومية وظهر للملا ان الحكومة الزمنية متداعية الاركان، كتب اوغسطينوس رسالة نفيسة سمَّاها «مدينة الله» قاصدًا بهذه التسمية حكومة الله. ومما قالهُ في رسالتهِ المشار اليها عن ملكوت الله انهُ ملكوت غير منظور مضادٌّ لممالك هذا العالم، واسمى منها كلها. وجميع المؤمنين المسيحيين رعيَّة فيهِ. الاَّ ان اوغسطينوس قلما ميَّز بين هذا الملكوت غير المنظور وبين الكنيسة المنظورة ذات الاساقفة والكهنة. فحضَّ جميع المؤمنين على ان يخضعوا قلباً وقالباً لسلطة هذا الملكوت الخالد اي الكنيسة.

فكانت للكنيسة بمقتضى تعليم اوغسطينوس ، السلطة المطلقة على معتقدات الناس · وقد حدث ذلك في نفس الوقت الذي اصدر فيهِ ثيودوسيوس امرهُ باقفال هياكل الآلهة القديمة · فنرى ان الحكومة ايضاً كانت تستعمل قوّتها لالغاء سائر المعتقدات الاخرى · وبذلك ايّدت سلطانها على اجساد وعقول رعاياها · وَوَفقاً لهذه الفكرة أقفل يوستنيانس جامعة اثينا لوقف حرية الفكر وتعليم الفلسفة القديمة (ف ١٠١١) فاضاف اوغسطينوس الى تسلط الحكومة على معتقدات الناس ، سلطة الكنيسة · وهكذا قضي على الحرية العقلية في العالم القديم بالاعدام

(١٠١٥) تزايد سلطان كنيسة رومية

وفوق ذلك كلهِ ، اعترف اوغسطينوس برئاسة كنيسة رومية · وبذلك اضاف نفوذهُ الى الميل الذي كان يشعر بهِ الناس منذ امدٍ طويل (ف ١٠١٣) لانهُ كان قد شاع الاعتقاد ان المسيح منح الكنيسة قوة عظيمة بشخص الرسول بطرس · ومع انهُ كان معروفاً ان بولس كان قد علّم وبشّر في رومية ، جاء في تقليد قديم ان بطرس اسّس الكنيسة فيها وصار اسقفاً عليها · وشاع اعتقاد ان بطرس قد اورث خلفاءهُ ، اساقفة رومية ، سلطانهُ فايد هذا التقليد ثبوت رئاسة اسقف رومية

(١٠١٦) قيام رهبان مبشرين وانتشار احترام الكنيسة الرومانية في الشمال

ولما تزايد عدد الذين انقطعوا عن الاعمال العالمية وتألفوا جماعات ضمن الاديرة لكي يعيشوا عيشة مقدسة ويحملوا الايمان المسيحي الى برابرة الشمال ، قبلوا هذه المعتقدات من جهة كنيسة رومية · وكان الرهبان يعلمون البرابرة ان للكنيسة سلطاناً على الحياة الآتية ولما كان اولئك البرابرة الشماليون المشبعة عقولهم من الخرافات يذوبون فَرَقاً من مجرَّد ذكر العقابات المخيفة بعد الموت ، اذعنوا حالاً لهذه التعاليم واعتقدوها · فصار للكنيسة سلطة عظيمة عليهم · واستقل بهذه السلطة اسقف رومية استقلالاً تاما

(١٠١٧) اهمية تأثير الكنيسة في البرابرة

ولما لم تعد السلطة السياسية قادرة على ضبط شؤون البرابرة ، قامت سلطة الكنيسة بما عجزت عنهُ الحكومة وكبحت جماحهم بتدميثها اخلاق المتسلطين عليهم وتغيير طبائعهم الشرسة · وحين وهنت قوى الحكومة الرومانية وانقضى زمن بطش كتائبها التي كانت تذود عن حياض مدنية البحر المتوسط ، استطاعت الكنيسة التي حلّت محلّها ، ان تنقل السلطة من الامبراطورية الى البرابرة في الغرب دون ان تقوّض اركان المدنية ، التي تركها اليونان والرومان إرثاً ثميناً للعالم

وبعد موت يوستنيانس باقل من جيل نبغ في رومية اسقف يُعرف بغريغوريوس الكبير برهن على انهُ السياسي الحكيم والاداري القدير فوطد اركان رئاسة الكنيسة الرومانية

(١٠١٨) غريغوريوس الكبير اسقف رومية (٥٩٠ — ٦٠٤ م)

توطيدًا تامًا . ولما كان يوستنيانس بتدميره مملكة القوط الشرقيـة (ف ١٠٠٩) قد غادر ايطاليا تحت رحمة مناوئيها من الخارج ، اقدم على مهاجمتها اللمبارديون (ذوو اللحى الطويلة) احط البرابرة الجرمان في سلم المدنية ، واحتـلوا وادي البو بلا مقاومـة . وكان هولاء اللمبارديون منقسمين الى جماعات صغيرة وضعيفة نوعاً فلذلك لم تخلف الامبراطورية الغربية الساقطة ، امة مقتدرة ثابتة في ايطاليا . فكان ذلك مندوحـة لاساقفة رومية ان يجعلوا انفسهم قادة ايطاليا . وارسل غريغوريوس رهباناً مبشرين الى بريطانيا . فشيَّد بذلك صرح الديانة المسيحية في انكلترا بعد مغادرة الكتائب الرومانية لشواطئها بمئتي سنة

(١٠١٩) قيام الفرنجيين وحافظة القصر

وسرى تأثير الكنيسة الرومانية ايضاً الى ما بـين الفرنج الاشداء (ف ٩٩٨) وهم طائفة من القبائل الجرمانية على الرين الاسفل . اعتنق ملكهم كلوفس الديانة المسيحية قبل سنة ٥٠٠ م بقليل وافلح بان لأَم القبائل الفرنجية معاً . وكانت المملكة التي غادرهـا تنمو نموًّا مستمرًّا مـدة تربي على قرن من الزمان قبل عهـد غريغوريوس . وبعد موت غريغوريوس كانت المملكة الفرنجية تشتمل على جزء كبير من غرب اوربا — على البلدان التي تدعى الآن هولانـدا ، وبلجيكا ، وفرنسا ، فضلًا عن القسم الغربي من جرمانيا . ولكن ما انتصف القرن السادس حتى كان مـلوك الفرنج قـد امسوا تحت سلطة أُسرة قوية من قهارمتهم دُعي اعضاؤها « بحفظة القصر » وكانوا في عين الحقيقة القوة الحاكمـة وان كان حكمهم باسم الملك . وبعد سنة ٧٠٠ م كان شارل مارتل ، حافظ القصر ، هو الحاكم الحقيقي في المملكة الفرنجيـة العظيمة ، وهو الذي طُلب منهُ ان يبرز لمصادمة القوة الجديدة التي ظهرت في الشرق . وكان هذا الشرق قد انتعش حديثاً حين اجتـازت جيوش الاسلام الى غاليا سنة ٧٣٢ م وعند هذا الحد نترك تاريخ غرب اوربا السياسي على امل ان نعود اليهِ في كتاب ثانٍ

(١٠٢٠) الثقافة الادبية في الكنيسة. محافظة الكنيسة على آداب اللغة اللاتينية

كان بدء تأسيس الكنيسة بين اهل الطبقة الجاهلة المنحطة من الناس (ف ٩٥١) فلم يكن لديها شيء من مدنية اليونان ولا علومهم ولا فنونهم لكنها بالتدريـج حصلت على ذلك بقيـام رجال على شاكلة اوغسطينوس . ويعزى الفضل الاكبر في حفظ مـا بقي من آداب اللغة اللاتينية الى مكاتب الرهبان في الاديار والى الهمة التي بذلوها في نسخ المؤلفات الادبية القديمة . واقدم ما لدينا الآن من اهم النسخ الباقية كاينيادة فرجيل (ف ٩٨١) ، هي مخطوطات مكتوبة على رق ومحفوظة في مكاتب الرهبان المسيحيين

(١٠٢١) الكنيسة الباسليكية واصلها الشرقي

وكان ارتقاء الفنون بـين المسيحيين الاولين بطيئاً . فانقضى الف سنة او تزيد دون ان يقوم بينهم مصورون او نقاشون يستحقون ان يقابلوا برصفائهم في بلاد اليونان . ولكن

الحاجة الى وجود اماكن للاجتماعات ادَّت الى نبوغ بنّائين من الدرجة الاولى بين المسيحيين الاولين فبنوا في عهد قسطنطين اماكن للاجتماع مهيبة جداً على نمط الباسيليكا التجارية القديمة لانهم كانوا تحت تأثير هذا النوع من البناء بنوع خصوصي . ولا يزال القوم يدعون هذا الضرب من البناء بالباسيليكي دلالة على شكلهِ . ولنا في الكنائس المبنية على نمط الباسيليكا ، خلاصة ذلك التطوّر الطويل الامد في هندسة البناء مدة ثلاثة آلاف وخمس مئة سنة من اقدم المناور (Clerestory) في اهرام الجيزة الى الكاتدرائية المسيحية (ش ٢٢٣)

١٠٣٢) برج الكنيسة واصلهُ الشرقي

وكذلك برج الكنيسة الذي لم يكن في الاصل الاّ جزءاً منها هو سليل برج هيكل بابل (ش ٢٢٤). فقد وجدت ديانة يسوع ، المعلم الشرقي ، ملاذاً لها في مبانٍ انيقة شرقية الاصل . وهذه المباني المسيحية (الكنائس والابراج) كالديانة التي حمتها وَوَقتها ، مثال عجيب لتطالّ العالم الاوربي الى ذلك الشرق القديم الذي منهُ ابتدأ تاريخ الحضارة والعمران ايام كانت اوربا لا تزال تتسكع في ظلمات العصر الحجري . وقد قيَّض لذلك الشرق القديم الذي بقيت حضارتهُ حيَّة بحياة اوربا ان ينهض مرة أخرى لكي يتسلط على البحر المتوسط كما تسلط عليهِ مراراً من قبل . فالى هذا النهوض الاخير في الشرق نوجهُ الافكار الآن

١٠١

انتعاش الشرق الاخير وروّاد ام اوربا الحديثة

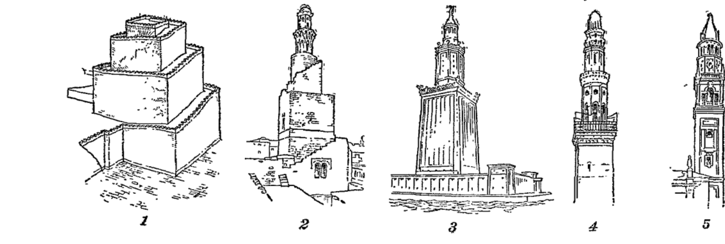
١٠٣٣) انحطاط المملكة الشرقية بعد موت يوستنيانس

كان يوستنيانس الذي احاطت مدة ملكهِ بالثلث الثاني من القرن السادس ب.م ، كما مرَّ معنا قبلاً آخر مالك عظيم على المملكة الشرقية الاّ ان المساعي التي بذلها لتوحيد المملكتين وزخرفة عاصمتهِ كانت شؤماً على البلاد فانهُ استنفد قوى مملكتهِ في سبيل استرجاع الغرب في حين كان من الواجب عليهِ استنفاد تلك القوى في الدفاع عن نفسهِ وصدّ هجمات الفرس على الحدود الشرقية مرَّةً بعد مرَّة . واستنفد ايضاً ماليتها في نفقاتهِ الطائلة على تشييد كنيسة اجيا صوفيا الفاخرة ففرغت الخزينة وسقطت الحكومة في هوَّة الافلاس ولم تنهض من سقطتها التي جلبها عليها يوستنيانس بما ارتكبهُ من الخطإِ . وبعد وفاتهِ دخلت

٥	٤	٣	٢	١
كنيسة مسيحية على نمط الباسيليكا (القرن الرابع ب ٠ م)	الباسيليكا التي شادها يوليوس قيصر في رومية (القرن الاول ق٠م)	بناية من النوع المعروف بالباسيليكا في جزيرة ديلوس شيدها اليونان في القرن الثالث ق ٠ م	بناية ذات منور في الكرنك بمصر (٢٠٠٠ ق ٠ م	اقدم بناية ذات منور في الجزيرة بمصر (القرن التاسع والعشرون ق ٠ م)

الشكل ٢٢٣ كنيسة من النمط الباسيليكي واصولها الشرقية

القسم الاوسط (الصحن) له نوافذ (A) في الجدران المرتفعة عن سائر السقف تشغل الفسحة الحاصلة من فرق العلوّ بين سقف القسم الاوسط من البناية (الصحن) وسقف الجناحين و بذلك انقسمت البناية الى ثلاثة اجنحة او مماش . وهذه الهندسة هي الصفة الخصوصية المميزة الكاتدرائيات التي من النمط الباسيليكي ٠ ونجد اوّل اشارة الى هذه الهندسة في اهرام الجيزة (ش٥٥) كما يُرى في الرسم اعلاه (١) فان شبابيك منورها (A A٠) التي بنيت في القرن التاسع والعشرين ق ٠ م لم تكن الاَّ منافذ صغيرة للنور وفي اثناء الف وخمس مئة سنة كبَّرها مهندسو البناء المصريون حتى صارت في الكرنك شبابيك عالية فاخرة (٢ ــ AA) . وفي العصر الهليني (اي بعد زمن الاسكندر) اخذ اليونان هذا الطراز من البناء وركبوه مع سطوحهم المائلة كما يشاهد هنا في البناية التجارية التي نبشها الفرنساويون في جزيرة ديلوس (٣ــ AA) . واليونان هم الذين دعوا هذا الشكل من الابنية باسيليكا (٧٣٠) ٠ وفي القرن الثاني ق٠م استعمل هذا الشكل من البناء في رومية في بناية الندوة (ش٢٤٦ B) وقد رسمنا في سلسلة الابنية اعلاه (٤) الباسيليكا التي شادها يوليوس قيصر (ش ٢٤٦ ــ E) . واخيرًا نقول ان هذه البناية الباسيليكية التجارية التي شيدها اليونان والرومان كان لها تاثير قوي في عقول مهندسي البناء المسيحيين الاولين حتى انهم احتذوا مثالها في بناء كنائسهم (٥) فلنا هنا تطور في هندسة البناء مدته ثلاثة آلاف واربع مئة سنة ابتدأ في الشرق منذ ٣٠٠٠ ق ٠ م تقريبًا وانتهى بالكنائس المسيحية في القرن الرابع ب ٠ م



الشكل ٣٣٤ برج الكنيسة المسيحية واصلهُ الشرقي

البرج كشكل لهندسة البناء ظهر اولاً بجانب الهياكل البابلية (ليس بعد سنة ٣٠٠٠ ق٠م بكثير) (ف ١٥٨) اخذهُ الاشوريون عن البابليين (ش ٨١) . وقد رسمت البعثة الجرمانية في اشور بناء اقدم اشكالهِ في مدينة اشور كما هو مبين في الرسم اعلاهُ (١) واحسن صورة باقية الى الآن تمثل هذا الشكل وتدل على دوامهِ مدى القرون، هي منارة احد جوامع القاهرة القديمة (٢) التي بناها ابن طولون في القرن التاسع للمسيح ولا يزال المعراج حتى الآن يحيط بالبرج المربع . وكان اعلى البناية فوق البرج مؤلفاً من اقسام مستديرة وكانت هذه الاضافة تقليداً لمنارة الاسكندرية القديمة (ش ١٦٧) التي كان فيها فوق البرج المربع الشكل قسم ذو ستة جوانب بني فوقهُ قسم مستدير جعل قمة للبرج (٣) وقد دام هذا النمط الثلاثي الاقسام (الاسفل مربع والاوسط مسدس والقمة مستديرة) في كثير من مآذن الجوامع الاسلامية، كالتي تشاهد في هذا الرسم في وادي النيل (٤) وقد كان لابراج الكنائس المسيحية القديمة في الشرق ولا سيما في سورية تأثير عظيم في طراز بناء المنائر الاسلامية . وكثير من ابراج الكنائس في اوربا ذات الاقسام الثلاثة المسدس في الوسط والمربع في الاسفل والمستدير في الاعلى يدلُّ جلياً على اصلها الشرقي كما يرى في المثال اعلاهُ (٥) وهو برج كنيسة مار يوحنا في بارما بايطاليا. ففي الابراج كما في المناور (ش ٣٣٣) نرى تطوُّراً بنائياً من بلاد الشرق الى بلاد الغرب . ابتداءً منذ ٣٠٠٠ ق٠م وهو يحيط بتاريخ ثلاثة آلاف الى اربعة آلاف سنة

المملكة في طور انحطاط مستمرّ

(١٠٣٤) هجوم الصقالبة . المملكة الشرقية لم تبق رومانية

وفي اثناء ذلك حصل هجوم جديد من قبائل بربرية كان داعيــة لدخول الصقالبة الى المملكة • وكان هولاء من الشعوب الهندية الاوربيــة الاّ انهم ليسوا بجرمانيين انهالوا على شبه جزيرة البلقان ووصلوا الى ابواب القسطنطينية بل الى بلاد اليونان•وبعد قليل استولوا على الارض التي لا يزالون يحتلونها في تلك الجهات•وفي هذه الاحوال لم تعد المملكة الشرقية في القسطنطينية رومانية ، اكثر مما كانت الحكومات الجرمانية الجديـــدة رومانية وان كانت سليلة الامبراطورية الرومانية بسلسلة متصلة لم تنقطع قط، بــل اصبحت بالنظر الى سكانها ومدنيتها حكومة شرقية يونانية صقلبية

(١٠٣٥) نهاية العالم القديم في الشرق

وكان جزء كبير من املاك الامبراطور الشرقي واقعاً في الشرق . وكانت هنالـــك قبائل سامية قوية مزمعة ان تهاجم تلك الاملاك وتستولي على قسم عظيم منها كما هاجمت بلاد بابل من قبل قبائل رُحّل من هذا الطراز بقيــادة سرجون وحمورابي او كما زحف العبرانيون من القفر واستولوا على مـــدن فلسطين (ف ١٤١ و١٧٢ و١٨١) وكان آخر واعظم الحركات التي قام بها الساميون الرُّحل موشكة ان تقع الآن•ولكن تاريخ الدولة الاسلامية العظيمة واتساع نطاقها يدخلاننا في عصر جديد من عصور التاريخ هو من متعلقات الكتاب الثاني الذي سيتلو هذا ان شاء الله

(١٠٣٦) ظهور رواد امم اوربا الحديثة

لو نظرنا الى خريطة العــالم في بدء القرن السابع لرأينا في وسطهــا البقية الباقية من الامبراطورية الرومانية وهي تُربي قليلاً على شبه جزيرة البلقــان واسيا الصغرى وسورية ومصر ولرأينا الغرب الذي فقدتهُ تلك الامبراطورية تتكوَّن منــهُ الممالك الجرمانية التي شيدها الشعوب الذين كانوا يُدعون قبلاً برابرة الشمال • وكانت الامبراطورية على وشك ان تخسر القطرين الشامي والمصري ببزوغ نجم الخِلافــة في أُفق الشام • وهكذا اصبحت الاقطار الغربية من الامبراطورية الرومانية ممالك جرمانية•وكانت جماهير غفيرة من الصقالبة في الشمال والغرب تتحفز للوثوب وتتوعد بمهاجمة عالم البحر المتوسط مهاجمة تشيب من هولهــا الولدان • ومن اجزاء الامبراطورية هــذه ،والامم التي تكونت حديثاً من شعوب الشمال تولّدت امم اوربا الحديثة • ففي فرنسا واسبانيا وايطاليا ،بقيت اللاتينية لغــة شعوبها التي تحوَّلت بعدئذٍ الى الفرنساوية والاسبانية والايطالية واما في جزيرة بريطانيا فكانت اللغة الالمانية التي تكلم بها الانكليز والسكسون (ف ١٠٠٥)، هي الاصل الذي بامتزاجهِ بكثير من اللاتينيــة والفرنساوية ، حصل اللسان الانكليزي وكُتب بحروف رومانيــة موروثة من بلاد اليونان وفينيقية ومصر (ش ١٢٣)

١٠٢٧) تأثير رومية الخالد في اوربا الحديثة

لقد غادرت رومية طابعها على شعوب اوربا ولا تزال آثار ذلك الطابع بادية ليس فقط في اللغات التي يتكلمون بها ويكتبون بل في كثير من شؤون الحياة المهمّة ايضاً ولا سيما الحكومة والقوانين او الشرائع • فلنا في الشرائع الرومانية التي لا تزال لها مكانة سامية في الحكومات الحديثة ، ذلك الابتداع العظيم الذي أنتجتهُ العبقرية الرومانية وكان لهُ بعد ذلك تأثير عظيم في العالم الجديث يفوق كل تأثير المنشآت الرومانية الاخرى • ومن المآثر التي خلّفتها رومية نشرها في جميع الاقطار تلك المدنية التي استتبَّ لليونان ان ينشئوها باحتكاكهم بالشرق ونفحها لها بذلك النظام الذي كان يعوزها في عهد اليونان • وقد دام هذا النظام الفريد — وان كان قد تحوَّل الى استبداد شرقي — خمسة قرون من الزمان ثابتاً امام مهاجمات البرابرة من الشمال • ولولاهُ لكانت تلك المهاجمات قلبت بلاد اليونان المختلّة الاحوال راساً على عَقب قبل الآن بامد طويل • فكانت الدولة الرومانية آخر حصن منيع للحضارة على بحر الروم تجاه اولئك البرابرة الذين هم من الاصل الهندي الاوربي • وهذا الحصن وان يكن قد تزعزع لم ينهدم من جرَّاء الغارات العدائية من خارج بل من الفساد الداخلي

١٠٢٨) بقاء جزء من الامبراطورية في القسطنطينية • سقوطها سنة ١٤٥٣ ب م

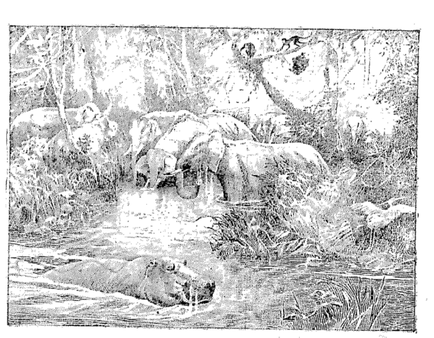
لم تسقط برمتها تلك الامبراطورية المترامية الاطراف بل بقيت منها بقية في الشرق • وكان امبراطرة القسطنطينية ينتسبون الى اوغسطس بسلسلة من الاسلاف متصلة الحلقات • وقد تبوَّأوا سرير الملك كخلفاء لهُ • وبما ان القسطنطينية أُسّست في موقع مدينة يونانية قديمة واقعة في وسط الشرق اليوناني فقد كانت دائماً يونانية في لغتها وحضارتها • ولكنها كانت في الوقت نفسهِ شرقيَّة ايضاً بدرجة عظيمة • ومع ذلك كلهِ لم تترك تقاليد الحضارة اليونانية القديمة كلها قط • ولم ينطفئ فيها قبس المعرفة كما انطفأ في الغرب ولا انحطَّت فيها الفنون كما انحطَّت فيهِ • ولمَّا انحطت رومية ارتقت القسطنطينية وصارت اعظم وابهى مدينة في اوربا تثير في زوَّارها عوامل الدهشة والاعجاب • وهذه البقية الباقية من الامبراطورية العظيمة التي ساغ لها ، بحق الخلافة ، ان تدعى رومانية ، دامت الف سنة بعد افتتاح الجرمان للغرب ولكنها في سنة ١٤٥٣ ب م سقطت في ايدي الاتراك ولا تزال في حيازتهم حتى الآن

١٠٣

التفاتة الى الماضي

(١٠٢٩) منذ قاس البعد الى الحضارة المسيحية في شمال اوربا مدة خمسين الف سنة

كان في عداد الحوادث العظيمة البارزة في تاريخ القرون الاخيرة للمملكة الرومانية، عدا الانحلال الداخلي الذي مُنيت بهِ رومية وعدا انتصار الكنيسة المسيحية ،حادثة دخول البرابرة التي كانت نتيجتها امتدادَ حضارة البحر المتوسط بفعل تأثير الكنيسة خصوصاً ، وانتقال حياة سكان الشمال من الخشونة الى المدنية . وعند هذه النقطة نرى انفسنا قد



الشكل ٢٢٥

يرينا هذا الرسم حالة اوربا في اوائل العصر الحجري قبل الآن بخمسين الف سنة على الاقل حين شرع الانسان في سيرهِ صعدًا على طريق بعيدة الشقة كثيرة المشقة سار عليها الانسان مدى الاجيال التي مرت عليهِ تارةً يتقدم في المدنية وطورًا يتقهقر

رجعنا القهقرى الى بلدان اوربا الشمالية والغربية حيث ابتدأنا اولاً درس حياة الانسان القديم. وهناك بين آثار العصر الحجري المنحطّة اخذت الكنائس المسيحية تظهر الآن . وبعد ان

كان وجود الكتب والحكومة المتمدنة قبلًا محصورًا في سواحل بحر الروم نراهُ قد اتصل الى سواحل اوربا الشمالية حيث كانت الاعشاب واشجار الغابات العظيمة نابتة على كُوَم الاصداف التي غادرها الشماليون من اهل العصر الحجري• واي مجال فسيح من سير الانسان في مضمار الرقي يتجلّى امام خيالنا حين نتصوّر اولى ابراج الكنائس قائمة بين قبور انسان العصر الحجري الضخمة

١٠٢٠) النزاع الطويل بين الهمجية والمدنية

قد راقبنا اهل اوربا في اثناء جهادهم في سبيل الارتقاء الوفاً من السنين مدة همجية العصر الحجري • وعند نهاية ذلك الجهاد ، كانت شمس المدنية آخذة في البزوغ من الشرق ورأينا حينئذ على تخوم الشرق اوربيي العصر الحجري في بلاد ايجه يقتبسون المدنية من وادي النيل وينشئون لانفسهم عالمًا متمدنًا عجيباً • ولكن طما على هذه المدنية الايجية الراقية ، التي هي اقدم مدنيات اوربا ، سيل من برابرة الجنس الهندي الاوربي الذين نسميهم باليونان (ف ٣٨٦) فاغرقها ومحا آثارها • فزالت الفنون والكتابة وصناعة بناء المنازل والسفن التي كانت قد نشأت على تخوم الجنوب الشرقي من اوربا • وتلاشت المدنية من اوربا بقدوم اليونان الرحل الذين جاؤوا من نواحي الدانيوب• ولو لم يحتفظ الشرق بالمدنية التي هو مهدها لكانت عفت آثارها بالمرّة • ولذلك اصبح في طاقة جنوب شرق اوربا الذي كان في حيازة اليونان ، ان ينهض مرّة أُخرى ويتناول من الشرق الكتابة والفنون وصناعة بناء المنازل والسفن •اشياء أُخرى كثيرة من مقوّمات المدنية . وهكذا فعل • وبعد ان وقف اليونان المدنية في اوربا مدة تربي على الف سنة غادروا همجيتهم الاولى (انظر ش ١١٩) وسعوا حثيثاً لترقية العلوم والمعارف بينهم حتى بلغوا من التهذيب والحضارة درجة سامية ورفعوا المدنية الى مستوى لم تبلغ اليهِ من قبل • ولما انقضّ برابرة الجنس الهندي الاوربي مرّة ثانية من الشمال على سواحل البحر المتوسط كان الحكم الروماني واقياً للمدنية من التدمير • وهكذا تركت بقية كافية من المدنية التي شاد صرحها الشرق واليونان لكي تعود بعد تريُّث طويل الامد فتظهر في اوربا ويتناولها العرب في الشرق ويكيفونها فتصبح كما نجدها الآن

١٠٢١) الآثار التي تتبعناها حتى بعصلنا على التاريخ التقدم

اذا بحثنا عن الآثار التي غادرها الانسان وراءهُ في غضون سفره الطويل من قفار التوحش والهمجية الى رياض الحضارة والعمران وجدنا انها فؤوس حجرية مطمورة في الحصى والرمال في انهار فرنسا ، وبقايا مواعين وادوات سكان القرى السويسرية التي كانت تقوم على عمد خشبية مركوزة في قعر البحيرات ، واهرام شاهقة ، وهياكل فاخرة تعلن اشراق شمس الحضارة والعمران على ضفاف النيل ، وتلال بارض الرافدين قد تكوّنت من انقاض المدن

الخربة التي لا يزال مخبوئاً في احشائها كثير من الواح الاجر المكتوبة ، وقصوراً في كريت باذخة حيال البحر الذي كان فيما غبر تحت سلطانها ، وهياكل يونانية بديعة النقوش تحدثنا بغير لسان عن عالم جديد–عالم الحرية والجمال الذي اكتشفهُ اليونان انفسهم ، وسكك رومانية متقنة وقنوات عجيبة برومية تشهد لها بالتفوّق ، وكنائس مسيحية تدعو الى مثال جديد للاخوّة · ولا تزال هذه المعالم حتى الآن تدل على الطريق الذي سار عليهِ اسلافنا الاولون – ذلك الطريق الذي باقتصاصنا لاثره تمكنا من الحصول على الفصول الاولى من رواية تاريخ البشر تلك الرواية المدهشة التي دعوناها العصور القديمة او التاريخ القديم

انتهى

فهرس

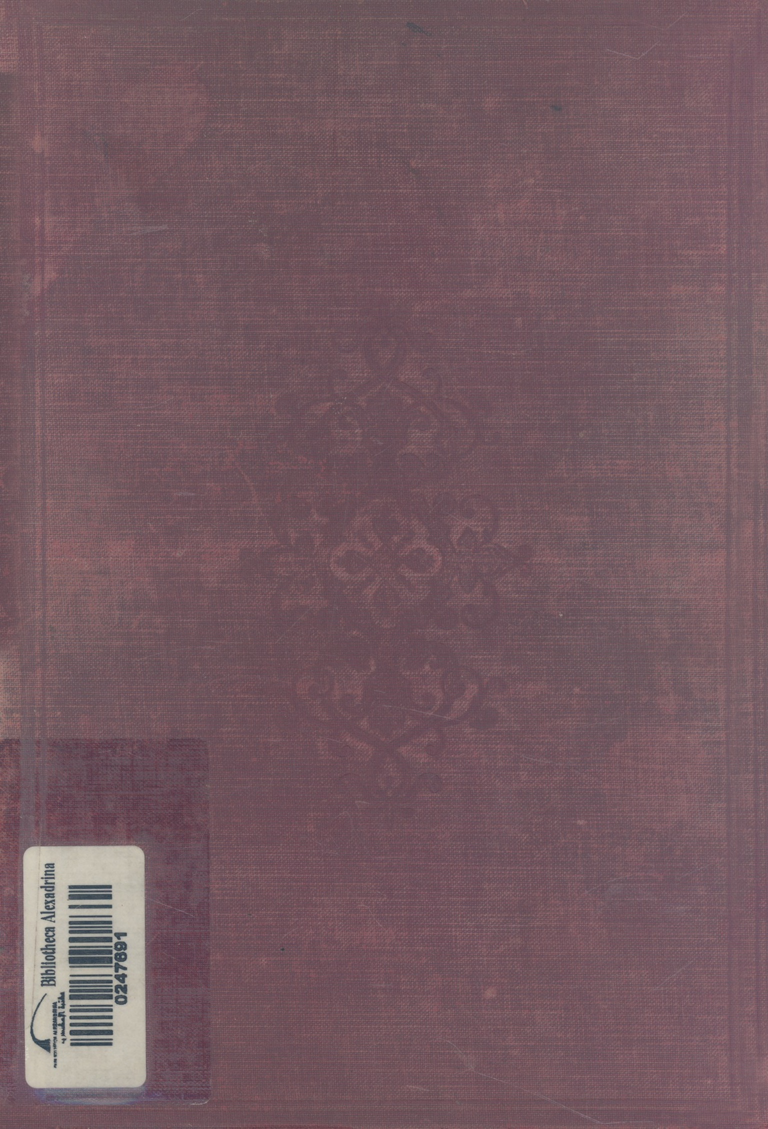
ا — الوجه

ا — الوجه

ا — الوجه

ج

ح


Bibliotheca Alexandrina
02247891